

# القسوة

شرور الإنسان والعقل البشرى

تأليف: كاثلين تايلور

ترجمة وتقديم

فردوس عبد الحميد البهنساوى

2044

# القسوة

شروع الإنسان والعقل البشرى

المركز القومي للترجمة

تأسس في أكتوبر 2006 تحت إشراف: جابر عصفور

مدير المركز: رشا إسماعيل

- العدد: 2044

- القسوة: شرور الإنسان والعقل البشري

- كاتلين تايلور

- فردوس عبد الحميد البهنساوي

- اللغة: الإنجليزية

- الطبعة الأولى 2014

هذه ترجمة كتاب:

CRUELTY: Human Evil & the Human Brain

By: Kathleen Taylor

Originally published in English in 2009

Copyright © 2009 by Kathleen Taylor

Arabic Translation © 2014, National Center for Translation

This translation is published by arrangement with Oxford University

Press

All Rights Reserved

---

حقوق الترجمة والنشر بالعربية محفوظة للمركز القومي للترجمة

فاكس: 27354554

شارع الجبلية بالأوبرا - الجزيرة - القاهرة. ت: 27354524

El Gabalaya St. Opera House, El Gezira, Cairo.

E-mail: nctegypt@nctegypt.org

Tel: 27354524

Fax: 27354554

# القسوة

شروور الإنسان والعقل البشرى

تألف: كاثلن تايلور

ترجمة وتقدم: فردوس عبد الحميد البهناوى



2014

بطاقة فهرسة  
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية  
إدارة الشئون الفنية

تايلور ، كاتلين .

القسوة: سرور الإنسان والعقل البشري/ تأليف: كاتلين تايلور .

ترجمة وتقديم: فردوس عبد الحميد البيهناوى ،

ط ١ - القاهرة: المركز القومي للترجمة، ٢٠١٤

٥٢٤ ص.، ٢٤ سم

١ - القسوة

(أ) البيهناوى، فردوس عبد الحميد (مترجمة ومقدمة)

١٧٩

(ب) العنوان

رقم الإيداع: ٢٠٨٧٨ / ٢٠١١

التقديم الدولي: 4 - 880 - 704 - 977 - 978 - I.S.B.N

طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

تهدف إصدارات المركز القومي للترجمة إلى تقديم الاتجاهات والمذاهب الفكرية المختلفة للقارئ العربى وتعريفه بها، والأفكار التى تتضمنها هى اجتهادات أصحابها فى ثقافتهم ولا تعبر بالضرورة عن رأى المركز .

# المحتويات

7	..... قائمة الأشكال البيانية
9	..... تقديم
17	..... إهداء
19	..... تصدير وشكر
	مقدمة
23	..... عن سياقات القسوة ومضامينها
	الفصل الأول
51	..... ما القسوة ؟
	الفصل الثاني
87	..... من الذي يقرر؟
	الفصل الثالث
119	..... لماذا توجد القسوة ؟
	الفصل الرابع
161	..... كيف نصل إلى مرحلة الفعل؟
	الفصل الخامس
205	..... كيف تتكون لدينا المشاعر والأحاسيس؟
	الفصل السادس
245	..... كيف نترسخ لدينا المعتقدات ؟

## الفصل السابع

283 ..... لماذا نحن قساة القلوب؟

## الفصل الثامن

333 ..... لماذا توجد العسادية؟

## الفصل التاسع

377 ..... هل بإمكاننا أن نتوقف عن القسوة؟

423 ..... اليوامش

487 ..... قائمة المراجع

## قائمة الأشكال البيانية والرسوم التوضيحية

- شكل (١) جرائم القتل في الولايات المتحدة الأمريكية ..... 25
- شكل (٢) فصوص المخ - مقطع جانبي ..... 163
- شكل (٣) فصوص المخ - مقطع وسطي ..... 164
- شكل (٤) مكعب نيكر ..... 174
- شكل (٥) لحاء الحركة ..... 189
- شكل (٦) بيان الأداء الحركي ..... 208
- شكل (٧) تركيبة القرف والاشمنزاز ..... 228
- شكل (٨) التشريح العصبى للتهديد بالاشمنزاز ..... 229
- شكل (٩) اللحاء العازل ..... 230
- شكل (١٠) صورة تهدف لإقضاء الآخر ..... 307



## تقديم

يتعرض هذا الكتاب لظاهرة القسوة باعتبارها نوعاً من السلوك الذى يجسد شرور الإنسان، وترى المؤلفة د/ كاتلين تايلور - كما جاء فى مقدمة الكتاب - أن من يرتكب أعمال القسوة ليس بالضرورة شخصاً منحرفاً أو مريضاً نفسياً أو شريراً بالفطرة، بل إن "القسوة سلوك منطقي ينفذه بشر عاديون". .. فهى تفترض أن "كثيراً من العنف لا ينبعث دون إعداد مسبق فى عقول من يمارسونه، فإننا لا نرى فعلاً كيف استعد الشخص لهذا الفعل قبل أن يحدث"؛ لذلك تحاول هنا تناول أسباب القسوة من منظور علمي يرتبط بالعقل البشرى وآلية وكيفية عمل المخ.

لكنها تؤكد أن "دراسة القسوة مشروع متشعب واتباع الأسلوب العلمى فيه محفوف بمخاطر كثيرة ويكتفه كثير من دواعى عدم الفهم"، ثم تستدرك للإيضاح: "إننى لا أدعى أن العلم لديه الإجابات المطلوبة... والموضوع غير مترابط علمياً ومنطقيًا؛ لأنه يعتمد على متغيرات اجتماعية وأخلاقية وثقافية، كما أن التغيرات الكبيرة فى المخ تحدث دون أن يستدل عليها"، أى أن المتاح والممكن من معلومات غير كامل بالضرورة.<sup>(\*)</sup>

---

(\*) اعترف علماء كثيرون بذلك، ونشر هذا بمجلات علمية عديدة فى لندن أوائل عام ١٩٩٩، عندما أعلن العلماء ومن أجروا التجارب فى المراكز البحثية فشلهم فى فهم عمل المخ. وقت نشرت جريدة الأهرام بالقاهرة ذلك يوم ١٤/١/١٩٩٩ فى مقال تحت عنوان العلماء يعجزون فشليهم فى فهم المخ.

ثم تطرح المؤلفة عدة تساؤلات وتحاول الإجابة عنها في الفصل الأول: ما الذى يمكن وصفه بفعل القسوة؟ ومن الذى يرتكبه؟ ولماذا ترتكب أعمال القسوة؟ مع الإشارة إلى السياق الاجتماعي للقسوة والأدوار التى يؤديها المشاركون فيها.

وقد حددت المشاركون بثلاثة: الفاعل، الضحية، المشاهد (من يحكم). وتتعامل المؤلفة مع القسوة فى الفصلين الثانى والثالث على خلفية ارتباطها بمبادئ الأخلاق الأساسية والوضعية، مع الإشارة إلى بعض المناهج الفلسفية وبعض الآراء والأحداث والمبررات والدوافع التى تؤدى إلى فعل القسوة.

أما الفصل الرابع فيمثل محاولة التعامل العلمى مع هذا الموضوع من منظور التعرف على الآلية البيولوجية (فى المخ) التى تدفع الإنسان للقسوة، فيما يتعلق بعلم دراسة الجهاز العصبى وعلم النفس التطورى وعلم النفس الاجتماعى. وترى المؤلفة أن الإنسان يتأثر بالعواطف والأحاسيس التى تدفعه إلى الفعل القاسى، وهذا ما تناوله فى الفصل الخامس.. كما أنها تنظر إلى "المعتقدات" باعتبارها هى التى تقود إلى الأفعال القاسية والجرائم الفظيعة، فتطرح هذا الرأى فى الفصل التالى، ثم تركز فى الفصلين التالين على نوعين من الدوافع هما نبكد المشاعر مع غلظة القلب والسادية، على التوالى. وتقدم د/ كاتلين فى الفصل الأخير خلاصة هذه الأفكار مع تساؤل حائر: هل يستطيع البشر الامتناع عن أفعال القسوة؟

وتقد بنا لى من الجزء الأول فى مقدمة الكتاب (مع ما جاء من إحصاءات وذكر لبعض المصادر) أن الكتاب يختص بالتناول العلمى للموضوع، لكننى بعد عدة صفحات لاحظت أن هناك تركيزاً واضحاً ومتعمداً على نظرية النشوء والارتقاء لداروين وعلى تاريخ المحرقة

اليهودية "الجيولوجوست" (\*)، مع الإشارة المتكررة إلى تركيا باعتبارها مسؤولة عن قتل الأرمن.

أما عن القيمة العلمية للكتاب؛ فلم تضاف كثيرا نظرا لصعوبة الموضوع، كما قالت المؤلفة في المقدمة في محاولة للتبرير. ويرتكز التعامل العلمي في الفصل الرابع على ثلاث نقاط مبدئية: ١- إن النهايات الطرفية لكل خلية عصبية تتشابك مع النهايات الطرفية للخلايا الأخرى ٢- إن الخلايا تتصل ببعضها بواسطة إرسال كهربى كيميائى ٣- إن الشق الكيميائى فى هذا الاتصال هو سوائل يسمح لها بالدخول إلى المخ (تدخل فى مكوناتها أنواع الغذاء الذى نأكله). وعلى هذه الخلفية عندما تصل المدركات الحسية إلى المخ من خلال الحواس تتفاعل معها انخلايا العصبية مكونة "بنية" أو "تمطا" عصبيا ينتقل إلى باقى الخلايا وإلى مراكز الإجابة فى المخ (فتكون ردود الفعل إما بالألم وإما السعادة)؛ وعندئذ يتخذ القرار بالفعل. وعلاوة على هذه التفاعلات العصبية داخل المخ توجد خلفية نفسية وأخلاقية واجتماعية تتمثل فى العواطف والمعتقدات والتهديدات، وكلها تؤثر فى اتخاذ القرار. وما يدفع إلى اتخاذ القرار بالقسوة أيضا هو "فكر الإقصاء"، الذى تغذيه الأنانية والجهل وتبلد الحس وتحجر القلوب أو الحاجة إلى السيطرة والتحكم.

---

(\*) هناك العديد من كتابات مماثلة تهدف إلى التذكير بالمحرقة فى مضمون دعائى: أذكر منيا مثلا كتاب الخطايا السبع للذاكرة لمؤلفه "دانييل سكاكتر" رئيس قسم علم النفس بجامعة هارفارد Daniel L. Schacter: The seven sins of Memory: Millin Company, 2002. وكتاب اخر، مثلا، لأربعة مؤلفين صدر عن مركز الترجمة بالقاهرة و عنوانه "أس الشرور". قامت بترجمته د/ سهام عبد السلام، وكتبت نقدا له د/ هدى زكريا.

وهناك صعوبات كثيرة تصادف المترجم، وهي في هذا الكتاب - بصفة خاصة - متنوعة منها: صعوبات في اللغة والأساليب وتراكيب الجمل. مع اختلافات وفروق ثقافية. فقد كان بعض المفردات له دلالات خاصة (غير معتادة) في ذهن المؤلف، كما جاءت مفردات في صياغات جديدة غير مألوفة أو متداولة، وبعض المفردات عامية متدنية لا تُكتب ولا وجود لها في القواميس مثل: rump. Buttock, arse, coprophagy وكان كثير من السياقات والتراكيب إما غير مكتمل وإما متشعب؛ فينشأ عنه الغموض أو تشتت المعاني، مما اضطرني إلى التفسير وشرح ما فيه لبس أو غموض. كما لاحظت غياب الربط السليم بين الجمل "cohesion"؛ بسبب إغفاله أو استخدام الروابط فيما لا يفيد وما لا يلزم مثل: الإكثار من استخدام However، وكذلك عدم انسياب وترباط الفكر في مجمل المضمون "Coherence". وقد كان التوافق في التراكيب "agreement" مشكلة أخرى، فأحياناً تتغير صفة الفاعل فجأة في الجملة نفسها أو تختلف الضمانر فيها؛ فيكون الانتقال من الغائب إلى المخاطب أو من المفرد إلى الجمع أو اختلاف اسم الإشارة عن المشار إليه مثلاً... إلخ.<sup>(\*)</sup>

والأخطاء النحوية صارخة أحياناً، مثل الملاحظة رقم (١١) في صفحة ٢٧٤: (This does not surely tells us). أما استخدام علامات الترقيم، وهو له دخل دلالي في السياق، فهو مربك وغير سليم، وأوضح مثال على ذلك استخدام الأقواس في أول الجملة؛ بينما يفترض أنها تأتي لتعزل جزءاً من السياق في منتصف الجملة.

(\*) في صفحات كثيرة منها ( ٥٢، ٨٧، ١٧٣، ١٦٧، ١٩٤، ١٥٩، ٢١٠، ٢١١، ٢٢٣، إلخ) وأرقام الصفحات من النص الأصلي.

ونشأت بعض الصعوبات - أيضا- من الاختلاف في كتابة أسماء الأعلام والأماكن، فقد كتب اسم الزعيم "ماوتسى تونج" مؤسس الحزب الشيوعي في الصين هكذا: Mao Zedong، بدلا من الجاء المعروف بالإنجليزية "Mao-Tse Tung". كما كتبت أسماء بعض البلدان بالألمانية مثل: "Auschwitz"، وهي بلدة صغيرة في وسط بولندا إلى الجنوب اتخذها الجيش الألماني معتقلا للأسرى عندما احتل النازي بولندا، بينما الاسم في كل الموسوعات هو: Oswiecism.

وقد مثل اختلاف الثقافة محاذير في نقل بعض الأفكار والتعبيرات خاصة فيما يتعلق بالعقائد والأديان. وقد جاء في بعض العبارات ما به مساس بالعقائد الدينية والعلاقة الإيمانية بالله سبحانه وتعالى؛ لذا حاولت نقل المعنى بأسلوب لا يمس العقائد الثابتة عن العدل الإلهي مثلاً.

كما لاحظت أنها عند الحديث عن المسيحية لا تذكر اسم المسيح إطلاقاً، بل تشير إليه بعبارة "مؤسس المسيحية" Christianity founder؛ وكأن هذا الدين هيئة أو مؤسسة. كما جاء حديثها عن "الطبيعة" من منظور أنها القوة المهيمنة على الكون أو بديل عن الخالق جل وعلا. أما ذكر لفظ الجلالة؛ فقد جاء في سياقات غير لائقة مثل: "إننا نخشى السادية بقدر وبنفس شعورنا بالخوف من الله" أو "الله لا يوافق على الإجهاض كما يدعى بعض أتباعه (his followers). والتصرف في الترجمة ضرورة في هذه الحالة حتى ينقل المترجم المعنى في تعبير يتسق مع الثقافة المنقول إليها.

وعلى الرغم من هذا الاختلاف في الثقافة، فإن التعرف على ثقافات ورؤى مغايرة يتيح لنا إدراك كيف يفكر جانب آخر في عالمنا. ولا شك أن هناك جانباً إيجابياً في التعرف على الطروحات الفكرية في الغرب

ومحاولة فهم وتقييم هذا المنطق المخالف في رؤية العالم والحكم على الأمور مع الانتباه إلى بعض القضايا التي نتمنا ومنها:

من المهم تقييم المنطق الغربي في التعامل مع الغير؛ كما ورد في هذا الطرح الواضح: "لماذا أعطى الحق لمن يطلب ويناشد وهو الأضعف ولا يملك قوة يواجيني بها؟"، (ص ٥٤-٥٥). إذ يبدو أننا لم ندرك ذلك حتى الآن، فنحن في السعي لنيل حقوقنا "تطالب وناشد"؛ وقد نسينا الأمر الإلهي الحكيم "وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة".

هذا الإصرار على وجود سبيل لا ينقطع من الكتابات التي تُذكر بالمرقة، ومن خلال أفئدة وتخصصات مختلفة؛ كان من الأدعى أن يعلمنا كيف نكتب بلا انقطاع نفاعا عن قضايانا من وجهة نظرنا وأن نُذكر بيا ونصر على التعريف بيا.

ما ذكرته الكاتبة عن ميل الثقافة الغربية إلى فكر إقصاء الآخر شيئا مهماً، وهي تشير إلى أن بريطانيا وجهت الإقصاء الآن إلى المسلمين في بريطانيا وتحول توجيه هذا الفكر إلى الإسلاميين من الراديكاليين والمتطرفين".

ما يلزم أن ننتبه إليه أيضا، هو ما طرحته المؤلفة عن نظرية نقل وتطور الثقافة "Meme Theory"، وكأنه نوع من غسيل الأدمغة بطريقة نشر الجديد من الظواهر الثقافية والأفكار ونماذج السلوك في العقول، وبين الأجيال بمنهج التكرار والمعلومات الموجبة، وعن طريق الفنون وطرز الأزياء ووسائل الإعلام والتكنولوجيا.. والسر هنا في ثلاث كلمات: التبليغ، التكرار والتأثير، ثم يأتي القبول.

غير أن هناك أموراً إيجابية في هذه الثقافة، أفكاراً علينا أن نعيها وننتبرها:

١- إن الاستعداد الذهني للنقاش والتقييم هو الذي يُحد من القلق والخطر الناشئ عن صراع الفكر المخالف للعقيدة الذاتية.

٢- إن القوة الظاهرية لأي عقيدة؛ يمكن حصارها بالمناقشات والحوار والمناظرات، مما يعمق ويوصل الثقافة داخل المجتمع.

٣- إن السادية والجرائم تنتشر بفعل العقائد الخاطئة واتجاه الإعلام ووسائل التسلية وبعض الأفلام التي تشيع وتنتشر القسوة، والكاتبة تؤكد: "نحن نشاهدها على الشاشات ثم تنتشر في حياتنا اليومية"، ومن ثم تقترح: "يجب أن يُظهر الإعلام الناس كما نريد لهم أن يكونوا".

٤- إن الوحدة وحياة الجماعة، منذ الحياة البدائية في العصر الحجري، هي ضمان القوة والسلامة للمجتمعات والشعوب.

٥- إن عدم تنفيذ الأحكام في المجتمع وانفلات السلوك له سببان: إما أن أصحاب السلطة يريدون ذلك، وإما أن البيئة كلها شديدة الفوضى لدرجة أن القوانين لا تفرض عقوبات رادعة ولا تدعمها.

٦- إن تعليم الأطفال التاريخ الصحيح هو دعامة الوعي السليم. ولا يجب تكرار سرد الأخطاء التاريخية وجلد من ارتكبوها، ولا بد أن توضع هذه الأخطاء في مضامينها لمعرفة أسباب حدوثها وكيف نتحاشاها.

إنها أفكار تستحق التأمل. حتى إن شاباً أحياناً منطلق متناقض، فإعبارة الأخيرة (التي تدعو إلى عدم جلد من ارتكبوا أخطاء تاريخية)؛ تتناقض مع ما دأب عليه من "يجلدون" المسؤولين في الغرب ويُذكرون بما

حدث على يد هتلر والجيش الألماني بإصرار لا ينقطع. كما أن المؤلفة تدعى أن "تذكر ظلم المستعمرين بعد التحرر من الاستعمار نوع من الإقصاء للآخر"، فيجب ألا نقول لهم: "إننا لن ننسى جرائمكم أيها المستعمرون"، فهي ترى أن في ذلك "بُشاً للكرهية وتأهيلاً للإقصاء"، كما تحبذ التسامح مع الجواسيس، وتؤكد: "لن يفيد القول لقد تجسستم علينا أثناء الحرب ولن ننسى ذلك". وحثتها في هذا أن "الساسة الذين ظلموا الشعوب المستعمرة والجواسيس المقصودين قد ماتوا من زمن طويل، ومن ولدوا بعد ذلك لا يمكن أن يكونوا مسؤولين عن هذه الأمور". ولا يخفى أن وراء مثل هذه الحجة أو التبرير أغراضاً أخرى.. وهذا هو ما يجب إدراكه والانتباه إليه، فما علينا إلا أن نفهم ونحلل ونقيم مضامين ثقافة الآخر.

أ.د./ فردوس عبد الحميد البهنساوى

يونيو ٢٠١١

## إلى جدتي

التي كانت تتساءل، مثل كثير ممن عاصروها ومن سبقوها،  
"كيف يستطيع الناس أن يفعلوا تلك الأشياء الفظيعة؟" ..



## تصدير وشكر

هذا الكتاب عن موضوع صعب، فإناك زخم من الخرافات والأنماط الفكرية المغلوطة والآراء التي ينشبت بها معتقوها بشدة.. ومجموع ما كتب عن هذا الموضوع ضخمة ومتداخل بشكل مربك. وأى مؤلف يُقدم على كتابة مثل هذا العمل يكون مدينا بالفضل لآخرين غيره لا حصر لهم. والذاكرة معرضة للسهو والخطأ، والأفكار تتساقب في الذهن أحيانا بعد ضياع أسماء مبدعيها الأصليين، ولو شعر أى قارئ بأننى لم أعترف بفضل من سبقونى فى الكتابة عن هذا الموضوع اعترافا كاملاً؛ فله كل الحق فى ذلك، غير أننى عرضت فى الملاحظات والحواشى مراجع وافية حتى يتسنى للقراء أن يتتبعوا ويراجعوا المصادر إذا رغبوا فى ذلك.

علاوة على هذا، لم يكن فى الإمكان الإشارة إلى كل عمل بارز من أعمال القسوة، حتى إن كان مما اقترب فى السنوات الأخيرة. وعلى الرغم من أن الأعمال الوحشية الجماعية قد تكون نادرة؛ فإن مظاهرها وسجلاتها كثيرة جداً بحيث يتعذر ذكرها جميعاً هنا. ومثال على ذلك إننى أغفلت ذكر واقعة "المختفين" نحو ثلاثين ألفاً من البشر - فى الأرجنتين<sup>(\*)</sup>. ولا يعنى هذا أننى أقلل من شأن هذه المأساة تحديداً بل إننى - بوصفى مؤلفة - أحرص على عدم محاولة تصنيف تلك الأعمال الوحشية.

---

(\*) تشير الكتيبة هنا إلى حكم أربعة رؤساء من العسكريين الأرجنتينيين بعد عزل إليزابيل بيرون واعتقالها فى ٢٤/٣/١٩٧٦؛ حيث حُلت الأحزاب السياسية وفرضت رقابة صارمة على الصحافة، وقضى على عصابات اليسار المعارضة، وقامت جماعات إرهابية من انيمين المتطرف مع العسكريين والشرطة بإلقاء القبض على المعتنمين للأحزاب الديمقراطية، حينئذ كان هناك آلاف من المختفين، وقد عُرف مصيرهم فيما بعد عند اكتشاف مقابر جماعية كثيرة بعد انتهاء الحكم العسكرى.

وأنود إلى أننى لم أتعمد إغفال أو إهمال ضحايا عديد من الأحداث المروعة التى لم يرد ذكرها على صفحات هذا الكتاب، سواء هنكوا أم كانوا من الناجين. وجمهور القراء المقصود بهذا الكتاب ليس من المحتم أو المفترض أن يكونوا من الأكاديميين أو ممن تدربوا على دراسة العلوم ومارسوها، أو من لديهم اهتمام بهذا الموضوع؛ فقد حاولت أن أجعل الكتاب ميسرا للقراءة، ولجأت إلى اللغة الاصطلاحية المتخصصة فى أضيق الحدود مقتصرة على الشروح والملاحظات الممكنة وقمت بتفسيرها كلما دعت الضرورة لذلك. وليس معنى هذا، على كل حال، أن محتوى هذا الكتاب سهل، فهو ليس كذلك؛ فوحشية الإنسان وقسوته لها حدود وتداخلات مشتركة مع العلم والمبادئ الأخلاقية ونظرية الأخلاق، والأفكار التى نتناولها هنا ليا أبعاد ومسارات عميقة. وأمل أن يجد القارئ فى رحلته مع هذا الكتاب رحلة مثيرة أكثر من أن تكون مفرعة أو مروعة.

وبالطبع هناك أيضا ما يجب أن يؤخذ فى الاعتبار وهو طبيعة مادة الكتاب ومحتواه المزعج بشدة؛ إذ يلزم إعطاء أمثلة تُذكر القارئ لماذا نيتّم بنماذج القسوة، ولكننى فكرت تفكيرا طويلاً وعميقاً فيما سوف يضمه الكتاب من أمثلة كل على حدة، فإنها هنا ليس على سبيل التظاهر نظريا بالشجاعة أو على سبيل التبرجح الذى يفاخر ويقول "انظروا مقدار الرعب الذى أتعامل معه"، ولكن نحن نرسى ونطرح مناقشة علمية على الرغم من واقعا المومج والمقيت. والكتاب ليس كنيبا على طول الخط؛ فالقارئ اليقظ دقيق الملاحظة قد يكتشف أحيانا شيئا ما يودى إلى الضحك أو يبدو كأنه نوع من الهزل أو المزاح، لكن مفتاح السر لهذا كله يكمن فى العنوان.

وأريد أن أخص بالشكر، من بين العديد الذين ساعدونى، جورج كاسيميريس (George Kassimeris) من جامعة فولفهامبتون (Wolverhampton)، وريتشارد أوفرى (Richard Overy) من جامعة إكستر، ودانيال ستاتمان (Danial statman) من جامعة حيفا، كما أشكر القراء المجهولين الذين اطلعوا على الكتاب فى مرحله الأولى لدعمهم الكبير لى ومعاونتهم فى إيضاح أفكارى، وكذلك مندوبى دار النشر

في جامعة أكسفورد الذين وافقوا على نشر الكتاب وأمدوني أيضا بمقترحات مفيدة. ومن جامعة أكسفورد هناك من قضى الوقت في عقد مناقشات رائعة عن الكتاب مثل: جون ستاين (John Stein) وبيتر هانسن (Peter Hansen). كما فعل ذلك أيضا كل من هارفي وايتهاوس (Harvey Whitehouse) وميجل فارياس (Miguel Farias) وربیکا روش (Rebecca Roache) وجاي كاها (Guy Kahane) ونك شاكلز (Nick Shackel) وكاتجا ويش (Katja Wiech).

وأقدم امتناني أيضا للعاملين بمكتبات أكسفورد - خاصة مكتبة Taylorian, Bodleian - الذين ساعدوني في الاستدلال على المراجع. ولقد ساعدت "كارولين كورسمير (Carolyn Korsmeyer) جامعة "بافللو" (Buffalo) كثيرا؛ فيما يتعلق بالفيلسوف الفرنسي لاكان (Lacan). أما سيث مايسلين (Seth Maislin) فقدم النصيحة فيما يخص قسم الفهارس. ومن قدموا دعما معنويا وتشجيعا سوزان جرينفيلد (Susan Greenfield) وبرنارد جيش (Bernard Gesch) وإيفا سيلهاروفا (Eva Cylharova) من جامعة أكسفورد، كما فعل ذلك اليسون (Alison) وديفيد تايلور (David Taylor). وقامت بتصحيح بروفات الكتاب بنقطة جيليان رايت (Gillian right)؛ فبذلت جهدا ممتدا لا يقدر بثمن. وختاما فإنتي أدين بالكثير للفريق الممتاز من العاملين بدار نشر جامعة أكسفورد (جيمس تومبسون "James Thompson" وكيث فاركوهار "Kate Farquhar" وفيل هندرسون "Phil Henderson" وجيف نيو "Jeff New" وآخرين). وأخص بشكر متميز للمحررة التي أعدت الكتاب للنشر لاثا مينون (\*)(Latha Menon): لأن توجيهاتها وتشجيعها وحماسها للعلم مثلت دعما كبيرا من خلال هذا المشروع المثير للتحدي.

---

(\* اسم هندي مؤنث ينطق بحرف التاء، في الأبجدية العربية).



## مقدمة

### عن سياقات القسوة ومضامينها

رأيت في العاصفة ليلة البارحة شخصاً جديراً بالازدراء... كأنه  
من الديدان، ومثلما قد يقتل اللاهون من صبياننا الذباب تقتلنا  
في لهوها الأرباب.

(ويليام شكسبير - الملك لير)

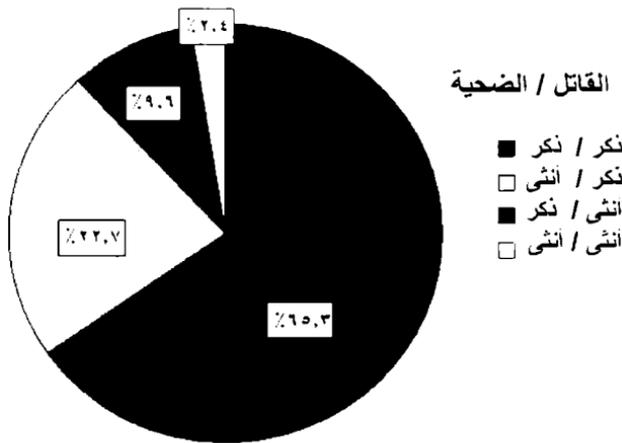
- ترجمة د/ محمد عناني

### عدم الاتساق المخيف في دورة الميلاد والموت:

البشر مخلوقات تكوينها معجز، وفي وقت سبق ظهور التقنيات الطبية للإنجاب والتناسل التي ظهرت كى تعذب الناس، وأحياناً كى تحقق الأمل لمن حرموا من إنجاب الأطفال. كان بنو آدم أعضاء فى نادى البشر بوصفهم نوعاً بيولوجياً يتكاثر فقط من خلال آلية واحدة هى ممارسة الجنس. وهناك مذهب يرى أن العمليات الحيوية الطبيعية (كدورة الحياة)؛ تفسرها نواميس الكيمياء والفيزياء، بينما عضوية الإنسان فى نادى البشر الأحياء غير مضمونة وأبعد ما تكون عن الاستقرار. فنحو ثلاثة أرباع النساء اللاتى يتحقق لهن الحمل يفقدن الحمل قبل إنراكهن أنهن قد حملن. ونحو سدس حالات الحمل التى يتركها النساء تُجيبض ولا تتم<sup>(١)</sup>. وكما يعتقد المؤمنون؛ فإن الله قد حرم الإجهاض، لكن الطبيعة كثيراً ما تفعل ذلك. وحتى فى داخل الرحم - رمز الأمان - تكون مخلوقات أو كيانات هشة ضعيفة تيددها وكزة أو ركلة، فهى دائماً على حود الموت والحياة.

وعندما يصل الأمر إلى الخروج من نادى البشر الأحياء؛ تكون الفروق والتباينات أوضح: يدخل واحد ويخرج عدد ضخم لا يعد ولا يحصى<sup>(1)</sup>؛ فهذه الكيانات البشرية المعقدة لديها فرص أكبر للقصور والخلل وسوء الداء. وما قد يحدث لحاسبك الآلى من عطل قد يحدث لأى إنسان حتى لمن يتعدى مرحلة الطفولة أو من يصل إلى سن البلوغ؛ لذا كان من الصعب تعريف أو تحديد حالة الأسوياء صحياً، فالكمال هنا صعب المنال. وكل منا لديه ما يعيبه: بعضها عيوب عضوية جسمية أو نفسية، وبعضها واضح جلى والآخر خفى غير ظاهر، ففى نسجنا وتكويننا "أخطاء" مهلكة ومميتة. وما تذكره الديانة المسيحية عن خطيئة آدم الأولى وما نشأ عنها من فساد امتد وزحف من جيل إلى جيل هو تماماً ما يحدث لبني آدم عند الكبر والشيخوخة ومعاناة الألم ثم الموت. ولقد تعرف العلم الحديث على جينات الإنسان وجعلها المقابل العلمانى لذلك؛ فالذين يحملون صفات فريدة معقدة تسبب خللاً فى أداء الجسم وتهلك الإنسان عاجلاً أو آجلاً، ويعزى ذلك إلى الإجهاد أو التوتر، وإذا ما كان الفرد من المدخنين أو شاربي الكحوليات، وإلى مقدار ما يمارسه من الرياضة. أما المشكلات البدنية والجسمانية الواضحة فى الأعضاء الداخلية بالجسم - مثل: فشل الكبد أو القلب أو السرطان، أو أى خلل فى الجهاز المناعى وأمور أخرى وراثية مثل النوبات المرضية المفاجئة أو السكتة الدماغية والاضطرابات العصبية أو الجلطات- فهى التى تسبب وتقرر النهاية للعديد منا.. وتقضى الأمراض المعدية على كثير آخرين، كما أن هناك أموراً لم يتم فهمها تماماً، وهى التى نضعها فى خانة الأمراض العقلية مثل: الاكتئاب والشيذوفرنيا وقد الشجوة للطعام (أنوركسيا) وما شابه ذلك، وتتمو أجسامنا وفق منظومة معيارية قياسية سوية ومتعارف عليها، لكنها قد تعطل عند مواجهة عوامل قهريّة ثقيلة الوطأة لا قبل لنا بها؛ فإن ما يشكل ويتحكم فى الوجود الإنسانى هو هذا الإطار المفزع والمخيف من اللا تماثل واللاتناسق غير المحكوم فى دورة الخلق والفناء. وقد يسخر الإنسان الملحد من فكرة الإله المحب الرحيم إذا فكر فى

كل هذه الأسباب الفظيعة التي تسبب موت وفناء البشر، لكن على من يسخر أو يهزأ أن يترث؛ لأن ما يبتكره الإنسان من مصائب يفوق ما تسببه له الطبيعة من أمراض<sup>(٣)</sup> .. وأنا أريد أن أستخدم هنا مصطلحاً شاملاً واضح المعانى: أن الرجال - أكثر من النساء - هم الذين يُنزلون الأذى بالآخرين بوسائل الموت العنيف. وليس معنى هذا أن النساء لا يستطعن القتال فى الحرب أو ارتكاب الجرائم أو أن يفتنن فى التعذيب البشع، فهن يستطعن ذلك، لكن العنف المهلك والمميت لا يأتى إلا من الرجال<sup>(٤)</sup>.



شكل (١): نسبة جرائم القتل حسب الجنس، جرائم العنف النمطية، كما سجلتها الحكومة الأمريكية عن عام ٢٠٠٥. وهذا الشكل المستدير يعرض النسب المئوية لجرائم القتل التي ارتكبتها الرجال ضد الرجال (القطاع الأسود ٦٥,٣%)، والرجال ضد النساء (قطاع رمادى فاتح ٢٢,٧%)، نساء ضد رجال (قطاع رمادى متوسط ٩,٦%)، ونساء ضد نساء (القطاع الأبيض ٢,٤%). بمعنى آخر كان الرجال هم المعتدون فى نحو تسعة أعشار الجرائم المسجلة (٨٨%)، وكان نحو ثلاثة أرباع من ضحاياهم (٧٤,٢%) من الرجال. وكان ١٢% فقط من القتلة من

النساء، وأربعة أضعاف من ضحاياهم (٨٠%) من الرجال.. وبمقارنة هذه النسب عن عام ٢٠٠٥ مع إحصاءات الحكومة الأمريكية عن العقود الثلاثة الماضية (من ١٩٧٦ إلى ٢٠٠٥)، وجد أن الرجال ارتكبوا ٨٨,٨% من كل جرائم القتل وأن ٧٦,٥% من كل الضحايا كانوا من الرجال. وتوجد معلومات أكثر من ذلك عن جمع البيانات وأساليب تحليلها على هذا الموقع بالشبكة الدولية للمعلومات:

<http://www.ojp.usdoj.gov/bjs/homicide/homtrnd.htm#contents>

ويُسم العنف بأحوال لا حصر لها من الغرابة؛ فالناس مبدعون ومبتكرون بشكل مذهل عندما يلجأون إلى إيذاء أو قتل غيرهم من بني الإنسان. وأنت لست في حاجة إلى القراءة عن "الماركيز دي ساد"<sup>(٤)</sup> لتدرك ذلك، عليك فقط بالاستماع إلى نشرة الأخبار أو قراءة الروايات ومشاهدة التلفاز والأفلام السينمائية، أو التعرف على أحداث التاريخ، فهناك تقرير إخباري ورد من لبنان يصف جسداً بشرياً استخرج من تحت أنقاض مبنى دمرته القنابل بأنه "تحيل في رقة الورق" وحتى لو افترضنا أن الطيارين الذين ألقوا تلك القنابل الماحقة لم يقصدوا بها هذه الضحية تحديداً، فإن النتيجة واحدة: أن هذا الجسد انتهك انتهاكاً مروعاً<sup>(٥)</sup>. وهناك رواية أخرى عُرضت سينمائياً تصف قاتلاً متعدد الجرائم بأنه يسلخ جمجمة ضحيته وهو حي ليغرف ملعقة من مخه ويطهئها<sup>(٦)</sup>. أما عن صفحات كتب التاريخ وسجلاته التي من المفترض أن تكون أقل إثارة؛ فهي تمثل مستنقعات من الدماء تموج بنماذج من المعاناة المريرة: أطفال تبتز أطرافها وتقطع أوصالها وبالغون تسلخ جلودهم أو تنزع أحشائهم ونساء يغتصبن حتى الموت، ورءوس مقطوعة لمن قاموا بتفجير انتحاري وجدت بين أشلاء ضحاياهم، وأجنة انتزعت من أرحام أمياتهم بعد القتل. وتشريح أجساد المسجونين الأحياء أو حقنهم بميكروب معد.

(٤) هو كاتب فرنسي (١٧٥٠-١٨١٤). اشتهر بهذا اللقب وسُجن لسنوات طويلة بسبب تعذيبه لعدد من النساء؛ لذلك نسبت إليه أمراض شهوة التعذيب المسماة "السادية".

وبعض الناس يُحرق أو يوضع فى غلايات أو يقطع إربا أو يذفن حيا أو يمزق بالحيوانات المفترسة أو الآلات. وبعض آخر يتم شنقه أو إغراقه أو خنقه، وقد تنزع الأظافر أو تُقيد الضحية أو تعلق وتترك لتموت، أو تفسخ وتسف بقنبلة ذرية أو لغم أو أى نوع من المفترقات التقليدية والمألوفة.

## مشكلة شرور الإنسان :

إن الذين يؤمنون بوجود إله رحيم يفترضون أن الصلاح والطيبة فى الناس - مثل المحبة والرحمة والكرم - تكفى بتدبير وتقييم القدرة الإلهية؛ كى تغطى على ما يقترفه الناس من شرور تجاه بعضهم بعضا، فسوف يعتدل الميزان ويُسوى الحساب فى مكان ما.. وقد يستعصى فهم ذلك إذا ما نظرنا إلى قدر الشرور والقسوة التى تلحق بنا أو نمارسها، إلا إذا تخيلنا وجود مخلوقات غريبة من عالم آخر تفعل ذلك، فعلينا ألا نواجههم وعلينا أن ندعوا بألا يلتقونا.. ونحن بالطبع قد نثق فى عدالة السماء بعد الموت وفى عقاب جهنم للأشرار؛ وفى هذا مواساة وراحة إلى حين، وربما تطرح بعدها تساؤلات كثيرة لا نستطيع الإجابة عنها.. ومن هذه التساؤلات: " لماذا لم يمنع الله العلى القدير والودود عباده من أن يكونوا قساة فى المقام الأول؟".

لقد أدركنا الآن أرضنا مشتركة صالحة للنقاش، فهذه مشكلة الشر التى تناهض وتبدد الدين - خاصة عند أهل الكتاب والموحدين الراسخين عقائديا ومن يصرون على الإيمان بالله العليم الحميد على مدى قرون مديدة، ولقد شوشت هذه المشكلة فكر بعض المؤمنين، وأدت بهم إلى استنتاج أن الجنس البشرى نوع فاسد جدير بالازدراء والاشمئزاز، خسيس بطبعه، ولا يناسبه سوى السياط والسلاسل والأغلال. ورأى بعض آخر اللجوء إلى لغة الغامض والملغز من أسرار الدين موقنين بأن المعاناة من الشرور؛ ضرورية للتطور والسمو الروحاني: فبعض

تناسبهم البيئة الأكاديمية البادئة، وبعض آخر يميل إلى أن الاكتواء بنار الأفعال الشريرة<sup>(٦)</sup>: باعتبارها ضرورة للتطور.

وهناك تعبير عن مشكلة الشر صاغته بطنة شريرة فى إحدى روايات "الماركيزدى ساد" .. (رواية جوستين و بطلنيا القائنة "الملحدة" مدام "دى بوا") إذ تقول:

وأجابت هذه المرأة الخطيرة: أعتقد أنه لو  
كان هناك إله لما وجد الشر على الأرض. وأعتقد  
أن ذلك قد يكون ترتيباً بإرادة من الإله ... وقد  
كان يستطيع أن يمنع... وأنا لأذى هذا التحدى  
وأفضل أن أكون من الملحدين<sup>(\*) (٨)</sup>.

القسوة إذن هى خلاصة شرور الإنسان وأصله<sup>(٩)</sup>، ونحن ندين ونستنكر الإهمال والسرقة ونعبر عن غضبنا على الكذابين والنصابين وتفزعنا بعض الممارسات الجنسية المارقة من الآخرين، ولكننا ندرك أن ما نسميه انحرافاً أو سوء تصرف؛ قد لا يصفه آخرون بهذا الوصف.. أما القسوة فتحمل بين طياتها شأناً يرتبط بالمبادئ والتعاليم الأخلاقية لا يمكن تجاوزه أو مناهضته، فالناس فى جميع أنحاء العالم تتفاعل مع القسوة بشيء من الرعب والغضب والحزن والرثاء والاسمزاز تجاه وقائع الأفعال الوحشية. وكما سوف نرى؛ فإن الفزع قد يتسنت أو يكون محظوراً فى بعض الأحوال غير أنه من الواضح أن الأحكام الأخلاقية التى تثيرها هذه الأفعال؛ تعتم على معايير واحدة تحكمها فى كل الثقافات المختلفة. ومبررات ذلك، والتى تبعث على أشد إدانة لأعمال القسوة، هى وضع معاناة الضحايا الأبرياء الذين لا حول لهم ولا قوة، والتعذيب بلا مبرر، والتلذذ والاستمتاع بذلك من جانب مرتكبي هذه الجرائم.

(٦) ترجمت عبارتياً أن أكون من الملحدين بشيء من التصرف.

وعندما نفكر في القسوة؛ تحضرنا الأفعال الأثمد خبثا وشرًا: السادية العجيبة الغربية لدى مرتكبي سلسلة من الجرائم. أو الجرائم التي تتمثل فورًا كنموذج من جرائم القتل الجماعي في الحروب. وأحد الأمثلة على ذلك هو إحدى مأسى ضياع حقوق الإنسان في القرن العشرين (وإن لم تلق ذبوعًا)؛ إنها الصراع الداخلي في جواتيمالا الذي استمر ثلاثة عقود ونصف العقد. والذي يعتقد أن اثنين وأربعين ألفًا من البشر قتلوا فيه. وقد ترى أن الناس يموتون باستمرار، خاصة في الحروب الأهلية وفي أحوال العصيان والتمرد السياسي (ربما في الدول الأقل تحضرًا من بلادنا<sup>(\*)</sup> على وجه الخصوص).. هذا صحيح لكن ليست العبرة بالأعداد ولكن بالطريقة والكيفية التي فقدوا حياتهم بها.

إن اعتقاد الجيش أن جماعات "المايا"<sup>(\*\*)</sup> حلفاء طبيعيين لعصابات المقاومة؛ أدى إلى فظاعة انتهاك حقوق الإنسان فيما ارتكبه من جرائم ضدهم. وكان في ذلك مظهرًا للقسوة البالغة والعنصرية التي أدت إلى القضاء على مجتمعات كاملة من شعب "المايا" - ومنهم الأطفال والنساء والشيوخ - بطرق وحشية أثارت الضمير الإنساني المرعى لمبادئ الأخلاق.... وهناك شواهد في معظم المذابح على أعمال بشعة

(\*) تشير الكاتبة إلى إنجلترا والدول الغربية عموماً.

(\*\*) هي جماعات من هنود أمريكا الجنوبية يسكنون مرتفعات في "جواتيمالا" في أراضٍ تمتد حتى المكسيك، وكانوا - فيما سبق - يملكون أراضى في المكسيك وجواتيمالا وهندوراس البريطانية والسلفادور وأماكن أخرى في الجنوب، وحضارة جدودهم بلغت ذروتها فيما بين عامي ٢٥٠ و٩٥٠م، وتعد من أكثر الحضارات تقدماً في أمريكا الجنوبية.

وشأنه سبقت أن صاحبت أو أعقبت موت الضحايا: أعمال مثل قتل الأطفال بالضرب المبرح ضد الحوانات أو الإنقاء بهم أحياء في حفر تحوى جثث القتلى، أو بتر الأطراف وإشعال النار بهم وهم أحياء، أو حبس الناس بعد التعذيب عدة أيام حتى الموت، وفتح أرحام الحوامل من النساء... وأفعال وحشية أخرى كثيرة، مما أدان أخلاقيا وشوه سمعة مرتكبي تلك الجرائم ومن دبروها أو أمروا بها أو من احتملوا رؤية هذه الأفعال<sup>(١٠)</sup>.

ويجد معظمنا أنه من الصعب أو المستحيل تخيل شعور الإنسان وهو يرتكب مثل هذه الجرائم ضد بشر من الأحياء، مثلما يصعب علينا فهم سادية القتل متعدد الجرائم مثل: بيتر كيرتن "Peter Kurten" الذى أطلق عليه اسم "مصاص دماء مدينة دوسلدورف" "Dusseldorf"، وإيان برادى "Ian Brady" الذى قتل عددا من المغاربة<sup>(١١)</sup> البربر، لكن القسوة تشمل أموراً أخرى كثيرة غير هذه الفظائع المقرزة؛ فالمشاحنات بالمدارس وأماكن العمل والنقد الحاد الذى يوجه للمشاهير والساسة فى وسائل الإعلام، والانتهاكات الأسرية أيضا من الممكن أن تكون بالغة القسوة أو حتى مهلكة. وهذه الأمثلة مألوفة وتشكل جانبا مؤلما من الحياة اليومية. ومن النادر ألا يكون أحدنا عرضة لتلقى بعض هذه الأشكال من القسوة المجتمعية: من يقطع استرسالك فى الحديث بتعليق حاد أو ضحكة ساخرة مكبوتة، أو يرمىك بنظرات جانبية متمرسة تدمر كبريائك. وفى الواقع، قليل منا من يتجنب أن يكون هو نفسه قاسيا بهذا الشكل.

عندما نتدبر ذلك، قد لا نرضى عن هذه النفوس المؤذية البذيئة، لكننا على الأقل نأمل فى أن نفهم لماذا نحن قساء. قد يكون فى حدود الإمكان فهم ممارسات

الشُرور والأضرار المجتمعية مثل: الإهانات اللفظية أو المشاحنات أو حتى إساءة التعامل داخل الأسرة، لكن جرائم القتل في جواتيمالا لن تدخل في هذا النطاق وتحت هذا التصنيف؛ ذلك لأنها بالتأكيد شرور شاذة ومذهلة، فهي شيء بغيبض مقيت لا يرتكبه إلا إنسان مجنون أو وحش آدمي منحرف السلوك، ولهذا نلقى بهذه النفوس الشريرة والأمور المروعة بعيدا حتى لا تلوثنا وتدنسنا.

## اثان من الادعاءات عن القسوة:

سوف أناقش في هذا الكتاب اثنتين من الادعاءات الشائعة التي يتبناها الباحثون في مجال الأفعال المهلكة التي يرتكبها البشر؛ والتي يبدو أن المجتمع بغض الطرف عنها. أول ادعاء هو أن القسوة ليست شأنًا يخص المجانين أو من يولد شريرا بالفطرة؛ بل من الأرجح أن كثيرا من السلوك الذي يتسم بالقسوة سلوك منطقي نابع من العقل، أي أنه يرتكب لأسباب تبدو وجيهة وسليمة في رأي مرتكبها وقت الفعل. فمن يرتكبها أناس مثلي ومثلك. وحتى في الحالات بالغة القسوة يدرك مرتكبوها ماذا يفعلون تماما. وبعض منهم، بعدما تسنح لهم الفرصة بإعادة التفكير، يتمسكون بشدة بالأسباب التي دفعتهم لهذا الفعل. وفي كتاب لورانس ريس "Laurence Rees" عن مدينة أوشفيتز<sup>(\*)</sup>، يحكى على لسان طبيب بيطرى شارك في الحرب العالمية الثانية أنه ساعد النازى في إطلاق النار على اليهود عام ١٩٤١، وما زال يعتقد أن ما فعله منذ ستين عاما هو الشيء الصواب والصحيح<sup>(١٢)</sup>. أما عندما يقع الإيذاء العنيف واللا منطقي في جرائم القتل مثلا التي يرتكبها مختلون عقليا، ونفكر نحن فيما فعلوه، نستبعد وصف هؤلاء بأنهم قساة؛ لأن منطقتهم مشوش ومضطرب، فالقسوة تتطوى على التعمد والاختيار الحر والمسئولية الأخلاقية لدى الفاعل.

(\*) مدينة صناعية في جنوب بولندا اتخذها الألمان موقعا لأحد معسكراتيم في أثناء الحرب العالمية الثانية.

والادعاء الثانی الذی یناقشه هذا الكتاب هو أن الفرق والاختلاف بین من ینطق الإهانات اللفظية فی وجه أحد المهاجرين ومن یضرب المهاجر حتى الموت؛ هو اختلاف فی درجة الإیذاء وليس اختلافاً فی نوع القسوة. وليس معنی هذا بالطبع أن یستوی الاثنان.. فمن الواضح فی حالات الوفاة أن هناك اختلافاً كبيراً بین المظلوم الذی یذرف الدمع بلا حدود ومن یقاوم الانخراط فی البكاء أثناء الجنائز، إلا أن كليهما واقع تحت الانفعال أو الإحساس نفسه. ويمكننا أن نتخيل فی مثل هذه الحالة سلسلة متصلة من درجات الحزن: لا حزن، حزن طفيف، أو حزن مهلك للروح.. وعلى هذا المقياس والتدرج نضع هذين المكلومين.

وبالمثل يمكننا تخيل مقياساً للقسوة، من أكثر الأفكار والأفعال اعتدالاً إلى أكثرها تهوراً<sup>(١٣)</sup>؛ أى أنه على نهاية أحد الأطراف تقع نقطة الفصل بین الذات و"الآخرين" - والآخر هو الفئة الأدنى ممن لا ينتمون لنا والتي تختلف عن "نحن"، الفئة الأعلى التي ننتمي إليها- وأقل ما يطلق على ذلك هو قولبة الآخر والتحيز ضده وفق نوع من النمطية يتبعها السخرية الظالمة والإيذاء اللفظي الموجه لأفراد الفئة الأدنى من "الأغراب" المختلفين. ولو استرسلنا في هذا التسلسل نصل إلى الإهانات اللفظية الشائنة الفظيعة والدعاية الفاضحة، والتميط العدواني، وكل أنواع وأشكال النبذ من المجتمع، ثم نجد شائعات عن جرائم وأفعال وحشية ارتكبها هؤلاء "الغير"، ثم عنف بدني متزايد ضدهم، وضد ممتلكاتهم وكل ما يرمز إليهم. ومن وقت لآخر نصل إلى الحالات النادرة التي يُدمر فيها أناس نطلق عليهم "هم" ويُقضى عليهم تماماً ببساطة؛ لأنهم "الغير" وليس بسبب أي فعل فعلوه أو لم يفعلوه.

وهذا المسلسل الخاص بتصعيد الكراهية والعدوانية يشار إليه بعبارة كثيرة منها: تملكه الشيطان، مات لديه الإحساس بالمجتمع وتبدل أو تجرد من الصفات الإنسانية.. وبهذا يتجمل الفعل الشائن<sup>(١٤)</sup>، لكنني سوف أستعمل بدلاً من تلك العبارات مصطلح "عزل الآخر" الذي يعبر عن حقيقة خلق هوة وفجوة اجتماعية

من تيلد الحس لا يمكن تخطيها بين من هم "تحن" وبين "الأخرين". وبينما أترك الآن عبارة "تملكه الشيطان" التي نيا صدى ديني، أو إحياءات "مات إحساسه بالمجتمع" وأى مفاهيم أخرى يثيرها وصف "تجرد من الصفات الإنسانية" وكل محاولات تجميل الفعل المؤذى، تبرز حقيقة أن هذه عمليات عدوانية يرى الفاعل فيها ضحيته كحيوان أو مادة غير عضوية لا تحس ولا تشعر، فهي نوع من الجماد. و"الإقصاء" مثل: البلية أو إنزال الأذى، يتألف من عمليات بيولوجية وذهنية متعددة تحدثها الجينات الموروثة، والخلفية الشخصية، والظروف الاجتماعية. ويختلف الأفراد فى تقبلهم وتأثرهم بحدّ العوامل والظروف، واختلاف درجات التأثير هو ما يجعلنا بشرا متنوعين<sup>(١٤)</sup>.

ومعنى هذا، فيما يتعلق بالقسوة، أننا عندما ننأى بأنفسنا عن حدود الوحشية - مِمَّا كان هذا شيئا مريحا- فيذا خداع للنفس، فالهوة والفارق بين "المواطن الصلب" الذى يقاوم الشر ومرتكب الفعل الشرير؛ قد تكون مطمئنة لكثير منا فى معظم الأحوال، لكنها هوة لا يمكن تجاوزها، وصدع لا يمكن رأبه فى كثير من الحالات.

## "عزل الآخر ومسلل الاستطراد فى فخ التطرف":

قال من يبشرون بالمسيحية: "ليس لكم الحق فى أن تعيشوا بيننا كيهود. وجاء بعدهم الحكام العلمانيون الذين تبعوهم فقالوا: "ليس لكم الحق فى العيش بيننا". ثم قرر النازيون أخيرا: "ليس لكم الحق فى الحياة".

(من كتاب راعول هيلبرج "Raul Hilberg" إهلاك اليهود الأوروبيين)

وأساس "الإقصاء" (التطرف) عند البشر عموماً هو الانحياز إلى المتعة والرغبة في البعد عن الألم النفسي. فنحن نسعى إلى، ونفضل دائماً، الأفعال أو الأحداث التي تبعث فينا السرور ونتجنب الأشياء التي لا تبعث على المتعة<sup>(١٦)</sup>. ومما يؤسف له، فقد يؤدي ذلك بنا إلى ما أشار إليه تشارلز ماكايه " Charles Mackay"، الذي يبحث في ويكتب عن "حماسة الإنسان"، على أنه "اعتقادنا المضلل في أهميتنا في نظام الكون وميزان الخلق"، فنحن نبالغ في مقدار عظمتنا ونقل من شأن الآخرين ونتجاهل الحقائق المؤلمة والموجة التي تحُصنا ونبالغ في الحقائق المزعجة عنهم<sup>(١٧)</sup>. ويقرر علماء النفس أن إحدى الوسائل التي نفعل بها ذلك هي "نسب الصفة والفعل لفاعله خاصة"، وبهذا تختلف أحكامنا عما إذا كان الحكم على سلوك معين، غير خاص بشخص ما، أو يكون حكمنا "بأن شخصاً ما لا يصح أن يكون في هذا الموقف" متوقفاً على إذا ما كنا نحب أو لا نحب هذا الشخص، وإذا ما كنا معجبين بهذا السلوك أم لا<sup>(١٨)</sup>. ونحن دائماً (فيما يهنا ومن يعيننا أمرهم) نرى أن النتائج التي ترضينا- كالحصول على وظيفة مثلاً- قد تُعزى إلى شخصيتنا الرائعة والملهمة وإلى مؤهلاتنا وكفاءتنا الباهرة وقدرتنا على العمل الشاق.... إلخ. أما النتائج السلبية التي لا ترضينا مثل عدم الحصول على الوظيفة؛ فسببها، كما نتوهم، هو سوء الحظ أو حقد الآخرين، أو الشعور بوعكة مفاجئة أو أن يكون هناك تحيز، أو يكون من بيده القرار مزاجه متقلب، أو يكون السبب هو غياب الممتحنين الذين أجروا المقابلة.... إلخ. وهذا الخداع "الوردى" للنفس يحمينا من الفكر غير المريح والمزعج بأننا مسؤولون عن النتائج غير المرضية لسعينا وأعمالنا، ويعطى هذا السلوك الجماعة، كما يعطى الأفراد أيضاً، غطاءً معنوياً يحميهم من لوم وتقريع الذات الذي يسبب الألم النفسي<sup>(١٩)</sup>.

أما بالنسبة إلى من لا نحبهم من الناس؛ فالصورة تختلف، فنحن نرى أن حظنا السيئ هو سبب حصولهم على فرص الارتقاء، أما أخطاؤنا غير المقصودة إذا ما ارتكبوها هم؛ فهي دليل وبرهان على سوء نواياهم وحقدهم. وعندما ننسب

البذاءة وسوء التصرف للأشخاص بذواتهم أو للحقد المتعمد بدلاً مما يمليه الموقف نفسه. فنحن نكون بذلك قد انزلنا إلى ما أسميه "فخ التطرف" أو الاعتقاد بأن هناك "ماهية أو جوهرًا" مختلفًا لكل إنسان، وبذلك نتصور أن كل فرد له شخصية جوهرية هي لب كيانه وهي التي تحكم معظم سلوكياته إن لم يكن جميعها، وهي التي لا يمكن تغييرها أو تحويلها كأنماط سلوكية<sup>(٢٠)</sup>. فعندما يُسئ الإنسان التصرف يرجع هذا إلى الخطأ أو سوء التقدير؛ فالتصرف يمكن إصلاحه، أو هذا هو ما نفترضه. لكن السلوكيات، في الواقع، من الصعب جدًا تغييرها؛ لذا عندما يأتي الناس الذين نكرهم بسلوك بعينه نرى أن ذلك بدافع من شخصيتهم السيئة، ونحكم عليهم بأنهم أقل قدرة على التغيير (أى أنهم غير قادرين على تقويم أنفسهم وإصلاح أخلاقهم)، وبذلك يكونون أكثر مسئولية عن سلوكهم "القدر". وهكذا نؤكد اختلافهم عنا وندفع بالبذاءة التي تخصهم بعيدًا عنا لمسافة تتيح لنا الراحة النفسية، كما ندفع معها بهؤلاء الأشخاص "الأخرين"<sup>(٢١)</sup>. والإنسان الذي نصفه على أنه "الأخر" هو شخص جدير بالإهمال ولا نلاحظ تعقيداته وعقده بعد ذلك؛ وكأنه كائن كارتونى شرير، تجب مضايقته واضطهاده وربما إعدامه.

ومن السمات المؤذية في طبائع البشر ميلهم إلى تصنيف "الأخر" ليس فقط في أوقات ومجريات المحن الكبيرة؛ ولكن كرد فعل على تحديات ضئيلة وأمور بسيطة في محيطنا الاجتماعي قد نعتبرها - نحن - تمس مقامنا أو كرامتنا وإحساسنا بالاعتزاز والفخر؛ لذلك فإن معظم حالات الاتجاه إلى عزل "الأخر"، كما يرى بعض البالغين الأسوياء، هي حالات هيئة ضئيلة لا توجب ما ينشأ عنها من خلفية تسبب الخلل في التفاعل الاجتماعي؛ وقد نكون نشأنا وتربينا على أن نتعامل مع الآخرين كما نريد منهم أن يعاملونا، لكن من منا يطبق هذا المبدأ دائماً؟ إننا ما زلنا نميل إلى بل نريد، إنزال الضرر بالتغيير - وأحياناً يبلغ الضرر درجة الإبادة الجماعية - بينما الصراع صغير ومباشر، ذلك فقط لأننا نحكمنا معتقدات تجاه غيرنا من الناس تدعونا إلى اعتبارهم طائفة أخرى تستحق الكره.. نحن لسنا

بحاجة إلى لقائهم، ونحن لا نعرف عنهم سوى القليل ومن مصادر كان يجب علينا أن نشك في نزاهتها؛ وعلى الرغم من هذا فقد نكون متأهين لقتلهم بطرق مفزعة بسبب ما نعتقد نحن عنهم والذواق التي تدفعنا كي نؤذيهم.

ومشكلة القسوة هي أنها قد تصبح تجسيدا عمليا للتطرف و"الإقصاء" فى أى ظرف. وهناك رأى - غاية فى التطرف- يرى أن القسوة لو كانت تشكل سلوكاً ينشأ عن أحوال وظروف معينة، فإن الصدفة وحدها هي التي تمنعنا من أن نصبح من مرتكبي الجرائم والأعمال الوحشية. ويعضد كريستوفر براوننج "Christopher Browning" هذا الرأى فى كتابه "رجال عاديون" الذى يصف فيه الفظائع التي ارتكبتها رجال الشرطة الألمان فى أوروبا الشرقية فى أثناء الحرب العالمية الثانية (وبشكل ما يعتمد ذلك على مقدار سعادة الإنسان وهو يطلق على نفسه صفة "رجل عادى" بعد أن ينجز هذه الفظائع بنجاح)<sup>(٢٢)</sup>. وقياساً على هذا فأنت أيضاً يمكن أن تكون قاتلاً مثل واحد من هؤلاء الناس "العاديين" الذين عاشوا فى أوروبا النازية. (أو فى البوسنة، أو رواندا أو أى من هذه الأماكن المألوفة التى تقع فيها المذابح الجماعية)، وقد تكون ممن يقتمون يوماً ما، أو أحياناً يوماً بعد يوم، على قتل جيرانهم "العاديين"<sup>(٢٣)</sup>. فأنت أيضاً يمكنك أن تكون قاسياً، وفى بعض الأحوال قد تبلغ قسوتك درجة فائقة تماثل فظاعة جرائم "تيمورلنك" أو "دراكولا" أو صدام حسين.

وبدلاً من أن يصدمننا هذا الاحتمال وما يثيره عن ضحالة وهشاشة سياج الأخلاقيات لدينا وضعف صلابتنا أمام الشر، سوف نذهب إلى النقيض ... على أقصى درجة فى الطرف الآخر. فبدلاً من أن نعتبر القسوة البشرية سلوكاً يمكن للناس الطيبين ذوى النفوس السوية مثلنا أن يتورطوا فيه أحياناً، علينا أن ننظر إلى القسوة وكأنها شيء متأصل فى طبيعة الأشرار لا يمكنهم تحاشيها أو الهروب منها. مثلها فى ذلك مثل احتياجهم للتنفس، وبهذا الاعتقاد نبتعد عن أنفسنا احتمال السقوط فى الشر باعتباره شيئاً لا يفعله إلا "الأخرون".

والإنسان الذي يتصرف بقسوة قد يفعل ذلك لأسباب نستطيع التعاطف معها، دون إدانة لهذا الفعل. ومثل هذا الشخص قد يظل، في اعتبارنا، "واحدًا منا". ولو كانت ميديا "Medea" في مسرحية يوروبيديس "Euripides"، أو أوريبستيس "Orestes" في مسرحية أسخيلوس "Aeschylus" (وهم من قاموا بقتل أفراد في عائلاتهم) أشخاصًا لا يتم التعاطف معهم بالمرة، إذن فلن تكون المسرحيتان محل إعجاب جمهور المسرح الذي ما زال يفتن ويسحر بهما حتى الآن. ونحن نشاهد هذه الشخصيات ونراهم كبشر على الرغم من سلوكهم الوحشي وشناعة فعلهم<sup>(٢٤)</sup>. وعلى الرغم من ذلك؛ فإننا في الواقع نرى الشخص القاسي "ليس مثلنا": لأنه لن يمكن إصلاحه، وهو لن يستطيع التحول عن خطيئته، فقسوته لها فعل انعكاسي يترد على فاعله مثل: لدغة الأفعى التي تسرى في جسد الضحية، والبحث عن أسباب تُبرر حكمًا في مثل هذه الحالات جهد بلا عائد ولا جدوى منه، فأنت تلجأ رأسًا إلى اعتقادك بأن مرتكبي أي فعل شائن أو وحشي هم نوع خاص من البشر وسلالة مختلفة عنا، لهم حامض وراثي خاص بهم، ولا يناسبهم سوى الكره والازدراء وأن يُشجبوا بقوة، ونحن نقاوم ونمتعض ونستاء حتى من محاولة فهمهم.

وتشهد الحكايات عن الأعمال الوحشية الفظيعة في أثناء الحروب على أن مذهب "إقصاء الآخر" شيء سهل ومغر، لأن هذه الحكايات تصور قسوة بالغة ومقرزة وعارية من أي مشاعر أو أحاسيس، ولا توجد محاولة شرح أو تفسير: لماذا يلجأ مرتكبو هذه الأفعال لمثل تلك الجرائم وبهذه الكيفية. وهناك مثال على ذلك وهو حكاية عن ضابط اقتحم مسكنًا وقيد رجلًا واغتصب زوجته أمام عينيه وبعد ذلك قام بذبح الزوجة وأخرج قلبها ثم قلاه في مقلاة وأوشك على أكله<sup>(٢٥)</sup>.. فماذا كان دافع هذا الضابط لهذه الجريمة الشاذة؟ لم يفسر لنا أحد ذلك، ولأن الناس مستعدون دائمًا لتقديم شروح وتفسيرات؛ فإن غياب أي محاولة هنا لاستخدام لغة "الدوافع" تصبح شيئًا مزعجًا، كي ترى بنفسك الهدف المقصود والتأثير المنشود من

هذه الحكاية<sup>(٢٦)</sup> المرعبة: قطع لحم بنى آدم ليس شينا محبباً أو مألوفاً، وهذا الضابط المجبول الذى رسم لنا هذه الصورة المفزعة من الجائز أن يكون أى إنسان، فهو يمثل شريحة كبيرة من الناس، فهل من المستحب حقيقة أن تكون كل تلك الشريحة من أكلة لحوم البشر؟ بالطبع لا! إن هذه المشاعر المزعجة، ومن ثم بشاعتها التى لا تفسير ولا علاج لها، هى الرسالة المقصود توصيلها من حكايات الحروب هذه.

والتعميم والتضليل والتركيز على الأفعال الحمقاء والطائشة هى أدوات مفيدة ونافعة عندما ننظر للعدو على أنه "الأخر" (الشرير). والعدو الذى يشرح ويفسر أفعاله يخاطر بأن تكون له وجهة نظر مقبولة منا على أن شروره شىء منطقي، أما العدو الذى لا نجد تفسيراً لأفعاله؛ فإنه يعطينا من أى هموم أو أعباء تتعلق بمبادئ الأخلاق.. وقصة أكل لحوم البشر هذه حكاها شخص من ليتوانيا إلى أحد الألمان عام ١٩٤١. وتم تحديث هوية هذا الضابط (الذى فعلها) وعرف أنه يهودى. وتنتشر مثل هذه الحكايات عن الأفعال الوحشية فى جميع الأرجاء وعلى كل الأوجه<sup>(٢٧)</sup>.

ويقدم فخ "ماهية وجوهر" الشر لدى الآخر؛ مبرراً يبعث فينا الرضى النفسى، فهو يحصر الشر والقذى عنده ويحجبه فيحفظ لنا صورتنا السارة والمبهجة عن الذات كأناس عندنا ما يبرر أفعالنا ويبرهن على أننا نتصرف وفق دوافع منطقية. والجانب السيئ فى ذلك هو أننا نتصور أن الشر أو القذارة "عنصر ثابت لدى "الأخر" ولا يتغير؛ وفاعله شيطان عرضه الأوحده هو التدمير. وهذا بالفعل يمنع أى محاولة للفهم؛ لأنه يقدم القسوة على أنها شىء غير إنسانى، بل هى فى الأساس قوة شريرة لا قيمة ولا لزوم لتفسيراتها، وإذا اعتبرنا القسوة جزءاً من طبيعة بعض البشر التى لا تتغير؛ فإن ذلك يضعنا أمام اختيارين: التخلص من الناس القساة (الأشرار) أو إزاحتهم تماماً.

ماذا سيكون مصيرنا الآن دون الهمجيين  
فهؤلاء كانوا يمثلون نوعاً من الحلول لمشكلاتنا.  
(من قصيدة "كفاي" (\*) في انتظار الهمجيين")

يشير دافيد فرانكفورتر "David Frankfurter" في كتابه عن "خرافات  
المؤامرة الشريرة"؛ إلى أن كلمة "شرير" مثل "قاس" تستخدم كي تنأى بمن تصفه  
عن جماعة الأسوياء، وكي ندفع بعيداً بكلمات ليست مثلنا ولا نريد أن نكون  
مثلها<sup>(٢٨)</sup>، حتى لا توجد مع من يماثلنا من الأسوياء. وعندما نطلق كلمة شرير على  
شخص أو كيان ما، فإن ذلك لا يعادل وصف هذا الشيء أو الشخص بأن لونه  
أحمر أو أنه "بطيء" أو "تعبان" مثلاً، ذلك لأن كلمة "شرير" تحمل بين طياتها  
إيحاءات أخلاقية سيئة ومحرجة وهي عملياً وبالفعل تدعى وتزعم الآتى:

- ١- إن هذا الكيان معاد ويهدد وجودنا وشخصنا.
- ٢- إننا لا نقوى على هذا الكيان فهو يتفوق على سلطتنا وقوتنا وقدرتنا على  
التفاوض، فلا نستطيع أن نفعل شيئاً يجعله يغير من سلوكياته.
- ٣- إن هذا الكيان ليس مثلنا بالمرّة، وعلينا عدم الاقتراب منه بوازع من  
الرأفة أو التعاطف، مثلما نتحاشى طاعوناً أو زلزالاً؛ ففي أحسن الأحوال

---

(\*) الشاعر قسطنطين كفاي "Constantine Kavafy". (١٨٦٣-١٩٣٣) شاعر يوناني سكندري المولد  
والإفريقي، عاش في مصر (بالإسكندرية) حتى وفاته ولم يشتهر دولياً ولم تُعرف أشعاره إلا متأخراً  
عندما تُرجمت من اليونانية إلى الإنجليزية عام ١٩٥٢.

لا جنوى من ذلك. وفي أسوأ الظروف فإن خطره ميّك ومميت، ونحن لا يمكننا تفسير سلوكه مثلما نفسر أعمالنا.

٤- إن هذا الكيان ليس قوة غير عاقلة من قوى الطبيعة، كما هي الحال مع الطاعون أو الزلزال، (بل إنه ربما يكون قوة خارقة للطبيعة). فيو يختار التصرف كما يريد لأن هدفه هو الإيذاء والضرر والتدمير، إذن فهو مسئول أخلاقيا عن أفعاله.

٥- ولأن التهديد الذى يمثله هذا الكيان تديد قاس وشديد؛ فلدينا ما يبرر اللجوء إلى أن نبتل أو نقضى على هذا التهديد بأى وسيلة ممكنة.

ويؤكد "دافيد فرانكفورتر" أيضا أن تصنيف أى فرد على أنه شرير؛ يخلق "حاجزا واضحا تكون بعده أفعاله لا تستحق الاحتواء ولا تستدعى التعامل معه بشيء من الشفقة"<sup>(٢٩)</sup>، كما تمنع أى محاولة للتفسير؛ لأن أفعاله موضع اتهام ومدانة وفق مبادئ الأخلاق.. فاجتياز الحاجز الذى بيننا "نحن" وبين "هؤلاء" يمثل تهديدا لنا حتى إن كان مجرد "فكرة" ترد على خاطر.

لذا يجب علينا الحذر وأن نفرق بين "التعاطف" و"التعامل" مع هؤلاء، فنحن لا نرغب فى الاقتراب من الشخص الذى نسميه "شريرا"، وحتى عملية التعاطف مع هؤلاء قد تجعل أفكارنا ومشاعرنا ممانلة لأفكارهم وأحاسيسهم، وحتى إن امتنعنا عن تقمص أدوارهم؛ فلن نفلت من تأثير الأفكار الشائعة فى علم النفس وبالذات تلك التى تقول إن الأشرار هم بالفعل أدوات وعوامل إيذاء مسئولون عن أفعالهم، ومن ثم فهم (حسب قانوننا الأخلاقى) لا بد أن يعاد تسكينهم فى منطقة غير مرغوب فيها"<sup>(٣٠)</sup>، وبالفعل تكون وسائلهم ومسئولياتهم أكبر من مسئوليتنا... لماذا؟ لأننا نستطيع دائما أن نجد الأسباب التى تبرر أعمالنا نحن وأن نجد الأعذار

التي تمنحنا حق التهاون أو التساهل الأخلاقي فيما يخص سلوكنا السيئ (وهذا ما نأمله دائما). لكن الشر لا يمكن فهمه، ولا توجد هناك - ولا يمكن أن توجد - أسباب للفهم، ولا مجال لأي تساهل أخلاقي بالنسبة إلى الأشرار. وفي الوقت ذاته، فالشر قوة حاكمة نشطة يتحتم أن ندان لأنها تنتشى وتسد بتدمير الغير دون أي خوف أو تأنيب من الضمير أو وازع من التلطف، وهذا يبرر الثأر منها. ومرتكبو الشرور أذوات حاكمة وحررة في تصرفها؛ ما يجعلنا نحن البشر الذين نميل إلى تبرير كل شيء لا نملك هذه الحررية. وقد يتعرض الأشرار للوم أو البغض أو الإبادة حتى دون ذنب، ذلك لأنهم بحق ليسوا من البشر، ولم يعنوا منتمين لبنى الإنسان.

ويمنحنا هذا الفكر وسيلتين يمكننا بهما "عزل" أعدائنا "الأغيار". يلجأ الأسلوب الأول إلى استخدام ألفاظ خاصة بهم مثل: "حاقد"، "خائن"، "خبث"، عندما نتكلم عن السحرة والجواسيس والعملاء السريين والعمالقة والشياطين والأعداء، باعتبار هؤلاء جميعا يقصدون تماما الإيذاء الذي يمارسونه. أما الأسلوب الثاني فيشير إلى تشبيههم بالقوى "المهلكة" و"الماكرة" و"المفسدة" التي ترمينا بالضعف والمرض والموت.. هم حيوانات خطيرة، أورام خبيثة كالجراثيم وما تتقله لنا- وكلها تدمر بلا تفكير أو تعقل لأن هذا من صميم طبيعتها<sup>(3)</sup>. ولعل من التناقض أن نتخيل أن عدونا قد يكون عامل تدمير أو لا يكون، أو أنه قد يكون خبيثا وماكرا لكنه ليس هو وسيلة التدمير، واللغة التي نفهمها هنا هي ضرورة أن نستخدم كلا الأسلوبين لعزل الغير وتحقير "الأخرين".

وعلى الرغم من هذا التناقض؛ فقد تتجح هذه الأساليب والوسائل في تحقيق الغرض منها، ويبدو أن كثيرا من مرتكبي جرائم القسوة لا يفهمون هذه المسألة وأساليبها، ومن يفهمون قد يرفضونها باعتبارها "مجرد كلام"، ويتقبل مرتكبو الجرائم عددا من العبارات والأساليب التي تكرر "عزل الآخر" دون تحليل فكري

متحذلق (إلا إذا كانوا شخصيات خيالية في رواية من روايات "دى ساد"، وفي مثل هذه الحالة نرحب بالجدال (بالمناقشات الفكرية). وعلى المستوى العملى، فما دمننا نتقبل الرأى القائل بأن العدو لا يلتزم بالعقلانية ولا يغير من نفسه، فلا يهمننا حقيقة إذا ما كان هذا الشرير يهاجمنا بدافع من الحق الخالص، أو كان يتصرف وفق ما جُبِلَ عليه بالسليقة من طبيعة شريرة، وسواء كان دافعه هذا أو ذلك؛ فإن القوة مطلوبة للقضاء على شرور.

ولمن يريد أن يستخدم الدعاية التى ترتكز إلى فكرة الكراهية لأغراض "سياسية"، فإن امتلاك الوصيلتين اللتين نتيجان ترسيخ "الإقصاء"؛ تجعل دعايته أكثر تأثيراً.. فإشاعة فكرة أن العدو يقصد إيداعك يجعل هذا العدو فى مواجهة مع قانون المبادئ الأخلاقية، ويتيح ذلك لك أن تبرر تصرفك ضده على أنه دفاع عن النفس أو عقاب قوم له مبررات أخلاقية.. (أى أنه ليس قسوة من جانبك) - وفى الوقت نفسه، عندما تُشيع أن عدوك مُدمر وهدام بطبيعته مثل السرطان؛ فهذا يولد ردود أفعال غاية فى الشدة والتطرف. وربما تكون الخلايا السرطانية جزءاً من جسم الإنسان الذى تصيبه، لكن هذا لا يحول دون محاولات استئصالها، أما "الأمراض الأخلاقية" (خلايا المبادئ الفاسدة) فيمكن تلطيفها وتسكينها بالحديث عن الأعداء الأشرار، كى تشجع على رد فعل ضدهم، مع التأكيد أنهم - كما نراهم نحن ومن وجهة نظرنا - كانتات من الجماد أو فاقدى الحس.

## الرحلة المرتقبة:

إذا فكرنا فى القسوة باعتبارها سلوكاً منطقياً ينفذه أناس من البشر مثلى ومثلك، فإن ذلك يمكن أن يبعث شعوراً غير مريح بالمرّة.. غير أن ذلك يجعلنا نسأل وننقصى عن الأسباب التى تجعل الناس يتصرفون بقسوة، وعندما نفهم هذه

الأسباب؛ فإن الخطوة الأولى تجاه تغيير هذا السلوك هي - بلا شك - الأصعب على المدى القصير، وهي أيضا أصعب من التسامح مع هؤلاء القساء؛ ومع ذلك فإن محاولة الفهم قد تمنحنا حولا لها تأثير أكبر - على المدى الطويل - لمشكلات شرور الإنسان، وإذا اعتبرنا القسوة المتناهية مرتبطة وناشئة عن أنواع أقل خطورة من الإيذاء؛ فإن ذلك يمكننا من فحص العوامل التي تدفعنا إلى مسلسل "الإقصاء" والتحرى عنها، وبذلك يمكننا أن نبدأ تحديد أسلوب علمي للتعامل مع القسوة.

ودراسة القسوة مشروع متشعب، واتباع الأسلوب العلمى فيه محفوف بمخاطر كثيرة ويكتنفه كثير من دواعى عدم الفهم. فقبل أى شىء يتحتم على أن أوضح أنني لا أفترح أن العلم لديه الإجابات المطلوبة، أو أن العلماء يستطيعون - من أجل ذلك - إغفال البحث فى فروع أخرى من العلم؛ ذلك لأن موضوع القسوة غير مترابط منطقيا وعلما مثل: موضوع دراسة بعض جزيئات المادة "البروتون" مثلا؛ فموضوع القسوة يعتمد على متغيرات اجتماعية وأخلاقية وثقافية وعلى نواح أخرى تخص البنية الجسدية للإنسان. وما يستطيع أن يسهم به العلم هنا هو تقسيم مفهوم القسوة إلى عدة مكونات، بعضها قد يوضع فى سياق الأطر العلمية الموجودة بالفعل، فيمدنا بشروح وتفسيرات مستجدة ومتطورة تفسر دوافع الإيذاء والجدال حول سبب استمتاع مرتكبي الجرائم بانزال الإيذاء وقتل الغير، وقد لا تقتم تفسيراً لماذا يلجأ القاتل إلى إغراق ضحيته بالبنزين ليحرقه، أو أن يدفن الضحية حتى وسطه ثم يطلق الكلاب عليه أو يطلق عليه النار.. وحتى نفهم هذه الفظاعة والوحشية يلزمنا فهم كل المضامين التى زامنت وقوع الفعل فيما كاملا.. وبعبارة أخرى يمكن القول بأن العلم مقترنا بالفلسفة ومع علوم الإنسان (الأنثروبولوجيا) وعلوم أخرى - قد يحقق الكثير بدلا من فرع واحد من العلوم. لذلك يدعو هذا

الكتاب، مع أمور أخرى كثيرة، إلى مزيد من البحث والدراسة تحت مظلة فروع كثيرة ومتنوعة من العلوم<sup>(٣٢)</sup>.

هناك خط ثانٍ يشير إلى علم محدد ستكون نتائجه مهمة لهذا الكتاب؛ وهو علم دراسة الجهاز العصبى أو دراسة آلية وكيفية عمل مخ الإنسان. فهل يستطيع هذا العلم أن يقدم لنا شيئاً أعمق من وصف تفصيلي ورسم "جغرافى" يماثل التصوير بالرنين المغناطيسى كنموذج لصورة ملونة ترتكز إلى أرقام وإحصاءات صعبة ومركبة<sup>(٣٣)</sup>. إننى أعتقد أن ذلك فى الإمكان، فعلم دراسة الجهاز العصبى أقوى من الرسم بأشعة الرنين المغناطيسى؛ لأن هذا الرسم بالرنين المغناطيسى ليس سوى مجرد صور أو تصوير سطحى، وقد يكون من الممكن أن تعطينا البحوث التى أجريت على مخ الإنسان معلومات أعمق عن أسباب تصرفه، أو آلية حركته، وأن تجيب عن تساؤلات عن كيف يحدث الفعل القاسى والوحشى، وعندما يفترن هذا مع مفهوم "التطور" الذى قال به تشارلز دارون "Charles Darwin"، فقد يمكننا حتى الإجابة عن السؤال الصعب: لماذا نكون قساة؟، ويمثل علم دراسة الجهاز العصبى محاولة حديثة فى البحث، وما زلنا لا نعلم عنه الكثير<sup>(٣٤)</sup>. ومع ذلك فحدائث العهد لا تعنى عدم الكفاءة.

وهناك أيضاً انتقادات وآراء كثيرة غالباً ما تصدر عن علماء الاجتماع بخصوص الدراسة العلمية لظاهرة العنف، وقد تجتمع على اتجاه واحد كما لو كنا نقدم كل أنواع "الكيك" بوصفة واحدة- زبد، سكر، بيض، دقيق (طحين) تخلط معا - وهذا بالطبع لا يعطى شرحاً كيف تكون هذه كعكة بالزنجبيل وتلك بالشيكولاتة أو بالفانيليا... إلخ. وعلى هذا فإن تفسير كل أنواع العنف بارتباطها بالمخ أو الجينات شيء مستحيل، لأن العنف من الناحية الاجتماعية متنوع تماماً، وقد تظهر فى جماعتين متماثلتين تماماً اجتماعياً أنماط مختلفة من العنف، وقد تقل وتتكرر

أو حتى "تفجر" على فترات متقاربة جدا<sup>(٢٥)</sup>. ما الذى يحدث هذه الاختلافات والفروق إذن؟ لا يمكن أن تكون هناك أسباب أو سمات بيولوجية أو "جينية" وراثية، حيث إنها لا تتغير بسرعة ولا تختلف كثيرا بين الناس.. فهل هذا صحيح؟

إن هذا غير صحيح، فلنأخذ مثلاً أحوال علم الوراثة، فالجينات قد تُورث سمات موروثية، لكن بمجرد وجود كائن حي جديد تعمل الجينات بصورة خاصة؛ لأن الجينات فى المخ والجسم - مجازاً - تفتح وتتغلق بصفة دائمة وبذلك تسهم ليس فقط فى إيجاد الفروق والاختلاف بين الناس؛ ولكن الاختلاف فى نفس الشخص ذاته من يوم لآخر. وتختلف العقول أيضا بدرجة كبيرة من حيث "التركيب" وكيفية العمل، فبعض العقول (المخ / الدماغ) فى الأشخاص البالغين تنقصها معالم تشريحية رئيسية- وكثيرا مما يفعله هؤلاء لا ينتبه إليه الشخص أو غيره من الناس.. فالعدوان، مهما كان مفاجئا وسريعا، لا ينبعث دون إعداد مسبق فى عقول من يمارسونه- فإننا لا ندرى قبل أن يقع العدوان فعلاً كيف استعد الشخص لهذا الفعل، ولهذا فإن التغييرات الكبيرة فى المخ تحدث دون أن يُستدل عليها، وقد نرى - فيما يبدو - أن أسبابا تافهة أو قليلة الأهمية انطلق عنها عنف فظيع، فإذا كنا سوف نفسر العنف والقسوة بمعايير بيولوجية صرفة، فإن ذلك مثل إغفال الخصائص التى تجعل "الكعكة" فى وصفتنا مميزة ومختلفة عن غيرها. أما إذا كان التفسير بمعايير اجتماعية فقط؛ فهذا مثل إعطاء "وصفة" ينقصها الدقيق.. إذن فكلا التفسيرين مطلوب<sup>(٢٦)</sup>.

ويلزم هنا أن نناقش المصطلح، لأن عنوان هذا الكتاب ليس "العنف" أو "العدوان" ولكن "القسوة". والمصطلحات الثلاثة بينها تنازع وتنافس شديد؛ لأنها تغطى أرضية متداخلة توحى بالعدوانية والإيذاء والعداء، لكن هناك بعض الاختلافات لأن كلمة "عنيف" تصف سلوكا وتذكرنا بتأثيرات الفعل السريع، القسوة

البدينية، والقدرة على التمييز. أما كلمة "عدوان" فتعبر عن القصد والنية للاعتداء. فالإنسان من الممكن أن يكون عدوانيا بشدة دون أن يؤدي الناس بالفعل، لكن "القسوة" غالبا ما تتضمن العنف المتناهي دون حتى أن يلمس الفاعل ضحاياه. ويمكن لأى فرد أن يمد ويتوسع فى مفهوم القسوة ليشمل القسوة اللفظية أو من خلال الإهمال ومنع المنفعة، وهذا التوسع يمثل امتدادا فى استخدام القسوة فيما يحدث لنا كل يوم.

وقد قسم الباحثون العدوان إلى نوعين: نوع "انفعالى" وآخر "أن" أو "آلى". ويلاحظ أن النوع الأول يأتى كرد فعل سريع وغير متحكم فيه، وهو فعل مندفع بسبب الإحباط مع الغيظ والإثارة الشديدة ونلاحظه عند الرضع والأطفال الصغار. أما النوع الثانى فهو مُتعمد وقد لا يكون هناك سبب يثيره. ويختلف النوعان فى تفسيرات علم النفس وعلم دراسة الجهاز العصبى. وأصحاب اندوانية الانفعالية (النوع الأول) غالبا ما يتغلبون عليها ويُشفون منها ولا يكونون بالضرورة مزعجين أو قساة ممن يرتكبون الجرائم. ومن جهة أخرى، فالنوع الثانى من متعمدى العدوان هم الذين يخططون لعدوانهم ويُظيرون انسمات النمطية للغلظة وهم غير عاطفيين منذ الطفولة، ويتم تشخيص حالاتهم الآن على أنهم مرضى نفسيون منذ الطفولة تكون لديهم اضطرابات سلوكية عندما يصلون مرحلة المراهقة، ثم يصبحون مرضى نفسيين بدرجة كبيرة عند البلوغ<sup>(٢٧)</sup>، وهم من المحتمل أن يكونوا قساة مع الحيوانات فى طفولتهم، ثم يرتكبون جرائم عنف عند انبلوغ- وفى بعض الأحيان قبل إدراكهم مرحلة البلوغ<sup>(٢٨)</sup>. والقسوة، بتربصها بالآخرين بالعداء المتعمد والمدير؛ تكون هى الأقرب إلى العدوان "الآلى" أكثر من العدوان "الانفعالى".

وما لم يدركه من قسموا النوعين من العدوان، هو المضمون الاجتماعى فى سياق القسوة: الانحراف الأخلاقى والاجتماعى الذى يؤدي بالناس إلى أفعالهم التى

يطلق علينا "قاسية". ولو فكرنا في غزارة المادة المتاحة عن العنف والعدوان، فإن هدف هذا الكتاب سوف ينجرّف إلى أمور أخرى في ساحة الأفكار المتعددة والمفاهيم الاجتماعية والعلمية عن القسوة<sup>(٣٩)</sup>.

بقيت إشارة أخيرة عن مجال ومساحة الأفكار التي ستطرح في هذا الكتاب؛ فالقسوة تعنى أشياء كثيرة مختلفة.. فهل يمكن لمدخل واحد فقط أن يحتوى بالفعل كل سلوكيات القسوة لدى البشر: من أولاد يقطعون أوصال الحيوانات اللا فقارية، إلى رجال يقطعون أوصال الأولاد، أو حتى الأطفال الرضع؛ من حيث المبدأ، فإنه يجب أن تكون هناك "نظرية شاملة كاملة عن القسوة" تفعل هذا بالضبط. ومع ذلك، فإن المتاح والممكن هو غير كامل بالضرورة؛ هو فقط تمهيد مبدئى عن نظرية السلوك القاسى. وأنا قد ركزت على "القسوة المتناهية"، والأفكار التي سوف أطرحها قد تنطبق على أنواع وأشكال أقل مأساوية من شرور البشر، لكن نظراً إلى ضيق المجال فسوف لا تناقش هنا.

ويتمحور مفهوم القسوة حول تسعة أسئلة.. في الفصول الثلاثة الأولى سيكون السؤال "ماذا؟"، "من"، "ولماذا": ما القسوة، من الذي يقرر ما يمكن أن نعتبره قسوة، ولماذا يتمكن الناس من هذا الشيء البغيض؟ وسوف نفكر في السياق الاجتماعي للقسوة والأدوار التي يؤديها المشاركون الرئيسيون فيها (من يرتكب الفعل، الضحية، من يشاهدها). والقسوة مفهوم يرتبط بمبادئ الأخلاق، ولهذا فسوف نفكر في موضوع القيم الأخلاقية بشيء من التعمق قبل أن ننتقل إلى مناقشة الآراء الأحدث التي نعتقد أن بإمكانها أن تمدنا بـ "الأسباب الدفينة" التي تعلل مبررات ودوافع قسوتنا.

وسوف نتعمق أكثر في الفصل الرابع في مناقشة الأسئلة من الرابع إلى السادس، متسائلين عن الآلية البيولوجية التي تدفع الإنسان إلى اتخاذ قراره بأن يتصرف بقسوة، ويعنى هذا تأمل عقول البشر بشيء من الاستطراد والإسهاب، ذلك لأن مخ الإنسان هو الوسط العام الذى من خلاله يؤثر ويتحكم كل عامل من العوامل المسببة للقسوة من الجينات إلى المخدرات إلى التوقعات الاجتماعية. وسوف نفحص في الفصل الرابع كذلك كيفية اتخاذ القرار بممارسة القسوة، وفي الفصل الخامس سنرى كيف نصل إلى حد أن نتأثر بالعواطف التى تدفعنا إلى الفعل. ثم يقدم الفصل السادس المعتقدات التى تقود إلى هذه المشاعر والأفعال.

وفي النهاية.. سنتحرى في الفصول من السابع إلى التاسع أنواع القسوة، وسيكون عنوان الفصل السابع "تبدل المشاعر التى لا تراعى ضحاياها"، وبنقاش الفصل الثامن السادية التى تقف على عذاب ومعاناة هذه الضحايا. وفي الحالتين سوف نهتم بالدوافع والآليات. ويخص الفصل التاسع الموضوعات التى تناولها الكتاب. كما يخاطب مسألة ما إذا كان بإمكاننا أن نتعلم الامتناع عن القسوة أو نكف عن أن نكون قساة.

## ملخص وخاتمة :

في بعض الأحوال، مثلما كانت الحال في أوروبا الشرقية أيام النازية، يبدو أن القسوة تصبح شيئاً عادياً، أو خطأً من الأخطاء، أو رد الفعل الذي لا يميز والصادر من أناس منحرفين في مجتمع غير سوى.. لكن هذا فيم وانطباع خاطئ. فالقسوة تنشأ في مواقف معينة لكنها لا تكون أبداً عشوائية أو دون تمييز إلا ربما في حالات الاضطرابات العقلية الشديدة، عندما يكون أحد الأشخاص قد تشبثت فكره" أو أصابته لوثة أو جنون. وحتى عندما تسود الغوغاء أو يكتسح جيش مدينة بأكملها وهو ينوي ارتكاب مذبحه، فإن القتل "يميزون"؛ فقد يترك بعض سكان القرية. وفي غمار شيوة اندم ومعتك ارتكاب الجرائم، من هؤلاء المخبولين مرتكبي العنف الجماعي، نادراً ما يقتل بعضهم بعضاً.

قد يغرينا ذلك بأن نسمى هذه الجموع المارقة "شياطين"، ولكن هذا ذاته شك من أشكال "الغيرية والإقصاء"، وهو ليس فقط سذاجة وتبسيطاً للأمور ولكنه شيء خطير ومضلل؛ فالسقوط في فخ "الماهية الشريرة" لا ينطبق على حالة الجموع ولا حتى على المجرم المنفرد، مهما كان شريراً.

ولو كانت القسوة نتاجاً خالصاً للشخصية الإنسانية؛ فإن النتيجة التي تحدثنا تفاحات قليلة عطبة وليا جينات "سيئة" أو رديئة يمكن تفاديها مبدئياً والتخلص منها إما بالتعقيم وإما بـ "القتل". وهناك رؤى طوباوية تشيع هذه الحملات الفكرية كي تتخلص من "العناصر السيئة". ومع ذلك فالقسوة تحكمها الظروف مثلما تحكمها الشخصية، والناس سوف يستمرون في اقتناف القسوة في مواقف معينة.

وقتل "التفاحات العظيمة" لن يوقف القسوة (ويعرف الطوباويون أننا لو بدأنا فعلينا أن نستمر في القتل، لأن القسوة يتولد عنها قسوة أكبر كرد فعل). إن تغيير الظروف هو فقط الذي يمكن أن يحقق ذلك.

وهذا التناقض - الطبيعة ضد الطبيعة، والشخصية ضد الظروف - هو بالفعل تبسيط شديد للأمور، فكلاهما، كما سوف نرى، يلعب دوراً شريراً في تحديد السلوك.. علينا أولاً أن نبدأ بالأساسيات، ثم نسأل ماذا نعى بكلمة "قسوة".

## الفصل الأول

### ما القسوة؟

فى صيف عام ١٩٤١، أرسل مُصور فوتوغرافى ألمانى إلى مدينة "كوفنو" الليتوانية (واسمها الآن كونس).  
وكتب يقول:

واجهت المشهد الآتى: فى ركن على اليسار فى إحدى الساحات كانت هناك مجموعة من الرجال تتراوح أعمارهم بين ثلاثين وخمسين عامًا. وكان عددهم من أربعين إلى خمسين رجلاً. كانوا قد جمعوا معا وكان يحرسهم بعض المدنيين. كان المدنيون مسلحين بالبنادق المطوقة بأحزمتهم كما يبدو فى الصور التى التقطتها لهم. وكان هناك شاب - لا بد أنه ليتوانى - قد شمر عن ساعده وأمسك بفضيب (عتلة) من الحديد، كسلاح فى يده. كان فى كل مرة يسحب رجلا من المجموعة ويضربه بالعتلة مرة أو أكثر على

مؤخرة رأسه. وبعد ثلاثة أرباع ساعة كان قد ضرب كل المجموعة (من خمسة وأربعين إلى خمسين فرداً) حتى الموت بهذه الطريقة. والتقطت سلسلة من الصور لهؤلاء الضحايا.

وبعد أن مات الجميع وضع هذا الشاب قضيب الحديد في جانب من الساحة وأحضر "أكورديون" ووقف على هذا "الجبل" من الجثث وأخذ يعزف السلام الوطنى الخاص ببلده "ليتوانيا"... أما سلوك المدنيين الذين شهدوا الواقعة (نساء وأطفالاً) فكان لا يصدق. كانوا يصفقون بعد أن يقتل كل رجل. وعندما بدأ عزف السلام الوطنى أخذوا ينددون ويصفقون. وكان فى الصف الأول نساء يحملن أطفالهن وبقين هناك حتى النهاية<sup>(١)</sup>.

## ما القسوة ؟

كلمة القسوة لها أصول قديمة. والكلمة مسجلة فى قاموس أكسفورد للإنجليزية منذ عام ١٢٢٥ قبل الميلاد. ويعتقد أنها مشتقة من كلمة لاتينية هى "crudelitas"<sup>(٢)</sup>. وهذا يبدو مناسباً؛ لأن أكثر نماذج القسوة تأثيراً نشأ فى روما فى زمن الإمبراطورية. علينا أن نفكر فى المعاناة الفظيعة والألام البشعة التى لاقاها المسيح عندما صلب، وفى الناس الذين استخدمهم الإمبراطور نيرون كمشاعل

بشرية تضيء حدائقه، وفي مباريات "المجادين" الذين يتقاتلون حتى الموت لإمتاع الجمهور<sup>(3)</sup>، لكن القسوة كانت موجودة قبل العصر الروماني. ففي ملحمة "الإلياذة" التي كتبها هوميروس عن الحرب، نجد الملك "أجاممنون" في وطيس المعركة وهو تأثر على أخيه "مينيلئوس"، لأنه رأى إنقاذ حياة رجل من طروادة مقابل الفدية. وهذه كلماته التي يعتقد أنه قالها منذ سبعة وعشرين قرنا على الأقل:

لماذا أنت رقيق شقوق هكذا يا أخى  
العزير؟ لماذا تهتم هذا الاهتمام بالأعداء؟ أظن  
أنك اكتسبت رهافة الحس من الطرواديين آء...  
أطلب من الآلهة ألا يفلت أحد منهم من مصيرد  
المفاجئ المحتوم... من تحت أيدينا. فلم يعد هناك  
أى ولد فى رحم أمه، حتى هذا لم نتركه ... فقد  
محونا كل أهل طروادة ولن تذرف عليهم الدموع  
ولن توضع شواهد على قبورهم<sup>(4)</sup>.

ماذا نقصد عندما نطلق على شخص ما أو فعل ما كلمة "قاس"<sup>(5)</sup>؟ إن الأعمال الوحشية فى الحروب، مثل واقعة مدينة "كوفنو" التى ذكرناها، هى مثال من أمثلة القسوة. ولكن ما الذى يجعلنا نشعر من مجرد التفكير فى تلك المذبحة ونسمى مرتكبها فوراً "قاساً"؟ أحد العوامل - بكل تأكيد- هو معاناة الضحايا. وقد تكون هذه المعاناة غير جسدية بالتحديد- فإناك طرق للقتل أسوأ كثيراً من الضرب على الرأس- إذا أخذنا فى الاعتبار المعاناة النفسية الشديدة، والألم النفسى المبرح الذى لا بد أنهم كابوه والذى وقع عندما كان عليهم انتظار الموت ومراقبة من يحبونهم وهم يقتلون أمام أعينهم.. إنهم كانوا يعرفون أن الموت محتم ولا مفر منه، وكانوا يرون جيرانهم فيشعرون بحالتهم النفسية ساعة مقتلهم، وهذا ما نعتبره

تعذيباً نفسياً مضنياً، ولو تقمصنا عاطفياً مشاعرهم هذه. فلن يزيد ذلك على مسحة ضئيلة أو طيف واد من عذاباتهم وآلامهم، إلا أن هذه المسحة تكفى لإصابتنا بالكآبة والحزن وتلقى على أكتافنا عبئاً عاطفياً موجعا مؤلماً مبعثه أحكامنا الأخلاقية على ما حدث.

ويمكن أيضاً أن نفكر في هذه الأحداث ليس من وجهة نظر الضحايا المكرويين؛ لكن من وجهة نظر المشاهد أو حتى مرتكب هذا الفعل، وذلك ما يثير الفزع والاشمئزاز الشديد.. فنحن قد نتخيل الدم المتناثر، والعظام المكسورة ومناظر القتلى وأصواتهم والروائح الكريهة في مواقع القتل الجماعي؛ وسوف يخلق هذا مسافة بيننا وبين مرتكب الجريمة. ونحن مفزوعون من فكرة تنفيذ مثل هذه المجازر، لكن الاشمئزاز من الفعل ربما يكون له أثر آخر؛ فقد يدفع بنا بعيداً عن التعاطف مع المبتورة أطرافهم من الضحايا إذا أودينا من مشاهدتهم.

وهناك عامل مزعج آخر هو ابتهاج وسرور مرتكب الفعل والمشاهدين الذين سايروه وشاركوه بالنظر، فهم - كما نفهم - لم يكونوا مرغمين على المشاهدة ولم يذعنوا مغلوبين على أمرهم من أسيادهم الألمان المتوحشين، لكنهم كانوا "منطوعين" مسرورين يستمتعون برؤية هذا التدمير، فلو كان هناك إرغام في هذا الموقف كنا علمنا به، لكننا لم نره، وبدلاً من ذلك كان المشاهدون قد اختاروا المشاركة بمحض إرادتهم وكان غرضهم "الإجرامى" واضحاً.

وهناك أيضاً عاملان آخران يؤثران في حكمنا هنا. أحدهما هو موضوع "التبرير"، أو بتعبير أكثر دقة "غياب التبرير"، فكما نرى يبدو أن هذه الجرائم غير مبررة وبلا أى مسوغ<sup>(٧)</sup>. وحتى لو كان الضحايا جواسيس شيوعيين أو من مؤيدي العدو الروسي، ألم يكن من الأنسب تقديمهم للمحاكمة مثل أى مدنيين مجرمين؟ بالطبع هذا كان زمن الحرب، لكن حتى في الحروب هناك قواعد ومبادئ لتسلوك

أقرت رسمياً في معاهدة هيج "Hague" ومؤتمر جنيف منذ عدة عقود قبل الحرب العالمية الثانية<sup>(٨)</sup>. وأسرى الحرب قد يُعتقلون طوال فترة القتال، والجواسيس والإرهابيون قد يُسجنون لحين تقديمهم للعدالة. أما القتل الجماعي فيبدو وحشية لا ضرورة ولا لزوم لها. هذا بالنظر إلى الخيارات الأخرى المتاحة. وفي حالة مذبحه "كوفنو"، فنحن لسنا مضطرين إلى البحث عن مبررات، أجل.. إننا نتقبل ما صادفنا وحدث بالفعل، بسبب تحيزنا المسبق ضد مرتكبي المذبحة.. النازيون أشرار وكلنا نعرف هذا. أما لو كنا نفكر في الحكم على حماقة ارتكبتها قواتنا المسلحة؛ فسوف نبحث عن دوافع ومبررات أكثر وأشمل كي نبرئ ساحتهم.

وما يُعتبر مكملاً لمسألة البحث عن تبرير لمرتكب الفعل؛ هو مسألة براءة الضحية<sup>(٩)</sup>. فالدافع المعلن عن هذه المذبحة كان الانتقام.. قيل إن هؤلاء أناس مضطهدون ومظلومون يردون الظلم عنهم ضد ظالمهم من اليهود البلاشفة. والضباط الألمان الذين حضروا المذبحة رفضوا التدخل لمنعها، وكانت حجبتهم هي أنها رد للظلم والإساءة، وقالوا إنه نزاع داخلي صرف وليس من مسؤوليتهم منعه. ومع ذلك فنحن نرى أن الضحايا باعتبارهم يهود أبرياء قتلوا بسبب جنسهم وهويتهم فقط دون أي اعتبار لأفعالهم أو انتماءاتهم السياسية. وربما أن بعضاً ممن قتلوا كانوا، من قبل، قد ساعدوا الروسيين وخدموهم. ونحن، حتى إن قبلنا ووافقنا على هذا التبرير للجريمة كانتقام؛ فإن حكمنا عليها هو أنها عقوبة غاية في القسوة ولا تتناسب إطلاقاً مع الذنب الذي قيل إنهم ارتكبوه.

وكي نوجز، فإن العوامل الرئيسية التي تدفعنا إلى أن نصف فعلاً معيناً بأنه "قاس" تتمركز حول محورين، الأول يخص المشاركين في الفعل: دوافع مرتكب الجريمة وسلوكه (سلوك غير مبرر، يراعى مصلحة طرف واحد فقط، فعل ذاتي إرادي، فعل مدبر عن قصد - مقصود). والثاني يخص تقدير حالة الضحية (بريء،

لا يستحق الأذى، تحمل تجربة المعاناة). ويوجد عامل ثالث بالطبع وهو من شاهد الجريمة ويتصدى لإصدار الحكم الأخلاقي عليها. وإذا تم تجميع كل هذه العوامل يمكننا القول بصفة عامة: "إن القسوة هي سلوك ذاتي غير مبرر ومتعمد كى يسبب معاناة وألما لضحية أو ضحايا لا يستحقون ذلك"، وعلاوة على هذا فإن السلوك القاسى غالبا لا يؤثر فى المشاهدين وربما لا يثير الاشمئزاز والاحتقار تجاه مرتكبي الفعل، ومع التوحد والتقمص النفسى لمشاعر الضحايا قد يشعر المشاهد بالغثيان والقرف من أحوالهم. هذا تعريف عملى، إن أردت، للقسوة: هى محاولة نفهم كيف يدرك جميور العامة هذا المفهوم، وقد يلزم إدخال تعديلات على هذا التعريف، لكن فلنقبله الآن، هذا باعتباره يعطينا نقطة للبداية والانطلاق.

وإذا لم تناسبنا هذه المفاهيم والتعريفات فسوف ننحو نحو تعريفات أخرى لبعض حالات من القسوة.. يعنى أنه لو كانت الضحية تستحق ما يجرى لها؛ فقد نعتبر الفاعل ينفذ "عقابا". وفى حالة لو لم ينشأ عن القسوة ألم ومعاناة (أى لو وجد الألم وكانت الضحية تستمتع به كما هى الحال فى الماسوشية- وهى الحالة المرضيه للتلذذ بالتعذيب). وفى حالة لو كان الفاعل منحرفا ولديه دوافع ونوايا للقسوة لكن أعماله لا تتسم بالجرم وليس هدفه ضحية بالمعنى المألوف. وفى أحوال أخرى يحدث الألم والمعاناة عرضا ودون قصد، أو يكون من باب الإهمال واللامبالاة وليس بذافع القسوة. وهناك أنواع من الإيذاء القيرى المقصود تنتقل فيه تهمة القسوة من الشخص الذى يقوم بالفعل إلى الشخص الذى يجبره على هذا الفعل. وختاما نقول إنه فى حالات من السلوك القاسى قد يوجد الفعل أو "عدم الفعل" المتعمد، فالشخص الذى يسبب الألم لغيره قد يفعل ذلك بإيذانه فعلا، وقد يمنع عنه وسائل التخفيف من المعاناة ولا يرفعها عنه وهذا هو عدم الفعل المقصود.

ومن الواضح أن القسوة مفهوم يرتبط بمبادئ الأخلاق، كما يرتبط بشدة بمفاهيم أخلاقية أخرى مثل: العقاب، مبررات الفعل، المسؤولية تجاه الآخرين. وفي الفصل التالي سوف نتعامل بإمعان وتدقيق مع هذه المبادئ الأخلاقية التي تدعم الخلق القويم (الفضيلة). أما الآن فعلينا أولاً أن نفحص مكونات تعريفنا السابق للقسوة بشيء من الاستفاضة والإسهاب، بدءاً بفكرة المعاناة.

### القسوة سلوك يسبب المعاناة والألم:

القسوة، عموماً وقبل أي شيء، هي إنزال الأذى والضرر بشخص ما. وتعريفات القاموس توضح أن فعل القسوة يسبب الألم، وأن الفاعل لا يبالي ولا يهيمه ذلك، وعلى أسوأ الفروض فإنه يرضيه المعاناة التي يحدثها هو / أو هي للغير. ويُعرف قاموس أكسفورد للغة الإنجليزية القسوة بأنها "تية إنزال الأذى والألم بإنسان، والابتهاج بذلك مع اللامبالاة بالألم أو تعاسة الآخرين، مع عدم الرحمة وجمود القلب خصوصاً عند ارتكاب الفعل". ويعطى القاموس مثالاً على هذا الفعل<sup>(١٠)</sup>. ويلاحظ أن هذا التعريف يتراوح بين النية والفعل، حيث تنم "القسوة" عن صفات شخصية مثلما تنم عن سلوك.. أى أن طبيعة الأشخاص، مثلها مثل أفعالهم، يُطلق عليها كلمة "قسوة". ويأتى السلوك فى المرتبة الأولى، فتمتد كلمة 'قاس' من الفعل إلى الفاعل ثم تُطرح لنا نماذج نمطية عن الأشخاص القساء (مثل مظهرهم المتوحش، تعبيراتهم القاسية، أو سمعتهم الذميمة). ويمكننا أن نتوسع بمفهوم القسوة إلى ما يدور داخل "الدماغ" - إلى الأفكار، الرغبات، والنوايا - ولكن حتى هذه يجب أن تكون واضحة ويفصح عنها سواء من داخل الأفراد (باعترافهم) أو من "الخارج"، كما يُعبّر عنها بالأفعال أو بالكلام.. عندئذ فقط يمكننا وصفهم والحكم عليهم بأنهم قساء.

ولن نحكم على فرد بأنه قاسٍ إلا إذا كان سلوكه بالضرورة يسبب الألم، وهذا يتطلب ضحية رقيقة الحس واعية تستطيع التعبير عن هذه التجربة. فالإنسان الآلى (الروبوت) بطبيعته صُمم بحيث لا يستطيع معاناة الألم أو وصفه، وبذلك لن يكون ضحية للقسوة.. وهكذا الحال مع الحاسب الآلى مثلاً، أما الحيوان فيمكنه معاناة الألم بدرجات متفاوتة، لكننا لسنا متأكدين فيما يخص الحشرات أو المفصليات (اللافقاريات) أو العنكب أو البكتيريا ولا يهمننا ذلك! وعلى حد علمنا؛ فإن الخبير رقم واحد فى هذا العالم كله - إذا ارتبط الأمر بالمعاناة- هو الإنسان سواء مارس القسوة وتسبب فيها أم تلقاها... فى كلتا الحالتين.

والمعاناة - كما ترى الماسوشية- ليست الشعور بالألم فقط، فهى تتضمن نوعين من الأذى (الألم الجسدى والمعاناة النفسية)، وكره هذه التجربة القاسية هو الذى يجعلنا نتجنب أسبابها فى المستقبل؛ فالضحية عندما يفرض عليها تحمل الأذى باعتباره شيئاً مؤلماً وغير سار سوف تحاول إنهائه وعندما تُعطى الضحية ملطفاً للألم تستطيع أن تفرق بين الألم والمعاناة، فيقال إن الألم مازال موجوداً لكنه لا يؤذى (نفسياً) بقدر كبير<sup>(١١)</sup>، فالعواقير الملطفة تقلل من كراهية الألم والضيق به، ثم، تبعاً لذلك، يقل الإحساس بالمعاناة فيصبح الألم وكأنه إرهاب بسبب مرغوب فيه مثل: تعب العضلات بعد الجلسة الأولى من نظام للتمارين الرياضية، وهذا نوع من الألم يمكن احتمالها أو حتى الاحتفاء به كدليل على الإنجاز وتحقيق الغرض الرياضى المنشود.

وبعض الناس غير مؤهلين للشعور بالألم إطلاقاً، وهذا يسبب تشوهاً أو خللاً فى الجينات لكنهم مع ذلك مؤهلون للمعاناة<sup>(١٢)</sup> تحت ضغط نفسى إذا ما هددوا بالموت أو القتل مثلاً، والمعاناة تحدث لعدة أسباب: الخوف من الموت، والتفكير فى الألم الذى يسببه موتهم لبعض من يحبونهم، أو الحزن على ضياع آمال ومشاريع

مستقبلية. والناس، وربما أنواع أخرى من المخلوقات أيضا، يتعذبون ويقاسون المعاناة دون تجربة الآلام الجسدية، فكما يدرك أى إنسان ممن عرفوا الحرمان - أو جربوه بأنفسهم - فهناك شخص يستسلم للاكتئاب إذا قطع علاقته مع شريك، أو حُرم فجأة ممن يحبهم. إن الآلام الجسدية ليست ضرورة حتمية للمعاناة. وشرور المجتمع، التى لا تترك كدمات أو سحجات أبدا على جلد الضحية، يمكن أن تسبب بؤسا عاطفيا غامرا وشديدا، أما الفعل القاسى فهو ما يسبب معاناة شاملة غير مرغوب فيها، تصاحبها آلام مرئدة، تحمل أذى، ويصحبها اكتئاب وحرز.

### القسوة شىء إرادى ومتعمد:

الحكم على فعل ما بأنه قاس؛ غالبا ما يكون للإدانة الأخلاقية وكمقدمة لعقاب الفاعل، سواء كان العقاب الذى ينزل به هدفه رغبة الانتقام أم دفعه لأن يُغير من سلوكه. ويُطبق العقاب على من يمارسون القسوة فقط لتعزيز المسؤولية الأخلاقية لديهم لأنهم؛ اختاروا إيذاء الغير، هم فاعلون تصرفوا بإرادتهم، وسببوا النتائج المؤلمة التى بسببها يحاكمون<sup>(١٣)</sup>، ونحن نعتبر الشخص المريض عقليا غير قادر على فهم ما فعله، وهو يحتاج إلى علاج بدلاً من العقاب، بينما الشخص الذى يُجبر على فعل قاس (ربما بعد تهديده بالقتل)؛ يعتبر أقل مسؤولية عن فعله خلافا لمن يختار بمحض إرادته أن يكون قاسيا. ويختلف المعنى الدقيق لكلمة "مسئول" و"غير مسئول" باختلاف الثقافات المتعددة وباختلاف الأزمنة والعصور؛ فإن أحد علماء النفس وأحد أعضاء جماعة المحققين فى قاعة المحكمة نفسها قد يُصدران أحكاما مختلفة جدا فيما يتعلق بمسؤولية المتهم عن أفعاله. ويبدو أن تصنيف أنواع البشر فى ثقافات الدول المختلفة يطلق لتقييمات غير محددة: هذا "قوى" أو "جيد" أو "شرير"

أو "مدنس". كما يبدو أيضا أن الناس في جميع أنحاء العالم يتوهمون أنيهم، وأناس آخرون غيرهم، يملكون القدرة على اختيار ما سوف يقومون به من أفعال.

والفعل هو قوة الاختيار الإرادية.. إنه مستوى من امتلاك السلوك والتحكم فيه كما هو متعارف عليه لدى البشر البالغين الأصحاء، فالفعل هو أيضا امتلاك القدرة، بشرط ألا يعوقها شيء مثل المخدرات أو المرض، على أن نجتهد كي نغير العالم حتى نرضى رغباتنا واحتياجاتنا. وهذا يعطينا استقلالاً مؤكداً لأننا بأفعالنا نسبب حدوث الأشياء التي لم تكن لتحدث بدوننا، فهي قد حدثت بفعلنا ولأننا نقصد ذلك ونرغب فيه. إننا نحن، وليس الصدفة أو أى أسباب خارجية، الذين نخلق الأحداث ونتعمد الفعل.

والبشر عادة يستخدمون لغة "الفعل"، وما نفكر فيه هو معتقداتنا ورغباتنا ونوايانا والأسباب التي تدفعنا للفعل. وعندما نشرح ونفسر كل ما يفعله الناس، وربما الحيوانات؛ فإننا نقدم التفسير على أساس الهدف من الفعل: هو أراد أن يساعدها "أو" هم تصوروا أن "الأرنب" كان يعاني من الوحدة؛ فقد تعودنا أن نصور الأحداث في حدود ما نرى أنه يخدم ويحقق غرضاً أو قصداً ما، بينما الحال ليست كذلك؛ ففي تاريخ البشرية يرجع الناس الكوارث الطبيعية لخطأ قوة خارقة مثلاً. فنحن غالباً ما نتخيل الأشياء، إذ نرى وجوهاً مرسومة في السحب، ونتصور الأنوار الأمامية للسيارة كعيون، ونظن أن هناك أهدافاً ومقاصد لدى أى أشياء صغيرة غير عاقلة تتحرك أمامنا<sup>(١٥)</sup>. وما يطرحه علم النفس الاجتماعي هو أننا منحازون بشدة تجاه تفسير الفعل في حدود الهدف من ورائه، وأول ما يقودنا لذلك هو ما تختص به عقولنا وما تنتهجه وتعودت عليه من تأمل وتحري تعبيرات الوجه وحركات الجسم وأنماط الحركة التي تؤنيها الكائنات الحية<sup>(١٥)</sup>.

ويبدو أن التفكير بمنطق الرغبات والأهداف كعوامل تسبب الفعل لا يقتصر على النوع الإنساني فقط؛ فهذا بالطبع قد يلائم ويتمشى مع كل الأحياء؛ فيهدف الذئب من قتل الإيل - نوع من الغزال - أنها تريد أن تأكلها، والسلمون تدفع بأجسامها فوق سطح البحر لأنها تريد التكاثر، حتى الأشجار يقال إنها مسنولة عن طرح البذور لأنها تريد البقاء. ومع ذلك فلا يعتقد أن الأشجار تملك الفهم الكبير للعلاقات السببية. وعلى النقيض من ذلك، فالكائنات الأكثر تعقيدا كالإنسان، قدراتها تتعدى مجرد خلق الأحداث فهي تمتلك شيئا من المعرفة عن العلاقات السببية الأرقى (المتحلقة) والمتعلقة بالنتائج - أي أنها تملك القدرة على أن تُقرن أسباب الفعل أو عدم الفعل بالنتائج<sup>(11)</sup>. والبشر، بصفة خاصة، بارعون في هذه القدرة على تسجيل الأسباب وربطها بالنتائج. فنحن نتبأ بالأحداث ونغير سلوكنا تبعا للنتائج.. وقد نتبأ بسلوكنا وسلوك الآخرين أيضا، وذلك بتفكيرنا المؤسس على الهدف من الفعل.. أي أننا نخمن بناء على طريقة تفكيرهم ونستدل على سلوكهم من تخمين دوافعهم وأهدافهم.

### السلوك القاسي يُحكّم عليه بالدوافع والنوايا:

إن النظر إلى القسوة على أنها "سلوك غير مبرر يسبب المعاناة لمن لا يستحقها"؛ يؤكد أن الدوافع على الفعل يفسرها من يرتكب الفعل ومن يشاهده والضحية التي يقع عليها. والنظر إلى الدوافع مسألة مهمة عند الحكم على القسوة، ذلك لأن الضرر الذي يقع بالصدفة أو بفعل قوة من قوى الطبيعة قد يحدث ألما وضيقا، لكنه يتقصه الدافع الضرورى، ونحن غالبا ما نبرره بسوء حظ الضحية أو بأنه قدر عاثر أو أن هذا الشخص "منحوس"، وعندما نريد الحكم على أذى يقع من بعض على آخرين؛ فإن سؤالنا الأول غالبا ما يكون لماذا يفعلون ذلك؟، نحن

نبحث دائما عن أسباب وتفسيرات، مستخدمين إطار نسبة الفعل للفاعل.. أى لغة الاعتقاد بأن الأفعال لها غرض ودوافع فى عقل ونفس من يفعلها.

وتقييم دوافع الآخرين يمكن أن يكون سيلاً، فنحن نعرف فوراً أن الرجل الذى يقترب منا غاضباً يريدنا أن نغادر حقله، لكن فى حالة أفعال القسوة قد يكون هذا صعباً أو مستحيلًا؛ فإن مرتكبي الجرائم قد يرفضون، أو يكونون عاجزين عن شرح ما بداخل أنفسهم، وقد يزعمون أنهم ليس لديهم فكرة لماذا فعلوا ما فعلوه<sup>(١٧)</sup>. وكما سوف نرى فهذا مبعثه عدم تعاون الأشرار بطبيعتهم أو بسبب تعاطى المخدرات أو الخمر. وقد يكون أحد الأسباب أن الحركة التى يبدأها الشخص بوعى منه تُطلق بعدها سلوكاً تلقائياً أكبر وأعنف وغالباً ما يتم بسرعة؛ حيث يبدو أنه فعل عدوانى، والشباب الذين يتعقبون ضحية قاصدين أن يخيفوه قد تقسر عقولهم هذه المطاردة كنوع من "الصيد"، وبناء على ذلك يعاملون الضحية كما لو كانت "قريسة"<sup>(١٨)</sup>، ويصبح الدافع ضبابياً وغير مفهوم.

ومن الممكن أيضاً أن تتغير وتتبدل الدوافع بسرعة مريكة، فالرجل الذى يطعن خصمه فى معركة أو شجار ربما يكون قد بدأ القتال قاصداً الدفاع عن شرفه وكرامته، أو رداً على إهانة، وعندما لا يرد غريمه يصبح غرضه هو "أن يعلمه درساً".. أما إذا أمسك غريمه بألة (سكين مثلاً) فسيصبح غرضه هو النجاة ببذنه.. فما هو الدافع إذن الذى أدى إلى طعنه بسكين؟ يُفترض أنها كل هذه الدوافع المتغيرة، والأفعال التى لها دافع واحد أسهل فى تفسيرها، لكن الأفعال التى تسهم فيها دوافع كثيرة تكون معقدة ويلزمها تفسيرات أكثر.

تخيل أنك تعمل ضمن هيئة محلفين فى محاكمة جريمة قتل، والمذنب امرأة تعترف بأنها قتلت الضحية، لكنها ترى أنها فعلت ذلك لأنه هم باغتصابها، فهل كان

سيفعل هذا حقاً؟ وما الدليل على ذلك؟ هل توجد في جسدها كدمات، وهل كان هناك جيران سمعوا صراخها؟ وهل اشتكت من تهديدات مسبقة منه؟ هذه هي مهمتك: أن تخصص حقائق هذه القضية وتحاول "تخلها"، بما في ذلك الحقائق النفسية المتعلقة بدوافع المتهم، وإذا ما كان غريباً أم أن له سابق معرفة بها. ويمكنك استخدام تجاربك المتراكمة عن كيف يتصرف الناس حتى تستدل على دوافعها لهذه الجريمة؛ ربما يكون الدفاع عن النفس كما ذكرت، وربما تكون هي واقعة تحت تأثير "غسيل مخ" من تراث ثقافي يمثل رغبة عنيفة في القتل، ولذا اختارت رجلاً اختياراً عشوائياً واخترعت هذه القصة وألقتها عن مهاجمته لها. وربما تكون إنسانة غريبة تحكمها دوافع بدائية للعنوان، وقد لا تكون أى من هذه الاحتمالات شائعة في العالم والمحيط الذى تكونت فيه أفكارك، فالرجال فى أغلب الأحيان هم الذين يهاجمون النساء، وحتى لو كان هناك دليل مخالف لذلك؛ فإن فكرة الدفاع عن النفس ستكون هى القاعدة التى سينطلق منها تخمينك عن دافع هذه الجريمة.

وفى الممارسات الفعلية تختلط الدوافع، كما أنه من الصعب تحديدها فهى أحياناً غامضة وغير واضحة لدى أصحابها، فلو كانت هذه المتهمة تعرف الرجل قبل قتله فسيكون عمك باعتبارك واحداً من هيئة المحلفين معقداً جداً وستفكر كثيراً: ما حقيقة التاريخ السابق بينهما؟ ما مشاعرها تجاهه؟ هل لديها أسباب تجعلها ترغب فى موته أو إيذائه؟ ربما كانا مرتبطين وتركته هى بسبب عنفه، أو أنه تركها بسبب كذبها المستمر. وقد يكون هناك دليل إثبات لادعاء كل منهما أو لا يوجد دليل كاف لأحدهما حتى يثبت ادعاءه، وقضايا الاغتصاب - بصفة خاصة - تبرهن على قصور قدرتنا على اكتشاف حقيقة الدوافع، وهذا هو السبب الأساسى لأن تكون معدلات الإدانة قليلة جداً على الرغم من أن الدعاوى المرفوعة تتزايد.. وجريمة الاغتصاب، دون شك، فعل قاس؛ فإن لم يكن هناك دليل على أن الضحية تألمت

وعانت بنينا علينا أن نحاول طرح دوافع الجانيين، وذلك بأن نسأل أنفسنا كيف كنا سنتصرف نحن ولماذا؟ وقد نسأل من نعرفهم، وما سوف نعرفه قد يُتاح من خلال تجربة مباشرة أو من دراية بأنماط ونماذج ثقافية مألوفة، أو حتى من وقائع الاغتصاب التي تسردها القصص الروائية مثلاً.

ونعود إلى تعريفنا المبدئي للقسوة على أنها فعل يتضمن سلوكاً مقصوداً ومتعمداً، ومن يتصرف بقسوة من الناس لا بد أنه قصد ذلك الفعل ورجب فيه، وكلنا لديه رغبات مماثلة ونوايا لم نرغب أبداً في تنفيذها. ولفسيفياً سوف تأخذنا مسائل الدوافع والنية هذه إلى مياه عميقة جداً، ونحن نبحت عن تعريف مدقق للقسوة نستطيع به أن نميز ونفرق بدقة بين ما هو قاس وما هو غير قاس، لكن هذا التجريد الفلسفى ليس هو ما نريد أن يتأوله هذا الكتاب؛ بل سيكون تركيزنا على كيف يُستخدم مفهوم القسوة فى حياتنا اليومية، لذا علينا أن نتنازل عن، وأن ننحى جانباً، الحاجة إلى الدقة المتناهية<sup>(14)</sup> وبدلاً من ذلك علينا أن نفكر فى القسوة على أنها تراكمات من مكونات متعددة يمكننا أن نبلورها حول محورين هما الضحية ومرتكب الفعل. وسوف يسهم هذان العنصران فى حكمنا على أى فعل (هل هو نوع من القسوة أم لا)، فهما حاضران فى أى قضية أو حالة من حالات القسوة بأشكالها ودرجاتها المتنوعة. كما يمكننا المزج بينها وفق أى نظام شعورى أو هاجس فكرى فى تراكيب قد تصبح واضحة؛ فنتيح لنا وصف السلوك الذى يعيننا بأنه فعل قاس أو غير ذلك.

وتشمل العناصر المتعلقة بالضحية مسألة ما إذا كانت المعاناة حقيقية والألم مضمّن، وقد يكون الضحايا أبرياء (مثل الأطفال)، وقد يكونون أبرياء بصفة خاصة لعدم ارتكابهم أى فعل خاطئ يبرر إيذاءهم (مثل التبرير المضحك الشائع: "جدودك تسببوا فى أذى لجدودى وأنا الآن أوديك" وقد يكون الضحايا حتى مذنبين؛ ومع ذلك

فإن جرمهم لا يتناسب مع العقاب الذي وقع بهم إذا ما كان عقابهم قاسياً وغير مألوف" كما ورد في نص الدستور الأمريكي. فلنفكر في ثلاثة اقترفوا جرائم التعذيب الآتية: رجل "يسع" طفلاً، ابن زوجته، بسيجارة. والثاني، ممن يؤمنون بمبادئ التوراة عن عقاب المذنبين. يحرق الرجل الأول الذي لسع الطفل بالسيجارة؛ والثالث يُعَدل مبدأً "العين بالعين" ويستخدم "قاذفات اللهب" بدلاً من السيجارة، وهذه قسوة بالغة من النوع الذي يمارسه الخمير الحمر "Khmer Rouge"، والذي يسميه عالم الأنثروبولوجي الكسندر لابان هينتون "Alexander Laban Hinton" - "الرأس بالعين"<sup>(١٠)</sup>. والموقف الأول حالة قياسية معيارية من القسوة؛ لأن الطفل بريء تماماً، وقد يتفق معظم الناس على هذا، أما الاتفاق على الحالتين التاليتين فسيكون أقل كثيراً؛ لأن عنصر براءة الضحية غير مؤكد؛ فإني أرى أن المجرم الثالث سيحكم عليه أنه أشد قسوة من الفاعل الثاني لأن وسيلته أكثر إيذاءً.

وتتداخل وتندمج العوامل المرتبطة بالفاعل أيضاً والتي نحكم بها على درجة وشدة العمل كفعل قاسٍ، سواء بالنقص أو بالزيادة، وتشمل هذه العوامل مكونات ثلاثة: وجود المبرر أو غيابه، وضوح التبرير، واعتبار العمل فعلاً إرادياً، ويتصل المكون الثالث بقصد الفاعل ورغبته. والدافع للفعل مهم غير أنه يختلف تقييمه بقدر كبير؛ فعندما يقول القاتل مثلاً: "أنا فقط قصدت أن أخيفه لا أن أقتله"؛ فقد يحكم عليه بأنه أقل قسوة من شخص آخر يقول: "أردت أن أراه وهو يحتضر وأسمع صراخه وهو ينادي على أمه". وعلى سبيل النقاش يمكننا أن نفترض، أو حتى أن نعتبر، عبارات هذين القاتلين كعرض أصيل لدافعيهما، وأنها، لا هذا ولا ذاك، ليسا مختلين عقلياً أو نفسياً، وأن ضحاياهما لم يكونوا أقرباء بالدرجة التي تمكنهم من المقاومة. وأنهما لم يُدفعاً قهراً لقتل ضحاياهم. وأنهما أثناء ارتكاب الجرم كانا بمفردهما مع الضحايا ولم يكونا تحت أي تهديد من أي نوع.. ومع كل هذه الافتراضات يتوجب

السؤال: هل قصد القاتلان فعل فعلتَيْهما هذه؟ وإذا كان دافعيهما هو الإيذاء فيل كانا يقصدان القتل فعلاً؟

وباعتبارى أكاديمية منطية يجب على أن أجيب: هذا يعتمد... ! لأن كلمات مثل: "يقصد"، "طوعي"، "إرادي"؛ هي كلمات زلقة ومراوغة؛ وأحد أسباب ذلك أن معناها يعتمد على كيف ومتى نستخدمها، فالقاتل الأول ربما لم يقصد ارتكاب جريمة عندما بدأ العراك مع ضحيته، وفي أثناء القتال الذي بدأ بإرادته تطورت الأمور إلى طريقة ما ارتكب بها جريمة قتل، أي ربما تكون الجريمة قد حدثت عرضاً وبالصدفة، وفي هذه الحالة لنا أن نتساءل: هل كان الفاعل، وهو في كامل عقله، بإمكانه التنبؤ بتبأ بإمكانية وقوع الجريمة وأن يتخذ الخطوات التي تمنع حدوثها حتى يتحاشاها؟ وبمعنى آخر... هل يتحتم عند الحكم والتقييم ألا تقنيم دوافع المجرمين فقط ولكن وعيهم بالنتائج المترتبة على الفعل أيضاً؟ والمجرمون القساة يتبأون، ويجب عليهم بالفعل التنبؤ، بأن سلوكهم سوف يؤدي ضحاياهم؛ لكنهم على الرغم من ذلك ارتكبوا جرائمهم، لذلك يجب علينا أن نعدل تعريفنا المبدئي الذي طرحناه؛ فالقسوة هي سلوك إرادي طوعي لا مبرر له يسبب معاناة وألماً (يمكن التنبؤ بهما) لضحية أو ضحايا لا يستحقون ذلك.

ويمكننا الإيضاح وتبسيط كل هذا التعقيد بطريقة أخرى؛ هي استخدامنا مفهوم "أهداف الفعل": أي الأشياء، الأحداث، أو الحالات التي يرغب فيها الفاعل أن يتصرف بأسلوب يعتقد أنه سوف يساعده في تحويل هدفه من تخيل أو أحلام إلى حقائق، فالفعل الذي قام به القاتل الأول كان هدفه الأوحده والأهم هو تخويف الضحية، وليس تحقيق موته. أما القاتل الثاني فيبدو أنه كان عنده هدفان على الأقل: قتل ضحيته جعله يصرخ ويتألم وهو يموت.. وقد يكون للأفعال أكثر من هدف.

والأهداف قد تتطلب عدة أفعال كي تتحقق. وتختلف الأهداف من حيث أهميتها بالنسبة إلى الفاعل مقارنة بأهدافه الأخرى وبمرور الوقت، كما هي في الحالة الأولى مع الرجل الذي بدأ بالقتال وكان هدفه سهلاً وبسيطاً لكنه تغير وتعدّد - وقد يستمر الهدف في بعض الأحوال لوقت طويل قبل التغير وفي بعضها الآخر يتغير في لحظة - ويعتمد هذا على انتباه الفاعل وعلى قدرته على التحكم في سلوكه<sup>(٢١)</sup>. (وسوف نرى في الفصل الرابع كيف أن هذه التغييرات السريعة سببها وأساسها في تركيبة ومهام المخ).

وتتأثر أهمية الهدف بقدر ومدى رغبة الفاعل فيه، وهذا بدوره، كما سوف نرى فيما بعد، يتأثر بخبرة الفاعل وبمقدار الفائدة والرضى الذي يحصل عليه من إنجاز هذا الهدف أو أى أهداف مماثلة، فالطفل الذي يلعب بمكعبات البناء (وهل ما زال الأطفال يلعبون بها في وقتنا المعقد هذا!)؛ قد يبدأ اللعب وهدفه بناء قلعة عالية، إلا أنه قد يكتشف فوراً أن هدم القلاع شيء أسهل وأكثر إمتاعاً من بنائها؛ فيصبح الهدف الهدام والتدميرى الذى لم يخطر بباله قبل ذلك، هو الذى يحكم سلوكه الآن. وبالمثل، فإن القاتلين اللذين نتحدث عنهما قد يكونان في البداية لهما هدف منفرد هو إيلاء أو تخويف الضحايا فقط، ثم أصبحت فكرة القتل هدفاً مرغوباً فيه باطراد حتى صار هدفاً مهماً بالقدر الذى يكفى للعمل على تحقيقه، وقد يكون القاتل الثانى قد فكر أو لم يفكر من البداية فى أن قتل ضحيته هو هدفه المرغوب فيه، وإن كان هذا حاله فإنه لن يأسى بقدر كبير لما حدث مثل القاتل الأول. ويؤخذ القياس نفسه بالنسبة إلى معاناة الضحية، فالأول يُحدث المعاناة لفترة وجيزة وهدفه هو إخافة الضحية. أما الثانى فيبدو أن إحداث الألم والمعاناة هو وسيلة وغاية (هدفاً) فى حد ذاته. وعلى خلاف الحالة الأولى، فإنه ارتكب جريمته لأنه يستمتع بما فعل.

## وجهان للقسوة:

وكى نفرق بين الرغبة فى تحقيق هدف لأنه مرغوب فى حد ذاته أو لأنه خطوة تجاه تحقيق هدف آخر، فعلى العود إلى تعريف القسوة فى قاموس أكسفورد الذى أشرنا إليه سابقاً؛ وهو يصف القسوة بأنها "الابتهاج أو اللامبالاة بالآلام أو بؤس الآخرين". وبأخذنا هذا إلى الحيرة حول ما يُعتبر ضرباً من القسوة؛ ذلك لأن اللامبالاة والابتهاج يبدو أنهما مختلفان جداً فالكلمة الأولى تشير إلى الحيادية التامة الناتجة عن ذهن عقلانى يزن الأمور، أما الثانية فهى كلمة تدل بوضوح على العاطفة. وتقودنا اللامبالاة إلى فكرة المكسب والخسارة، أى إلى تقييم دوافع الفاعل ومستوى معاناة الضحية. أما الابتهاج فيأخذنا إلى مجال المبادئ الأخلاقية لأن الاستمتاع بفعل القسوة هو زلة أخلاقية وخطأ أخلاقى صرف.

وإذا هاجم شاب سيده مسنة ليحصل على نقود يشتري بها جرعة مخدرات، فهو لا يبالي بمعاناتها، أو على الأقل فإنه مهتم بحاجته لهذه "الكيمياء" أكثر من اهتمامه بالآلام المرأة، لكن هل ما دفعه لذلك هو الحصول على البهجة من إيذائها؟ ربما الحال غير ذلك، ولو أنه وجد طريقاً آخر لا يؤذيها، للحصول على المال أو المخدر؛ لسلكه وعمل به. فإنا إن هدفه الأول هو المال وليس تعذيب هذه السيدة. فالضرر الذى ألحقه بها هو وسيلة لغاية تهمة كثيراً. وإذا فكرنا كيف نعاقبه على سلوكه الخاطى فعلى اللجوء إلى المنطق كى نُقيم دوافعه والهدف من فعله وانظروا التى دفعته لذلك ثم نضعها فى مقابل الضرر الذى وقع على السيدة المسنة. وعندما نصف سلوكه بأنه خاطى؛ فنحن نوكد أنه كان من الواجب عليه أن يلتزم بوازع أخلاقى قوى يمنعه من ارتكاب فعله. وبمعنى آخر فإننا نظن أنه يُقيم الأهداف

والرغبات والمكسب والخسارة بالآليات النفسية نفسها التي نستخدمها نحن، فإننا من موقعنا كقضاة لا نفكر في قصده وغايته (كسب المال وإرضاء نزوعه للمخدر) التي تبرر الوسيلة التي اتبعها (إنزال الفرع بسيدة عجوز). وعلى كل حال، فإننا نقبل أن هذا المهاجم على الرغم من أنه سبب المعاناة بإرادته لسيدة مسنة لا حول لها ولا قوة؛ فإن هذا لم يكن السبب الأساسي الذي دفعه للهجوم عليها، بل إن الهجوم كان وسيلة لتحقيق هدفه المباشر (الحصول على المال)؛ كي يصل إلى غرضه الجامح وهدفه في الحصول على المخدرات.

وإصدار الأحكام بهذا الأسلوب يعتبر القسوة نوعاً من جمود القلب والمشاعر يلزم التعامل معه بالمنطق: البحث عن الدوافع والحافز والعوائق المانعة، إننا سنشعر بالحنق والغضب تجاه المهاجم، ولكن عموماً هذا الغضب لن يطغى على اهتماماتنا الأخرى. إن رغبتنا الفطرية هي العقاب لكننا أيضاً نريد الإصلاح ونشعر بأن هناك أملاً في صلاح المجرم حديث السن، إذا جعلناه قادراً على الندم. وأسباب فعله هي جزء من نفسيته لكنها أسباب قابلة للتغيير.. فالجهل والكسل والاندفاع وحاسة غير ناضجة تأبى التعاطف مع آلام الغير، علاوة على رغبته "الكيميائية" في الحصول على المخدر جعلته يعلى سلوكه ضد المجتمع فوق القيم الواجبة تجاهه، وإذا ما جعلناه يراجع قائمة رغباته ويعتبر إيذاء سيدة مسنة فعل لا تبرير له، لأمكنه أن يصبح مواطناً نموذجياً؛ إلا أننا لا نلتزم العقلانية والهدوء دائماً ونطالب بالسجن ونأبى بالشهود على ذلك، لكننا لا نملك دفاعاً ضد هذه العاطفة العنيفة في منظومتنا القانونية على الرغم من عوراتها وجوانب النقص فيها، علينا أن نجعلها مُصممة لتتبنى الفكر العقلاني حتى في حالات القسوة الشديدة.

وهناك حالات بالغة القسوة، مثلما ذكر في دراسة عن القسوة ضد الحيوان، عن رجل قام بدفن قطة في حديقته حتى رأسها ثم جزَّ الرأس بآلة قص التجميل<sup>(٢٢)</sup>.

لقد بذل الجيد لئيفذ هدفه الجامح هذا ولا يمكن إطلاقاً تفسير عمله بأى. عرض غير معلوم ولا ندركه. إن كان الغرض "تسميد" حقيقته؛ فهناك طرق أسهل وأفضل، ليس لدينا تفسير بديل؛ لكن المؤكد أن دافعه كان القسوة كهدف قائم بذاته.. أى الابتهاج بسبب إيلام الغير والإيذاء والتدمير فقط من أجل الإيذاء. لذا فنحن نرى قسوته كفعل سادى ومنفر أخلاقياً ورد فعلنا تجاهه عاطفى لأقصى درجة: الفرع، الشفقة والأسف. الغضب الشديد.. وأكثر من ذلك كله القرف والإشمئزاز، وسيكون من الصعب حينئذ الالتزام بالهدوء والمنطق وأن نزن الضرر والفائدة عندما نقرر كيف نعاقب هذا المجرم أفسى عقاب.. والأسهل هو محو هذا التفكير المفرع فيه وفى جريمته من ذاكرتنا تماماً، كما لو كان مجرد التفكير فى مثل هذه الأمور وباء ينشر العدوى وهذا هو أعلى درجات الحكم الأخلاقى.

### كلمة "قسوة" تستدعى حكماً أخلاقياً:

القسوة سلوك غير مبرر يقع على ضحية لا تستحق الإيذاء، أم أنها عقاب ملائم أحياناً؛ هذا التبرير يأخذنا إلى عالم الأخلاقيات، لنحدد ما هو السلوك الخاطى أو القويم.. والضرر الواقع على الضحية يلزم أن يقيم بحيدة عاطفية إلى حد ما، أما عدوان المجرم فيقيم بمعايير علمية.. والقسوة التى تتضمن ضرراً وعدواناً بيننا بها مكون إضافى يرتبط بالأخلاقيات؛ لأن أسباب الفعل القاسى ليست صالحة أو مقنعة بالقدر الكافى.

ولو رجعنا إلى المثال الذى ذكرناه عن جلسة المحاكمة فى جريمة ينظرها محلفون، فسوف نفترض أن هناك دليل إثبات على العنف الذى وقع على المرأة، ودليلاً على ما ترتب عليه من رغبتها فى الدفاع عن نفسها. وستكون مهمتك كأحد

المحلفين أن تقيم إذا ما كان هذا الدافع له ما يبرره؛ حيث يجعلها تتصرف كما فعلت. وأنت كمحلف لديك مجموعة هائلة من القوانين والأعراف ترشدك وتوجهك للحكم لكن اختيارائك محددة. خصوصاً إذا كانت المتهمة قد اعترفت بارتكاب جريمة القتل. مبدئياً كل ما عليك فعله هو تمحيص الأسباب والتفاصيل الواردة في خلفية القضية: العوامل المحفزة على الفعل، ما عليها وما لها، ومن هذه الحسابات يأتي الحكم، أما في الممارسات الفعلية فقد أظهرت بعض البحوث أن هيئة المحلفين مثلنا ينحازون بسبب عوامل مثل حالة المتهمه ومظهرها، وسلوكها وتصرفها، كما أن المجرم الوسيم حسن المظهر والشخصية من المحتمل أن يخفف عليه الحكم أكثر من المتهم القبيح الفظ وغير الودود... وهذه الأنماط والمظاهر تؤثر في نتائج الأحكام<sup>(٢٣)</sup>.

وعندما يطلب القضاة من هيئة المحلفين التحكم في ردود أفعالهم الأخلاقية لصالح التفكير العقلاني المنطقي، فإنهم يرتقون بشكل الأحكام التي نريدها منزلة ومنزهة؛ مع تحليل الأسباب والمبررات والضرر والفائدة؛ حتى يمكن التوصل إلى قرار ملائم. وهذا هو الإطار الذي نبتناه كمشاهدين محايدين بعيدين عن الأحداث التي نحاول تفسيرها وتقييمها<sup>(٢٤)</sup>. وهذا هو المنطق المثالي المتعقل. تفكير في توده وتجرد، وحكم دون الالتزام بأى انتماء. وربما يقدم ذلك تحليلاً للسلوك الإنساني دون مرجعيات أخلاقية (كما في العلوم الإنسانية مثلاً)، أو قد يشمل ادعاءات ومرجعيات أخلاقية كما يحدث في قاعة المحكمة.

## التفسير الأخلاقي المعتدل :

يرتبط اتخاذ القرار الهادئ عن تدبير فيما يرتبط بمجال ميادئ الأخلاق غالباً بالتفكير في المنفعة ولا يلزم أن يكون القرار ذاتياً أو رسمياً. إنه فقط غير أناني حتى يحقق في فلسفة جيرمي بنتام "Jeremy Bentham". أكبر خير لأكبر عدد من

الناس<sup>(٢٥)</sup>. ومذهب المنفعة الذى يرى أن تحقيق أعظم الخير لأكبر عدد من الناس يجب أن يكون هدف السلوك البشرى بالفعل، فيحقق حيدة واضع القانون الذى يمنح المنافع للناس ولا ينال نفعاً خاصاً به. لكن، فى الواقع، حتى أكثر القوى العقلانية قابلة للانحياز. الحواسب تعمل بكامل الحيدة وبالمنطق البارد؛ لكن عقل الإنسان ميماً عمل بفكر متجرد، يراعى النفع الشخصى، كذلك فإن تقييم الدوافع والنوايا والأسباب والمبررات - ونحن خبراء فى التبرير - يتم وفق المنفعة والضرر للناس المعنيين، جموع المجتمع الأكبر. ومن يقوم بالتقييم. والتحيزات التى تؤثر فى الأحكام. سواء أدركنا ذلك أم لم ندرك، هى: المعرفة، التعقيدات، والميل الشخصى؛ ولأننا لم نمارس ذلك بالطريقة نفسها التى نخضع بها للعواطف (أى اللجوء للاعتدال والمعرفة أكثر من الانفعال والعاطفة؛ فإننا نميل إلى عدم ملاحظة وجود العاطفة)، ولأننا باعتبارنا بشراً نفضل ما نعرفه والأمور الواضحة البسيطة، والناس الذين يشبهون من يحكم، فإن ذلك قد يجعل حتى القاضى أو الفيلسوف ينحاز، وليس فقط الأفراد العاديون غير المدربين على التفكير العقلانى.

وعندما أصف الفكر بتشبيه يستخدم مفردات قياس الحرارة (بارد وساخن)؛ فإننى أستعملها كناية عن العقلانية والعاطفة<sup>(٢٦)</sup>. ومثلها كثير من الاستعارات التى تشير إلى أعضاء الجسم (الرأس أو القلب مثلاً)... وفى هذه الحالة، فإن الانفعال الذى تنتجه هذه الأعضاء يصاحبه رد فعل يُجهز الجسم لحركة سريعة مندفعة وعنيفة. وليس كل إنسان غضبان وجهه أحمر ويتصبب عرقاً لكن هذه هى الصورة المجازية و"الكاربكاتورية" للانفعال، واستعارة ألفاظ الحرارة (بارد وساخن) تنطبق أيضاً على أنواع مختلفة من الانفعالات والعواطف؛ فالقرف والاشمزاز مثلاً "أبرد" من الغضب. والحب عاطفة أدفاً من الإعجاب أو "الميل"، وهكذا.

وعلى هذا؛ فإن الأحكام الأخلاقية "الباردة" ليس معناها أو مردها السير على درب سقراط ومن تبعه من الفلاسفة، وهو التطبيق الدقيق للقواعد المنطقية؛ بل إنها تأخذ في الاعتبار أيضا الدوافع والموانع وحسابات المكسب والخسارة، والعمل على ما يسميه الاقتصاديون "المنفعة المتوقعة" .. وبطبيعة الحال؛ فإن الأفراد لهم معتقدات مختلفة ومعارف وميول وتحيزات تؤدي بهم إلى الاختلاف في الاختيار والحكم ( فقد يكون الملهى الليلي متعة عظمة نهاية الأسبوع بالنسبة إليك ويكون "جهنم" فى نظرى) .. وهكذا تكون عملية الحكم والتقييم، وما يفضله رجال الاقتصاد هو الاختيار المنطقى، أما ما يعكسه الواقع فهو الاختيار "شبه المنطقى". باعتبار كل هذه التحيزات خافية ولا نعلن عنها.. أى أن الحكم على قرارات الآخرين يصبح عبارة عن تقييم لحصافة رأيهم وصواب تفكيرهم ومعقوليته قياسا على فهمنا نحن للعقلانية والمعقولية، ولو حكمنا فى موضوع عدوان "فلان" على "علان" لأن الأخير أساء إلى زوجة الأول؛ فسوف تختلف آراء الأزواج والزوجات بخصوص موضوع كيداء، فالأحكام المختلفة تركز إلى مضامين ما تدعو إليه الأخلاق بدءا من الأفكار الحديثة شديدة المثالية عن التجرد وحقوق الإنسان إلى الآراء شديدة القدم عن العلاقات والروابط الإنسانية. وإذا كان حكمنا فى هذا الموضوع بالاستنكار والرفض فما العقوبة المناسبة التى يستحقها "فلان"، وإذا كانت الإجابة بالموافقة فما الادعاءات التى تساند وتبرر ذلك العنف والعدوان، وما الإشارات التى ترسلنا هذه المسألة فى الحالتين للمجتمع، وما العواقب المحتملة لنا جميعا؟ وفى الأساس ما تأثير هذا الحكم فى كل فرد بصفة شخصية؟

وتستخدم العقلانية إطار الارتباط بالسبب الذى يفسر سلوك الآخرين، وهى تنقل من وزن الانفعال وتحد من تأثير العواطف القوية عند الحكم. وقد تتدخل العاطفة لكننا لا تؤدي إلى أحكام الحسابات. وعندما نلجأ إلى الاستعارة ثانيا نقول إن

الحسابات لا يصح أن تكون "دافئة" بالقدر الذى يذيب بلورات المنطق، ولو ارتكز التفسير والتأويل الأخلاقى على القرارات النفعية المعقولة التى هى بالأساس تجعل القانون "أعمى" عن شخصية من يحكم عليهم، فسوف يكون ذلك أساساً لسلطة القانون.. أما "سخونة" العاطفة فسوف تغير قراراتنا، والقياس الشهير الذى استعاره أفلاطون من فيدراس "Phaedrus" (\*) عن حوذى (قائد عربى حنطور) يحاول السيطرة على جياده ربما تكون هنا استعارة مجازية مناسبة للتحكم العقلانى. وفى ثقافتنا الخاضعة للتراث الإغريقى "والحرارة" اللازمة للفكر، فإن هذا التشبيه يتكلم عن عواطف جامحة أو محاولة "الحوزى" للتحكم فى رغباتنا، ولقد عدل علم دراسة الأعصاب الحديث هذه الصورة القديمة بأن أعطى دور الحوذى الذى يتحكم فى الجياد إلى قشرة الفص الجبهى فى المخ ودور الجياد إلى المناطق الطرفية من المخ: وهى الأجزاء المدفونة بعمق والتي تُنظم فيها الانفعالات والعواطف<sup>(27)</sup>.

## مبادئ الأخلاق "الساخنة":

فى الممارسات العملية تظهر العواطف بأشكال عديدة، وليس فقط كعاطفة قوية أو كامنة - والتفكير العقلانى لن يكون حوذياً قوياً فقط لكنه قد يكون مراهقاً مبتدئاً. والمشاعر المتزنة والتفكير العقلانى يتأثران بكل شيء بدءاً من الجينات إلى التوقعات الثقافية، ومن التجربة الفردية الشخصية إلى نوع الطعام الذى تناولناه فى الإفطار. وما يتبقى لنا من قياس أفلاطون هو أن العقلانية والتفكير يتطلبان جهداً ووقتاً<sup>(28)</sup> وعندما نكون مراهقين، أو جو عانين، أو نريد التصرف بسرعة؛ فإننا نلجأ إلى نوع من التفكير النمطى المستهلك، مع ردود أفعال سريعة فنكون معرضين للخطأ. وسوف نصبح أيضاً أكثر عرضة للتصرف وفق عواطفنا.

(\*) فيدراس كاتب وقصاص روماني عاش فى القرن الأول الميلادى.

ولو فكرنا فى حالة تلميذة تواجه الاختيار بين أن تتحدث أو لا تتحدث مع صديق نبذته جماعتها من الأصدقاء؛ فإن بإمكانها أن تحسب ما هو مع أو ضد الانضمام للصديق والمجازفة بانتماؤها لمجموعة الأصدقاء.. ولو أعطت لكل سبب درجة وتقديراً حسب العواطف التى يثيرها: الخوف من اضطهاد وتتمر الأصدقاء، أو الشعور بالشفقة والعطف تجاه صديقها... وهكذا. فإذا كان الأكثر أهمية لينا أن تبقى مرتبطة بمجموعة الأصدقاء، فليذهب الصديق، وإذا كان اهتمامها بالصديق أكبر فعليها أن تبدي الشجاعة وتناصره، ولو كانت هذه التلميذة تهتم بالصديق، فإن رد فعلها على اختيارات أصدقائها لن يكون، غالباً، تقيماً هادئاً؛ فالشفقة والعطف على الضحية والغضب والاحترار تجاه مضايقات الجماعة والخوف على مكانتها معهم، والاعتقاد الجاد بأنهم يخطئون فى حقها، كل هذه المشاعر ستزيد من رد فعلها العاطفى وهى لا تزال تتخذ حكمها على سلوك الناس الآخرين، لكن بدلاً من أن تقيم ما لهم وما علينا، سواء بالأخذ فى الاعتبار المبادئ السامية للأخلاق أو إغفاليها، فإنها تلجأ إلى إطار غريزى مبدئى فى الحكم فيه تقيم أفعال الناس على أنها جيدة أو رديئة، أو عدائية، أو تدعو إلى الفساد أو النقاء، قاسية أو رحيمة.

وبالفعل، فإن كلمة "تقييم" تعكس طبيعة قوة وسرعة العمليات التفسيرية المصاحبة لها.. وهذا هو الفكر "الساخن"؛ ونعنى به أن التقييم الأخلاقى سريع وآلى ومناهض لآى نقاش أو مداولة<sup>(٢٩)</sup>. وبمجرد أن يوصف الفعل بأنه مقبى أو بغيبض فإن أهداف الفاعل، حتى المعتدلة منها، سيكون من المستحيل أن تكسب تعاطف وتجاوب القضاة.. وأى وصمة أخلاقية تبقى وتدوم حتى إن أغفلت مبرراتها نياتياً، وأوصاف الفضيلة تعدت بالعواطف التى تنسم بالقوة. أما أقوال الجرائد والصحف الصغيرة فتعتمد على النزعة العاطفية لدى البشر، وتستخدم اللغة والصور التى تثير

العواطف والمشاعر بشدة في قرائنها، والعواطف السلبية بصفة خاصة لها تأثير كبير<sup>(٢٠)</sup>؛ فالغضب والخوف والاشمئزاز يجذب المشتريين والقراء ليذد الجرائد.

وكما أشرنا سابقاً، فإن العواطف في نهج الفكر الغربي يُنظر لها عادة كشيء مصاد ومعاكس للفكر العقلاني.. وكما سوف نرى في الفصل الخامس؛ فإن الكشف العلمي عن أهمية العواطف في اتخاذ القرار يُشير إلى ظهور فروق ضئيلة فقط في الأحكام؛ ومن حيث دور العاطفة في التقييم، ينظر علم طب الأعصاب إلى العواطف كنوع من الذكريات المحفورة في العقل عن نتائج قراراتنا في تجارب سابقة؛ فيسبى مذكرات لمن يجئ بعدنا كما وفر لنا أسلافنا فرصة في إعادة التدبر والتفكير في مواقف سابقة مشابهة ومألوفة؛ فإن الإنسان لو كان يشعر بالمرض أو بوعكة في كل مرة يأكل فيها نوعاً معيناً من الطعام، فسوف يشعر بالغثيان كلما رأى هذا الطعام- حتى إن لم يتذكر أنه مرض عندما أكله فيما سبق.. وهذا الشعور المزعج الذى أصابه هو رسالة من الذات ومن التجربة السابقة معناها "اجتنب هذا الطعام" ! وكانت العاطفة تخدم الإنسان وتقوم بهذه المهمة عندما بدأ الجنس الأول من بنى البشر فى استخدام اللغة والتفكير بالرموز، والآن يمكننا استخدام هذه الآلية فى كتابة مذكراتنا لمن يخلفنا ولأنفسنا للإفادة منها فى المستقبل.. إننا سوف نخترن فيها تقييماتنا وأحكامنا السابقة حتى نُحدد ردود أفعالنا المستقبلية، ولن نحتاج فى تقييماتنا إلى استخدام المنطق والعقلانية إلا فى المواقف الجديدة والمعقدة (التي لم نخبرها سابقاً).

فإن أحكامنا الأخلاقية السريعة ليست ببساطة تقييمات تتمحور حول الذات (هل هذا يفيدنى أو يضرنى، أم أنه غير ذلك تماماً)، والحيدة لازمة فى القضاء؛ لأن الأحكام تُطبق على أناس ومواقف بعيدة عن القاضى ولا تمسه من قريب أو بعيد، وهو أيضاً يعارض ويترفع عن التقييمات التى تجلب الكسب الشخصى حتى لو لجأ

إلى التفكير البراجماتي النفعي، وقد يشعر بالذنب والندم والخزي عندئذ... فكيف يكون ذلك؟

## التعاليم الأخلاقية ومنظومات الأخلاق:

من بين الأفكار العديدة غير المألوفة التي سادت في الثقافة العلمية الرأسمالية الحديثة في الغرب؛ كانت فكرة أن المثل الأخلاقية العليا شيء إضافي واختياري، ونظر إليها بعض المفكرين باعتبارها أداة سياسية ابتكروها للسيطرة على الجماهير، أو باعتبارها وسيلة للقهر سوف تنتشع بظهور نظم سياسية أفضل (كالاشتراكية والشيوعية). وراها بعض آخر إرثاً قديماً نشأ عن عدم الفهم البدائي للأمور وأصبح تكراره مملاً في زمن العلم. بينما استخف بها آخرون باعتبارها عقبة في سبيل المتعة الذاتية وإشباع الرغبات<sup>(٢١)</sup>. ويبدو أن هؤلاء المفكرين (سواء دعاة الفردانية أو الماركسية أو الاشتراكية الاجتماعية أو التعبير الذاتي) كانوا يفترضون أن التعاليم الأخلاقية يمكن أن تزال أو تستأصل من الثقافة بإعادة النظر في التعليم الملائم.

لكن التعاليم الأخلاقية أكبر من أن تكون ميلاً أو نزوعاً ثقافياً، وقد كشفت الأبحاث في علم النفس النشئوي وعلم النفس المقارن وعلم الأجناس وعلم دراسة الجهاز العصبي؛ أن تعاليم الأخلاق عامل له ثقل ووزن كبير في عالم الرموز ولها جذور ضاربة في الطبيعة الإنسانية. ومما توصل له علماء الأنثروبولوجي أن هناك شكلاً ما من القوانين الأخلاقية والشاملة لدى جميع الأجناس، فكل المجتمعات الإنسانية التي تمت دراستها حتى الآن تخضع لسلطان القيم وتنتشر في أنماط أساسية منها، مثل الأفعال الجبرية والمسموح بها والممنوعة، كما يتعلم الأطفال تيارات الأحكام الأخلاقية بالسهولة واليسر نفسيهما الذين يتعلمون بهما اللغة<sup>(٢٢)</sup>.

وكما هي الحال في اللغات؛ فالمضمون المعين يختلف. لكن البنية- القواعد - الخاصة بالمنظومات الأخلاقية تبدو أنها متماسكة جيدا عبر كل الثقافات، مثلما توجد الأسماء وصيغ الاستقيام والأسئلة في كل اللغات. وبالمثل فكل التعانيم الأخلاقية والسماة مُصنفة كصفات مثل: "نقى"، "مدنس"، "يستحق الثناء"، "يستحق اللوم" و"مسنول" أو "غير مسنول". وقد وجدت الأبحاث في علم النفس المقارن أن هناك مفاهيم وسلوكيات أخلاقية أساسية - مثل: العدل، الإيثار وحب الغير، العقاب، والتبادلية (في العواطف والخير)- في أجناس وأنواع من البشر غيرنا<sup>(٢٣)</sup>. وقد أشار ناعوم تشومسكى "Noam Chomsky" إلى أن سهولة تعلم اللغة عند الأطفال مبعثها وتفسيرها وجود استعداد فطري لذلك عند الأطفال وينطبق الوضع نفسه على القدرة على معرفة مبادئ الأخلاق، وجاء ذلك بوضوح في كتاب مارك هوسير "Marc Hauser" وعنوانه "العقل الأخلاقي : ملخص وافٍ للأبحاث عن إدراك الحيوان للأخلاق"<sup>(٢٤)</sup>. ولو كنت مستعدا لتقبل رأى تشومسكى بالكامل؛ فإنه سيكون من الواضح أن تعليم مبادئ الأخلاق ليس فقط "شطحات بورجوازية" أو منظومة للتحكم السياسى، مثلما أسعد المفكرين الراديكاليين اقتراحهم هذا، لكن الأرجح أن ميلنا إلى الحكم على الآخرين يبدو أنه موهبة - نعمة أم نقمة- نتيجة للانتخاب الطبيعي (في نظرية النشوء والارتقاء)، إنه مثل أى نزوع، كتفضيل الحلوى مثلا، أو قد يكون نتاج عقول كبيرة.

وهكذا يوصف بنو الإنسان غالبا بأنهم مخلوقات تعيش في عالم من المبادئ الأخلاقية ولديهم استعداد منذ الميلاد بقدرة فطرية أن "يلتقطوا" القوانين الأخلاقية لمجتمعهم، تماما كما يتعلمون لغة مجتمعاتهم بصورة طبيعية. وفي الواقع نحن لا نعيش في عالم أخلاقي واحد بل في عالمين، فعندما نتحدث عن "الفضيلة"؛ فإننا غالبا نعنى التقييم العاطفى السريع للصدىق والعدو، للخير والشر، ويبدو هذا لنا شيئا

طبيعياً مثل التنفس؛ ولكننا في أحيانٍ أخرى قد نشير إلى منظومة أخلاقٍ وإلى أفكارٍ مجردة عن الفضيلة، أو إلى تصنيفٍ للتعاليم والمشاعر الأخلاقية المستمدة من مصادر علمية، وكلها تختلف كثيراً عن الفهم الفطري الغريزي للخير والشر والصواب والخطأ<sup>(٣٥)</sup>. وعلينا أن نميز ونفرق بين هذه المشاعر، فهي إما مبادئ أخلاقية أساسية وإما مبادئٍ وضعية مركبة.

والمبادئ الأخلاقية الأساسية قديمة أزلية، وهي نسبياً بسيطة ومتشابهة في الثقافات المختلفة. وكما سوف نرى في الفصل التالي، فإنها محكومة بقواعد تؤدي إلى الرعاية وإلى الحفاظ على أنفسنا وأهالينا، وإلى التعاون بين أفراد الجماعة، وأن نفضل صحبة من يماثلوننا من الناس، وأن نحذر الغرباء، وألا نستفيد من الفرص التي تتيح الغش والخداع والاحتيال بينما نحن نعاقب الغشاشين الآخرين، وأن يكون رد فعلنا على تهديدات الغير برد عدواني أو حتى بالقسوة<sup>(٣٦)</sup>. ولقد نشأت الأخلاقيات الأساسية من حاجة الإنسان إلى النجاة والحفاظ على حياته كحيوان اجتماعي في بيئة خطيرة، وكان هذا - مما يدعو إلى السخرية - شيئاً فعالاً باعتباره وسيلة للضبط الاجتماعي. وقد كان الماركسيون على صواب إلى هذا الحد عندما سمحوا بتكوين جماعات شديدة التماسك، والعمل على تقليص الضرر الوارد من جماعات أخرى دخيلة وغريبة؛ وبالاستفادة من تطوير وفرض قوانين اجتماعية للسلوك، ومما زاد القدرة على تعليم مبادئ الأخلاق وجود الملاءمة الجينية والتواءم النوعي لدى أفراد الجماعة.

وكما يوحى به اصطلاح "المبادئ الأخلاقية الوضعية"؛ فإنها مبادئ أكثر إتقاناً من المبادئ الأساسية للأخلاق وتوجد بأشكال تتأثر بالثقافات المتعددة وتعتمد علينا، إنها تحفظ بالملاح الرئيسية لمبادئ الأخلاق الأساسية: الحساسية المجتمعية، الحس العاطفي، والاهتمام بما يجب عمله وما يتحتم أن يؤدي، وليس ما

هو واقع، كما أن محيطها وانتشارها أوسع؛ فهي تشمل المبادئ المؤسسة في هياكل القوانين وفي النظرية السياسية- بما في ذلك، على سبيل المثال، متطلبات سلامة الحيوان وحقوقه، نظرية الحرب العادلة، مبادئ حقوق الإنسان العالمية. ولقد نشأت وتطورت الأخلاق الوضعية من مبادئ الأخلاق الأساسية بفعل ضغوط التحديث الثقافي، عندما أصبحت النظم الاجتماعية الإنسانية أكثر تعقيدا وخاضعة للمؤسسات وأكثر تجردا. ويمكن أن تختلف هذه المبادئ الوضعية اختلافا كبيرا حتى في مجتمع واحد وفي وقت واحد (وبين جماعات عرقية مختلفة مثلا)، أو على مدى فترات زمنية متباعدة (أو إذا اندلعت الحروب).

والمبادئ الأخلاقية الوضعية، مثلها في ذلك مثل ملكة التفكير، هي نتاج لفترات التمهل والتروي، فقد وضعت بعدما تمكن البشر من إتمام التحكم في عالمهم وامتلاك بعض الوقت للتفكير والتدبر؛ وبهذا اجتازت البشرية حالة الفكر "البارد" الهادئ إلى الفكر المجرد بعد تطور الجنس البشري كله أو حتى بعد أن جاوزه. لكن الإنسان إن لم يستطع تدعيم المبادئ المجردة بنظم قوية تحركها العواطف الأخلاقية؛ فإنه لن يستطع التأثير والتحكم الفاعل في الاستجابات والرغبات الإنسانية الحقيقية<sup>(٢٧)</sup>.. وهذا هو ما تفعله المنظومات الأخلاقية.

وقد يتم التناسق والتناغم بين المبادئ الوضعية للأخلاق والمبادئ الأساسية في المجتمع نفسه، وتتشأ حيرتنا فيما يتعلق بالهفوات والزلات الأخلاقية أو الانحراف بسبب التوترات بين الاثنين.. ذلك، مثلا، لأن عالم المبادئ الأساسية للأخلاق قد يتقبل بعض أنواع من القسوة- عندما توجه لمن يمثلون تهديدا خارجيا، فالحماية الأخلاقية تغطي المجتمع في الداخل. وقد تمتد لحمايته (تحت ظروف وشروط معينة) إلى جماعات خارجية يتعامل معها المجتمع، ولكن هذا لا يمتد إلى الأعداء فقط؛ فقد يتحول شريك التجارة والتعاملات فجأة إلى عدو<sup>(٢٨)</sup>.. وبدافع

الحماية نفيذ القسوة المجتمع في الداخل ليس على الأقل بإشاعة الترهيب، بل وحتى للحد من المنافسة. ويمكن أيضا أن تنتوع القوانين الأخلاقية داخل مجتمع ما. أما المبادئ الأخلاقية الوضعية لجماعة من المحاربين مثلاً؛ فإنها تتشابه إلى حد كبير مع مبادئ الأخلاق الأساسية أكثر مما تتفق مع المبادئ الوضعية للمدنيين الذين يحمونهم. وتتشابه أخلاقيات كثير من الإرهابيين - نعم، فهم أيضا لديهم مبادئ أخلاقية- مع التعاليم الأخلاقية الأساسية. إلا أنها ترتدى مسوح الأيديولوجية المترفعة والمتعالية.

وعلى العكس من ذلك؛ فإن أحكام المبادئ الأخلاقية الوضعية تنص مباشرة على أن القسوة غير مقبولة تحت أي ظروف، وتعتمد نظرية "الحرب العادلة" على فكرة أن العدوان مبرر ونسبي، وقد أعلنت مبادئ حقوق الإنسان العالمية بالفعل أن عموم وجميع الجنس البشري مجتمع واحد. كما أصرت حركة حقوق الحيوان على أن القسوة غير مقبولة حتى على أنواع أخرى من المخلوقات<sup>(٣٤)</sup>. ولا تقتصر محاولات منع وتحريم القسوة على مجتمعنا بل وتوجد عند جماعات أبعد من المجتمع الغربي الحديث ومثالان على ذلك الديانة اليانية "Jainism" والبوذية "Buddhism" اللتان تلتزمان بشدة بهذا الفكر - منع القسوة. ومما يجب الإشارة إليه أيضا؛ أنه حتى في الثقافات التي تناصر وتعلن قيما متحضرة - مثل أثينا في القرن الخامس قبل الميلاد والولايات المتحدة في العصر الحديث - فإن الأخلاقيات الأساسية تتفوق على مبادئ الأخلاق الوضعية؛ لأن النخبة القوية تتحيز لمنتسبيها ومن ينتمون إليها - وكليم أو معظمهم من الأغنياء الذكور البيض- وتستغل الآخرين. وعلى كل حال فقد نشأ المجتمعان - في أثينا والولايات المتحدة- على نظام العبودية. وانتفرت العنصرية ضد المرأة والأقليات العرقية. واتخذت الديمقراطية كي تستبعد أغلبية السكان (معظم الجماهير)<sup>(٣٥)</sup>.

وعلى خلاف الحال في أثينا؛ فقد عدلت الولايات المتحدة من مبدأ المساواة والقيم الديمقراطية بدرجة غير مألوفة في التاريخ: نظرا لضغوط قوية مختلفة؛ فالنساء في أثينا مثلا لم يحصلن على وظائف ومراكز سياسية؛ فإنه في الغالب الأعم - في السياسة الدولية مثلا- ما زالت القواعد تطبق بصورة انتقائية على الأمريكيان أنفسهم وليس على أعدائهم المزعومين، مثلما هي الحال في الكوارث الأخلاقية التي تحيط "بالحرب على الإرهاب" والتي أصبحت ظاهرة وبادية للعيان<sup>(٤١)</sup>. ويتمشى هذا التحيز وهذه المحاباة تماما مع مبادئ الأخلاق الأساسية لكنه لا ينسجم ولا يتواءم مع المبادئ الوضعية التي تدعى أنها لا بد أن تطبق عالميا، كما هو في النموذج الأمريكي، فالمعتقدات والأفكار في المبادئ الوضعية نتمسك بها عاطفيا إذا كان لها صدى مع العواطف الأخلاقية الأساسية. لكن إذا حدث تصارع بينهما؛ فإنه من المحتمل أن تكون الغلبة للمنظومة الأقدم.

## التحول إلى التقمص العاطفي (التعاطف):

كي ندلل على الاختلاف بين مبادئ الأخلاق الأساسية والوضعية، علينا أن نتدبر المشهد التالي: هناك فتاة (سوف نسميها "جين") تشاهد نشرة الأخبار، فتسمع تقريرا عن موت امرأة صغيرة، ويقال اسم الضحية فتعرف أنها ابنة إحدى الشخصيات العامة، والذي تكرهه "جين" بسبب إساءته المتعجرفة للآخرين على الرغم من أنها لم تلتق به أبدا. وتشعر "جين" بمشاعر مختلطة: تقمص عاطفي "دافئ"، إدراك ضعيف للضرر الذي حدث، وربما شعور بالارتياح؛ لأن فاجعة الموت لم تصب أحدا من معارفها، أو من المحتمل أنها أحست لمسة من الحزن أو التشفى، وأيضا شعرت بشيء حتمي ومفروض من الإثارة بسبب علاقتها

بالحدث من خلال معرفتها ومعلوماتها عن الأب المشهور.. هذا هو رد فعلنا  
الفكرى العقلانى "البارد والهادئ" الذى يُقيم الحادث حسب اهتمامها هى وقيمها  
الأخلاقية المجردة التى تزن ما يخصها من المكسب والخسارة. والتى "تفكر" بها  
وتصل إلى النتائج فى جو من العاطفة المعتدلة.

وعلى الرغم من أنها تكرر الأب المفجوع والمبتلى. فإنها لا ترتبط شخصيًا  
بهذه المأساة، والنعمية (البراجماتية) المحايدة تكفى هنا؛ لكن "جين" فتاة صغيرة ذات  
مبادئ أخلاقية. وهى تشعر بالذنب لأنها اكتفت بالبرود واللامبالاة. هذا هو تأثير  
مبادئ الأخلاق الأساسية، فالناس فى ثقافة "جين"، خاصة النساء، من المتوقع أن  
يكونوا متعاطفين ومهتمين بالغير وهى تعرف ذلك.. وبناء على هذا فإنها قد تدعم  
وتساند حاسة التعاطف لديها وتسحق وتخدم الميل إلى التشفى، وربما تؤنب نفسها  
وتستكر الإثارة وتبدي شيئاً من التعاطف؛ ثم تعبر عن رأيها بكامل وعيها؛ حتى  
المتعجرفين والمتعطرسين لا يستحقون فقد بناتهم.

وبعد ذلك: يقدم قارئ النشرة مزيداً من التفاصيل.. فالفتاة فى يوم عيد  
ميلادها الحادى والعشرين تعرضت للاغتصاب وطُعنّت عدة طعنات وتركّت  
لتموت - وهنا ارتعدت جين لا إرادياً، وما أحسنه الآن من فزع وشفقة هو رد  
الفعل المرتبط بمبادئ الأخلاق الأساسية؛ وقد قادها ذلك إلى تعاطف أقوى وأعمق  
مع هذه الأسرة، مع رغبة جارفة فى رؤية الفاعل يعاقب. لقد شعرت الآن  
بارتباطها بالفتاة بطريقة لم تحسها من قبل.

إن كل ردود الفعل من جين مبعثها العواطف وإن اختلفت حدتها. وهناك  
معنى واحد لم يتغير إنه الحادث؛ فالفتاة قد لقيت حتفها، ولا ييم كيف قتلت، لكن ما  
تغير حقاً هو رد فعل جين تجاه هذا الخبر. لقد بدأت تتقمص المشاعر، ويبدو أن

تتمص المشاعر قد يفيد كتحول عقلي يستدعي مفاهيمنا عن مبادئ الأخلاق الأساسية ويشعرنا بالارتباط بها والوعي بها في حالات لها تأثيرها علينا. وكما سوف نرى فنتمص المشاعر ليس هو التحول الأوجد الذي يرتبط بالآخرين، فالمعتقدات أيضا من الممكن أن تطلق ردود الأفعال الأخلاقية - أو أن نكتمها وتخدمها.

القسوة شيء قديم قدم الإنسانية، إن لم تكن أقدم، وهي في الأساس سلوك إرادي غير مبرر يُسبب معاناة متوقعة لضحية أو ضحايا لا يستحقونها.. وقد تتضمن القسوة عدوانا جسديا أو إهانة أشد حدة وإيلاما، لكن الهدف منها هو أن تجعل المستهدفين منها يعانون حسيا أو نفسيا ومعنويا.

والسلوك القاسى طوعى وإرادى أيضا، غير أن الإيذاء يصبح رغبة قوية وطاغية جدا فى بعض الأحيان؛ حيث يسمى نزعة "قهريّة"، إلا أنه بالإمكان التحكم فيها إلى حد ما؛ ومن ثم فإننا قد لا نحتاج كثيرا إلى عبارات مثل "اندفع إلى الشارع ليقتل كل من يصادفه"، "فقد السيطرة على نفسه"، أو "أصابه سعار القتل". وتختلف هذه "الأنماط" تماما عن يطلق عليهم "مجرمون ملزمون" مثل مرتكبى جرائم الاغتصاب، أو قتل الأطفال أو معتادى القتل المتكرر، فهؤلاء يخططون لجرائمهم بعناية ودقة، وقد يمتنعون عن ارتكاب الجريمة فى آخر لحظة، أو يكتفون الرغبة فى القتل لعدة شهور أو سنوات.. ونحن نحكم على هذين النوعين من الضرر والإيذاء بأنهما يصدران من فاعل مسئول عن فعله، لكننا نأخذ فى الحسبان العوامل المحفزة على ذلك مع شيء من المرونة الأخلاقية والقانونية، والفعل الحر مسألة درجات ورتب!

وعلاوة على ذلك؛ فإن القسوة مفهوم أخلاقى.. ومن يقدم على إيذاء الغير لا بد أن يبرر أفعاله، فإن السلوك القاسى مُعرض للعقاب ممن لا يجدون مبررا للفعل. وتبعاً للظروف، فإننا نشكل أحكامنا الأخلاقية بطرق مختلفة؛ بسرعة، أو بالرجوع إلى الحس والعاطفة الأخلاقية التى ورثناها عبر الانتقاء الطبيعى مع

النشوء والارتقاء، أو ببطء أكثر من ذلك، أو بالرجوع إلى منطق المنفعة الشخصية، وأيضا بتأثير المبادئ الأخلاقية السائدة في ثقافتنا.

وإذا كانت المبادئ الأخلاقية الوضعية لا تتوافق مع التبرير الذي يقدمه من يرتكب الفعل المؤذي، فيلزم أن نسميه فعلاً قاسياً؛ على الرغم من أن غريزتنا الأخلاقية الأساسية قد ترشدنا إلى شيء آخر، وسوف نتعلم التحكم في هذه الغريزة إذا ألزمتنا الحكمة والسياسة بذلك. أي أنه عندما تقتضى المصلحة الشخصية أن نمتنع عن انكلام بصفة مؤقتة وأن نرجئ الرأي والتعبير. وإذا أخذنا هذه المصلحة أو نماذج اجتماعية أو نزعات قديمة، في الاعتبار؛ فإن الحكم الأخلاقي يمكن أن يصبح قوة منفرة ومقرزة يمكنها سحق الجماهير "الغوغانية" أو تعديمهم دون محاكمة. والقسوة نعتبرها سلوكاً مخزياً، لكنها ليست مفهوماً متقدماً لا سابقة له. واللامبالاة وجمود القلب الذي تميز به قابيل شيء بغيض مرفوض وجدير بالازدراء، لكنه من حيث المبدأ يمكن إصلاحه حتى نتخلص من الخطيئة والسادية التي هي أكبر من ذنب قابيل. فهي اندفاع عميق في مملكة الشر. وكما سوف نرى: فإن العاطفة الأخلاقية غالباً تفسر غلظة القلب على أنها سادية- وإذا وصفنا أحداً بأنه "سادي" يكون الوصف بناء على مبلغ الضرر الذي يحدثه. ومما يشهد بالتناقض أن الأحكام الأخلاقية قد تستخدم أحياناً كي تبرر القسوة المتناهية وغير المألوفة.

والغرائز الأخلاقية الأساسية قد تكون جزءاً من "الوصفة" الإنسانية، لكن الأحكام الأخلاقية عن القسوة تتشكل بأمور وتقييم أكبر كثيراً من فكرة النشوء والتطور. وفي الفصل التالي سوف نتحرى عما هو أكبر من ذلك، بأن نسأل "من الذي يقرر ما يمكن اعتباره قسوة؟"

## الفصل الثانى

### من الذى يقرر؟

لو أتاحت لى الفرصة لشنقت الجميع

(Benjamin Britten and Myfanwy Piper, Owen Wingrave)

يتخذ الأصحاء من البشر أسلوبين لتقييم سلوك الآخرين. أسلوبا عقلانياً وآخر عاطفياً. وأحكامنا تتلون بمزيج من الاثنين. ويسود أحياناً المنطق "البارد" الهادئ والبراجماتى - مع أو دون الرجوع إلى المبادئ الأخلاقية. وفى أحيان أخرى تؤثر مبادئ الأخلاق الأساسية فى حساباتنا. وكما أشرنا سابقاً؛ فإن التقمص العاطفى قد يكون إشارة تدفع إلى أذهاننا بالمبادئ الأساسية للأخلاق، وليس معنى ذلك أن العامل المؤثر ذاته دائماً ما يثير رد الفعل نفسه. فالتاريخ الشخصى (لمن يقيم) مهم، وربما لا يتوافق وصفى لردود الأفعال المحتملة فى المثاليين الذين طرحتهما فى الفصل السابق، عن القطة والسيدة المسنة. مع رد فعلك أنت، فإن كنت تكره القطط، أو كنت تظن مثل كثير من الناس أنها "آلات" فاقدة الحس، وربما تحكم على هذا المثال بالمنطق والعقلانية. وإذا كنت قد عرفت فى زمن متقارب أن امرأة مسنة ممن تهتم بين قد هوجمت بقصد السرقة، وربما يكون رد فعلك بغضب وحنق شديد.. وأنا أرى أن هذا هو المنطق السائد.. وإن كانت القطط والسيدات

المسئات لا يثرن نزعتك الأخلاقية، فربما تثيرها أشياء أخرى، إذا سمعت مثلاً بحكاية رجل اغتصب طفلاً صغيراً، وحتى عتاة المجرمين يرتعدون من الغضب عند سماعها؛ ويتصرفون بدافع من مقتنم لذلك، وفي السجن يتعرض مرتكبو الجرائم الجنسية للهجوم بدرجة كبيرة من قرنائهم من المسجونين<sup>(١)</sup>. وتعتمد حدة ردود أفعالنا على ثقافتنا، ومعتقداتنا الشخصية، والأدوار الاجتماعية التي نلعبها... إلخ، فالمصور الذى له خبرة بالفن الإباحى المرتبط بالأطفال سيكون بالفعل أقل انفعالاً من الأميات، وهذا قد يحدث لأن ما يؤذى مشاعر بعض قد لا يكون له الوقع نفسه عند بعض آخر.

ومضمون الواقعة مهم أيضاً، فعندما يوضع الناس فى مواقف معينة أو يلعبون أدواراً معينة، فإن هذا يشكل لديهم أحكاماً أخلاقية مختلفة جداً عما يعتبرونه رد فعلهم "الطبيعى". وهناك مثال مشهور على الحكم الذى يعتمد على الموقف؛ وهو التجربة الشهيرة فى سجن "ستانفورد" التى وضع فيها فيليب زيمباردو "Philip Zimbardo" وزملاؤه بعض الطلبة الأمريكين ليلعبوا أدوار الحراس أو النزلاء بالسجن، فكانت النتيجة انحطاطاً سريعاً وشديداً فى سلوك الطلبة حتى إنهم تسببوا فى الإيذاء الجسمانى والحسى الشديد للبعض، مما أوجب وقف التجربة قبل الموعد المحدد لها<sup>(٢)</sup>. ولم يكن هؤلاء الطلبة الذين لعبوا دور الحراس "ساديين"، ولكن فهمهم لدور حراس السجن أدخل فى ذهنهم لزوم استخدام القوة بدون مسئولية، فالمسئولية تخص -بالخطأ- من أجروا التجربة، وعندما منحوا الحق فى استخدام القوة استخدموها ضد السجناء لما رأوا أنهم ثائرون ومن المحتمل أن يكونوا خطرين. وتكرر قصة القوة والإيذاء المتصاعد نفسها فى سجون إدارتها سيئة، قبل وبعد تجربة بحث "زيمباردو" وزملائه.

والاختلاف الكبير في الأدوار، فيما يخص القسوة، هو اختلاف ما بين الفاعل والضحية، فكلمة "قاسٍ" لا يستخدمها الفاعل نفسه ولكن من يستخدمها هو الضحية أو طرف ثالث، حتى يدين هذا السلوك وينتقد الفاعل المذنب أخلاقياً. وغالباً ما يرى الطرف الثالث الأمور بصورة مختلفة تماماً، ويفسر الضحايا أفعال المجرمين بأنها قاسية وتستحق الإدانة وفق مبادئ الأخلاق. بينما يرى المجرمون أثر أفعالهم في الضحية كضرورة أو جدها حظهم العاثر، أو شيء له تأثير جانبي، أو به منفعة، أو ليست له علاقة بالموضوع<sup>(3)</sup>.

## مَنْ الذى يقرر؟

مَنْ الذى يقرر ويحكم؟ مَنْ غير هذه السلطة القوية الضخمة الكارهة لدورها؟ إنها المجتمع، فالمجرم لم يرتكب جرمه والضحية لم تعان فى عزلة تامة وبمفرديهما، حتى إن قتلاً أو توفياً، وكلاهما موجود ضمن خلفية ثقافية، وعادة ضمن شبكة اجتماعية أو أكثر، وفى جماعات تعج بمن لديهم استعداد فوري للحكم عليهما وتعليميهما مبادئ الأخلاق. وهذه الجماعات، بالنسبة إلى المجرمين، قد تمثل تهديداً قانونياً أو عقوبة أو انتقاماً من أقرباء ذوى الضحايا أو من يناصرونهم، وقد تكون هناك عواقب أخرى للسلوك القاسي؛ فأعضاء بعض الجماعات من الممكن أن يظهرُوا رفضهم للفعل بأسلوب "العزل والإقصاء" مثل التصوير السلبي للفاعل كمنط مرفوض أو منبوذ (إنه نوع فاسد وشرير ومن الأفضل أن تتجنبوه). وفى المجموعات الصغيرة التى عاش فيها أسلافنا، كان نبذ الفاعل وحرمانه من المساندة والدعم الاجتماعى؛ شيئاً ميلاً مميئاً ويمثل وسيلة قوية للتراجع عن مزيد من القسوة، وقد يكون دافعاً لسلوك صالح فى المستقبل.

ولكن الآن، في العالم المتقدم على الأقل، أصبح العزل والنبذ الاجتماعي أقل تأثيراً، إذ إن المصادر الحياتية الأساسية؛ مثل: الطعام والسكن والتدفئة، متوافرة للأفراد بصرف النظر عن وضعهم وصفاتهم الاجتماعية. وأكثر الناس وحدة وعزلة في بريطانيا يمكنهم القيام بالتسوق الأسبوعي في المتاجر؛ وأشد الناس شروراً وخطراً من الأمريكيان نزلت السجن الانفرادي، يحصلون على طعامهم وحاجاتهم. إلا أن الأبحاث أظهرت أن العزل الاجتماعي أثره النفسي سيئ للغاية على الإنسان، ويحتمل أن يُسبب المرض والوفاة المبكرة<sup>(٤)</sup>. والإنسان أيضاً شديد الحساسية لأي إشارات تفيد رفض المجتمع له؛ وهذا ما يعطى النزعة الاستهلاكية الحديثة قدرتها الفائقة والماهرة على أن تحول الحزن والغم إلى مكسب لها أو لنا دون أن نشفيها، بعد أن تحصل على الثمن وهو نقودنا<sup>(٥)</sup>. غير أن هذه النزعة الطبيعية نفسها هي التي تساعد في الحد من تجاوزات أسوأ أنواع القسوة، والذي بالفعل يجعل هذا الفساد الأخلاقي والشر منفراً وغير مرغوب فيه هو كل هذه الأفكار عن الإدانة من الآخرين سواء من تأنيب ضمير الإنسان ذاته أو من لوم الآخرين له.

ويبدو أن كلاً من المجرمين والضحايا (أو من يعتمدون عليهم أو يحيطون بهم)، ينظرون إلى أفعالهم ويُقيمونها بناء على ارتباطها بطرف ثالث هو الجمهور أو المشاهدون، وهم من قد يجد الدليل الذي يحاول الفاعل إخفاءه، أو من يمنح الضحية العدالة التي تسعى إليها. وفي الحالات التي تكون فيها الجريمة نفسها غير ملحوظة قد يختلف إدراك وفهم المشاهدين لها، وقد يكون هؤلاء هم "المجتمع" بمعنى أقارب أو "معارف" الشخص، وفي بعض حالات القتل المُدبر من دولة ما، أو من دول أخرى، يكون المقيم قوى دولية أعلى مثل منظمة الأمم المتحدة. وقد تكون جماعة صغيرة مثل الزملاء المقربين لأحد الجنود في حالة الحرب، أو أي فرد باعتباره شاهداً يمثل الجنس البشري بصفة عامة، أو المؤرخين الذين

يرصدون الأحداث ويُقيّمونها، أو الله سبحانه وتعالى.. وميما كان الفهم والتصور؛ فإن المجرم والضحية يعتبران هذا "الأخر" الذي شاهدهما مثل: قاض وربما يحاولان استمالتة. والضحية أقرب إلى أن تتصف وأن تعوض أو ينتقم لها، إذا كان من يحكم على الفاعل مقتنعا بأن الضحية عانت دون عدل أو ذنب وأن الجاني تصرف بحرية تامة. أما المجرمون فمهمتهم مختلفة؛ إذ إنهم يدركون وجود مشاهدين خاصة عندما كانوا يقنعون أنفسهم والآخرين بأن يغفروا ويصفحوا ويتساهلوا في الحكم عليهم أو حتى يشاركوهم في أسباب قسوتهم. وقد لجأ "أدولف هتلر" في إحدى خطبه لقيادة جيشه قبل نشوب الحرب العالمية الثانية مباشرة إلى أمثلة من مجازر جماعية سابقة (السلب والنهب الذي مارسه "جنكيز خان" في العصور الوسطى وإلى مجازر الأتراك للأرمن في عام ١٩١٥)؛ كي يثبت أن قوات الجيش الألماني يمكنها أن تمارس أفعالها تحت غطاء من الحصانة وقال: "إن قوتنا تتمثل في سرعتنا ووحشيتنا... ولقد قاد جنكيز خان ملايين من النساء والأطفال إلى المجازر، بقلب مبتهج وبعد تفكير وتصميم مسبق. والتاريخ يعتبره هو فقط مؤسس دولة... ومن، بعد ذلك الذي حدث، يتكلم اليوم عن إبادة الأرمن؟"<sup>(٦)</sup>.

والتعريف العملي للقسوة الذي ذكرناه قبل ذلك، يرى أنها "سلوك إرادي غير مبرر بسبب معاناة متوقعة لضحية أو ضحايا لا يستحقون ذلك".. وهنا يمكننا التفكير في التبريرات تحت شروط مجردة شديدة التجرد، لكنها أيضا لن تخلو من نواح عاطفية وسوف تلمس حاستنا القوية بما هو "عادل" أو غير ذلك<sup>(٧)</sup>. وباعتبارها مفهوما له مردود أخلاقي، فإن القسوة يحيط بها إطار يوفر للإنسان قدرات حادة تؤهل للاستدلال على المعاملة الظالمة وعلى تقييم مبررات هذا

السلوك، فإذا كانت الضحية أو الضحايا تستحق العقاب. فإن الفعل المؤذى الذى سبب لها الضرر يمثل شيئاً من العدل وليس نوعاً من القسوة، وإن كان الفعل ضرورياً (كان الفاعل لا يملك خياراً آخر) وغير إرادى (لأن الفاعل أرغم على هذا الفعل)، أو مبرراً (كان الفاعل لديه أسباب مقبولة ليتصرف كما فعل) إذن فإن الفعل بذلك ينقصه وصمة العار الأخلاقية المرتبطة بكلمة "قسوة" التى أوقعت الظلم بالضحية مهما كانت، وفى كثير من المواقف لن توجد حلول لبعض المشكلات ببساطة دون تتسببها فى الأذى لشخص ما<sup>(٨)</sup>.

ومما يدعو إلى الدهشة، أن الضحايا - أو من يدافعون عنهم، وهم بالطبع مستعدون لذلك - يؤكدون باستمرار براءاتهم ومعاناتهم ويهاجمون الدوافع غير المبررة للمجرمين، مؤكداً أنهم تصرفوا بحرية وعن قصد. أما تفسيرات المواقف التى يقدمها المتخصصون فى علم النفس الاجتماعى والمؤرخون. فإنها لا تؤكد قسوة ومسئولية الإنسان وتميل إلى التأكيد على أسباب فى بيئة الفاعل، مثل: ضغوط من النظراء حوله، أو طاعته وإذعانه للسلطة، وهى أمور لا يتقبلها من يؤمنون بالشجاعة الأدبية والمسئولية الأخلاقية<sup>(٩)</sup>، ذلك لأن تحميل البيئة أو المجتمع عبء السلوك المخزى غير مرض من الناحية النفسية، خاصة إذا عبرنا عنه بلغة علمية عقلانية. وبدلاً من ذلك، فقد يلجأ الضحايا ومن يساندونهم إلى إذكاء المشاعر والعواطف الأخلاقية بأن يصفوا الأذى الواقع على الضحية بلغة عاطفية، مثلما فعل دانيال جولاجن "Daniel Goldhagen"، فى كتابه "جلادو هتلر المستعدون" الذى يؤكد فيه البربرية والانحطاط الخلقى فى محاولة لإثارة التقمص الوجدانى والعاطفى للمشاهدين<sup>(١٠)</sup>. وقد يكون كتاب "جولاجن هذا، من بين كل ما كتب عن ألمانيا النازية، هو الكتاب الذى يحتمل أن يكون قد جعل المؤرخين الأكاديميين

- فى هذا الوقت - يشعرون باليأس والأسى، وكان هذا أيضا إحساس الأوساط الدعائية. إن الغضب من أجل المبادئ والأخلاق يحتوينا ويؤثر فينا بطريقة لا تستطيع البراجماتية الأكاديمية أن تنافسها أو تتغلب عليها.

## براجماتية المجرم:

عندما ترتكب الشرور فسوف تحجبها كل فنون الخطابة.

### (Thucydidas, History of the Peloponnesian War)

يسعى المجرمون أيضا، مثلهم فى ذلك مثل الضحايا، إلى إثارة التعاطف الوجدانى بأن يقدموا أنفسهم باعتبارهم بشرا عقلانيين ومحبوبين وجديرين بالتعطف، ولكن التعاطف وحده لن يكفى لجعلهم يفلتون من فخ المبادئ الأخلاقية، وعليهم أن يلجأوا إلى استراتيجية أخرى كى يتحاشوا اتهامهم بالقسوة. وإحدى هذه الوسائل والاستراتيجيات تتمثل فيما فعله الأتراك بخصوص معاملتهم للأرمن. إنه ببساطة "الإنكار"، إنكار حدوث أى مجازر، أو أنهم لهم علاقة بالواقعة أكثر من بدء "عجلة" فظائع الحرب (إنها تستدعى الندم لكنها ليست إبادة جماعية لشعب)<sup>(١١)</sup>. وكما سنكتشف فسوف تجد تركيا دائما أنه من العسير الاستمرار فى الإنكار فى مقابل تحديات وغضب الحزب الثالث الغاضب، المشاهد، (والأرمن أنفسهم بالطبع). وهذا هو الوضع دائما فى المواقف القليلة التى تصدر فيها الأحكام بعد الجريمة، بسرعة، ثم تكون الإدانة واضحة إذا مر الوقت وانقضى؛ فإن المجرمين يستطيعون التشويش والتعتيم والكذب، وأن يضيّبوا الذاكرة ويمحوا الذكريات وربما يقنعون أنفسهم بأنهم أبرياء وفى الوقت نفسه؛ فإن من قد يحكمون عليهم سوف

ينسون جرائمهم؛ فالإدانة السريعة تجعل الإنكار أصعب، وتضع ضغوطاً زائدة على من يعرفون تماماً أن سلوكهم قد تسبب في وجود قتلى.

والمشكلة الآن هي الإقلال من معاناة الضحية وإنصافها. وتحت العين الفاحصة للتكنولوجيا الحديثة يمكن أن تظهر آثار التعذيب على جسد الضحية حتى بعد دفنها في مقابر جماعية، وكشافات الإعلام تستطيع تركيز الضوء على عذاب ومعاناة الضحية وتترك المجرم وعينه تطرف أمام وهج كشافاتهم، ولا تستطيع أيديولوجية "الإقصاء" - بكل نبذها العنيف للمجرم- أن توفر الحماية الكاملة بالقدر الكافي، فقتل الطفل يمكن أن يقبض قلب أعتى المجرمين.. وعلاوة على ذلك؛ فإنه في هذا العصر الذي ينادى بعولمة حقوق الإنسان والإخوة في الإنسانية بين الرجال والنساء والأطفال، فإن التبريرات التي تغفل قيمة الإنسان ليست مقبولة وينظر لها باستنكار ويشار إليها بكلمات مثل "لا إنسانية"، خاصة إذا كان التبرير بأن تقارن الضحية بالبواب أو المرض الذي يجب التخلص منه. أين يذهب المجرم إذن في البحث عن تبرير لفعله!؟

وهناك استراتيجية مفضلة مؤداها: إن كثيراً من المجرمين شخصيات شديدة الفردانية والأنانية، وخطتهم هي ألا يكون التركيز على الضحية ولكن عليهم هم<sup>(٢)</sup>. فمثلاً بدلاً من التهوين من معاناة ضحاياهم؛ فإنهم لا يشيرون إلى نياتهم وفعلهم الطوعي المتعمد ويدعون أن أفعالهم كانت حتمية وجاءت بالضرورة. وهذا الدفاع بحتمية الفعل يأتي بأشكال متنوعة وأشهرها هو "سبب الفعل هو اتباع الأوامر وإطاعتها"، وهذا شيء قابل للجدال- وقد يرفض تماماً - حسب ما جاء عندما حوكم النظم النازي في محاكمات "تورمبيرج". وبالأسلوب نفسه لم يتوان المجرمون ومحامي دفاعهم عن استخدام العلم في التبرير لأفعالهم (وهي علمياً نماذج شائنة وغير شرعية لكنها إعلامية)، تمسكوا فيه بالعوامل التي يأملون بها أن يفسروا نياتهم وينفوا مسؤوليتهم. وتتراوح هذه العوامل بين تأثير الجينات

العدوانية.. وتأثيرات قشرة الفص الجبهي (الأمامي) في المخ، أو تأثير الملوثات البيئية إلى أشهرها وأقربها للخرافة؛ وهي فكرة الدفاع التلقائي السريع عن النفس. وإنه لمن المذهل كيف يكون الناس (حسب هذه التبريرات) ضعفاء وسليبين هكذا إذا تطلب الأمر إيقاع الضرر والإيذاء بالغير<sup>(١٢)</sup>، فإنهم بذلك يصبحون مثل أوراق الشجر التي تذروها رياح الظروف، أو أنهم يتفاعلون مع الموقف الذي هم فيه مثل آلات تتفاعل مع مدخلاتها فقط. ومن العجيب أنه عندما تكون الحياة والحرية بعيدة عن التقويم ومراجعة القضاة فإن نفس هؤلاء الناس يتصرفون كما لو كانوا هم الوساطة والقوة الفاعلة، وهم مستمتعون بوهم أنهم يملكون الإرادة الحرة ويتصرفون كما لو كان بيدهم فصل الخطاب في حياتهم. ولا يلقون بالمسئولية على قوى أخرى كما سبق، أو كما جاء في تعليق إدموند "Edmund" في مسرحية شكسبير الملك لير

إدموند: مثال ممتاز على غياب العالم!  
 فعندما تعتل حظوظنا - وغالبا ما يكون ذلك  
 بسبب أفعالنا- فإننا نلقى تبعه كوارثنا على  
 الشمس والقمر والنجوم. فكأنما الوغد منا مجبر  
 على أن يكون وغدا، وكأنما الأحمق أحمق  
 بمشيئة السماء. وكأنما الأشرار واللسصوص  
 والخونة تسيرهم إرادة الأبراج، وكأنما يسكر  
 الفرد أو يكذب أو يزني مجبرا تصياغا لتأثير  
 الكواكب، وكأنما كانت كل شرورنا مفروضة علينا  
 من الأرباب. ما أعجبه من اختيار ومراوغة! أن  
 ينسب الفاسد الغليم شهوته إلى أحد النجوم.

(الفصل الأول، المشيد الثاني - ١١٨-١٢٨) ترجمة د/ محمد عناني<sup>(١٠)</sup>

وهذا هو ما يسميه الفلاسفة مذهب الحتمية أو الجبرية- أى أن كل فعل مرتبط ومقيد بشدة إلى سلسلة قَدَرية؛ حيث لا يترك لنا مساحة كي نمارس اختيارنا الحر. لكن الفلاسفة دائما يبحثون عن العمومية فى كل ظرف أو فرصة، ولو كانت الحتمية الصارمة تتطبق بصفة عامة على كل فعل، فإنه من المفترض أننا نتطبق بالقدر نفسه على فعل بسيط مثل "التسوق"، كما نتطبق على فعل خطير مثل قتل زوجتك، أو ضرب زميلك فى العمل. وإذا عملنا بهذه القاعدة فى حالات انتقائية؛ فإنه غير مسموح أن نطبقها فى كل حالة، غير أن هذا هو ما يفعله المجرمون. وبالنسبة إلى هؤلاء المجرمين فلن يمكننا إقناعنا بتأثير "الكيمياء" أو خلل فى العقل عندما يتعلق الأمر بمجتمع كله من الناس الطبيعيين الأسوياء. وهناك طريقة أخرى للإقناع بدعوى الضرورة؛ وهو أن تدعى الدفاع عن النفس، والجدال حول هذا الادعاء شائع وعام خصوصا فى حالات الحروب الأهلية والعصيان المدنى والتمرد. والثورات السياسية مثلما يحدث كثيرا<sup>(١٥)</sup>. وقد يكون ذلك مقنعا فى مجتمع مشحون بالنزاعات مثل "رواندا" حيث الشعار هو "اقتل أو تقتل" مع التهديد بالغزو أو بالمذابح (وقد حدث كلاهما بالفعل على مدى سنوات قبل وقائع الإبادة الجماعية عام ١٩٩٤، والتي قُتل فيها آلاف من الضحايا)، ويكون الجدال حول الدفاع عن النفس مستعصيا على التصديق إذا كان هدف "هستيريا القتل" أقلية لا خطر منها. أو جماعة ضعيفة قليلة العدد ومطبعة للقانون. كما كانت حال اليهود فى ألمانيا قبل الهولوكوست.. عندئذ يحتاج المجرمون التوسع فى منطق تبريرهم بالدفاع عن النفس حتى يشمل تهديدات خفية لا يلحظها معظمنا أبدا، حيث تصبح الأقليات البسيطة هدفا للمصير البيولوجى أو الثقافى المحتوم، أو تُعرف بأنها الطابور الخامس لعدو خارجى، أو كليهما<sup>(١٦)</sup>. ويحتاج المجرمون غالبا إلى تبريرات من هذا النوع بعد ارتكاب عمليات القتل الجماعى (هذا إذا سئلوا عن مبررات لأفعالهم،

ومعظمهم لا يسألون)، ذلك لأن القتل الجماعي يميل إلى اكتساح الذين لا خطورة ولا ضرر منهم - كبار السن، المعاقون، النساء الحوامل، والأطفال - وقد لا يفعلون هذا مع من كانوا خطرين بالفعل.. كيف يكون ذلك!

والإجابة، ولا تتعجب أو تدهش، هي إعادة تصنيف كل فرد على أنه خطر، حتى من لا يشكلون تهديداً بيننا ووضحا بالعدوان. ويقول أوسكار جروننج "Oskar Groening" - أحد رجال SS وحدة البوليس النازي الخاصة - الذي أرسل في مهمة إلى مدينة أوشفيتز "Auschwitz" (\*) عام ١٩٤٢، عندما كان عمره واحداً وعشرين عاماً، إنه عندما سُئل بعد هذه المهمة بكثير، لماذا قُتل الأطفال في غرف الغاز، أجاب: "الأطفال ليسوا هم الأعداء حالياً. العدو هو الدم الذي يجري فيهم، العدو هم عندما يكبرون ويصبحون يهوداً خطرين، ولهذا فقد تأثر الأطفال بما حدث" (لاحظ تخفيف الفعل ومعاناة الأطفال بتلطيف التعبير عنه بكلمة "تأثر")<sup>(١٧)</sup>، ومع ذلك فليس النازي وحدهم هم الذين يقدمون لنا مثل هذا المنطق.

وفي أثناء الحرب العالمية الأولى، عندما هاجمت الحكومة التركية الأقليات من الأرمن، قيل إن وزير داخليتها صرح لأحد المراسلين الألمان قائلاً: لقد تلقينا اللوم لأننا فرقنا بين الأرمن الأبرياء والمذنبين، لكن ذلك لم يكن بالإمكان أبداً، وكان غير ممكن إطلاقاً، نظراً لأن من كانوا أبرياء اليوم ربما سيكونون مذنبين غداً". قارن هذا أيضاً مع ما قاله أحد القادة في جيش السلفادور لجنوده وهو يأمرهم بأن يقتلوا الأطفال في المذبحة التي وقعت في قرية إلموزوت "El-Mozote" عام

---

(\*) هذا هو اسم القرية باللغة الألمانية. لكن اسمها في نواتر المعارف وشبكة المعلومات يكتب بوجه آخر (Oswicim)، وهي مدينة صغيرة في جنوب بولندا اتخذها الألمان بعدما احتلوا بولندا مقراً لمعسكرات التعذيب، وهي تقع في منطقة حيوية تشكل مركزاً لوصلات السكك الحديدية ومركزاً لبعض الصناعات الكيميائية والمصنوعات الجلدية. وتحولت إلى متحف للعدوان النازي عند عام ١٩٤٦.

١٩٨١ "إن لم نقلهم الآن، فسوف يكبرون ويصبحون ضمن جيش العصابات". هذه أقوال من ثلاث ثقافات مختلفة، لكن عرضها للأسباب والتبريرات المفتعلة والمبادئ الميالة هو التبرير نفسه، إنه عرض واحد متطابق<sup>(١٨)</sup>.

إن هذا هو ما يجعل "فج الماهية أو الجوهر" - الذي وصفناه في مقدمة الكتاب - مقررًا ويدعو للاحتقار، لأننا لو غيرنا أسباب ودواعي خطورة الفرد من سلوكه إلى جنسه وكنيونه؛ فإن ذلك سوف يتعارض مع إمكان تغييره للأفضل! وسواء طبقنا ذلك على المجرم أو على الضحية؛ فإن فكرة "نبذ الآخر" تمزج الناس وتخلطهم ليصيروا جموعًا وجاهيرًا مطموسة الملامح بلا أى اختلافات أو فروق. والمصطلحات والاستعارات التي تُستخدم في رؤية "الآخر"، مثل "الجماعة / الحشد"، أو "الطاعون / الوباء"؛ تلتصق بسهولة بمجاميع كثيرة لا ملامح لها بدلاً من أن تحدد ما يميزهم كأفراد<sup>(١٩)</sup>. ويُعتبر هذا شيئًا مفضلًا بالنسبة إلى المجرم والضحية على حد سواء، حيث إن كليهما زمر وجماعات فرعية مختلفة ومتنوعة من البشر. فمن الممكن أن يكون بعض الضحايا قساة، متعطرسين، مخادعين. أو حتى يكونوا مجرمين؛ وبالمثل فقد تكون هناك مجموعات متفرقة بين الذين يرتكبون جرائم حرب من المدفوعين بهوس الأيديولوجيات، ومن الانتهازيين الطماعين، ومن المرضى النفسيين الذين يتعمدون الثأر بسبب خطأ بسيط، وجميعهم إما أعضاء "يتقنون" ويفخرون بمهارتهم في إنهاء عمليات القتل. وإما أعضاء صغار يسعون إلى إرضاء وإبهار رؤسائهم، أو مبتدون يحاولون ألا يصرخوا أو يتقنوا أو يغمى عليهم، ولو أطلقنا على كل هؤلاء المجرمين وصف "أشرار"، فإن ذلك تعميم مضلل ولا يحدد شيئًا، تمامًا مثلما نطلق على ضحاياهم كلمة "خونة" أو "قذرين"، فهذا أيضًا تعميم بلا مصداقية ولا معنى له.

وفي حالة وضع الضحايا في حكم "الأخر": فإن اللغة الفعالة والمؤثرة هي ألقاظ مثل "الوباء"، "الضياغ"، أو "انيلاك" على وجه التحديد. فقد حولت "كيمياء" أو "كيمياء" النازية مسألة اليهودية من حالة اضطهاد أتاني ليذا الجنس إلى مسألة حرب (حياة أو موت وعدو يخشونه كموت من "وباء"). مستخدمين فيها تبرير حتمية توفير السلامة لأنفسهم، حتى يقننوا ويبرروا القسوة على نطاق جماعي كأمر مشروع. وعلى العكس من كل المحاولات "الخيميائية" (التي كانت تسعى إلى تحول المعادن الخسيسة إلى ذهب) فقد حولت دولة هتلر، مثل كل اتجاه وحشى على مدى الأزل، حولت شيئاً نفيساً لا يعوض - حياة آدميين - إلى شيء لا قيمة له بالمرّة. جثامين بلا أسماء أو هوية. لقد كان حلم علماء "الكيمياء" فى العصور الوسطى هو تحويل المعادن الرخيصة إلى ذهب، وكانت تلك خرافة لم تتحقق أبداً- لكن هذه المحاولة بالمعنى الإنسانى تمثل حلم الخلاص من الخطيئة إلى الصلاح، وقد عُرف أنه بالإمكان أن يتحقق، فالناس بالفعل يغيرون من مجرى حياتهم، ويغيرون مسلكهم ويمتنعون عن الشرور والآثام، ويمكن أن يتعلموا تدريجياً كيف يحبون الغير؛ غير أن الخلاص من الإثم مثل أى عملية ديناميكية مضادة يستلزم قوة وطاقة وجهذا كبيراً. أما التحول العكسى، من شخص حى إلى نفاية بشرية فيستلزم جيداً أقل بكثير وهذا ما حدث فى مدينة "أوشفيتز" وفى سجن تول سلنج "Tuol Sling"، وكل ما يشبههما من أمور بشعة شائنة<sup>(١٠)</sup>. إن ما يجعل القسوة بالغة انفضاعة، وما هو أكبر من الإيذاء الحسى والمعاناة، والتجريد من الرتب العسكرية. هو تجريد الإنسان من آدميته والتجرد من المعانى الإنسانية.

لقد كنا نظن أن معسكرات الموت والإبادة الجماعية لا ليس فيها ولا جدال حولها، إلا أن هناك من ينكر الهولوكوست، وليسوا جميعهم يفعلون ذلك من منطلق الجهل، إنهم يفعلون ذلك لأن معتقداتهم تجعل قبولهم به مستحيلاً (وسوف نفحص فيما بعد كيف تهيئ لهم مثل تلك التحيزات التأثير المضلل الذي يُعميهم). وفي حالات كثيرة من القسوة أقل مأساوية من هذه الحالة، كان المشاهدون الذين دورهم هو الحكم المجرد ميالين إلى الخضوع إلى عديد من التحيزات<sup>(٢١)</sup>، وعلى سبيل المثال، فإن المجرم ذا المكانة الرفيعة، أو الذي يميلون إليه ويحبونه، ليس من المحتمل أن يُحكم عليه باقتراف فعل القسوة، أما إذا كان الحكم على عضو من جماعة بعيدة عنهم وغير ميالين لها فسوف يختلف الأمر.. وبالمثل فإن المشاهدين من المحتمل أن يتعاموا عن أفعال القسوة ضد ضحية من طبقة متدنية أو ذات مكانة وضيعة (خصوصاً إذا كان عضواً في جماعة من يسميهم جون كونروي "John Conroy" طبقة من يستحقون التعذيب" من المهمشين في المجتمع، إنهم يعانون أكثر من أي فرد ممن يماثلهم في المكانة، والمظهر والسلوك<sup>(٢٢)</sup>).

والعامل الرئيسي المُحدد للتعامل الإنساني، كما ذكرنا من قبل، هو الرابطة العاطفية بين الناس، فكما اهتم الفرد بإنسان آخر وأحبه، كان من السهل أن يتعاطف معه ويتجاوب مع مشاعره. لكن كلمة "تعاطف" ليست هي الكلمة الأخيرة أو العامل الوحيد، فبيناك عواطف أخرى مثل السعادة أو الحزن؛ يمكننا أن نلطف أو نغير من حدة المشاعر. أما "الاحتقار" أو "القرف" فغالبا ما يكتم المشاعر ويقضى عليها تماما. وعامل مهم أيضا هو "العلم" والمعرفة؛ فما نعرفه أو نعلمه عن شخص ما يؤثر

تأثيراً كبيراً في تعاطفنا معه من عدمه، كما أن التعاطف مع الآخرين، خصوصاً إذا كان يتعلق بموضوع القسوة، له شقان ويعمل في اتجاهين (الفاعل والضحية)، ولو طبقنا هذا على الضحية فسوف يجعلنا - التعاطف - نراعى المبادئ الأخلاقية بحق وأن ندافع عن حقوقها الإنسانية المهذرة، لكننا لو طبقنا مبدأ التعاطف على المجرم؛ فإن ذلك قد يجعلنا نتغاضى عن الإهانة ونلجأ إلى العقلانية المعتدلة. وهذا الإطار الأخلاقي والمنطقي قد يقوى العواطف؛ لكنه ربما يفقدها التماسك والحيدة في الوقت نفسه.. إننا لا نستطيع الاهتمام عاطفياً بكل الناس وبالدرجة نفسها.

إن المبادئ الأخلاقية الأساسية هي المبادئ المحلية القريبة منا والشائعة، وينقصها التعميم الذي تفرضه منظومة الأخلاق الوضعية، والقائل بأن كل "الرجال" (الناس) متساوون؛ لذا فإن المشكلة هي معاملة بعض "الرجال" على أنهم يستحقون المساواة أكثر من الآخرين.. وسوف يعتمد حكمنا على فعل ما بأنه "قاس" على ما إذا كنا نعتبر هذا الفعل أمراً مسلماً به- ولا يوجد هدف للفاعل يبرر ما فعله - وهذا بدوره يعتمد على من هو الفاعل وما علاقته بنا<sup>(٢٣)</sup>. وسوف يختلف حكمنا على هدفه ومقدار صحته وأهميته باختلاف أولوياتنا وأيضاً حسب فكرتنا ورأينا عن الفاعل.

ويولد الإنسان البالغ العادي بقدرة ذاتية فطرية على التعاطف مع الناس، وإذا تربت وتغذت هذه القدرة بطريقة صحيحة؛ فإنها تروّع الإنسان وتجعله حزيناً فزعا إذا ما صادف مشهداً من مشاهد القسوة. وتستجيب منظومتنا الأخلاقية سريعاً لأمارات وعلامات الخوف، والجزع، والألم عند الآخرين<sup>(٢٤)</sup>. وقد يأتي التحيز بعد رد الفعل الابتدائي الأولى، وذلك في مواقف يكون فيها المجرمون غير بعيدين عنا، وليسوا "الآخرين"، أو ممن نحبهم ونحترمهم، أو من الأصدقاء أو حتى من أعضاء جماعة بارزة ننتمى إليها.

وكون الجماعات معروفة أو بارزة يعتمد على الموقف. ولو رأى موسى "Moshe" - وهو شخص إسرائيلي أو مساند لإسرائيل - جماعة من الجنود الإسرائيليين يضربون طفلاً فلسطينياً، ومن المفترض أن انتماءه للجماعة البارزة وهي إسرائيل، لكن حكمه سيعتمد على أمور أخرى هي، مثلاً، التزامه بالأيدولوجية الإسرائيلية، وإلى أى مدى تمثل معتقداتها - كدولة - شيئاً مهماً لمشاعره وإحساسه بالذات.. وهكذا، كلما كانت جماعة الانتماء مهمة وبارزة له كان الصراع الداخلي عند هذا الشخص أشد إذا رأى أفراداً من جماعته (مثلته) يتصرفون بهذه القسوة، وكيف له أن يتحلل من هذا الصراع؟ أحد الاختيارات هو ببساطة ألا يصدق القسوة التي رآها بعينه (وهي حقيقة واقعة)، لكن هذا هو الطريق إلى "الهوس" والاختلال العقلي أو تحديداً هو فقد الصلة بالواقع. وهناك اختيار آخر، أن يلجأ - هو - إلى إعادة تفسير الواقعة بأن يقرر، مثلاً، أن هؤلاء المجرمين ليسوا فعلاً "إسرائيليين حقاً"، لكن هذا شيء بسيط لأن الجنود يظهرون بوضوح باعتبارهم ممثلين رسميين لإسرائيل، أو بإمكانه رفض تعريف نفسه باعتباره إسرائيلياً، ومجرد التفكير في ذلك سيكون مؤلماً بالنسبة إليه، لذلك فإن "موسى"، مثل آخرين كثير قبله ممن لا حصر لهم، سوف ينزلق إلى طريق آخر. زلج هو أن يجد العذر لما بدا له منذ الوهلة الأولى فعلاً لا يغتفر ولا تبرير له. عليه الآن أن ينكر أن ما بدا له أنه قسوة كان حقيقة شيئاً قاسياً وذلك بأن يجد تبريراً لسلوك الجنود، وعندما تترر الأفعال فإن ذلك يعنى انتفاء وضياح الدافع للإيذاء ومن ثم وجوب العقاب. والبحث عن أسباب ومبررات هو بالفعل أسهل الاختيارات المتاحة لـ "موسى". أما المشاهدون لهذا الموقف - من غير المرتبطين بانتماء مثله - فإنهم سوف يدينونه؛ لأنه تغاضى عن فعل وحشى وصفح عن مرتكبيه. قد لا يفهمون قدر خسارته لو أنه كان له اختيار آخر. لقد كان مقيداً بين الشك في حقيقة الواقعة وبين بتر هويته وانتمائه وميوله الإسرائيلية.

ومشكلة التصنيف التي تضطرنا إليها الانحيازات الأيديولوجية المتصارعة والميل إلى إيجاد مبررات مُدعمة بالأسباب التي نرددها: (لقد عذب نفسا، أنت فى غاية الشدة، لقد اضطر، وفعلها لضرورة ملحة)، هى أن القسوة هى فقط ما يراه المشاهد، وحتى المشاهد المتحيز جدا قد يفزع ويرتعد بسبب بعض الفضائع الوحشية؛ فالأمريكان الذين أيدوا بشدة حربا فى العراق. وهم يدركون تماما أن الحرب تعنى قتل الناس، كانوا مذعورين من صور التعذيب فى سجن "أبو غريب" التى ظهر فيها المسجونون العراقيون وهم يعانون من الإذلال والإهانة. وما ميز أبو غريب هو أن تعذيب هؤلاء الضحايا كان بلا سبب ولا أساس، وقد ظهر أنه بلا هدف سوى تسلية ومنتعة من قاموا بهذا التعذيب. وبمعنى آخر فإن بعض الأفعال تُحدث معاناة لا يمكن تبريرها ببساطة بأى أهداف يعلنها الفاعل، حتى إن رآها مرضية له. وكثير من الأعمال الوحشية فى زمن الحروب من هذا النوع، كما فى حالة يومر فيها الجندي بأن يقتل خصومه؛ فيرى أن يعذبهم أو لا قبل القتل، وهذا هو الألم الإضافى بلا سبب أو ضرورة، لأنه لم يُطلب منه ولأنه غير ضرورى كجزء من عملية القتل، فهناك طرق أخرى للقتل أسهل وأسرع، والوقت الذى يستغرقه التعذيب يُعطل الجندي وبذلك يقل.. معدل القتل، وهكذا فإن القسوة تكون فى بعض الأحيان معطلة للإنتاجية على عكس المقصود. أما القسوة المتناهية هنا بمتعة التعذيب؛ فإنها تشير إلى رغبات مفزعة أخلاقيا، فهى استمتاع وابتهاج بالألم الذى نزل بهم وهذا فقط من أجل إحداث متعة للفاعل أكثر من كونه وسيلة لغاية أخرى. إن هذه المتعة هى التى تجسد أسوأ التجاوزات فى القسوة. فهى سلوك يسبب المعاناة لضحية أو ضحايا لا تستحق ذلك ودون أى سبب آخر غير إدخال السرور على نفس المجرم.

وفى القرن التاسع عشر، وجدت اللغة الإنجليزية اسماً جديداً لـ "الجوع" والاشتهاء البغيض والكريه للإيذاء: السادية.

## اشتهاء الإيذاء:

من الناس الذين اشتركوا فى الحروب أنواع حفزت فيهم المشاركة فى الحرب أكثر الدوافع السادية شراً . وعلى سبيل المثال طلب رئيس إحدى جماعات إطلاق النار من عدة مئات من اليهود من جميع الأعمار، ذكورا وإناثا، أن يخلعوا ملابسهم وينطلقوا جرياً فى حقل بإحدى الغابات، ثم حصدهم بمدفع رشاش. ولقد قام حتى بتصوير هذه العملية بكاملها.

(من حديث أدلى به فى عام ١٩٥٧ ألبرت هارت "Albert Hartl" قائد فرقة القمصان السوداء فى الجيش النازى "SS- Obersturmführer" )

عرفنا مصطلح "السادية" من كتابات فترة التنوير الأوروبية، وبالتحديد من كتابات "دوناتن الفونس فرانسوا" "Donatien Alphonse francois" أو الماركيز "دى ساد" (١٧٤٠ - ١٨١٤)، الذى ربط بين الشهوانية والقسوة فى أعماله مثل رواية "جوستين"، ومئة وعشرون يوماً فى سدوم" وأعطى السادية بذلك مسحة جنسية. وأوضح "دى ساد" أيضاً العلاقة بين القسوة والإشباع الجنسى: إنها الأنانية المطلقة. وفى "جوستين" مثلاً يقول الراهب الفاسق كليمنت "Clement": إن مشاركة المرأة

الرغبة الجنسية تجعله ينشغل بها ولا يحظى بالمتعة الكاملة لنفسه. لذا فإنه يلجأ للتحايل على المرأة حتى تزهد فيها:

إني أسأل، وما الضرورة في أن تشاركه  
المرأة هذه المتعة؟ إن في حرمانها من ذلك فخراً  
للرجل. وعليه أن يمنعها بشدة من هذا الإحساس  
ويجعلها تترك سعيها لهذه المتعة حتى يستأثر بها  
وحدده. ليس مشاركاً في هذه العملية، إنه هو  
السيد الذي يفرض ما يريد<sup>(٢٥)</sup>.

إن إيذاء الناس الأضعف منهم هو مبعث سرور دعاة السادية. وهم يعتقدون هذا الفكر مع احتقار وازدراء كامل لكل القيود الإنسانية والقانونية والأخلاقية، فالقسوة هي التي ترضى غرورهم "وتشبع كبرياءهم" وتعطيهم الإحساس بأنهم "المتحكمون"، فالقوة هي الصواب في هذا العالم المفترس الجارح.. إنهم ينعمون وينتشون عندما يظلمون بأنواع أخرى متنوعة من الألم والحزن للآخرين: الاغتصاب العنيف والزنا بالمحارم، والتعذيب، وحتى تشريح الناس وهم أحياء (الأطفال وليس الحيوانات). ولا يكتفى "دى ساد" فقط بأن يصف القسوة بأنها تُشبع رغبة شخصية دنيئة (السادية)، لكنه يؤكد أنها رؤية عدمية تنكر القيم والمبادئ الأخلاقية وترى أن عدم المبالاة بمعاناة الآخرين هو الحقيقة الثابتة في الطبيعة وأن الرحمة والتعاطف عُرف وشيء مكتسب يتعلمه الإنسان فيوهنه ويضعفه، وبهذا فهو يدعو إلى جمود الإحساس ويرى أنه هو العماد الملزم والضروري لمناصري السادية، وعليهم أن يهملوا ويغفلوا الضحية ولا يعتبروها شخصاً أو "بني آدم":

إن الضرورة المتبادلة كى يسعد كل فرد  
الآخرين لا يمكن قانوناً أن توجد إلا بين شخصين  
لديهما قدر متساوٍ من القدرة على إيذاء  
بعضيهما، وبناء عليه فهى قوة بين شخصين  
قوتيهما وقدراتيهما متكافئة: ومثل هذا الارتباط  
لن يوجد أبداً إلا إذا تم التعاقد بينهما حتى لا  
يضطر كل منهما أن يستخدم ضد الآخر أى نوع  
من القوة أو ما قد يؤذى الآخر. إلى هنا كل شىء  
جيد ... لكن هذا الاتفاق والتعاقد المضحك لن  
يصلح أبداً، بالتأكيد، بين خصمين أحدهما قوى  
والآخر ضعيف. وما الذى يعطى الحق للضعيف؟  
أن يطلب من القوى أن يعامله بالحسنى؟ وأى  
نوع من الأغبياء يملك القوة ثم يخضع لمثل هذا  
الاتفاق؟ إنى أوافق على ألا أستخدم القوة ضد من  
تجعله قوته مهاباً يخشاه ويخافه الناس، لكن ما  
الذى يدفعنى أو يضطرنى إلى أن أتهاون وأنزّل  
بمستوى تأثير قوتى على المخلوق الذى جعلته  
الطبيعة فى مرتبة أدنى منى؟ فهو خاضع لى وأقل  
قوة وشأناً منى.

هذه شخصية تعاني مرضاً نفسياً: سأكون متحضراً مع القوى.. وسأفعل ما  
أريد مع أى إنسان آخر، واللجنة على الجميع. والمجرمون المتوحشون من أتباع  
دى سادس - معظمهم وليسوا جميعاً- من الذكور يمثلون ويثبتون بوضوح وجهى

القسوة / اللا مبالاة المطلوبة؛ كي تكون قاسياً، والابتهاج والإيذاء الذى يؤدى إلى أسوأ التجاوزات - ويتشابك ويتحد كلاهما ليوجبا العنف المتزايد. واللا مبالاة ضرورية؛ وإلا أصبح التعاطف سبباً فى الأسى لحال الضحية فيتوقف الفعل السادى. لكن اللا مبالاة بمعاناة الضحية تؤدى إلى جمود القلب والحس؛ فيكون الضرر والإيذاء متواصلًا لتحقيق أهداف أخرى، وعندما تصبح هذه الأهداف ذاتها هى خلق مزيد من الألم تتحقق أقصى درجات القسوة من أجل القسوة.. وهذا هو الشر الذى نسميه السادية. وهذا اللفظ، على الرغم من تاريخه الذى يشير إلى أنه لا ينطبق كلية على الإيذاء الجنىسى، سوف أستعمله بمعنى أوسع كى أشير إلى القسوة التى تقع على الضحية عندما يصبح إحداث المعاناة مرتبطاً بأى نوع من الكسب: كيميائى. جنسى، مالى، اجتماعى... وهكذا. وأتباع السادية لا ينقصيم ما يسميه علماء النفس "القدرة الذهنية والفكرية على التفكير والتعقل"<sup>(٢٧)</sup>. إنهم بارعون فى النفاذ إلى عقول ضحاياهم - وعديد منهم تميلوا واستغرقوا بعض الوقت كى يجروا حواراً ونقاشاً ممتداً ومهماً مع بطلة رواية "جوستين" فيما بين نوبات تعذيبها - والنص الروائى لا يقدم دليلاً على أى قصور أو نقص فى قدرتهم على التفكير، والتقليد، أو الاستمتاع أو الشعور بالألم أو إدراك معاناة وعذاب ضحاياهم، ولكن يبدو أن ما ينقصهم هو أى دافع، مهما كان، تجاد رفع وإنهاء هذا العذاب عن ضحاياهم (وخلافاً لذلك فإن "جوستين" نفسها تشعر بالأسف والحنان والتعاطف مع انضحايا الآخرين وتكاد تشاركهم الألم وتتمثل معاناتهم). إن هؤلاء المجرمين ليسوا كائنات من عالم آخر وليسوا نوعاً من الإنسان الآلى؛ إنهم يتركون الألم ويعرفون التعاطف أيضاً (وقت يتلذذ بعضهم بتلك المشاعر و"الإعراض").

وغلظة الفؤاد شىء قائم بذاته. نحن قد نتعاطف أو ندين، لكننا لا نستطيع أن نرغم أنفسنا على الغييم. إننا حتى قد نخاف فعل الشر ونفكر: "لولا نعمة من الله"

لكنت فعلتها. وقليل منا يقصد الاقتراب عمداً من قتل شخص لمجرد رغبته فى ذلك، لكن السادية غير مقبولة وغير إنسانية؛ وتعد خارج نطاق ما هو ضروري وحتمى. إنها لذلك تسقط فى هوة الرفض الأخلاقي، وهذا على الأقل ما يراه معظمنا، وقد يراها بعض شيئاً مثيراً؛ فإن هذا الاحتمال لا يمكن قبوله بسهولة (وسوف نعود لمناقشة المتع الحسية فى "السادية" بالفصل الثامن).

ربما لا يدرك المجرم بليد الحس قدر المعاناة التى يسببها لغيره، أو ربما لا يعنيه هذا الأمر. وعدم الاهتمام بمعاناة الضحية لا يقابله متعة الفاعل، أما عندما تصبح المعاناة نفسها هدف الفاعل ومتعته فقط، فسوف يتخطى حالة اللا مبالاة وبلادة الحس إلى السادية؛ ذلك لأن القسوة السادية تقصد لذاتها وليس باعتبارها وسيلة لغاية أخرى، وهى أكثر أنواع القسوة مدعاة للإدانة والخوف، وأقل أنواع السلوك القاسى فيما، وهى تولد السلوك الإنسانى الذى يدفعنا إلى اعتبار الساديين كشياطين أشرار شديدي البشاعة. وقد يقودنا الضعف الإنسانى إلى غلظة الفؤاد لكن القائد الذى يجرننا إلى ظلمة القسوة السادية، هتلر "Hitler" أو بول بوت "Pol Pot" أو ستالين "Stalin" أو "جنكيز خان"، هو الشرير العبقري الذى يحمل أكبر عبء ووزر أخلاقى. ويلزم دائماً أن يكون هناك "واحد" أو قائد تلقى عليه هذا الوزر؛ لأن السادية شر والشر هو "الأخر"، وليس نحن. ويعكس التمييز بين السادية وجمود القلب الفروق نفسها التى طرحت سابقاً بين مبادئ الأخلاق الأساسية والمبادئ الوضعية للأخلاق عند حكمنا على الناس. وكلاهما يتناقض مع المنطق العملى "البارد" - الذى لا يهتم كثيراً بالعواطف- أو مع ردود الفعل "الساخنة" التى يبدو أحياناً أنها تصاحبهما وتعتمد عليهما. إننا سواء فى حالة التعاطف أو إذا دفعنا عواطفنا شديدة السلبية إلى الإدانة، يبدو أننا قليلاً ما نهتم بأهداف المكسب والخسارة التى قد يتم حسابها منطقياً، فنحن نبغض ونحتقر

المجرمين جامدى الحس من قساة القلب ولكننا مع ذلك ننظر لهم على أنهم بشر يستجيبون للدوافع والعقوبات، وبذلك نعتبرهم قادرين على التفكير العقلانى مثلنا. أما الساديون، من جهة أخرى، فإنهم مفزعون مخيفون يبعثون الخوف فى نفوسنا بما يشبه شعورنا بالخوف من نمر أو حيوان كاسر. هذا لأنهم يمثلون رغبات تسعى إلى التهديد والإيذاء ولا يحكمها منطق الأسباب والدوافع التى قد تجعلهم يغيرون من سلوكهم. وفى واقع الأمر فإن هذا التناقض، عملياً، ليس واضحاً، إذ يمكن أن تتأرجح نظرتنا بين أن نرى مجرماً كشخص شرير لا يمكن إصلاحه وسادى لا يمكن النفاذ إليه أو التقرب منه، أو أن نراه فى ظروف أكثر إنسانية، باعتبارده بشراً تصرف وأخطأ لأسباب يمكن إدراكها.

### ممارسة السادية وجمود القلب - مثال:

السلوك القاسى يندف عمداً إلى إيذاء الضحية أو الضحايا، وقد يلجأ إلى الإقلال من صورة المعاناة، إما باستخدام فكرة نبذ الآخر حتى يقلل من شأن أو منزلة الضحية وقدرتها على الإحساس بالمعاناة، وإما أن يختار ببساطة ألا يفكر فى عذاب ضحاياه؛ لكن بعض المأسى تمثل معاناة واضحة جداً لدرجة أن الإنكار لا يقره كل من شاهد الفعل، ويصبح نبرة مبالغاً فيها. وهذه المعاناة الواضحة قد لا تعنى السادية من جانب الفاعل، فإنه هو / أو هى قد يرى إصابة الضحية على أنها هدف كرهه لكنه ضرورى ولازم، إنه خطة تجاه تحقيق هدف أعلى ويستحق الجهد. وإن كان الإيمان ببدا الهدف قوياً بدرجة كبيرة؛ فإنه يدفع إلى تحقيق أفعال وحشية مذهلة. على الأقل فى عقل من يرتكب هذه الأفعال. وحتى النازى الذى شغل يوماً بعد يوم فى "إدارة" الهولوكوست احتفظ بقدرته

على التمييز بين قسوة القلب والسادية، إن المجرم لا يحتاج بالضرورة إلى أن يطرح حمولته من المبادئ الأخلاقية جملة ومرة واحدة، في السوق؛ لكنه قد يفعل وما يساعده في ذلك الفعل هو غلظة القلب. و بالنسبة إلى النازي كان الإهمال والتجاهل وعدم الاكتراث بضحاياهم جزءا لا يتجزأ من القانون والقواعد التي يتبعها المحاربون لديهم.

وفي أكتوبر ١٩٤٣، ألقى هينريك هملر "Heinrich himmler" كلمة في أعضاء فرقة القمصان السوداء بمدينة بوسن "Posen" - (اسمها الآن بوزنان Poznan) في بولندا، وصارت كلمته مشهورة بسوء السمعة بسبب غلظة القلب<sup>(٢٨)</sup>. أكد هذا الضابط في كلمته إلى الرايخ الثالث أن الواجب يعلو على العدول عن الفعل، عندما تكون الميعة هي "أن يقف الرفاق الذين فشلوا في أعمالهم ووجههم للحائط لتطلق عليهم النار". (وفي هذا إشارة إلى قيام النازي في "التطهير الثوري" بالتخلص من إرنست زروم "Ernst rohm" ومعاونيه في عام ١٩٣٤). والمتحدث هنا يعترف بالضغوط العاطفية التي أحاطت بهذه الواقعة - "وقد ارتجف الجميع" - لكنه أضاف إنه بالإمكان التماسك والتغلب على هذه الضغوط، "فقد اتضح لكل فرد أنه، في أي فترة مقبلة، سوف يفعل الشيء نفسه مرة أخرى إذا أمر بذلك وكان هذا ضروريا. واستمر هملر في كلمته:

إن أحد الأثياع التي يمكن قولها بسهولة  
لقد تم القضاء على اليهود" وكل عضو في أي  
جماعة سيقول لك "هذا واضح تماما، إنه جزء  
من خططنا، أن نقضى على اليهود وهو أمر  
بسيط هين". وعندئذ سوف يأتي الجميع، كل

الثمانين مليوناً من الألمان ذوى الخلق المستقيم،  
وكل واحد معه يهودى "لطيف" مهذب، ثم  
يقولون: كل الآخرين "خنازير"، لكن ها هنا  
يهودى "من الدرجة الأولى".

ولم ير أحد منهم ذلك ولم يتحمّله أحد.  
ومعظمكم سوف يعرف ما معنى أن يرتدى معا  
مئة جسد، أو خمسمئة، أو عندما يكونون ألفاً.  
وعندما تشاهد هذا - وتقاوم الضعف الإنسانى  
وتبقى هادئاً لطيفاً - فإن هذا يجعلنا أكثر صلاحية،  
وهو صفحة من الفخر لم تذكر ولن تذكر.

ما هذا اللطف والتدبير ! الذى لا يسمح للضعف الإنسانى بأن يتسبب فى  
إثناء عملية "إنتاج" عدد وافر من الجثث ويسمح تماماً بالإبادة، بجمود القلب للعدو.  
كان هذا واضحاً فى حديث هملر وكانت حجته: "نحن نملك الحق الأخلاقى، وكان  
علينا واجباً نؤديه لشعبنا، أن نقتل هؤلاء الناس الذين يريدون قتلنا... ولقد نفذنا هذه  
المهمة بالغة الصعوبة ودافعنا عن حينا لشعبنا، وعن سمعتنا وأخلاقنا، وليس هناك  
ما يعيبنا من داخلنا ... فى نفوسنا وشخصياتنا...".

لقد وصلت رسالة هملر إلى أصغر رتبة فى الجنود. وقد كتب القائد العام  
لفرقة القمصان البنية كارل كريشمر "Karl Kretschmer" خطاباً لزوجته وأطفاله  
عام ١٩٤٢، يقول فيه: "نحن نخوض هذه الحرب إما للفناء وإما البقاء لشعبنا...  
إن علينا هنا أن نظهر بمظهر الصلابة والقوة، وإلا سوف نخسر الحرب.. ولا  
مكان للشفقة من أى نوع... ولن نستطيع أن نسيطر ويحكم ويسود الآخرين

إلا من يتحكم بقوة في نفسه وأدائه .. إن الضعف هو ألا تقدر على مشاهدة القتلى، وأفضل وسيلة للتغلب على هذا الضعف هو أن تكرر القتل، حينئذ سيصبح هذا عادة وشيئا تألفه"<sup>(١٤)</sup>.

وعدم الكياسة واللفظ شيء آخر تماما أدركناه. فقد كان الشيء المثالي فى كلمة "هملر" ما قيل عن الجنود الذين سلبوا وسرقوا الممتلكات من الجثث فقال: "لقد أعدموا بلا رحمة أو شفقة". وفى مناسبات أخرى فقد اقترنت مع السرقة ذوافع أنانية أخرى مثل الجنس والسادية وأعتبرها سلوكًا إجراميًا (ورأى الصفات الثلاث كلها من سمات اليهودى كما رآه ونمطه القادة النازيون). مرة أخرى فإن تبرير "هملر"، ضابط الرايخ، كان أيديولوجيًا فالسرقة تلوث السارق: "لكنا لا نملك الحق فى أن نكسب قطعة فراء أو عملة "مارك"، أو سجانر أو ساعة أو أى شيء تسرقه. هناك حق لا نملكه، لأننا فى نهاية الأمر لا نريد ذلك الدنس، ولأننا إذا قضينا على هذه "البكتيريا" وأبدناها فإننا نضمن ألا نمرض أو نموت بسبب البكتيريا نفسها".

والسادية، مثل السلب والنهب، سبة تدين السلوك البطولى، وهى توصف بأنها شيء يصدر من نفس مريضة ومتوحشة، وقد اعتبرها بعض القادة الكبار فى الجيش النازى شيئًا خطيرًا ومهما. وفى عام ١٩٤٠، اشتكى قائد المنطقة الشرقية جوهان بلاسكوفيتش "Johannes Blaskowitz" قائلاً: "إذا كان الضباط من الرتب الرفيعة بالجيش ومن البوليس يأمرون بالقيام بأعمال العنف والوحشية ويمتدحونها علنًا، فلن يمضى وقت طويل حتى يسود ويرقى فقط من يرتكبون أعمال العنف. إنه من المثير للدهشة كيف يرتقى مثل هؤلاء الناس بسرعة بقوات الجيش، مع قادة ضعاف الشخصية، كما يحدث الآن فى بولندا، وسوف تتطلق وتسيطر غرائزهم الحيوانية المريضة". ولقد علق ضابط آخر على عملية إبادة لبلدة يهودية قائلاً: "بالنسبة للطريقة التى نفذت بها هذه العملية، فإننى أقول أسفاً بشدة ومع عظيم

الأسف، إن ذلك قارب على السادية". وبعد عام صدر قرار من القائد العام للرايخ بشأن معاقبة من أطلق النار على اليهود إذا ما لم يكن هذا الفعل قد تم على أساس "الدافع"، فالقتل بدافع سياسى لم يكن لينال شيئاً من العقوبة "إلا إذا كان العقاب ضرورة حتمية بغرض حفظ النظام". وعلى النقيض من ذلك الفكر الذى يرى حجته فى الدافع، فإن النازية كانت مذنبه وتستحق اللوم؛ فانسأدى يتصرف ولديه الدافع، أى بدافع الأتانية والمصلحة الذاتية. والدوافع الجنسية أو السادية يجب أن تُعاقب فى المحكمة، إذا كان الأذى واقعا، بتهمة القتل أو بارتكاب جريمة القتل غير العمد<sup>(٣٠)</sup>.

وقد رأى النازيون، وأقنعوا أنفسهم، بأنهم مشاركون فى حرب من أجل البقاء، حرب شاملة ضد المؤامرة الدولية من اليهود البلاشفة الأقوياء (ووجدوا اليهود مع الروس فى نظام اجتماعى واحد، كما لو كان اليهود فى روسيا لم يخضعوا للاضطهاد). وفى هذه الحرب الشاملة، كما قال هتلر لجنرالاته: "لا يكمن الهدف فى الوصول إلى خطوط معينة، لكن فى التدمير والإهلاك المادى التام للعدو"<sup>(٣١)</sup>. وهناك دليل على أن النازيين راعوا دوافع من كانوا يحاربونهم بشروط شاملة مشابهة. وقد كتب أحدهم فى خطاب لأهله يقول: "لقد أثبت الهجوم بالقنابل ما يخبئه وما يُبطنه لنا العدو إذا كانت لديه القوة الكافية. لقد أدركنا ذلك فى كل مكان ذهبنا إليه على طول جبهة القتال. إن زملائى كانوا فعلاً يحاربون من أجل وجود وبقاء شعبنا. وعدونا كان سيفعل نفس ما فعلنا". وهناك مقاتل آخر. شاهد ما بعد الحرب. ويذكر تعليقه بعد مشاهدة مذبحه فى ليتوانيا: "أدعو الله أن يمنحنا النصر لأنهم لو انتقموا منا. فسوف نمر بوقت عصيب". بمثل هذه المعتقدات عن الدوافع، يكون إهلاك وإبادة كل فرد من أفراد العدو بقسوة ولا مبالاة. من وجهة نظر النازى، مبرراً تماماً. والسادية، من حيث المبدأ على الأقل، ليست كذلك، إلا

أن حقيقة أن "هملر" وقادة آخرين اعترفوا بوجود سادية في أفعالهم وأسفوا لذلك، وهذا يشير إلى أنهم أدركوا أهميتها! هؤلاء لم يكونوا رجالاً بلا مبادئ أخلاقية على الإطلاق. وإذا حكمنا بغير ذلك؛ فإننا سوف نسقط في فخ "الجوهر" و"الماهية"..  
إننى أقدم المواساة، ربما، لكننى كنت مخطئاً. (٣٢)

القتل دفاعاً عن النفس. في قتال من أجل البقاء. يُعتبر - على نطاق واسع - مبرراً أخلاقياً.. وهكذا فإنه، على نحو كامل، ليس نوعاً من القسوة؛ لأن الضحية أيضاً شخص مهاجم مستفز، وكان من الممكن أن يكون مجرماً قاتلاً، ومن ثم فهو لا يستحق الشفقة. لكن القتل من أجل أسباب نفعية يستحق مزيداً من اللوم والزجر ويُحتمل أن نعتبره فعلاً قاسياً، وهذا مفهوم. أما إذا تلذذ المجرم بفعل القتل أو الإيذاء؛ فذلك بصفة عامة يُعتبر شيئاً بغيضاً وكريهاً.. وفي مرتبة الشرور تتفوق السادية وتعلو على غلظة القلب، وكلما زدنا من تعرفنا على الدوافع السادية التي تظهر في فعل إيذاء إنسان، كان الاحتمال ليس فقط أن ندينها على أساس أخلاقي؛ ولكننا نعمل ذلك أيضاً بمشاعر من الغضب والحنق الشديد المُؤسس على عرف أخلاقي يدعم الاشمئزاز من المجرمين<sup>(٣٣)</sup>.

وعندما يصادفنا فعل وحشي يكون رد فعلنا الأولي هو الفزع. وتستند حدة مشاعرنا بعد ذلك إلى ما نعانيه من ضغوط نفسية أو اضطراب عقلي. أو إذا كنا رافضين للعنف أو كنا قد "تثبعنا" بكثير من الوحشية<sup>(٣٤)</sup>. ولو افترضنا أننا لا نعاني الحساسية من قسوة القلب؛ فإن فزعنا المبدئي سيكون سببه الأكبر هو كيف صادفنا هذا الفعل الوحشي.. إن رؤية جثة في نشرة الأخبار تختلف تماماً عما إذا كانت أقدامنا قد عثرت بها، والحالتان تأثيرهما أكبر من أن نسمع عن جثة أو نقرأ تقريراً عن أعداد كبيرة من القتلى. إن الصدمة الطبيعية والنفور الذي يسببه القتل والتدمير يعكس وجود "المفاتيح" التي نشأنا على اعتبارها نوعاً من التحذيرات: الدم، الأحشاء، الأجساد المتحللة أو الممزقة أو التي في حالة غير طبيعية. إننا

كائنات تخيلية وعاطفية، ومثل هذه الصور والأفكار عن تلك الأحوال غير الطبيعية تجعلنا نقشعر ونجفل. ويستفزنا هذا الألم النفسى أحيانا للغضب ونثور وقد يحركنا لفعل ما؛ لكننا نرتد في حزن شديد ونحتمى فى مشاعر أخرى رقيقة حتى تدفع بنا بعيدا عن المشكلة يرمتها.

ومصدر شعورنا بالفزع هو أحكامنا الأخلاقية على المجرمين، وقد لا نقرر شيئا بخصوص ما أفرعنا. ربما تلعب العلاقات الاجتماعية دورا فى ذلك (هل الفاعل "من أتباعنا" أم من أعدائنا- وما مقدار وطنيتنا نحن؟)، والمعلومات التى سوف نجمعها عن دوافع المجرمين، إن استطعنا، وسوف يزداد شعورنا بالازدراء والقرع تجاه هؤلاء المجرمين بسبب قوتهم وعنوانهم البدنى وجمود قلوبهم خصوصا إذا كان هناك ما يثبت أن أفعالهم لم يكن لها ضرورة أو لزوم. وغلظة القلب قد تكون فظيعة، وإجرامية وشريرة، وهى مدانة أخلاقيا. لكن إدانتنا أحيانا تميل إلى أن تكون أقل حدة ربما لأننا ندرك أن غلظة القلب قد أنقذت أجدادنا من السلف، وإننا وحلفاءنا كنا، أو من المحتمل أن نكون، قساة فى مواقف معينة.

أما السادية فهى مختلفة، فالرجل الذى يقضى على طفل برىء لا حول له ولا قوة، أو من يغتصب امرأة قبل أن يقتلها- خصوصا إذا حكى عن ذلك ضاحكا أو مازحا أو تتدر به وتفاخر به فيما بعد- يجلب لنا شعورا بالعار والخزى الأخلاقى. إن المجرم قد لا يظن أن فعله سادى لكننا نحن ندرك ذلك. ومعركة التبرير التى يخوضها كثير جدا من المجرمين وأتباعهم، تتمحور حول "الدافع" و"الضرورة" وحول استحضار التفسيرات التى تجعل قسوتهم تبدو شيئا حتميا، وكلها وسائل غير موفقة، فالدوافع " آثار جانبية"، والفعل ليس من الأخطاء بل إنه تجربة استمتعوا بها ونفذوها من أجل اللذة الكامنة فيها.

ومن المعتقد الآن أن النازية نموذج للقسوة السادية. أما من وجهة نظر قادتهم، فإن أفعالهم لم تكن بلا سبب- إنهم أسوياء ما عدا قليلاً من المنحرفين، "التفاح الفاسد" الذين تلذذوا بتعذيب وقتل الناس العزل. وبالمعنى الذى حددناه فيما سبق، فإنهم لا يعتبرون أنفسهم من الساديين، بل علاوة على ذلك يرون أن إبادة اليهود وأعدائهم الآخرين كانت ضرورة ملحة، ومسألة حياة أو موت، لكننا نحن نرى النازى قساة جداً وبدرجة مقبولة، ويجب أن نسمى معظم أفعالهم أعمالاً وحشية، وعلى الرغم من ذلك فإننا - تجاوزاً - يمكن أن نراها نوعاً من القسوة وليست سادية.. وقسوتهم هذه تخدم أغراضاً وغايات أخرى، أسوأها الابتهاج بالأم الغير، وهذا ليس من شيم الرجال وليس عملاً بطولياً. ولا يصح ارتكابه من الذين تم اختيارهم لبناء الرايخ الذى سيحكم ألف عام. إن أفعالهم أذارت اشمزاز كثير ممن شاهدوها؛ حتى من بعض المقاتلين من وحدات الجيش المختارة فى قواتهم<sup>(٣٠)</sup>.

ولا تختلف غلظة القلب عن السادية من حيث تأثيرهما الحسى والبدنى فى الضحايا. والضرر قد يكون مفرغاً بالقدر نفسه فى الحالين، ومع ذلك فنحن نحكم أخلاقياً على الفعل السادى، وليس على الفعل القاسى، بأنه تجسيد للدرك الأسفل والأفطع من وحشية الإنسان. وكى نعرف لماذا، علينا أن نفحص الاتجاهين اللذين جعلنا نتخذ هذا الحكم: الاتجاه النفعى، والاتجاه الاخلاقى الذى تدعمه العاطفة. ما الهدف منهما وما دوريهما؟ وكيف نستحوذ عليهما ونتمسك بهما؟ وسيكون هذان السؤالان هما موضوع الفصل الثالث.



## الفصل الثالث

### لماذا توجد القسوة؟

إذا كانت نظرتنا على جذور وتطور الحروب قد علمتنا شيئا، فقد علمتنا كيف أن المواجهات الأبدية منذ الأزل وفيما بعد العولمة فرضتها علينا الغرائز الدفينة التي اكتسبناها نحن البشر العدوانيين من "الاصطفاء الطبيعي" (من النشوء والارتقاء والبقاء للأقوى).

(من كتاب باري كانليف "Barry Cunliffe"، جذور الحروب)

ولأن البدايات لم يدخلها الشر

(ملك الخواتم، "ج. ر. تولكين" J.P. Tolkien)

تبدأ المناقشات عن الإيذاء البشري غالبا بمقابلة بين رأيين لاثنين من الفلاسفة العظام. يقول توماس هوبز "Thomas Hobbes" - (١٥٨٨-١٦٧٩)، في وصفه الشهير للحياة في مقال "حالة من الطبيعة": "إنها جديرة بالازنراء، بيا عزلة، رديئة، بها وحشية، وقصيرة". وقد اختار هذا الوصف ليدعم الرأي القائل بأن البشر بطبيعتهم يتصرفون بالعنف وتفتيهم البنية الاجتماعية. أما جان جاك روسو

"Jean - Jacques Rousseau" (١٧١٢-١٧٧٨)، فنشير إلى مفهومه عن "الذبييل المتوحش" الذي سحقت آثار الحضارة المدمرة طبيعته الراضية المطمئنة (الرومانتيكية) عند النشأة الأولى<sup>(١)</sup>. وهكذا؛ فإن التناقض بين "الطبيعة" و"الحضارة" يحدد التعارض بين من يرون البشر طبييين بالفطرة لكن المجتمع أفسدهم، ومن يرون البشر كأشرار تحكمهم وتكبح جماحهم قيود الجماعة، على الأقل في معظم الأحوال.

والتقسيم الحاد بين ما هو اجتماعي وحضاري وما هو طبيعي؛ قد يبدو واضحا في البداية، لكن إذا دققنا النظر سوف تنشأ المشكلات.. أولا، لأن "طبيعي" لا تعادل "طيب" على الرغم من جهود محدودى الرؤية لإقناعنا بغير ذلك، فمرض الملاريا والزلازل شينان طبيعيين. لكن "الناموسية" وأنظمة التنبؤ بالزلازل والتحذير منها ليست كذلك. إن الإنسان طور الحضارة لأسباب جيدة ووجيئة، غير أن كثيرين منا قد لا يوافقون على النتيجة. ثانيا، إن "اجتماعي" لا تعادل "إنسانى / بشرى".

## قسوة الحيوان:

قد تظن الصقر طائرا متفردا لا مثيل له  
يتحكم فى السماوات العلى  
يملك راحته وحرية فى الحرور والرياح  
حتى تأتى ضربة سريعة من الشباك  
يدخلها بينما يعلو الصراخ  
وحاله الآن دليل على القسوة المطلقة

(من قصيدة "الذكرى السنوية" للشاعر "أوجست كلينزال")

(August Kleinzhahler - من ترجمتى)

هناك مخلوقات تحيا في ظروف اجتماعية معقدة؛ تتضمن مشاهد من العدوان في ظروف معينة، مثل الدفاع عن الأرض. وهناك بعض الحيوانات، مثل: القطط، المنك، ابن عرس التي اشتهرت بأنها تقترس ضحاياها بقسوة. أما الشيمانزى والأسود والذئب فيبدو أنها تمارس القسوة ضد فصائلها وأنواعها نفسها، فهي تتجمع ضد الفرد الوحيد منها لتذيقه الموت دون أى خطر على المهاجمين. وبمعنى آخر فإن الضحايا لا يمثلون أى تهديد لقاتليهم، بينما القتلة يثبتون أنهم يعتمدون الفعل قبل الهجوم ويستمتعون بالفعل أثناء الهجوم. أليست هذه قسوة بالفعل؟

والحكم على هذا الوضع سهل بكل تأكيد. ومثلما نرى شواهد من ذلك فى كل مكان؛ فإننا تلقائياً نستخدم المعيار نفسه فى الحكم على قسوة الحيوان؛ كما نحكم على القسوة المتنوعة لدى الانسان: إنها سلوك طوعى متعمد يسبب معاناة يُتنبأ بها لضحية بريئة لا تستحق ذلك. وهناك حالة مؤلمة وممتدة عرضت فى سلسلة "الكوكب الأزرق" فى التلفزيون البريطانى (BBC)، يظهر فيها حوت قاتل يمسك برضيع صغير لأسد البحر، ثم يظهر لنا أنه يلعب بهذا الكائن وهو يحتضر ويقذف به مراراً إلى أعلى فى الهواء<sup>(٢)</sup>. وسواء كان رد فعلنا نوعاً من الرعب "المتجمد" أو الإعجاب مع بعض التعليقات الساخرة أو مع تحليل عقلاى مترفع لهذا الفعل، فإننا سوف يجرنا ذلك إلى اعتبار هذا السلوك نوعاً من القسوة؛ على الرغم من إدراكنا أن الحيتان هى عدو طبيعى لسباع البحر.

وبهذا نقع فى الفخ نفسه الذى ندخله فى حالات قسوة البشر، فنحن نتحيز بمشاعرنا تجاه الضحية وندين الفاعل. وما يقيدنا هو عدم قدرتنا على فهم دوافعه. إن رضيع سبع البحر هذا يبدو أكثر براءة من فأر صغير (مع أن كليهما ضحية). كما أن مقدار حبنا للدرفيل أكثر من الحيتان القاتلة (مع أن النوعين يقتلان ضحاياهما). وكما هو من السهل أن نعتقد أن "دافع" القتل هنا هو التأذى بالتعذيب،

لأننا لا نعلم ولا نفهم لماذا يتصرف الحوت بهذه الطريقة، وهو "الدافع" نفسه الذى نعزل به "الأخر" ونصفه بأنه "حيوانى" أو "وحشى". وقد يكون الدولفين الذى يلعب بأسد البحر مختبراً له ويريد إثارة ردود فعله، أو إنه يترب على أدوار وحركات قديمة، أو يجرب حركات أخرى جديدة، أو إنه يُعلم الجيل التالى مهارات حياتية ضرورية. وكلما كان سبع البحر قادراً على المعاناة؛ فإنه بلا شك سوف يتحملها، لكن الذى لا نعلمه هو هل هذا الحوت يفهم فكرة المعاناة، بصرف النظر عن أنه يقصدها أو يستمتع بها.

وللحق، فإن الحيتان القائلة قريب بعيد لبنى آدم. وماذا عن أولاد عمومنا الأقرب، الشمبانزى، الذى يذكرنا أسلوبه العنيف والمتعمد فى القتل بأنفسنا؛ وإذا فكرنا فى القسوة بشروط الإنسان على أنها "سلوك طوعى وغير مبرر بسبب معاناة متوقعة لضحية لا تستحق ذلك"، فإن هذه الهجمات من الحوت تبدو مماثلة جداً لقسوة الإنسان. ولذا فهى تلفت الانتباه بشدة<sup>(3)</sup>. وكلما ازدادت معرفتنا بالشمبانزى راودنا الشك أن طاقته على استيعاب المفاهيم العالية، مثل فهم أغراض ونيات الغير، قد تكون أكبر مما نظن<sup>(4)</sup>. إنه يشعر بالألم والأسى بكل وضوح، ويبدو أنه يفهم أن المخلوقات الأخرى لديها هذه المشاعر أيضاً وتمارس درجة من التعاطف والفهم للمعاناة. وربما يثبت ذلك أن الشمبانزى مثل الإنسان يمكن أن يبتهج ويسعد عندما يضرب الضحية حتى الموت.

وتشمل القسوة سلوكاً ظاهراً ويمكن أن يوصف هذا السلوك بصفات غير أخلاقية. ودرجة العنف الواردة معه يمكن أيضاً تقديرها. وفى حالة الهجوم المتبادل للشمبانزى يمكننا أن نسأل: ماذا حدث؟ ما مقدار المعاناة الناجمة عنه وما عدد من هوجموا وما مدة الهجوم؟ هل كان هذا الفعل قسراً وهو مجبر عليه؟ هل كان

بإستطاعته تحقيق هدفه بأسلوب أقل ضرراً؟ كما أن القسوة توحى بأسئلة أخلاقية أيضاً: هل الضحايا لا يستحقون ذلك؟ هل كان هدف الفاعل مبرراً للوسيلة التي أتبعته؟ وهل كان مسئولاً أخلاقياً عن هذا الفعل؟ ومن المهم أن ما وراء هذه الأسئلة هو الاعتقاد بأنه من الصواب أن يخضع الفاعل للمحاكمة الأخلاقية ومعنى ذلك أننا نفترض أن المجرمين ليسوا مجرد "مرضى خلقياً"؛ مثل الأطفال الذين يُمنحون حقوقاً أخلاقية معينة ولكنهم لا يُعتبرون مسئولين أخلاقياً عن أفعالهم، فهم عناصر مدركة أخلاقياً، ومسئولون عن سلوكهم وقادرون على الفهم الكامل؛ حيث يدركون أنهم ارتكبوا فعلاً خاطئاً.

وفيما يخص مسألة قدرة الشمبانزى على المعرفة الأخلاقية؛ فإن الجواب عند علماء النفس ودارسى علم الحيوان. ومن العدل أن نقول الآن إن معظم المتخصصين لا يرون أن مثل هذا المستوى العالى من الفهم والإدراك الأخلاقى موجود لدى حيوانات الرتبة الأولى (كالقرود والشمبانزى). وعندما نصف هجوم الشمبانزى بالقسوة، وتفاعل معه بفرع شديد، فإننا نقع تحت تأثير أخلاقى أساسى ينبعث من تقييمنا لأفعال النوع البشرى الذى ننتمى إليه والذى يمتد بعد ذلك لأنواع أخرى، كما يفعل علماء "الأنثروبوجرافيا" عندما يخلعون الصفات البشرية على غير الإنسان؛ لأن الناس لو تصرفوا أو سلكوا مثل هذا السلوك فسوف نظن أنهم قساة القلب. وبمعنى آخر، إننا مستعدون، بسرعة، أن نجعل أحكامنا الأخلاقية تمتد لتشمل أنواعاً أخرى من المخلوقات، سواء كان هناك ما يبرر ذلك أو كان لنا الحق فى ذلك أم لا. وأكثر ما يعيننا هنا هو أننا ندين رفاقنا فى الإنسانية بالسرعة نفسها وأحياناً بهذه التبريرات الواهية نفسها.

## مبادئ الأخلاق والإرادة الحرة :

توجد هنا بالفعل مسألة أكثر أهمية.. إنها تدور مثل النقوب السوداء الدائرية في الفضاء عند كل مناقشة لأفعال الإنسان ووحشيته. وهو التساؤل عن حرية الإرادة، والمسئولية . وهناك رأيان - أولاً: لو نظرنا للمسألة بشروط لا صلة لها بالأخلاق، فإن أفعالنا، مهما شعرنا بأنها فعل حر، هي في الواقع بسبب قهري. وهكذا فهي بمعنى ما "حتمية"، فالمسئولية الأخلاقية لا مكان لها في مثل هذا العالم "البارد" الرمادي. حيث إنها تتطلب محاسبة الناس الذين لم يكن أمامهم مفر من أن يفعلوا ما فعلوه (وهذا ما يقال به حسب مذهب الجبرية). ثانياً: يتمسك المذهب الأخلاقي برأى أكثر قوة بفكرة الالتزام؛ لأنه يرى في الفرد الفاعل وحدة وكياناً مستقلاً حقيقياً أكثر من أن يراه تابعاً أو "وهماً"، فالإرادة الأخلاقية الحرة تعنى أن الناس مسئولون عن أفعالهم على الرغم من خلفياتهم الفاسدة أو تأثرهم بالدعاية وخضوعهم لها، أو رفاق السوء الذين يدفعونهم لهذه الأفعال.

ويمثل هذان الرأيان عن الإرادة الحرة رؤيتين نظريتين تماماً، أما من حيث الواقع العملي، كما أشرنا سابقاً، فإن الناس أحياناً يتقبلون فكرة الجبرية وأحياناً أخرى يصرون على فكرة الالتزام الأخلاقي. وتنتهي المعركة عند "أى العوامل المؤثرة يمكن أن يُعتد بها باعتبارها أسباباً"؛ ومن ثم لا يُؤاخذ الفاعل بالمسئولية الأخلاقية عما يفعله - وهذا ما يجب ألا يحدث. وعلى سبيل المثال، فإن من يعانون من مرض نفسى شديد فى هذه الأيام يميلون الى أن يُعتبروا غير مسئولين عن أفعالهم، ومثلهم من هم مصابون بأمراض عضوية كأورام فى المخ مثلاً. وعلى الجانب الآخر من مقياس السببية هناك عوامل أخرى كثيرة، مثل: علامات

النجوم. وهى غالبا لا قيمة سببية لها (المجرمون الذين يزعمون أنهم ارتكبوا جريمة قتل لأنهم ولدوا فى برج الحمل ربما ينالون شيئا من الرأفة على أساس نفسى وليس لأى سبب فلكى)، وبين هذين الرأيين يوجد مأزق أخلاقى وقانونى معا، لذلك فإن من الأفضل أن يكون الحكم على أساس ظروف كل حالة منفردة<sup>(٤)</sup>.

وكى نتبين عمق هذه المشكلة؛ علينا التفكير فى بعض الأمثلة عن العوامل المؤثرة وراء الفعل، وأحدها هو إطاعة السلطة والذى كشفت عنه أبحاث عالم النفس ستانلى ملجرام "Stanley Milgram"<sup>(٥)</sup>، فقد تبين من محاكمات نورمبرج "Nuremberg" لجرائم الحرب أنه بإمكان السلطات العليا أن تقدم تنازلات أو "مجاملات أخلاقية" - بطاقة "أخرج من السجن بلا حساب" - وذلك عندما أفرجت عن النازيين بحجة دفاعهم أنهم كانوا يطيعون الأوامر، و"الطاعة" ما زالت تقدم تبريرات لكثير من الناس (ليس المجرمون فقط)، سواء كانوا فى إطار إطاعة السلطة، أو فى الإطار الأعم وهو إطاعة دور اجتماعى فرض عليهم أو دور وضعوه هم واتبعوه بأنفسهم. وفى النهاية فإن ذلك خضوعا لإرادة وتوقعات الآخرين، وهذا هو نوع الطاعة نفسها الذى شهدناه بانزعاج فى تجربة سجن "ستانفورد" التى أسرنا إليها فيما سبق<sup>(٦)</sup>.

ويوجد عامل آخر مؤثر باعتباره سببا لأفعال القسوة وهو الإهانة السابقة. وإذا كنت تعتقد أن الإهانة الشديدة فى الطفولة ربما تكون حافزا على القتل المتوالى والمنكر، فإن هذا يعتمد على ثقافتك، وعلى وضعك السياسى، أو على تجاربك الشخصية. وقد جاء فى بعض الأبحاث العلمية أن القتل متعدد الجرائم كانوا قد عانوا من إهانات بالغة فى حداثة سنهم وهم صغار<sup>(٧)</sup>، وهل يعنى هذا أن مثل هؤلاء القتل يجب أن يعالجوا بدلا من أن يعاقبوا (أو أن يعدموا كما يحدث فى بعض المجتمعات). وكلما عرفنا أكثر عن حساسية المخ البشرى لسوء المعاملة،

خاصة في سنوات التكوين الأولى، فإن قائمة المؤثرات الفاعلة من المحتمل أن تتزايد.... وماذا عن الأمراض النفسية واضطرابات الشخصية، والخلط في الأيديولوجيات، والنبيذ الاجتماعي، وإصابات المخ، والمفاسد البيئية؟ وماذا أيضا عن الواندين غير المسؤولين والحرمان في الطفولة؟ ولو عرفنا أكثر عن قيمة وخطورة العوامل السببية؛ فإن كل حالة من هذه العوامل التي ذكرناها سوف تتاح لها "التخفيضات" والتنازلات الأخلاقية حسب ملاساتها. ولو أن كل من تعاطى الكوكايين أو شخصت حالته باعتبارها مرضا نفسيا تحول حتما إلى مجرم، فإن مسألة التساهل ستكون أكثر وضوحا وشيوعا، لكن الحياة ليست بهذه البساطة. ولأسباب كثيرة قوية فإن معيار التساهل الأخلاقي الصحيح والمناسب سوف يبقى غير مؤكد. فنحن ما زلنا لا نعرف بالقدر الكافي كيف نقيم أو نصنع "التعريفة" أو المعيار السليم للتجاوزات والتساهل.

## تجاوزات وتفسيرات:

إن إحدى مشكلات محاولة فهم كيف يكون التجاوز والتعاضى عن الجانب الأخلاقي في السلوك السيئ؛ هي أن مثل هذه الحسابات تجرى في ظروف مختلفة. والممارسات والعمليات القانونية الى تتحدد بها عقوبات المجتمع؛ هي ما يظهر من قمة جبل الثلج الكبير فقط. والإعلام والأصدقاء والزملاء، ونحن أيضا، نصدر الأحكام الأخلاقية بسهولة وبصورة آلية، وأحيانا دون التحرى عن المجرم الحقيقي، فأحكامنا لا تؤثر بالفعل في المجرمين الحقيقيين. وفي الغالب ينتابنا الظن والشك بهم أو نستبعدهم بفعل العاطفة، أو نقدمهم للمجتمع بحيث يكون المتحدث في أفضل صورة ومظهر في نظر معارفه ومعاونيه، ولا عجب أنهم يصورون العدالة على أنها عمياء.

وهناك مشكلة ثانية تتعلّق بالتجاوز فيما يخص الجانب الأخلاقي؛ وهى أن كل عوامل التأثير القوية لا تُتمنّ كلياً بالعملة نفسها ولا تُوزن بالميزان نفسه. وترتكز بعض تفسيراتنا على فكرة القوة أو الهدف والقصد؛ وهذا هو ما أُطلق عليه الفيلسوف دانيال دينيت "Daniel Dennett" تعبير "الموقف الفعلى والرؤية المتعمدة" الذى يرى السلوك فى ضوء الدوافع، أهداف الفعل، والمعتقدات والرغبات، فالحوت هاجم سبع البحر الوليد لأنه أراد أن يأكل. وبسبب ميل الإنسان إلى إطلاق تفسيرات مبنية على القوة فى حالة أفعال الإنسان وآخرين، فقد يشكّل هذا عالمًا رمزيًا بجانب العالم الواقعى المادى، ومن خلاله يستطيع الذين بإمكانهم بناء نظريات عن العقل البشرى الانطلاق. وسوف تمنحهم قدراتهم على تصور ممالك من الألهة والأرواح والقوى الخفية التى تريد بنا خيرًا وسرًا، لو امتدت هذه التفسيرات إلى الحيوان والنبات، وحتى الجبال والكائنات الدقيقة.

أما التفسيرات العلمية للسلوك: فيبدو أنها تختلف كثيرًا عن ذلك. وفى نظرية النشوء والارتقاء تتمحور التفسيرات إما حول "النوع" وإما "الجين" وليس حول الفرد، حيث تشير إلى الأسباب الكامنة وراء فكرة "الانتقاء الطبيعى" وقانون البقاء للأنسب أو الأقوى؛ لذا فالحوت هاجم سبع البحر لأن أجيالاً قبله نشأت وتحورت على أن تأكل سباع البحر (لأن الحيتان التى قتلتها وأكلتها فيما مضى حصلت على تغذية أفضل من الحيتان التى لم تفعل ذلك). وقد مثّل هذا الاختلاف ضغوطًا خاصة بالانتقاء والتحور جعلت الحيتان، جيلًا بعد جيل، يتزايد إقبالها على أكل سباع البحر. لكن التفسيرات البيولوجية السائدة الآن تعطينا تقارير عن السلوك تستند كثيرًا إلى آلية عمل المخ، فالشخص العنيف يلجأ لهذا السلوك؛ لأن هناك خللاً ما فى قشرة الفص الجببى للمخ.. وبهذا يبدو أن مسئولية الفرد عن أفعاله، إن

وجدت. هي وهم. وأعدت عنه بعض التحليلات والتفسيرات التي تقطع أوصال المسؤولية وتمزقياً<sup>(١٠)</sup>.

وتستطيع نظريات علم طب الأعصاب الحيوى الخاصة ببعض سلوكيات الإنسان، مثل رد الفعل الانعكاسى الذى يدفع الإنسان إلى التقيؤ، أن تفسر ذلك دون الرجوع إلى أي مسئولية أو علاقة له بهذا الفعل. (كما سيتضح لنا فيما بعد، لأن هناك قسماً عن رد الفعل الانعكاسى سنتناوله فى الفصل الخامس). أما النظريات الخاصة بالظواهر الأكثر تعقيداً، مثل الشيزوفرينيا والقسوة. فهى متداخلة ولها حدود مشتركة بين علم دراسة الجهاز العصبى وعلم النفس، ويلزمنا أن تأخذ فى الاعتبار مفهوم العلاقات والارتباطات لأن هذا المفهوم مهم بالنسبة إلى أداء وسلوك الإنسان. ولقد تعلمنا أن نقسم العالم إلى علاقات ولا علاقات - تماماً كما تعلمنا قواعد اللغة والتحيزات والتجاوزات - تلقائياً وبسهولة مذهلة.. وأى تفسير للقسوة يتجاهل أو يغفل العلاقات، أو يراها كنتيجة فقط وليست سبباً، سيكون تفسيراً غير كامل<sup>(١١)</sup>.

وينطبق هذا أيضاً على التفسيرات فى علوم الاجتماع والإنسانيات التى ترى أسباب السلوك وفقاً للأدوار الاجتماعية للفرد ووضعها فى السلم الاجتماعى، والمجموعات، والمؤسسات. وتتشابه مع هذا النمط من التفسير نظريات كل من "توماس هوبز" Thomas hobbes عن الصراعات بين الأفراد، وفكرة "الحضارة الضبابية" عند "جان جاك روسو"، ونظم القوة عند ميشيل فوكو "Michel Foucault"، ومع القوى الاقتصادية التاريخية. عند كارل ماركس "Karl Marx"، ومع ضغوط الجماعة التى اكتشفها متخصصو علم الاجتماع النفسى، إلا أن هذه الأسباب، مهما كانت، لا يبدو أنها من نوع العوامل نفسها التى فى الجينات أو فى العلاقات والروابط الإنسانية، وسوف نظل نفكر ونتعجب:

أى نوع مشترك من "العملة" يمكن أن يحتوى ويشمل كل هذه العوامل المتفاوتة والمتباينة!".

وكما ذكرت، فإن وجهة النظر التي يقدمها هذا الكتاب عن القسوة غير كاملة بالضرورة، وأى فرد يبغي الحصول على تعليمات سلطوية عن أى من العوامل التي تحتم التجاوزات والتساهلات الأخلاقية فلن يجدها هنا، والتفاصيل المستفيضة والواقعية عن هذا الموضوع سابقة لأوانها. وبدلاً من ذلك، فإننى سوف أقترح فى القسم التالى مخطط "نموذج عملي" يتناول القسوة من منظور علمي. وقبل أن نصل إلى هذه المرحلة، علينا معرفة ثلاث خصائص أو سمات على الأقل لهذا النموذج.

الخصيصة الأولى هي التعددية، فهذا النموذج سوف يتطلب عدة أنواع من التفسيرات عن سبب القسوة. وهي ظاهرة معقدة تشمل كل شيء بدءاً من المجرم متعدد الجرائم، إلى الأطفال الذين يلقون بالكناكيت فى النار. وهما بالطبع ليسا من التركيبية نفسها ولا يتبعان معادلة واحدة فى الإجراء. وسوف تتداخل عوامل متعددة مرتبطة بأماكن وأوقات معينة لينتج عنها نوع من النفعية "الباردة" مع جمود القلب واللامبالاة، وفى مواقف أخرى قد تصل إلى النزوع المتوحش إلى السادية. وسوف تحوى هذه العوامل قوى وضغوطاً اجتماعية وثقافية: ضغوط الرفاق، وطلب الإذعان بالطاعة، والأيديولوجيات، والخرافات، والأنماط والتغييرات الاقتصادية المفاجئة، وأموراً كثيرة غيرها. وهذه تشمل الدوافع البيولوجية، المخدرات والهرمونات، والبرامج الذاتية الدفينة للاستجابة للتهديد... وهكذا. كما تشمل أيضاً "عوامل التحور" - أو ما يسميه جيمس والتر "James Walter" - "ظلال الأسلاف" التي تمثل حاجتنا ونزوعنا للتفافس ولعزل الغير/ "الأخر"<sup>(١٢)</sup>، وسوف تتفاعل كل هذه الأمور مع التاريخ الذاتى الخاص والمتفرد لكل شخص.

وترتبط الخصيصة الثانية لهذا النموذج بالتساؤل عن " كيف نعرف القسوة". وسوف أستخدم التركيبة التي توصلنا إليها قبل ذلك: "القسوة هي سلوك طوعى غير مبرر بسبب معاناة مع سبق الإصرار لضحية أو ضحايا لا يستحقون ذلك". وبالإمكان أن نتوسع فى هذا التعريف ليشمل التمييز وإظهار الفرق بين جمود الحس واللامبالاة - الذى يُقصد بها إحداث المعاناة كوسيلة لغاية مستهدفة- وبين قسوة السادية -التي تكون فيها معاناة الضحية هدفاً وغاية الفعل- ولما كانت المبادئ الأخلاقية جزءاً لا يتجزأ، ولا مفر منه، فى تعريف مفهوم القسوة، فإن أى نظرية عن القسوة لا بد أن تراعى وتتعامل مع النواحي الأخلاقية كما تتعامل مع الأسباب المادية والاجتماعية للقسوة. ويعنى ذلك، أولاً: مراعاة المنطق الأخلاقى الذى يتضمنه هذا التعريف، وثانياً: شرح وتفسير لماذا يتمسك الإنسان بمثل هذه المبادئ الأخلاقية فى المقام الأول .

والخصيصة الثالثة التى يجب أن يحويها أى نموذج - وأنا واضحة جداً فى ذلك - هى أن أساس معرفتنا بهذا الموضوع؛ هو المعرفة عن ذهن وعقل الإنسان.. لماذا؟ لأننا لن نجد "العملة" و"المفاتيح" التى تلزمننا إلا فى مخ الإنسان: "الشفرة العصبية" التى تفسر وتترجم كل شىء يتعلق بهذا الموضوع. نحن نعرف بالفعل أن "الجينات والعناصر الكيميائية تؤثر فى كيفية عمل خلايا المخ"، غير أنه لا يزال أمامنا الكثير حتى نفهم التعقيدات التى تختفى وراء هذه العبارة التى قد نخدعنا ببساطتها. ونحن نعرف أيضاً أن نشاط المخ يتغير عند الاستجابة لأمر أكثر تعقيداً من هذه المؤثرات، مثل: المعتقدات، الذكريات، الرغبات والنيات والأفكار. وعندما نفكر فى دور الفرد فى الجماعة، ووضعه الاقتصادى، وميوله السياسية أو قضاياها المقدسة؛ سنجد أن كل هذه الأمور تؤثر فى التغييرات التى تحكم عمل المخ.

ومن المألوف أن نرى قوى اجتماعية مؤثرة - على نطاق واسع- مثل الاقتصاد الذى يؤثر فى مستوى المجتمع بأسره، لكن المجتمع - حتى نعروض الأمر بوضوح- يتكون من "تركيبية" متباينة، هناك نموذج كاره النساء، والخوف من الكساد، أو الاعتقاد فى "الجهاد" العنيف، وكلها تمارس تأثيرها القوى؛ لأن عقول الناس تتأثر وتتغير بالتعرض لها. وهذه هى الآلية الكامنة. وأى نظرية شاملة تتجاهل هذه المؤثرات؛ فإنها تنكر وتتجاهل مصدرا مفيدا للمعلومات، لأن العقول لا يمكنها أن تعمل إلا وفق أساليب ومؤثرات محددة. وإذا تجاوزنا هذه المحددات، بأن نفترض مثلا أن الناس يتصرف على أساس قرارات منطقية، فإن نظريتنا سيكون مصيرها الإخفاق والقتل.

ولا يستطيع أى كتاب أن يصور التعقيدات التى ألمحنا إليها هنا، لذا علينا أن نبسّط الأمر. بأن نلجأ إلى نموذج عملى للقسوة يمكنه تقديم المعتقدات الأساسية ويجسد معطيات من نظم متعددة دون الغوص (مبدئيا على الأقل) فى مستنقع التفاصيل المحيرة. وسوف يفسر هذا النموذج المظير القائم للقسوة وي طرح الاستنتاجات التى يمكن اختبار مدى صحتها، كما أنه سوف ينطبق على كل من القسوة فى أسوأ تجاوزاتها وعلى أشكال أقل خطورة من الإيذاء، مع الإشارة إلى تعريفنا للقسوة الذى يضع السلوك القاسى فى مضمون أخلاقى أرحب، ومع ذلك فإن هذا النموذج سيكون بالضرورة غير كامل وربما يكون غير ناجح. وكل النماذج العلمية إما أن تكون هذا وإما ذاك، إن لم تكن كليهما. والآن نقدم نموذجا للقسوة بعد هذا التحذير والإيضاح.

إننى مقتنع الآن أكثر من أى وقت مضى  
أن القدرة على إبادة جنس ما لا تقتصر على  
ثقافة واحدة أو شعب واحد لكنها قدرة متأصلة  
فى أحوال البشر

(من كتاب الثورة وجرائم الإبادة- روبرت ميلسون "Robert Melson")

تنطلق من الناس ردود أفعال تلقائية وآلية عند أى تهديدات أو خطر، وقد تحولت الحياة على وجه الأرض إلى عالم ملىء بالأخطار. هناك الحيوانات المفترسة والنباتات السامة والأمراض المفزعة والفيضانات والصواعق والزلازل والبراكين، وحتى العدا من جنس الإنسان.. وكلها مميت ومهلك. ومن بداية وجوده شعر الإنسان بهذه التهديدات. وكثير من هذه التهديدات، مثل الأسلحة النووية أو البطالة، حديث العهد نسبيا لكن بعض آخر مثل أسماك "القرش" المفترس أو عدوى البكتيريا القاتلة تصيب الجنس البشرى منذ الأزل. وقد تزود الإنسان مقابل هذا بأدوات تضمن نجاة الأفراد فى مواجهة هذه التهديدات المتنوعة والمرعبة، وهى استجابته بسرعة وفاعلية لهذه المخاطر.

وبتطور البشر تطورت بمرور الوقت ردود أفعالهم. وبينما تغيرت الكائنات المسببة للأمراض، والسموم، والحيوانات المفترسة ببطء؛ استمر التهديد بالمرض وبالافتراس ولم يتوقف. وأتاحت هذه الاستمرارية للمخلوقات امتلاك ردود أفعال محددة و"مبرمجة" ضد المخاطر - تغييرات فيولوجية. مشاعر، وتصرفات تُوجه تلقائيا ضد مشيرات معينة. واحتفظ الإنسان بهذا الاستعداد لرد الفعل السريع مثلما

احتفظ بفرائز العدوانية والوحشية، كما يرى أى ملاحظ لسلوكنا فى المتاجر<sup>(١٣)</sup> إننا نفقر عند سماع ضوضاء مفاجئة ونحن نعرف أنه لا ضرر منها، ونشعر بعدم الارتياح فى الأماكن المظلمة، ورد فعلنا تجاه حيوانات معينة هو الخوف والرعب. سواء استطاعوا إيذاءنا أم لا. ونفزع الحركات المفاجئة الرضع حديثى الميلاد كما تفزع الأطفال والبالغين. وتبقى معنا هذه الفرائز حتى إن لم نواجه أخطاراً ومهالك، وحتى لو امتلنا الاستعدادات الحديثة للحماية من مسببات الأمراض. وما يهم هنا هو التاريخ المشترك وليس درجة الخطر، وفى إنجلترا فإن عدد من يموتون من عقار "الباراسيتامول" يفوق بكثير ضحايا العنكبوت، إلا أن الخوف من العناكب أكثر شيوعاً من الخوف من مسكنات الألم.

### التهديدات التى تثير الخوف:

إن أنواع التهديدات التى لازمت الإنسان زمناً طويلاً، سمحت بتكوين ردود أفعالهم، يمكن اعتبارها ثلاثة أنواع حسب المشاعر الأولية السلبية التى تحدثها<sup>(١٤)</sup>. وتنشأ التهديدات التى تثير الخوف من مصادر قوية تهدد وجود الإنسان ذاته، وهى مصادر من القوة حيث يصعب مقاومتها. والحقيقة القاهرة هى أن ضحاياها يتحتم عليهم إما أن يهربوا وإما يستسلموا أملاً فى النجاة. وتلك هى مجموعة الكوارث الطبيعية مثل البراكين والسيول، وقد كانت هناك تهديدات فظيعة سابقة أصبحت الآن أقل خطورة بفضل الحماية التكنولوجية. ولو جردنا الإنسان من هذه "الدرع الواقية" الحديثة: فإن صاحب أقوى بنية جسدية سيكون بلا حول ولا قوة أمام الحيوانات الضخمة أو مخلوقات أخرى أصغر قد تهاجمه بأعداد كبيرة وبحركة

سريعة. أو حشرات لادغة خطيرة، أو أى مخاطر طبيعية لا يمكن التحكم فيها (البحار الجامحة، الأرض الزلجة المتغيرة... وهكذا).

وليس ت هذه الأخطار الطبيعية هي كل ذخيرة المؤثرات المفزعة. فأجدادنا كانوا خائفين أيضا- ولديهم أسباب وجيهة - من أفراد من جنسهم<sup>(١٦)</sup>. وبنى الإنسان لا يمكن التنبؤ بأفعالهم المهلكة، وعلاوة على هذا فبعضهم أكثر قوة من غيرهم إما بسبب القوة البدنية، وإما المهارة فى استخدام الأسلحة، وإما بسبب المستوى الاجتماعى الرفيع الذى يحيطهم بالمناصرين والأعوان، والجماعات التى تستطيع تقييم قوة الآخرين بدقة والتى تستسلم بدافع الخوف من الأقوى لا يبدعون بالعنوان ضد الأقوى طلبا للسلامة وإلحداث التناغم فى العلاقات بين فئات المجتمع. لذا فالاستدلال الصحيح على التهديدات التى تثير الخوف وردود الأفعال المناسبة، هما اللذان يتحان مواجهة المخاطر الاجتماعية والطبيعية على حد سواء.

وفى التجارب العلمية، عندما يواجه الفأر خطرا داهما فإن رد فعله الغريزى هو أن يتجمد خوفاً وينزوى جيناً. وتُفرز فى داخله هرمونات الضغط العصبى والتوتر مثل "الأدرينالين" فى مجرى الدماء؛ ويتغير نشاط المخ فتزيد اليقظة ويتركز الانتباه إلى مصدر التهديد وتتحول إمدادات الدم (أى الطاقة) من الأعضاء الأدنى نشاطاً، مثل الأمعاء، إلى الأعضاء الأعلى فى الأداء مثل القلب وعضلات الساق حتى يستعد الجسم للجري أو القتال. وتؤكد هذه الاستجابة نفسها عند الإنسان خفقان القلب واتساع العينين من الفرع دون الحاجة إلى اتخاذ قرار بوعى تام. أما التصرفات التى تأتى بعد ذلك بفعل الاصطفاء الطبيعى، مثل القدرة على التحكم فى رد الفعل التلقائى، فيمكنها أن تتغلب على التهديد الذى أثار هذه المخاوف، إلى حد ما، إن لم يكن بشكل كامل. وضبط النفس هزيل ويحتاج تركيزاً للطاقة ومعرض

للفشل. خاصة مع الضغوط النفسية المصاحبة للتهديد<sup>(١٧)</sup>. وكلما كان التهديد قويا، اشتدت ردود الفعل المتعارف عليها.

ويؤدى الخوف إلى تغييرات آنية سريعة وأخرى طويلة الأمد. والسلوك الذى يقود إلى حادث مخيف ربما يمكن إنهاؤه أو منعه، أما الملامح البينية المصاحبة للحادث فتصبح بغیضة وكريهة، مثل: مشاعر الخوف أو اضطرابات ما بعد الإجهاد من الإصابات. والآليات الفسيولوجية التى تتداخل مع هذه الاستجابات تتحور كى تحدث تأثيراً قويا فى السلوك والذاكرة. لأن التهديد بالمخاوف يتزامن مع تحذيرات ضئيلة تتطلب انتباها سريعا، لكن إذا استمر التنبؤ بالتهديد لفترات طويلة دون أن يتجسد الخطر فعلاً، فإن الضغط النفسى المزمن والقلق الشديد من الممكن أن يسببا الإجهاد البدنى والتمزق النفسى مع مشاعر سلبية مثل الاكتئاب. وكثير من تهديدات الخوف الحديثة مثل الإرهاب وعدم الاستقرار فى العمل أو الاحتفاظ به تعتبر من هذا النوع المزمن.

### التهديدات التى تثير الغضب:

والمجموعة الثانية هى التهديدات التى تثير الغضب (سوف أسميها فيما بعد تهديدات الغضب)، وهى تحدث عادة عندما يسىء الفاعل التصرف. (أى يهدد موارد العيش للفرد أو يتصرف بصورة غير متوقعة مثلاً<sup>(١٨)</sup>). ومصادر هذا التهديد قوية ولكنها ليست ساحقة، فإنه يمكننا ببعض الجهد مقاومتها أو التحكم فيها أحياناً، وسواء كانت مصادر التهديد عوائق طبيعية أو سفاحين عتادا أو منافسين مسيطرين أو ذرية متمردة غير مطبوعة؛ فإنهم يمثلون التحدى لكل ما هو حقيقى ويشيرون فىنا نزعة عدوانية حتى يوجد حل للمشكلة وتتم استعادة السيطرة من

خلال محاولات قوية ونشطة ترغم هذه العناصر على العودة إلى الخط السوى والالتزام. ويستهدف الغضب في الأساس أناسا آخرين، وهؤلاء يمكن أن يتأثروا لدرجة أن يغيروا أسلوبهم في أثناء الغضب، وهناك استعداد لدى الإنسان أن يمتد بإدراكه العقلي عن قصد إلى الوسائل المختلفة التي يستعملها، حيث يعامل الأشياء كأشخاص وهم ليسوا كذلك، فأننا أعلم جيدا أن الصراخ أمام آلة تعطلت لا يفيد بشيء محدد يجعلها تعمل، غير أن زملائي في العمل يعلمون أنني أشتم وأسب الحاسب الآلي الذي لا يعمل. ولا أكون بمفردى وأنا أفعل ذلك، وربما لست أنا فقط من يفعل هذا أثناء الغضب<sup>(١٩)</sup>. وردود الفعل في أثناء الغضب، مثل ردود الفعل من الخوف، أميل إلى أن تكون نمطية ومتشابهة عند كل الأجناس، وهي تشير بذلك إلى تاريخ طويل من التحور والتطور، فالقطط عندما تواجه عدواً تتسع عيونها، وتزجر وتشد عضلاتها وترفع شعر فروة ظهرها حتى تبدو أكبر حجماً وأكثر خطراً، وأحياناً يُعيد عدوها التفكير وقد يتراجع عن منازلتها. والجندي وهو على وشك الحرب يحمق، ويظهر أسنانه، ويحكم قبضة يده، ويرفع أكتافه للسبب نفسه (التخويف).. وكلا النوعين الحيوان والإنسان تحكما عمليات هرمونية طبيعية متشابهة. وعندما تهزم القطعة تتكور وتتخلى عن مظهرها السابق كعلامة على الاستسلام، بينما الرجل الذي يخسر في جدال أو حوار قد يفرد ذراعيه - المعادل عند البشر بأن يترك جسده معرضاً للهجوم - كي يظهر أنه أذعن وتنازل عن الجدل. ولقد تعلمنا الإشارات ولغة الجسد سواء في حالة الاستسلام أو الهيمنة من الحياة منذ زمن طويل، ويمكن غالباً أن تفهمها أنواع ومخلوقات أخرى غير الإنسان (وهكذا يتم تدريب الكلاب).

ويمننا الغضب بالقوة المحفزة للدفاع ضد التهديد من الآخرين؛ حتى يمكننا السيطرة عليهم. ومع افتراض أن البشر مخلوقات اجتماعية جداً يصرفون معظم

وقتهم وطاقتهم في التعامل مع غيرهم من بنى الإنسان. فإن معظم التدييد بالغضب يأتي، ولا نندعش، من أمور اجتماعية: نزاعات حول أوضاع أو مكانة اجتماعية، أو على مصادر الرزق، أو إرادة الوصول إلى هدف، أو مع الرفاق؛ فإنهم يهددون نفوذك ووضعك الاجتماعي، وليس النجاة أو السلامة البدنية والحسية مباشرة. وهنا يقترن الخوف بالغضب في إدارة العلاقات بين الجماعات، وهذا هو ما يدعو إلى تطوير مسلسل مستقر للرتب والطبقات الاجتماعية حتى نقلل، إلى أدنى درجة، العدوان بين أفراد الجماعة<sup>(٢٠)</sup>.

والغضب، مثل الخوف، يمكن أن يمثل ضرراً حسياً أو نفسياً إذا كان مزماً أو زائداً عن الحد. وكثير من التغييرات الجسدية التي تميز رد الفعل عند الخوف، مثل: إفراز الأدرينالين، تحدث أيضاً في أثناء الغضب، وبالفعل يكون من الصعب الاستدلال على أى اختلاف، أو التفريق بينهما. وفي حالة الخوف يمكن للإنسان أن يكبح أى سلوك يؤدي إلى عدوان أو تهديد، إلا أنه في حالة الغضب يزيد ويتضح هذا السلوك، أما إذا كانت محاولة السيطرة على النفس ناجحة، فإن كبت الغضب يبعث في النفس شعوراً مرضياً جداً<sup>(٢١)</sup>. وعلى النقيض من ذلك؛ فإن الفشل في ضبط النفس قد يؤدي إلى ذات الشعور بالتهديد، مما يثير رد فعل أشد من الخوف في المستقبل.

### التهديدات التي تثير الاشمزاز:

ليست كل مخاطر الطبيعة واضحة مثل: الزلازل، نمر يزمجر. وحيد القرن الذي يهاجم، أى عدو تائر. إن الضرر يكون واضحاً ظاهراً إذا تعرف المرء على مصدره، لكن هناك أنواعاً من الضرر أكبر كثيراً بصورة لا تتناسب مع مصدرها،

وأكبر أنواع العنكبوت الضخم السام يُعتبر صغيراً إذا قورن ببنى الإنسان، فهو غير خطير بالمرّة ويسهل سحقه وتحطيمه، ولا يضرّك إلا إذا سمحت له بالاقتراب وأراد لدغك. لكن اللحم المتحلل، واللبن الفاسد، أو أى مادة أخرى خطيرة لا يمكنها لدغك. وكذلك الجنائمين، القيء، البراز أو الجرح المفتوح. والخطر فى هذه الحالات يأتي من الملامسة المباشرة- إنها تهدد بالاشمزاز والقرف فقط. لكن الأسوأ من ذلك هو عدم التمييز بين الطعام الفاسد والطازج، إن ابتلاعه على سبيل الخطأ وهضمه يهددك بسموم خبيثة تكون على أهبة الاستعداد كى تتكاثر وتهزم الإنسان أو تسبب موته، أو تصيبه بضرر طويل الأمد، أو بمرض ليس له علاج.

ورد فعل الجسم الذى تصيبه العدوى يتم بنحولات وتغييرات فسيولوجية، تحفز دفاعات الجهاز المناعى، وترفع درجة حرارة الجسم الطبيعية، وتطلق العرق والعطش حتى تطرد البكتيريا والسموم، ويأتى القيء كى يقذف بالكائنات التى غزت الجسم خارج الأمعاء. والبصاق يُخرج المادة الخطرة من الفم، والأنف إذا أغلقتة التجاعيد تلقائياً والوجه إذا تبدل وانقلب فهذا للحماية من عدوى الكائنات التى يحملها الهواء التى ربما تدخل الجسم، وتنظيف ما حول الجروح أو التقرحات يهدف إلى حماية الجلد. ولسنا بحاجة إلى تعمد القيام بمثل هذه الأمور، على الرغم من أن بعضها قد يحدث عمداً، إنها تأتي بعد إشارات الخطر فى البيئة الاجتماعية. والأرجح إنها تمثل ردود الفعل المتطورة التى يلجأ لها الإنسان للتعامل مع هذه الأنواع من التهديدات، والعاطفة المصاحبة لهذا التهديد هى الاشمزاز والقرف<sup>(٢٢)</sup>.

وردود الفعل فى حالات الخوف والغضب؛ هى تصرف تجاه مواقف خطيرة بالفعل، لكن تهديدات القرف هى ردود فعل تجاه خطر محتمل. والقرف بالضرورة يمكن منعه، إنه إشارة وتحذير بأن نبتعد. وإذا احتفظنا بمسافة بيننا وبين العامل المهدد أمكن تجنب الخطر، لأن الخطر الذى يهدد به لن يتحقق. وإذا تم اجتنابه كان

هذا اختياراً عملياً، كما أن إزالة أو تدمير هذا الشيء يحل المشكلة، على افتراض أن هذا الإجراء يحد من مخاطر التلوث أو العدوى، وهذه الإجراءات التي تؤدي إلى إبعاد وطرده التهديد تقلل من التأثير المقزز، وقد أصبحت هذه الإجراءات طفوساً في كل ثقافات البشر، ذلك لأن كل ثقافة، مهما كانت آمنة أو متناغمة اجتماعياً، يتحتم عليها دائماً أن تتعامل مع أشياء تُسبب العدوى<sup>(٢٣)</sup>. والإنسان في عصر ما بعد الحداثة قد يسيطر بهدوء على عالمه إلى حد قلما يشعر فيه بالخوف أو الغضب، إلا في حالات لا يمكن أن يُصرفها لمصلحته، لأنه سوف يستمر في إنتاج مخلفات عضوية تستعصى على إزالتها. ومن المحتمل أيضاً أنه، لدرجة ما، يمرض حيث يصبح هو مقززاً لآخرين ممن يصادفونه من الناس. ومن الملاحظ أن المرضى غالباً يبدو عليهم كثير من الملامح التي نعلم أنها تُشعرنا بالاشمئزاز والقرع (أنف تتساقط منها إفرازات، تقرحات مفتوحة، وما شابه ذلك). ومما هو مفترض أن أسلافنا عندما كانوا يجتنبون رفقاءهم المرضى بمرض فتاك (مثل الطاعون)، لم يكونوا أقل تعرضاً للموت بسبب هذه الأمراض. ولسوء الحظ فإن هؤلاء الذين نصنفهم بأنهم مثيرو الاشمئزاز، الأجانب الذين يبدو أنهم مختلفون والناس الذين ابتلوا بوصمة ظاهرة أو تشوهات، يمكن أن يثيروا ردود الفعل نفسياً<sup>(٢٤)</sup>.

ومن يَشُدُّ تحسين هيئة جسمه. جراحات التجميل وغيرها، فإنه يتبع منطق داروين الصحيح، ذلك لأن تشوهات الجسم تنشأ إما عن مرضٍ معدٍ منتشر وإما عدوى سابقة (والمظهر الشائه يدل على احتمال انتقال العدوى) أو عيوب خلقية وراثية، وكلها من الممكن أن تحول دون أي تزاوج محتمل، غير أن الكثير من حالات الاختلاف عن المألوف لا تُفسرها مثل هذه الدلالات أو الأسباب، وقانون الاصطفاء الطبيعي ليس الحاكم الأفضل دائماً. فيجب ألا يكون الناس عبيداً يسودهم قانون الاصطفاء الطبيعي. أو أن يأتروا بأمر جينات تحفزها مبررات عتيقة

(وهذا أحد الأسباب التي تجعلنا لا نقبل التعميمات "الفخمة" التي يقدمها علم النفس التكاملي). والغرائز والنزعات بالغة الأهمية وتتطلب جيدا فائقا.

إن الأشياء المقرزة هي التي تهدد سلامة البدن بطريق غير مباشر؛ بسبب السموم أو الكائنات ناقلة المرض التي تطلقها. وهي أيضا التي ربما تهدد المكانة الاجتماعية لفرد ما؛ لأن التهديد بالاشمئزاز ينتقل من هذه الأشياء الى الشخص الذي يلمسها. (هل ستصافح رجلاً أمسك بيده البراز منذ دقيقة واحدة؟ حتى إن كان قد قام بغسل يديه في الوقت نفسه؟)<sup>(٢٤)</sup>. والتهديد الأساسي من هذه الأشياء هو سلامة البدن، فهي تنتهك الجسد وتغيره بطريقة كريهة ومنفرة، فتضعف بنية الجسم وتنتشر التلف من الداخل إلى الخارج. وحتى وقت قريب نسبيا لم نكن نعرف الآليات التي تحدث بها مهددات القرف تأثيرها المفسد والهدام؛ فهي تشويهاً غير مرئية، جزيئات، أو سوائل، هي لعنات أو أرواح شريرة أو شيء ما غيرها. وحتى الآن فإن أسباب المرض من الصعب جدا اكتشافها، فإنها "لثيمة" وخبيثة وخافية ومن العسير الاستدلال عليها؛ ولهذا يكون التصدى لها غير وارد؛ فالسموم وناقلات العدوى يمكن التعرف عليها من خلال آثارها المرئية في المادة العضوية والجسم فقط. وعلامات التلف في الخلايا والضرر هي الإشارة ومفتاح اللغز. والعوامل المسببة للمرض لا يمكن أن تكون مُجسدة وحقيقية إلا إذا كان في حوزتك مجهر (مايكروسكوب). والمرشد الوحيد الذي كان يملكه أسلافنا منذ الأزل كي يتجنبوا الهلاك؛ كان أن الكائنات السامة والمادة المتحللة يمكن ملاحظتها غالبا بوضوح (إذا تغير لونها مثلاً وتلونت بألوان زاهية أو كانت رائحتها كريهة ومستهجنة). وسوف تزداد قدرتنا على التعلم.

## تعلم ردود الفعل على التهديدات:

ليست كل التهديدات "مُبرمجة"، بمعنى أنها تطلق ردود فعل آلية ونمطية (وتلك قد يمنعها أو لا يمنعها الفرد)، فربما تفر منزعجا بسبب ضوضاء مفاجئة أو تجفل من شخص عندما يعطس بجانبك، لكن ماذا ستفعل عندما تواجه شيئا آخر جديدا للمرة الأولى؟ في هذه الحالة يكون الربط بين ردود الفعل تجاه التهديدات وما يصاحبها من عواطف سلبية أمرا مفيدا. فإذا أكلت شيئا جديدا وشعرت بو عكة، فإنك فيما بعد سوف تنتظر إليه بشيء من الاشمئزاز والقرع الشديد، وسوف يرتبط هذا الشعور بمجموعة من ردود الفعل البدنية التي تنشأ فقط كي تتأى بك عن الأشياء التي أصابتك بالو عكة. وإذا صنفنا هذا الشيء الجديد على أنه تهديد بالقرع فإننا نحسره في زمرة الأشياء التي تطلق شعورك بالاشمئزاز، و عليك تجنبه أو رفضه (أمّا إبعاد هذا الشيء ورفضه وإما تدميره تماما)، وهذا يعتمد على أى السلوكين أسهل. ومع طقوس التنظيف لهذه الأشياء يكون رفضيا سطحيا فقط، فإنك بذلك قد خففت من التصرفات القوية لتكون ضمن مجموعة ردود الأفعال المألوفة، ما يجعل أمور الحياة أبسط كثيرا في مرات مقبلة تواجه فيها هذا التهديد. ومثلما هى الحال مع كل التهديدات؛ فإن الهدف من رد الفعل هو محاولة الاحتفاظ بالتحكم فى بيتك بأن ترفض هذا التهديد.

ويتعلم البشر من التجربة والخطأ، فإذا سبب ليم أكل الجين القىء فلا لزوم لها. وإذا سبب ليم التوت التسمم الغذائى فإنهم ربما يشعرون بالإعياء بمجرد التفكير فيه، دون وجود التوت نفسه؛ لذا فالشئ الذى يصيبنا بالقرع لا تقترب منه، وبالطبع لا نأكله.. وعلاوة على ذلك فإننا نتعلم من الآخرين بالتقليد

والملاحظة ومن مناقشة ما نشعر به. وكأفراد في مجتمع فنحن متاح لنا ثروة من المعلومات المتراكمة عن كل ما يهددنا بالاشمئزاز والقرف، وهي تُخترن باعتبارها معايير ثقافية ( عن الأغذية المحيطة بنا مثلا) ننقلها بأمانة باعتبارها واجبا تجاه الأقربين والأعزاء. ويتشابه الرجل الغاضب والنقطة الغاضبة في كثير من الأمور، كما أسلفنا، لكن اشمئزاز الإنسان شيء متفرد ومترفع. ونحن نرجع هذا الترفع إلى أننا نألف الحياة في جماعة ولدينا القدرة على بناء ثقافة تُوَقِّرها وتثريها باللغة.

## البشر نشأوا وارتقوا إلى العيش في فئات اجتماعية:

لقد تطور البشر كحيوانات اجتماعية تشعر بالأمان في مجموعات بينها صلات وقرابة<sup>(٢٦)</sup>. وفي الجماعة يتنافس الأفراد على المكانة الاجتماعية التي نتيج امتلاك موارد أكبر (بما في ذلك شريك الحياة)، وبها تكون فرص تربية الأبناء أفضل. وإلى أن تطورت الأسلحة فإن الفرد وحده، مهما كان قويا جسمانيا، لم يكن بإمكانه مقاومة هجمات مهاجم أقوى أو أي عدوان جماعي منظم من قوم آخرين، ولذلك؛ فإن الأفراد الذين تمكنوا من تكوين أحلاف كانوا أوفر نصيبا في النجاة من المواجهة المحفوفة بالمخاطر أكثر من غيرهم الذين لم يألفوا التحالف والمشاركة الاجتماعية. والعدوان على الجماعات المتحالفة يعرضك للخطر؛ ولأن بيتعد عنك حلفاء أقباء يمكن بمساعدتهم حتما انتجاة من معدد وحشى إذا أتى في مرة مقبلة. فالتصرف الذى يضر فردا من تحالف ما سوف يسبب غضب أعضاء آخرين، وهذا المفهوم عن توزيع القوة أوجد قوانين للسلوك تشكل أساسا لكل المنظومات الأخلاقية التي نعرفها اليوم.

والتعاون، على خلاف العنف الجماعي، ثبت نفعه بدرجة كبيرة. وإطاعة القواعد الأخلاقية- المواثيق الاجتماعية التي اقترحها توماس هوبز "Thomas Hobbs"، تُحملنا عبء وتكلفة رعاية أعضاء الجماعة الآخرين: مساعدة الضعيف وحماية الطاعن في السن والعاجز عن الدفاع عن نفسه. لكن القائمين بالرعاية سوف يتوقعون أنهم، إذا أصيبوا أو مرضوا، فإنهم أيضا سوف يُعتنى بهم (الإيثار المتبادل). والمجتمعات الناجحة تستخدم العقاب الإيثاري - سُمي هكذا لأن من يقوم به يتحمل تكاليف إنزال العقاب ولا يكسب عائدا مباشرا- والعقاب ليس ضد العدوانيين المعروفين فقط، ولكنه أيضا ضد "المنفلتئين" الذين يأخذون دون المشاركة بالجيد، وحتى الآن، فإن المنفلتتين هم مصدر رئيسي لعدم رضا جيات العمل<sup>(٢٧)</sup>. والجماعات البشرية إذا ما تركوا لأساليبهم الخاصة؛ فقد يصل الحد الأقصى لعدد الجماعة الطبيعي من نحو مئة إلى مئة وخمسين عضوا- أو أكثر، لدرجة أن بعض الأعضاء لا يعرف بعض آخر- وهذا كما هو معتقد- يعكس أهمية حسن السيرة والسمعة الاجتماعية كما قال أسلافنا<sup>(٢٨)</sup>، فالغش يكون أصعب كثيرا عندما يعرف كل من يُحتمل أن تتعامل معه أنك غشاش.

وفي الجماعة التي تتكون على أساس القرابة؛ يكون "الإيثار المتبادل" وفق استراتيجية "اكسب وأنا أكسب"، بصرف النظر عن التكاليف<sup>(٢٩)</sup>. إنك لن تستفيد مباشرة فقط لكنك أيضا سوف تزيد من فرص الاحتفاظ بنسخ من جيناتك الواقعة في الغدد التناسلية لقريبك (وخصوصا إذا استطعت أن تُقدر درجة القرابة وتحدد ما تفضله تبعا لذلك). حتى إن كان بعض أعضاء هذه الجماعة من غير أقاربك، فإن انفاذة المباشرة للتبادلية سوف تظل قائمة، كما أنه من المفيد، على المدى الطويل، أن تكون لطيفا مع الناس الذين تحيا معهم. وأحيانا، كما أشرت في المقدمة،

فإن المفكرين المحدثين قد يسخرون من مبادئ الأخلاق بسبب أعرافيا البرجوازية، وتمسكيا بالقديم، وعدم تسامحها أو تقبلها للاختلاف.... إلخ، ولكن حسب مفاهيم "داروين"؛ فإنه يبدو أن قوانين الأخلاق كانت خدعة جيدة وذات فعالية بدرجة مذهلة<sup>(٣٠)</sup>. أما تبادلية المنافع والعقاب الإيثاري؛ فمن الممكن أن تولد جماعات شديدة التماسك تفوق قوتها - بقدر كبير - قوة أى إنسان يعمل منفردا، عندما يعمل كل أفرادها متضامنين<sup>(٣١)</sup>.

وهناك، اجتماعيا، مطلبان هما تفادى الأخطار والتعامل بدبلوماسية، وهما قد يمثلان عبئا ثقيلاً على مصادر وحصيلة الفرد المعرفية ويتطلب ذلك فردا شديد الحذر والتحفظ حتى يضطلع بهما. غير أن ما نشاهده أحيانا هو هذه "الخنقة الجينية" التي يسببها تصادم الناس فتجعل تفادى الأخطار نجاة أقرب إلى الهلاك<sup>(٣٢)</sup>. إلا أن بعض المخلوقات ممن لديهم الجذ والمثابرة يستطيعون النفاذ والنجاة، ولكن ما النتيجة؟ اليوم يوجد بلايين من البشر. (هؤلاء السادة الذين يتكاثرون بفعل نظرية التحور كأنواع من الفطر الموقر الذى سوف يخلق كوكبنا سريعا.. واختر أنت ما تريد). ولم يحقق أسلافنا نجاحاتهم وفقا لنظرية "داروين" ببناء العضلات حتى يتغلبوا على الوحوش الضارية والمترابدة فى الضخامة، أو بالتخصص فى إحدى النواحي البيئية، لكن نجاحهم كان بأن طوروا القدرات اللازمة للعمل كجزء من جماعة، وأهم هذه القدرات وأعلىها هو تخمين وتصور ما سوف يحدث مستقبلاً.. فى كل من العالم الطبيعى والعالم الاجتماعى المعقد والمسيطر باطراده. ولقد هزمتنا الطبيعة لأننا عرفنا أن نتنبأ بيا.

## البشر يطورون قدرات ماهرة على التنبؤ:

إن إحدى القدرات التي تمتلكها حيوانات عديدة؛ هي القدرة على استخدام ما يعلمونه عن أجسادهم وبيناتهم في التنبؤ بما يمكن أن يحدث في المستقبل ونتائجه المحتملة. ولقد استمرت أنواع المخلوقات في الحياة بسبب تطوير قدرتين على التنبؤ: خبرة الحكم على مدى الخطورة المحتملة لأي تهديد، وخبرة تصور ردود الفعل الصحيحة والملائمة تجاه الأنواع المختلفة من التهديدات. ومن لا يستطيع التنبؤ بدقة عن بيئته لن يستطيع السيطرة عليها، بينما من كانت تنبؤاته صحيحة يمكنه تعديل سلوكه حتى يتعامل بفاعلية أكبر وبسلامة مع الأشياء والكاننات<sup>(٢٢)</sup>. والتنبؤات تحذير ضروري يمكن الفرد من التحكم في بيئته، وأفضل الأفراد في القدرة على التنبؤ هم الأكثر احتمالاً للنجاة والتكاثر.

وفي الأماكن المستقرة بيئياً، يكون الطلب على قدرة التنبؤ والطاقة الذهنية اللازمة لها، متدنياً أو لا لزوم له. وإذا كان العالم حولنا دائماً هو نفسه لا يتغير، فإن التنبؤ به يعتبر إهداراً مكلفاً للقوة والجهد. وهناك أنواع من حيوان الأخطبوط تأخذ هذا المنطق إلى أقصى الحدود الظاهرة؛ فتظل محتفظة بفكرها البدائي لمدة تمت فقط بقر الوقت اللازم للعثور على صخرة، فإن وجدوها تعلقوا بها في أمان. وبعد هذا الأمان يُفقد العضو الباحث عنه، فلا حاجة له بعد الآن، ومع ذلك فالناس ميالون إلى القيادة، ليستكشفوا مواضع وكفاءات متنوعة، لذا فقد امتلكوا مهارة التنبؤ حتى درجات مذهلة.

وعقولنا تتنبأ تلقائياً وباستمرار كجزء من رصد حركة أجسادنا والتحكم فيها. إنك، مثلاً، تتنبأ بلا وعى إلى أين سوف تستقر ذراعك بعد أن تحركها، وهذه

"حسبة" معقدة جدا أكثر مما يبدو. إنك تفعل ذلك بأن تلجأ إلى تخمينات عن فترة قصيرة، ثم يتم تحديث تخمينك باستمرار - عن الاعتقاد أين ستكون ذراعك - وتشمل الحسبة معلومات عن وضع وحدود العالم (المكان) حولك وعن حجم واتجاه الحركة التي أنت على وشك أن تبدأها. وهذه التخمينات يتبعها عادة، وفي اللحظة نفسها تقريبا، معلومات جديدة عن أين انتهت ذراعك بالفعل، وهي معلومات قد تؤكد أو تخالف أو تعدل من توقعاتك<sup>(٣٥)</sup>. إن ذهنبك يقارن بين واقع ما بعد الحركة واعتقادك قبل الحركة عن هذا الواقع. وقد تعدل ما تنبأت به كي تجعل الواقع أكثر دقة. وفي المرة الثانية التي ستحاول فيها مد يدك لتتناول شيئا ستكون حركتك أكثر انسيابية ومهارة. وإذا كان عمر الفرد شهرين، فإن تعديل التنبؤ عن موضع الذراع سيكون ضروريا لأن هناك مجالا أكبر للتحسين<sup>(٣٦)</sup>. ويمكن للأطفال الرضع التركيز بشدة ولمدة أطول كثيرا عن البالغين أو الأطفال الأكبر. على تكرار نشاط واحد مثل: محاولة الإمساك بلعبة أو لمس شيء ما. وبحسب الحاجة البالغون إلى إجراء تعديلات طفيفة، إذا لزم الأمر، على معظم تخميناتهم عن كيفية سلوك أجسادهم. ومن ثم فهم عادة لا يدركون تماما تنبؤاتهم بآلية هذه الحركة.

لكن بعض التنبؤات، مثل الافتراضات العلمية، تتعلق بأحداث ووقائع معقدة تمتد على فترات زمنية أطول وتتطلب جهدا كبيرا حتى تتحقق وعملا أكبر لاختبارها. وما يتطلب هذا الجهد هو أمور فائقة الأهمية تخص البيئة (مثل تعرضها لهجوم معين، أو فيضان، أو ذوب حمم البراكين) وكلها تحتاج إلى طاقة وجهود شديدة التركيز.. هنا يمكن إجراء دراسات مطولة عن التنبؤات، فضلا عن اختبار النتائج ومضاهاتها مع الحقائق، وهذا يستنزف كثيرا من الموارد مقابل نتيجة غير مؤكدة (لأن التنبؤات المعقدة ربما لا تكون دقيقة). إن العائد الممكن على المدى الطويل ضخم، لكن اجتياح أسلافنا القدامى غير المترشحين نسبيا كان

قصير المدى، فلماذا يزعمون أنفسهم! وحتى إلى يومنا هذا: فإن العمل في مجال التنبؤات المجيدة والبالغة التخصص والتي نسميها البحث العلمي؛ نشاط لا يجذب غالبية الناس بطبيعة الحال.

### إثبات صحة التنبؤ هو بالطبع شيء مجد:

نحن نرى هنا صراعا بين الأسس العقلية الشخصية التي تدعو الفرد إلى أن يحتفظ بجهده وطاقته طلبا للنجاة، والأسس العقلية في نظرية التحور التي ترى أن اللياقة أكثر فائدة، ( ويعنى هذا ذرية أكثر)؛ فهي تتأتى من هؤلاء الذين يستطيعون أن يقدموا تخمينا أفضل عن أين سيكون الفيضان وأى مكان سوف يضربه ذوب حمم البركان. ومن الطرق التي استطاع الاصلطاء الطبيعي أن يحل بها صراعات مماثلة هو أن يدعم النشاط الذى يوجد عاندا مجزيا بطبيعته ويكون طويل الأمد. والمثال الواضح على ذلك هو الجنس. والعملية البدنية للتكاثر بالجنس تتماثل كثيرا مع التهديدات المثيرة للاشمئزاز و/أو العدوان الجسدى: القرب الشديد من الآخر، سوائل الجسم... وهكذا<sup>(٣٧)</sup>. وبالنسبة إلى الفرد، فالجنس له ثمن وكلفة.. إنه يستهلك موارد المادية ويتركه معرضا لتهديدات أخرى، بما فى ذلك - إذا نجح الجنس - ذرية ملزمة باستنزاف موارد الوالدين. ومن وجهة النظر هذه: يعتبر الجنس إهدارا شديدا للطاقة. ولذلك لا بد من وجود حواجز كي تشجع التناسل، ولا بد أن يقترن الجنس بشعور جيد حتى يستطيع الإنسان التغلب على مشاعر القرف والخوف والعصبية وخشيه الفقر فى المستقبل. والرغبة والإشباع يمثلان نوعا من الحوافز. فيما "عملة" من اللذة تجعل الجنس مجزيا غريزيا.

ويختلف حماس البشر - عموما - للجنس الذي يرغبونه. والرجال عادة هم من يحرص عليه أكثر، على الرغم من أن النوعين يغطون المساحة ما بين الرفض أو عدم الاهتمام إلى الرغبة الشديدة، كما أن هناك قلة صارت مدمنة لهذه اللذة، بينما الحرمان منها ربما لا يمثل مشكلة على الإطلاق، أو قد يكون المشكلة الأكبر التي يواجهها الإنسان. وهذا يعتمد على كل فرد. ومثل كل ما ينشده المرء من عائد مجز، فإن الإشباع الجنسي يمكن تحقيقه بعدة طرق وبتنوع مدهش ومن مؤثرات مختلفة. أما الأفراد الذين يُمنعون من إشباع هذا الاحتياج فربما يمكنهم البحث عن طرق أخرى، لكن الرغبة الجنسية تتصارع مع رغبة الحفاظ على السلامة الجسدية والنفسية (بما في ذلك "الكيان الذاتي")، وهذا يخلق توازنا متغيرا بين الشهوة والاشمئزاز.

والأساس العقلاني لنظرية التحور: يشير إلى أن التنبؤ يصبح شيئا مجزيا غريزيا للإنسان لأن من لديهم قدرة أكبر على التنبؤ هم من ممارسي لعبة داروين. ومجرد القيام بالتنبؤ ليس كافيا؛ فإن ذلك قد يكون بالفعل إهدارا خطيرا للوقت. وما يهمنا هو أن تثبت صحة التنبؤات عندما نخبرها، والجزاء الأفضل والأكثر فاعلية هو أن تكون هذه التنبؤات مؤكدة مما يحدث إحساسا بالقدرة على التحكم في البيئة والسيطرة عليها، وهذا يساوي "عملة من السرور" تماثل الدفاء المنبعث من ابتسامة، أو الإثارة التي تشيعها نظرية إغراء<sup>(38)</sup>. وتتصارع التنبؤات غير الصحيحة مع ملاحظتنا وأفكارنا عن العالم الحقيقي حولنا، وهذا الصراع متقلب. وهذا يعنى أننا لدينا انحاز (بدرجات متفاوتة): لأن نتجنب أو نقلل من الشعور الذي ينتابنا عندما تتعارض الأحلام مع الحقيقة.

والمهندس الذي يصمم منظومة يكافئ بها التنبؤات (أى يدعمها عندما تحدث حتى يصبح تحقيقها أكثر احتمالا)، عليه أن يدمج اليقين.. الآلية الأولى، التي

ذكرناها الآن: هي علامة وإشارة - حاسة التحكم - التي نقول للكائن إما أن توقعاته تتماشى مع الواقع (وهذا إحساس مفرح)، وإما أن توقعاته تتعارض مع الحقيقة (وهذا شعور مُنفر يُطلق الحاجة إلى تحكم أكبر). ومع ذلك فهذا المهندس لديه آلية ثانية صممت كي تحدد التنبؤات التي لم يتم اختبارها إطلاقاً أو لم يُجر اختبارها لمدة طويلة، وهذا هو ما يحدد أولوية اختبار هذه التنبؤات عندما يتاح الوقت لذلك. غير أن الاصطفاء الطبيعي ليس مهندساً يعمل وفق آليات. والملل، وحب الاستطلاع أو منرسو العلوم قد يدفعونا إلى أن نعيد فحص وتقييم افتراضاتنا من وقت لآخر، لكن الحياة التي لا تخضع لفحوصاتنا مريحة إلى حد ما. وبمعنى آخر، نحن فُطرنا ونشأنا على أن نفضل التنبؤات التي لا ينتج عنها صراعات، إما لأنها مؤكدة عند مقارنتها مع الحقيقة، وإما لأنها لم تُختبر على الإطلاق. وللسبب نفسه، فإن من يتحدى توقعاتنا لا يحظى منا دائماً باستقبال دافئ أو ترحاب.

والمعالم المميزة للرجبة الجنسية - الفروق الفردية، الاختلاف في النوع، الإيمان في بعض الحالات، طبيعة النفور من الحرمان، اختلاف أنواع الإثارة، والجسارة التي تحد القيود من اندفاعها.. كلها أمور تستوجب الحاجة إلى التحكم. وهذه، مثل الجنس، تنظمها الرغبة في التوازن ما بين الرغبة الشديدة في الاستكشاف والاستمتاع بما هو جديد، وأمارات الحرمان النافر والرافض وهي الملل. والبيئات الحديثة المستقرة التي يمكن التنبؤ بها - مادياً واجتماعياً - قد تستوفي الحاجة إلى السيطرة على البيئة لدرجة ينتج عنها هذا الملل، لكن البشر تطوروا وتخطوا عالماً لم يكن التنبؤ فيه ممكناً، وربما كان مهلكاً في بعض الأحيان، أما التأقلم الذي جعل التنبؤ وتأكيد مجزيا غريزيا، فقد كان من الممكن أن يحفز أسلافنا إلى البحث عن الاستقرار وتحقيقه، وهذا بدوره كان من الممكن أن يقلل من قدر الجهد والوقت الذي استغرقوه وهم منهكون بترقبون التهديدات

الطبيعية الخافية، ومنتظرون لموارد إضافية من الطاقة والزمن. إن استخدام القدرة المدققة لتطوير تنبؤات إضافية وأكثر تعقيدا؛ كان سيحقق سلامتهم وأمنهم بدرجة أكبر (ولو علمت مثلا ان أشد المهاجمين شراسة ينام في فترة ما بعد الظهيرة، سيكون بالإمكان ضبط توقيت جمع الطعام والمؤونة حسب هذه المعلومة. ربما كي تحصل على مؤونة وافية. وبكل تأكيد كي تقلل من مخاطر أن تُياجم أو تُؤكل) والنتيجة المؤكدة هي ازدياد الفائدة مع زيادة التحكم في البيئة المادية. وعلاوة على ذلك؛ فإن المعرفة اللازمة للتنبؤ الأفضل لم تتوفر لهم فحدد ذلك من قدرة أسلافنا على استغلال المعلومات وعلى أن يقدموا نماذج عقلية عن العالم، متصورين الأحداث والأشياء التي لم يكن لها وجود في ذلك الوقت (مثل الماضي والمستقبل. والأبعاد التخيلية للأماكن)؛ وبذلك يفصلون تدريجيا بين الأفكار المجردة واعتمادها على الأحاسيس. ومن هنا تبدأ أولى خطوات التفكير بالرموز، وتأتي معها كل فرص السيادة والسيطرة<sup>(٣٢)</sup>.

### تحديات التنبؤ مقلقة وغير سارة بطبيعتها:

لقد أوضحت في القسم السابق العملية التي يتم بها اختبار التنبؤ والتأكد من صحته مقابل حقائق العالم، والنشاط الخاص للفرد، ونشاطات الآخرين، وكيف يتم تعديل التنبؤ وفقا لهذا الاختبار. وهذا، على الأقل، هو الجانب النظرى. أما فى الواقع العملى فلا يمكن إغفال التنبؤات وعدم الاعتداد بها بسهولة. إن إغفال تخمين غير صحيح عن موضع حركة ذراع الفرد شيء، وإغفال تخمين عن افتراض علمى قيم شيء آخر. وقد يعتقد الفرد أن الحاجة إلى التحكم والسيطرة على الواقع يدعمها ويغذيها التنبؤ الدقيق، ولذلك عليه أن يضمن الاحتفاظ بقاعدة معلومات

ومعارف تساند بفاعلية معطيات الواقع المادى، لكن الأمر ليس كذلك لسببين، السبب الأول: هو أن نزوعنا للسيطرة لا يتطلب أن تكون تنبؤاتنا مؤكدة تماما، يكفي فقط أنها تبقى بعيدة عن أى تهديد أو تحد، فالتحدى أو التهديد، أى الخطأ الذى يظهر بين التخمين والحقيقة، هو الذى يثير فينا الحاجة إلى التحكم. والسبب الثانى: عن مبررات الاختلاف بين العقل والعالم الواقعى، لأن بنى الإنسان الذين ينغمسون فى بيئة من الرموز والماديات يقدمون كثيرا من التنبؤات عن الظواهر الرمزية. وبعض هذه التنبؤات، مثل تخمين أن كلمة ما يجب أن تُردى وتُحَقَّر، لأنها معيبة، يمكن اختبارها بسهولة. غير أن بعضا آخر لا يمكن البت فى أمره بطريقة أو بأخرى، مثل: التنبؤ بأن جهنم هى مأوى "أدولف هتلر" أو أننا سنجد من أهلها.

وكما سوف نرى، فإننا عندما ندخل فى مجال علم دراسة الجياز العصبى فإن إشارات الخطأ التى تحذرنا من الصراع الناشئ من الفجوة بين التنبؤ والحقيقة تُنظَّم فى مناطق داخل المخ مثل منطقة القشرة الحزامية التى تحدد أيضا الشعور بالألم<sup>(٤٠)</sup>. ونحن نشعر بهذا الصراع على هيئة توتر وضغط نفسى مثلما نشعر بالألم، وغالبية الناس يفضلون تجنبه<sup>(٤١)</sup>. لكن هذه المشاعر تحدث تطورا ما، لأن التنبؤات الخطأ إن كانت مقلقة إلى هذا الحد؛ فإن هذا السخط يمكن أن يدفع بالإنسان إلى جيود أخرى يكون فيها أكثر دقة. وكلما كان التنبؤ مهما، كان الصراع شديدا عند التحدى.

عندما يستثمر الفرد موارد قيمة ومكلفة ليحدث تنبؤا ويعتمد كثيرا على أن يكون هذا التنبؤ صحيحا، فإن مجرد التفكير فى العبء المعرفى والعاطفى إذا نبذ وتخلى عنه يكون مؤلما وخطيرا بدرجة كبيرة، وبدلا من أن يُغير الفرد أفكاره لتتماشى مع العالم، فإنه قد يبحث عن طريقة بديلة يزيل بها مشاعر التوتر

والضغط النفسى الملازم للصراع الناجم عن الفشل، ولأن مشاعر الصراع غير مرتبطة بالتنبؤ؛ فإنه من الممكن أن يُعدل الفرد هذا التنبؤ الذى يعتز به ولا يرفضه تماما. وقد يتضمن ذلك طرح أفكار جديدة تُفسر عدم كفاءة التنبؤ، أو أن يعيد تفسير تنبؤه بطريقة ما، أو أن يعيد تقييم مفاهيمه عن حقيقة العالم الخارجى، وليس من الضرورى أن يتم ذلك بهذا الترتيب نفسه. وفى حالة العلماء الذين ينشأ عن افتراضاتهم الأولية تنبؤات يثبت خطأها بالتجارب؛ فإنهم سوف يتأكدون بمراجعة المعطيات والمعلومات ثم يفحصونها معمليا، ثم يعيدون إجراء التجارب مرة أخرى إذا كان ذلك ممكنا. وفى الوقت نفسه؛ فإنهم سوف يدعمون بشدة الافتراض الأسمى بينما يفكرون فى الأسباب التى أدت إلى فشل التجارب. وفى النهاية يكون الملاذ الأخير فقط الاستغناء عن الافتراض ذاته.

إن فاعلية العلم الفائقة ترجع بدرجة كبيرة إلى أن البحث العلمى ربما يكون نشاطا متقدرا بين نشاطات الإنسان التنافسية، والعلم يشمل فكرة الفشل كأحد مبادئه. وبما أن النزوع الى التحكم والسيطرة شىء أساسى؛ فإن الناس تذهب لأبعد الحدود لتحضى معتقداتهم، وضلالاتهم وتنبؤات وتصورات أخرى عن كيف يكون العالم الخارجى. والعلماء، مثل كل الآخرين، يطمحون إلى أن يكونوا دقيقين، فاعلين، مسيطرين ويملكون التحكم، لكن أحد معتقداتهم عما يقومون به هو أن الافتراضات والنظريات قابلة دائما للانقلاب والتغير. إن الدقة المتناهية بالإمكان، لكن الحقيقة المؤكدة غير ممكنة. والكشف عن نظرية علمية شىء يستحق الثناء؛ حيث إن ذلك يعنى أن العلم مؤثر وله فاعليته، وعندما يدعى زوار متحدثون إلى حلقات نقاش علمى (سيمنار)؛ فإننا نقدم غالبا بوصف شامل مسيئ لإنتاجاتهم - وهم فى معظم الأحيان متأنفون يتباهون - لكن أفضل ما سمعت من مديح فائق كان تقديما لعالم متميز، فهو قد عمل لعدة سنوات على نظرية، مؤثرة جدا فى

مجال تخصصه، إلا أن خطأها قد ثبت منذ فترة. إنه لم يقم فقط بالتخلي عن نظريته علناً أمام الجمهور، لكنه أخذ يبحث بجد واجتهاد عن بديل لها، فهل هذا مثال رائع لنا جميعاً؟ نعم! لأن العلم، مثل كل ما هو نموذجي، جدير بالتمجيد لا التقليد<sup>(٤٢)</sup>.

## التحديات لبعض التنبؤات تُفسر كتهديدات:

إن الغالبية العظمى منا ليسوا علماء، وحتى العلماء قد يجدون من الصعب الاستغناء عن الأفكار القيمة. وعندما نواجه تحديات اختلاف التنبؤ عن الواقع؛ فإننا غالباً ما نكتشف طريقاً للهرب، متمثلاً في أن عدم التطابق بين الواقع والتنبؤ ليس بالفعل شيئاً كما كنا نظن، وقد تكون الفكرة مقدسة أحياناً والمواجهة مؤلمة جداً لدرجة أننا نعتبر التحدي ليس مؤلماً فقط ولكن لا يمكن احتماله، فيصبح مجرد وجود هذا التناقض تهديداً يتطلب الانتباه الفوري والانشغال بردود الفعل نفسها تجاه التهديدات التي تعودنا التعامل معها في مآزق ومخاطر سابقة.

والبشر ليسوا متفاعلين ببساطة، فعندما يكون العالم الخارجى على غير ما نرغب أو نتوقع؛ فإننا قد نُعدل من تصوراتنا وتنبؤاتنا وفقاً لذلك، أو قد ننسحب بأنفسنا تجاه رغبات أخرى، ولكن إذا كان ذلك من الصعوبة بمكان؛ فإننا قد نقرر أن نغير العالم بدلاً من ذلك. وإذا تعارضت الحقيقة مع معتقداتنا المهمة، أى المعتقدات التي تسبب صراعاً عنيفاً لو تخلينا عنها، فإن هذا التهديد بالصراع سوف نواجهه برد فعل يُماثل ما نواجه به التهديدات الأخرى.

وكما يحدث تماماً في الاصطفاء الطبيعي عند تحول الجينات، الذي يُبنى على الموجود فعلاً بدلاً من البدء من جديد في كل مرة، كذلك يحدث التطور

والتحور الاجتماعي فتتسأ عنه تهديدات جديدة تكون ردود الفعل عليها اختياراً من بين ردود فعل ضد تهديد سابق. والتحديات الاجتماعية والثقافية والرمزية التي نواجهها حالياً، مثل الاعتراض على أسلوب حياتنا الذي يشنه من يختلف أسلوب حياتهم تماماً عنا، ثم يصبحون هم في بعض الأحيان مثلاً لتهديد يثير ردود أفعال دافعها الأساسي مختلف تماماً. وقد ترسخت لدينا هذه الردود وكان منطلقها مخاطر الطبيعة التي خبرناها منذ زمن طويل سابق على "صراع الحضارات" - وحتى قبل أن تبدأ الحضارات - لكنها توسعت ببساطة لتشمل المخاطر الرمزية، وبهذا يصير لدينا مخزون ورصيد من التصادمات والروايات المزعجة والصور المقززة، وهي مجرد أفكار ومفاهيم مترهلة وبالية بالنسبة إلى كثير منا. ولكن بالنسبة إلى المتورطين مباشرة معها؛ فإن مشاعر الخوف والغضب أو الرفض من الممكن أن تكون شديدة ومرعبة - كما هو الأمر في مواجهة كثير من تهديدات الطبيعة (كالبراكين والزلازل).

وتشكيل العالم بالمعنى البدائي يحدث دائماً، بالطبع، وحتى البكتيريا تُغير الصخور التي تنمو عليها، لكن تشكيل العالم بناء على التنبؤات، والتصور بمعنى تغيير الواقع المادي تحديداً حتى يتمشى مع مفهوم مجرد عن كيف ينبغي أن تكون الأشياء، فهو يتطلب قدرات أكثر تعقيداً. وقد مكن ذلك البشر من التحكم في بيئتهم بصورة لم يسبق لها مثيل، وسمح لهم بأن يجعلوا حياتهم أكثر أماناً باطراد، وأكثر رفاهية، ومفومة عن ذي قبل، إلا أن هذا جعلهم معرضين - بازدياد - للتهديدات الرمزية "والمعنوية" التي لا تسبب ضرراً مادياً ولكن، على الرغم من ذلك، يمكن أن تُعتبر شديدة الخطورة. وهذا التناقض بين التهديد المعنوي والخطر الجسماني المادي والحقيقي هو في صلب ولب قسوة البشر.

## القسوة تشمل رد فعل تجاه تهديد:

إن التفكير في القسوة على أنها سلوك لا تبرير له، يؤكد أهمية وصعوبة المقارنة أو الموازنة بين ردود الفعل تجاه تهديد ما وبين التهديد الذي يُطلق ردود الفعل. فالإيذاء المُبرر يمكن أن يُقبل على أنه دفاع أو عقوبة. وتتسأ المشكلات. كما رأينا، عندما لا يتفق المعتدون والضحايا وأطراف الثالثة على تبريرات الفعل العدوانى. وحتى إن كان هناك إجماع فى الرأى من حيث المبدأ فسوف تظل هناك بعض الصعوبات العملية لأن البشر على الرغم من أنهم يتعرضون للمواقف الاجتماعية ويتعاملون معها منذ آلاف السنين؛ فإنه ما زال هناك مجال للخطأ والخلط بين الأمور.

وبعدما تقل وتتفاقم الأحداث غير المتوقعة من البيئة وتتزايد سيطرة الناس عليها؛ سوف يصير عدم القدرة على التنبؤ بالأمور الاجتماعية عاملاً مهماً وأكثر تأثيراً فى الوجود الإنسانى وسوف تصبح التهديدات الاجتماعية أكثر أهمية باطراد. (والمثال الأقرب هو أن معظمنا نحن الغربيون المرفهون نذهب فى أيامنا هذه إلى "تجمع للصيد" وهو السوق التجارية المحلية، فنجد أكبر التهديدات المباشرة لسلامتنا وربما لحياتنا من أحد السائقين فى مرآب - جراج - السوق التجارية). أما الآخرون، خصوصاً الغرباء، فلهيهم عادات مزعجة حيث لا يتصرفون كما نتوقع منهم، فهم يزيدون من شدة حاجتنا إلى السيطرة ويستثيرون فينا نزعة العدوان<sup>(٤٣)</sup>. وقد تتصارع المصالح، أحياناً دون مؤشرات للتصالح، عندما يهدد الآخرون وضعك فى المجتمع، أو مواردك المادية (مثل الأرض)، أو حتى سلامة وجودك فى الحياة؛ لذا فإن الحياة مع الآخرين سوف تمثل ضغوط انتقاء واصطفاء تفضل

الأفراد الذين يتحكمون في مستوى التهديد الاجتماعي تماما ويستجيبون له بفاعلية. ولا بد أن يحسم العدوان ضد الحلفاء المتوقعين في المستقبل - أو الرفاق - بمنتهى الدقة. لأنك إذا تهاونت أو أهملت في ذلك فإنك تخاطر بفقدان وضعك ومكانتك في المجتمع، وإذا تجاوزت في عدوانك فسوف تخاطر بانتمائك للجماعة. وفي أي الطريقتين ستكون معرضا للمهانة والإذلال، وربما للهلاك، إذا أسأت تقدير قوة غريمك وتصميمه.

والمخاطرة شيء حقيقي بالفعل، لأن آليات المهارة والقدرة لا تتسم بالكمال. والحيوانات كذلك ليست بمنأى عن الخطأ إذا كان الأمر يتعلق بالحكم على التهديدات وكيفية الاستجابة لها، فالكلاب لا تحقق شيئا بالنباح على سيارة إطفاء الحريق التي تمر أمامها، إلا أن الضوضاء الصادرة منها قد تقل، أو أنهم يظنون ذلك، كما أن البشر ليسوا معصومين من الخطأ أيضا؛ فإنه من الصعب على الشخص البالغ صاحب الخبرة أن يعرف كيف يفرق بين أن يحذر شخصا من خطر ما أو أن يرعبه. وبالحساب الدقيق، فإن تقييم تهديدات المجتمع والحكم عليها يمثل مشكلة صعبة؛ إذ إننا على الرغم من كل هذه السنوات من الممارسة ما زلنا نصدر الأحكام الخاطئة أحيانا. فإذا أطلق أحد زملائك في العمل، ممن لا تحبهم أو تفضلهم، تعليقا سخيفا فإنك على الرغم من علمك بأنه مجرد تعليق عابر فقد تتكون لديك ردود الفعل العدوانية نفسها - سرعة في نبضات القلب، توتر في العضلات، قبضة يد محكمة مع الرغبة في صك وجهه - وهذا ما جعل أسلافنا يشتبكون في هجوم جسدي وبدني. فليست ردود أفعالنا على التهديد دائما متوازنة أو مساوية بمعقولية للمثير الخارجي - هذا من وجهة نظر الآخرين، وأحيانا حتى من وجهة نظرنا نحن. ومما لا يدعو للدهشة أن عدم التكافؤ بين الفعل ورد الفعل يكون دائما بالتجاوز والزيادة في رد الفعل. وفي التاريخ الماضي للجنس البشري

كان تقدير التهديد بأكثر مما يجب؛ سببا في الهلاك وإهدار الجهد والطاقة. لكن التقليل من شأن التهديد أو من تقديره قد يأتي بنتائج أسوأ؛ ذلك لأن الأحكام الخاطئة نتائجها مأساوية وكارثية. غير أن أغلبنا، في معظم الأحيان، يملك المهارة الكافية "نظريا" على أن يهدئ من التوترات قبل أن تتصاعد. وفي كتاب مثل هذا عن "القسوة" علينا أن نذكر بأن معظم ردود أفعال البشر تجلب قليلاً من المعاناة، وقد لا تجلب شيئاً على الإطلاق.

وتختلف وتتوعد التهديدات المعنوية المجردة، فالفكرة قد تأخذ شكلاً مادياً وتمثل في صورة مرسومة أو مخطوط يدوي، وقد تتمثل فقط في كلمات منطوقة، أو في زفير في الهواء، إلا أن هذه الفكرة إذا تناقضت مع المعتقدات الراسخة لشخص ما فربما يراها كشيء أكبر، أي كتهديد بدلاً من اعتبارها فقداناً للمكانة أو مجرد إهانة، أو قد تتساوى لديه مع الإيذاء البدني أو القتل، ونحن ندرك ذلك لأن الناس أحياناً يفضلون الموت أو معاناة الألم، أو كليهما، بدلاً من التخلي عن أفكارهم ومعتقداتهم. ونادراً ما تكون عواطفنا محددة وواضحة، فإذا واجه الفرد فكرة تتحداه فقد يكابد من مشاعر الغضب والخوف، وحتى من الحزن والصدمة. لكن عليه أن يتدبر نوع التهديد الذي تفرضه مختلف التحديات، وتصبح الأفكار خطيرة فقط عند أفراد المجتمع الذين يخاطرون بأن يصيروا مقبولين ومندمجين في هذا المجتمع بدلاً من أن يبقوا في عالم خارجي من المحتمل أن يتجاهلهم ويغفلهم. وبمعنى آخر، فإن التهديد ليس بأن المجتمع سوف يندثر أو "يموت" (ورد الفعل المناسب هنا هو الخوف بالتأكيد) أو بأن وضع المجتمع سيكون بالضرورة في خطر (ورد الفعل من الناس في هذه الحالة هو الغضب). وتتسأ المشكلة بالفعل عندما تتناقض الأفكار المتحدية بشدة مع المعتقدات الأساسية للمجتمع؛ حيث يكون تقبل هذه المعتقدات معناه تغيير صلب وهوية المجتمع تماماً. ويمثل هذا مصدراً

للعُدوى - وهذه استعارة تنطبق غالباً على الأفكار - تكون فيه الأفكار المتحدية فاعلة ومؤثرة وقابلة للانتشار بسرعة مذهلة كي تُفسد الجماعة، أو فرد من الأفراد، من الداخل. ومع هذه الخصائص والأحوال يكون رد الفعل الواضح هو الاشمئزاز<sup>(٤٤)</sup>.

ويستعى الاشمئزاز الرفض، سواء بالتجنب، أو الطرد، أو الحد من مصدر العدوى. ومن يجاهر من الناس بأفكار تتطلب الاعتراض هو مثل من تظهر عليه أعراض الجذام؛ يجب تجنبهم فهم يثيرون الرغبة الفطرية في عزلهم. وإذا استطعنا فعلينا تجنبهم شريطة أن يكون التجنب فعلاً ملائماً، فقد يبدو ذلك مثلاً كنوع من الانسحاب إلى حزب ثالث، مما يجعلنا نفقد وضعنا ومكانتنا. ويبقى اختيار آخر وهو طرد هؤلاء المتحدين غير المرغوبين من بيننا، وإن لم يكن هذا ممكناً فعلينا اللجوء إلى التدمير الجسدي. وما يعيننا هنا هو أن كل ذلك بدافع حماية الذات. وبالنسبة إلى غيرنا، فعند رؤية مريض الجذام سيكون الرأي أن العزل ضروري وأن الإصرار عليه مُبرر تماماً، لكن الجذام مرض له علامات ظاهرة بينما لا تظهر أي علامات في حالة الأفكار الخطيرة، وقد يفشل الطرف الثالث في فهم رد فعلنا المشمئز تجاه هذه الحالة؛ لأنهم لا يرون التهديد لعائدنا بالقدر نفسه الذي نراه، وربما تبدو لهم أفعالنا وردود فعلنا بلا مبرر أو قاسية.

يسبب بنو الإنسان في الإيذاء والضرر لأسباب عديدة؛ كي ينفقوا حياتهم، ويحفظوا بمكانتهم الاجتماعية أو يرفعوها، أو لكي يعلموا الشباب والصغار، أو حتى كي يفرضوا النظام... إلخ. ومن حيث مبادئ الأخلاق، فإن كل هذه التبريرات تكفي حتى نتحاشى تهمة القسوة، خصوصا عندما يكون التهديد سريعا وفيه خطر واضح على الحياة، أو على جانب رئيسي فيها، أو يهدد المساواة بين الجماعة أو الأخلاقيات العامة، لكن بعض أشكال من الإيذاء تُستخدم لتفرض بعدا اجتماعيا عند الاستجابة لتهديدات غير واضحة وليست داهمة، وقد لا تبدو خطيرة بصفة خاصة. أما في حالة التهديدات المعنوية؛ فإن الحاجة إلى الإبعاد والعزل قد تكون غير مقنعة لطرف ثالث، خصوصا إذا كان هذا الطرف لا يشاركنا معتقداتنا، فماذا يعني لنا الدفاع ضد تهديد ماحق لهويتنا- إذا عرفناه وكان رمزيا وليس ماديا- وهذا يمثل قسوة بالنسبة إلى المراقب البعيد أو الضحية.

وسوف تستكشف الفصول التالية بالتفصيل موضوع السادية وجمود القلب، منشأها وخصائصها، وكى نقوم بذلك فإننا نحتاج أولا إلى أن ننظر إلى آليات السلوك القاسي. وتتشارك كل أنواع القسوة في خصيصة عامة مشتركة: الوسيلة التي تُطرح من خلالها. وهناك شبكة من الأسباب تُنتج في عقول البشر. وحتى نلقى نظرة أعمق على القسوة؛ فإن ذلك يعنى الغوص باهتمامنا في بحر الخلابا العصبية في مخ الإنسان، أى الكتلة الرخوة السمينة التى تولد منيا القسوة. وبما أن

القسوة فعل، فنحن في حاجة إلى أن نسأل عن السلوك ونتحراه: "والناس تبدأ بالأفعال وليس بالأفكار"<sup>(٤٦)</sup>. وعلينا أن نرى كيف يأخذ مخ الإنسان حزمة من المؤثرات - ملاحظات، ذكريات، معتقدات، رغبات، عواطف - وغالبا ما يتحول كل ذلك إلى رد فعل ذكي وحققي. وهذه المشكلة، مشكلة الفعل، هي موضوع الفصل التالي.

## الفصل الرابع

### كيف نصل إلى مرحلة الفعل؟

ما المصدر الخفى للشرور التى نشاهدها  
ونسلم عنها ببساطة فى كل مكان. غير ما لدينا  
من مدارات كهربية عصبية زائدة التعقيد؟ وأجيبك  
فأقول: لا يوجد مصدر آخر. لقد كان كوكبنا بريئاً  
جداً، لولا هذه العقول الكبيرة العظيمة.

(من رواية جالدياجوس "Galdpagos 1985" للروائى الأمريكى كيرت فونجوت Kurt  
(Vonnegut<sup>(\*)</sup>)

القسوة، فى الأساس، هى فعل، وحتى نفهم ما الذى يجعل الناس قساة فإنه  
يلزمنا أن ننحصر مصادر فعل القسوة (وكل سلوك إنسانى آخر)، إنها أجهزتنا  
العصبية؛ فهذه الأجهزة هى الوسيلة التى تتحول بها معلوماتنا عن أجسامنا  
وتاريخنا الشخصى وبيئتنا، إلى تجارب نحسها دقيقة بدقيقة، وإلى أفكار ومعتقدات

---

(\*) كيرت فونجوت (١٩٢٢-٢٠٠٧)، روائى أمريكى من ولاية إنديانا كتب روايات خيال علمى وسخرية  
اجتماعية واشتهر بكتاباتة عن فضائع القرن العشرين. ورواية جالدياجوس (١٩٨٩) تصور البشرية بعد  
مليون عام فى سلالة نجت بعد غرق إحدى السفن ثم تحورت واستوطنت جزيرة جالدياجوس.

وذكريات، وعواطف وأمزجة ومؤثرات غير واعية تحكمننا، وإلى المؤشرات الحركية التي تُطلق كل حركاتنا. والإقصاء ونبذ الغير والتقمص العاطفي والغضب والشفقة والرغبات والازدراء والنزوع إلى المجازفة والحاجة إلى ضبط النفس.. كل هذه دوافع ونزعات متصارعة قد تتلاقى وتتعارض في حلبة المخ، ويأخذ المخ هذه الدوافع وكثير غيرها وينسجها في شبكة العواطف والأفكار التي يبنها كل إنسان بمجرد وجوده في الحياة وانفعالاتها. ومن هذه المادة العصبية تنشأ الرقعة واللفظ البالغ والقسوة غير العادية.

وتظهر هذه البوادر أحياناً على نفس الشخص في لحظات قليلة. وهذا الفصل، وهو أصعب فصول الكتاب تقنياً، سوف يفحص المتاح لنا عما يفهم حالياً عن مخ الإنسان وما يمكن أن يكشفه عن كيمياء نقل الحس إلى المراكز العصبية التي تستطيع تحويل فكرة شريرة إلى فعل شرير.

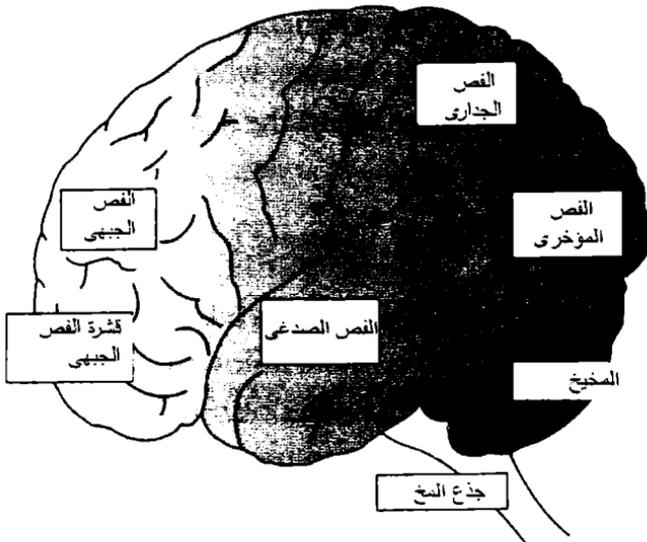
## الإحساس والتشابه:

العقول شيء معقد بصفة استثنائية وغير عادية.. هذه بالطبع حقيقة بديهية وهي أول ما قيل لنا عن الأدمغة مقترناً بكثير من الإحصاءات الرهيبة التي تشمل أرقاماً كبيرة جداً عن الخلايا، ونقاط التشابك العصبي، والذرات في العالم المعروف وغيرها. وفهم الإحصاءات عن المخ يمثل تحدياً كبيراً للعقول نفسها، فما مغزى ومعنى كل هذه التعقيدات، حقيقة؟

كبدائية، هذا يعني أن أي حدثين في العالم - حتى حدث بسيط جداً مثل ومضات الضوء - لن يكون لهما نفس التأثير تماماً فيك وفي سلوكك، وكى ترى لماذا لا يحدث ذلك. نحتاج إلى البدء من بدايات الأحاسيس والإشارات الآتية من على بعد في هذا العالم (الرؤية، السمع، اللمس، التذوق، الشم) أو من داخل الجسم (من الأحشاء والأمعاء، من الهرمونات، ومن جهاز المناعة)، وكلها تتواصل مع

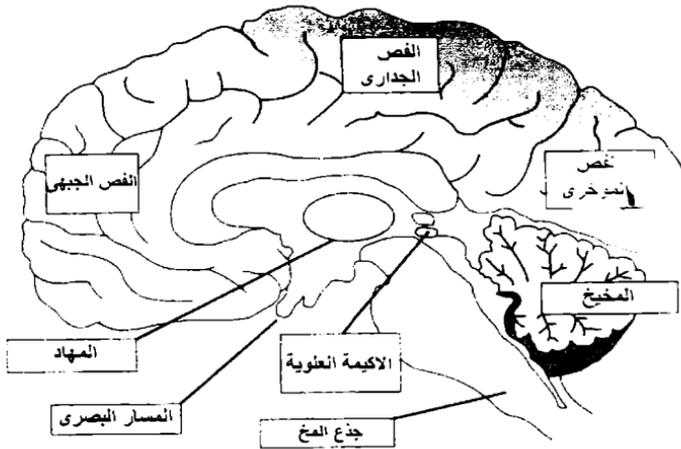
الجهاز العصبى بطرق متنوعة. ويُستدل على بعضها بالمستقبلات العصبية- وهى خلايا متخصصة يمكنها الاستجابة إلى "فوتونات" الضوء (وحدات الكم الضوئى)، وموجات ضغط الأصوات، وجزيئات الروائح،... إلخ، وذلك بأن ترسل موجات كهربية عبر الألياف العصبية.

وحتى تتحقق رؤية ومضة الضوء؛ فإن الشبكية التى فى خلفية العين لا بد أن تُسَنِّثَار عندما تصطدم بها "فوتونات" الضوء، عندئذ تُستَفِز وتنتبهِ الأعصاب البصرية وترسل نبضات كهربية تنتشر على هيئة موجات صغيرة فى المخ تذهب أولاً إلى مناطق أعمق مثل "الأكيمة العلوية" (السقف الصغير) ونواة المهاد الجانبية (وهى على شكل الركبة)، ثم إلى المناطق الجدارية البصرية عند الصدغ والجبهة فى قشرة الفص الجبهى الممتد (انظر الشكل ٢، ٣) .



شكل (٢) مقطع جانبي يُظهر مخ الانسان بتقسيماته الأربعة الرئيسية من الخارج (الفص الجبهى، الفص الصدغى، الفص الجدارى، والفص المؤخرى).

وفى المشهد الجانبى؛ يُرى المخ مائلاً إلى الجنب ولا يرى منه إلا نصف كرة الدماغ فقط. وهنا تبدو مقدمة الجبهة (المنطقة الأمامية) على الجانب الأيسر، والمنطقة الخلفية إلى اليمين.. وهكذا يكون الفص المؤخرى فى الخلف والفص الجبهى فى الأمام، ويمكن أيضاً تجزئة هذه المناطق إلى تقسيمات فرعية مثل: القشرة الصدغية الخلفية، والأمامية- والمعلّمان الرئيسيان لتقسيم القشرة الخارجية هما المخيخ وجذع المخ، واسمهما مكتوب هنا أيضاً. (والأسماء مكتوبة على كل معلم ومنطقة كى نقارن هذه الأشكال والأجزاء).



شكل (٣) قطاع من وسط المخ البشرى وبه ثلاثة من التقسيمات الأربعة الرئيسية الخارجية (الفص الجبهى، الفص الجدارى، والفص المؤخرى) وأسمائها مكتوبة. والمقطع الوسطى يظهر المخ كما لو كان قد شق من الوسط مع إزاحة نصفه حتى يظهر السطح الداخلى للنصف الباقى. والقشرة الخارجية عبارة عن طبقة مجمدة تغطى القشرة الواقعة تحتها. والأكيمة العلوية، والمهاد والمسار البصرى- وهو الذى يضم الأنسجة العصبية للعين- وأسمائها كلها مكتوبة. كما

كتبت لافتات بأسماء معلمين رئيسيين يقعان تحت القشرة الخارجية وهما المخيخ وجذع المخ.

لكن هذا لا يعنى أن الشيء نفسه يحدث مع كل ومضة ضوء؛ لأن كلاً من هذه المناطق فى المخ تحتوى على عدة ملايين من الخلايا العصبية التى تتفاعل معها، وبعضها فقط هو الذى سوف يهتم بالومضة الأولى من الضوء، وبعض منها سوف ينصرف إلى أمور أخرى تجرى داخل المخ ولن يستجيب إلى ومضة الضوء الثانية. وحتى لو أخذنا إشارة واردة للمخ خارج هذا المضمون وربطنا بينها وبين خلية عصبية واحدة واقعة تحت تأثير حافز منفرد، فإن استجابتها لحافز آخر مماثل تماماً قد تكون مختلفة<sup>(1)</sup>. وتضيف الخلايا العصبية، فى أى لحظة، أعداداً من الإشارات التى تصلها وتتفاعل معها بإشارات خاصة بها إذا زاد معدل المدخلات عن مستوى معين عند العتبة الكيربية للخلية. وبما أن كل خلية عصبية متصلة بخلايا كثيرة غيرها، فإن المدخلات قد تتغير فيما بين الومضة الأولى والثانية إذا استجابت الخلية إلى عمليات أخرى غير مرتبطة بهذه العملية، كالنتفس مثلاً. وعلاوة على هذا؛ فإن الخلايا العصبية تستطيع أن تغير سلوكها بناء على تجربة سابقة، وهذا ما يجعل الناس أيضاً قادرين على ذلك، وعندما يستجيب المخ لحدث أو عملية ثانية يكون قد تغير بعد استجابته للحدث الأول، ولذلك فإن الاستجابتين لن تكونا مثل بعضيهما تماماً. وما يناسبنا ويتفق مع أغراضنا باعتبارنا متخصصين فى علم دراسة الأعصاب وعلم النفس، أو ببساطة لأننا "ناس" نعمل فى عجلة وسرعة، هو أن نقول إن الاستجابتين غالباً ما تكونان "مشابعتين" بقدر كاف- غير أن هذا مرجعه إلى أن اختيارنا هو ألا نفحص الأمر بدقة متناهية. والتشابه الظاهرى. الذى يُخفى اختلافاً أعمق، ينطبق على كل العمليات الذهنية كما ينطبق على الخلايا التى تتجز هذه العمليات. وعندما أذكر أو أستخد كلمة "قطة"

مثلاً؛ فإنك تعلم ما أعنيه بسبب خبرتك السابقة- سواء بصورة مباشرة أو غير مباشرة عن طريق الصور أو القصص- إنك تعلم أن القطة عادة يكسوها فراء، أنها تصدر مواء وخرخرة، وإنها غالباً تطارد وتقتل المخلوقات الصغيرة، وأن صغارها تسمى "هريرة أو هرة" صغيرة، ... وهكذا، وإلى هذا الحد فإننى أنا وأنت نتشارك مفهوم كلمة "قطة" نفسه؛ لكننا لسنا بحاجة إلى التعمق أكثر من ذلك لتتسبب ونختلف، لأن تاريخنا الخاص سوف يصنع هذا المفهوم بتفاصيل خاصة جداً ومتفردة. فى ذهنى سوف يختلط هذا النمط البدائى مع سنور مآكر أو قط العائلة الذى مات من زمن طويل أو الهرة الصغيرة "المنقطة" فى المنزل المجاور، وقد يضيف الخيال لمسات متفرقة من قطط أخرى فى وسائل الإعلام أو من أعمال أدبية بدءاً بأشعار "كبلنج" وانتهاءً بقصائد "البوت"، وقد تكون قطتك ودودة وأعقل لكنها أبداً لن تكون مطابقة تماماً للقطة التى تخيلتها.

وعلى الرغم من ذلك فيمكننا التواصل، فنحن نستطيع التكلم عن القطط ونعرف أساليبها، فهى جزء من ثقافتنا على مدى قرون. إنها شىء حقيقى "هناك": مائل ومتجسد لنا بمعنى أنها كيانات مستقلة (وهى نموذج سيئ، فى تجربتى). إن هذا التصور عنها موجود باستمرار، كما نفترض، ونحن لا نشعر بها، وهى تثير عقل الإنسان (كمدخلات يستقبلها) فى مناطق معينة بطرق ثابتة وفى أماكن وأوقات مختلفة؛ فهى "تخرش" وتنبش بأظافرها وتصدر أصواتاً وما شابه.. هاتان فكرتان عما تعنيه كلمة "قطة" فى ذهنين مختلفين- أو إنها الفكرة نفسها فى العقل نفسه فى أوقات مختلفة- وهكذا هما متشابهتان ومختلفتان كشجرتى بلوط تبدوان من البعد متطابقتين، ولو نظرت لهما بإمعان عن قرب سوف ترى اختلافاً فى الفروع والأوراق.

ولماذا يعنينا هذا عند دراسة ظاهرة القسوة؟ هناك عدة أسباب.. أولاً: القسوة، عكس القطة، مفهوم أخلاقي مجرد ومُعقد ولا يوجد إجمال في الرأي بسهولة على عديد من أمثلتها ونماذجها. فقد يختلف، مثلاً، اثنان من الساسة تماماً وتتعارض أفكارهما عما إذا كانت الأساليب المستخدمة ضد المساجين في "الحرب على الإرهاب" قاسية. ثانياً: هذه المرونة في إبداء الرأي تجعل القسوة مفهوماً ومسألة يصعب البت فيها، والناس في عالم متحدثي الإنجليزية الذين يريدون التواصل مع الآخرين تعلموا أن يطلقوا على نوع معين من الحيوان المكسو بالفراء كلمة "قطة"، وقد كان بإمكانهم أن يُحدثوا جلبة وضجة لأي سبب مقترن بهذا التعريف. لكن التكلفة الاجتماعية لذلك هي أن يوصفوا بأنهم حمقى أو بلهاء، وهذا يتعدى مساندة وتشجيع الاستقلال الذاتي في الرأي، لذا فالقرار هو: إن الكلمة المقابلة بالإنجليزية هي "قطة". وكى أعلمك معناها فأنا أشير مباشرة إلى قطة، أو أبحث عن صورة لها؛ وأنت نفهم معنى الإشارة وتعرف كيف تقرأ الصور، ولأن هناك شيئاً أشير إليه أمكننا التواصل، لكن في حالة القسوة يمكنني أن أشير إلى أى شيء، بدءاً من أم تصفع طفلها الصغير صفعاً قوية إلى رجل يُعذب بدنياً. والأسوأ هنا أن في كل مثال منهما (من الذين اخترتتهما) سيكون هناك من يعتقد أنني مخطئ في تقديري للقسوة (فالصفعه تهدف إلى تربية الطفل، والتعذيب عقوبة ضرورية وواجبة)، وعلى الرغم من ذلك فكلنا يتعامل مع مفهوم القسوة.

## مفاهيم وشبكات متداخلة:

نحن لدينا استعداد على تخيل المفاهيم على أنها شبكة خيوط متداخلة.. أى أنها نوع من النسيج الذهني به ملاحظات وإدراك حسي وتصورات ومعارف سابقة

تتسج معا بالتوافق والترابط والتداعي، وتلائم هذه الاستعارة الطبيعة المرنة وصعبة التحديد لكثير من أفكارنا. والدقة في التحديد مسألة درجات؛ وكلما كانت الفكرة محددة بدرجة كبيرة كان المؤثر الذى أثارها متشابهًا معها والتداعيات التى تُحدثها والحركات التى نميل إلى فعلها استجابة لها متوافقة. وتختلف الأفكار أيضا فى ثرائها؛ فإن فكرتى عن جزئى ثلاثى الفوسفات الأدينوسينى هى معرفة ضئيلة إذا ما قورنت بما يعرفه عالم أحياء دارس ومتخصص فى هذه الجزئيات، والمكونات الخلوية لها، بالتفصيل وفى دراسة مستفيضة، ذلك لأننى على الرغم من أننى أحتاجها فى عملى فإننى لا أستخدمها كل يوم، ولأن الخلية فى علم الأحياء هى اختصاص محدود ويهتم به عدد قليل، فإن معظم الناس لا يحتاجون إلى مفاهيم مفصلة (ATP) عنه إطلاقًا (على الرغم من أنهم لن يستغنوا عن الجزئيات نفسها).

وعادة ما تكون الأفكار أمورًا نفعية "براجماتية"، تتجاوب مع احتياجاتنا، ومهينة بدرجة كبيرة لأن تكون فى متناول أيدينا (إن صح هذا التعبير) عندما نريدها، ثم "تتدس" أو "تتغرس" فى المشهد العقلى طوال الوقت، ثم إننا نشكلها ونوفق ونصل بينها بسهولة، ويبدل البشر قدرًا غير عادى من الوقت والطاقة فى "اللعب" بالأفكار، ونحن غالبًا لا نفحصها ونمحصها بالتفصيل، لكننا قد نشحذها ونطوعها إلى أمور وأدوات منتقاة ومهذبة ومجردة من التداعيات الدخيلة والغريبة، مثل العلامات المجردة  $x$  و  $\sigma$  المستخدمة فى علم حساب التفاضل والتكامل، ثم يمكننا بعد ذلك استخدام الأفكار كرموز نبني بها قصورًا فى الهواء؛ قصورًا وقلاعا غاية فى الزخرفة والتعقيد فى الرياضيات أو الفيزياء النظرية، أو قصورًا حقيقية.. وغيرها كثير، ويمكننا استخدام الكلمات والأفكار بالتبادل، كما يفعل الشعراء أو مثل أصابع عازف "الهارب" التى تنتزع شباك الأفكار وترشقها وتلقى بنا على موجات غنية من التداعيات التى تتداخل، لكنها تكون متفردة عند كل

قارئ أو مستمع، وغالبا ما نعمل شيئا فيما بينها، عندما نتوع فى الطريقة التى نستخدم بها أفكارنا اعتمادا على الموقف "المزاج" والدور الذى نلعبه وعوامل أخرى كثيرة.

وكى نتحقق مثل هذه الطواعية و"المرونة" وكى نتابع كيف تترابط وتتظم الأفكار مع بعضها، نلزمنا آلية تستطيع تزويدنا بمعلومات تفوق أى كتاب ونكون ديناميكية أقوى من أى حاسب آلى (حاسوب). ومثل هذه الآلية يجب أن تعطينا قدرات ووسائل سريعة، حيث يمكننا التذكر واسترجاع الأفكار عندما نحتاجها. ويجب أيضا أن توفر هذه الآلية لنا أسلوبا سهلا لربط الأفكار معا أو دفعها وفصلها وتقسيمها إذا اتضحت اختلافات بينها، ومما يلزم أيضا أن تتوافر لنا سهولة الربط بين مكونات الأفكار بهدف تصحيح الانطباعات الأولية الخاطئة، فنحن ندرك الأفكار ونعلمها وقد نحتاج إلى تعديلها أو تغييرها. والآلية التى تحقق ذلك علينا أن تربط بين الأفكار وبين الأشياء والأحداث بإحكام ثم تتعامل معها فى العالم الذى تمثله حيث تتغير الأفكار إذا تغيرت بعض مظاهر الحقيقة الخارجية.. إذن فالعلاقة مع الواقع الحقيقى ضرورية. وفى النهاية يجب أن تسمح لنا هذه الآلية (مثل عدسة الترويم)، بأن نقرب من الأفكار أو نبعد عنها كما نرغب، وأن نستخدمها بسطحية أو بعمق عندما يكون التركيز على التشابه أو عند سرعة التعامل، ويتم استطلاع الشبكات "الثرية" للتداعيات عندما نريد التأكيد على تفردنا، أو أن نستكشف فكرة بشىء من التعمق، مع التروى فى ذلك.

وإن أردت ان تحصل على "تلميح" أو معرفة طفيفة عن مقدار غزارة وتنوع التداعيات والترابط بين الأفكار والخواطر، عليك أن تجرب كتابة قائمة بالأفكار المترابطة التى تخطر على ذهنك عندما تفكر فى كلمة "سوءة" على سبيل المثال. وهناك محاولتان لاثنتين من الأشخاص (فى جدول رقم 1) سجلا على مدى دقيقتين التداعى الحر فى الفكر عن هذه الكلمة. وكما ترى فإنهما مختلفان تماما. على الرغم من وجود بعض التداخلات.

كلمات مشتركة بين المشاركين

عدوان، قتل، سادية، معاناة، تعذيب، عنف

الموضوع	المشارك "ب"	المشارك "أ"
مواقف تحدث فيها قسوة متناهية.	معسكر اعتقال، طائفة دينية، العصور الوسطى، روسيا، حرب.	هولوكوست، حروب
مواقف تحدث فيها قسوة (أقل في الشدة).	أرض الملعب، طالبات مدرسة، مضايقات.	
مرتكب الجرم. (مجرم)	هتلر، ذكر، سلوبودان ميلوسوفتش، ستالين.	مرتكب الجرم (مجرم)
دوافع المجرم.	الحقد.	الرغبة في الإيذاء، لا مبالاة، بلا شفقة.
اتجاه "للإقصاء" لمن يرتكب القسوة، كما نريد إبعادها وعزلها عنا.	مظلم، حكايات ملفقة، غول رهيب، شرير، فساد أخلاقي وإثم، متوحش.	وحشية، فظاعة شيطاني، فذارة، شر غير مفهومة، غير إنساني، مريع، متوحش، الولع بالأذى، خسيس.
مشاعر تقترن بالقسوة وضحاياها.	سلاسل، زنزانية، ظالم، العجز.	يأس، بؤس، رعب، غضب وحنق، ذعر
معارضة القسوة.	محكمة العدل الدولية. (هولندا)	حقوق الإنسان.
العقوبة.	عقوبة.	يمكن المعاقبة.

جدول (١): تظهِر بالجدول قائمة بالكلمات التي تتولد بالتداعي الحر استجابة لكلمة "قسوة". ويرمز للشخصين المشاركين (أ، ب). لقد سمعا الكلمة ثم كتبنا كل كلمة أو عبارة خطرت على ذهنيهما في فترة دقيقتين. وتسجل القائمة الثلاثين كلمة الأولى المنفردة (ووجد في التطبيق العملي أن هذه المهمة صعبة جداً؛ لدرجة أن عدداً آخر من الكلمات الإضافية توارد إلى ذهنيهما)، وهناك ست كلمات في الجزء العلوي من الجدول كانت مشتركة عند (أ، ب). وتعكس هذه الكلمات تداعيات واحدة عن القسوة تربط بين "الإيذاء" مع عنف على نطاق واسع للغاية يحدث معاناة بلا مبرر.

وتظهر في الجزء الأسفل من الجدول كلمات متفرده للشخص "أ" (في العمود على اليمين) وللشخص "ب" (في العمود الأوسط). وقد تم تجميع الإشارة للكلمات حسب الموضوع (في العمود الأخير): المواقف التي تقترن بالقسوة، مرتكبي الفعل، دوافعهم، الاتجاه "للاخرية" ( عزل الآخر) بوصف القسوة على أنها شر وغير إنسانية، كما حدثت تداعيات بين المواقف والعواطف المرتبطة بالقسوة، خصوصاً بالنسبة إلى الضحايا، مع الرفض والمعارضة ولزوم عقاب السلوك القاسي.

## عودة إلى المخ:

والآلية التي تستخدم في التعامل مع الأفكار، هي الجهاز العصبي للإنسان (المخ والأطراف أو النهايات العصبية) وهذا الجهاز مؤهل تماماً ليُذه الميعة<sup>(٢)</sup>. فإنيما يوفران المرونة والقدرة السريعة على التعامل البارح مع الحقيقة وإدارة العملية بسلاسة فائقة؛ لدرجة أننا لا نلاحظها ولا نشعر بها- إلا إذا لم تعمل كما يجب، بالطبع؛ ذلك لأن كل نشاط ذهني نحسه يكون هناك كثير جداً مما يحدث دون أن ندركه أو نتعرف عليه. وبينما أنت تقرأ هذا النص توجد هناك أجزاء من

ذهنك تُعدّل وضعك أو تنظم ضربات قلبك وتنفسك أو تستقبل معلومات عن مستويات الهرمونات في جسمك وتتعامل معها، وكذلك وظائف جهازك المناعي وحالة الأعضاء الداخلية في جسدك، كما أن هناك أماكن أخرى في المخ تُفسر وتعيد تفسير الرسائل التي تصلها عن طريق الأعصاب البصرية (وأنت تُقرأ) وتخمن أي كلمة قد تأتي بعد ذلك، وتسمح لك بتحريك رأسك دون أن تفقد التركيز على النص. وما زالت هناك مناطق أخرى تجهز طبقة فوق طبقة من المعاني مع كل "قطة" تنتقلها عينك، وهي تعريك بأن تقطع خيط استرسالك مع النص وتتوقف كي تستكشف تداعياتها وتأخذ وتماس... وأكثر وأكثر من ذلك بكثير.

## الوقت والتعقيد:

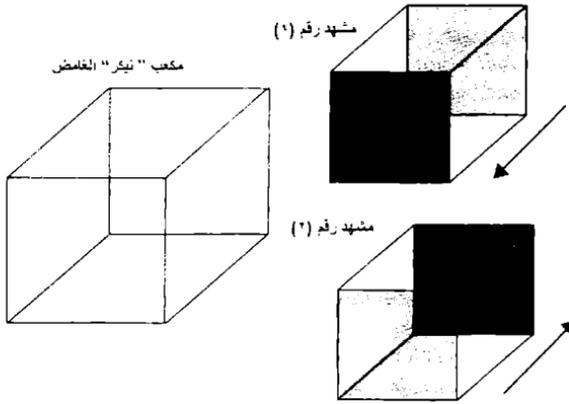
ما لا نعرفه أو نقدر عليه هنا هو تصور رسم "كاريكاتورى" لنوع الاستجابة السلوكية ورد الفعل على أى مصدر إثارة للإنسان.. مصدر مباشر، يمكن التنبؤ به، أو مصدر آلى. ومثلما يعرف كل من حاول دراسة فعل البشر، فإن السلوك البشرى يختلف حتى في أكثر العمليات سهولة وبساطة. وعندما تكون هذه العمليات أكثر تعقيدا، فإن الناس تستغرق وقتاً أطول للاستجابة ما يتيح للمخ مساحة أكبر ووقتاً أطول كي "يرتب" ويساهم مع الإنسان في نوع التعامل وكيف يجب أن يكون رد الفعل<sup>(7)</sup>، وهذا هو ما يجعل التدريبات العسكرية ذات المستويات المتدنية تُبسّط المهام لتناسب ما يلزم من رد فعل: تحرك، الهدف، أطلق النار، وأفعل ذلك بسرعة. والشئ المثالى هو حتمية أن تكون الأهداف واضحة- ويفضل أن يكون المُجند في ملابس عسكرية، وأن يكون هجومه حادا- حتى تُؤدى مهمة انتقاء كل هدف منفرد بأقصى ما يستطيع من سرعة. أما عبء القرارات الأصعب- "هل

هؤلاء أعداء حقيقيون؟ وهل استجابتنا لها ما يبررها؟ فيقوم به أفراد في رتب أعلى لهم حق إعطاء الأوامر أو منح الحرية للجنود على أساس وبشروط أداء المهام الخطيرة دون التوقف ليتدبروا أو يفكروا في كل حركة أو فعل.

والمؤثرات المعقدة هي التي تُبطن من ردود الفعل بدرجة كبيرة، فهناك كثير جداً من التجيز والتنظيم قبل اتخاذ القرار عن كيف سيكون الفعل، ولنا أن نقارن هنا بين رد الفعل تجاه صورة مرئية بسيطة مثل دائرة بيضاء على خلفية سوداء، وبين صورة شارع مزدحم مثلاً. وبدلاً من "إجماع" سريع من الخلايا العصبية على هذا المشيد- مثل الجزء المهم يقع على اليسار. ولا شيء يحدث في مكان آخر- فإننا نجد بدلاً من ذلك عدداً هائلاً من "اللجان" الذهنية في أماكن مختلفة من المخ تتحدث وتتجاوز فوراً في الوقت نفسه عن: جدال حول الأشكال، والألوان، والتحركات، وتخمينات عن ماهية الأشياء وموقعها، "وتقارير" عما نتوقع رؤيته، وإذا ما كان من اللازم إعطاء الأفضلية لجزئية ما. ويعتمد قرارنا إذا ما كنا سنتحرك أم لا على أن تكون فاعلية "لجان المخ" أفضل من لجان البشر. وهناك نتيجة واحدة لكل هذه التفاعلات وهي أنه كلما كانت المدخلات معقدة، عظم دور وإسهام "المستويات العليا" في تحديد المخرجات: توقعات، معرفة سابقة، معتقدات... وهكذا. وما يحفظ هذه التعقيدات البالغة ويقيها أن قوانين الطبيعة البشرية إحصائية ودقيقة؛ وبينما البشر يتصرفون غالباً بأساليب متشابهة، فإنه لا مفر من أن ردود فعلهم المحددة تجاه أى موقف في واقع الحياة تكون مختلفة ومتفردة. إننا إن كنا قد نصف بعض الناس بأنهم ساذجون أو "عقلهم بسيط"، لكننا لا يمكن أن نصف إنساناً بأن "مخه بسيط".

نحن لا نستطيع بالفعل أن نفهم ما نشاهده أحياناً، كما هي الحال في الرسومات "المستحيلة" على الفهم التي رسمها م. س. اسكر "M.C. Escher" أو

رسوم الخداع البصرى الغامضة مثل مكعب "نيكر" "Necker Cube" (شكل رقم ٤). وفى مثل هذه الحالة نستخدم خبرتنا السابقة عن المبانى أو المكعبات حتى نصل إلى توقعات عن كيف يجب أن يكون فهم شكلها. وفى حالة "مكعب نيكر" يعطينا هذا تصورًا عن مكعبين متصارعين، أحدهما فى مواجهتنا والآخر بعيد عنا، وهذا، بالتبادل، هو ما نراه بالفعل. وكما أظهرت التجارب؛ فإن الانتقال من مشهد إلى آخر ينعكس بفعل ونشاط مجموعات من الخلايا العصبية فى مناطق القشرة البصرية المثيرة للصور الذهنية. وبينما يتغير إدراكنا وملاحظتنا، يتغير كذلك سلوك خلايا المخ<sup>(٤)</sup>.



شكل رقم (٤): مكعب نيكر "Necker Cube"

نحن جميعًا، بالطبع، أفراد وأشخاص متفردون. وهناك مساحة أكبر لأن تظهر بيننا اختلافات - بمعنى أننا أكثر تفرّدًا عندما نتعامل مع مؤثرات مُعقّدة وتكون لدينا فسخة من الوقت للاستجابة حينما وكيفما نريد ونرغب. وذلك يعطينا الوقت كى نسمع "آراء اللجان" العصبية فى مخنا- إنها الآراء التى نميل إلى أن نغفلها عندما نتسرع أو لا يتاح لنا الوقت- وقد يشمل ذلك إغفال معلومات عن

خبرة سابقة. وعلى سبيل المثال، إذا كان أحد الأشخاص يملأ استبياننا (استمارة) بخصوص الهجرة وحسب معدل فهمه قد يستغرق وقتاً ليتذكر حواراً معيناً كان قد سمعه، أو ما سمعه من مهاجرين قد قابلهم، أو لو فكر لماذا هذه الإجابة أو تلك قد تكون أفضل. وإذا كان هذا الشخص يجيب عن هذه الأسئلة تحت ضغط من ضيق الوقت؛ فإنه ربما يعطي إجابة نمطية، وهذا التأثير استغله الزعماء السياسيون عند التحقيقات منذ الأزل. وهو أيضاً عنصر أساسي في حالات القسوة المفرطة عندما تُفرض مثل هذه الضغوط النفسية القاسية على المجرمين. وسواء حدث ذلك "الضغط" من خلال إجهاد جسدي من التدريب العسكري، أو من القلق الناشئ عن محنة اقتصادية أو سياسية، أو حتى الضغوط البسيطة بسبب عنصر الوقت، أو الإحساس بضرورة الفعل الذي كلما كان أسرع كان أفضل؛ فإن ذلك يجعلنا جميعاً أكثر استعداداً لأن نعزل "الأخر" - وإقصاء "الأخر" يزيد من احتمال أن نكون قساة<sup>(5)</sup>.

## الذهن الفياض:

لماذا تحدث الاختلافات إذا لم يتح الوقت؟ وتكمن الإجابة عن هذا السؤال في كيفية عمل المخ. إنك قد تعلم أن الخلايا العصبية هي التي تتعامل مع المعلومات وتنظمها، وهي التي "تفتح" أو تغلق استجابة للإشارات الكهربائية. وقد تعلم أيضاً استعارة جهاز التلغراف وتحويل الجوانب (التليفون) والحواسب الآلية والشبكة الدولية للمعلومات التي أنجزت، في أفضل أحوالها، بناء على هذه الفكرة. وعلى مدى سنوات قامت هذه المفاهيم بعمل رائع؛ إذ أوهمت شباب الباحثين المندفعين والمتحمسين بأنهم يوماً ما سوف يدركون سر الكرة الأرضية وبينون واحدة أفضل منها، غير أن هذا القياس والتناظر ليس مطابقاً للحقيقة، فالعقول ليست حواسب آلية.

ومِمَّا تكلّمنا عن "تنظيم المعلومات" بها؛ فلن يُغيّر ذلك من الأمر شيئاً.. إننا مازلنا أبعد من أن نقترّب من فهم تعقيدات المخ.. إذن أين نحن من ذلك الآن؟

إن أحد السبل إلى تحسين هذا القياس أو التناظر الوظيفي؛ هو أن نبني حواسب يمكنها أن تُغيّر مخرجاتها اعتماداً على إذا ما كنت تغمسها في "الشاي" أو في "الخمّر"، إذ إن الخلايا العصبية تَغْتَسَلُ و"تَسْتَحْمُ" باستمرار بالسوائل المخية الشوكية، "المُخْشوكية"، كما أن المواد التي بالدم، مثل الكحول، يمكن أن تتسرب إلى هذه السوائل فتُغيّر تركيب جزيئاتها وبهذا تؤثر في عمل المخ و"مخرجاته". وباختصار، فإن كل خلية عصبية تستثار بإشارة من العصب يتوقف رد فعلها على المحتوى والتركيب الكيميائي داخل وحول الخلية نفسها. ويختلف هذا المحتوى حسب حالة الجسم وصحته وأيضاً حسب نشاط وفاعلية خلايا المخ الأخرى. وهكذا، فإن الخلايا العصبية التي تنظم أكثر المدارك غموضاً يمكن أن يتوقف عملها ويختل بسبب تغيير مفاجئ في كيمياء الجسم، سواء جاء هذا التغيير من الطعام، الشراب، أو الأدوية والمخدرات، أو العدوى أو المرض، أو بدقّة من "الأدرينالين" تندفع وتتحكم في المخ. وسوف نعود إلى هذه النقطة المهمة في الفصل الخامس عندما ندرس تأثير العواطف. وما يكفيننا الآن هو أن نبسط الأمور كي نوضح كيف "يُولد" الفعل.

## الاندفاع الداخلي:

عندما تندفع الإشارات وتسيح خلال الأعصاب الطرفية حتى تصل إلى الجهاز العصبي المركزي (وهو المخ والحبل الشوكي): فإنها تسير في حلقات بمناطق في الطبقات السفلية لقشرة المخ حتى تصل إلى القشرة الخارجية، ثم تتجمع

هناك مثل جداول تصب في نهر كي تضيف مدخلاتها إلى النشاط العصبي المسئول عن توليد السلوك. وعلى امتداد مسارات هذه المدخلات. عندما تحاول خلية عصبية - ولنفترض أنها من العصب الوريكي - أن تتصل بخلية أخرى في الحبل الشوكي؛ فإن الإشارات التي تمر في مسار المدخلات تتغير بطريقة تعتمد على ما يحدث غير ذلك فيما حولها. وببساطة، فإن الإشارات الأقوى (التي ترسلها المستقبلات الحسية كثيرا وبترار وتتابع) تصبح أكثر قوة؛ بينما تتلاشى الإشارات الأضعف وتضع في ضجيج هذه الخلفية الصاخبة.

وبينما تصب كل إشارة، مع جميع "صاحباتها"، في المخ يرتفع مستوى هذه "الثرثرة" العصبية، وبما أن كل خلية عصبية منفردة يمكنها أن تتشابك مع آلاف غيرها، فإن أي إشارة واردة بها خلايا عصبية قليلة قد تجد نفسها مثل سمكة صغيرة في بحيرة مهولة. وعلاوة على ذلك؛ فإن كل نقطة اشتباك عصبي قد تستطيع أو لا تستطيع أن تنشط الخلايا في الجانب الأخر.

مرة أخرى، نقول إن ذلك يعتمد على أي نوع من الرسائل الأخرى تحصل عليه الخلايا العصبية. وإن لم تتمكن من ذلك فإنها بالفعل سوف تفشل في أن تتكاثر، وحتى إذا أرسلت الإشارة عبر نقاط الاشتباك العصبي، فإن فرصتها في أن تؤثر في السلوك تكون ضئيلة إلا إذا حدث وانعزلت عن هذا الحشد أو "الزحام".

وقد يحدث هذا التميز لعدة أسباب. أولاً: قد تكون الإشارة ببساطة متواصلة ومستمرة بإصرار. مثل عضو يصر على تكرار وجهة نظره مرة بعد أخرى حتى يلحظه وينتبه إليه أحد. أو قد تشمل الإشارة أيضا عددا كبيرا جدا من الخلايا العصبية. وليس على سبيل المصادفة أنه في التدريب العسكري. وفي الإملاء والتلقين في الجماعات والفئات الحزبية، وفي تنوع أشكال عديدة من التعذيب،

وحتى في التعلم الحياتي اليومي، يستلزم اللجوء إلى التكرار الممتد والمستفيض. فالخلايا العصبية تحترم المدخلات الحسية المتواصلة و"اللحوحة"، وتغير سلوكها استجابة للإشارات الملحة كي تدعيا تمر بسهولة أكبر في المرة المقبلة. ثانيًا: بعض الإشارات التي يتلقاها المخ تكون بارزة ومميزة بصفة خاصة، وقد لاحظ أسلافنا ذلك بدقة، فإشارات أي خلل وظيفي بالجسد مثلًا من المحتمل أن تمثل تهديدًا لمن يلاحظها بتركيز. لقد كنت ذات مرة على سفر في أتوبيس وشاهدت جماعة من الناس وقد تجمعوا حول شابة سقطت من على دراجتها بجوار حاجز حجري بالطريق، وكانت تنزف دماء، وتعجبت كيف كان الدم شديد الحمرة، ولا أذكر شيئًا آخر عن هذا الحادث أكثر من ذلك؛ فهذا المؤثر البارز استحوذ تمامًا على كل اهتمامي - حتى إن كان الموقف لا يندر بتهديد حقيقي. ثالثًا: أن تكون الإشارة جديدة تمامًا، مثل عضو جديد في "اللجنة"، ولأنه عضو جديد فقط يُعطى الكلمة الأولى أمام اللجنة<sup>(1)</sup>، فالقاتل المستجد المبتدئ عندما يرى الجنة ممددة تحت قدميه قد يجد نفسه غير قادر على تحويل نظره عنها. فنحن منحازون إلى أن نتنبه أكثر للأحداث الجديدة، وحتى الأطفال الرضع يطيلون النظر إلى الأشياء الجديدة أكثر من الأشياء التي ألفوها، ولأن ملامح البيئة المعروفة يمكن غالبًا التنبؤ بها فإنها تكون أقل تشويقًا وأكثر أمنًا، والبشر عندما يشعرون بالأمان يبحثون عن شيء جديد غير مألوف، بدرجات متفاوتة، ويجدونه شيئًا مجزيًا بالفعل.

وفي الختام، قد تكون الإشارة الواردة للمخ استثنائية وفريدة، مثل تطبيق مخطط يدعو للجدال ويثير مناظرات قوية، فالإشارات النادرة والفريدة تتضمن مكونات مألوفة، مع شيء من الانحراف والالتواء؛ إذ إن المكونات لا تتوافق معًا كما هو متوقع.. إنها قد تكون متطلبات مضنية وضاعطة كي تبرر مزاعم،

أو عبارات تتناقض مع معتقدات قديمة، أو مفاهيم جديدة عن مشكلات قديمة- وكلها تشير إلى أفكار قديمة اكتسبناها، لكننا نصر على فعل شيء فريد ومتميز بها.

## الجماعات المنغلقة:

وتتحو مكونات الإشارات المُميّزة- مثل الإصرار، الحداثة، البروز والتفرد، أو عدم التكيف مع الوضع الراهن- إلى أن تتأى بنفسها لتت عزل عن "الحشد" والزحام؛ لأنها تخالف وتتصارع مع ما يتوقعه الشخص. وكما ذكرنا سابقاً، فإن المخ يُولد توقعات- أو تنبؤات بالمدخلات الحسية التي ستأتي لاحقاً- استناداً إلى خبرة سابقة لسير الأحداث وإلى معرفة بما كان قد وقع بالفعل. وأحياناً تكون هذه التوقعات راسخة جداً وصحيحة، مثلما تسمع نغمة مشهورة وتجد نفسك تدندن بها، ثم تستمر في ترديدها حتى إن توقف الصوت الذي سمعته، فالتوقعات تشبه "مرشحات" أو "مصفاة" أمام انسياب تيار المعلومات بالمخ. فإذا انسجمت الإشارات معها مرت بسرعة ودون ملاحظتها، أما التي لا تتطابق أو تتسجم فمن المحتمل أن تستأصل في المراحل الأولى. ويُطلق علماء النفس على عملية التأكد و"الترشيح" هذه كلمة "تحيز": وهو الاستعداد الشديد لدى الناس لتقبل الأفكار التي تناسب ما يعتقدونه بالفعل<sup>(٧)</sup>.

وكلما كانت التوقعات قوية، استلزم ذلك قوة أكبر في الإشارات غير المطابقة لتستطيع المرور عبر "البوابات الحسية". إنك ربما تدندن مع اللحن دون وعي، لكن إذا خالفت النغمات توقعاتك عن اللحن، سواء كان عمداً أو على سبيل الخطأ، فإن انتباهك سوف يتركز فجأة على المدخلات السمعية، وإذا كانت الإشارة مخالفة بدرجة كبيرة فيمكن أن يُستل عليها. أما إذا لم تكن "موسيقاراً" ذا خبرة،

فإنه من المحتمل ألا تلاحظ نغمة "نشاز" صادرة من الكمان الأوسط عند ختام "السيمفونية"، لكنك لن تركز إلى أذن غافلة أو "زائفة" فلا تجفل عندما تسمع مطرباً يُشود لحناً تألفه. وعلى المبدأ نفسه يقوم خداع البصر وكثير من الألعاب السحرية، إذا بنيت توقعاً قوياً، مع تأثير ضعيف للمدخلات التي تُعطى الإشارة أن التوقع غير صحيح (بأن تشتت انتباه الشخص مثلاً)؛ هنا يسجل المخ ما "خدعته" تبتواته وليس ما حدث بالفعل.

ومعظم الإشارات التي تنساب في أذهاننا لا تصل أبداً إلى الشعور الواعي<sup>(٨)</sup>. ومثلها في ذلك مثل مياه النهر التي "تُصفى" عبر متواليّة من السدود والتي قد تُحجز أكثر مدخلاتها في مراحل متقدمة من المسارات العصبية، ومع ذلك فإن بعضها قد يتدفق أو يتناثر متجاوزاً إلى المرحلة التالية، إذ يندمج مع كل ما يحدث في منطقة معينة من المخ ويؤثر فيها، ومع زخم عصبى تندمج معهما مدخلات حسية أخرى من خلال التعاملات والتنظيم الحركى إلى أن تنطلق الأفكار على هيئة فعل كما تندفع المياه في أنابيب تُسريب الفائض من الماء.. وهكذا تسير الإشارات الحسية أفكاراً ثم تندفع إلى حركة إلى أن تتحول إلى فعل، والمؤثرات الأكثر تعقيداً هي التي تستغرق وقتاً أطول في هذه العمليات.

### البيروقراطية الداخلية:

إن عقول البشر ليست كيانات سائبة، ومهمتها ليست فقط الربط بين المدخلات (المؤثرات) والمخرجات (ردود الأفعال) بأكثر الوسائل مباشرة، إنها بدلاً من ذلك تولد السلوك وهو لا ينشأ كإجابة عن مؤثر واحد فقط. ومعنى ذلك أنه على الرغم من أن المخ يتفاعل مع التغييرات في العالم الخارجى، فإنه يأخذ في الحسبان

أيضا عوامل أخرى لا دخل لها بالحواس كمؤثر مستمر. هناك زاد آخر من الذكريات والمعتقدات والعواطف والمزاج والحالة النفسية يشكل بيئة داخلية، متفردة خاصة لدى كل فرد، وتصدر منها إشارات تمثل استجابة لإشارات أخرى من العالم الخارجى (والعكس بالعكس).

وتستمر البيئة "الذهنية" للإنسان فى التطور حتى قبل مولده، وهى تعكس مجموعة من الترابطات المهيولة وغير المعقولة من الأحداث التى تشكل كينونة وماهية الإنسان.. هنا لقاء أو موعد أو هذا الحدث كان فى هذا اليوم بالذات، الكتاب الذى قرأه وهو طفل والذى غير فكره و"عقله" إلى الأبد عن شىء مهم، بعض من سببوا له الأذى من الناس أو من كان ودودا وشوقا معه أو مع غيره، كلها تندمج معا ليس تماما بالأسلوب نفسه أو فى الوقت نفسه. إن هذا العالم من الاختلافات والترابطات فى "جمجمة" الإنسان ليس "أرشيفا" لحفظ السجلات بل إن محتوياته مخبأة ومكنونة؛ إلا إذا تذكرها واستعاها من الذاكرة عمدا وعن قصد. إن هذا يؤثر فى السلوك اليومي للإنسان ويجعل اختياراته وأفعاله خاصة به هو بالذات.

وأى شىء يعترضك أو تواجهه يجعل بعض الخلايا فى الجهاز العصبى. (وليس جميعها)، تنشط (تبدأ فى إرسال إشارات للخلايا الأخرى). وعندما تصل الإشارات إلى المخ تنتزع المهام فى مناطق مختلفة من المخ تختص بأنواع مختلفة من الإشارات، خصوصا فى القشرة المخية (الطبقة الخارجية)، فالضوء على شبكية العين يثير خلايا الفص المؤخرى فى المناطق الخلفية من المخ. والأصوات تثير خلايا الفص الصدغى على جانبي المخ. وهكذا (انظر شكل ٢، ص ١٧١، ١٧٢). وفى داخل هذه المناطق العليا تقسيمات داخلية (القشرة البصرية تحتوى على ما يزيد على ثلاثين منطقة مختلفة) تتناغم مع تنظيم فى أولويات التقدم: الحركات، الألوان، الأوجه... وهكذا، وفى الأقسام الفرعية حشود من الخلايا العصبية

المتفردة<sup>(٦)</sup>. وفي مقابل كل شيء تكون النتيجة هي تحول في نمط نشاط الخلية العصبية خاص بهذا الشيء وفي هذه المناسبة بالذات. وكما ذكرنا سابقاً، فلا يوجد تشابه أو تطابق تام بين أي حدثين أو "عمليتين" تجريان في المخ.. والأشياء المتشابهة تُنشط عدداً من الخلايا نفسها فتجعل نماذج متشابهة من الاستجابة تنتشر في المخ.

والتشابه في مناسبات مختلفة يمكن أن نعتبره - في حد ذاته - نوعاً من الإشارة. والنماذج التي تستمر لفترة، أو تتكرر في تتابع، تشمل تجمعات من الخلايا العصبية تثار وتنتقل، بمرور الوقت، في ترابط وتلازم شديد (أو أن هذه الخلايا يحتمل أن تتطوق معاً). وفي وسط جلبة و"ضوضاء" ما يحدث من أشياء أخرى، تبرز وتظير نماذج من الأنشطة المترابطة والمتلازمة. وكما رأينا قبلاً فإنه مع دخول معلومات أخرى للدماغ، توجد آليات للجهاز العصبى تقوم بتقوية إشارات مميزة وتضعف الضوضاء المحيطة والمصاحبة للنماذج والأنشطة الأقل أهمية (وعبارة الأنجيل "على كل من يملك أن يُعطى" يمكن أن تناسب تماماً عمل الخلايا العصبية<sup>(٧)</sup>).

وكيف يحدث شحذ وتقوية الإشارات وإضعاف وكتم الضوضاء؟ يحدث هذا من خلال مرونة وطواعية نقاط التشابك العصبى.. أى التوافق في نقاط التشابك التي تتفاعل فيها الخلايا العصبية<sup>(٨)</sup>. وعلى سبيل المثال لو أرادت الخلية العصبية "B" أن تتطوق عندما تنشط الخلية "A"، فإن نقطة الاشتباك بينهما "تقوى" فى كل مرة يمر فيها نشاط عصبى من "A" إلى "B". ويعنى ذلك أن الخلية "B" تصبح أكثر استعداداً لاستقبال إشارات من الخلية "A"، وأكثر احتمالاً أن تتطوق عند انطلاق الخلية A. ومن ثم فإن نشاط الخليتين يصير أكثر ارتباطاً وفق علاقة متبادلة أو متلازمة (والاحتمال الأكبر أن ينطلقا معاً)، والنماذج التي ينتميان إليها تصبح أكثر تميزاً. ومع تعاضم قوة الاشتباك العصبى يُمنح النموذج صوتاً أعلى تجاء "اللجان العصبية" التي تنتج عن قرارها وتصويتها انتخاب الفعل التالى.

## خزانة حفظ المعلومات:

يمكننا الآن التحدث عن نقاط الاشتباك العصبي وتخزين المعلومات - والعلماء الذين يُجرون الأبحاث على المخ غالبا يفعلون ذلك - وهذا اختزال مجازي مفيد، والأدوات اللغوية لديهم تتشابه، لكن ما لا يُفصح عنه هو شيء يشبه نظم حفظ الأضابير في المكتبات: صور، حاسبات، "خربشات" كتبت بغير عناية، أو سجلات<sup>(١٢)</sup>.. وكلها. إلا إذا دُمّرت، تعطينا استرجاعا تاما للمعلومات: النص. الصورة، أو البرنامج الذي خُزن بها وبقي كما هو مثلما كان عندما دخل في هذه المنظومة. ويلزم أيضا أن يفسره من يستخدم المعلومة، فخزانة حفظ المعلومات لا تفهم محتواها ومضامينها. ولو طبقنا هذه الفكرة على مخ الإنسان سيقودنا ذلك إلى تعقيدات فلسفية كريهة، وعلينا تجنبها.

وبدلاً من هذا، فإن معنى أن نقول: "المخ يُخزن المعلومات عن العالم الخارجي"، هو القول بأن "إشارة مدخلات" نشأت ووجدت بسبب "ملمح" من ملامح العالم الخارجي فاستدل عليها "الجهاز العصبي"، وأدت إلى خلق نموذج متلائم النشاط في الخلية العصبية، وهذا النشاط غير نقاط التشابك العصبي بين الخلايا العصبية المشاركة، حيث إنه لو تكررت هذه المدخلات مرّة تالية، أو حدث شيء مثلها تماماً؛ فإن احتمال استثارة نموذج مماثل سيكون أعلى مما كان يمكن أن يحدث غير ذلك.

ولهذا السبب يستخدم الناس الاختزال، ويتكلمون عن المخ كما لو كان خزانة للمعلومات. وعلينا أن نوضح ذلك؛ إننا كي نستطيع رؤية "قطة"، فنحن نعتمد على الأتي:

- قفزت القطة بخفة، فانبعثت ووصل وميض ضوء إلى الشبكية ومستقبلات الضوء.
- أثرت ونشطت الأعصاب التي في خلفية العين بفعل مستقبلات الضوء التي أثرت.
- بعد رحلة مُعقدة نتج عن ذلك نموذج مركب ومتغير باستمرار في المخ.
- يشابه هذا النموذج كثيراً مع نماذج أخرى حدثت في لقاء سابق مع "القطة".
- هناك تشابه ومشاركة أقل (لكنها كثيرة نوعاً) مع نماذج أثرت بسبب ققط أخرى غير هذه.
- هناك تبادل أقل (لكنه كثير نوعاً) مع نماذج أثرت بسبب كلاب، نمور، صور ققط أو حتى كلمة "قطة" ... وهكذا.
- لا توجد مشاركة أو تشابه مع نماذج طيور أو فواتير الغاز مثلاً... إلخ.
- وهكذا بالنسبة إلى أى فكرة تختارها، مع أن المفاهيم المجردة مثل القسوة؛ لا يحتمل أن تتشابه معها أكثر من حالة القطة هذه.

وبمعنى آخر، فإننا عندما يُصادفنا شيء؛ سينطلق نموذج متفرد من الخلية العصبية. وكلما فحصنا هذا الشيء طال زمن تعامله مع التشابكات العصبية المشاركة إلى أن تزيد قوته، فيزداد الترابط في هذا النموذج. ولو صادفنا أو رأينا هذا الشيء مرة أخرى فسوف يتكون هذا النموذج مرة أخرى أيضاً. وحتى لو نشطت بعض الخلايا العصبية فقط (إذا كان جزء من هذا الشيء المرئى خافياً أو غير ظاهر مثلاً) فإن الاحتمال هو أن باقى الخلايا العصبية كلها سوف ينشط؛ ذلك لأن نقاط الاشتباك العصبى القوى التى تربط بين الخلايا العصبية المشاركة فى النموذج سوف تسمح للإشارات بأن تنساب خلالها بسهولة أكبر مما كان فى نقاط التشابك التى لم تنشط فى التفاعل السابق، فالإشارات تنساب أسرع عبر

القنوات المستعدة والجاهزة بسبب تجارب وخبرات سابقة، وهذا هو السبب فى أن استجابتنا تكون أبداً تجاه الأشياء الجديدة عنها فى حالة مشابهة كنا قد صادفناها قبل ذلك.

وتحوى المكتبات أعداداً وكميات ضخمة من المعلومات بالكتب لكنها لا تستطيع أن تصنف محتواها ومضامينها (هذا ما يفعله المكتبيون)، أما المخ فيستطيع ذلك ويفعله، فإذا التقى إنسان غير مسلم للمرة الأولى مع من تصف نفسها بأنها "مسلمة"، فإن نموذج النشاط فى مخ غير المسلم - استجابة إلى صوت هذه الكلمة وملامح المتكلمة - سوف ينطلق، كما وصفنا فيما سبق، ويقوى نقاط التشابك العصبى لدرجة أن صوت كلمة "مسلم" يصبح مرتبطاً ومقترناً بالتداعى الذهنى مع الملامح المعينة للمسلم، وبعض هذه الملامح ربما يكون شينا عاما لدى كل إنسان مسلم ولذا فإن هذا النموذج (أو نماذجهم) سوف ينشط كلما التقى غير المسلم مع أحدهم. وما سوف يكون أكثر تميزاً هو الملامح الجديدة وغير المألوفة فى المظهر أو السلوك، مثل: النقاب أو الحجاب أو اللهجة أو لون البشرة أو اللغة، وكل هذا سيصبح ملازماً بقوة أكثر من غيره لكلمة "مسلم".

وفى المستقبل، سوف يصنف تصنيفاً مشروطاً، وسيكون كل من يتصف بواحد أو أكثر من هذه الملامح، عند الالتقاء به للمرة الأولى كمسلم، سواء قدم نفسه وعرقها (بأنه مسلم) أو لم يفعل. وكل فرد يطرح نموذجاً متفرداً على ذهن من يلاحظه، لكن النماذج تتداخل وتتشارك أو تتم المقارنة بينها فى نقاط الاشتباك العصبى، وهذا التداخل هو أساس التصنيف المسمى "مسلم". والعناصر العامة فى النموذج تدعّمها وتقويها أكثر من العناصر التى تختلف من شخص لآخر. وكلما التقى الملاحظ غير المسلم أعداداً كبرى من المسلمين؛ فإنه سوف يستطيع تمييزهم عن غيرهم من الناس بصورة أفضل، وكذلك تمييز كل منهم عن الآخر بالتعرف

على الفروق الدقيقة التي لا تكاد تُترك. كما أن الاستدلال على المسلم سوف يصبح أكثر دقة عندما يعرف الملاحظ حقائق أكثر عن المسلمين، مثلاً عن العقيدة أو الإيمان، وهذا له دخل وتأثير أكبر من لون البشرة أو اللبحة في كل من يعتنق الدين الإسلامي.

## الضغط النفسي بسبب آخر موعد لإنجاز الأعمال:

نظرياً، ما يُحدد صورة إنجاز العمل هو طبيعة هذا العمل. وحيثما توجد الإرادة يتوافر أيضاً أسلوب الأداء، وإذا كانت الإرادة قوية سنجد الوسيلة. لكن كيف تكون الحال إن لم تكن هناك فسحة من الوقت للتجريب؟ وكيف تكون الحال إذا تحتم أداء العمل بسرعة وبفاعلية؟ وفي التجارب العلمية إذا وُضع الفأر في "مناهة" بها ممر واحد يوصل إلى الهدف فإنه يتعلم اختبار هذا الممر بعد عدة محاولات وتجريب. وقد يوضع الإداريون البيروقراطيون أيضاً في مناهة لكنهم لا يستطيعون التجريب. ولن يكون هناك وقت للتردد أو التوقف. ولهذا فإن أداء الأعمال في وقت سابق شيء مهم جداً، ذلك لأن الخبرة السابقة أمر ضروري جداً.

(من كتاب زاوول هلبرج "Raul Hilberg" إهلاك اليهود الأوروبيين)

هناك تنبيه وتحذير مهم بخصوص فكرة أن تصنيفاتنا صحيحة ودقيقة. فإن التوتر وعدم الشعور بالأمان أو أى شعور بالتهديد؛ قد يجعلنا نفضل الالتزام برؤية بسيطة وسطحية للعالم. ويأخذنا هذا إلى موضوع سابق فى هذا الفصل؛ وهو فكرة أن المخ إذا وُضع تحت ضغط أداء الفعل السريع قد لا يتاح له الوقت كى تنشط خلاياه العصبية قبل أن يتكون ويتشكل قرار الفعل، وكى نفهم ذلك علينا أن نفكر بلغة المخ وعملياته، فكلما زاد التمهّل واتسع الوقت زادت "الضجة" أو "الشوشرة". وتحت ضغط السرعة أو إذا "تسرع" المخ؛ فإنه يحتاج قرارات من اللجان "المتنوعة" حالاً، مما يتطلب إجماعاً، على الأقل، داخل كل "لجنة" ومن "اللجان" نفسها. وإذا انقسمت الأصوات كانت المخرجات "ضوضاء" عشوائية ويكون احتمال تأثيرها فى نشاطات باقى المناطق بالمخ أضعف؛ ومن ثم فإن الأذهان المتسارعة سوف تتفاعل على أساس المتاح من نماذج الخلايا العصبية الأقوى؛ حيث إن هذه النماذج تنشأ غالباً بسبب الأحداث العادية والشائعة، فإنها تميل إلى أن تنتج سلوكاً مدفوعاً بأى حافز أن. وعلى العكس من ذلك؛ فإن المخ الذى ينعم بوقت كافٍ يمكنه أن يتعامل مع معلومات أكثر قبل صدور أمر الفعل الذى يندفع فى صورة سلوك. وهذا يفسر لماذا تختلف اختياراتنا تحت الضغوط غالباً، وبدرجة كبيرة، عن الاختيارات فى المواقف التى تقل فيها الضغوط<sup>(٤)</sup>، وهذا يفسر أيضاً لماذا يلجأ الناس الذين يعيشون حياة عادية تكاد تخلو من القسوة إلى سلوك يتسم بالقسوة، تحت ظروف معينة، وبصورة لم تخطر ببالهم من قبل، ولا يستطيعون فهمها عند مواجهتها فيما بعد.

ولماذا يحدث ذلك على مستوى الخلية العصبية؟ وكما أشرنا قبل ذلك، فإن الإشارات التى تدخل الجهاز العصبى تمر خلال نقاط التشابك العصبى التى يمكن تخيلها على أنها مسارات أو مسالك تمر فيها إشارات المدخلات الحسية كى تتحول

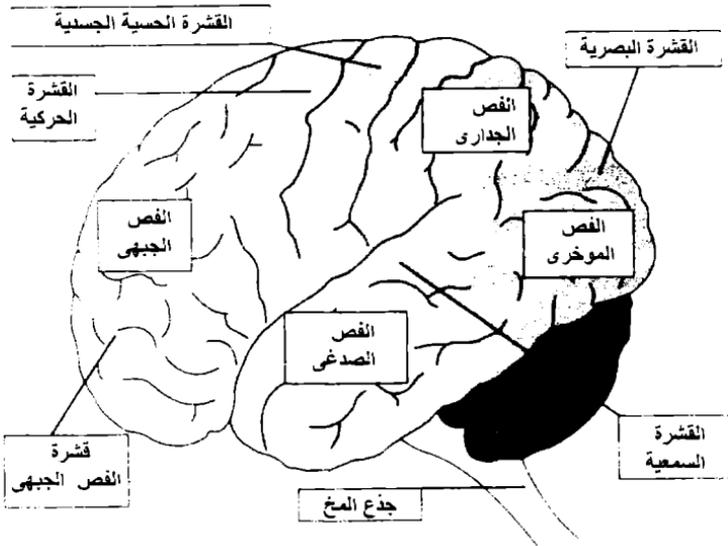
إلى مخرجات حركية. وتتم المقارنة بين الإشارات التي تدخل هذه المسالك في كل مرحلة، ومثال على ذلك أن المخ، بالخبرة، يتدرب على إنتاجه نقاط اشتباك مانعة ومثبطة بين شبكات الأعصاب التي تحمل إشارات غير متوافقة - أي تلك التي لا تحدث معا بصورة عادية ومتزامنة (ونقطة الاشتباك المثبطة هي التي تقلل فرص مرور الإشارة بها، فإذا تحفزت وانطلقت الخلية العصبية "A" فإن الخلية "B" سيقبل احتمال اندفاعها أو انطلاقها)، وهذا سيجعل نماذج الخلايا العصبية المتصارعة منفصلة وبالإمكان التمييز بينها<sup>(١٥)</sup>.

وفيما يتعلق بالأمور الحسية؛ فهي تعكس عدم التوافق في الخواص والصفات المميزة والمعتادة للأشياء، فالمباني الحقيقية لا يمكن أن تشبه بنايات إسكندر "Escher"<sup>(١٦)</sup> ثلاثية الأبعاد، ونحن نعرف ذلك لأننا شاهدنا الآلاف من المباني الحقيقية، والعالم ملئ بالمقابلة وبالشئ وعكسه: أعلى / أسفل، جاف / مبلل، أسود / أبيض، قاس / لطيف، ونحن نلاحظ ذلك في هذا النمط الثنائي بسبب التنشيط والتحفيز أو المنع والتثبيط... أي اختيار الخلايا العصبية أن تنطلق أو تبقى ساكنة. أما ما يتعلق بالأمور الحركية، فإن الإشارات غير المتوافقة والمتفارقة هي التي نحث على الأفعال المتضاربة مثل تحريك اليد اليسرى إلى الأمام والخلف في الوقت نفسه<sup>(١٧)</sup>. ويعنى وجود نقاط الاشتباك المثبطة ورود إشارة من خلية عصبية نشطة ومهتمة قد أثارها ونشطها وهج أو شعاع ضوء في اتجاه الجزء الأيسر العلوى في صورة مرئية أو مشهد ما. وهذا سوف يُخمد نشاط الخلايا العصبية الأخرى المهتمة بمنطقة أو بجزء آخر من المشهد<sup>(١٧)</sup>. والخلايا العصبية التي تفضل وهج الضوء الذي في اتجاه الجزء الأسفل من اليمين سوف تتأثر أكثر، والإشارات الأقل في التنافر (في منطقة شمال

(١٥) هو الفنان الهولندي الأشهر م.سر. إسكندر "M.C.Escher" - (١٨٩٨-١٩٧٢) صاحب أعمال عديدة متميزة في الرسم والجرافيك والحفر على الخشب.... الخ.

الوسط) سيكون تأثرها أقل. ويعتمد قدر التثبيط أو التدمير الذي سيحدث على مقدار شدة وقوة إشارات الخلايا العصبية المسئولة.

وقد أظهرت النماذج الرياضية أنه عندما يوجد المنع أو التثبيط تقوم خلية أو عدة خلايا عصبية قوية بسرعة بإسكات وإبطال المنافسة<sup>(١٨)</sup>. وتستغرق مستويات الأكثر نشاطاً، والموزعة بالتساوي والناجمة عن مؤثرات أكثر تعقيداً، وقتاً أطول لتنفذ وتنتفي من الذى يكسب. إن من يملك مستوى أعلى من النشاط سوف يكسب، ومن لا يملك يخسر.



شكل (٥) مقطع جانبي للمخ تظهر به الأقسام الأربعة الرئيسية للحاء أو القشرة الخارجية للمخ (وهي الفص الجبهي، الفص الصدغي، الفص الجداري، والفص المخري)، وهي المناطق المهمة في قشرة المخ التي تتحكم فى الرؤية والسمع والحركة وأحاسيس الجسد (فى القشرة الحسية الجسدية)، كما يظهر معلمان آخران هما المخيخ وجذع المخ.

وفي كل مرحلة على امتداد دورة تحول المشاعر والأفكار إلى فعل؛ يحدث منع وإعاقة لبعض الإشارات الحسية، وذلك حتى تقل "الضوضاء" (أى الإشارات الأضعف) وتدعم وتحفز الإشارات الأقوى. ويتسع ويزداد مجال المنافسة بين الإشارات بشدة، بينما تغيب مصادر عديدة في هذه الضوضاء وهذا "الهرج"، كلما تصل إشارات إضافية إلى المخ. وحتى تتبارى وتتسوق هذه الحالة هناك شواهد على أن الخلايا العصبية في مناطق من المخ يمكنها أن تمنع وتُعوق الخلايا العصبية التي لها اهتمامات مختلفة (بينما تشجع نشاط غيرها ممن بينها تشابه أو اتساق). ويحدث ذلك ليس في منطقتها فقط ولكن أيضاً في مناطق أخرى بعيدة. ويساعد هذا الاشتباك المتبادل في انتقاء الإشارات المسيطرة التي يمكنها أن تسود دون غيرها من "الزملاء" الأضعف (وهذه عملية يُطلق عليها عالم دراسة الجهاز العصبى جيرالد إيدلمان "Gerald Edelman" عبارة "داروينية الخلايا العصبية" - بما أن البقاء للأقوى)<sup>(١٤)</sup>. وتتطبق هذه القواعد نفسها فى التفاعل على مناطق أخرى مثل منطقة القشرة الحركية التي تولد الإشارات التي تتحكم فى الحركة، مما يحدث سلباً أو توفيقاً تاماً حتى تتمكن الخلايا العصبية المتحكمة فى الحركة من التنظيم ومن تحديد أيها الذى يكسب وينتصر. وتعقياً على كفاءة وفعالية هذه العملية يمكننا القول إننا، نسيباً، نادرًا ما "نتجمد" أو نتوقف فى عدم اتخاذ القرار<sup>(١٥)</sup>؛ فالأفعال عادة ما تكون انسيابية وسريعة، وهى كذلك لسببين، أولاً: لأن نقاط الاشتباك والتواصل بها طاقة كامنة قد قويت بفعل تكرار التدريب والممارسة. وثانياً: لأن العقول (الأممعة) تُوَجَل اتخاذ القرار، وفى فترة التأجيل تصل الإشارات إلى مناطق الحركة فى القشرة المخية فيحدث كثير من التواؤم والتصالح بين الأصوات المتصارعة والرغبات المتنافسة ويبدأ الفعل.

عملية التفكير تشبه ممارسة الرياضة؛ فهي من الممكن أن تكون ممتعة لكنها تتطلب الالتزام. إن بذل الجهد كي نمارس التدريب بانتظام عمل شاق، خصوصاً في البداية، ويستلزم الوعي، وبالمثل فإن التفكير الواعي المتأمل يتطلب وقتاً وطاقة. و"الإهمال" الشائع. على الأقل بالنسبة إلى الشباب من الأصحاء، هو تنفيذ السلوك أو الفعل بنقّة اعتماداً على الخبرة ودون تدخل من الوعي ولو بالحد الأدنى. ويبدو أن الفعل يُنهي الأنماط العصبية التي حفّزته حتى يمنعها من التدخل في أي تحركات مستقبلية، ويساعد ذلك في منع هذه الأنماط من أن تصبح قوية بدرجة تجعلها تصل إلى حالة الوعي<sup>(٢١)</sup>. إن المخ بطبيعته كسول ومتمرس في أن يعرف طرقاً أسهل لفعل الأشياء<sup>(٢٢)</sup>؛ فالجهد الذي يؤديه يحتاج طاقة "قيمة" وثمانية، وهو عضو متعطش لمورد للطاقة، وعملية التفكير يمكن أن تتداخل مع (أو تعوق) هذه المهارة المكتسبة وهذا التمرس. فأنت عندما تركز على ما تفعله قدمك وأنت تمشي سيكون هذا أسلوب قد يجعلك تسقط فوقها، لأن التركيز على التفاصيل يُفسد بهجة الاسترسال، مثلما يفسد التركيز على تفاصيل الحبكة أو الأداء التمثيلي متعة مشاهدة "الفيلم"، ففي الحالتين تأتي المتعة من عدم التفكير، فقط أسبح مع التيار، سواء كان التيار من إيقاع خطوتك وأنت تسير أو من انسياب و"دوران" المؤثرات في قشرة مخك. ويتحدث الناس عن "نسيان أنفسهم" أحياناً في لحظة ما، وأنهم جرفهم تيار سريان الأحداث خصوصاً عندما تكون هذه الأحداث مهمة بدرجة كبيرة وضغوط الفعل فيها شديد وقوي. والأفراد في أي تجمع، كبير، مثلاً. لا يفكرون بوعي فيما يفعلون، وفي الوقت ذاته قد يلجأون إلى تبريرات واهية تجعل الأمر أكثر صعوبة. إن بعض أفعال

البشر يُخطط لها بوعى ويتم التفكير فى تواجدها وتقييم مخاطرها، لكن معظم الأفعال لا تتضمن مثل هذا التفكير المتمعن والمتعمد.

و"الوعى" الذى نمارسه خلال انسياب الفكر لا يبدو أنه مثل الوعى الذاتى التام؛ لكنه أساسا شىء ملموس أو محسوس، ويسميه بعض الفلاسفة شعورا أو "دراية"<sup>(٢٣)</sup>. وعلى العكس من ذلك؛ فإننا غالبا نكون أكثر وعيا بأنفسنا باعتبارنا أفرادا عندما يستدعينا لذلك فجأة واعز أو مأزق ما. وفى هذه اللحظة، بين إدراك المشكلة والبحث عن حل لها، تتصارع توقعات المخ مع "الأخبار" عن حقائق الواقع الخارجى فيتوقف سريان التيار الناعم للفكر مع انتفاضة تحقق الوعى بالذات. وبينما يقال: إن سريان أو تدفق الفكر شىء ممتع، فإن توقفه ينشأ عنه صراع ذهنى قد يكون مصدر إزعاج غير سار. وإحدى مناطق المخ التى تتعامل مع هذا الصراع وتستجيب له هى القشرة الحزامية الأمامية فى المخ، وهى، كما أشرت فى الفصل السابق، تستجيب أيضا للإحساس بالألم على الرغم من أننا لا نعرف إذا ما كانت الخلايا العصبية المفردة نفسها هى التى تقوم بتسجيل كليهما - الألم والصراعات<sup>(٢٤)</sup>.

وعندما يحدث تصارع؛ فإن تأثير ذلك فى مستوى الخلية العصبية هو أن هذا الصراع يعترض سبيلها ويقلب المدخلات المتجهة من أعلى إلى أسفل (أى التى تشير إلى تنبؤات المخ) لتتعارض مع المدخلات المتجهة من أسفل إلى أعلى (أى التى تشير إلى الأخبار الحاضرة فى العالم الخارجى). وكما رأينا، ففى مثل هذه الظروف تستغرق هذه العملية وقتا أطول لتعطى المخرجات.. ومع ذلك، فإن الإشارات تستمر فى الانسياب فى باقى أجزاء المخ لتصل إلى مناطق القشرة الخارجية، غالبا فى مناطق الفص الجبهى وقشرة الفص الجبهى، وتقوم هذه المناطق بدورها بإعادة إرسال الإشارات إلى مراحل سابقة فى المسارات التى تنظم

عملية الفكر كى تُقوى وتُحفز الخلايا العصبية النشطة وتُغوّق أو "تغرق" الأقل نشاطاً<sup>(٢٥)</sup>. ويُسرّع ذلك عملية انتقاء من يكسب، فيساعد هذا فى تسهيل إعاقة الخلايا "الخاسرة". إن هذا الاتصال والتواصل مع التغذية المرتدة من تلك المناطق هو الذى يسمح للتنبؤات من المستويات الأعلى بما سيحدث بأن تتفاعل مع المدخلات الحسية. ومع وجود إشارات أخرى تصل إلى الفص الجببى فى الوقت ذاته (كالإشارات التى تُحفز الاستجابة السريعة لعرض من بائع لحوح مثلاً)، فسوف تصبح بعض الخلايا العصبية فى الجبهة والفص الجببى أكثر نشاطاً. وسوف تزداد فاعليتها فى فحص النشاطات بمناطق أخرى من المخ، فيقلل ذلك من المرور من مرحلة المدخلات إلى المخرجات، وتكلفة ذلك أن الإشارات الناشئة عن بعض شبكات هذا التشابك العصبى، والتى نشطت فى هذا السبيل، سوف تلعب دوراً أقل فى تحديد رد الفعل النهائى. ومعظم تلك الإشارات لا لزوم ليا، ولذلك فالخسارة ليست كبيرة. ومع ذلك فبعض هذه الإشارات قد يحمل رسائل مفيدة لكنها لم تجد لديها الوقت لتجمع نفسها؛ حيث تكون مُذركة وملحوظة- مثل بعض الذكريات عن آخر عرض عمل تلقّيته ورغبت فيه لأنه جيد بدرجة لا تعقل.

يمكن تلخيص رسالة هذا الفصل فيما يلي:

العقول (الأدمغة) معقدة حقاً

لا، أنا أعنى أنها بالفعل معقدة. إنها أكثر  
تعقيداً مما نتخيل وبدرجة كبيرة. أنا ليس بإمكانى  
أن أنقل لكم كم هي معقدة فهذا شيء بالغ  
الصعوبة. إن مجرد محاولة التفكير في ذلك يسدير  
رأسي.

وحتى نكون أكثر جدية، نقول إننا بدأنا نفهم قدرة الخلية العصبية وقوتها. وأحد الأمور التي تعلمناها أن عقولنا تملك وسائل ينشأ عنها تراكيب ذهنية مفرطة تفوق ما نحتاجه ونرغبه منها. إن أفكارنا ومعتقداتنا وملاحظاتنا ورموزنا التي نوقرها- والتي يبدو أنه من المستحيل تحديدها فهي كقبضة من الضباب، أو هي صلبة كحجر الجرانيت- لا بد أن يُعبر عنها من خلال واسطة تتسم بالمرونة. وهذا الوسيط هو، في الأساس، له سمة حسابية إحصائية، ومواطن المخ الساكنة المتبلدة ليست أشياء ساكنة بل هي أنماط من أنشطة الخلايا العصبية التي تقفز إلى الوجود استجابة إلى مدخلات ترد إلى المخ<sup>(٢٠)</sup>. إن قوة أي فكرة تتمثل في أنها تجلب معنا الاستعداد والتتابع الذي تأتي به إلى العقل، وأهميتها تتمثل في سيطرتها على حياة الفرد، وفي مدى التغييرات الجسمانية التي تحدثها عندما يتكون هذا النمط أو ذاك بالذات (أي التغييرات التي يمكننا أن نفسرها على أنها الانفعالات أو العواطف).

وفي حالة المدخلات المعتادة والمألوفة يكون الاتصال بين نقاط التشابك العصبى بين الخلايا قويا، والاحتمالات التى تشملها يمكن أن تكون مؤكدة بدرجة لا تُحدث تصارعا أو اختلافاً بينها. إن رؤية وجه إنسان تحبه سوف تُحدث بالفعل عواصف من الإثارة فى المناطق المرتفعة من تعاريج المخ الرخوة، واللوزة، كمواقع التحكم فى العواطف، أو فى مناطق أخرى (إلا إذا كان مقدرا لك أن تكون مصابا باضطراب عصبى أو ذهان أو هذا المرض المرعب، الزهايمر - أو خرف الشيخوخة - فلن تشعر بهذه الإثارة)<sup>(٢٧)</sup>. أما فى حالة المدخلات الأقل ألفة أو اعتيادا أو كثيرة التعقيد، فإن احتمالات تذكر الأنماط الصحيحة التى يثيرها هذا "المحفز" قد تكون أقل، وقد تكون هناك فرصة أكبر للخطأ وعدم التأكيد أو الثبات مع مرور الوقت.

وأقوى الأنماط (أو الاستنباطات)؛ هى التى تمثل أمورا مستقرة يتكرر حدوثها كالأنماط التى تدعمها وتدفع بها أشياء يمكننا رؤيتها ولمسها. وتلك هى الأمور المؤكدة التى نشعر بأنها حقيقية بل أكثر واقعية من العالم الواقعى نفسه. ويبدو أن الأنماط الأضعف تكون فى حالة "سيولة" أو غير مجسدة وملموسة، ومع ذلك فكل نمط "يفز" وينطلق مع الحركة الدوارة للموصلات العصبية المتشابكة نفسها، وبعضها ملموس أو غير ذلك. وهذا "الأثاث ذهنى"، إذا صح تسميته كذلك، تكون المقارنة أو "القياس" المناسب له هو أن بعض الأنماط يُمَثَل الإضاءة أو الجو العام، وبعض آخر هو الكراسى أو الستائر.

والهينة العامة أو الأسلوب الإجمالى الذى تعمل به الخلايا العصبية هو أحد الأفكار الأصعب والأكثر إثارة فى العلم الحديث - كما أنه أكثرها غرابة وأكثرها جمالا- ولعلى أجازف وأثير ضجركم وبعث فيكم الملل؛ فأكرر ما سبق وذكرته مرة ثانية - إن استعارة تشبيه المخ باعتباره وسيلة حسابية للتخزين مثل

"الكمبيوتر" أو الحاسبات الآلية شيء مضلل، وبدلاً من قولنا إنه "خازنة ذهنية". فإن ما لدينا هو أن هناك ارتباطاً سببياً بين ذهننا والعالم الخارجى ينتج عنه - عموماً - أنماط عصبية متشابهة عندما نستقبل فى ذهننا أحداثاً متشابهة. وهذه الأنماط (أو الاستجابات) العصبية تميل بدورها إلى أن تولد استجابات سلوكية متشابهة. ونحن هنا لا نتكلم عن ثقة أو عن شيء مؤكد، مع أن معظم ما يدور فى المخ يمكن اعتباره احتمالاً كبيراً بسبب ثلاثة ملامح مفيدة ومحددة فى عالمنا:

١ - لقد استقر على مدى الزمن فى الطبيعة أن معظم الأشياء فى العالم، من الأشجار إلى الموائد، تبقى موضوعة وثابتة معظم الوقت، لا تتغير أشكالها ولا أحجامها أو ألوانها فجأة، ولا تتحول إلى "كعكة" أو سوائل أو تتلاشى تماماً.

٢ - إن أجسامنا وعقولنا، عموماً، تبدو متشابهة جداً. فعيون الكوريين، وأكباد أهل فيشى، وأعصاب أهل قبائل الزولو فى جنوب إفريقيا، ومناطق التحكم فى الذاكرة فى عقول أهل لاقتيا، كلها تعمل بالطريقة نفسها مثل غيرها أو أمثالها فى أمريكا أو هولندا أو غانا أو تايوان.

٣ - كثير من المواقف التى تصادفنا ومعظم ما نفعله استجابة لها يشمل قدرًا كبيراً من التكرار. كم مرة فى هذا الأسبوع التقطت شيئاً من الأرض، أو تنفست، أو فرست أسنانك! وكذلك الروابط السببية التى تكمن أو تظهر باعتبارها ردود فعل على الملاحظات والسلوكيات.

ولقد تعلمنا أيضاً أن اتخاذ قرار الفعل، مهما كان نوع شعورنا أو إحساسنا به، ليس حدثاً فردياً تقوده وتسوقه خلية رئيسية منفردة، أو حتى لجنة تنفيذية مركزية من الخلايا العصبية. وخلافاً لما هو شائع، فإن كل شيء يتصل بالحس الإنسانى لا تحدده بالضرورة قشرة الفص الجبهي، بما فى ذلك عملية الاختيار.

إنك عندما تنتقل ببصرك على صورة أو لوحة فنية، تقوم مناطق عديدة في مخك بالتخمين مكررا ومرارا: "ما هذا الذى تنظر إليه"، وهى بهذا تتحرى ما شعورك تجاه هذه اللوحة، ثم تختار المكان، فى مجال رؤيتك، الأكثر استحفاقا لتركيز الانتباه عليه ولإمعان النظر فيه، وتقدر كيف أن حركة العين تجاه هذه النقطة ستؤثر فى الإشارات المقبلة من شبكية عينيك، ثم تولد الذكريات المرتبطة بما تراه، وستؤدى أيضا مجموعة من المهام التى لا علاقة لها بتقييمك للصورة أو تذوقك لها؛ كأن تساعدك فى أن تبقى منتصب القامة مركزا على ما تشاهده ولديك قدر من الحيوية. و"تترشح" وتنقى الإشارات الواردة للمخ كى "تُنحَى" الضوضاء المصاحبة. بينما ينساب نشاط الخلايا من خلال المخ من منطقة إلى أخرى، ثم يعود مرة أخرى حيث يتحين الوقت الذى تقوى فيه لديك الرغبة و"النية" للحركة بالقدر الكافى الذى يدفع بها إلى الوعى، وفى ذلك الحين يكون اختيار نوع الحركة قد تم وتحدد. (٢٨)

والوقت عنصر فائق الأهمية فى عملية توليد السلوك، فالفرد المتمتع بوقت الفراغ ولا يبرزح تحت ضغط ضيق الوقت ويتجه لاستكشاف بدائل للسلوك؛ غير الشخص الذى يقع فريسة للتوتر بسبب ضيق الوقت ويريد فقط إنهاء المهمة، فكل منهما ستكون لديه نماذج وأنماط من نشاط المخ متباينة ومختلفة بشدة. والأخير "المتوتر" سوف يستخدم الشبكات العصبية الأقوى المتاحة له أكثر من استخدامه لغيرها، ولن يلتفت إلى التشابكات الأضعف التى بينها تصارع. وسيكون من المحتمل أنه هو أو هى سوف ينجرف وراء النزعات الأولية، والاحتمال الأكبر هو أن يغفل أى معلومات عن النتائج والعواقب أو القوانين الأخلاقية، وأن يكون أقل ميلا إلى الأخذ بمقترحات أو أوامر الآخرين، وسيقاومها، وأكثر ميلا لأن يبدى سلوكا نمطيا.. وهكذا، فإن من يشعر بأى تديد قد يكون رد فعله عدوانيا حتى

عندما تتوافر له أسباب قوية وجيدة كى يجمع ويكبت رد الفعل العنيف لديه<sup>(٢٤)</sup>.. وهنا إما أن يكون القمع ليس قويا بالقدر الكافي لسحق الإشارات المحفزة على الفعل، وإما أن الكبت والقمع يأتي بعد فوات الأوان- أى أنه فى الوقت الذى تكون فيه الأنماط المثبطة والقامعة تتهيا وتنشط يكون رد الفعل قد بدأ فعلاً. وليس مصادفة أن الضغوط والتوتر الشديد، سواء كان عاطفيا أو جسديا وماديا، يسبق بالضرورة أسوأ تطرف بالاتجاه إلى إقصاء الغير وإلى القوة .

كما أن العلم المتكرر بهذه الممارسة يُسرّع من الأفعال بأن يقوى الأنماط العصبية الكامنة ويجعلها أسرع وأصعب من أن تُكبت. والأمثلة على ردود الفعل "المبرمجة" هذه تكون فى رد الفعل تجاه التهديدات وعند ممارسة الصيد أو الجنس، فهى أمور تملك مثل هذا التأثير فى السلوك لدرجة أنها تستطيع أن تثير ردود فعل تلقائية وآلية، حينئذ تصبح المسارات القصيرة والسريعة من خلال المخ مستخدمة بكثرة؛ بينما يقل استخدام المسارات الأطول بشكل عام، كما لو كانت الإشارات العصبية قابسات كسولة متمرسة على اختيار الطريق التى تقل فيها المقاومة لأقصى درجة.

وعلاوة على ذلك؛ فإن قدر سهولة "السفر" فى هذه المسارات يعتمد على من الذى سوف يسافر فيه وأيضا على المسار نفسه، فالحافز الذى ينشط نمطا كان نشيطا بالفعل يمكنه الحصول على رد فعل أسرع أكثر من الحافز الذى يتحتم عليه تحريك الخلايا العصبية "النائمة"، أو أن، وهذا هو الأسوأ، يجمع ويثبط المنافسين النشطاء. وقد أظهر البحث العلمى أن تنشيط الأنماط العصبية قبل وجود حافز أو "مثير" بأن "نلقن" ونربك من كان دوره غير مُدرك بالحس والعقل، فإن ذلك يمكن أن يعطى تأثيرا أقوى يدفع السلوك ويجعل رد الفعل أسرع<sup>(٢٥)</sup>. أما بالنسبة إلى الوازع الأخلاقى، مثلاً، فإن ذلك يعنى أنه ما لم تكن الأنماط القامعة نشطة فى

أثناء كون الحافز في مرحلة الاستعداد و"التحضير"، فإن هذا الوازع لن يكون له صوت في "اللجان العصبية"؛ ولذلك سوف يفشل في التأثير في قرار الفعل.

وهناك اثنان من المعاني الكامنة يستحقان الأخذ في الاعتبار. أولاً: إن الرجل قد يملك كل ما يمكن أن يعطيه له المجتمع من تربية أخلاقية، وقد يُبدى تفهماً واضحاً للمبادئ الأخلاقية الحاكمة لثقافته، وربما يتصرف بحنان وطيبة مع من حوله، ومع ذلك يصبح ممن يعذبون الغير أو يكون قاتلاً. وقد يتعلم بالفعل كيف يقتل الأطفال الرضع دون التخلي عن أخلاقياته، مع أنه لو تعمق في التفكير وتدبر الأمر قد يجد أنه من الصعب أن يُعدّل من نفسه ويعود للعيش السوى المألوف فيما بعد، فالتعاليم الأخلاقية لا جدوى ولا فائدة منها إذا لم تُفعل ويُعمل بها وتكون مشاركتها فعالة ونشطة عند اتخاذ قرار الفعل.

ثانياً: إن تنشيط جزء من نمط (أو استنباط) عصبى؛ يزيد من احتمال تنشيط جميع أجزاء هذا النمط، وذلك مهم لأن الحديث عن فعل شيء معين أو تخيل فعله، أو مراقبة شخص يفعله أو القيام بفعله بنفسك، كل ذلك يتضمن أنماطاً متداخلة تستخدم المناطق نفسها في المخ<sup>(31)</sup>. وتبعاً لذلك، فإن إقصاء الآخر، ولو بشيء من الاعتدال، يُجهز الناس ويؤهلهم للعدوان، سواء شجعهم هذا بوضوح أو لم يشجعهم على أن يسلكوا سلوكاً عدوانياً. وعند التفكير في فعل شيء قاسٍ؛ فإن ذلك يعنى اتخاذ خطوة في سبيل إقصاء الآخر ما يؤدي إلى السلوك القاسي، وسواء اتخذت الخطوة التالية أم لا فذلك يعتمد على الطريقة التي سيكون فيها رد فعل الشخص على فكرة كونه قاسياً؛ فقد يتقبل الفكرة بلا جدال على أنها فكرته هو، بذاته وطبيعته، كجزء من دوامة نشاطه الذهني الدائم الذي يشعر بأنه سار، أو لم يعد غير سار، كأي عمليات ذهنية يومية. وإن كان الأمر كذلك، فستكون هناك "مناقشة" محدودة بين الخلايا العصبية تميل بالاستنباطات العصبية الكامنة تحت الفكر إلى أن

تقوى، وعندما تنشط وتثار بعد ذلك سيكون الشخص أكثر استعدادا لأن يعبر "عتبة" هذا التفاعل إلى التعبير اللغوى.. ربما للأصدقاء المقربين أولاً، ثم بصراحة وتوسع أكبر. إلى أن ينشرها عبر الشبكة الدولية للمعلومات فيمتدحه الآخرون. ممن يماثلونه في الفكر، على ما فعله.

ومن جهة أخرى، لو كان الفكر يثير مشاعر غير سارة و/أو يحدث تنشيطاً مصاحباً لأنماط عصبية "غير ذاتية"، فإن تصارع الخلايا العصبية الناتج عن ذلك سوف يدفع بإشارات مثبطة وقامعة من مناطق أخرى في المخ؛ كي تعترض سبيل انسياب الفكر حتى يُصقَى التصارع (والقياس الواقعى لعمل هذه الإشارات المخية يماثل من يمد قدمه كي يمنع مرور شخص ما). وعملية تصفية الصراع هذه إما أن تصف الفكر بأنه مقبول للنفس ويتوافق مع الذات وتُصدّر حكمها بأنه داعم شرعى وقانونى لسلوك الفرد، وإما أن ترفضه باعتباره غير شرعى "وغير ذاتى".

وإذا تم التعبير عن إقصاء الآخر أو تم تنفيذه، فهذا ما يجلب جزاءً اجتماعياً سريعاً (سواء كثواب أو عقاب)، وسوف يصبح ذلك مقترناً بالتوتر والإحساس المقلق بالصراع العقلى، ما يؤدي إلى قمع الأفعال المستقبلية (لأن التفكير فى إنجازها غير سار). وكل خطوة نحو إقصاء الآخر، عندما نواجهه للمرة الأولى، غالباً ما تتضمن اختياراً مبدئياً للحدود الاجتماعية: هل هذا الفعل سوف يجلب عقوبة أم مكافأة؟ كما أن كل خطوة سوف تُبنى على ما تم مكافأتها بالفعل؛ حيث إن كل مكافأة جديدة أو عقاب سوف تقارن مع "وزن تراكمى" من عوامل الشعور بالارتياح- أى المكافآت التى تعود الفرد توقعها. ونتيجة لذلك ستكون المكافآت والعقوبات التالية أقل فاعلية كلما ازداد إقصاء الآخر، وكما هى الحال فى العادات السيئة، فإن فساد الأخلاق يكون إنهاؤه بأقصى سهولة إذا تم فى بداياته وبأسرع ما يمكن.

ولأن الأفعال المتقاربة تسببها أنماط ذهنية متداخلة. فإن التنشيط المتكرر لفكرة إقصاء الآخر، حتى ن تم باعتدال، يطلق السلوك المتهور بشدة مفرطة. ويفسر ذلك سبب الاستعداد السريع للمجرمين الذين تعرضوا لإقصاء الآخر لعدة سنوات دون ارتكابهم أى أعمال عنف، من أجل القتل، مثل "الرجال العاديين" الذين وصفهم كريستوفر براوننج "Christopher Browning"<sup>(٢٢)</sup>. ويفسر ذلك أيضا لماذا يلجأ الناس الذين اعتادوا على ثقافات العنف، مثل أعضاء العصابات أو جماعات الخمير الحمر، إلى القتل لأسباب بسيطة وتافهة، من وجهة نظرنا. إن تقبل المجتمع للعنف ولفكرة إقصاء الآخر هو الذى سهّل التعديت المهلكة للقتلة<sup>(٢٣)</sup>.

ونحن نميل إلى الاعتقاد بأن الأفعال الطوعية والإرادية يصاحبها اختيار حر واضح من جانب الفاعل، كما لو كان هو /هى قد جلس فى ركن هادئ وكتب قائمة بما يؤيد أو يعارض فعله قبل أن يقرر الإقدام عليه من عدمه. ويكون التأكيد على هذا الاختيار المنطقى العاقل قويا بصفة خاصة عندما نفكر فى مرتكبى جرائم القسوة، وقد نقتع أنفسنا بأن أسباب عدم الإقدام على تلك الجرائم كانت أسبابا جبرية وقوية بدرجة تجعل العقلاء من الناس يمقتونها ويحجمون عنها. فماذا يمكن أن يكون أقوى من التفكير فى الدم. الصراخ. التقمص العاطفى (أو الشعور بالألم الغير) والرفض الأخلاقى؟

والإجابة عن هذا، لسوء حظ الضحايا، هى أن كل أنواع الدوافع. من الخوف إلى الطمع أو الاضطراب إلى بدء الفعل، يمكنها أن تتغلب على موانع الفعل عند شخص ما بصفة مؤقتة أو إلى حين، إلا أن الاختيارات التى تقود إلى أفعال القسوة، مع أنها حرة، قد لا تكون دائما واضحة، سواء للفاعل أو للآخرين. ويعنى ذلك أن الإشارات اللازمة للتحفيز على الفعل ربما لا تكون واضحة بالقدر الكافى، فيما يختص بالخلايا العصبية، حيث يمكن تذكرها- وربما يكون قد تم تبرير بدو

سلفاً وقبل الفعل. وعندما يكون هذا الشخص واقفاً تحت ضغوط قوية، مثلما هي الحال غالباً مع المجرمين، ومع المتطلبات السريعة للموقف التي تمنحه حافزاً على الفعل، والتي تسيطر على "التحاور بين الخلايا العصبية"، فإنه لن يكون لديه الوقت أو الميل للانتباه إلى هذه النوازع المتصارعة خصوصاً إذا كان التردد، أو الارتياب أو وخز الضمير سوف يجلب السخرية منه أو الغضب الجماعي عليه. وفي هذا المناخ من المواقف الضاغطة (الخوف من عصيان الجماعة مثلاً) يمكن أن يكون التأثير أكبر مما هو معتاد، وأن تكون الدوافع المألوف اعتبارها في الحياة اليومية "أفكاراً سيئة"؛ مؤهلة لأن تتعاضم بطريقة تُذهل كلاً من المجرم والمُشاهد.

إن مخاوف من يطالبون بـ "التخفيف" وعدم الإسهاب في تفاصيل علم دراسة الجهاز العصبي؛ أساسها فقط عدم القدرة على فهم تعقيدات وظائف المخ. فالانتقاص من قدر الإنسان واعتباره دمية تحركها خيوط المحفزات والدوافع لا بد أن يُشجب أخلاقياً، ولكن هذا ما لا يفعله علماء دراسة الجهاز العصبي - وإن كان كثير من الحكومات يودّ فعله.. وكما زاد علمنا عن "العقول"؛ أذهلتنا تعقيداتها واضطررنا إلى مواجهة تغيراتها وتقلباتها، وكما أبهجتنا هيئتها وتركيبها ومهامها، وروعتنا قدرتها على أن تبرر تقرد الإنسان عن كل المخلوقات. ولكنها كل ذلك؛ فهي "المادة الخام" التي تنتج لطفل رضيع أن يحول نفسه ليصير "غاندي" أو "ستالين"، أو أنت ذاتك. إنك إذا أردت توجيه "رسالة" تحتاج صوتاً، وإذا فكرت فيها يلزمك ذهن متقد وفعال، لكن هذا لا يعني أن الرسالة هي مجرد "موجات صوتية" أو جهد تطلقه الخلايا العصبية. فهي لها معان: شكر، لعنة، أو وداع. ويعتمد أي معنى من هذه المعاني عليك وعلى ظروفك - أي على عوامل داخل أو خارج نطاق المخ.

ومن ثم فإنه يجب علينا في الفصل التالي أن نبحث فيما وراء "الجمجمة" لننتفكر في "شبكات المعاني" التي تمثل نسيج كل المخلوقات البشرية، وهي شبكات اجتماعية ورمزية تستمد قوتها على "تقييدنا" من حقيقة أنها جزء منا، هي ما نقول وما نفعل، والرموز التي نوقرها، والأدوار التي نلعبها، وكلها تحدد هويتنا باعتبارنا بشرا. فكما تحدد أجسادنا وجودنا المادى باعتبارنا كائنات حية مستقلة - قد تتوحد أحيانا بالتعاطف أو المحاكاة أو العناق الحانى أو الجنس- كذلك فإن معتقداتنا التى تحتل مشيدنا الإدراكي والمعرفي، وطريقة إحساسنا بها، تحددنا بصفتنا نظراء من الرأى والتفكير نفسيهما أو مختلفين، فتوحدنا معا أو تجعل كل منا منفردا وبمعزل عن الآخرين. وكلنا متحفز للدفاع عن نفسه فى مجابهة التهديدات، سواء كان معنى "النفس" ماديا أو عمليا. لكن بينما يكون التهديد المادى واضحا للجميع، فإن التهديد بمعناه الرمزي موجها لنا ولكل من يعيننا أمرهم ونهيم بهم.

وكى نحل لغز أسباب القسوة، علينا أن نتحرى كلا من المعتقدات والعواطف، فالمعتقدات تبني العلاقات المحيطة بالقسوة وتتحكم فى رغبات الفعل لدى مرتكب الجرم.. أما العواطف فإنها تدعم الحافز للفعل، فهى القوة الخلقية وراء كل فعل يتسم بالقسوة، لذلك علينا أن نبدأ بهما.



## الفصل الخامس

### كيف تتكون لدينا المشاعر والأحاسيس؟

نحن نسمع تكراراً الذين يتكلمون ضد  
المشاعر ممن يجيدون الخطابة ولا يحسنون  
التفكير ويفعلون أن هذه المشاعر هي التي تزودنا  
بالشراة التي تضيء مشكاة الفلسفة

من رواية جوليت للكاتب الفرنسي "الماركيز دي ساد" (١٧٤٠-١٨١٤)

#### "الحكاية" حتى الآن:

نقد بحثنا في الفصل الرابع كيف يحدث المخ السلوك، وصورتنا وظيفة المخ على أنها مد وجزر في نشاط الخلايا العصبية في مواصلة أداء سلس وفعال. ويتيح لنا ذلك أن نشهد "الاختيارات" كأمر لا تحدث في موضع فاصل وحاسم (حيث تتدخل "الروح" لتجعل الخلية العصبية الأهم والأقوى تتوهج وتتطلق)، ولكنها أمر ينشأ عن التفاعل بين العديد من "اللجان العصبية" بالمخ. ويتم حل النزاع بين الإشارات العصبية المتصارعة بواسطة الترشيح (التصفية) والكيبت (القمع). حيث تنتصر الإشارات الأقوى وتقمع الإشارات الأضعف في كل مرحلة من مراحل العمليات بالمخ. ويمكن للتعلم والمعرفة والضغط والتوقعات المسبقة

(بسبب "شحن" الشخص مقدماً، مثلاً) أن تسهل ردود الفعل والاستجابة أو أن تجعل استدعاءها أمراً صعباً.

وفي أى لحظة من خلال من عملية اتخاذ قرار الفعل (أو عدم اتخاذه)، توجد أنماط عديدة من النشاط فى الخلايا العصبية وتكون هى مشغولة فى نصفية الاختلافات بينها، فبعضها يكون مرتبطاً بإشارات ميسرة (مؤيدة للفعل) وبعض آخر مرتبط بإشارات قامعة وكابئة (ضد الفعل)، مع أنماط أخرى لا صلة لها بما يجرى فهى محايدة وتمثل فقط خلفية من "الضوضاء". وبصورة تقريبية نقول: إن الأدمغة تقدر مدى القوة الخاصة بالإشارات الميسرة والقامعة فى نوع من الانتخاب الذى يحدد النتائج والمخرجات؛ وكى نفهم قرار فعل القسوة نحتاج إلى التفكير فى التفاعل بين الإشارات المؤيدة والمعارضة له. وفى توقيت مرور هذه الإشارات خلال المخ. فهذا التوقيت يعتمد على التأثير الخاص بهذه الإشارات وقوتها. وهناك عوامل عديدة يمكنها تغيير قوة الأنماط العصبية. لكننا سوف نركز على واحد فقط من أهم هذه العوامل فى هذا الفصل؛ وهو العاطفة.

## مصادر القوة:

سوف نعود إلى مفهوم "القوة" عندما نبحث فى "المعتقدات" (فى الفصل السادس). أما الآن، فيكفينا القول إن قوة وسطوة أى نمط من نشاط الخلية العصبية تكسبه سمة بروزه وتميزه وأهميته بالنسبة إلى الشخص الذى تتنوع هذه الإشارات فى رأسه، وهذا بدوره يعكس إصرار ووضوح مدخلات الإشارات التى تولد هذا النمط، ومن ثم كل ما يدور فى المخ فى هذا الوقت. ويظهر البروز والتميز أيضاً مدى ثراء أو ضعف الترابط بين نمط ما والأنماط الأخرى؛ فالأنماط

مثل الناس بعضها له صلات جيدة بالآخرين وبعضها مُهْمَش اجتماعياً. وعلاوة على ذلك: فإن "البروز" يعتمد على نوع الصلة- أى على مصدر النشاط العصبى، فهناك ثلاثة أنواع من المصادر: العالم الواقعى، المخ، الجسد.

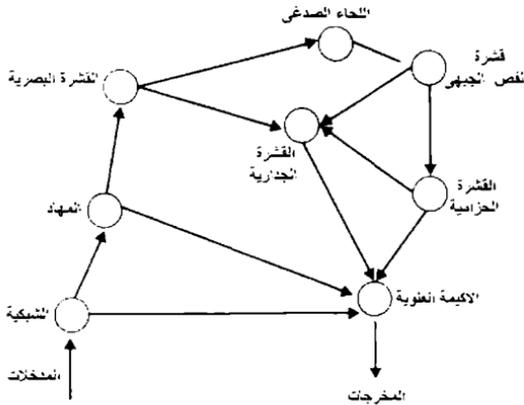
## العالم الواقعى:

تستجيب أعضاء الحس المحيطى لدى الفرد إلى وجود أشياء خارج جسده. فتلتقط خلفية أعيننا الضوء، وتتنشئ خلايا شعرننا اللولبية فى تيارات الموجات الصوتية، ويمتلئ جلدنا بـ "آلات" من الخلايا الدقيقة لتصدر الإنذار عندما نحترق أو نثار من ضرب أو خدش أو كشط نذكر بهذه الحواس. وتكمل الصورة التقليدية للحواس الخمس حاستى الشم والتذوق بكل ما تملكانه من مستقبلات كيميائية حاذقة فى تحليلات الأنسجة والتراكيب.. وكل هذه الحواس تزود الخلايا العصبية داخل المخ بإشارات خارجية. وتتعبق الاستبطات الناتجة عن نشاط المخ، والتي تعتمد بصفة أولية على هذه الإشارات، تلك الحقائق عن العالم الواقعى بأحكام وتتغير بسرعة كلما تغيرت الإشارات، حيث تبقى نماذجنا الواردة من العالم الواقعى مواكبة لأحدث لحظة.

## المخ:

المصدر الثانى للنشاط والإثارة الواقعة على الخلايا العصبية؛ هو المدخلات من الخلايا العصبية الأخرى داخل المخ. فعلى سبيل المثال. قد تستقبل خلية ما فى القشرة البصرية الأولية إشارات من الخلايا العصبية فى النواة الحزامية الجانبية بالمياد، فتأخذ بدورها هذه الإشارات "المقبلة" من سطح شبكة العين بواسطة

العصب البصرى (انظر الشكلين ٦،٣). وبالعامل العددي، تُكوّن الإشارات من الخلايا العصبية الأخرى نسبة أكبر وعدداً أكثر من الجميع، وحتى في بداية هذه المنظومة المنبثقة من الحزام الجانبي بالمهاد تقول التقديرات إنه مقابل كل نقطة من نقاط الاشتباك العصبى التى تُرسل المعلومات من العين إلى المخ تكون هناك عشرة من الروابط والموصلات التى ترسل تغذية مرتدة من مناطق بالقشرة الخارجية للمخ تحمل معلومات من المخ إلى المهاد<sup>(١)</sup>. وما يحدث هنا هو شىء مُتحكم فيه، وتجرى فيه تعديلات، ويتم تفسيره قبل أن نبصره (أو ندركه) بكثير.



شكل رقم (٦): رسم تخطيطى يبين المناطق الرئيسية للمخ والمرتبطة بتكوين الحركة (والنموذج المرسوم هنا عن الحركات السريعة للعين التى تعرف باسم اختلاج/رف العين) وتنشأ الحركة المفاجئة للعين عن طريق مسارات لمدخلات ومخرجات متداخلة، وكل منها أطول وأعدد من سابقتها (والشكل المرسوم هنا مبسط جداً)، والمناطق التى تبدأ بها المراحل الأولى (مثل القشرة البصرية) تتأثر بشدة بالمدخلات الحسية، أما المناطق الخاصة بعمليات أعقد (مثل القشرة الحزامية)؛ فإنها تتأثر بصفة أكبر بالمعلومات الواردة من المناطق الأخرى بقشرة الدماغ.

وتحدث أسرع الحركات بالعين، عندما يُثار سطح الشبكية بالضوء فترسل العيون إشارات إلى المخ، فيتصل بالأكيمة العلوية مباشرة. ومن الممكن أن يطلق هذا حركة في العين إذا كانت الإشارات قوية بالقدر الكافي (مثلاً إذا كانت الإشارة مباشرة أو كان الشخص متوقفاً لها ويعرف مسبقاً أين ينظر)، ويكون اختلاج العين أبطأ وآلياً أيضاً عندما لا تستفز الإشارات الواردة من الشبكية الأكيمة العلوية فوراً. وستكون المعلومات المرّحلة من المخ إلى القشرة الدماغية لديها الوقت لتصل إلى مناطق القشرة البصرية، وسوف ترسل القشرة الجدارية أيضاً إشارات إلى الأكيمة العلوية إما لتدعم وتقوى (ربما لتحدث حركة) وإما لتعدل اختيار هذه المنطقة بخصوص مكان حركة العين التالية. وفي الوقت نفسه: فإن المناطق الجدارية أيضاً ترسل إشارات إلى مناطق في الفص الجبهي والفص الصدغي، بما في ذلك القشرة الصدغية التي تتعرف على الأشياء مثل القشرة الحزامية وقشرة الفص الجبهي.. وكلها تضيف "صوتها" بدورها للاستشارات العصبية بالأكيمة العلوية، وسوف ينتج ذلك وقتاً كافياً لاتخاذ القرار، والاختلاجات التي تستغرق كل هذا الوقت كي تحدث تكون طوعية واختيارية، ويمكن أن تُعاق أو تُوجّه وبينما نتتبع المسار قوسى الشكل المنظم لسلسلة العمليات المتعاقبة من التحفيز حتى ردود الفعل، عبر القشرة البصرية والجدارية والجبهيّة، سوف نكتشف أن تأثير المدخلات الحسية يضمحل باضطراد. وتصير الخلايا العصبية التي في المناطق "الأعلى"، مثل قشرة الفص الجبهي والتعرجات الحزامية المرتفعة في المخ، تحت قيادة متهمة طليقة وأكثر تحرراً، وتتأثر أنماطها المنطلقة كثيراً بالإشارات المقبلة من مناطق أخرى (داخلية) بالقشرة الدماغية.

والاستجابات أو الأنماط التي تعتمد على إشارات من خلايا عصبية أخرى (بالداخل)؛ لا تتعامل مع أحوال العالم الخارجى، وإلا كانت بدلاً من ذلك تتعقب

أو تسيير على هدى أمور نظامية قياسية في المحيط الاجتماعي خاصة بسلوكيات غيرنا من الناس، مثل معاني الكلمات المستخدمة أو حالة التسلسل الهرمي للطبقات بالمجتمع، وهذا ليس شينا واضحا ومكتشوفاً بالمعنى المادى الذى تبدو فيه النار أو الأحجار واضحة، لكن النار والأحجار توجد مستقلة بذاتها حتى إن كانت تتمثل كحقيقة لنا فقط عندما تثير أنماطاً للنشاط والسلوك فى عقولنا. وكلما كانت بينتتا ثابتة وراسخة ويمكن التنبؤ بها، كانت الأنماط التى تطلقها "ملاحتها" أقوى، وكلما اعتبرنا هذه الأنماط حقيقة مؤكدة. (بالطبع حتى نبلغ الرشد ونتعرف على الفلسفة والعلم؛ وحتى حينئذ، فإن الشك الذى يهمس به هذان المعلمان المزعجان فى أذاننا من النادر أن يحدث شيئا أعمق من الشك فى أن المعرفة الحقيقية غير مؤكدة). وسواء كانت الأمور القياسية التى تتعقبها الأنماط راسخة أو ملموسة أو واضحة فى الأفكار فقط، وفى الكلمات، والأفعال، فإننا ننحو نحو اعتبار الأنماط القوية دليلاً وشاهداً على حقائق راسخة يمكن التنبؤ بها.

وغالبا ما تكون هى كذلك، لكن ليس دائما؛ فإن الافتراض بأن القوة تعكس الحقيقة من الممكن أن يكون مضللاً. لأن القوة يمكن أن تأتي من مصادر أخرى غير المراقبة الحساسة لعالم هادئ مستقر بالذهن. والعواطف القوية قد لا يكون لها أى علاقة بالأساليب والأحوال القائمة بالعالم الخارجى. كما سوف نرى. غير أن هذه العواطف يمكنها أن تجعل أى اعتقاد يبدو حقيقة أبدية، حتى إن كان حماقة لها خطرهما. وبطبيعة الحال؛ فإن نظرية النشوء والارتقاء (التطور) لا علاقة لها باهتمامات علم الوجود إلا فيما يؤثر فى "التكيف" والملاءمة، فلو أن التأثيرات السلبيّة لقدرة العواطف على أن تدفع بفعل وقانى كانت أكيدة؛ فسوف تقوم الأفكار مقام الحقائق، وما أهمية ذلك مادامت الجينات متوارثة؛ ولم يكن هذا مهما فى

معظم أحوال تاريخ الإنسانية، لأن العواطف أيضا كانت مرتبطة بشدة بالمواقف التي أثارتها؛ إلى أن تعلمنا أن نحب الأفكار ونحميها وندافع عنها.

ولكن هذا ما سوف نتناوله في الفصل السادس. أولاً، يجب أن نبحث في المصدر الثالث لمحفزات الخلايا العصبية، وهو هذا النبع الفيض من المشاعر والأحاسيس، الجسد.

## الجسد:

نحن نميل إلى الاعتقاد بأن حواسنا تستخلص المعلومات من "هناك"، لكن "الأخبار" التي من "هنا" لها الأهمية نفسها، فأبداننا مليئة بأجهزة الإحساس التي تزودنا بهذه المعلومات و"الأخبار". وتسكن بعض هذه الأجهزة داخل عضلاتنا لتخبرنا أين يوجد جسدنا وكيف يتحرك، أو تسكن في الأعضاء التي بداخل "دهاليز" الأذن الوسطى، والتي تحفظ توازننا الجسماني، إن لم يكن توازننا النفسى. كما أن بعض الأجهزة تنس في الأعضاء الداخلية للجسم. لتدير مهامها حيث يستطيع المخ أن يُغَيِّر وسائله وقدراته من منطقة إلى أخرى إذا لزم الأمر.. من الأحياء (الجهاز الهضمي) إلى الأعضاء مثلاً (ففي حالة الطوارئ تكون الأولوية للحركة الفاعلة بدلاً من الهضم الفعال). ويقوم المخ بتجبيز وطرح المعلومات عن كل هذه الأمور.. مكونات الدم ومحتواه، تصرف جهاز المناعة، مستويات المواد الكيميائية في أنسجة الجسم، ومحتويات الأمعاء.

ونحن نميل أيضاً إلى أن ندرك هذه الأمور في حالات وجود إفراط أو خلل ما، عندما تدخل السموم في مجرى دماننا بسبب طعام سيئ ويستدل المخ عليها، مثلاً، وهذا ليس بالأمر البسيط كما يبدو، لأن المخ حينئذ يملك حدوداً محنكة

ومعقدة للمراقبة؛ وهي "حواجز" تتعامل مع الدم كي تحمي ثروتنا الثمينة المعرضة للهجوم من تأثير المواد الكيميائية الضارة. ومثل أي نظام أمن، فإن "حواجز" المخ تجاهد الدم يتحتم علينا أن تحدث توازناً بين حفظ الأمن والحاجة إلى المعلومات. فيجب علينا درء الخطر عن خلايا المخ الدقيقة والضعيفة، إلا أن المخ يجب أن يتزود بالمعلومات عن وجود تهديد كي يطلق وسائل الدفاع بالجسم. فالقوى والإسهال، مثلاً، يساعدان على التخلص من الطعام الذي بالأمعاء والذي كان مسؤولاً عن التسمم؛ ويطلق الجهاز المناعي إنذاراً بالخطر ويدير غالبية "المعركة"، لكن عمل المخ الأساسي يدل على أن حواجز الدم بالمخ لا يمكن أن تحقق فاعلية كاملة في دفع هذه الأشياء الضارة خارجه.

ويتولى "الاصطفاء الطبيعي" حل مشكلة التخلص من هذه الأشياء؛ بأن يطور مناطق متخصصة مثل "الباحة المنخفضة" بالمخ، وهي قطاع من النسيج العصبى يمتد خارج حاجز الدم فى المخ، ليسمح لها بالتعامل مع محتويات تيار الدم، وبالتعرف على التغييرات الضارة الكامنة فيه، وبالإستجابة بناء على ذلك بالنتائج الملائمة التى تتعلق بالمعدة والأمعاء معاً- ودون أن تتعرض سلامة المخ لأى خطر مهلك. وبمجرد أن تنشط الباحة المنخفضة بالمخ فإنها ترسل إشارات إلى مناطق فى قاع المخ (النخاع) لها اتصال مباشر بالمعدة. ولهذه الدورة فعالية رائعة، فهى تزيل مصدر التلوث بسرعة ودون الحاجة إلى "استشارات" مطولة مع "الإدارة العليا" (على الرغم من أن تقارير قد ترسل إلى مناطق بقشرة المخ، مثل الجزء الجزيرى الذى يُنظم الإشارات الواردة من الأحشاء). وتُقَدِّم الباحة المنخفضة بالمخ مثلاً مذهباً على حل المشكلات الخاصة بالتطور، إلا أن كل ما نعرفه أننا "تقياً" وأن هذا هو الحل.<sup>(٢)</sup>

وبالإضافة إلى الإشارات الواردة من الأحشاء، يستطيع المخ إرسال إنذارات داخلية خاصة به استجابة إلى الإشارات الخارجية، فهناك "تجمعات من الخلايا المتخصصة في قاع المخ تقوم بإرسال "شعيرات" خلال القشرة الخارجية للمخ والقشرة الواقعة تحتها، وعندما يُنشط هذا النظام الاحتراسي ينشر جهاز الإرسال العصبى بالمخ مادة "تورادرينالين" - (وهى مادة قريبة جدا لأشهر هرمون بالعالم - هرمون التوتر - الأدرينالين)، ويجعل ذلك الخلايا العصبية تتطلق فى سعادة - فتكون أكثر من المعتاد حساسية للإشارات المقبلة من داخل المخ، وبذلك تكون قدرتها أفضل على الاستدلال على الحفيف الرقيق لأوراق شجيرة صغيرة أو أى حركة ظل قد تشير إلى هجوم وشيك الحدوث<sup>(٢)</sup>. ولسوء الحظ، فإن التهديدات فى عالم اليوم المزدحم كلها جديدة وعديدة، والمعتدون والنهايون متنوعون وأكثر خبثًا ومكرًا، وكثير منا يشعر بأنه يحيا بـ "نظام احتراسي" مزمن ويعمل بنشاط على نحو مفرط.

وأنشطة الإنذار الاحتراسي هذه تشبه كثيرًا الإشارات من داخل الأحشاء بالجسم، وكلاهما ينبع من الداخل، وله تأثيرات واسعة المجال وغير محدودة وتميل إلى التريث (فهى تنبه المخ كله وليس مناطق قليلة منه فقط)، وهى لا تتطلب مؤثرًا أو محفزًا خارجيًا كى تُطلق إشاراتهما، (فالبشر بإمكانهم أن يزجوا بأنفسهم فى نوائر القلق عن أحداث لا وجود لها لكنها محتملة فقط). وهذه الإشارات العصبية الداخلية هى التى نفسرها على أنها "عواطف"، أو مزاج، أو مشاعر (لكننى سوف أجمعها معا باعتبارها "عواطف"، مع الاعتذار للصفائين المدققين - أى أصحاب المذهب الصفائى). وعندما نواجه لحظة الاختيار بين أن نؤذى أحدا أم لا، فإن العواطف هى التى نزن مبرراتنا وأسبابنا للقيام بالفعل (الإيذاء) بشئ من الترويج ذى النقل، حيث لا يمثل الذوق العام والفطرة السليمة. أو حتى احترام الذات، مانعا قويا إزاء ارتكابه. وإذا سئلنا عن ذلك فيما بعد نقول إن السبب هو عاطفة

قوية: "ضربته أنا أولاً لأننى كنت خائفاً مذعوراً". إلا أن العواطف ليست بمثل هذه البساطة، إنها يمكن أن تكون واضحة وضوح البرق وقوية بدرجة مذهلة؛ لكنها من الممكن أيضاً أن تكون مراوغة ومخادعة جداً وتعريفها خاطئ لدرجة أن الشخص يمكنه أن يقول: "ليس لدى أى فكرة لماذا فعلت ذلك". ولن يكون كاذباً.

ومن السمات المحيرة للعواطف أنها متنوعة وأسبابها متباينة، فهي إما تتبع إشارات من الجسم أو العالم الخارجى، وقد تكون الأحداث الحقيقية والزائفة هى التى تحركنا من خلال حواس وتخيلات متعددة؛ فقد يسمئ الفرد من إحساسه بابتلاع محارة رخوة، أو من رؤيتها، أو من سماع شخص يأكلها بصوت مقرز أو من مجرد التفكير فى أن هذه الكتلة الزلقة قد تسبب له غصة أو "شراقة"، وعندما يواجه الشخص نفسه تحدياً ما فإنه قد يشعر بغضب غامر، أو يبتأبه الخوف، أو التوتر، أو كل هذه المشاعر الثلاثة وأكثر منها. وكم هو عدد المرات التى نصادف فيها مشاعر غير محددة أو مختلطة، سواء فى الحياة الواقعية أو فى قصة أو رواية، فنحن اضطراباً واهتياجاً فى المشاعر، أو بدوافع قوية، أو ما يشبه ذلك؟ وكيف يمكن أن تكون العواطف متحركة فى أجسامنا بقوة وتكون أيضاً غامضة ولا يمكن الإفصاح عنها؟ وحتى نجيب عن هذه الأسئلة، فنحن نحتاج أن نعرف أكثر عن كينونة العواطف وماهيتها.

## ما العواطف؟

- وما العواطف؟ ما كنه العواطف العاطفة؟

توجد العواطف فى كل ما نعرفه من ثقافات إنسانية. ويمكن "لفروعها" وتشعباتها إما أن تُتروى وإما تدمر حياتنا، فنحن دونها قد نصيح مخلوقات معوقة عن النمو والتطور الطبيعى بصورة مخيفة، إلا أن كثيراً من ذوى الفطنة والذكاء

المتقد يعتبرون العواطف فى مستوى من التقدير قد يمنحه العامة منا للنبلاء والطبقات المميزة أو لمن هم دون ذلك. والبشر جميعا، على الرغم من ذلك، يُطلق عليهم اسم "أنواع بيولوجية" باعتبارنا نوعا أو "حالة" من الحيوانات العاقلة، لها منطق له تعريف محدد بشروط إدراكه ومعرفته، أو كما أعلن أو ينادى به رينيه ديكارت "Rene Descartes": "أنا أفكر إذن أنا موجود"<sup>(٤)</sup>. وقد انتهى بنا هذا التمجد للمنطق "الجاف"، فى أوائل القرن العشرين، بنظرة إلى الحقيقة تبجل وتمجد كل إدراك مجرد (أى المنطق والرياضيات) وترى أن دارسى الرياضيات، العلماء، الفلاسفة، لآعبى الشطرنج هم أرقى وأرفع صورة من صور الحياة (ربما، ودون داع للدهشة، لأنهم هم الذين أشاعوا ونشروا ذلك)<sup>(٥)</sup>، لذا فإن العاطفة شىء بغيض و"حقير"، غير عقلائى وأنثوى (وهذا ارتباط أزلى قديم) إنها شىء غائر فى الجسد ولا يفيد إطلاقا عندما نحتاج أن نثبت نظرية علمية.

ولعله من اللطف والتأنق؛ الإشارة إلى أن رؤية العالم بهذه النظرة "المتمنطقة" قد اضمحلت ولم تعد مطابقة للرؤية السائدة حديثا، لأن مفكرىها البارزين أدركوا الخطأ فى أساليبها. وكى نلتزم العدل، بعضهم هو الذى أدرك ذلك<sup>(٦)</sup>. فى الواقع، ربما يكون نموذج هذا التحول سببه أن "المنطقية" كانت ضحية شهرتها ونجاحها بشدة، حتى إن هذا المنطق جفل وفزع من نتائجها وعواقبها. وقد أنشأ أيضا حاسبات آلية بارعة فى الرياضيات ولعبة الشطرنج لدرجة أن تفوق الإنسان فى هذه المجالات بدأ ينتزع من غير شك. وعندما انتهى الأمر بأن تهزم الآلة بطل العالم فى لعبة الشطرنج، جارى كاسباروف "Garry Kasparov"، وفق شروط المباريات الدورية عام ١٩٧٧، اتضحت مزايا تضمين العاطفة فى "تعريف" الإنسان. فالآلات قد تطيح بالعظماء، لكن أوهن طفل رضيع يفوقها فى الحس والمشاعر. إن اتجاه دعاة المنطق إلى تمجيد العقلانية، واعتبار الرجل الأبيض

ممثلاً للنوع البشرى وإغفال حقيقة أن "العقول" موجودة بكل الأجسام. جعلنا ندرك أن هناك إشكالية ما. وما زال لهذا الاتجاه حضور قوى فى علم دراسة الجهاز العصبى وعلم النفس، كما فى غيرها من العلوم، لكنه ارتبط بطرق واتجاهات جديدة فى السنوات الأخيرة، فالدراسة والبحث فى طبيعة الحدس والبدية والنزعات المعرفية، علم النفس الاجتماعى والتلافح الثقافى، النواحي الوجدانية والتأثرية فى الجهاز العصبى. كلها مجالات بحثية تتزايد بسرعة.

ودراسة النواحي التأثرية فى الجهاز العصبى اتجاه حديث جداً، ويحتدم الجدل والخلاف حول كيفية تعريف العواطف، وحتى حول أمور أساسية وواضحة مثل: كم عددها وهل بالإمكان التمييز والتفريق بينها<sup>(٧)</sup>. وقد يكون ذلك بسبب ولع الأكاديميين بالمناظرات والجدال. لكن ذلك يعكس أيضاً الطبيعة المراوغة للموضوع. لكنه من الواضح أن العواطف ترتبط كثيراً بأحوال الجسم. فالتغيرات الفسيولوجية تعطينا رجفة أو رعشة الخوف، وحمرة الوجه عند الغضب. والشعور بالغثيان عند الاشمزاز. كما أن هناك اتفاقاً كبيراً، وإن لم يكن عاماً. أن بعض العواطف - كالخوف والغضب، القرف، الحزن، الفرح - تبدو بسيطة وجوهرية أكثر من غيرها مثل: الخزي أو الخجل، والحرج أو الارتباك، والغرور مع "الغطرسة" عند الإغريق، أو الحقد المدمر كما يسميه الألمان - والعواطف الأساسية لها سمات وعلامات تظهر على تعبيرات الوجه ولها استجابات نفسية مميزة جداً لدرجة أن كل ثقافة تعرفها وتخص بها؛ فإذا غضب شخص أرتكى<sup>(٨)</sup> يمكنه أن ينقل مشاعره لى أو لك بسهولة<sup>(٩)</sup>. إلا أن العواطف والمشاعر الأساسية قد تختلط وتتداخل.. الغضب مع الخوف أو القلق مثلاً. وعلاوة على ذلك، فإن كثيراً من العواطف التى نحسها هى صور باهتة من التجربة الكاملة. فنحن غالباً ما نستخدم

(٧) من "الأرتك"، وهى شعب عثمانيين حكوا المكسيك قبل الفتح الإسلامى عام ١٥١٩.

لغة عاطفية دون أن نشعر بشيء قوى وحاد. مثلما نقول مازحين: "أنا أكره ذلك" ونعنى بها مجرد ضيق طارئ. وقد لا نستطيع أحيانا الإفصاح عما نشعر به.

وتكمن بعض أسباب هذا القصور عن الإفصاح فى طبيعة الإشارات الداخلية عن حالة الجسد، والتي تنشأ منها العواطف، وعلى الرغم من أن هذه الإشارات تصل إلى المخ وتؤثر فى النشاط العصبى، تماما كما تفعل الإشارات من خارج الجسد. فإن هناك اختلافات؛ فالإشارات من الأحشاء أو الأمعاء مثلا يبدو أنها أبطأ وأقل تحديدا من مثيلاتها الواردة من حواس الجسد<sup>(4)</sup>. وتمتد الإشارات الواردة من الداخل إلى فترات أطول من تلك التى ترسلها أصوات أو صور تتغير بسرعة، كما ينطبق ذلك بصفة خاصة على الإشارات التى تحملها الهرمونات وجهاز المناعة وأى عناصر كيميائية أخرى إلى المخ، ولا ينطبق على الإشارات التى ترسلها إليه الأعصاب. وبما أن الإشارات من الداخل تستغرق وقتا طويلا، فإن تحديد حيزها ومداهما يكون أقل وضوحا أيضا من غيرها من الإشارات المرئية أو المسموعة. ولذا فإن تأثيرها يصعب تقييمه<sup>(5)</sup>. وعندما تنظم الخلايا العصبية الأصوات، مثلا، فإنها تتيح للمخ أن يميز بين الفروق الدقيقة فى التواتر (التكرار) وطبقة الصوت اللذين يشكلان قدرتنا العقلية بالنسبة إلى اللغة.. إنها عملية حاسمة وعصبية، ويبدو أن القول: "استخدمها بدلاً من أن تخسرها"؛ ينطبق على أنسجة المخ، حتى أصغرها على مستوى كل نقطة منفردة من نقاط الاشتباك العصبى. والعضلات التى تستخدم مكرراً، مثل التى بالأحبال الصوتية، والفم، واليدين، هى التى "تجند" لخدمتها مصادر عصبية كثيرة فى كلتا المناطق الحسية والحركية فى المخ، وتسمح بالفروق الضئيلة فى الحركات وبالاختلاف والتمايز الكبير اللازم للتواصل بالكلمة، أو بتعبيرات قسامات الوجه، أو بالإيماءة، أما الخلايا العصبية التى فى المناطق قليلة الموارد والطاقة، مثل تلك التى تتعهد الإحساس بتمدد الشرج، فلا يلزمها أن

تقوم بمثل هذا التمييز الدقيق، إذ إن قدرة الإنسان (بوصفه نوعاً بيولوجياً) على أن يتكلم من خلال "المستقيم" أمر مجازي<sup>(١١)</sup>.

وتنتج العواطف من إشارات مخية تسببها تغييرات في حالة الجسد (أو ما يسميه عالم دراسات الجهاز العصبي أنطونيو داماسيو "Antonio Damasio" "مرصد الجسد"<sup>(١٢)</sup>). ومن الممكن أن تكون هذه الإشارات قوية أحياناً؛ فتطلب الانتباه إلى ما يحدث بالجسد، لكنها ليست بالضرورة دقيقة أو مُحكمة تماماً، بحيث تكون المعلومات عن أين تحركت يدك اليسرى توأ؛ معلومات محددة وصحيحة. غير أننا، أو على الأقل أفضل كتابنا وفنانينا مرهفي الحس، يمكننا أن نفرق بين "ظلال" المزاج والحالات النفسية والمعاني التي لا حصر لها.. فالإبتسامة، على سبيل المثال، يمكن أن تكون عذبة أو حادة، غير متحفظة أو مكتومة، ثاقبة أو ودودة، أو مختلصة وماكرة، وغير ذلك كثير.

## العواطف واللغة:

وكي تحقق هذه البراعة فلا بد أن تكون رسائل الجسد غير اللغوية مُضمنة في إطار رمزي، فهي، مثل تأوهات الممثل على المسرح وهمماته الساخرة، تحتاج إلى "مضمون" مصاحب حتى تكون مفهومة، إلا أننا لا نستطيع أن نقول ببساطة: "لكي تعبر عن عاطفة، اختر إشارة جسدية، وأضف اللغة، وأبشر بالنجاح"؛ لأن الأمر حتماً أكثر تعقيداً من ذلك، ولنأخذ هذا القياس على حالة التمثيل أبعد من هذا ونخيل أننا نشاهد مشهداً في فيلم نرى فيه رجل يُضرب ويئن ويتوجع.. كيف نفسر سلوكه هذا؟ وبالرجوع إلى خبرتنا الذاتية ومعرفتنا بهذا السياق، قد لا نكون نحن قد ضربنا أبداً من قبل، لكننا عندما نشاهد رجلاً يُضرب

نفزع ونجفل متعاطفين معه، ونفسر تأوّهه باعتباره سلوكاً ناجماً عن الألم، ونحن نتابع في الوقت نفسه تطور حبكة الفيلم والعلاقات بين الشخصيات، علاوة على الحوار المنمق والمحكم، والتغيير السريع للمناظر، والدلالات الثقافية البارعة. وربما لن يكون لدينا الوقت كي نقول لأنفسنا: "إن هذا الرجل يتأوه بهذه الصورة لأنه يتألم"، ولن نحتاج أيضاً إلى أن نعبر عما فهمناه في إطار اللغة.. إننا في ذلك نشبه الشبانزى أو الكلاب، إننا نفهم كثيراً عن عواطف الآخرين دون الاحتياج إلى الكلمات.

ومع ذلك؛ فإننا نحتاج أحياناً إلى "توصيل" مشاعرنا للغير. إنه أمر بسيط.. علينا فقط أن "نقلد" السلوك المناسب، لكن ماذا إذا كنا في موقف لا يُنصح فيه بالتأوه أو البكاء أو بمهاجمة أحد مشاهدك- كأن تكون في حفل بحديقة مثلاً؟ أو ماذا لو كنا نحاول كتابة رواية لن نستطيع قراؤها رؤيتها كتمثيلية؟ إننا في هذا الوضع لا بد أن نلجأ إلى اللغة وأن نفصح عن مشاعرنا بالكلمات ونسميها بأسمائها.

وتتيح لنا اللغة أن نربط ذهنياً بين رموز معينة (كلمات) وبين أشياء وأحداث نلاحظها حولنا، وعلاقاتها والطريقة التي تتفاعل بها معها. إننا نتعلم اللغة بالأسلوب نفسه الذي نتعلم به أي شيء آخر، بالاستدلال على العلاقات المتبادلة بينها وبين: التغييرات في البيئة، في أجسادنا وعقولنا؛ ويبدو أنها تتوأكب معاً. وتتضح أحياناً الصلات بين شيء أو حادث ما وبين الصوت والمنظر والتفكير الخاص بالكلمة التي لها صلة وثيقة به، ويمكن للطفل الرضيع أن يقارن بين صوت أمه عندما تظهر "كرة" أمامها فجأة فنقول "كرة"، وبين صوتها عندما يلتقط الكرة قائلة: "كرة... أنت ولد ماهر"؛ وبين الطريقة التي تحيى بها كلبه عندما يظهر فجأة وتناديه باسمه.. ومع التكرار، وكل مفاتيح الدلالات غير اللغوية التي تقدمها الأم، يرتبط صوت كلمة "كرة" غالباً بالأشياء المستديرة التي تصلح للرمى أكثر من

ارتباطها بـ "شئ" ينبج" وله أرجز<sup>(١٢)</sup>. ويعزز هذه الترابطات المصاحبة للغة. ومعها كل هذه الأشياء التي تستقر بسهولة في عقولنا، الجزيئات الصغيرة التي تربط في إدراكنا بين الملاحظة والفعل، فتختلط هنا الاستنباطات العصبية التي يولدها إدراكنا الحسى بتلك الأنماط التي تعكس تجاربنا السابقة، وتوقعاتنا الحالية. واهتماماتنا الباطنية، فتشكل كلها موجات من أنهار وروافد عديدة تصب في البحر المضطرب نفسه بشدة، وحتى في هذا الاضطراب العظيم، سيكون هناك نوع من النظام؛ إذ إن بعض الأنماط المميزة والمتكررة سوف تتلازم مع تراكيب حسية وحركية وترتبط بعلاقات متبادلة معها، مثل العلاقات بين علب السجائر والموت الذى تدل عليه العبارة المكتوبة عليها: "التدخين يقتل"؛ ولو أن تلك الأنماط المتداخلة واضحة وراسخة بالقدر الكافى، لأمكن أن ترتبط هي أيضا بالكلمات. وكى نصفها. لنا أو لغيرنا، فإننا نستخدم لغة الإدراك المعرفى: المعتقدات، المعارف، الأفكار، الافتراضات.. وهكذا<sup>(١٣)</sup>.

وفيما يبدو؛ فإن الأنماط الأخرى التى "فى الوسط" أو موجودة "بين غيرها" تعكس حالة وجودنا نحن أكثر مما تعكس العالم المحيط بنا.. إنها لا ترتبط بصفة خاصة مع الأشياء؛ ولكنها تتماشى مع أحاسيس الجسد، من نبضات القلب الجامحة بسبب الخوف إلى الاسترخاء العضلى الناشئ من الإحساس بالسعادة. ونحن غالبا ما نقرن ذلك بصفة الإلزام، ووجود الدافع، فنختار الأفعال التى تُقلل منها أو تزيدها، وربما لا تكون هذه الأنماط واضحة بدرجة وضوح الإدراك أو الملاحظة نفسها، لكن أساليبها تتنوع حيث تكون ثابتة بالقدر الذى يجعلنا نرصدها ونعطيها مسمياتها، ويعتمد ذلك على كيفية تفاعل أجسادنا وعقولنا مع ما نلاحظه. والمسميات أو الأسماء ستكون مما تختاره وتحدده ثقافتنا - الغضب،

العرف أو الأشمئزاز، الرضا، الشعور بالإثم، أو غيرها- ويمكن تعميمها على مواقف أخرى تكون فيها مشاعرنا أقل حدة، ولكنها متشابهة في السمات.

وتختلف لغة العاطفة عن معرفتنا وبراعتنا في كيف نتكلم عن الأشياء، ذلك لأن الفرد لا يمكنه ببساطة تحديد ما تعنيه وتشير إليه الكلمات، وقد يأتي اليوم الذي يتعلم فيه الأطفال "كلمات العاطفة" بمساعدة أجهزة الأشعة المقطعية والرنين المغناطيسي، لكن الآباء والمربين يعتمدون الآن على الاستراتيجيات التي تجعل الكلمات وعلاقتها المتبادلة أكثر تحديدًا ووضوحًا وأكثر تميزًا عن غيرها بالنسبة إلى من يتعلمها من الأطفال. ولو تعاملت مع الأطفال الرضع، فسوف تجد نفسك بكل تأكيد تفعل الشيء ذاته؛ ستستخدم أساليب مثل " التأكيد بنغمة الصوت" (الطفل يحب ذلك) أو بتحديد الاختلاف (إنها ليست سعيدة! إنها حزينة)، أو بالمبالغة في إظهار مفاتيح غير لغوية للمعاني ( اوع! هذا شيء مقررز- أو باستخدام تعبيرات "مهرجة" أخرى عن الأشمئزاز).. وهكذا<sup>(15)</sup>.

ومادامت رسخت وأقرت الرموز الأساسية؛ فسوف يمكننا أن ندخلها في شبكة نسيجنا اللغوي ونربط بينها وبين الملاحظات والمدرجات والسلوكيات التي سوف تظل معظم الوقت ملازمة لها، ويمكننا أن نعرف هذه الرموز بالتفصيل أو أن نتركها بدون تحديص على نطاق واسع، اعتمادًا على الشخصية والذكاء ومستلزمات الخبرة. إن الاختلافات الفردية والثقافية لها اعتبارها هنا، فبعض المجتمعات قد تؤكد فروقًا دقيقة ولا تكاد تذكر، بينما لا تفعل ذلك مجتمعات أخرى (أو أنها تستعير مفردات من جيرانها، كما فعل من يتحدثون الإنجليزية مع بعض الألفاظ الألمانية).

إن عملية تفسير الاستنباطات التي تفرض شيئاً من النظام على "قوضى" انشباكات العصبية، تغير هذه الأنماط عندما تدرك معانيها<sup>(١٦)</sup>. والنشاط الذي يقوم به المخ كى يوجد صلة بين ما رُصد على أنه "إهانة" وما نجم عنه من "قبضة" تستعد لتوجيه لكمة؛ لن يمكن شرحه أو تسميته إطلاقاً، أو قد يمكن تفسيره على أنه غضب، جرح للكرامة، فزع، أو رغبة شديدة فى القتال.. وبالإضافة لذلك، يمكن القول: إن تسمية هذه العواطف وتحديدتها لم يوجد كى يُرتب أو "يزين" ساحة النشاط الذهني.. إن هذا مهم، إذ إن قرارات الشخص بخصوص ما سيفعله بعد ذلك قد تتأثر بطبيعة إحساسه بهذا النشاط.

وكى نوجز، يمكن القول: إن العواطف قد تبدأ بإشارات تطلقها تغييرات فى أحوال الجسد. وبينما تصل هذه الإشارات إلى المخ، تنساب فى شبكة قشرة المخ التى تكون جاهزة بخبرتها لتؤثر فى نشاط المخ بطرق وأساليب قد يشعر بها الفرد أو لا يعيها بالمرّة.. وهذا النشاط الذى غالباً ما يتضمن مكونات حسية وحركية (مثل تعبيرات الوجه) وأيضاً مدخلات عضوية- من الأحشاء- وإدراكية، قد يندمج ويتحد مع عالم الرموز واللغة بالعقل لينشأ "تحليل الذات" الصامت أو التعبير المعلن؛ لذلك فإنه يمكن أن نأخذ معنى العاطفة على أنه كل أو أى من تلك الجزئيات الضئيلة المتداخلة والمؤلفة من نواحي حسية - حركية- عضوية - معرفية- وتجريبية (من الخبرة).

## ما فائدة العواطف؟

إن حالة الجسم أمر مهم، إذ إن التعامل مع كلب ينبح أسهل من أن تتغاضى عن صدادع نصفى.. ويبدو أن الإشارات الواردة من الأحشاء (الداخلية) تسيطر

على نشاط المخ وتتحكم فيه أكثر من الإشارات الحسية (الخارجية)<sup>(١٧)</sup>. فالأولى تمثل أعضاء خاصة من "اللجان العصبية" ذات "صوت مرتفع". وهي تأمر بضرورة فعل شيء ما، وإن أغفلناها فإن صوتها يتصاعد وتعلو نغمته أكثر وأكثر حيث لا يمكن تجاهله، فيُغير سلوكنا حتى لا يحدث ذلك كثيراً؛ وهذا، على الأقل، هو وضع العواطف البغيضة التي تعلمنا أن نوليها اهتماماً؛ لأنها تنذر بمتاعب. أما المشاعر الإيجابية فإنها تدعم وتقوى السلوك الذي أحدثها بدلاً من أن تكبته أو تقمعه<sup>(١٨)</sup>.

إننا نتعلم بالتجربة ما الذي يلزم عمله، ويمكن للعواطف أن تدفعنا لأن نفعل ما يلزم بصورة أسرع. وكما سبق أن أشرنا، فإنه يمكننا أن نعتبر العواطف ذكريات عن قرارات اتخذتها جينات أسلافنا (بخصوص ردود فعل تطورت- كالخوف) أو ذواتنا فيما سبق (بخصوص العواطف الأكثر تعقيداً) - فهي تاريخ شخصي مختزن من العلاقات مع عامل محفز.. أو بصورة أكثر تحديداً، هي سجلات تختص بنتائج وعواقب قراراتنا. إنها مثل توجيه وإرشاد من "أرواح" الأسلاف والأجداد، فالعواطف تُشير إلى ما سوف يفيدنا وينفعنا أو يضرنا، وذلك على أساس من الخبرة والتجربة: "عانقها... الحنو سوف يُلطف مشاعرك"، "لا تأكل هذا، سوف تتدم"، "هل تريد أن تفتحه؟ افعل ما فعلته توال لكن بقوة أكبر". وإذا اقترن التوجيه باللغة، يمكننا إضافة عنصرى الزمن والرسائل اللتين تختصران الجهد: "تجنب رئيسك صباح يوم الاثنين"، "هذا هو ما أفضله"، "أصحاب العيون المخادعة والمراوغة من الناس لا يجب الوثوق بهم".

وهكذا، فإن العواطف مهمتها أن تتبيننا وتخبرنا عن أحوال جسدنا، فهي كما قد يدل عليه هذا المصطلح: "مرصد الجسد"<sup>(١٩)</sup>. وهي تخبرنا أيضاً بما هو أكثر من ذلك؛ عن مشاعر غيرنا من الناس، وعن تقييمنا لأشياء نواجهها وعن تفاعلاتنا الاجتماعية، والأحداث التي تنشأ عما نفعله، وتلك التي نحفزنا للفعل، فبإمكاننا

تتطلب "خلفية" خاصة قبل أن نتقيم معانيها- الخوف التام، الفرغ الخالص، أو الغضب المحض. والإشارات الصادرة من الجسد، مثل الاندفاع الذى يسببه "الأدرينالين"، تؤثر فى وظائف الأعضاء بالطريقة نفسها سواء كان السبب تهديدا حقيقيا، أو خطرا متخيلا، أو حقنا بهذا الهرمون فى دماننا. غير أن اندفاع الأدرينالين قد يُشعرنا بالفرع، أو التوتر أو الإثارة الشديدة، حسب كل شخص وظروفه<sup>(٢٠)</sup>. والنشء المشترك فى هذه التفسيرات الثلاثة هو أن بعض الأحداث تبرز بشيء ظاهر وتتميز عن غيرها فى حشود وزحام الاشتباك العصبى، وتُعطى الاستجابة لها وردود الفعل عليها الأولوية؛ ومن ثم تعطىها العواطف مغزى، بمعنى أنها تُصنّف أنماطا عصبية معينة على أنها مهمة بالنسبة إلى الشخص، فتكون الإشارة: هذه الأشياء تُعنى، إنها تؤثر فى سلوكى، وسوف أبذل جهدا أكبر لأتحاشاها أو لأسعى كى أتبعها وأنجزها.

والعواطف السلبية، على وجه الخصوص، تمثل تحذيرات أيضا، فهى تُعطى الأولوية لرد الفعل السريع تجاه التهديدات. وقد وصفت فيما سبق ثلاثة برامج سلوكية عامة لردود الأفعال حيث تتيح للبشر (ولأنواع أخرى من المخلوقات) الاستجابة بسرعة وفاعلية للأنماط المألوفة من التهديدات، فهناك السلوك الذى يتأقلم مع الهروب، ويتضمن الاستسلام والخضوع، وإبداء الشعور بالحرز والكرب، و"التجمد" - أى الانقطاع عن الحركة أو الكلام- وقد تطور هذا السلوك لمنع تصاعد العدوان ولتحاشى ملاحظة المعتدين أو الوقوع فى أيديهم، وفى هذا الموقف تسود عاطفة الخوف والفرع، وهناك أيضا السلوك الذى يتأقلم مع التحدى، ويتضمن إشارات بالتهديد مثل نظرة غاضبة أو أسنان ظاهرة، أو العدوان البدنى أحيانا، وهى تعتبر استعراضا للقوة ومواجهة ضد أفراد أو عناصر أخرى تُفسر على أنها "العدو" (مثلما يقال: " لقد تحطم حاسبى الألى مرة أخرى")، وفى هذا الموقف تسود عاطفة الغضب والكبرياء، أما سلوك الاجتناب الذى يشمل

"الانسحاب" أو التفادى، النظرة المحدقة، والبغض الشديد، وتطهير الذات، البصاق، الغثيان، القيء، فقد تطور كى يحمى البشر من السموم ومصادر العدوى.. وهى أشياء لم تكن عوامل عدائية وليست بالقدر الكافى من القوة أو السرعة حتى تحدث سلوكاً هروبياً، إلا أنها إذا اقتربت منا كثيراً تشكل خطراً حقيقياً<sup>(٢١)</sup>، وفى هذا الموقف تسود عاطفة الاشمزاز والفزع وما شابهها.

وكى نفهم كيف تنشأ العواطف بواسطة المخ سوف أعطى مثالاً محدداً هو عاطفة الشعور بالقرف أو الاشمزاز لأنها إحدى العواطف التى لها دور بارز فى الإقصاء والقسوة<sup>(٢٢)</sup> ولقد أشرت تولا إلى التقيؤ باعتباره رد فعل تحدثه الباحة المنخفضة بالمخ نتيجة للاشمزاز.

## نشأة الاشمزاز:

### "لأن الحياة إفساد"

(الفيلسوف الفرنسى جاك لاكان "Jacques lacan")

مثيرات "القرف" تحدث مجموعة من ردود الأفعال لدى من يلاحظها، بما فى ذلك تغييرات فى معدل ضربات القلب، التنفس، نشاط المخ، تعبيرات مميزة على الوجه (تجاعيد بالأنف، زم الشفافة، وتضييق العينين) وغثيان أو قيء<sup>(٢٣)</sup>. ورد الفعل الأساسى هو شعور مقبت بالاشمزاز ينتهى بفعل انعكاسى لا إرادى يقذف بكل محتويات المعدة، وتضاف إلى هذه المهمة الرئيسية طبقات متزايدة من السلوكيات الأكثر تعقيداً؛ حيث تسمح بالتعرف على ما يهدد بالقرف وتفاديه، فىكون الامتناع عن أكل اللحوم الفاسدة، فى الاعتبار الأول، أسلم وأكثر أماناً واقتصاداً فى طاقة الإنسان بدلاً من إقدامه على تناولها ثم تقيؤها ثانياً، ومع ذلك فإن الاشمزاز بالنسبة إلى البشر شىء معقد جداً وأكبر من أى "اجتناب مبرمج"، فبذا، على الأقل يخضع جزئياً فقط للتحكم الواعى لدى الإنسان.

ومن الواضح أن الأشمزاز يشمل التحكم الطوعي. فعند التفكير فيما يثير القرف، تظهر ملامحه عمداً على الوجه، أو حتى قراءة كلمة "يتقياً" من الممكن أن تثير ردود أفعال فيسيولوجية علاوة على التجربة العاطفية الذاتية الخاصة بالاشمزاز<sup>(٢٤)</sup>. والتحكم الإرادي والمتعمد يُشكّل الحس التطوري عند الكائنات الاجتماعية، وتنظيم العاطفة مهارة اجتماعية نافذة؛ إذ إنه ليس من دواعي السياسة والكياسة إظهار الأشمزاز، كما أنه ليس دائماً بالإمكان استخدام النظم (أو التكتيكات) الثلاثة المألوفة لتجنب الشيء الباعث على القرف، أو لطرده من أمامنا أو الحد منه ببعض الوسائل الأخرى.. ونضيف إلى ذلك أن الأشمزاز مثل العواطف الأساسية الأخرى توجد بدرجات وفروق ضئيلة - كره الطعام والشراب، الازدراء، المقت، والبغض الشديد... وهكذا، ويشير ذلك إلى أهمية التفسير المبني على أساس لغوي وعلى الوعي عند تعريف هذه العاطفة ودورها الاجتماعي الحرج.. وعلى هذا فإن الأليات العصبية التي تؤكد وتعبّر عن الأشمزاز يجب أن توضع في درجات وطبقات تتيح كلاً من ردود الفعل الوقائية التلقائية (مثل القيء) وأيضاً التحكم الواعي الرفيع كما في الاستجابة العاطفية التي يحكمها إدراك الموقف وتقييم السلوكيات البديلة.

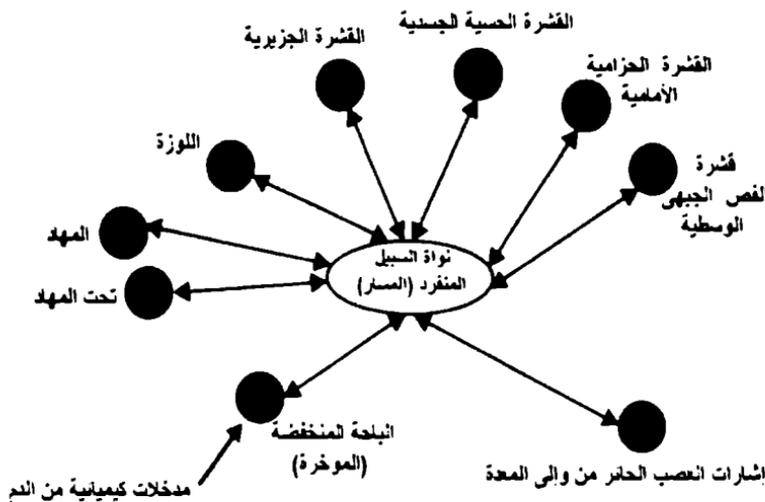
### التشريح العصبي المرتبط بعاطفة الأشمزاز:

في هذا البحر من اللا معلوم، أي علم دراسة الجهاز العصبي، تُشكّل منطقة جذع المخ التي تختص بالقيء جزيرة صغيرة مما يمكن فيمه. والنسق الخاص بأدائها كما يلي: عندما تكتشف أعصاب المعدة وجود شيء "قذر" - أو فاسد - فإنها ترسل إشارات عبر المسار الحسي الضخم للعصب العاشر بالجمجمة، وإلى العصب الحائر (والذي اتخذ اسمه من الكلمة اللاتينية "المتجول أو الهائم")<sup>(٢٥)</sup>.

ويوصل هذا العصب "الثانئ" إنذار المعدة إلى هذا الجزء الحاذق في جذع المخ. وهو الباحة المنخفضة. فتقوم بدورها بالاتصال بمناطق أخرى في الألياف العصبية بالذماغ وبالنخاع في قاع المخ<sup>(٢٦)</sup>. وتقوم هذه بإعطاء الأمر لعضلات المعدة كي تطلق الانقباضات الإيقاعية التي نشعر بها في بادئ الأمر كحركة مضطربة ميتاجة تثير الفلق، ثم يأتي الغثيان، ثم دافع القيء والاستسلام له.<sup>(٢٧)</sup>

وتتصل أعصاب من المعدة أيضا بمنطقة أخرى في جذع المخ وهي نواة السبيل المنفرد، وهي لها صلة وثيقة بالباحة المنخفضة (وبأجزاء ضئيلة أخرى في بطانة القشرة الخارجية للمخ التي تتحكم في المناطق الداخلية بالذماغ، مثل منطقتي تحت المهاد واللوزة)<sup>(٢٨)</sup>. وتحتوي نواة السبيل المنفرد على تجمعات متنوعة من الخلايا لها أولويات مختلفة، يتعامل بعضها مع عملية "البلع" والأحاسيس الصادرة من الحجرة. والبلعوم والمعدة، ويتعامل بعض آخر مع عملية التنفس، وبعض مع ضغط الدم. وتحتاج كل هذه الخلايا إلى "ضبط" وتوافق عندما يحدث القيء، حيث تعلق مسارات الهواء لفترة كافية، وليست فترة طويلة جدا، وحتى تنقبض جدران المعدة بكفاءة وفي الوقت المناسب.. وهكذا<sup>(٢٩)</sup>. ولو فكرنا في هذا التنظيم اللازم لإحداث ذلك الترتيب التزامني لكل هذه الأمور، فإننا سوف نشعر بالامتنان والعرفان بالجميل؛ لأن بعض المهام التي يؤديها المخ تأتي بهذا الترتيب مقدما وبإحكام تام؛ فالتقيؤ شيء مزعج بالقدر الكافي، دون أن نفكر كيف يحدث.. ولو كان حافز التقيؤ شديدا، فسوف نشعر بالإعياء والمرض. أما المؤثرات الأضعف، فمن الممكن أن تقوم إشارات من أجزاء أخرى في المخ بتسهيل أو منع الفعل الانعكاسي اللا إرادي المتوقع منها. وتتم اتصالات أخرى متبادنة من مناطق مثل القشرة الحسية الجسدية، (انظر الشكل رقم ٥)، والقشرة الجزيئية، والقشرة الحزامية الأمامية، وقشرة الفص الجبهي الوسطى (وكلها أيضا "تتحدث" مع بعضها بعض)، حتى تصل إلى ما تحت القشرة الخارجية للمخ فتبينها لأن تمارس ضغطا يُزيد من قوة تجربة الأشمزاز (انظر الأشكال من ٧-٩)<sup>(٣٠)</sup>. وتتسلم أيضا مناطق

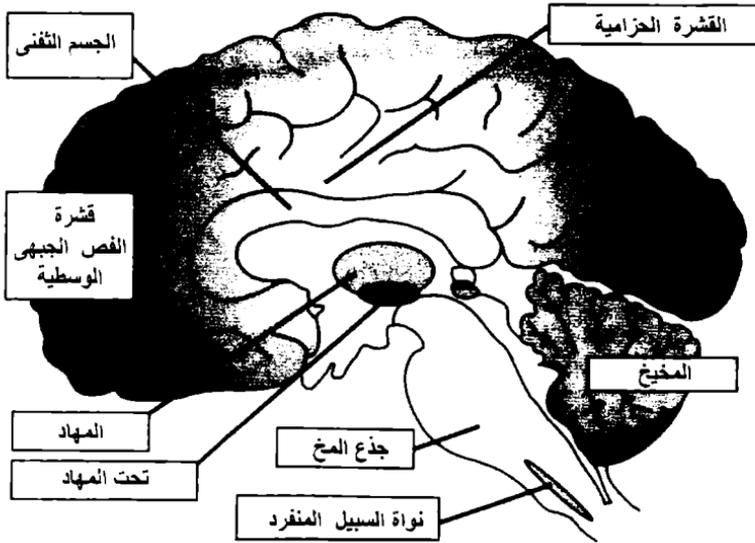
القشرة الخارجية للمخ، خاصة المنطقة الجزيرية، مدخلات من مراكز التحكم في جذع المخ، كى تتيح لها التعرف على التغييرات التى تحدث فى الأحشاء. وكلما زاد عدد المناطق المشاركة فى هذه الاتصالات، تعمقت هذه التجربة وازدادت "تراء".



شكل رقم (٧) : بعض التوصيلات الخاصة بتعامل المخ مع عاطفة الاستمزاز، ويستند على التغييرات الكيميائية فى الدم بالباحة المنخفضة التى ترسل الإشارات إلى نواة السبيل المنفرد (NTS). وهى تستقبل أيضا الإشارات من المعدة، بواسطة العصب الحائر وترسل الإشارات التى تحفز على القيء. وعلاوة على ذلك تتصل نواة السبيل المنفرد بمناطق أسفل القشرة الخارجية للمخ، مثل المهاد وتحت المهاد واللوزة، ومنها إلى القشرة الجزيرية وإلى مناطق أخرى مثل القشرة الحزامية والقشرة الحسية "الجسدية" وقشرة الفص الجبهى الوسطية (وكل هذه بينها تواصل أيضا).

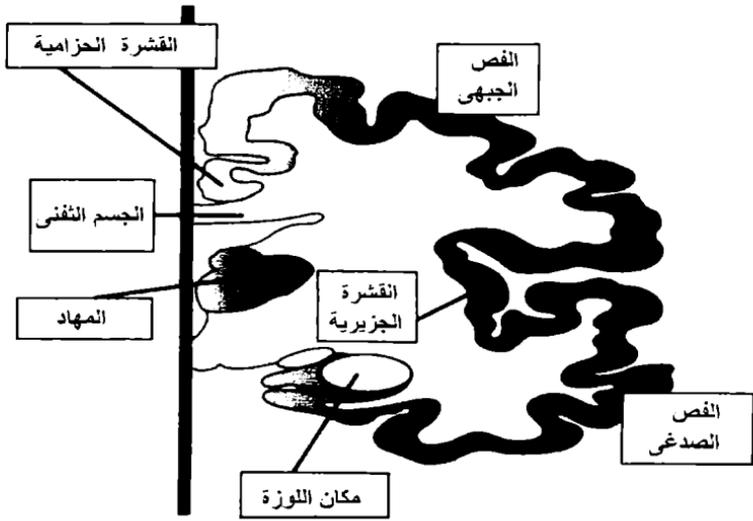
وبالإضافة إلى ذلك، فإنه بمجرد وجود هذه الشبكة من الاتصالات العصبية بالتجربة، سيؤدى نشاط أى جزء من تلك الشبكة إلى الانتشار السريع للنشاط فى

بأقى الأجزاء المرتبطة بها (فنقاط اشتباك الأعصاب مترابطة بشدة)، حيث تكمل "وتماًلاً" الأنماط العصبية (كما عرضنا فى الفصل الرابع). وهذا يفسر لماذا لا يحتاج البشر إلى وجود مادة سُمّية فى أجسادهم لإحداث تجربة الإعياء هذه، فهناك أشياء كثيرة قد تُحدثها: منظر تصادم سيارات، صوت شخص ما يتقيأ، ملمس لحم متحلل، مذاق أو رائحة عفنة، أو حتى مجرد تهديدات رمزية بالقرف- كل هذه الأشياء تُحدث التأثير نفسه بأن تُنشّط مناطق مشابهة فى القشرة الخارجية للمخ والقشرة التى أسفلها. (وعلى سبيل المثال، فإن شبكة الخلايا العصبية بالقشرة البصرية، والتى توجد نقاط اشتباك بينها وبين القشرة الجزيرية واللوزة، تشارك أيضاً فيما نسميه الاستجابة لمثيرات عاطفة الاشمئزاز).



شكل رقم (٨): مشهد متوسطى لمخ الإنسان، مُوضح عليه ثلاثة معالم رئيسية: المخيخ، وجذع المخ، والجسم الثقنى (الحزمة الكبيرة من الأنسجة التى تربط نصفى كرة الدماغ). ويوضح الشكل أيضاً القشرة الحزامية، وقشرة الفص الجبهى الوسطية، والمهاد، وتحت المهاد.

وعندما نرتفع من جذع المخ إلى القشرة الخارجية للمخ، نكون قد تركنا "الجزيرة" مرة أخرى إلى "المحيط" المتسع. ولقد بدأ العلماء فى السنوات الأخيرة فقط فى حل لغز وطلاسم العملية المنظمة لعاطفة الاشمزاز فى قشرة المخ<sup>(٣١)</sup>. وعلى سبيل المثال، فقد عُرف أن هناك صلة وارتباطاً بين المنطقة الجزيرية بالمخ والسلوك الذى يتسم بالعنف، مثل رد الفعل العدوانى أو الخلل فى التصرفات، وتوجد الصلة نفسها حتى فى عملية رفض المعتقدات<sup>(٣٢)</sup>. ومن الواضح أن كثيراً غير ذلك من الأدوار والعلاقات فى هذه المنطقة ومناطق أخرى بالقشرة المخية سوف يتم الكشف عنها.



شكل رقم (٩): مشهد تاجى لنصف المخ (كما لو كان يمثل شريحة رأسية خلال النصف الأمامى). وقد ظُلت المادة الرمادية بالقشرة الخارجية، كما كُتبت أسماء معلمين هما المهاد والجسم الثفنى، مع الفص الجبهى والفص الصدغى والقشرة الحزامية. أما موقع اللوزة، التى تسكن فى العمق داخل الفص الصدغى، فقد تمت الإشارة إليه بوضوح. ويظهر فى هذا المشهد للمخ أيضاً موقع القشرة الجزيرية فهى تختبئ تحت طيات الفص الجبهى والفص الصدغى.

## العواطف وأطياف العواطف:

إن العواطف هي التي تضع أطر العلاقات بين المؤثرات الحسية والسلوك وفقاً لتأثيرهما في الجسد، وهي أيضاً التي تدعم وتقوى هذه العلاقات، فتسمح للأحداث والوقائع التي حكمها العاطفة بأن يكون تذكرها بصورة أفضل وتكون ذات تأثير أكبر عند اتخاذ قرار بالفعل في المستقبل. والعلاقات القوية، كما ذكر في الفصل السابق، تحدث استجابات أسرع، إلا أن الذخيرة الكبيرة من التعبير العاطفي تستغرق بعض الوقت لتظهر - فعضلات الوجه لا بد من إعادة تنظيمها، والهرمونات يلزم إفرازها، وأنماط التنفس سيتم تغييرها، والأحشاء سوف يتم استثارتها. وبناء على ذلك، عندما تكون الاستجابات أسرع، سيكون انطلاقها سريعاً قبل الإحساس الكامل بالعاطفة، وبينما تقوم شبكات التجهيز العاطفي بمهامها، قد تتجاوزها سهام أخرى، في طرق مساراتها جانبية (للمدخلات والمخرجات) أقوى وأسرع، فتفقد قوتها وشدتها وتصبح خيالات أو أطيافاً لحالتها السابقة.

إن إضعاف الأحاسيس الذي يجمد مشاعر القنلة متعددي الجرائم ويصل بهم إلى جمود الفؤاد وتحجره يركز على هذا التعود العاطفي<sup>(٢٣)</sup>. ويكون هذا التعود فعالاً خصوصاً عند الحاجة الشديدة إلى الفعل السريع، وعندما لا يكون لدى الشخص الوقت فعلاً ليحس بأى مشاعر، وحتى في الظروف "الهيينة" والمعتدلة. يكون مجرد التكرار عاملاً كبيراً في إضعاف قوة العاطفة. وكمثال على ذلك، سنفكر في مشكلة "عربة التروولي"، (أو القطار) وهي نموذج مفضل وجاهز دائماً في مجال فلسفة الأخلاق<sup>(٢٤)</sup> وكما عرفت المشكلة للمرة الأولى، فهي سؤال يطلب منك أن تتخيل "خط سكة حديد" وعليه خمسة أفراد يتجولون في سعادة، وليست لديهم مساحة كافية على الجانبين حتى

يلجأوا إليها عند الخطر، إنهم لا يعلمون ذلك لكنهم سوف يكتشفون أن عربة التروলلی بدأت تتحرك بسرعة مهلكة تجاههم. وأنت تقف على مكان عال بجانب المسار.. إنك إما أن تبقى ساكنا ولا تفعل أى شىء، وتترك هؤلاء الخمسة ليموتوا، وإما أن تحرك رافعة تحوّل بها مسار العربة إلى خط فرعى عليه شخص واحد فقط تصادف سيره على هذا الخط.. إن الاختيار لك. ولا حاجة للقول إن معظم الناس يختارون تحريك الرافعة. إنه من الخطأ أن تتسبب فى الموت لأى إنسان، لكن عندما يتطلب الأمر المفاضلة بين حياة شخص واحد غريب مقابل خمسة، فإن التحليل النفعى للتكلفة (أو الخسائر) هو الذى سيحكم المسألة (أو الحسبة).

والآن سوف نكتشف أن هناك شيئا آخر، وجهاً ثانياً للمشكلة مطابقاً تماماً للأول فيما عدا تغيير حرج. إنك الآن تقف على كوبرى أعلى خط السكة الحديد، ويقف بجانبك رجل ضخم جداً، وإن كان جسمك لا يسد خط مسار العربة فإن جسمه يصلح لذلك. وبمجرد دفعه وحده له سوف تتفقد حياة خمسة أفراد. هل ستفعل ذلك؟ بالنظر إلى مسألة الموت والإنقاذ ستكون المهمة مماثلة لما سبق، لكن من الناحية الأخلاقية هناك اختلافاً كبيراً: إن معظم الناس سيكون رد فعلهم مفرغاً بخصوص الاختيار الثانى، وسيكون ذلك مدعاة سرور للفلاسفة والعلماء الذين سوف يقضون زمناً طويلاً فى تنفيذ أحكامنا غير المنطقية والأخلاقية.

لقد عرفت مشكلة "التروলلی" هذه منذ زمن طويل؛ لدرجة أننى لا أتذكر ماذا كان رد فعلى إزاءها (ربما كان رد فعلى مثل أغلبية الناس: "حول المسار ولا تدفع بالرجل "السمين" للموت". إن التكرار قد أدى إلى إضعاف الأحاسيس، وسيكون القرار الأخير المتسم بـ"الضيق" أن الحل الأفضل قد يكون عدم فعل أى شىء فى الحالتين. إن الدفع بـرجل "سمين" ليلقى حتفه يبدو نوعاً من الجنون (أنه أكبر وأقوى منى، لماذا لا يقوم هو بدفعى إلى الهلاك؟). وإلى جانب ذلك، فإن وضع خمسة

رجال في قبضة الموت سوف يُسبب شوشرة إعلامية كبيرة، أكثر من موت رجل واحد، وبذلك سيؤسس لتحذير فعال لكل ساذج يفكر في المشي على خط السكة الحديد، حيث لا يستطيع الخروج عن مسار المركبات<sup>(٣٥)</sup>. ولحسن حظ المتجولين المهملين، فإن مشكلة "التروल्ली" هذه حالة افتراضية، كما أن الرأي النفعي الخالي من المشاعر الذي اتخذته غير مهم. وفي مواجهة لمحنة أخلاقية حقيقية كهذه، فإنني من المحتمل أن أختار رد الفعل والاستجابة المعتادة. ومع ذلك فإن المحزن الأخلاقية كلها، وبالتساوي، يحكمها التعود، وحتى قتل الأطفال، بصرف النظر عن الدفع بالناس من أعلى الكوبري، من الممكن أن تصبح مسألة "رونيية" إذا مارستها كثيرا وبالقدر الكافي من التكرار.

وتشمل "أطياف العواطف" مجموعة مدارات كيربية في طبقات القشرة الخارجية للمخ، إلا أنها لم تصل إلى جذع المخ كي تُثير استجابة جسدية أو (فسيولوجية).. إنها من الممكن أن تتطلق بمؤثر قوى ومجرد - كلمات أو أفكار، سواء منطوقة، مكتوبة، أو طافت بالذاكرة وتم تذكرها أو حتى تم تخيلها كأحلام اليقظة- وتكون أحيانا موجزة جدا لدرجة أن الفرد لا يدرك صبغة خلفيتها الذهنية<sup>(٣٦)</sup>. وقد اقترحت كثير من الأبحاث أن العواطف العابرة، مثل التي تُثيرها الكلمات "الثرية"، يمكنها أن تحيد بردود الفعل والاستجابات، وما يقوى السلوكيات هو الأفكار المطابقة للعواطف (أي تلك التي صارت مرتبطة بالعاطفة المعنية)، بينما تكبت ردود الفعل التي لا تلائم العاطفة أو تتطابق معها<sup>(٣٧)</sup>. وهذه القدرة على الربط بين العواطف خالصة الرمزية جزء لا يتجزأ من الميل إلى إقصاء الغير. وسوف نرى في الفصلين السابع والثامن أن العواطف لنا دخل كبير بالقسوة السادية وجمود الفوائد؛ لكن أطياف العواطف يمكنها أيضا أن تلعب دورا ما.

## العواطف والقسوة.. دراسة حالة:

وكي نعطي مثالا لإيضاح ما طرحناه حتى الآن، علينا أن نفكر في هذه القصة المختصرة عن "مناوشة" بين طفلة صغيرة وحيوان أليف للعائلة. دعونا نطرح هذه الحقائق أولاً:

اقتربت الطفلة ذات يوم من القطعة وفي يدها خيط مربوط به حلقة. ثم أنزلت الخيط فوق رأس القطعة إلى أن وضعت حول عنقها. وعندما شعرت القطعة بأن الخيط يضيق حول رقبتها قاومت. رأت أم الطفلة ما يحدث فجاءت تجرى وصاحت، تنهر الطفلة. وحررت رقبة القطعة. ثم تحدثت الأم والطفلة عما حدث.

ما رد فعلك على هذه القصة؟ هل كنت ستشعر بالصدمة إذا رأيت طفلة تعامل حيواناً بهذه الطريقة؟ إن كان الأمر كذلك، هل ستكون صدمتك أقوى لأن الفاعل هنا بنت عما ستكون الحال لو كان الفاعل ولداً؟ أم هل كنت ستضحك ويكون المنظر مصدر تسلية لك (ربما كان المشيد يُذكر بك بـ "كاريتون" شاهدته وأنت طفل؟ هل أثارت تجربة القطعة لديك شيئاً من الشفقة أو العطف، لدرجة أنك شعرت بالألم، غصة في الحلق، أو انقباض بالمعدة؟ ربما تكون ممن يكرهون القوط جداً فتمنيت أن تنجح الطفلة في قتلها. وربما تعتقد أنه يجب ألا يفلت أحد من العقوبة الشديدة، حتى إن كان طفلاً. إذا عذب حيواناً. أو ربما أنك لم تشعر بأي شيء أكثر من ذلك، أو بدرجة مؤثرة.

وأيا ما كان رد فعلك، فعلته تضمن استخدام الفكر الخالص في تحليل سلوك  
الطفلة فيما يتعلق بمعتقداتها ودوافعها<sup>(٢٨)</sup>. إن القصة لم تطرح، عن عمد، أي  
معلومات عن ذلك، غير أننا نقرأ القصة ونحير: لماذا تصرفت الطفلة على هذا  
النحو؟ كيف فكرت فيما قد يحدث؟ ماذا أرادت أن تحقق أو تتجز؟ إن تفكيرنا  
وحيرتنا هذه جعلتنا نخمن بخصوص دوافعها، وسيكون هذا حاسماً في تقديرنا  
وحكمنا على سلوكها. إن الأذى الذي وقع على القطة المسكينة اتى أو شكت على  
الخنق شيء مؤكد، لكن هذا السلوك الجهول من طفلة، والقسوة الصادمة، كان لهما  
وقعيهما وأثرهما في حكمنا الأخلاقي على من قامت بهذا الفعل.

والأحكام الأخلاقية، خصوصاً على الأطفال، يمكن أن يكون لها تأثير كبير  
وخطير في حياة من يقيم أفعالهم؛ إذ إننا نتعامل مع أحكامنا الأخلاقية على شخص  
ما على أنها تنبؤات عن سلوكه/ أو سلوكها في المستقبل، فنشكل سلوكنا نحن  
تجاهه وفقاً لها. ولو قارنا بين من يوصف بأنه "جاهل"، ومن يوصف بأنه قاس  
بدرجة مفرجة وصادمة، فإن الأخير غالباً سوف يواجه مستقبلاً كئيباً؛ ففي  
التصور العام ترتبط قسوة الأطفال باستخدام السم عند البالغين<sup>(٢٩)</sup>. إننا نفع بسهولة  
في فخ "الجوهر والماهية"، ونفترض أن الجهل يمكن إصلاحه. بينما القسوة وصمة  
دفيئة في طبيعة و"جوهر" الإنسان ولن يمكن التخلص منها أو إصلاحها. فطبيعة  
البشر تشبه كثيراً نفوسهم (والنفس من الصعب أو من المستحيل أن تتغير، ويعتمد  
هذا على "النوع" والفهم الذي تفضله عن علم الأحياء والكائنات، و/أو على رؤيتك  
الدينية). وقد ينشأ الإغراء باختصار الأمر بإزاحة هذا السلوك، وذلك بإقصاء  
الشخص ذاته. فمن نسميهم "قساة"، نرى أنه من الأسهل كثيراً أن ننفهم دون  
محاكمة، أو ننبذهم، ويحبسوا، أو يقتلوا.

وليس من الضروري أن تظل الأحكام الأخلاقية ثابتة من أول لحظة تُطلق فيها، فكلما نحصل على معلومات جديدة، غالباً ما نراجع تخميناتنا الأولى؛ فإن كنت (في هذه القصة) اخترت تفسير السلوك على أنه "قسوة"، ثم أُخبرت في حينه أن الطفلة ظهر عليها الحزن الشديد مما حدث، حينئذ سيتحول تقييمك إلى أنها "طفلة جاهلة" بدلاً من "قاسية". وقد تكون هذه الطفلة على أعتاب مرض نفسي وماكرة نوعاً ما فتبكي بشدة مما حدث وفي الوقت المناسب، وكثير من الأمهات يخدعن مثل هذه الذرية. وماذا لو علمت أن هذه الطفلة عندما بلغت الرشد أصبحت تراعى القانون وتلتزم به نسبياً، وتراعى الامتناع حتى عن قتل "العناكب"، أو حتى أي حيوان من الثدييات؛ إذن فليس هناك ارتباط مباشر بين مشاعر الطفلة وتعليقك على سلوكها المستقبلي. وقد تفتنح بأنها تصرفت بجهالة؛ لأن سلوكها فيما بعد كان رقيقاً بالحيوان. ففي تجربتنا أن قساة البشر لا يحرصون على سلامة العناكب، فلماذا يفعلون ذلك؟ إن "حقوق العناكب" ليست أولويات حتى بالنسبة إلى منظمات حقوق الحيوان، لذا فإن "السادى" الذى يسحق عنكبوتاً لن ينتابه أى خوف من العقاب.

إن التحليل العقلاني لأفعال غيرنا من الناس يتطلب تفسيرات واضحة، بما يتاح لنا من معلومات. وتشمل هذه المعلومات المعرفة بالناس أنفسهم، مع قدر كبير من المعارف الاجتماعية المشتركة، والتي تتراكم لدى كل منا بمرور الوقت وكننتاج للتجربة. فنحن نعلم، على سبيل المثال، أن الناس عموماً يبذلون جهداً كبيراً لعمل شيء إذا توافرت لهم الأسباب لذلك الفعل. إننا لا نرى أى سبب واضح لماذا كان على هذه الطفلة (بعد مشاقتها للقطعة) أن تقضى سنوات عديدة من عمرها فى إظهار الشفقة على الحيوان - خاصة اللاقاريات الضعيفة التى لا تجد من يدافع عنها - إذا كانت سرا وفي سريرتها ترغب فى إيذائها. وعلى الرغم من ذلك، فإننا

نستطيع أن نرى علاقة سببية واضحة بين حزننا الصادق، في بادئ الأمر، واهتمامها بعد ذلك بأن تتحاشى إيذاء الحيوانات.

وعلينا أن نبحث الأمر بصورة أعمق من ذلك قليلاً.. قالت الأم للطفلة إنها قد آدت وأفزعت القطعة، وكان من الممكن أن تضرها ضرراً خطيراً. وسألت الطفلة لماذا فعلت ذلك؟ فأخذت الطفلة تشرح وهي تبكى أنها أرادت أن تصحب القطعة في نزهة، وأنها رأت الكلاب يأخذها أصحابها للتمشية" وهم يسحبونها بمقود (حزام). إذن لماذا لا نفعل ذلك مع القطط؟ إن القطعة لم يكن لها "مقود" أو حزام. فصنعت لها.

وبذلك فقد حولت المعلومات الجديدة حكماً إلى "الجبال" من جانبنا بعيداً عن الحد والأذى المتعمد من الطفلة. إننا مرة أخرى نستطيع، وبالفعل نفعل ذلك، أن نطرح استقراء واستنتاجاً يفوق ويتعدى المعلومات التي أتتحت لنا. إنه من السهل أن نتخيل، وربما نتعاطف، مع طفلة تعيش في منزل به قطة. وأبواها يعاملان حيواناتهم الأليفة بلطف. وبإمكاننا أن نفهم أن الطفلة كان لديها علم كاف جعلنا ترى أن الكلاب والقطط متشابهة في أمور كثيرة، ولذا ظنت أن الخيط (أو الحبل) قد يؤدي عمل "المقود" إلى حد ما، وقد أدركت فوراً علامات الحزن التي بدت على القطعة.. نحن بإمكاننا تقبل ذلك. وأيضا أن الطفلة لم تكن تعرف أن القطط (وحتى الكلاب) تحتاج إلى التدريب على تحمل سير "المقود". ولم تكن تفهم أنه دون عمل "عقدة" في السير لتحمي رقبة الحيوان سوف يشتد التقاف الخيط حول الرقبة وسوف

يضيق عند مقاومة القطة، ويلزم لذلك الغوص في بحر من المعلومات عن هذه الخلفية، إننا قد فعل ذلك بلا أى جهد، لكن الطفلة قد لا تعلم شيئا عن كل ما نعتبره نحن أمرا مسلما به.

## ماذا يعلمنا هذا المثال؟

هذه القصة تثير عدة نقاط. أولاً: إن المضمون مهم جداً. هل تقبلنا كون الطفلة صادقة؟ إن كان الأمر كذلك، فإن هناك عنصراً في القصة قد يساعدنا في قناعتنا هذه، وهو رد فعل الأم بعد هذه الواقعة. إن غضبنا المبدئي والأولى يناسب معياراً مألوفاً لنا جميعاً عرفناه من القصص الخرافية في طفولتنا، ومن الحكايات عن الجن، وحكايات المسلسلات التلفزيونية، والعناوين الرئيسية في الصحف الصغيرة التي تسعى للإثارة: شخص ما "طيب" اعترضه شخص سيئ وقام بفعل شرير فكان رد فعل الشخص الأول هو الإدانة الأخلاقية. هذا ما سوف تحكيه الأم لها عن إدانة الشر، لكن الخطوة التالية هي أن نناقش مع الطفلة ما حدث، لتشرح لها ما تسببت فيه من أذى - دون إغفال ذكر العقوبة. وهذا أيضاً لا يتطابق مع النموذج الذي نرجوه: الأشرار عادة يُدانون ويُسحبون ويُنظر إليهم على أنهم "شياطين"، ويعاقبون، أو تكون نهايتهم سيئة لتتناسب مع فعلهم. ومن المتوقع أن الأم ستقيم طفلتها، وسنرى أنها سلطة موثوق بها عندما نقيم دوافع الطفلة؛ فلو أن الأم صدقت الطفلة، فربما يكون لدينا ما يبرر تصديقنا لهما.

ثانياً: إن تفسيرنا هذا به نوع من الاختصار في عدد الشروح الممكنة، فالقصة بداية لم تقدم أى أسباب لما فعلته الطفلة. لكننا عملياً ركزنا على وقائع قليلة من بين احتمالات كثيرة. وكان من الممكن أن يشمل هذا الجدل حول الأسباب

أمورا كثيرة مثل: مرض عقلي، قسوة، جيل، اشتهاة القتل، حب الاستطلاع، أو الاعتقاد بأن القطط كائنات مؤذية يجب أن تُقتل، أو ربما أن أحدا ما أمر الطفلة أن تقتل القطعة. وهذه هي الشروح التي عادة ما تصادفنا في المواقف التي يؤدي أو يُقتل فيها كائن ذو أحاسيس. ولقد عرفنا بالخبرة أن بعض الأسباب أكثر احتمالا من غيرها (فمعظم الأطفال الذين عرفناهم ليس من المحتمل أن يكونوا ممن يشتهون القتل). ونحن نحكم على هذه الاحتمالات على أساس "المعارف والمعلومات العامة" وهي عمليا تشمل انحيازات نمطية، وتحاملا غير مبرر. إن قرار الأم بالتحدث إلى ابنتها، مثلا، بدلاً من معاقبتها، قد يجعل مسألة المرض العقلي والقسوة أقل احتمالا. فمن الأفكار النمطية ذات الصلة بالموضوع أننا لا نتكلم مع المختلين عقليا (إلا إذا كنا متخصصين ومهنتنا هي أن نعالجهم). أما القسوة فنحن نعاقبهم (وإلا كان هذا تعاضيا عن سلوكهم وصدفا عنهم).

وكل معلومة إضافية تساعدنا في تضيق مجال التحري، حتى نصبح قادرين على الوصول إلى استنتاج بخصوص دوافع ومعتقدات الطفلة في زمن وجيز. وربما يلزم التكرار في هذا الصدد. وعلى الرغم من أن عقل الإنسان، من حيث المبدأ، يواجه استجابات وردود أفعال لا تعد ولا تحصى في أي موقف، فإنه في الواقع العملي تضيق هذه "المناهة" من الاحتمالات وتتحصر في قلة قليلة من الاستجابات القوية في الوقت الذي تكون فيه الاستجابات ذاتها جاهزة للانطلاق. والمعاناة في حالة عدم القدرة على الوصول إلى قرار تكون عموما متعلقة باثنين أو ثلاثة فقط من الاختيارات، وليس المئات أو الآلاف.

ثالثا: إن العواطف ترتبط ارتباطا كبيرا بالأخلاق. فمشاعرنا تجاه الطفلة تؤثر في حكمنا عليها. والبحث الحديث في مجال علم النفس، مثلا، قد أظهر أن التأثير في شعور الناس بالاشمئزاز أو الاحتقار دون معرفتهم يؤثر في أحكامهم

الأخلاقية. وعلى استعدادهم لمساعدة الآخرين... إلخ<sup>(٤٠)</sup>. وعندما لم يعرف من خضعوا للبحث والتجارب أسباب اشمئزازهم، وذلك بسبب حيلة بارعة في تصميم التجربة، ظنوا أن سبب عاطفة الاشمئزاز لديهم هو المهمة التي طلبت منهم (أى إصدار حكم أخلاقي). وكلما زاد اشمئزازنا من شخص أو سلوك معين، أظهرنا الإدانة الشديدة لهم<sup>(٤١)</sup>.

وأخيراً، فإن ما حدث للطفلة يثبت الطبيعة المراوغة للعواطف. وكى نفهم ذلك، فإننا نحتاج لمعرفة ما الذى كانت تشعر به وتحسه فى هذه اللحظة. ومن الواضح أن ذلك ليس بالإمكان، إننا لسنا فى مثل ظروفها، أو جذورها الاجتماعية، أو جيناتها... إلخ. وحتى اللغة لا تزودنا بالوصف الدقيق للعواطف، على الرغم من الفروق الطفيفة المتاحة فى الألفاظ.. ومع ذلك، فإننا نستطيع بناء "رواية مقبولة" عن تجربتها الدقيقة كما يلي:

إن رد الفعل الأول للطفلة كان "صدمة".. لقد توقعت قطة أليفة تسير خلفها، فهى لم تر هذا الحيوان العائلى المدلل يتصرف بهذه الطريقة ويتألم. وكانت صدمتها هذه درجة كبيرة مما يسميه علماء النفس "إثارة" وفرط انتباه، بسبب دفقة من "الأدرينالين" وزيادة فى ضربات القلب. وشد أو توتر عضلى، أو ما شابه، لكن دون أن تصاحب ذلك عاطفة سلبية أو ايجابية. إنها كانت مثل من يحفظ توازنه على قمة حادة للجبل، وهو يعلم أنه سوف يسقط بطريقة أو بأخرى، لكنه لا يعلم أى طريقة حتى الآن. ولما كانت الطفلة لم تعتد أو تألف هذا الشعور قبلاً، فقد تجمدت وهى تحملق فى القطة، دون أن تستطيع تفسير تجربتها هذه.

ثم وصلت والدة الطفلة، فأعطى سلوك الأم "المفتاح" الذى كانت تحتاجه الطفلة لتختار تفسيرها العاطفى لما حدث- وكان فى حالتها تفسيراً سلبياً للغاية- لما كانت

تَشعر به. لقد كانت تجربتها مؤلمة إزاء غضب الأم. وليست تجربة مُحفزة أو مُشجعة، ففهمت تأثير "الأدرينالين" على أنه خوف أو فرح ورعب، بدلاً من كونه إثارة أو نشاطاً زائداً، ولقد دعم هذا الفهم والتفسير الحوار الذى دار بينهما بعد ذلك.

ولو كانت الأم أنبتتها أو ضربتها، أو تجاهلت سلوكها، أو ابتسمت فى تسامح، فهل سيكون تفسير الطفلة لمشاعرها وسلوكها التالى مختلفاً؟

ويجب ألا نبالغ.. فهذه الطفلة حظها وافر؛ إذ إنها وُلدت فى بيئة من الطبقة المتوسطة التى تسودها المحبة، فكانت هذه الواقعة لا تتجاوز شيئاً من القلق، والالتزام بما يقره المجتمع، ومراعاة الاهتمام بالحيوان. إن أبويها يستجنان القسوة، وأصدقاءهما والأقارب يستحسنون الشفقة والسلوك السوى، وثقافتها تعرض لها صور الحيوانات على أنها "صديقة" و"بها لمسة إنسانية" (مثل أفلام ديزنى "Disney"). وليس هناك مأخذ واحد يستدعى "لفت نظر" هذه الطفلة سوى تكرار الرسالة التى تؤكد "أن تعذيب الحيوان يؤذيه وسوف يؤذيكَ"، بينما معاملته بلطف تشعره براحة وستكون لها مكافأة طيبة (أو ثواب).

وقد يحصل أطفال آخرون على "لمحات" توجههم لشيء ما. وتقودهم الرسائل فى عالمهم الخاص كى يفسروا ما يشعرون به بشكل إيجابى - الإشارات الداخلية التى تنشأ من عقولهم وأجسادهم - ويقترن سلوكهم بالإثابة (أى مكافأة) بدلاً من القلق والحزن (أى عقاب)، ومن ثم تكون أهمية ورود رسائل سريعة وسلبية بصفة مستمرة عن السلوك (وليس هذا عن الطفلة، التى تقع فريسة لفكرة "جوهر النفس"، وتغيير السلوك أسهل فهما للطفلة عن تغيير النفس). لقد ظهر من البحث والدراسات أن معظم أفعال القسوة من الأطفال تجاه الحيوان (وبالفعل تجاه أطفال آخرين) تحدث فى وسط جماعى، حيث يشجع المشاركون بعضهم بعضاً على

الإيذاء. ولا تصح المبالغة في ذلك أيضاً، فالقسوة في الصغر ليست دليلاً أو ضماناً على فطاعة السلوك في المستقبل (عند الكبر). فكثير من البالغين المحترمين اليوم كانوا قد ارتكبوا أفعالاً مفزعة ضد أي كائن حي في وقت ما، ليس مصادفة ولكن عن قصد (مثل أحد الأساقفة الذي رأيتَه في إحدى الرحلات يستخدم شوكة الطعام "ليهرس" بيا دهوراً بريئاً). ومعظم هذه "الجرائم" إما إنها لا تؤخذ في الحسبان، في عرف ثقافتنا، ولا تُعتبر "قسوة" (هل الدبابير تتألم؟) وإما إنها أمور نادرة وغير سارة، أو ذكريات مخجلة تدعو من يرتكبونها ليكونوا أنماطاً من البشر أكثر تلطفاً، وترقفاً، ونبلاً فيما بعد - في المستقبل.

إن الإشارات الواردة من أجسادنا تمدنا بالمعلومات التي نلزعنا؛ حتى نفهم تأثير الأحداث علينا وأهميتها بالنسبة إلينا، وتُخبرنا منظومة أحاسيسنا الخارجية بما يحدث، أما المنظومة الحركية فتُخبرنا بما نفعله تجاهها، وكى تكتمل الحلقة، يجب أن نفهم عواقب أفعالنا والتغيرات في العالم المحيط بنا. ولا يكفي أن نعرف أننا نأكل، أو حتى إن الطعام مذاقه حلو، لكننا يلزمنا أن نعرف ما سوف يُحدثه فينا كى نقرر إذا ما كنا سنأكله مرة ثانية أو أن علينا أن نتحاشاه فى المرة المقبلة. هل هذا الطعام يصلح "مزاجنا" وحالتنا النفسية، أو يسلمنا إلى النعاس، أو يجعلنا نشعر بالغثيان أو بالانتفاخ، أو بطنين ودوار بالرأس؟ هل نفضله أم لا، وكيف سيكون شعورنا بعده؟ هنا هو مجال التقييم، حيث تسيطر العواطف وتتحكم.

ويعتمد تقييم أى حدث أو تفاعل باعتباره شيئاً جيداً أو سيئاً، فى أبسط أحواله على الأقل، على التأثير المادى والجسدى لهذا الحدث فىنا، لقد احترق "فلان" من الفرن! فىنا سيكون أكثر حرصاً فى المستقبل. لقد خدع شخص ما "مريم"! فأقسمت ألا تتعامل مع هذا "الوعد" مرة أخرى. فالأحداث تبدو حقيقة أكثر بالنسبة إلينا إذا ما كانت تؤثر فىنا تأثيراً مباشراً؛ تسبب لنا الألم أو تمنحنا السعادة. إنها تعنيا أكثر ويكون لها مغزى أكبر، فى المجال العصبى، عندما تنتج أنماطاً للنشاط أكثر وضوحاً وتمييزاً ويكون الاحتمال الأكبر أنها سوف تغير سلوكنا فى المستقبل. إن أكل الطعام الذى يسبب لك القىء بالفعل، سوف يجعلك ترفضه مستقبلاً بدلاً من طعام عرفت أنه سبب الإعياء لشخص آخر، أو أن تكون قد قرأت عن وجبة طعام جعلت شخصاً ما يمرض، إلا أن أبسط التلميحات عن شىء يثير الإشمزاز، مثل

الحديث عن الجرائم، الفران، الأورام (كأمر عابر عندما يتكلمون عن اليهود) من الممكن أن تستحضر أنماطاً من القرف والاشمئزاز إلى حد ما.

وهناك أسلوب تُخلق به هذه الروابط العاطفية السلبية لإقصاء الآخر دون أن نُضمّنها في إطار من الرقة واللفظ، وذلك بأن نكرر الترابط اللفظي بتكرار مألوف وبصورة عابرة (أى "تغذف" بالتعليقات التي تبدو صادقة) ودون تأكيد ضخم وزائد. إن هذا يسمح لهذه الروابط بأن تقوى دون أن تثير معتقدات متصارعة ما يؤدي إلى أن يتحداها شخص ما ويُضعف تأثيرها. ومثل كل أساليب إقصاء الآخر، فإن هذا الأسلوب بسيط وإيحائي، ويستغل الميل الطبيعي للعقول بإيجاد الروابط بعلاقات سببية أو منطقية. وكل زعيم أو قائد من مرتكبي جرائم الإبادة الجماعية في التاريخ قد اتقن هذا الأسلوب ولم يحدث أي عمل وحشي دونه.

وتقدم العواطف بعض الأسباب التي تقود الناس إلى السلوك القاسي. ومع أن الدافع للفعل غير محدد وغامض وغير كاف؛ فإنه حتى يكون مؤثراً يتحتم أن يسير في مسارات تُطلق سلوكيات معينة؛ وهذه المسارات (القنوات) التي يستعملها البشر ليست سوى المعتقدات.. وبناء على ذلك، فإننا نلجأ إلى هذه "العناصر" الغريبة التي تسكن بالمشخ أو نقيم به: ما هي، كيف تتغير، وكيف يمكنها أن تجعلنا قساة؟

## الفصل السادس

### كيف تترسخ لدينا المعتقدات؟

إن ارتكاب الدولة أو إجازتها للعنف  
الجسماني تجاد جماعة محددة الهوية لا يمكن أن  
يحدث إلا إذا كان يسبقه عنف رمزي

( كارول ناجنجاست Carol Nagengast )

في كتاب ( A.L. Hinton, Annihilating Difference )

### ما المعتقدات ؟

منذ الوهلة الأولى التي نترك فيها الحديث عن العواطف، يبدو أن موضوع المعتقدات ثابت ويدعو للثقة والطمأنة، حيث بأخذنا إلى عالم المعرفة والإدراك. إن المعتقدات هي كيانات تحمل معلومات بها كل الإيحاءات العلمية والمنطقية التي يدل عليها هذا اللفظ. والمعتقدات، بما يربطها من صلات بالمنطق تُكوّن شبكات متسعة من المعارف التي نُجمع منها هوياتنا، والتي من خلالها نتفاعل مع العالم. ومثلها في ذلك مثل العبارات التي يمكن أن تكون صحيحة نحويًا أو غير صحيحة. لها معنى أو دون معانٍ، ونحن نملك قدرات رفيعة تجعلنا نستطيع التمييز والتفرقة

بينها. إن المعتقدات يمكن أيضا أن تكون حقيقية أو زائفة، وإذا اكتشفنا أنها زائفة نستطيع أن نصححها أو أن نتخلى عنها ونبذها.

و يتيح لنا ذلك أن "نخز ونغربل" معتقداتنا- إما باستخدام المنطق لاختبارها في مواجهة بعضها بعض وإما بتجميع الأدلة والشواهد حتى نختبرها في مقابل الحقيقة والواقع؛ وبالتمسك فقط بالصحيح منها سنخوذ على الفهم السليم للأمور. وعندما يتغير العالم حولنا، فإن معتقداتنا تتغير لتتنسق وتتناسب معه. ومادامت قدرتنا على التعقل والملاحظة غير مُعاقبة أو مُعطلة، فإننا نفترض أن معظم معتقداتنا حقيقية وصادقة. وكلما كان يقيننا بهذه المعتقدات قويا، تأكدنا أنها حقيقية. وبعبارة أخرى، إننا نرى أنه مهما تدفقت الهرمونات، وتحولت "الأمزجة"، وتزايدت أو قلت المشاعر، فحين نستطيع أن نثق في معتقداتنا بأنها متجذرة ومتأصلة بثبات في العالم الحقيقي.

## الشواهد والأسباب:

هذه صورة حكيمة وقريبة إلى النفس، وهي ليست خطأ بالمرة أو كلية. إن بعض معتقداتنا تستمد حقيقتها من المنطق: أي من علاقاتها الرمزية بمعتقدات أخرى. تدبر الأمثلة الثلاثة التالية:

$$120 + 4 = 124 \bullet$$

- الأفكار "المائعة" لا يمكن أن تكون خضراء في الوقت نفسه.
- إذا أراد كل الأعداء قتلك وكان "قريد" عدوا، إذن فهو يريد أن يقتلك.

إنك لن تستطيع أن تهرب من هذه القناعات إذا فهمت كيف تستخدم الرموز المتضمنة فيها (حسب قواعد منظومة الرموز)، وحقيقتنا أو صدقنا ليست له علاقة

بأسلوب وواقع العالم (إننا لا نعتقد أن الأفكار لها ألوان إلا إذا كان هناك انسجام متزامن معيا) فقد يكون ذلك حقيقيا في أى عالم، مادامت هذه الرموز تستخدم بأسلوب استخدامنا نفسه لها.

وبالمثل، فإن بعض معتقداتنا تستمد من ملاحظتنا وهى مُعرضة للاختبار بالدليل. ولعله قول "بلا قيمة" لو قلنا "بينما أكتب فإبنى أعتقد أننى أنظر إلى جهاز مراقبة الصورة بالحاسب، لكن هذا شىء حقيقى، فأنا عندما أدير رأسى سوف يتغير اعتقادى تبعاً لذلك. إن كثيرا من معتقداتنا لا ترتبط مباشرة وبصورة كبيرة بمدخلاتنا الحسية. لكنها على الرغم من ذلك تتأثر بها. وإن كنت تعتقد أن اليوم هو يوم الجمعة، وجاءت نشرة أخبار الصباح لتوهن عزمك وتؤكد أن اليوم هو الخميس فإنك سوف تصحح اعتقادك فورا. وعلى الرغم من أنك سوف يسرك أن تظل متأثرا بوهم أن عطلة نهاية الأسبوع ليست ببعيد، كما أن معرفتك باليوم الصحيح فائدة ومكسب. فالمعتقدات الصحيحة تنتج لنا تنبؤات صحيحة وهذه بدورها تمكننا من سيطرة أكبر على العالم إضافة إلى أننا نحميننا من خيبة الأمل أو التوقعات. وقد أدى اختبار الأدلة والشواهد إلى تقدم كبير فى العلم وفى الطب. فالحقائق التى يكشف عنها عارضة ومحتملة لأنها تعتمد على حالة الواقع والحقيقة وعلى قدرتنا على تسييرها وتوجيهها فى الوجهة الصحيحة.

ولو أننا اخترنا كل اعتقاد نصادفه بشدة وبصرامة قبل تقبله والموافقة عليه لكانا جميعا من أتباع الفلسفة الوضعية اليقينية، ولأصبحت العلاقة بين ما نفكر فيه وبين ما هو قائم بالفعل أقوى وأعظم. وسوف نكون أيضا غير آمنين بلا نبأية وغير فاهمين بصورة لا تصدق. وكثير جدا مما نعتقد نأخذُه عن ثقة لدرجة أننا لو أخذنا بمعيار الدليل فسوف نتكلمش ونتقلص أفاق إدراكنا إلى مجال ضئيل وغير قادر على التخيل، حتى تجاه المعيار الرحب الذى يتقبل أى اعتقاد يؤكد العلم. فبيناك الكثير جدا الذى لم

يستطع العلماء اختباره حتى الآن. وكل المعتقدات شديدة الإثارة في تاريخ الإنسانية سوف تُترك وتنبأ باعتبارها صعبة (أو مستحيلة الاختبار).

وبالطبع؛ فإن الإثارة يمكن أن تكون إما سلبية وإما إيجابية. وبعض المعتقدات المثيرة أيضاً خطيرة، لكن أسلوب التعامل مع هذه المشكلة ليس الإصرار على أن كل المعتقدات تركز على العقل والدليل، كما يبدو من بعض أتباع المذهب العقلي. وهذا أخلاقياً شيء مثير للشك، حيث إن كثيراً من المعتقدات غير العقلانية ليست شديدة الضرر، أو غير ضارة بالفعل، وقد تبعث على الارتياح. إنها أيضاً غير واقعية ليس لأنها تحاول أن تغرينا بأن نرفع العلم والعلماء على قاعدة السلطة؛ فهذا موقع غير قابل لشيء يعتمد على عدم اليقين، وليس عقيدة. وقد يساعد التعليم والتدريب العلمي على "فتح" بعض العقول، لكنها محاولة ليست كافية، فهناك كثير وعديد حولنا من ذوى التعليم العالى و/ أو من المتدربين علمياً وهم متعصبون ولديهم استعداد لمصادرة ورفض أى رأى بديل دون إعادة النظر، ولا داعى لديهم لأى فحص لدليل أو برهان، لأنهم يشعرون بشدة أنهم دائماً على صواب. وإلى أن نبلغ القدرة على إعادة تشكيل الكائن البشرى، سوف تبقى معنا "هنا" الأفكار المغلوطة والتي بلا أساس.

إن إحدى الوسائل التي يدعم بها الناس أفكارهم المفضلة والمغلوطة والتي بلا أساس هو أن يُخَفِّضوا مستويات برهانهم (وعلى العكس من ذلك فالأفكار غير المرغوبة تخضع للفحص والتدقيق الذي يليق بأكبر الفلاسفة المتشككين). ولو أن "جيم"، الذي يعتقد في وجود الأشباح، أقسم أنه سمع ضوضاء غريبة ليلاً في منزل قديم مهجور؛ فإنه يؤسس للاعتقاد بأن الأشباح هي التي أصدرت هذه الأصوات على دليل واحد وضعيف ويتجاهل التفسيرات الأخرى. إن "جيم" قد لا يتعامل مع هذا الدليل دائماً باعتباره دليلاً حيويًا- ففي مسكنه الحديث قد يُفعل الأصوات و

"الصرير" الطارئ كشيء صادر عن "السخان" أو "السباكة" أو من عند الجيران. لكنه لو كان اختار رؤية عالمية تشمل الأشباح؛ فإنه يحتاج لما يدعم هذا الاعتقاد؛ ولذلك فإن تفسيره عن اعتقاده بوجود الأشباح يتغير بتغير الأماكن التي يظن أن الأشباح توجد بها.

## العلم واليقين :

إن العلماء، عموماً، لم يتبعوا رؤية "جيم" عن العالم، لكن العلماء لا يستطيعون إثبات أن الأشباح لا وجود لها. وعمل المخ لا يختص بتوليد اليقين ولكن عمله عن كيف تُنظَّم وتكيف الاحتمالات. والعلم، وهو أحد المنتجات الأكثر فاعلية لهذا المحيط أو "البحر" من الخلايا العصبية، لا "يثبت" شيئاً لأن الإثبات يعنى اليقين، وهو ينتمى إلى مملكة المنطق والرياضيات. والعلم هو مسعى ومحولة إنسانية فقط، هدفها هو نظريات أفضل وليس نظريات مثالية تصل إلى حد الكمال؛ إنها تفسيرات تقترب من الحقيقة ولذا فهي تقدم تنبؤات أكثر دقة. وبعض التفسيرات تزودنا بشيء ملائم جداً، مثل نظرية "النشوء والارتقاء"، وبعض آخر مثل علم الفلك يقدم شيئاً لا يلائم أحوال العالم<sup>(1)</sup>، إلا أن ما يناسبني قد لا يلائمك أنت تماماً، وعلى الرغم من أن الجدل حول صحة المعتقد والكفاءة والبساطة والمعقولة محاولة يجب أن يكون لها وزنها، فهي غالباً تُختصر بمجرد قوة الاعتقاد الإنساني. وحتى الإشارات من الحقيقة لا تستطيع دائماً تغيير أو تحويل توقعات العقل، فربما يجب علينا ألا نندش أن مجرد المناقشة للحقائق قد تفشل.

إن الدليل والبرهان والعقلانية تعطينا الكثير، لكنها لا تعطينا بنفسها أسباباً لأن نهتم كثيراً بالمعتقدات التي تؤيدها وتدعمها (وحب الحقيقة أحد الدوافع التي يشار لها غالباً - ويبالغ فيه غالباً. مثل معظم أنواع الحب. فإنه من النادر أن يكون

نقياً وبلا شروط فيما يبدو). أنا مثلاً أعتقد أن نظرية نقاط الاشتباك العصبى عن كيف "تحدث" الخلايا العصبية معاً هي شىء مثير للاهتمام والانتباه للغاية، وهم وله تأثير. غير أنه لو كان لشخص ما أن يقنعنى أن هذه النظرية كانت خطأ فإن قلبى لن ينفطر، وعندما أتعامل مع مقالات علمية تقترح أن النظرية قد تحتاج إلى تعديلات، فإننى لا أبكى بحرقة (ولا أفذف بالجريدة بعيداً باحتقار وأذهب لألقى بقبلة في معمل العالم كاتب المقال)<sup>(1)</sup>. وقد أكون من المهتمين بالثقافة؛ فقد قضيت سنوات من عمرى فى دراسة علم الأعصاب؛ لكننى بعد كل هذا لم أستثمر أو أستغل المصادر العاطفية الضخمة فى نظرية نقاط الاشتباك بين الخلايا العصبية، أو أتمسك بها.

وهذا هو الوضع والموقف العلمى والعملى، فهو محاولة للحد من الالتزام العاطفى بالنظريات والافتراضات التى قد "تتقلب" ويعاد النظر فيها. والمعتقدات المحملة بالعواطف تتنامى وتمتد، بالطبع، خصوصاً عندما تتضمنها وتحكمها مسألة المنزلة والمكانة، لكن العلماء الذين يصبحون مرتبطين جداً بنظرياتهم ويتمسكون بها يخاطرون بأن يسخر منهم نظراًؤهم. وكما ذكرنا سابقاً، فإن القتل والمراجعة شىء مقبول فى "الحكايات" المتداولة فى محيط العلماء الذين يتحدثون عن أنفسهم وعملهم.

وسنرى إذا ما كان اهتمامنا بالمعتقد حاسم بشأن ما إذا كنا سوف نعمل وفقه ونلتزم به! إن اهتمامنا يعتمد على منشأ الاعتقاد أى من أين جاء هذا المعتقد، وما مقدار قوته، وما شعورنا تجاهه. وعلياً أن نفكر فى كل من هذه الأمور الثلاثة تبعاً:

## مصادر المعتقد (من أين جاء؟):

إن نماذج النشاط العصبي، كما رأينا، تنطلق من، وترتبط بعلاقة متبادلة مع، الإشارات الصادرة من ثلاثة مصادر: أنماط عصبية أخرى، مدخلات حسية من الخارج، ومدخلات من الجسم. ومن حيث المبدأ، وبالنسبة إلى أى خلية عصبية فى المخ يمكننا قياس نسب مدخلاتها التى تأتى مباشرة من العالم الخارجى، ومن إشارات داخل الجسم، ومن الخلايا العصبية الأخرى. وقد نعتقد أن هذه الجهات الثلاث تتنافس كى تؤثر فى الخلايا العصبية التى ترسل لها الإشارات، فعندما تكون الإشارات من العالم الخارجى قوية وواضحة (مثل الصوت المفاجئ الذى يأتى من خلفك وينترعك من أحلام اليقظة التى كنت تستمتع بها)؛ فإن مسار نشاطها سيكون من "القاع إلى أعلى"، وعندما تكون الإشارات ضعيفة أو غامضة، فإن دور التفسير والاستنباط "من القمة إلى أسفل" يتزايد. أما عندما تصحب الإشارات تغييرات فى حالة الجسم، فإنها تستطيع، كما رأينا فى الفصل السابق، أن تصبح أقوى بدرجة كبيرة.

والمعتقدات القوية تعنى الكثير بالنسبة إلينا عن غيرها الأضعف منها، وهذا "المعنى" يشمل أربعة أوجه متداخلة للمعتقد ويتوقف بعضها على بعض: أهميته (مقدار فكرنا وفعلنا الذى يركز على افتراض أن المعتقد حقيقى)، علاقته بالأفكار الأخرى (تراء دلالة المعانى المصاحبة للفكرة)، قربها من المدخلات الحسية (هل المعتقد ملموس وواقعى أم مجرد، أى اعتماده على، وقابليته للاختبار، مقابل الحقيقة) وصلته بالإشارات الداخلية (معناه العاطفى، وقيمه بالنسبة إلينا). إن المعتقدات التى تستند إلى ملاحظة حسية تكون أضعف؛ لأن العالم الذى تنشأ عنه

يمكن أن يتغير، أو يتغير بالفعل. أما المعتقدات التي تعتمد على المنطق فهي معرضة لمخاطر أخطاء التفكير أو الاستنتاج من الوقائع؛ فالتغيير النقيض مثلاً من الممكن أن يحول الافتراضات الواضحة لجيل ما إلى موضوع للسخرية عند الجيل التالي. والمعتقدات التي ترتبط بعواطف قوية لا تحتاج أن تتبع حقيقة متغيرة، ولا أن تزعمها أخطاء التفكير؛ ذلك لأن قوتها تستمد طاقتها من المصدر الثالث للإشارات العصبية، الأعضاء الداخلية للجسم (الأحشاء)، وهي لا تتغير إلا عندما تتغير المشاعر فقط- وقد لا يحدث هذا على الإطلاق، وبناء على ذلك فإنها يمكن أن تصبح قوية وصلبة بدرجة كبيرة.

### قوة المعتقد:

تعتمد قوة أنماط النشاط العصبي، كما رأينا في الفصل الخامس، على القوة الدافعة لنقاط الاشتباك العصبي (أى الاحتمال الذى تنتقل به الإشارات بين الخلايا العصبية)، والعمليات الكيميائية الحيوية التي تسمح لنقاط الاشتباك العصبي بأن تتغير عمليات معقدة للغاية، ولذا نتاح لى مساحة كافية لوصفها<sup>(3)</sup>. وكفى القول إن نقاط الاشتباك العصبي يمكنها أن تغير انزائها الكيماوى وقوتها، حيث تجعل إرسال الإشارات أكثر احتمالاً، وأن هذه التقوية تحدث عندما تكون الخلايا العصبية التي تربطها (أو نهيى الاشتباك بينها) يجدد تنشيطها معاً بصفة متكررة (والخلايا العصبية التي تنطلق معاً تستبك أو ترتبط معاً، كما يقال). وقد يحدث هذا عندما تُنبه خلية عصبية خلية ثانية، أو عندما تُطلق الخليتان إشارات أخرى فجأة وفى وقت واحد، وسوف تتدخل الأنماط المتصارعة، أو أى شكل من أشكال التثبيط

والمنع للتنشيط المتبادل ولتقوية نقاط الاشتباك العصبى التى سوف تقويها الأنماط الثابتة والمتكررة بصفة متوالية.

والمعتقدات التى نميل إليها أكثر من كل ما عداها هى التى تُسبب أنماطا واضحة وقوية من النشاط العصبى وتتواعم بسهولة مع الأنماط التى نملكها بالفعل. إنها "مثلنا"، ونحن عموماً نفضل ما يماثلنا، خصوصا أن المعتقدات التى نتقبلها تصبح مكونات من هويتنا ككل. إنها يجب أن تُضيف لنا شيئا جديداً (ولماذا نزعج أنفسنا؟)، ويجب عليها - إن أمكن - فك "أى" عقدة" فى "شبكة" الأعصاب أو تمريرها فى مسارات جانبية، إذ إن ذلك سيقلل الإحساس غير المريح بالصراع، وسوف يتيح لنا مشاعر أفضل. وإذا كانت المعتقدات ستشكل أنماطا ثابتة، فلا بد أن تكون هذه الأنماط واضحة ومستمرة وبسيطة نسبياً. ولا بد أيضا أن يعززها داعم عاطفى يساعدها فى "نقش" أو "حفر" تأثيرها فى القشرة الخارجية للمخ.

ويعتمد إقصاء الآخر على المعتقدات التى تنطبق عليها كل هذه السمات والمطالبات. والرسائل الأساسية بهذا الخصوص تملأ بطرق كثيرة، بأحكام أو بعدم تعمد ظاهر، لكن فى باطن الأمر تكون لها "حكاية" واضحة وبسيطة وذات معتقدات ثلاثة رئيسية. أولها هو: هؤلاء الناس مختلفون عنا، ومثيرون للاشمئزاز، وليسوا مثلك (وليسوا بشرا بصورة كاملة). وثانيها هو: هؤلاء الناس يريدون إيداعك، أو قد أدوك بالفعل أو أدوا ناسا مثلك. وثالثها هو: إزاحة هؤلاء الناس وإقصاؤهم سوف يحل مشكلاتك، وإقصاء الآخر بشيء من البراعة يقدم المبدأ والتعاليم ويجهز المؤيدين ويستهدف جمهورا مقصودا بعينه، وذلك حتى يمكن "للفائد" أن يظهر على أنه "واحد منا"، "رجل الشعب". وبذلك تكتسب أفكارهم هذا البريق النبيل للمنطق الذى نرغب أن يقترن بـ "ناس مثلنا". والروايات عن إقصاء الآخر تمد السامعين أيضا بشرح للمشكلات التى لا يستطيعون تفسيرها أو تحليلها

بأنفسهم - والإيديولوجيات هي العلاج- وهذا الاختزال والتخفيض للصراع الذهني هو ما يجذبنا إليهم "ويعجبنا فيهم". ومن المهم أن تكون "حكاياتهم" لها إطار من اللغة المألوفة التي تناسب الثقافة المحلية لمن يستمعون إليهم، فهذا يُسهل مرور الأفكار الرئيسية بلطف أكثر في العقول التي قد تتعثر في فهم تأثيراتها الخطيرة<sup>(٤)</sup>. ومن الوقاحة المتزايدة ونشاط الجماهير في "تورميرج" -إلى اللغة الشديدة والمؤذية في راديو "رواندا"- يُتخذ إقصاء الآخر وسيلة فعالة تُستخدم فيها العواطف القوية.

### شعورنا تجاه المعتقدات:

يعتمد المعنى العاطفي للمعتقد على المُدخل العاطفي الذي يوجد أثناء تنشيط النمط العصبي للمعتقد بواسطة الإشارات التي تنساب خلاله. وقد تكون لهذا المُدخل علاقة بمحتوى المعتقد.. وعلى سبيل المثال، فإن الادعاء بأن الفئران تُثير الاشمزاز قد يُنشِط أنماطاً تشمل الشعور بالاشمزاز (ومن الممكن أن يصل هذا الشعور إلى جذع المخ والمعدة، فهما المعنيان بهذا الشعور)، ولكن العاطفة قد لا يكون لها مثل هذه الصلة بالمعتقد وعلى الرغم من ذلك تؤثر فيه. ولو عرفت، وأزعك ذلك، أن الفئران شوهدت في شارع يقطنه المهاجرون، فقد تربط بين مشاعرك السلبية تجاه الفئران وبين المهاجرين (سواء كان ذلك بوعي أو دون وعي) خصوصا إن كنت بالفعل تكره المهاجرين. وقد تكون هناك فئران في الحي الراقي المجاور لك أيضا، ولم يجذبها المهاجرون للمنطقة؛ لكن جذبها الطعام الذي يلقيه جيرانك للطيور، غير أن "وصمة الاشمزاز" التي اتخذتها لن تتبدد أو تزول (إنه من الأسهل لوم المهاجرين بدلا من إفساد علاقاتك بجيرانك).

إننا غالبًا ما نفكر في المعتقدات باعتبارها كيانات محايدة، أو من قاطنى المملكة العقلانية الهادئة، لكن المعتقدات من الممكن أن تكون مُحَمَّلة بأحمال عاطفية ثقيلة. وبصرف النظر عن تأثيرات المضمون التى ذكرناها سابقًا، هناك مصدران لهذه القيمة المضافة. الأول هو أن كثيرًا من معتقداتنا تنشأ من "ناس" آخرين ممن نكن لهم مشاعر قوية. والثانى هو أن المعتقدات ذاتها لها مضامين تقييمية لأنها عبارة عن تنبؤات بخصوص ما يجب أن يكون عليه حالة العالم الواقعى. والتنبؤات التى تتأكد أو تتعارض ليست محايدة لأن البشر، ببساطة، ليسو آلات "كمبيوتر". وما يتأكد منها يقوى إحساسنا بالسيطرة وله تأثير مطمئن، أما ما يتعارض فيضعف إحساسنا ويثبط مشاعرنا<sup>(٤)</sup>. إننا لا نأبه كثيرًا بالمعتقدات، وتأثيراتها هى الأهم، لأن المعتقدات التى نُوليها أشد الاعتزاز يمكن أن تتبدل وتتحوّل.

## المعتقدات هى توقعات:

إن المعتقدات مثل كل "الأثاث الذهنى"، تعتمد على أنماط النشاط العصبى. وكى نتضح المعتقدات أو تتجسد على هيئة فكر أو كلمة أو كمقترحات معينة، فعليها أن تتشظ الأنماط التى تساند الرموز المرتبطة بها، إلا أن المعتقدات لا يلزم أن تكون واضحة بيذا الشكل حتى تؤثر فى السلوك. وكما رأينا، فى حالة أطباف العواطف فى الفصل السابق، فإن تنشيط نمط عصبى ما لا يحتاج أن ينشط كل عنصر مشارك فى هذا النمط. ومن المفيد هنا أن نفكر فى المعتقدات على أنها توقعات.. أى تنبؤات عما يحتمل أن يكون العالم عليه. إنك قبل أن تمد يدك إلى شىء ما؛ فمن الممكن أن يقال إنك لديك كثير من المعتقدات عما سوف تحسه يدك وأنت تحركها، وبأى شكل

سوف تمسك يدك بهذا الشيء. ويصدر بذهنك باستمرار هذه التنبؤات عن التفاعل مع الأشياء. وعادة نحن لا نلاحظ هذه الأمور أو الأحاسيس إلا إذا اتضح أن توقعاتنا خطأ. وإذا ما استحكك دافع ما، قد تفصح عن بعضها باللغة، ولن تكون هناك حاجة لتفعل ذلك دائما. ومنظومة الرموز هي التي تزودنا بـ "العملة" التي تسمح لنا بالتعبير عن أنفسنا، إما لأنفسنا وإما لغيرنا، وإذا لم يوجد هذا الدافع للتواصل: فإن معظم تنبؤاتنا تؤدي عملها دون أن يتعرف عليها أحد.

وإذا نظرنا إلى المعتقدات على أنها توقعات؛ فإن ذلك يتيح لنا التوسع في فئات وأصناف المعتقدات لأبعد من النماذج الفلسفية التقليدية ذات السياقات التي نغير عنها بوعي كامل. وهناك أبحاث كثيرة ترى أن المعتقدات لا يلزم أن تكون مُدركة بالوعي حتى يُمكنها أن تؤثر في السلوك<sup>(1)</sup>، وباعتبارها نوعا من التوقعات، فإن المعتقدات تكشف عن نفسها كمعابر تصل بين الحقيقي والمحتمل، فتصل عالمين من الماضي والمستقبل. إن اعتقادك بأن الشمس سوف تشرق غدا يعتمد على قيمة ثابتة من الحياة، وهي أن الأيام التي مضت تشهد أنها لم تخلف موعد شروقها، وبما أن المعتقدات تخلقها التجربة والخبرة؛ فهي تشمل افتراضات عما قد كان من ذكريات أو ما كان قد حدث<sup>(7)</sup>.

أما المعتقدات الأكثر تجرّداً وتعقيداً؛ فمن الممكن أن ننظر إليها وكأنها مجموعة من التنبؤات المترابطة. وعلى سبيل المثال، فإن الاعتقاد بأن قدماء المصريين عبدوا الشمس يقودنا إلى التوقع بأننا لو قرأنا مادة تاريخية عن هذا العصر قد نجد الدليل على ذلك. (وقد يكون هذا الادعاء بسبب التنبؤات عن وجود رسوم لقرص الشمس أو صور الدفن التي تشير إلى الشمس ضمن طقوس دينية). ومن حيث المبدأ، يمكن أن تكون هذه التنبؤات مفيدة في اختبار هذا الافتراض، ربما بإجراء بحث علمي عن الطقوس المصرية، أو بالذهاب لمشاهدة المعابد

والأهرامات. وعلى أرض الواقع؛ فإننا عملياً لن يكون لدينا الوقت كي نفحص كل شيء بأنفسنا. ولذا فإن عديداً من المعتقدات تُنقل وتُرحل، أحياناً بالجملة ودون تعديلات، إلى غيرنا من الناس.

## المعتقدات الاجتماعية :

نحن جميعاً نعتمد على الآخرين في الحصول على المعلومات عن العالم؛ لأننا ليس لدينا الوقت أو الطاقة أو الخبرة لنتحقق بأنفسنا. إننا أساساً نحتاج لغيرنا من الناس كي يعلمونا كيف نستخدم اللغة، وكيف نسمى ونفهم مشاعرنا وسلوكياتنا، وكيف ندير تفاعلاتنا الاجتماعية، وكيف نفرق بين المقبول وغير المقبول من المعتقدات والأفكار والعادات والأعراف والتقاليد. ولو وقعنا في براثن الشك في عالم مضطرب ومتقلب، فإننا نلجأ إلى آراء أناس نثق بهم ونتخذ حكمهم كي نُدعم ونقوى آراءنا الخاصة.

ولو اعتبرنا المعتقدات تنبؤات، فإن ذلك له نتيجة أخرى. وقد أكد البحث الفلسفي عن المعتقدات مسألة صدقها كعبارات (مقترحات أو افتراضات)، لكن المعتقدات قد لا يُعبر عنها دائماً في صورة افتراضات وقد يتضح أن التنبؤات حقيقية أو زائفة، لذا يلزم التحقق منها أولاً. إن المعتقدات افتراضات لها من القوة ما يمكن أن تحدث فعلاً ما، ونحن نميل إلى أن نتوافق معها إلى أن يتضح شيء آخر. والمعتقدات التي لا يتم التحقق منها، أو بالفعل لا يمكن التحقق منها إطلاقاً قد تُقبل على نطاق واسع على الرغم من ذلك. ويصبح السؤال الأساسي في مثل هذه الحالة ليس هو: "هل هي صادقة وحقيقية؟"، بل هو: "هل تم تحديدها بشيء آخر؟". ولو وثقتنا في معتقد ما، أو في شخص ما، فقد لا يكون لذلك دخل كبير بعلاقة هذا المعتقد أو الشخص بالحقيقة، ما دامت ثقتنا فيما ليست موضع شك أو تساؤل.

أما بخصوص المدركات الحسية، فإننا نميل إلى أن نثق بها أكثر إذا ما استمرت لوقت ومدى طويل، وإذا تطابقت مع ملاحظات عبر حواس مختلفة. فالشخص "الملموس" والمجسم الذي يعبر "المجال الواقعي" باستمرار والذي صورته المرئية ثابتة ولا تهتز هو شخص حقيقي، وليس من ضرب التهيؤات. والبيئة المادية، والكون الذي نحن فيه مكان هادئ ومستقر نسبيا، ولا يُقدّم بشراً لهم مدخلات متناقضة منطقياً (على الأقل إلى أن تتطور المدخلات بدرجة تطور ميكانيكا الكم المتحورة التي ستواجهها موجات هي أيضاً جسيمات ضئيلة، وكل العجائب والغرائب المضادة للحدس والفهم تكون تابعة للمشهد دون الذري المتعرق بباطن الجسيمات الأصغر من الذرة)، لذا فإنه من الأسلم أن نفترض أن أى صراعات بين أنماط النشاط العصبى هي، تقريبا، خطأنا نحن وليست خطأ الكون، والتوتر الناشئ من هذه الصراعات والحاجة للتحكم التى تدفعنا إلى أن نزينها؛ تحثنا على امتلاك نظريات أكثر ثقة وانضباطاً عن كيفية عمل العالم الواقعي. والمؤثرات المستمرة موثوق بها، أما المؤثرات غير المستمرة فهى تشير إلى خطأ ما. وعلاوة على ذلك، فإننا نميل إلى أن نُقرن المؤثرات غير السارة بالصراع؛ لأن الصراع غير سار، أما المؤثرات السارة فإننا نُقرنها بكل ما هو جدير بالثقة من جانبنا.

والمدركات الاجتماعية لا تحمل مثل هذه الضمانات؛ لأن الأفراد يستطيعون إحداث الصراع ويحدثونه بالفعل. لكننا نعتمد على القاعدة نفسها التى نشأت عن تفاعلنا مع الواقع المادى: "ثق فى المدخلات السارة والمستمرة. واحذر المدخلات غير السارة والمتغيرة". ولذلك فإننا نميل إلى أن نثق فى الأخبار الواردة من مصادر عديدة أكثر من تلك التى ترد من شخص واحد، والمعلومات التى تتطابق مع توقعاتنا أكثر من التى تتعارض معها. والادعاءات التى تأتى من أناس نحبيهم أو

نحترمهم أكثر من التي تأتي ممن لا نحترمهم أو نحجبهم. ويعتمد مقدار ثققتنا بأراء شخص معين عن موضوع ما على عدد من العوامل؛ وهي تشمل مقدار إعجابنا بهذه الأراء، وما تعنيه بالنسبة إلينا، وهل ثبت فيما مضى أنه يمكن الاعتماد عليها، وما رأى الناس الذين نثق بهم فى هذه الأراء. ويعتمد ذلك أيضا على قيمتها وصمودها اجتماعيا، كما أن الشخص الذى يُثبت معرفته وقيمه (بأن يحصل على لقب أستاذ" مثلاً) يفترض أنه أفضل منا فى التنبؤ بمظاهر الواقع والتحكم فيها.

ولسوء الحظ، فإن المعتقدات غالبًا ما تعتمد كثيرًا على نفس أفراد الجماعة الذين نلجأ إليهم عندما تتم معارضة هذه المعتقدات، ذلك لأنهم هم ذاتهم الناس الذين تعلمنا منهم معتقداتنا فى المقام الأول. وهم، باعتبارهم شهودًا مستقلين، قد يتجاوزون عن كثير مما نرغبه، وإضافة إلى ذلك؛ فإن قوة وديناميكية الجماعة يمكن أن تُحدث ضغطًا على الأعضاء المخالفين، فيكون التضخيم لشيء من التناغم والاتساق المصطنع والمتكلف<sup>(٨)</sup>، وقد يجر ذلك الأعضاء إلى حكم إيجابى مُضلل على "الوزن" الاجتماعى، أو القيمة وراء أى فكرة. ولو أن أى فرد (على الأقل كل من يقال إنه مهم أو ذو حيثية) يبدو أنه يوافق على رأى معين عن المرأة أو الجنس الأسود، مثلاً، سيكون مقبولاً (لأنه لا توجد معارضة صريحة لهذا الرأى)، إذن فأين هى إشارات الصراع التى من الممكن أن تحفز أى شخص على أن يُعيد النظر فى هذه المعتقدات ويعتق معتقدات جديدة؟

وتكون المساندة والدعم الاجتماعى لازماً وضرورياً بصفة خاصة، عندما يتساءل الناس عما إذا كانت المعتقدات والأفعال التى تنشأ عنها لها ما يبررها. ويعنى ذلك ما هو أكثر من أن لها أسباباً جيدة (مهما حدد الفرد "جودة" الأسباب) لأن الاعتقاد أو الفعل دون وجود هذه الأسباب ليس نشاطاً محايداً، ويسبب لنا عدم الارتياح. ومن يتصرف بناء على معتقدات يعرف أنها غير مبررة سيكون معرضاً

للقوع فريسة للصراع. خصوصا إذا أدرك الأسباب التي تمنع هذا التصرف أو الفعل (مثل الموانع الأخلاقية)، وعلى الرغم من ذلك فقد تكون لديه رغبة قوية في هذا الفعل، وسيدفعه ذلك إلى أن يبحث عن المبررات.

وكيف تُبرر الأفعال والمعتقدات المرتبطة بها؟ بالبحث عن الأسباب. وبالنسبة إلى المخ، فإن هذه تُعتبر أنماطا من النشاط يمكنها أن تعيد مسارات الإشارات العصبية، وتصرفها بعيدا عن نقطة الصراع. وبذلك تُد من مشاعر عدم الارتياح التي يُثيرها الصراع. وعلى سبيل المثال. فإن الحديث عن فعل قاس تجاه أشخاص لهم ردود فعل ممتدحة ومقبولة سوف يجعل فُعلك في مقام القسوة شرعا وقانونا. خصوصا إذا كان هؤلاء الأشخاص محترمين ومحبوبين. وإن صادف هذا الفعل الاستحسان فتستكون التجربة نوعا من المكافأة، مما سيعادل الإشارات السلبية بإشارات إيجابية. ويُحدث إقصاء الآخر التأثير نفسه. "إيذاء الناس خطأ، إلا أنني أريد إيذاء هؤلاء الناس"، وفي هذا تحديد وإشارة إلى حل سبيل-إنهم حقيقة ليسوا "ناس" أصلا.

## المعتقدات والهوية:

إن أكثر معتقداتنا قوة تُهمنا بدرجة كبيرة. وأي تحديات أو مخالفة لها يمكن أن تُشكل ضررا خطيرا على صحتنا، فالمعتقدات تهيم على ساحتنا المعرفية وتُسهم إسهاما كبيرا في إحساسنا بذواتنا. وكلنا لنا معتقداتنا التي نعتبرها مهمة جدا بالنسبة إلينا؛ بحيث إنه لو أصابها ارتداد أو انقلبت إلى النقيض؛ فإننا لن نفكر في النتيجة على هذا النحو: "أنا معتقد ومختلف"، ولكن "أنا كشخص مختلف". فمن الصعب تصور هتلر بنون معاداته للسامية. ولأن المعتقدات انراخة جزء كبير

جدا منا، فنحن ندافع عنها ضد أي تحديات، تماما كما ندافع عن أنفسنا؛ بأن نتحاشى أو نتجاهل الإثارة والاستفزاز، ونغفل الأسباب التي تقلل من قيمتها وتأثيرها، وأحيانا بأن نتعدى على من يهاجمها<sup>(\*)</sup>.

وفى بعض الأحيان نعرف البشر بمعتقداتهم ونطابق بينها وبينهم باعتبار أن المعتقدات المميزة تُعين هوية أو شخصية الناس كما تحدها سلوكياتهم الخاصة. وتعتمد ماهية هذه المعتقدات على كونها، جزئيا، جديدة ومختلفة، فإذا كان رجل واحد فى شارع ما يعتقد ديانة "المورمون"<sup>(\*)</sup>، فإنه من المحتمل أن يلقبه جيرانه بكلمة "المورموني"، ويختلف الأمر إذا كان الشارع به كثير ممن يعتقدون هذه الديانة. والتغييرات الثقافية أيضا ترتبط بالسمة التي نريد أن نؤكددها فى هوية الناس.. فى السنوات الأخيرة، كانت العوامل التي تشمل الأهمية السياسية مثل بدء انتشار "الإسلام المسلح"، انهيار الشيوعية، العولمة، الضغوط الاجتماعية ضد الاضطهاد والتمييز العنصرى الصارخ، قد لفتت الانتباه إلى معتقدات الناس الدينية والثقافية المختلفة. ونتيجة لذلك أصبحنا نتكلم الآن عن بروز "الهوية السياسية" التي نعرف بها الجماعات بدلا من أن نعرفهم بمهنتهم، أو طبقاتهم الاجتماعية، إنها فقط المعتقدات والمضامين الثقافية.

إن الاستغناء عن التصنيفات القديمة مثل الأجناس أو الأعراق أو الطبقة الاجتماعية؛ قد يبدو نوعا من التحرر، أو خطوة بعيدة عن الأيديولوجيات الأساسية التي تُدين أفرادا من أنماط عرقية و"إثنية" معينة، أو منشأ اجتماعى بعينه، كى تقلل من فرصهم فى الحياة، إلا أن المنشأ الاجتماعى والإثنية سمات وأحوال فى حد ذاتها لا يستطيع الناس فعل أى شىء لتغييرها، ولو بالغش أو التخفى

---

(\*) طائفة دينية بالولايات المتحدة أنشأها جوزيف سميث 'Joseph Smith'، عام ١٨٣٠، وبها تعاليم مخالفة للمسيحية.

(أو حتى بالثورة والعصيان الاجتماعي) عندما يصبح المنشأ أو الجنس معياراً لحرمانهم من ميزات وفرص في الحياة. إن التاريخ يمكن أن يُعاد تأليفه وابتكاره، واللهجات، وطريقة الكلام أو السلوك الذي يُميز الفرد، والمظهر المادي، كلها يمكن أن تتغير استجابة لأي ضغوط اجتماعية؛ لكن ذلك سيكلف الإنسان كثيراً. ومن حيث المبدأ، فإن المجتمعات الأكثر عدلاً هي التي تُحكّم بمعايير يستطيع الناس التحكم فيها، على الأقل إلى حد ما: كالتعليم والخبرة، والوضع الاقتصادي، والمعتقدات الثقافية. والهوية السياسية، إذا كانت بالفعل تجمع الناس على أساس الثقافة، بدلاً من الأصول العرقية، يجب أن ترفع النظم الاجتماعية إلى درجة يقل فيها الظلم، وقد كان هذا بالفعل هو المطلوب لكثير ممن يناصرون ويؤيدون مذهب تحديد الهوية على أساس المعتقدات<sup>(١٠)</sup>.

لكن، هل المعتقدات مرنة إلى هذه الدرجة؟ نعم، ولا. فالمعتقدات التي لا تُهمنا كثيراً نغيرها بتكلفة قليلة، لكن تكلفة تغيير الفئات الراسخة ستكون مزوعة؛ إنها شيء يمثل إصابة بالغة مثل: بتر عضو من الجسد، أو حتى أكثر من ذلك، لأن تغيير مثل هذا المعتقد يشعر به الإنسان وكأنه "كسر" جزء من النفس أو الذات. وينطبق ذلك علينا جميعاً، وليس على الدنيويين أو المتدينين المتطرفين فقط الذين يتجاوزون "الخطوط" والحدود؛ لأن معتقداتهم تتطلب العنف. ولو حاولنا أن نفهم لماذا يتصرف المتعصبون لعقائدهم مثلما يفعلون، فعلينا أن نتذكر أننا عندما نخالفهم ونتحدى أفكارهم؛ فإننا بالفعل نطلب منهم أن يُغيروا كثيراً من ماهيتهم ونواتجهم، وهذا من منظورهم يشبه "الانتحار النفسي"، ولا يعني هذا أن أفكارهم ليست سخيّة أو مضحكة أو غير معقولة أو خطيرة بكل ما في الكلمة من معنى، فهذا شيء قائم بذاته. إن المسألة هي كون المعتقدات الراسخة والقوية أقرب إلى اعتبارها جزءاً جوهرياً وصميماً من النفس، وليس كونها سمات و"ملامح" قابلة للتعديل. وهذا ما يجعل تكلفة التغيير باهظة جداً.

ويُستبعد من هذه التكلفة "ثمن" خروج الفرد عن الجماعة أصحاب المعتقدات نفسها، وهو ثمن مفزع أيضا، خصوصا عندما يكون الارتداد عن عقيدة أو دين عقابه الموت<sup>(11)</sup>. إن ما يبدو لنا "تعديلاً ذهنياً" وعقلياً بسيطاً قد يصدم أصحاب المعتقد باعتباره تهديداً مميتاً ومهلكاً لهوياتهم.

وتظهر هنا أهمية "الجماعات"، فعندما يُعرف معتقد المعتقد أنفسهم أولاً وقبل كل شيء بعضويتهم في جماعة رمزية (جماعة تُعرف بالمعتقدات التي يتشارك فيها الأعضاء ويعتزون بها ويوقرونها)، فإن الهوية الشخصية والفردية تُبنى على افتراض استمرارية وجود الجماعة، ومع ذلك فإن الجماعات ليست بشراً وليس لها وجود مادي "كجسد" خاص بها. إنها جماعات رمزية قد تكسب نوعاً من "التجسيد" إذا تطورت مؤسساتها المادية (مثل البيت الأبيض في واشنطن أو كاتدرائية "سان بيتر" في روما). وعندئذ تكمن شخصيتها جزئياً في وجود هذه المباني أو المنشآت والجماعات التي تستخدمها. ودون هذا التجسيد تظل الهوية الرمزية للجماعة ووجودها المادي شيئاً واحداً. وسوف يبقى كلاهما مادام تمسك بها أتباع مخلصون فقط، فإن ما يُهم هو أن تبقى المعتقدات وتُصمد، وليس البناءات أو "الأجساد" التي تحويها وتضمها.

وهذا الاعتماد المتبادل، لكل من الجماعات والأفراد، هو نوع من الحرية أيضاً. فالجماعات دون مؤسسات مادية ليس لديها الكثير لتخسره، وتستطيع أن تلجأ إلى حلول وسط قليلة عندما تواجه تهديدات. إن ضغوط الجماعات المهاجمة، وحرب العصابات، والمسلحين، والإرهابيين فيما يبدو أقل من أعدائهم في القوة. غير أن تزايد خطورة وتدمير الأسلحة الخفيفة "المحمولة"، وقدرة وسائل الإعلام على تحويل وتشكيل الرأي العام؛ قد أتاح للجماعات الصغيرة أن تُشيع الدمار والخراب؛ حتى إن كان أعداؤها منظمات قوية أو بلداناً مسلحة تسليحاً جيداً.

أما بخصوص أعضاء الجماعة، فإن من هم خارج الجماعة يعتبرونهم (بسبب اعتناق العقيدة) حمقى أو مغفلين: لأنهم يتنازلون عن استقلالهم الذاتي العزيز، ويقللون من "قردانيتهم" بأن يجعلوا العقيدة المشتركة مع آخرين جزءاً كبيراً من هويتهم، ولكن في مقابل ذلك تتحمل الجماعة كثيراً من الأعباء التي يتحتم على الأفراد مواجهتها منفردين. والتوتر الذي يرتبط بالموت والفناء، على وجه الخصوص، يمكن أن تُهَوِّنه عضوية الجماعة<sup>(12)</sup>. ويدرك معتقو المعتقدات أن القطاع الكبير من هويتهم الذي ينتمى للجماعة، والذي يهتمهم ويمثل جزءاً من ذواتهم، سوف يظل موجوداً حتى بعد مماتهم، مادامت بقيت الجماعة. فالخلود، حتى إن كان خلوداً جزئياً وغير مؤكد، يُعتبر حافزاً له اعتباره، وكثير من الجماعات تقدم بوضوح معتقدات عن الحياة بعد الموت ضمن "أيديولوجياتها". وتحدى أفكار مثل هذه الجماعات يهاجم هويتها ووجودها، كما يهدد الكيانات الفردية لأفراد الجماعة وأمالهم في وجود المستقبل (وجود رمزي. إن لم يكن مائياً). وعندما يصير "البقاء" الرمزي أهم من الوجود المادي، إن أمكن، فلن يُدهشنا أن معتقينا المعتقدات يُضحون بأنفسهم حتى يحتفظوا بالمعتقدات التي يعتزون بها، فهم يعلمون ويوقنون أن شخصاً ما غيرهم سوف يُبقي رؤيتهم حية وناشطة.

## التهديد والدفاع:

إن كثيراً من الأفكار التي تصادفنا كل يوم تبدو لنا غير ضارة، أو سارة أو أنها مجرد شيء لا يستحق الملاحظة. وبعضها بلا شكل مفيد، إذ يجلب أساليب جديدة لفهم العالم، أو بعض العواطف المبهجة، أو بعض ما يمكن تصديقه والوثوق به اجتماعياً. ويُطلق بعض هذه الأفكار فقط قليلاً من الإزعاج العصبي (إن نرى صديقاً لديه قدرة أحسنه عليها وهي أنه يقرأ الصحف والجراند ويشاهد إعلانات

التليفزيون دون أن يتذكر شيئا منها). أما بعض آخر فيتصارع مع ما استقر وثبت في ساحتها المعرفية، وبذلك يمكن اعتبارها تهديدات لحالتنا الذهنية. إن هذه التهديدات تمثل عبثاً ولا تجلب منفعة؛ فهي بدلاً من أن تتواءم بسلاسة مع الأنماط الذهنية الكائنة لدينا بالفعل، فإنها تقتضى أن يتغير "بعض" من ذهننا كي يتناسب مع الحقائق الخاصة بها. وبذلك فهي تقدم بديلاً للأسلوب الذى نعمل به ونتبعه، وتعلن عملياً أن بعض الترابطات والعلاقات المتبادلة التى تعلمنا أن نركن إليها ونعتمد عليها ليست جديرة بالثقة، وكلما كانت معتقداتنا الأهم بالنسبة إلينا تواجه هذا التحدى، زادنا التحدى ثوراً. إن تغيير الأنماط الفكرية المتأصلة فينا يتطلب جهداً كبيراً، وكلما كان النمط قوياً وراسخاً زاد الجُهد المطلوب.

ولقد صور المؤيدون لنظرية "التحور والإنفاذ الثقافى" (\*) بينتنا الثقافية كصراع "مجنون" من أجل البقاء، مع كل فكرة أو تأثير يتنازع من أجل جذب انتباهنا. وهذه الأفكار "جاهزة" مثل "فيروسات" تهاجم وتهزم عقولنا خلسة، فى تريد أن تعيد تشكيلها، إنها تدفعنا للضحك على دعاية هزلية وتكررها، وتستخدم أرفع الأفلام والكتاب، و"تغسل" عقول أطفالنا بالمعتقدات الزائفة (٢). ومع ذلك، فلا داعى أن نطيل فى القياس على فكر "الفيروسات" عندما نفكر فى مسألة النشر الثقافى للأفكار، ذلك لأن هناك بعض الاختلاف بين الفيروسات والإنفاذ الثقافى لو

(\*) أعلن ريتشارد دوكنز "Richard Dawkins" هذه النظرية عن "الإنفاذ أو النشر الثقافى" عام ١٩٩٠ فى كتابه "The Meme Theory". وهى موازية لنظرية وفكر تشارلز دارون - فى علم الأحياء عن النشوء والارتقاء - التى طرحها عام ١٨٥٩. ولفظ "Meme" صياغة حديثة مختصرة من كلمة يونانية. وتروج هذه النظرية لفكرة انتقال الأفكار والثقافات من خلال التعرض لنماذج من السلوك والمعلومات وبواسطة (عبارات تحمل إثارة، ألحان، فن عماره، عروض أزياء أو الموسيقى). وقد حُجج هذه النظرية المثيرة للجدال معلون كثيرون باعتبار تطبيقها يُمثل تأثير الجراثيم من مسببات الأمراض "pathogens" وبالفعل فإن هذا التأثير استغل فى فنون الإعلام والدعاية، فهو ليس تحولاً ثقافياً حقيقياً كما يدعون.

تحرينا الدقة. وما زال الباحثون في علم أصل الجنس البشري (الأنثروبولوجيا) يدرسون كيف تنتشر الأفكار على مدى السنين دون الحاجة إلى "النشر" المباشر.

والاستعارة المجازية التي تُشَبَّه الأفكار بالكائنات المُمرضة (مثل الجراثيم) قوية وشائعة. ومنذ تطور "النظرية الجرثومية"، ونحن نفهم كيف تنتشر الأمراض بالعدوى، وقد أوضحت الدعاية هذه العلاقة بأن قارنت الأفكار غير المرغوب فيها بالأمراض الخطيرة. عندما كتب الجاسوس الفرنسي "لوسيان دي لاهود" "Lucien de La Hodde"، بعد ثورة بلاده مباشرة (عام ١٨٤٨) يقول: إن معارضي الحكومة "هم الجذام الذي أصاب بدن الأمة السياسي"، وأنهم "فيروس لُتَحَّتْ وطُعِمَتْ به فرنسا"<sup>(١٤)</sup>. وقد ادعى "ماوتسى تونج" "Mao tse-Tung"، الذى أدى اختياره العقائدى إلى موت الملايين، أن "محاربة الأفكار الخاطئة مثل أخذ اللقاح ضد المرض".

أما أدولف هتلر "Adolf Hitler" الذى بشرَ بسلامة المجتمع فقال: "إن ثقافة ألمانيا قبل الحرب أصابها الوهن من الهُزاء والأعمال الفنية المنحطة.. إنه الطاعون، الطاعون الروحي، وهو أسوأ من "الموت الأسود"... الوباء الذى حدث فى الماضى... وهؤلاء المؤلفون التافهون الذين يسممون روح الرجال مثل ناقلى أسوأ أنواع الجراثيم"، وحتى لا تظن أن هذه الاستعارة توجد فقط فى مجال السياسة المتطرفة، فقد شاهدت منذ فترة وجيزة أستاذاً فى العلوم من "أكسفورد"، يلتزم بهذا التقليد "العظيم" ويصف الإيمان بالدين بأنه "بكتيريا عَصَوِيَّة" وشكل من أشكال المرض العقلى، يمكن مقارنته بفيروس الجدرى، لكن استئصاله أصعب"<sup>(١٥)</sup>.

وعليك أن تنتبه إلى أن هذه الاقتباسات ليست جميعها واضحة فى تطبيق فكرة القياس بين الأمراض المُعدية والأفكار، وبين من ينشرون هذه الأفكار، إلا أننا نستشف أن بعضاً ممن يقومون بنشرها والدعاية لها ليسوا على استعداد لأن يُفصِّحوا عما تتضمنه مناقشاتهم؛ وهو أن أصحاب "الأفكار الرديئة" هم كائنات ناقلة

للطاعون ويجب إبادتهم من أجل "الصحة العامة"، سواء كانت هذه أفكار سياسية، فنية أو دينية؛ فإن الأفكار الرديئة دائما معتقدات قوية، ولذلك فإن من الصعب للغاية إزاحتها بالتعليم أو، بالنسبة لمن أصابتهم العدوى، بإعادة التعليم<sup>(١٧)</sup>. إنه من الأسهل ومن الأوفر (ماديا) أن "تزيح" الناس الذين يعتقدون هذه الأفكار. والإيمان بالأديان، مثلاً، استطاع أن يبقى حياً بعد المعاناة المؤلمة في "كمبوديا الديمقراطية" وبعد سنوات "الاختناق" في النظام السوفيتي وفيما يُفترض أنه "الموت باللامبالاة" في "العلمانية الغربية"، فلا حاجة لكل من يحتج على الدين لأن يتبع وسائل عنيفة أكثر من التعديل في المقررات الدراسية<sup>(١٨)</sup>. ومن حسن حظ الذين أصابتهم "بكتيريا العقيدة" أن تهديدات المحتجين على الدين ليست شيئاً خطيراً؛ وقد تكون لغة بعض "اللامعين" أو المشهورين غير مسؤولة، لكن من يمثلونهم من المفكرين البارزين يدافعون عن المبادئ "الليبرالية" والمتحررة، ومنها عدم العنف، ومثل ذلك يفعله كثير من القادة المتدينين، على الرغم من أن ذلك لم يمنع الدين من أن يكون له إسهام في أنواع مختلفة من القتل الجماعي حول العالم<sup>(١٩)</sup>.

## الأفكار المُعدية:

لو قارنا فكرة ما بنمر مفترس، أو سيل مثل "تسونامي" (أو حتى رئيس العمل المتربص بموظفيه)، قد تبدو شيئاً ضعيفاً وهزياً. كيف يمكن لاضطراب في التنفس أو توتر عصبى أن يشكل خطراً على حياتنا؟ إننا نشعر، سواء أخطأنا أم أصبنا، أن لدينا قدرة كبيرة على التحكم في اعتناقنا أو رفضنا للأفكار الجديدة. وبالطبع فإن الأفكار التي تهددنا قد لا تبدو مُهددة عندما نتعرض لها في بادئ الأمر، إلا بعد ما نتدبر ونفكر، فقد ندرك حينئذ ما تتضمنه وإلى مدى تتصارع مع معتقداتنا؛ وحتى عندئذ فلن نستطيع فكرة واحدة بذاتها أن تغير عقولنا، أو حتى أن

تدمرنا كأى كارثة طبيعية. وبمجرد أن نلاحظ الخطر، فإننا بكل تأكيد سنفعل شيئاً واحداً وهو أن نغلق عقولنا أمام أى تواصل معنا.

وبمعنى آخر؛ فإن التهديدات فى العالم الرمزى للأفكار تشبه الكائنات الممرضة والجراثيم أو التهديد بالسموم (نذكرنا فى التهديد بالاشمزاز)، أى أكثر مما تشبه التهديد بالخوف أو الغضب؛ ذلك لأن الجراثيم والأفكار لا تملك قوة مادية يمكن أن يُستدل عليها، وهى من الصعب تحديدها كأى كيان مادى ملموس، وهى تعمل وتتسلل ببطء إلى الذهن وقد تكون مهلكة فى بعض الأحيان. ولا عجب أن الوسائل التى طورناها للتعامل مع الأمراض الخطيرة هى نفسها التى نستخدمها فى مواجهة الأفكار الخطيرة، إنها تُعرف على دلالات الخطر، تحنّب مصدر العدوى، اعزل مصدر العدوى فى محجر صحى، اطرّد (تخلص من) أى ملوث أو مفسد. وقد اختارت عواطفنا أيضاً أن تستخدم هذه الوسيلة، فالمعتقدات التى "تكرهها" نصفها دائماً بأنها مثيرة للاشمزاز. وعلى مدى التاريخ كان من يأتون بمعتقدات جديدة تطرح تحديات- مثل الناس والكتب- يُواجهون بالعداوة التى تتولد من عاطفة النفور والرفض. وغالباً ما تكون العاقبة مهلكة<sup>(٢٠)</sup>.

ولو تهددنا مصدر عدوى وأردنا التخلص منه دون أى احتكاك به بقدر الإمكان، يتم ذلك إما بدفنه، وإما إحراقه وإما غسله بالماء، لكن الأفكار بالطبع لا تُغسل بالماء ولا تُحرق (مع أن مصطلح "غسيل المخ" مألوف والكتب يمكن أن تحرق، وقد نحاول دفنها)<sup>(٢١)</sup>. غير أن الناس الذين يقدمون لنا الأفكار التى تمثل تهديدات، أو يُعبرون عن معتقدات خطيرة يمكن التخلص منهم بالتراب أو النار أو الماء. وقد اعتبرت بلدة أوشفيتز "Auschwitz" - حسب رؤية "النازى" للعالم - مكان تلوث اجتماعياً بوجود اليهود والغجر، فكان من الواجب إقصاؤهم من العالم، وهذا تعبير حديث عن غريزة أزلية<sup>(٢٢)</sup>.

والصراع الذى تحركه الأفكار الجديدة يمكن أن يكون منفراً وبغيضاً فقط؛ لأن معظم حياة البشر نحياتها فى العالم الرمزي للأفكار والقيم. وما تشير إليه عند استخدام الحروف والكلمات هو شخص "إنسان" لا نعرفه بحدود جسده المادى فقط ولكن بسمات رمزية أيضاً: التزامه بمعتقدات معينة، أساليب خاصة فى السلوك والأداء والتفكير واستعمال اللغة، تفضيل بعض الأفكار وكره أفكار أخرى. وباعتبارنا "ذوات ونفوس رمزية"، فكل فرد منا هو "عقدة" ضخمة مركبة من المعتقدات والرغبات وأنماط عصبية أخرى. وكثير من خيوط هذا النسيج المتداخل يمكن أن يوجد فى عديد من "ناس" آخرين"، ولكن كل منهم يصير متفرداً فى الحيز الذى يشغله فى ساحتنا المعرفية والإدراكية. إننا شبكة الاتصالات التى تربط هذه النفوس و"الذوات" ببعضها بعض.

والمعتقدات التى تتحدانا لأننا تختلف عن توقعاتنا. نشعرنا بالتوتر بصفة خاصة إذا كنا بالفعل نعانى من توتر لأسباب أخرى. وحتى الأكاديميين، هذه المخلوقات المحصنة ضد القلق، يشعرون باختلاف الانفعالات؛ فالتأمل الهادئ لنظرية جديدة شىء، والدفاع عن الأفكار فى مناظرة شىء آخر مختلف. والأفكار الطارئة والهواجس تختفى فى فورة الجدل والنقاش عندما تطغى العواطف وتعضد الأنماط العصبية فدافع عما يهمننا. وكلما كانت المعتقدات التى نحاول حمايتها مهمة، كلما ازداد كرهنا لمن يهاجمها. إلا إذا كنا نشعر بأننا آمنون من أى تهديد، أما إذا كنا معرضين لأى هجوم لأسباب أخرى فسوف يدفعنا ذلك للتمسك بمعتقداتنا ورفض الأفكار المتصارعة.

وعلاوة على هذا، فإن أنواع المعتقدات المجردة التى نعتر بنا تحتاج إلى دفاع بأسلوب يختلف عما ندافع به عن الأفكار المرتبطة بالعالم الواقعي؛ ذلك لأنه فى الحالة الأخيرة تكون "الحقيقة" وسيطاً مستقلاً للدفاع عنها يستطيع أن يقرر،

مثلاً، إذا كانت الأمطار تسقط حيث نقف. وتعتمد الأمور المجردة على ما هو مجرد مثلها وعلى مشاعر الشخص في الماضي والحاضر، أما الواقع فلا صوت له. والمعتقدات التي ترتبط بها عاطفياً تهرب من أى روابط فى عالمها الماضى وتسمح لمن يعتقدونها بأن يتجاهلها أو يعيد تفسيرها حسب ما يرغب ويهوى. وعلى الرغم من أن هذا التعديل للمعطيات قد يكفى لطمأننة من يعتقدونها؛ فإن الشخص المتشكك قد لا يقنع بذلك.

وهذه الصورة عن عقليين متعارضين، كلٌ لديه شبكة من الأنماط العصبية، وكل يحاول الانتصار فى الجدل مع الآخر بما لديه من مبررات، قد تكون صورة خادعة نوعاً ما. فالشخصان قد يكتشفان أنهما منعزلان فى مواجهة مناسبة معينة لكنهما يملكان ثروة من الخبرة المجتمعية والتأييد. ونحن لا نحبذ أن نصدق ادعاء "جديداً" إذا كان الشخص الذى يجلس بجوارنا يصدقه، كما لو كنا نميل أكثر إلى الناس لو كانوا يصدقون ما نصدقه نحن، ولو حدث شىء جديد؛ فإننا نفضل أن نعرف رأى غيرنا فيه وإذا ما كان رد فعلهم مثل ردود أفعالنا، فنتشكّل ملاحظتنا وأفكارنا ومعالجتنا لما حدث وفقاً لذلك.

## تصور العالم الواقعى:

لقد أشرت مكرراً فى هذا الفصل إلى الناس الذين يغيرون معتقداتهم؛ استجابةً إلى الإشارات الواردة من العالم الواقعى، بما فى ذلك المحيط الاجتماعى الذى تُغلفه الرموز ويزودنا به أناس آخرون. ولقد أكدت فى الفصول السابقة أهمية معرفة كيف يعمل مخ الإنسان بالنسبة إلى اختيار الأفعال، بدلاً من النظر إلى العقل وكأنه آلة رائعة للتفكير. ولقد أعطتنا العقول قدراتنا الزائدة على ردود الفعل

المؤثرة وبأساليب مُركبة تجاه المواقف المعقدة، وعلى أن نتنبأ ونتحكم فى هذه المواقف، والوقت الكافى للتخيل وأحلام اليقظة وأشكال أخرى كثيرة من الابتكار. لكن القوة المُلحة التى شكلت تطور وتحور البشر كان لها فعل أكبر فى تسهيل الأحداث التى ساعدت النوع الإنسانى فى استمرار الحياة. وهذه النزعة الإلزامية للمنافسة والتنازل ما زالت فىنا. وبما أنها خرقت إلى صور ثقافية ملتوية لا تُعد ولا تحصى، وأشعلتها قوى مُستممة من الضغوط الاجتماعية، فقد دفعتنا إلى اتباع كثير من التصورات والتخيلات الفكرية والذهنية غير الممكنة كالجمال الكامل، والصحة التامة والعلاقات المثالية التى تنتج أطفالاً بالغى حد الكمال... وهكذا.

إن تصور العالم الخارجى هو ما تجنيه عندما تضع النزعة المعتادة للإنسان إلى الفعل الجماعى مع الالتزام بمعتقدات معينة، فكلما زاد هذا الالتزام، قل ميل الإنسان إلى تغيير معتقداته، حتى إن عارضت الإشارات الواردة من داخله. وهناك استراتيجيات يمكن للمرء أن يتبناها كى يتجاهل، أو يُهمل، أو يعيد تفسير هذه الإشارات حتى يقلل من تهديدها ويُحد من الصراع الذى تسببه، لكن ذلك قد يستنزف من الجهد القدر نفسه تقريباً الذى يلزم لتغيير المعتقدات خصوصاً عندما تكون إشارات التحدى صامدة وقوية. ولو فكرنا فى العقول كآلات للفعل وليس للتفكير، فإن توفير الطاقة يتطلب منها أن تُقلل من الجهد وذلك بالآ تفكر إلا إذا كان الموقف يستدعى ذلك. وعندما تستلزم الأفكار التى لا نرحب بها تفكيراً ممتداً ومجهذاً ليقرها فى الذهن، فإنه من الأسهل ألا نشغل أنفسنا بتغيير ما فى عقولنا، ولكن بدلاً من ذلك نُشكل العالم ونتصوره لئناسبنا، وذلك بإزاحة مصدر إشارات التحدى المزعجة.

كيف ينظم المخ الإشارات المتصارعة؟ إن الخلايا العصبية تُقِيم الإشارات الإيجابية (المشجعة والحافزة) والسالبة (المثبطة والكابتة) التي تصل إلى هذه الخلايا في لحظة ثم تعطي ردود فعلها عليها (أى تطلق اشاراتها الخاصة)، وذلك إذا كان توازن المدخلات إيجابياً بدرجة تكفى للتفوق على المدخل أو "العَبْءة" الكهربية للخلية. وتتولى الإشارات غير المتناغمة، وهى التى تسجل أحداثاً أو عقائد ليست متوافقة عن العالم المادى، مثل: "التسبب فى الألم خطأ" أو "ضرب الأطفال شىء جيد"، استثارة أنماط من النشاط العصبى ترتبط بالاشتباكات العصبية المثبطة. وتنشيط واحد من هذه الأنماط المثبطة (بتوصيله إلى درجة الوعى الواضح): يعنى كبت أحد الأنماط المُحفزة، والعكس بالعكس. وبازدياد الكبت بين الشبكتين العصبيتين المتفاعلتين، تتزايد المعتقدات غير المتناغمة التى يشملها هذا الصراع<sup>(٢٣)</sup>.

ويمكن تشبيه المعتقدات بالحيوانات الإقليمية، إذا تركت متباعدة فى الساحة الإدراكية للمخ لن تتفاعل، وإذا دُفعت للوجود معاً يبدأ الصراع. هنا يتغير الأضعف لينكيف مع الأقوى. وتعكس درجة التغيير التباين والتفاوت بينهما. وكما يحدث عندما ينتقل فرد ما إلى مكان جديد، فإن المعتقد الجديد عليه أن يستعد لمحنة تقييم "الجيران" الجدد.. أى تناسبه وتواؤمه مع الأفكار المستقرة فى ذهن هذا الشخص. فإذا قل الصراع، كانت أكثر تناغماً مع هذه الأفكار، وكان اندماجها أسهل فى ساحته الإدراكية والمعرفية.

وعلى سبيل المثال، لو أعجب "جاك" بصديقه "جيل"، وكان يعتقد أن أي امرأة يتخيلها لا بد أن تُعجب به، وكانت الصديقة ترى أنها ليست معجبة به لكنها قد "تنزلق" لذلك في موقف ما، فإنهما كلاهما ليسا على صواب بمقاييس العالم الواقعي. غير أن درجة عدم التناغم طفيفة، ومع بعض الإثارة أو الضغوط قد تتغير بسهولة معتقدات "جيل" الواهية، أما إذا كانت هي مصممة بثبات على رأيها؛ فإن ضغوط البيئة قد تقلل من محاولاته للتقرب، وإن لم تغير نفورها منه. إذن ما الاختيارات؟ ربما يكون العنف هو اختيار هذا الصديق! وإذا كان الاعتقادان المسيطران على "جاك" في غاية القوة (وهما إعجابه بالصديقة، وأن كلاً من يميل إليها تُعجب به)، فإنه سوف يُصرّ على أن يغير رأى "جيل" فيه. (وكما أشرنا في الفصل الرابع، فإن المدخلات التي لا تتواءم مع توقعاتنا قد تتحول في بدء العمليات المنظمة للذهن لتطرح قدرة فائقة على الضلال وخداع النفس)، وإن لم يحدث هذا فقد يتنازل هذا الصديق عن واحد من الاعتقادين أو عن كليهما. إنه، مثلاً، قد يُعَدّل كلمة "كل" إلى "معظم" أو "بعض"، أو لو كان أكثر واقعية، "قليل". وقد يقرر أن "جيل" ليست المرأة المناسبة له، أو أنه أصبح لا يميل إليها، وربما يلجأ إلى مضايقتها بهذه الكلمات كي يفرض هذا الاعتقاد الجديد ويقويه. وقد يحتفظ بالاعتقادين السابقين الأصليين ويتجاهل الدليل على أنها لا تميل إليه، وربما يتحاشى رؤيتها بعد ذلك ليتقاضى أو يقلل من التهديد الذي تفرضه على نفسه وعلى "الأنثى" التي تُمثّل غروره. وأخيراً هناك مخاطرة "تصور العالم" الذي يراه ويريده عن طريق العنف سواء اللفظي أو البدني. إن تغيير المعتقد الذي يمثل تحدياً يتضمن دائماً مبادلة بين ضغوط الصراع والجهد اللازم لكبت الأنماط العصبية القديمة، لإرساء أو لصالح الأنماط الجديد، وعندما يكون المعتقد قوياً فإن الدافع يكون للاحتفاظ به كما هو، مع تغيير المعتقدات الأخرى - أو حتى العالم الواقعي - بدلاً من الاستسلام للصراع.

إن تصور العالم الواقعي أو "تشكيله" - كما نهوى - شيء يفعله البشر بلا انقطاع. وإذا كان شيء نشاهده بـ "التلفزيون" يصيبنا بالتوتر، فنحن نستطيع أن، وبالفعل، نغلق الجهاز.. وإن كانت شجرة تعترض طريقنا فسوف نزيحها مهما كانت سليمة وجميلة، وإذا هاجمت بيتنا حشرة، أو هاجم حيوان خطير المنطقة المجاورة، فإننا ندمره فوراً. لقد اخترق الإنسان الجبال ومهدمها وخلق الحدائق في الصحارى، وجفف البحيرات وأغرق مساحات كبيرة من الأراضي لتتناسب أغراضه ومتطلباته. وأنت شخصياً ربما لم تفعل أيًا من هذه الأشياء، لكنك أيضاً شاركت في تشكيل العالم الواقعي على نطاق صغير.. في كل مرة تنقل شيئاً من مكانه إلى مكان آخر تظن أنه يجب أن يكون فيه.

وهناك أشياء وأحداث بالطبع أكبر من أن تتحكم فيها، فمهما كانت درجة رجائك وانتظارك لسطوع الشمس في يوم الأحد (العطلة الأسبوعية)؛ فإنك لا تملك النفوذ لتقرر إن كانت سوف تسطع. وينطبق الشيء نفسه على أحوال عالم المجتمع الذي فيه كثير من أهم الأفكار ومن يعتنقونها ولا يمكنك التحكم فيها، على الرغم من كل النشاط المتبادل والديمقراطية التي يدعواها في محيط هذا العالم الجديد بشبكة معلوماته انولية. والرموز الاجتماعية ومن يحملونها لا يقدرّون على مواجهة الاستقلال العنيد الذي لا يمكن إنكاره في قطعة من الحجر، أو شجرة، أو زلزال. والسلطات الاجتماعية يمكن أن تُهدر قيمتها لو كانت لها "أجندة" خافية من الفساد أو كانت تمثل سلطة متصارعة.

ومحاولة "تشكيل" العالم المجتمعي، مثل ما يقابله في العالم المادي، هدفها هو القضاء على المعتقدات المتصارعة؛ ولأن ذلك يستنزف الجهد ويُعرض الفرد للانتقام أو الثأر، فإن المحاولات تنتج إلى الأفراد والجماعات الأقل سطوة وقوة. وكلما زاد التفاوت بين القوة كان من الأسهل اتخاذ شكل من العمل العدائي. ويعتمد شكل هذا العمل على معتقدات من يريدون "تشكيل" العالم. وكما هي الحال في كل عمل، فإنهم سوف يعتمدون على التنبؤات بما قد تكون عليه العواقب، بهدف أن تُحل المشكلات الناجمة بكفاءة وبأقل قدر من الطاقة والجهد. ومع ذلك فإن تقدير فاعلية العمل بصورة صحيحة أصعب من تقدير حجم الطاقة اللازمة للعمل، ولذا فإن نية من يريدون تشكيل العالم تتجه إلى إقصاء الآخر لإزاحة أصحاب المعتقدات التي تتحداهم، وهذا يتم غالباً بأفعال أقل عنفاً مثل "الإبعاد الاجتماعي" والنفى أو النبذ، وذلك على أمل توفير الجهد وتحقيق الهدف بأقل مخاطرة ضدهم. أما إذا لم يُحققوا الهدف المرجو (إزاحة من يضايقهم اجتماعياً)، فسوف تتخذ إجراءات أكثر تطرفاً: العداء السافر والنشط، التربص بهم، القهر.... وهكذا إلى نهاية الحد السلبي وهو القضاء عليهم أو تدميرهم بأي وسيلة متاحة.

وفي حالة البحث عن "شكل للعالم"، فإن توقعات الشخص عما يجب أن يكون عليه الواقع سوف تؤثر في الأسلوب الذي سيجاول به تغيير الواقع. ولو استُخدمت أداة خطيرة جامحة ولم تنجح في الغرض منها؛ فلن تُثير الخوف أو الحزن؛ إنها سوف تُثير الوازع على أن يُقذف بها عرض الحائط. وإذا استسلمنا لهذا الوازع، فإننا نطردها من عالمنا ووجودنا طرداً رمزياً. وفي احتمال آخر؛ فإننا أيضاً قد نكسر هذه الأداة التي نعوقنا وتهددنا؛ لكننا قد نُحسن التنبؤ بفشلها، فالأدوات والوسائل المعيبة نتوقع لها الفشل وعدم القدرة على الأداء. والشيء الذي

نتوقع له أن ينجح ولا يصيب، يثير الغضب باعتباره أداة لا تستطيع التكيف مع المجتمع، ويجدر بنا معاملتها بناء على ذلك.

وما ينطبق على الأدوات والوسائل يبدو أنه ينطبق على الناس. إن كثيراً من توقعاتنا معتدلة ويمكن تغييرها بسهولة، لكن بعضها جزء من ذواتنا لدرجة أنها تستقرنا لنعمل بطريقة تهدف إلى أن نغير العالم حتى يتواءم مع هذه التوقعات. والناس الذين يجب أن يُعاونوا ثم لا يتصرفوا كما يجب نحاول أن نشعرهم بدونيتهم (ونحن نجد هذا بدرجة كبيرة). أما الناس الذين نراهم جديرين بالاحترام ثم يُلطّخون سمعتهم نتربص بهم ونُسقطهم بلا رحمة. إننا نحافظ على مُثلنا العليا بأن ننزعها عن من يخطئ ونبحث عن من يستحقها بأسرع ما يمكن والنساء اللاتي "يجب أن يكون اهتمامهن بالزواج والأولاد"؛ يقابلن بالاضطهاد إذا سعين إلى شغل مهنة ووظائف بدلاً من ذلك. وكلما كانت نظرة المجتمع لأدوارهن تقليدية كان الطريق أمامهن شائكاً وصعباً. وختاماً، وهو ما يناسب موضوع هذا الكتاب، فإن "الناس" الذين نصفهم بأنهم ضعفاء، خونة، أنانيون أو مقرزون يصبحون "آخرين" ويشكلون تهديداً إذا تحدوا هذه الأنماط؛ بأن يكونوا على عكس ذلك، أقوياء، جديرين بالثقة عطوفين، ولديهم دفة من المشاعر الغريزية واهتمام بالغير، مثلهم مثل أى شخص قد تغير حتى يتغلب على الشعور بالاشمئزاز.

## شرح ما يستعصى على الشرح

وصف لورنس لانجر "Lawrence Langer" في كتابه عن "الهولوكوست"؛ شهادة شخص نجا من "الجيئو" اليهودى فى بلدة "كونفو" فى ليتوانيا، فى مناسبة الإعدام لإعدام بعض الشباب: "شهد هذا الشخص الذى نجا بأنه كان حاضراً فى

الغرفة عندما دخل أحد رجال الجيش وأمر إحدى الأمهات أن تعطيه طفلها الرضيع وعمره عام واحد، وكانت تحمله على ذراعيها. ورفضت الأم تسليمه، لذا فإنه أمسك بالرضيع من رسغى القدم وقطع جسده إلى جزئين أمام عيني أمه<sup>(٢٥)</sup>. وكمثل من أمثلة القسوة المفرطة. فإن هذا أحد أقساها الذي يُصوّر قسوة إلى أقصى المدى من التي يمكن أن نشعرنا بمرض جسماني أو تؤثر فينا لدرجة البكاء. أو تُحدث كلا الحالين.

وفكرة "تشكيل العالم" قد تساعدنا في أن نُعطي معنى لأشياء تبدو للوهلة الأولى مستعصية على الفهم. لماذا قتل هذا الرجل (الضابط) الطفل بهذه الطريقة الفظيعة والمروعة؟ كان بإمكانه أن يطلق عليه النار، أو "يكسر رقبته"، أو يقذف به إلى الحائط. فكثير من الأطفال قتلوا بهذه الأساليب التي تستغرق وقتًا وجيدًا أقل. أما بلغة "تشكيل العالم"، فإن ذلك أقل فاعلية، لأن هذه الأساليب أقل قدرة على أن تجعل هذا الضابط متوافقًا مع عالمه ومع توقعاته.

علينا أن نفكر في الخلفية المحتملة لهذا الرجل الذي لا نعلم عنه إلا القليل. يمكننا أن نفترض أنه يألف كثيرًا أيديولوجية النازي. وكما عرفنا من أمثلة كثيرة؛ فإن فرقته تعلموا النظر إلى اليهودي على أنه كائن كرهه منفر، أدنى من رتبة الإنسان، وقدر. والطفل في اعتقادهم تهديد شديد لهذه العقيدة. فلأنه لا حول له ولا قوة يستتر تعاطفنا ويجرنا إلى مشاعر الحماية والحنان. وحتى صراخ الطفل الذي يثيرنا ويزعجنا لا يزال يذكرنا بأنه لا يزال إنسانًا "بكل وضوح"، وليس "الحيوان" المنفر، كما يعتقد النازي عن أطفال اليهود. وإن مات الطفل بطلق نارٍ أو كسر رقبته أو قذفه إلى الحائط فإنه ما زال "كيانًا معروفًا" لطفل وهذا ما يندد الفاعل ويتطلب تغييرات صعبة ومخيفة في معتقدات هذا الرجل وفرقته. لكن إذا قُطع الطفل إلى نصفين يصبح جثة مقرزة ومشوهة بلا كيان واحد. مع كل تداعيات

المعاني السينة المصاحبة لمتل هذه "الجيفة" المنفورة. ومن وجهة نظر هذا الرجل، فإن المشكلة قد تم حلها؛ فهذا اليهودى أصبح الآن كما يُفترض أن يكون اليهود (منفرين)، وهو الآن يستطيع أن يشعر كما يجب أن يشعر النازيون تجاه ضحاياهم، أو أعدائهم.

## تنظيف التلوث :

كثرت نماذج من هذا النوع من التفكير بالنسبة إلى القتل الجماعي. وأحد هذه الأمثلة وأكثرها شهرة بسبب "سوء السمعة"، كما ذكرنا في الفصل الثاني، هو الاستخدام الاستعاري لكلمات مثل: "الصحة" و"المرض"، "عدوى" أو "ملوثات". في تبرير "الهولوكوست". أما فكرة القتل الجماعي وكأنه علاج أو شفاء لحالة مريض ميئوس منه، والتي قد تقلص المعدة من الألم، فإنها لا تقتصر على النازي فقط. فإن اللغة نفسها قد استخدمها مرتكبو جرائم القتل الجماعي في "رواندا"، وكذلك "الخمير الحمر" في كمبوديا الديمقراطية، كما استخدمها النظام "الماوى" بالصين... وهكذا. وغالبا ما تشير "الاستعارة" إلى "فساد الصحة" ووجوب "تنظيف" العناصر "المعدية" التي تثير المشكلات، كما في إصرار محاكم التفتيش الإسبانية على "تقاء الدم"، أو كما وصفته المذابح في السلفادور "التنظيف"<sup>(٢٦)</sup>. وقد كان من آثار المعرفة في مجال الطب؛ بواسطة اكتشاف "ليستر" Lister (عن مواد تطهير الجروح)، و"سنو" Snow (عن أن مرض الكوليرا مبعثه الماء الملوث)، و"باستير" Pasteur (عن البسترة لحفظ الغذاء) وبازلجيت Bazalgette (مُنشئ منظومة الصرف الصحى فى لندن)، أن كشفت مهنة الطب عن أن التأكيد على الصحة العامة له تأثير عظيم فى الجماهير خاصة فى مفهوم "الصحة للمجتمع". والصلة بين "التنظيف" والشفاء صلة

واضحة ويمكن لمن يصوغون الأفكار "والأيديولوجيات" أن يعملوا بها، وأن يحصلوا على المزايا التي تسمح لهم بالوصول إلى أغراضهم بأن يطرقوا على مخاوف متجذرة بعمق في نفوس الناس عن "القذارة" والتلوث<sup>(٢٧)</sup>.

والإشارة إلى "القرف" و"التلوث"؛ سمة مميزة للفكرة المتطرفة "إقصاء الآخر"، غير أن المثال الأشهر للتعاون المهلك بين "الطب" والقتل الجماعي ظهر في السنوات السابقة على "الهولوكوست". وقد كان هتلر "مُعَلِّمًا وأستاذًا في استخدام لغة "القذارة والنظافة"، خصوصًا في قدرته الفائقة على مزجها بالأفكار المتأصلة في دولته كأعلى مستوى لفكر المؤسسة الحاكمة (أو في الأمة بوصفها وحدة سياسية خاضعة للحكومة). وفي منتصف العشرينيات من القرن الماضي، وقيل أن يستطیع وضع نظرياته العنصرية موضع التنفيذ بفترة طويلة، وصف هتلر هذه الفترة بأنها "مریضة وعفنة من داخلها"، وأنها تعاني من "مرض" هو مثل نشر داء "الزهري" بين شعبنا"، وبذلك قدّم نفسه كما لو كان "ملك الأطباء" الذي يملك الشجاعة لأن يُشخّص المشكلة ويصف العلاج معاً<sup>(٢٨)</sup>.

وكان العلاج شوكة ذات شعبتين: يرى، من جهة، أن الشعب الأري لا بد أن يُشْفَى من أى أمراض "عرقية"، وكى يتحقق هذا فإن دماءهم (ما يفترض أنه قنّاء الأعراق)، يجب أن تنقى وتُطهر من أى مكونات غريبة. ولم يكن هتلر يزدري أو يحتقر التعليم؛ وقرر أن "كل ولد أو بنت يجب ألا يترك المدرسة دون أن يُدرك إدراكًا تامًا ضرورة ماهية "تقاء الدم"؛ لكنه عرف أيضًا الحاجة إلى استخدام أساليب صريحة وقاطعة، وأن يطبقها ليس على "الأجسام الغريبة" مثل اليهود والعجر فقط؛ ولكن على أعضاء الجنس الأعلى نفسه. والمثال على ذلك برنامج "قانون القتل الرحيم ت"؛ الذى طبقه على الألمان المعاقين ذهنيًا وبدنيًا حتى عام ١٩٤١، عندما اضطرته صرخة جماهيره وشعبه إلى إلغاؤه<sup>(٢٩)</sup>.

ومن جهة أخرى، فإن المرض نفسه لا بد أن يُهاجم ويُستأصل (فلا حياة لأى شيء لا يستحق الحياة)، وكما أوضح لنا روبرت ليفتون "Robert lifton" فى أبحاثه عن "بذور التطور فى المستقبل" والمتعلقة بهذا الموضوع، فإن أطباء النازى تَدربوا على تطبيق هذا الاستعارات فى لغة الطب<sup>(٣١)</sup>، وذلك فإن فريتز كلاين "Fritz Klein" تحدانا كى يعقد مُصالحة بين مشاركته فى "الهولوكوست" ودوره باعتباره طبيبا، فلم يجد صعوبة فى أن يقرن تطبيب المريض لشفافته بالقتل الجماعى: "بالطبع أنا طبيب وأريد أن أحفظ حياة المريض. وبدافع احترام حياة الإنسان، يلزم أن أستأصل الزائدة الدودية إن كان بها "غنغرينا" من جسد أى إنسان مريض. واليهود هم هذه الزائدة التى بها "غنغرينا" فى جسد البشرية<sup>(٣٢)</sup>".

وقد خضع من لا يشتغلون بمهنة الطب أيضا لهذا المفهوم المجتمعى، الذى يُعتبر فيه الأفراد، أو جميع الأقليات، خلايا غير سليمة أو غير فاعلة فى جسم الأمة. إن هانز فرانك "Hans Frank" الذى قام بالتدريب فى مجال القانون ثم أصبح حاكم النازى فى بولندا، كان يرى أن اليهود "نوع أدنى من أنواع الحياة، نوع من الهوام أو الحشرات الطفيلية التى طالت الشعب الألمانى وأصابته بأمراض مهلكة ومميتة". وقال: "إن التخلص منهم سوف يضمن لنا أن أوروبا المريضة سوف تسترد صحتها مرة أخرى<sup>(٣٣)</sup>". وبالأسلوب نفسه أيضا شرح هانس بوتمان "Hans Bothmann"، الضابط فى جيش النازى والقائد البوليسى الحربى ٢١ قاتلا: "لقد تولينا إبادة أشرس أنواع الطاعون البشرى - اليهود - فى هذا المعسكر<sup>(٣٤)</sup>".

هناك وصية تنسب إلى "جالينوس" و"أبو قراط" تعبر عن مثل أعلى مُوجه للأطباء، "أولا: لا تكن سببا فى أى أذى<sup>(٣٥)</sup>". إن الفجوة بين هذا الإحساس "الراقى" وما حدث للناس الذين حُكم عليهم بالموت فى ألمانيا النازية يعطينا دليلا قويا بصفة خاصة على القدرة المذهلة للبشر على "إقصاء الآخر".

إن الاستعارة البلاغية لكلمة "مرض تمثل حافزا على "إقصاء الآخر"، فالمعنى يعطى تفسيرا بسيطا وعاطفيا بدرجة كبيرة لأعراض الفرد أو الجماعة أو الأمة، ويتضمن التهديد بردود أفعال تزيد من الدوافع على الفعل. وهذه الاستعارة تتناسب بسلاسة مع المعتقدات المقبولة عن المرض بما في ذلك الشعور القديم بالخوف من الغرباء ناقلى المرض. ويعتمد المعنى أيضا على فكرة الجماعة كجسد يحمل عواطف إيجابية بين أعضاء الجماعة وتفرض عليها فروض الوحدة والطاعة، ويجعل ذلك الجماعة أكثر تماسكا، ومن ثم يعطى قوة أكبر لأعضائها فى مواجهة الدخلاء.

ولو أعطينا الفرد الاختيار بين أن يُغيّر معتقداته (أو الأنماط العصبية بذهنه) لتتناسب مع العالم الواقعي، وبين تغيير هذا العالم ليتواءم مع معتقداته، فإنه سيتبع الاختيار السهل. وكلما كانت المعتقدات مهمة، فسيكون الدفاع عنها قويا، وكلما كانت العواطف التى سيوجهها هذا التحدى شديدة ومتطرفة، يحتمل أن يكون رد الفعل أكثر عنفا. وعندما يتضمن المعتقد شيئا من التفرز، ويتعرض هذا الفكر للتحدى، فإن بنى الإنسان أناس مثلنا من الممكن أن يكون رد فعلهم مميتا ويتصف بالوحشية البشعة.

وتشمل بعض أنواع القسوة ردود فعل طائشة تجاه تهديدات اجتماعية تثير الغضب أو الخوف، وبعضها يتضمن إغفالاً متعمدا للحالة الإنسانية للضحية؛ لأن إقصاء الآخر جعل هذه الحالة لا اعتبار لها إطلاقا بالنسبة إلى مرتكب الجريمة. وهؤلاء المجرمون قساة الفؤاد الذين تشجعهم معتقداتهم القوية؛ قد يرون أن سلوكهم

نوع من "سوء الحظ"؛ لكنه دفاع ضروري عن النفس يحميهم من الأفكار والناس الذين يشكلون تهديداً ضد مظهر حيوي من مظاهر هويتهم.

وليس كل القسوة من القلوب المتحجرة مئارها الدفاع عن المعتقدات، إلا أن المعتقدات يمكن أن تُستخدم تلقائياً باعتباره مبرراً للسلوك العدواني - أو أن تُدعم وتُشدّد خصيصاً لمثل هذا العدوان. فالجشع والخوف والرغبة في الانتقام وما يماثلها من غيظ واستياء، والمنافسة على الموارد، كل هذا وكثير من المثيرات الأخرى، يمكن أن تدعم القسوة التي تُحقرها المعتقدات وتغذيها مبرراتها "الأيديولوجية". وقد تقدم المعتقدات بطاقة العواطف سبلاً و"قنوات" تربط بين الرغبات وأعمال العنف. غير أن الظروف يمكن أن تُغير العواطف القوية إلى درجة أن ما كنا نعتز به من معتقدات يفقد قوته وتأثيره، وقد تبدو هذه المعتقدات بعد ذلك، لمن كانوا يعتقونها، نوعاً من الضلال أو الأحلام المزعجة. كما أن هناك السادية أيضاً، والتي قد تشير بقدر كبير إلى اتباع الذات أكثر من كونها نزوعاً إلى "تشكيل العالم" الواقعي كما نريده كي نحفظ أفكارنا المعرضة للضياع أو السقوط (ربما بيد الأعداء). وترتبط المعتقدات ارتباطاً كبيراً بأسوأ أنواع القسوة المتطرفة، ولكنها يلزم أن تكون على درجة كبيرة من القوة والتعصب كي تجلب الضرر المقترن بها.

لقد حاولنا في الفصول الثلاثة الأخيرة؛ الكشف عن كيفية قيام المخ بالتوسط كـ "حلقة وصل" بين الفعل والعاطفة والمعتقدات. وفي الفصلين السابع والثامن سوف نطبق هذا الفهم على مشكلات غلظة القلب وجمود الحس والقسوة السادية.

### لماذا نحن قساة القلوب؟

من كان قاسياً على نفسه لا بد أن يقسو على الآخرين أيضاً. ولا بد أن يكظم أو يكبت العواطف "اللينة" والرفيعة تجاد المقربين، كالصداقة والحب والعرفان بالجميل، وحتى الفخر والاحترام، وذلك باتفعال شديد وعاطفة "باردة" تستقطب طاقته كلها نحو هدف مُفرد ومن أجل سبب أو فكرة ثورية أو متطرفة.

(من كتاب "سيرجى نيكاييف" Sergey Nechaev خلاصة عقيدة الثائر، ١٨٦٩)

تشمل القسوة عديداً من الخطايا. وليس هدفي من هذا الكتاب أن أُفسر أو أشرح كل نوع من أنواع القسوة بإسهاب (فهذا لن يكون بالإمكان)، ولكن هدفي هو أن أقدم إطاراً نظرياً للتفكير في القسوة بصفة عامة. ولقد استعرضنا كيف نُعرف القسوة، وفرقنا بين "غلظة القلب" والسادية على أساس الغرض الأهم للمعتدى من فعله. وقد فكرنا أيضاً في الآليات الكامنة وراء المكونات الثلاثة الخطيرة للسلوك القاسي: اتخاذ قرار الفعل، المعاناة مع العواطف، واعتناق المعتقدات. والآن حان الوقت كي نضع هذه المكونات معاً لنُجَمع الإطار ونكمله ولنرى ماذا يمكن أن يكشفه لنا عن القسوة.

وموضوع هذا الفصل هو "غلظة القلب" أو "جمود الفؤاد". وإلى حد كبير، فإن أكثر شكل من أشكال سلوك القسوة شيوعاً يتراوح بين القسوة التي لا تؤذي جسدياً ولكنها موجعة نفسياً مثل: إزال الضرر والألم باللفظ والكلام السيئ، والنبذ، والتريص، إلى القسوة المدمرة جسدياً، والتحريض مع سبق الإصرار والترصد على "التقية العرقية"، والقتل بالتجويع، والقتل الجماعي. وهذه الوحشية البالغة هي التي تسترعى الانتباه لأقصى درجة. ونحمد الله أنها نادرة، إلا أن القسوة الزائدة قد تحدث قدراً كبيراً من الضرر الذي يصدم الفكر دون أن يقتل أحداً. إن البهر بامكانهم أن يكونوا على قدر من دماثة الخلق واللفظ والإيثار، لكننا بامكاننا أيضاً أن نكون غلاظ القلوب جداً في كثير من الأوقات.

## ما القسوة مع غلظة القلب؟

دعنا نتذكر التعريف العملي للقسوة الذي حددناه فيما قبل، القسوة: هي سلوك طوعى غير مبرر يسبب معاناة مقصودة (ضرر نفسى أو بدنى بغيض) لصحية أو ضحايا لا يستحقون ذلك. ويتضمن هذا قراراً اختيارياً للفعل كى يحقق هدفاً أو أهدافاً معينة. فعلى سبيل المثال، الجندي الذى ينصاع لأمر رئيسه الضابط بأن يُعدم سجيناً قد يكون هدفه الأول هو إظهار الطاعة الفعالة، وأيضاً الرغبة فى "سحق" هذا الوغد العنيد، أو أنه ينتقم ويثأر لزملائه الذين قتلهم أو أصابهم هذا السجين، أو أنه يريد إنهاء التحقيق المزعج، أو أن يخرج من هذه البيئـة "الكاتمة والعفنة"، وبينما يَصَوِّب الجندي سلاحه ويطلق النار، فإنه يخلق كثيراً من الأهداف الإضافية اللحظية مثل: رغبة كيفية القيام بتحريك عضلاته بالنظام الصحيح لأداء المهمة، ومعظم هذه الأهداف اللحظية لا تصل إلى درجة الوعى إطلاقاً .

وليس من السهل دائما على مرتكبي الجرم، أو الضحايا، أو أى طرف ثالث أن يترتب أو يُصنف أهداف المجرم، فيما يتعلّق بالقسوة. وكما رأينا فإن الدوافع غالبا ما تكون غير واضحة، والتوقف للتفكير فيها هو استثناء وليس القاعدة. وحتى يكون الفعل قاسيا، فإن أحد أهدافه لا بد أن يتضمن السلوك العمد بالطريقة التى تُحدث معاناة مُتعمدة ومدرّكة من قبل<sup>(1)</sup>. وكلما كان هدف المجرم إنزال أكبر قدر من الأذى، كانت القسوة أكثر سادية. وهناك مثلا الحارس الذى قصد أن يدفع بالمواطنين داخل عربة قطار شديد الازدحام متوجه إلى بلدة "أوشفيتز" (حيث معسكر الإعدام)، وهو من يمكننا أن نحكم عليه بأنه مُدان بدرجات مختلفة من السلوك القاسى، ويعتمد ذلك على حالته النفسية:

الحالة الأولى: الحارس لا يعلم شيئا عن البلدة، وقيل له إن هؤلاء الناس ذاهبون إلى الشرق. كان مهذبا معهم ولكنه حاسم، لم يضايقهم أو يضربهم، لكنه لم يظهر أى تعاطف معهم. وعلى الرغم من ذلك فقد اختار أن يدفع بهم إلى القطار، وربما كان من المنطقي أنه توقع أو أنه يعرف أو يخمن أنهم بمجرد دخول القطار سوف يعانون كثيرا.

الحالة الثانية: الحارس يدرك الجهة التى يقصدها المسافرون ويدرك كذلك مصيرهم المحتمل (أى القتل). ويطلب منهم إعطاء أشياءهم القيمة لأنهم لن يحتاجوها. لكنه لا يهدد

أو يؤذى من يرفضون ذلك. ويخبر من يتأخرون  
أنهم سوف يُطلق عليهم الرصاص إذا لم يسرعوا  
بالركوب.

الحالة الثالثة: الحارس يُغيب المواطنين  
نفسياً بأن يخبرهم بمصيرهم المحتمل (الإعدام).  
ويضرب من يتباطأ منهم ومن يرفض تسليمه  
مقتنياته الثمينة.

وبمعنى آخر، يتراوح السلوك القاسى بين سلسلة متصلة تشمل كلا من جمود  
القلب والسادية. وتتبلور القسوة الطائشة بلا تعقل، وبلا مبالاة، والأنايية، حول  
غلظة القلب فى بداية هذه السلسلة. وفى نهاية السلسلة تكون الأفعال الأكثر سادية  
مثل القسوة التى تُستخدم لإثارة الفزع والتى يكون فيها الرعب هو الرسالة  
المستهدفة، وإن لم يكن هو الهدف النهائى. كما أن القسوة قد تلجأ إلى عواطف  
مركبة ومختلطة، كأن يدافع القاتل عن نفسه قائلاً إنه نادم لكنه كان مضطراً "أنا  
أكره ما فعلته، لكن إما نحن وإما هم" - حتى إن كان "هم" الذين يقصدهم مجموعة  
من الأطفال غير المسلحين. وهؤلاء المجرمون يعرفون أنهم يسببون المعاناة لكنهم  
لأى سبب يقللون من أهمية جرمهم من أجل أهداف أخرى ويدعون أنهم فعلوا ذلك  
رغماً عنهم.

لماذا تعتبر غلظة القلب جانباً من جوانب التجربة الإنسانية؟ تفترض نظرية  
"داروين" عن "الانتخاب او الاصطفاء الطبيعى" أن البشر الذين تطوروا ليتصرفوا  
بطرق تُسهل انتقال جيناتهم لأجيال أخرى، سوف يجنون حصاد ذلك من فوائد  
"توافق جينى" يجعلهم يعيشون فى جماعات متوائمة لو امتنع أفراد الجماعة عن

أفعال الإيذاء داخل الجماعة، وشجعوا أفرادها على التعاطف والعمل وفق أهداف مشتركة، مع معاقبة "الجامحين" الذين يمارسون حقوقهم دون القيام بواجباتهم ومسئولياتهم. وقد يخاطر أفراد الجماعة بالتعرض للموت أو النفي والطرْد إذا استمروا في تصرفاتهم المتضاربة مع الأهداف المشتركة، لكنهم قد يستفيدون من ذلك أيضا. وهنا تكون "إملاءات الاصطفاء والاختيار" الناتجة في صالح الأفراد الذين استطاعوا فهم معتقدات ورغبات الآخرين، والذين يتصرفون -ظاهريا- بصورة جيدة أمام الأقوياء من أفراد الجماعة، والذين يعرفون كيف يقتنون الفرص لصالح أنانيتهم عندما يقدمون أنفسهم للجماعة، والذين يستطيعون إخفاء معتقداتهم ورغباتهم المتعارضة والمخالفة عن باقي الجماعة.

ماذا يمكن أن نستشف من ذلك غير أن "التطور والتحول، لو كان شخصا مجسدا، لكان من المحتمل أن يفخر كثيرا بـ "ميكيا فيلي"<sup>(٢)</sup>؛ إن أحد المضامين التي نستشفها هي أن اكتشاف الغش والخداع سوف يتم "اصطفاءه" أيضا، فالغشاشون متطفلون على موارد غيرهم من الناس، لذا فإن القدرة على تحديد المخادع والغشاش- والتحذير ممن يساندونه ويتحزبون معه- يفيد كثيرا. والسهل من هذا أن نكتشف الاستغلال الأتاني للجماعة من هؤلاء، وذلك إذا كانت هناك توقعات عن ما يجب أن يكون عليه السلوك في الجماعة.. أي القواعد والقوانين الأخلاقية. وسيكون الانحراف عن السلوك المقبول اجتماعيا له تكلفة بالخسارة على أفراد الجماعة (مثل تكلفة عقاب المتهم وإصلاح أي ضرر ناجم لو كان هذا بالإمكان). كما سيصبح تعليم الأفراد الجدد في الجماعة ما يتوقعونه عن عقاب الخارج على القانون، وعن المساواة في كل هذه التوقعات هو أهم الأولويات للتواؤم و"الانسجام" داخل الجماعة، وسوف يؤدي ذلك إلى تطور القواعد الأخلاقية

الخاصة بالجماعة، كما سيكون نوعاً من "الضغط" في اتجاه امتلاك معتقدات "متشابهة" بصفة عامة.

ولقد تطورت القواعد الأخلاقية كى تحمى "الأقرباء" وليس "الغرباء"؛ فعندما اضطرت الموارد البيئية المحدودة الجماعات إلى المنافسة، أصبحت الجماعات المنافسة - التى من الخارج- تمثل تهديداً لهم. ولما أصبح الخطر حاضراً وواضحاً، انطلقت ردود الفعل تجاه التهديد لتؤدى إما إلى انسحاب واحدة من الجماعتين وإما إلى الصراع بينهما. وبصفة عامة، فإن الصراع يمكن أن يتمثل فى نوعين، حسب اعتماد إحداهما على الأخرى بطريقة ما، أو وجود أى تعاون بينهما (كأن يكونا شريكين فى تجارة أو بينهما قرابة بالزواج مثلاً). وإن كان الأمر كذلك فمن الخير للجماعتين أن يسوى النزاع على السلطة بينهما لنقل الأضرار والخسائر التى سينكبدها إذا أدى النزاع إلى معارك لها طقوس خاصة (أى تحكمها قوانين معينة)<sup>(3)</sup>. ومن الممكن أن تمتد بعض القوانين الأخلاقية للجماعة، بما فيها قرارات فض النزاع، إلى جماعات أخرى، بشرط اشتراك الطرفين فى الفهم المتبادل الذى يجعل سلوكيهما من الممكن فهمه وإدراكه.

ومن جهة أخرى، فإنه بالمواجهة مع الغرباء، قد تكسب أى جماعة مسالمة شركاء جُددًا فى تجارة ما أو تتجنب ضرراً ما. وتفترض نظرية "اللعبة" أنه، على الأقل فى نماذج ألعاب الكمبيوتر، من المعقول أن نكون مسالمين مؤقتاً ومبدئياً لكن يمكننا القيام برد فعل عدائى لو أبدى الطرف الآخر عدواناً بصورة ما (أى نقرة بنقرة)<sup>(4)</sup>. وإذا كان الغرباء ضعفاء فمن الممكن أن تستفيد الجماعة من الهجوم عليهم والاستيلاء على مواردهم، سواء كانوا عدوانيين أم لم يكونوا. وفى تعريفنا، باعتبارنا مراقبين محايدين وغير منحازين. فإن هذا السلوك نوع من القسوة الناشئة عن جمود القلب وتحجر المشاعر.

أما إذا اتضح أن الغرباء أقوى، وعدوانيون، فقد توازن الجماعة هذا الوضع ببرد فعل معتدل في مستوى العنف (أى بالقدر الذى نحتاجه كى نحافظ على سلامة جماعتنا ونردع الجماعة التى من الخارج). لكن هناك مخاطرة فى ذلك؛ فقد تعود هذه الجماعة لتعتدى علينا بقوة أكبر فى المستقبل. ومن الصعب أيضا تحديد قدر العنف المطلوب، خصوصا فى أثناء القتال، فىكون الردع المعقول الذى أرادته الجماعة فعلاً شريراً ومثيراً للغضب فى نظر جماعة الغرباء المعتدى عليهم؛ وسيكون الرد بعدوان تارى شيئاً محتملاً جداً.. وفى مثل هذه الحالة، يمكن للجماعة أن توفر نفقات الدفاع ضد العدوان المحتمل بأن تستخدم العنف الزائد عن الحد والمتناهى، إما كى تبدو خطيرة جداً لدرجة أن أحداً لن يجروء على مهاجمتها، وإما أن "تزيح" من تحاربه نهائياً وعلى نحو حاسم.

إن تطبيق مفاهيم "نظرية التطور" على قسوة البشر يمكن أن يوضح سماتها ومظاهرها المحيرة، مثل: الاتجاه الشائع بأن القسوة تكون أسهل لو تمت من مسافة بعيدة. ومن تدرب على الاعتقاد فى الديمقراطية قد يجد أن قتل الضحية شىء مزعج بالقدر نفسه سواء تم أمامه أم لا (بعيناً عنه)، لكن فى الواقع نحن مخلوقات تتأثر بما نراه وجهاً لوجه، والمشاهدة المباشرة تحدث فرقاً كبيراً جداً. ولقد طوّرت أسلافنا الاتصال المباشر والملاحظة، مثل القدرة على قراءة إشارات الخطر عن بعد والاستجابة لها، قبل أن يستطيعوا التفكير فيها كرموز بزم من طويل. والبعد فى المسافة سواء تم بالأيدىولوجيات أو بالتكنولوجيا أو بكليهما؛ يقلل من مأساة أو حزن الضحية حتى تكبت السلوك العداونى. وتركيبية المجتمعات الحديثة بصفات الجمعية وغير الفردية وبتقسيماتها المتخصصة للمسئوليات قد قللت أيضاً من الإحساس بالتغذية المرتدة الاجتماعية والجوهرية وشديدة السلبية التى ساعدتنا فى التحكم فى

أسوأ صفات أجدادنا. و عن الطرف الثالث، الضحايا "عن بعد" -خصوصا عندما نتخيلهم جماعات شديدة التناغم - يكونون أقل واقعية بكثير عن المخلوقات التى نراها تبنى أمامنا، إنهم يبدون كما لو كانوا كيانات مجردة مثل الأرقام، يثيرون فينا فقط "خيالات" من العواطف التى كان يجب أن نكابدها لو رأينا دماءهم بالفعل، كالحزن والخوف. أما بالنسبة إلى مرتكبي الجرم؛ فإن الضحايا "عن بعد" من السهل إقصاؤهم ومعاملتهم بجمود القلب؛ ما يسبب قليلاً من القلق وعدم الارتياح.

## لماذا كان الجنس البشرى أقسى كثيراً جداً من المخلوقات الأخرى؟

لقد طور عديد من أصناف المخلوقات ردود أفعاله ليتعامل مع التهديدات الشائعة (ردود الفعل تجاه الخوف إذا كان التهديد لا يمكن مقاومته، واستجابة بالغضب للتهديد القوى الذى يمكن مقاومته، والاستجابة بالقرف والاشمئزاز للتعامل مع المواد التى تحمل ناقلات المرض كالجراثيم، والسموم) . ولقد طورت كائنات أخرى، ومنها الجنس البشرى، القدرة على التحكم فى ردود الأفعال وتوجيهها لدرجة ما. أما تنظيم العواطف فهو مفيد بصفة خاصة فى التفاعل الاجتماعى، ذلك لأنه يقلل من العدوان الجسمانى، ولأنه يسمح للأفراد بأن "يتصنعوا العواطف" التى قد لا يشعرون بها فعلاً (أو التى لا يحسونها بقوة كما يتظاهرون بها).

ولقد أعطى العيش فى جماعات للإنسان مكافأة للأفراد الذين لديهم القدرة على التنبؤ عن بينتهم المادية والاجتماعية، بما فى ذلك سلوك الآخرين. ولقد أتاح تطور التفكير الرمزى لدى البشر القدرة على التنبؤ ليتفوق الإنسان على قدرة الأنواع الأخرى من الكائنات؛ فازدهرت لديهم الصور الذهنية عن مشاهد الثقافة، ما يعنى أن الأفكار أصبحت مهمة فى ذاتها، وكانت نتيجة هذه النقلة الاستثنائية

أن ازداد عدد الأساليب التي يمكن أن يعاني منها الجنس البشري. فنحن الآن نتنفس ونأكل لأننا نتغذى بالرموز وليس بالغذاء المادى فقط، وبإمكاننا أن نحسب المثل العليا ونلتزم بالمعتقدات، ونوقر الأحلام ونعتز بها، وأن نشعر بالغضب من التهديدات التي يُقصد بها النيل من الكيانات الرمزية لنا، مثل الأعلام أو الكتب. ويعنى هذا أننا نفقد كثيرا جداً، أكثر مما كان بالنسبة إلى أسلافنا الأدنى مرتبة، من القدرة على التخيل.. وعندما يُجردون السجن من ملابسه فإنه يعاني جسدياً - من البرد مثلاً- ومادياً - لو أُلغوا ملابسه أو أشياء ثمينة- لكن الضرر الأكبر هو الإيذاء النفسى؛ الإذلال وتجريده من صفته الإنسانية ونزع جزء كبير من هويته المدنية والبشرية. إن الإبحار فى محيط من الأفكار يُعرضنا لكثير من الضيق والتهديدات، وبعض الضرر أو السرور أكثر مما مر به أجدادنا الذين لم يفكروا بالرموز<sup>(٥)</sup>. وهناك أنواع أخرى من المخلوقات تستطيع "تشكيل" الواقع لكنها أقل قدرة على التنبؤ، ولديها أسباب أقل لممارسة القسوة، بينما نحن البشر نملك خيالاً أرحب يُمكننا به أن نحلم بأنواع معقدة من تعذيب الآخرين<sup>(٦)</sup>.

وتنشأ التهديدات عندما تتعارض المعتقدات مع الواقع أو الحقيقة، فنتوالد الرغبة فى حل هذا الصراع (أى الحاجة إلى التحكم)؛ فإن كانت المعتقدات قوية جداً، أو كان بالإمكان "تعديل" ومواءمة الواقع، فالجهد اللازم للتكيف مع الحقيقة سيكون أقل، ولأن معتقداتنا القوية جزء لا يتجزأ منا؛ فإن تهديدها يُطلق ردود فعل "تشوئية" ومطورة بشدة - والتي لن تتناسب دائماً مع الأخلاقيات الحديثة. وإن كان "تشكيل العالم" يسبب المعاناة فإن الفريق الثالث الذى لا يشاركنا معتقداتنا قد لا يتقبل ادعاء من يعتقد هذه المعتقدات بأن أفعاله لها ما يبررها، ومن ثم سوف يرى أنه قاس وسلوكه يتسم بالقسوة.

## لماذا نكون غالبا قساة القلوب مع الأقارب المقربين ومن نهتم بهم؟

إن المناقشات الأساسية لحجة "النشوء والارتقاء": تقترح أن قسوة الجنس البشرى يجب أن تُوجَّه في الغالب إلى الغرباء، بينما تُوجَّه سلوكيات الإيثار إلى أفراد الجماعة أو الأقرباء، لكن الإيثار مع الغرباء - حتى عندما لا تكون هناك فرصة في توزيع الفعل الجميل - فإنه يُعزف وينتشر، ويحدث الشيء نفسه مع القسوة الغيرية التي بها يستخدم الناس مواردهم ليجبروا غيرهم على أن يكسر القواعد الاجتماعية.. وهل يتحتم علينا لذلك رفض نظرية داروين، ليس بعد، وكما ذكرنا في الفصل الثالث فإن البحث العلمي يقترح أن الإيثار للغرباء "العقاب الإيثاري" قد تكون له فوائد وفرص للشخص وهي أن "ينقل" جيناته.

والقسوة تجاه أفراد الجماعة شائعة أيضا، وجمود الفؤاد مع الأصدقاء وأفراد العائلة يبدو أنه يكون، في أفضل أحواله، مضادا للتكاثر، وفي أسوأ أحواله نوع من "الانتحار الجيني".. كيف نفسر مثل هذه القسوة؟

إن أحد العوامل، كما أظهرت صناعة "اختبارات المنشأ"، هو أن طاقة البشر الطبيعية في الاستدلال على الأقارب ليست آلية. فالاصطفاء الطبيعي لا يتكرم بالصدقات ولا يعطي لافئة بالأسماء (شيء غير محدد): وبينما الدلالات أو التلميحات السلوكية (مثل الطرق المميزة في السلوك والأسلوب، أو الفترة الزمنية التي قضوها معا في الطفولة) والدلالات والتلميحات البدنية والمادية (مثل العرقية والتشابه الجسدي)، تعتبر مهمة بلا شك، وهي ليست كافية دائما لتحديد من هو القريب أو المقرب المدلل<sup>(٧)</sup>. وقد تطورت لدى الجنس البشرى نظم حساسة لكشف الغش ولتقييم إخلاص الرفيق أو الزميل. لكن، كما أدرك "عطيل" في مسرحية شكسبير، فإن هذه النظم ليست دائما دقيقة وصادقة<sup>(٨)</sup>.

وكما هي الحال في الدلالات السلوكية والبدنية، فالحكم على التشابه بين شخص وآخر يعتمد أيضا على "التلميحات" الرمزية- مثل التشابه في المعتقدات أو الاهتمامات المشتركة أو- ببساطة - مجرد التعرف على صلات القرابة. لأن كثيرا من الهوية الإنسانية توجد بشكل رمزي. وتقديرات التشابه توصينا باعتبار الموقف الأخلاقي: هل هذا الشخص قريب، يمكن تقييمه، أو ليس قريبا فهو تديد محتمل؟ والتشابه النفسي، مثل التشابه البدني أو السلوكي والتاريخي، من الممكن أن يؤدي إلى اعتبار الشخص على أنه، (إن لم يكن أخوه الذي فقدناه من زمن طويل، فإنه على الأقل مثلنا: قريب رمزي<sup>(٩)</sup>.. إننا قد نفترض أن مثل هؤلاء الناس قد منحوا الجينات المشتركة معنا، لكننا نعلم أنهم يشاركوننا في قيمنا وأفكارنا، وفي حلبة "النشوء والارتقاء" الثقافي فإن مرتبتهم وتقييمهم باعتبارهم أشقاء- أى أنهم متعاونون إلى أن نكتشف أنهم منافسون لنا، كما يمكن أن يكون الأشقاء)، ويمكن أن يكون ذلك كافيا ليعث التعاطف، وكل التلطف الإنساني المصاحب له<sup>(١٠)</sup>.

والتشابه يمكن أن يكون محددا قويا للسلوك، إذ يدفع بالناس من أعمار مختلفة وعرقيات مختلفة وطبقات اجتماعية مختلفة إلى التعاون معا. إن العلوم والأديان التي لها ثقافات "ثقيلة" خاصة - أى أنها مجموعة من المواقف والسلوكيات والقيم المحددة والمركبة التي تجعل العلماء أو رجال الدين يعرفون الآخرين مثلهم بسهولة- وبهذا يشكلون أمثلة واضحة على قوة التشابه<sup>(١١)</sup>. فالعالم البريطاني (نمطى) ورجل من الطبقة المتوسطة له خبرة بالعمل الجامعي وتدريب مهني ممتد) قد يشعر براحة مع نسخة مطابقة له من عالم ألماني، أو صيني أو باكستاني، سواء في المعمل أو المقهى. وقد لا يشعر بالراحة مع آخر ليس عالما مثله ولكنه بريطاني، خصوصا إذا كانوا من الطبقة العاملة أو الطبقات العليا، ذلك لأن الثقافة "البريطانية" المشتركة "ضعيفة" إذا ما قورنت بـ "قوة المجال" العازلة والمرتبطة بالطبقة الاجتماعية والمهنة.

وكثير من حالات جمود القلب مع الأقارب تناسب المنطق الذي عبر عنه ويليام هاملتون<sup>(١٢)</sup> "William Hamilton"؛ فقد استغل الوالدين الذين لا يمكنهما الإنجاب، أو قتل الأطفال ممن ليست لديهم فرصة للحياة، ليتيح موارد محدودة تتركز على العمل الحيوى للجينات. وكل من الجنس البشرى والأنواع الاجتماعية الأخرى عُرف عنهم أنهم يتخلون عن الشيوخ الطاعنين فى السن أو يتخلصون منهم، أو حتى الأعضاء الصغار من جماعتهم<sup>(١٣)</sup>. وقد تنتج حالات أخرى من القسوة عن هذه المشكلة المذكورة سابقاً، وهى التدرج فى العنف المُتعمد الذى يقصد به العقوبة (خصوصاً إذا كان المجرم ثملاً أو مخدرًا وقت ارتكاب الجرم، كما يحدث غالباً فى العنف الأسرى).

وقد تنشأ حالات غلظة القلب أيضاً من الأحكام السلبية الخاطئة بخصوص التشابه، فعندما يجد الناس أنفسهم فى صراع يتلاشى حتمياً إحساسهم المشترك، وهنا يتضح الاختلاف بينهم - الذى كانوا يتعافلون عنه فيما سبق - ويكون أكثر وضوحاً ولاقئاً للنظر<sup>(١٤)</sup>. ويضيف إقصاء الآخر المتزايد طبقات من التهديد للخلاف والنزاع الأسمى؛ فيجعله أكثر بروزاً وتأثيراً فى الطرفين المتنازعين، وبذلك يمهد لتصعيد الكره والحقد المتبادل. إن الصديق عندما يتضح أنه بدأ يشكل تهديداً قد يظل على مسامح "كصديق"، لكن الخلفية العاطفية ستقدم لنا حكماً مختلفاً.

وفى الختام، وكما أسلفنا، فإن "الاصطفاء الطبيعى" نادراً ما يكون ديكتاتوراً قاهراً وربما لن يكون أبداً كذلك، على الأقل بالنسبة إلى الجنس البشرى. إننا نحن الذين طورنا تهديدات لنكون عدوانيين بشدة وطورنا ردود أفعال شديدة العدوانية تجاه التهديدات لنواجه بها التحديات العامة الشائعة بين البشر، لكننا طورنا أيضاً مجموعة إضافية من الأسباب القوية للانشغال بتشكيل العالم الواقعى، بعنف أو بدون عنف. ويمكننا أيضاً أن نرتكب أخطاء إذا كانت ردود أفعالنا أكثر عدوانية

عما تتطلب الظروف. وليس على سبيل المصادفة أن كثيرا من مرتكبي جرائم القسوة ضد الأطفال يرون جرائمهم وكأنها مجرد عقاب (أى أنها مبررة لفرض النظام). فالطفل بالنسبة إليهم ليس ضحية بريئة ولكن عنصر تحد، فهو يخطم التوقعات عن كيف يكون النظام، وقد يهدد أحد الأقرباء المقربين المعتقدات والصورة الذاتية لشخص ما، أو يشوه عالمه "المنظم" بمطالب ورغبات تبدو غير معقولة، فيكون مثل الغرباء أو أكثر منهم. وحتى عندما يتطلب منطقنا الأخلاقي "التطوري" و"النشوي" التحفظ أو الاعتدال، فإننا نحن البشر قد طورنا قدراتنا ودوافعنا على أن نتجاهل وننكر ونهدم كل المبادئ الأساسية والمنطقية.

## ما العلاقة بين القسوة والتعاطف؟

أيها الوحش البشرى ماذا فعلت هنا  
بإتسان برىء مطحون يعانى دون سواد روح  
أنقلتها الأحزان والهموم؟ وهل تحتمل عيناك  
النظر إلى الجرم والعار الذى لوث يديك إن كان  
قلبك حينها رق ولان؟ لكننى لن أبارك ما فعلته  
هنا ولن أجاهد النفس حتى أوجد أفكارى معك.

(من قصيدة "الحرب الأهلية" للشاعر "صامويل دانيال" (\*)) (Samuel Daniel)

ترجمتى

---

(\* شاعر ومؤرخ إنجليزي (١٥٦٢-١٦١٩)، وتورخ قصيدته الطويلة هذه (٩٠٠ بيت) لبعض الحروب الأهلية المحدودة في عصره.

لقد تطورت استجابة الإنسان للتهديد والعواطف المصاحبة له فى مواجهة الأخطار العامة، لكن ذلك يكلف الإنسان كثيرا، وعندما تتكرر هذه الإثارة باستمرار يمكن أن تحدث أضرارا جسمانية، فتهديدات الخطر غير الملائمة التى تطول فترات بلا ضرورة تبديد الطاقة وتعرض الفرد لأضرار نفسية، وقد تُثير العداة والكرهية من الآخرين من ذوى الحيثة خصوصا من الطبقات الاجتماعية العليا، فمن المعقول إذن أن نقتصد فى رد الفعل حتى يمكننا كبتة والتحكم فيه سريعا؛ ما دام التهديد قد انحسر أو عرفنا أنه إذار كاذب بخطر غير صحيح، وليس عجيبا أن كثيرا من الحيوانات تستخدم، ولديها المهارة والخبرة على اكتشاف، "علامات توقف" وإشارات تدل على الاستسلام أو الخوف حتى تجعل الاستجابة للتهديد بالخوف محايدة أو غير عدوانية، وحتى تحد من الاستجابة لتهديدات الخوف، وفى الجنس البشرى تتضمن هذه القدرة كلاً من التواصل اللغوى (بالكلام) وغير اللغوى (بالإشارات) مثل: المعارضة أو النفور بمجرد النظرة المحدقة (والغاضبة).

أما ردود الفعل تجاه التهديد بالقرف، التى تحمى السلامة النفسية والجسمانية وذلك بابتعاد الفرد عن الشيء المقزز، فيقل التقزز بمجرد زيادة المسافة بينهما، مثلما ينتهى أو يقل الخوف بمجرد انصراف المجرم (فاعل الجرم). لكن الأشمزاز، مثل الخوف والغضب، له دور اجتماعى شهد تطورا؛ فهو يُشكل الاستجابة لأى دليل على المرض لدى الآخرين. (ضرر بالجلد، جروح عميقة، رشح بالأنف.. وهكذا). ولو كان أساس الدور الاجتماعى للتهديد بالقرف هو رد الفعل الناتج عنه؛ فإننا سنتوقع أن ردود الفعل النمطية تجاه المرضى من الناس سوف تعكس ردود الفعل التى تثيرها دوافع الأشمزاز الأخرى؛ تجنب المصدر، طرده كلية أو إزالته والتخلص منه تماما، وغالبا ما يحدث ذلك بالفعل عندما يكون المرضى أفرادا من خارج الجماعة. وتكون دوافع القرف "أقل إثارة لو صدرت

عن الأقرباء المقربين أو من الذات، غير تلك التى نأتى من بعيدى القرابة أو الغرباء، ذلك لأننا نظن أنه فى الحالة الأولى يكون التشابه الكبير فى ناقلات المرض والجراثيم سببا فى اعتيادك على جراثيمها، بينما الكائنات الممرضة الآتية من الغرباء ستكون خطيرة جدا<sup>(١٥)</sup>.

وهناك مسألة أخرى، وهى عن أفراد المجتمع الذين يكلفونه الكثير، فالتخلص من الأفراد المرضى مدعاة لكثير من الإنفاق أو الإسراف، باعتبار أن كثيرا من الأمراض المعدية لها أعراض كريهة وبغيضة ولا ينتج عنها الموت أو العجز الدائم، والحفاظ على حياة هؤلاء المرضى تحمينا من العدوى لكنه أمر مكلف، وأحد الاختيارات هو "الحجر الصحى" وهو نظام رسمى لاجتائهم، وتعمل به المجتمعات المستقرة (مثل "بيوت المجذومين" المخصصة لمرضى الجذام فى العصور الوسطى) لكن ذلك يمثل مشكلة فى مجتمعات أخرى يكون فيها ترك المريض بمفرده أمرا مهلكا أو مميتا<sup>(١٦)</sup>. أما الجماعات التى يستطيع أفرادها التغلب على رد فعلهم الراض لهم ويراعون المرضى من الأقارب؛ فسوف يكسبون ثلاثة أشياء على المدى الطويل: عدم فقد أفراد قد يفيدون الجماعة بلا داع، تقوية المناعة داخل الجماعة، وزيادة التماسك بين أفرادها نتيجة لقوة الروابط بين من ينجون من المرض ومن قاموا على رعايتهم<sup>(١٧)</sup>. إن قبول الغير والميل لهم، بل وحبهم، هو الورقة الراجعة فى مواجهة تهديدات القرف.

إن حب الغير قد ينشأ عن الافتتان بسبب الجنس أو علاقات الاعتماد عليهم، أو من التشابه معهم<sup>(١٨)</sup>. والأسس المشتركة بين الناس قد يتم التعرف عليها من خلال التفكير الواعى على أساس الحوار الذى يكتشف منه كل حزب رؤية الآخر عن المعتقدات المهمة، أما التشابه فقد يتم اكتشافه أيضا بسرعة أكبر كثيرا ويتلقائية من خلال التعاطف أو التقمص العاطفى، إنه القدرة الإنسانية الرائعة على المشاركة فى التجربة.

ويأتى التقمص العاطفى او المشاركة الوجدانية بعدة أشكال وصفات<sup>(٦)</sup>.  
أولها يحدث عن طريق "الخلايا العصبية العاكسة أو المحاكية" (وهي خلايا بالمخ لا تثار أو تتشبط، مثلاً، عندما تحرك يدك، ولكن عندما تتشاهد أنت أحدا يحرك يده)، وهذا كنوع من "المشاركة الحركية". وقد كشف البحث العلمى عن أن المخ فيما يبدو يستخدم كثيراً من الموارد نفسها فى مناطق متشابهة من القشرة الجدارية وقشرة الفص الجبى، حينما نقوم بحركة حالما نفكر فيها فى اللحظة نفسها مثلاً. وكذلك تجربتنا عندما نرى شخصاً آخر يؤدى الحركة نفسها؛ فإن إحساسنا يشبه كثيراً ما نحسه نحن لو أدبنا هذه الحركة<sup>(٧)</sup>. وهذه الظاهرة تتطبق على حركة العضلات. والأفراد الذين لديهم استعداد كبير للمشاركة الوجدانية، هم الذين يفعلون أو ينتفضون فى ضيق أثناء مشاهدة فيلم سينمائى ويصيبهم ألم فى العضلات وصداع، وينشط لديهم عديد من الأنماط العصبية التى تحدث أثناء حركتهم الفعلية، فتكون حركتهم التخيلية (مما يشاهدونه) ليا التفاصيل المعينة نفسها وكأنها حقيقية ويؤدونى بالفعل، لكن المشاركة الوجدانية بالحركة يمكن أن تحدث أيضاً على المستوى المجرى من الأحداث - أى أنها تحدث حتى فى الحركات غير المتشابهة نهائياً مادام الفعل هو نفسه، وذلك فى حالة رسوم الكارتون (المجرى)، فعندما ينكمش ولد من الرعب، أو كلب، أو شبح أو حتى سمكة، فسوف نفعل مثلها على الرغم من أن أجسامنا نحن "تنكمش" بحركة وطريقة مختلفة تماماً.

ويقترن التقمص العاطفى الحركى، كما يتضح فى المثال السابق، بالتقمص الإدراكى والمعرفى، أو بالنظرية الذهنية<sup>(٨)</sup>. وبالتقمص العاطفى كذلك. وتتيح لنا النظرية الذهنية تخمين واستنتاج معتقدات وأغراض ونوايا غيرنا من الناس من سلوكهم، فالتقمص الوجدانى للعواطف والأحاسيس الجسمانية التى يعتمدون عليها

قد تسمح لنا بأن نشعر على الأقل بشيء مما يشعرون، ويبدو أن التعاطف والمشاركة الوجدانية في الألم، مثلا، تُنشط المناطق نفسها في المخ التي لها دخل معين في تجربة الألم الخاصة بشخص ما وبعواطفه السلبية<sup>(21)</sup>. وتعتمد الأنواع الثلاثة للتعاطف على الحقائق الإحصائية الأساسية التي تمثل الأولوية في عمل المخ، هذا الترابط في العلاقات المتبادلة هو الذي يضمن أن الأحداث المماثلة، عموما، تُعطى استنباطاً أو أنماطاً عصبية متشابهة. وعندما تقلد، فعلاً، شخصا آخر (إيماءاته وتعبيرات وجهه مثلا) فإنك تجعل أنماط فكرك مثله تماما. وعندما تستخدم ذكرياتك الخاصة عن مواقف مماثلة لتبني توقعاتك عما سوف تفعله في هذا الموقف، فإنك بذلك قد تثير الاستنباطات الذهنية التي تدعم أحاسيسك التي كنت ستشعر بها في تلك المناسبة، وقد تثير أيضا ذكريات تصرفك في الماضي حتى تُكوّن "نموذجا" يُمثل رد الفعل العاطفي بصورة أكثر واقعية.

وكل الأنواع الثلاثة من المشاركة الوجدانية مهمة للتفاعل الاجتماعي خصوصا في معرفة إشارة "التوقف" عن فعل شيء ما. والتعاطف الإدراكي والحركي يسمح بيذه الإشارات من قبل الضحايا ليستدل عليها المعتدون (ومرتكبو الجرم) أصحاب السلوك العدوانى، فبقارن مع القواعد الاجتماعية المستتيرة للسلوك (وهذا هو كيف تُفسر إشارة الاستسلام من الناس المعتدى عليهم)؛ حتى تُخمن نوايا الضحية ونستدل عليها. ويعطينا التقمص العاطفى الدافع على هيئة شعور غير سار مبعثه ألم الضحية وفرعها، حتى يتوقف عن العدوان، كما لو كان المعتدى يعانى الألم والفرع نفسيهما<sup>(22)</sup>.

ويكون التعاطف بذلك هو آخر خط للدفاع بالنسبة إلى الضحية ضد قسوة التفاعل، وعندما تفشل التقاليد والأعراف الاجتماعية والقانونية: يمكن للمجرمين أن يُقلعوا عن الإيذاء بالإدراك المفاجئ للمشاركة فى الإنسانية<sup>(23)</sup>. وحتى المُحتكرين

من ذوى الخبرة سوف يتأثرون ويتعاطفون، وهناك مثال مشهور من الحرب العالمية الثانية حدث فى قرية بايلايا سيركوف "Byelaya Tserkov" الأوكرانية فى عام ١٩١٤: عندما علم الجيش الألمانى أن نحو تسعين طفلاً يهودياً ممن أعزهم والداهم وضعتهم ميليشيات الجيش الأوكرانى تحت الحراسة فى منزل دون طعام. وكما حكى قائد الجيش "الكاثوليكي" الذى فحص المكان:

كان الأطفال ينامون أو يجلسون على الأرض المغطاة بالقاذورات. وكان الذباب يقف على أرجلهم وأجسادهم، وبعضهم لا يرتدون ملابس كاملة. وكان بعض الأطفال الأكبر سناً (عامان أو ثلاثة أو أربعة) "ينبشون" الملاط من على الحائط ويأكلونه. وبدأ اثنان من الرجال تنظيف الغرفة، بينما كان الأطفال الصغار (وعمرهم شهور قليلة) يبكون ويننون باستمرار. ولقد فزع وصدّم الضباط الذين زاروا المكان، مثلنا، من رؤية هذه الأحوال غير المعقولة التى لا تصدق وعبروا عن غضبهم واستيائهم منها<sup>(٢٤)</sup>.

ولم تكن نهاية هذه القصة الفاجعة نهاية سعيدة؛ فقد أطلقت النيران على هؤلاء الأطفال بعد يومين. وشهد الإعدام الضابط الألمانى أوجست هوفنر "August Hafner"، وقال فيما بعد: "كان النحيب لا يوصف. إننى لن أنسى أبداً هذا المنظر طوال حياتى.. إنه شئ يفوق الاحتمال.. وأتذكر على وجه الخصوص

طفلة شقراء صغيرة أمسكت بيدي، وأطلقت النار عليها أيضا فيما بعد.... وقد ضرب الأطفال كثيرا قبل أن يموتوا<sup>(٢٥)</sup>.

ويميل الناس غالبا إلى أن يعتبروا القسوة السادية أسوأ أخلاقيا، وأكثر شرا، من غلظة القلب، لأن الساديين يقصدون تماما التسبب في المعاناة، وهذا هو السبب في أن التعليق الشهير من حنا أرند "Hannah Arendt": "الشر شيء نافته ومبتذل" كان مثارا لكثير من الجدل<sup>(٢٦)</sup>. وباعتبار ما يُصيب الضحايا من الشر، فإن قساوة انقلاب تُعتبر قسوة بالغة. وفي القرية التي ذكرناها أعلاه كان هدف النازي هو القضاء على اليهود، حتى الأطفال منهم. وعلى العكس من ذلك، فقد كتب أحد القساوسة في تقريره يقول: "لقد عبر الجنود، في فرقة كانت بالقرب من المنزل الذي به الأطفال، عن استيائهم الشديد من أحوال هؤلاء الأطفال. وقد قال أحد الجنود إنه لديه أطفال مثلهم". وتختلف المشاركة الوجدانية من شخص لآخر، فيناك على الأقل بعض الجنود الذين شعروا بأن هؤلاء الأطفال بشر، وليسوا، كما قال ضابط آخر لا يُبدى تعاطفا معهم: "إنهم نسل يهودي لا بد من القضاء عليهم". وعلى الرغم من المناداة بأن "القساوسة" في الجيش يجب أن يلتزموا بالمسائل "الروحية" والدينية فقط، ومصالحة الجنود في هذا المضمار، فإن الكاثوليك والبروتستانت منهم زودوا الأطفال بالخبز والماء<sup>(٢٧)</sup>.

وقد يُقال: إن هذه الواقعة ليست سادية، لكنها إطاعة لأهداف مؤسسة بالغة القسوة، وهذا تعريف غير دقيق يعتبرها ممارسة وليس مبدأ، ولنترك مساحة لشيء من الشفقة... فقد كان هناك بعض الجنود عن الأقل ممن تقمصوا وجدانيا آلام الضحايا واهتموا بهم، ولم يسعدوا بمأساتهم وبؤسهم. وقد سعى الضباط الألمان إلى تخفيف أثر معاناة الأطفال على العاملين بالجيش (وعلى سبيل المثال، فقد وضعوا

فرق الجيش بعيدًا عن المنزل الذي كان به الأطفال، وأصروا على أن يقوم بالإعدام الجنود الأوكرانيون وليس الألمان)، وحاولوا أيضًا التخفيف من وقع تبريراتهم الأيديولوجية للقتل، فقبل في أحد التقارير التي قدمها ملازم بالجيش إلى رئيسه المارشال ريتشينو "Reichenau": "كان من المحتم إبادة الأطفال فورًا حتى نضع حدا لهذه المعاناة غير الإنسانية"، وبهذا فإنه يفسر الجرائم من قلب "جامد" وبلا إحساس على أنها قتل بدافع الرحمة والشفقة<sup>(٢٨)</sup>، إلا أن هذا التعاطف وعدم الارتياح لذلك لم يُوقف المذبحة. ويبدو أن القسوة الناشئة عن غلظة الفؤاد تبدو أقل فضاحة ومُقتًا من السادية، لكن هؤلاء الأطفال كانوا من الاثنين "القسوة والسادية".

### لماذا ومتى يتشجع القساة على مزيد من القسوة؟

إن أحد مقتضيات الطريقة التي يعمل بها المخ، كما ذكر في الفصل الرابع، هو أن تنشيط أحد المسارات العصبية يُنشط المسارات الأخرى المرتبطة به أو المتداخلة معه في الوقت التالي لهذا التنشيط.. والحديث عن الفعل القاسى يُسهل على المرء أن يكون قاسيًا؛ إلا إذا كان الحديث يُشير إلى العقوبة التي وقعت عقابًا لذلك. وتنفيذ الفكر الذى ينادى بإقصاء الآخر، خصوصًا فى الجماعات التى يتنافس أعضاؤها على المناصب ويهاجم بعضهم بعضًا، يمكن أن يدفع الناس إلى إقصاء مبالغ فيه للآخر وبسرعة فائقة.

ونضيف إلى ذلك إن العقول تعتاد الآتى: حافظ متكرر يثيرها بصفة متتابعة، سلوك ما، أو عاطفة تثير نشاطًا فى الخلية العصبية أقل حدة مما سبقه من نشاط. لذلك فكلما امتد الوقت الذى نقضيه فى المراحل الأولى لإقصاء الآخر، خصوصًا إذا تضمن المناقشة الواعية وتخيلًا لمراحل مبالغ فيها من الإقصاء، يسر ذلك

الانتقال إلى قسوة أعنف وجعلها أكثر قيمة وقبولاً.. ومرتكبو أفعال القسوة الذين لم "يرتّبوا" لذلك قد يشعرون بعواطف قوية عندما يواجهون بفضاعة الحقيقة. ومثال على ذلك ما قاله السائق الألماني الذي قاد السيارة النقل إلى المعتقل وواجه مشهيد قتل ثلاثة وثلاثين ألف يهودي في بابي يار "Babi yar" في يومين فقط: "لقد صدمني المنظر الفظيع الذي لم أحتمل أن أطيل النظر إليه... فقد ذهلت وتحيرت من منظر الجثث المملخة بالدماء وهي ترتعش، حتى إنني لم أستطع تسجيل التفاصيل بدقة<sup>(٢٩)</sup>".

ويملك المتمرسون وذوو الخبرة قدرة أكبر على ضبط وتعديل أفكارهم وأفعالهم كي يقللوا من التأثيرات العاطفية لسلوكهم. وما يُعتد به هو أن تطول فترة التدريب، ويعلم ذلك جيذا القادة العسكريون. وقد يتعجب بعض هؤلاء القادة من انعدام الإحساس لديهم، مثلما كتب أحد ضباط القيادة الألمان فيليكس لاندو "Felix Landau" في مذكراته بعدما أطلق النار على اليهود في صباح أحد الأيام: "إنه شيء غريب! إنني لم أفعل إطلاقاً ولم تتحرك مشاعري. لا شفقة ولا شيء. هذا هو ما تم وما صار. ولقد انتهى الأمر". ولم يكن هذا الرجل غير قادر أو غير مؤهل للتأثر العاطفي أو المشاركة الوجدانية (فلقد كان قبل الحادث قلقاً على صديقه) وكان يعلم أن ما فعله يتعارض مع قيمه ومثله العليا. ("أليس عجيباً أن تحب وتكون لك صديقة ثم تمارس القتال وتطلق النار على قوم غزل!). إن هذا الضابط حتى طبق "نظرية العقل" على ضحاياه وكتب: "ماذا يا ترى كان بنور بعقولهم في هذه الدقائق؟" (عند إطلاق النار عليهم). أظن أن كل واحد منهم كان لديه أمل ضئيل أنه، بطريقة ما، لن تطلق عليه النار؛ ثم إنه تذكر مشاعره الشخصية عندما واجه الموت منذ سنوات: "إنني مازلت صغيراً لكن سينتهي كل

شيء... إن هذه كانت أفكارى، وعندئذ نَحَيْت هذه المشاعر بذلك بنوع من التحدى.. إن موتى لن يكون هباء ولن يضيع سدى.. وها أنا موجود الآن.. لقد نجوت وأنا الآن واقف أمام قوم آخرين لأطلق النار عليهم" (٣٠).

ولا يحتاج مرتكبو أفعال القسوة من أصحاب القلوب المتحجرة إلى أن ينكروا تأثيرها فى الضحايا، فلقد رأى هذا الضابط أن ضحاياه لديهم أفكار ومشاعر ولقد تنبأ بسلوكهم كما هى الحال مع أى إنسان آخر (وتحير لأنهم لم تكن ردود أفعالهم كما توقع). وعلى الرغم من أنه تعرّف على عواطفهم، فإنه لم يتطرق إلى ذهنه أن يشاركهم هذه العواطف. فاليهود ليسوا أهدافاً مناسبة للتعاطف والمشاركة الوجدانية؛ فذلك يقتضى الاعتراف بأنهم بشر مثلنا. لقد وافق على أن التبريرات النازية قانونية، وهى كما تصفهم تصريحات أحد القادة من الضباط بأنهم "تحت حراسة أقوى فرق الجيش لأنهم أسوأ أنواع الأعداء للدولة". إن هذا شيء أساسى، فهذه أخلاقيات التعصب العرقى فى أشد أحوالها صرامة، لأن ما يعنى جماعته هو ألا تمس أو تتغير قيمهم وأن تنفذ هذه القيم والأفكار. لقد كتب هذا الضابط بلا تهكم يقول: "لقد عبرنا عن توفيرنا، قبل ذلك، لمن قُتل من رجال الطيران الألمان والأوكرانيين. لقد قُتل ثمانئة منهم هنا فى لمبرج "Lemberg". أما هؤلاء الحثالة فلم يؤثروا فىنا، حتى الأطفال (٣١). إن حثالة القوم فى نظره والذين يمثلون خطراً كبيراً هم اليهود البلشفيون، وهم العدو "الأخر" الذى يجب إقصاؤه، ويجب عقابه جزاء أفعاله الفظيعة. ولا يُفصح كل المعتدين بهذه الدرجة عما بداخلهم من أيديولوجيات تتحكم فيهم، إنهم يقبلون هذه المعتقدات باعتبارها جزءاً لا يتجزأ من نواتهم، وهم ممن يُحتمل أن يصروا فيما بعد على أن سلوكهم كان له ما يبرره (٣٢).

## لماذا يتصرف الناس بقسوة وهم يعلمون أن القسوة شىء خاطئ أخلاقياً؟

إن الموضوع الرئيسي لهذا الكتاب، كما فى الكتابات الحديثة عن نفسية وسيكولوجية مرتكبى الجرائم، هو أن أسوأ الفطائع لا يرتكبها أفراد أشرار كالشياطين نذروا أنفسهم إلى تمجيد كل الشرور.. هذا بعيد عن الحقيقة.. إن نفس الشخص مرتكب الجرائم، قد يُدَلُّ أطفاله ويعانقهم فى الفترات الفاصلة بين جرائمه التى يقتل فيها آخرين؛ إنه قد يفهم ويحاول التعايش مع قوانينه الأخلاقية التى نشأ عليها؛ وقد يستمر فى اعتبار نفسه مشايخاً ونصيراً لعقيدة إذا كان متديناً، وربما قد يُصنر أحكامنا الأخلاقية نفسها عندما يواجه أنواعاً من القسوة. والمشكلة بالنسبة إلى ضحاياه هى أن أخلاقياته يبدو أنها لا تنطبق عليهم.

فما الأسباب فى هذا الصدد التى لا تتيح للمصادرة الأخلاقية أن تفرض سلطتها على سلوك شخص ما؟ بل إنها قد ترخى قبضتها أحياناً! تخيل أحد الجنود وقد صدر له الأمر بأن يقتل سجيناً فيطيع على الرغم من أنه يعرف أن هذا غير قانونى أو أخلاقى. إن المشكلة هنا، فيما يختص بعمل الخلايا العصبية، هى عدم التنشيط الكافى للخلية؛ فالأنماط العصبية التى تكمن فى إدراكه الأخلاقى ليست لديها "الأصوات" الكافية فى "اللجان العصبية" التى تتخذ القرار لهذا الفعل. وقد يحدث ذلك لسببين. الأول: إن الأنماط العصبية قد تنشط، ولكن ليس بالقوة التى تكبت بها طوفاً أو دوراناً عصبياً راسخاً ومستقراً بالتدريب العسكرى، فالأنماط العصبية قد تضعف بفكرة إقصاء الآخر، أو أنها لم تكن قوية بالمرّة (لأن الشخص مثلاً لم يتعلم قط تقبل هذه القوانين الأخلاقية). إن هذه الأنماط قد تنشط ببطئ كى تمنع الفعل من الحدوث، خصوصاً إذا كان سيلاً وسبق التدريب عليه جيداً (مثل شد الزناد فى مقابل الطعن بسكين أو الضرب حتى الموت). وفى المواقف شديدة

الإثارة وفي أحوال التوتر، مثل مجابية أمر غير قانوني. من الممكن أن يجبر الإنسان على الاعتماد على أنماط استقرت منذ فترة طويلة دون أن تسمح لهم بالوقت ليفكروا في العوامل الأخلاقية؛ إلا إذا كانت الأنماط الكامنة في هذه العوامل قد نشطت بالفعل. وهذه، عادة، ليست الحالة التي تقرها فكرة إقصاء الغير.

وإذا كان عزل الآخر مؤثرا وفعالاً، فإن الجندي سيوافق على أن القواعد الأخلاقية العادية لا تطبق على هذا الموقف، فالسجين لا يُنظر إليه على أنه إنسان بالقدر الكافي (أى أنه لا يشبه الجندي بدرجة كافية)؛ حتى يستحق الضمان الاجتماعي الذي تُحصنه به القوانين الأخلاقية. وفي هذه الحالة الثانية تكون الأنماط الكامنة في الوعي الأخلاقي غير مؤهلة إطلاقاً لأن تنشط، فإننا لا تزال متاحة لديه. وفي أحيان أخرى قد يبرهن الجندي أنه يملك مستوى رفيعاً من السلوك الأخلاقي، ولكن في هذا الموقف بالذات تكون بلا لزوم أو جدوى.

وكيف يحقق إقصاء الآخر هذا التصديق الواضح للأفاق الأخلاقية؟ على افتراض ليس فقط التعاطف ولكن أحياناً معرفة الناس الشاملة والمعرفة الشخصية بضحاياهم؛ إن الجرائم الفظيعة التي تستهدف الغرباء تحدث بالتأكيد (ومذبحة "ماي لي" "وهيروشيما" مثال على ذلك)، لكن هناك من هذه الجرائم ما يستهدف "الولد" أو "البنيت" أو العائلة أو الجيران (كما حدث في "رواندا" و"سيدوان" وأماكن أخرى)<sup>(٣٣)</sup>. ولعله من السخرية المريعة أن فكرة عزل الآخر تجعل المجرم يرسم الضحايا أنفسهم على أنهم المجرمون الأشرار؛ فهم وحوش فاسدة لا يفهمون الأخلاقيات المألوفة ولا يؤثر فيهم العقل والمنطق. ولن يفشل ضحايا الجرائم الوحشية في جذب الأنظار إلى الجرائم الفظيعة ضدهم قيل أن يُهاجموا. والمثال واضح بدءاً من الطعن في التشهير بجرم اليهود إلى ادعاء كذب فلاحى الصرب عندما ذكروا الاعتداء الشائن عليهم من الألبان في كوسوفا<sup>(٣٤)</sup>.



شكل رقم (١٠): عنوان شهير في صفحة الجريدة الألمانية دير شترمر "Der Stürmer" - (عام ١٩٣٤) التي يرأسها النازي والكاتب المعادي للسامية جوليوس ستاير "Julius steicker"، والتي تدعى أن القتل الطقسي كامن في الدم اليهودي. وهذه رسالة واضحة: "اليهود هم مأساتنا"، ما يغرس في النفوس حديثاً عن مؤامرة - عن خطة اليهود لقتل غير اليهود - وهي دعوى تشيع الخوف والكره والقلق. ويدعم هذه الصورة خطاب "عزل الآخر"، فالصورة التي تثير الاشمزاز والتقزز هي رسم كاريكاتوري قبيح يُظهر اليهود كوحوش، لأن صورة الدماء التي تقطر من وعاء يحمله يهودي تستدعي للذهن فكرة منفرة هي "شرب الدماء" - وتتضمن الصورة أيضاً رسوماً مسيحية (الصليب) باعتباره موضع اعتداء. إن هذه الدعاية تشن أو توجج حرباً عاطفية على عدة جبهات.

ومهما كانت أساطير الجرائم الوحشية مثيرة للسخرية لغرابتها، فإنها يتم تصديقها على نطاق واسع الآن؛ وفي بعض الأحيان لأجيال متعاقبة وبعد أن يتنبه من يصدقونها بوقت طويل. فلا يزال هناك "ناس" يعتقدون في وجود بروتوكولات "حكما صهيون"، وهناك من يُنكرون حدوث "الهولوكوست". ويمكننا أن نصف هؤلاء بأنهم حمقى ومن السهل إقناعهم، لكن هذا ليس غباءً فقط (حتى إن كان سائداً في بعض الأحيان) لكن هذا نوع من "تشكيل الواقع": أى الدفاع المتعمد عن المعتقدات القوية بشيء ضد الواقع والحقيقة المرفوضة وغير المرغوب فيها. وقد تضحك من ضلال هؤلاء الناس (ولن تكون فكرة سيئة لو فعلنا)، إلا أن ذلك لا يجب ألا يُعْمِننا عن خطورة "تشكيل الواقع". وكما علق دافيد فرانكفورتر "David Frankfurter" في كتابه الشر مجسداً قائلاً: "في كل من القضايا التاريخية التي تعاملت معها، كانت هناك أسطورة المؤامرة الشريرة التي تُحَرِّك الناس بأعداد كبيرة لارتكاب أعمال من الوحشية المذهلة ضد المتهمين من المتآمرين. ويعنى هذا أن الجرائم الفظيعة على مر التاريخ يبدو أنها لا ترتكب في إطار طقوس وشعائر فاسدة وضالة وناشئة عن عقيدة شريرة ولكن، أكثر من ذلك، فهي ترتكب على سبيل "تطهير" ونصفيّة بعض العقائد من العالم الواقعي<sup>(٣٤)</sup>.

## كيف تؤثر "الأيديولوجيات" والقواعد الأخلاقية على انتشار القسوة؟

نحن نريد أن نَمجد الحروب، فهي قاعدة  
سلامة وصحة العالم، والعسكرية والوطنية. وهي  
الفعل المدمر لمن يثور على السلطة من  
الفوضويين، هي الأفكار الرائعة التي من أجلها  
يموت الإنسان.

(من كتاب فيليبو مارينيتي "Flippo Marinetti"، بيان عن المستقبليات)

تتضمن القسوة الإيذاء غير المبرر. والمجرمون، مع ذلك، يزودون أنفسهم  
بالتبريرات.. إنهم يهدفون إلى إقصاء الأنماط ويدعون المعتقدات الزائفة عن قوة  
الضحية وعدوانيتها، والعواطف القوية التي تُبرر الدفاع العدواني عن النفس.  
وسواء كانت هذه العواطف تُوجهها المقاصد "الديماجوجية" من الدهماء الذين  
يقصدون الإثارة ويهدفون إلى إحراز السلطة، أو كانت استجابات وردود فعل  
لضغط لا يمكن التحكم فيها- مثل الصعوبات الاقتصادية، أو العجز السياسي، أو  
الخسارة والضرر من الغير- فإنها تُوجج وتزيد من الصراع الداخلي وتدعم الحاجة  
إلى التحكم؛ فتجعل الإنسان يبحث عن أساليب تُخفف من هذا الألم الذي لا يمكن  
إغفاله أو تجاهله، ومعنى ذلك أن تراكم التفاعل من التجارب السابقة مع النزوع  
والميل الحيني، سوف يُشكل البحث عن اختيارات متعددة وأيضاً الاختيار من بينها،  
لكن الشخص الذي يبحث عن اختيارات، خصوصاً من يعاني توتراً شديداً، سوف  
يُفضل الحلول البسيطة والسهلة والرخيصة والمتاحة. والقادة السياسيون الملتزمون  
الذين يسعون للكسب الأكبر من إقصاء الغير تقع عليهم مسؤولية كبيرة هنا  
ويتحملون الوزر، لأن الحلول التي تأتي من مصدر قوى وموثوق به غالباً ما تكون  
فاعلة ويسهل قبولها (ذلك لأن الافتراض السائد هو أن من يخطئ لا يصلح

للاستحواذ على السلطة والاحتفاظ بها<sup>(٢٦)</sup>). ولسوء الحظ، فإن الحلول العملية والقانونية الفعالة لمشكلات العالم الواقعي ليست غالباً هي الحلول البسيطة والرخيصة أو قليلة التكلفة.

وتستطيع المعتقدات الخاصة بإقصاء الغير ملء الفراغ بين التزود بالحقيقة وطلب الأمان<sup>(٢٧)</sup>. وهذه المعتقدات التي تُوجّه اللوم إلى هدف إنساني معين تُقدّم مشكلة صعبة لا يمكن التحكم فيها على أنها يمكن السيطرة عليها، وبذلك يعيدون توجيه الانتباه من المجرّدات الصعبة مثل الاقتصاد، إلى أمور أسهل مثل المجال الشخصي، وهو شيء يُشعر البشر بأنهم أكثر معرفة وخبرة به.. فهي أمور مألوفة، تتوافق بسهولة مع أنماط ثقافية عن المعتقدات الموجودة سابقاً بالفعل. ويرى هؤلاء الذين يريدون نشر الكراهية بين الجماعة وكبت التعاطف والوعي الأخلاقي الذي قد يمنع العدا من أن يتحول إلى قسوة. فالمعتقدات التي تحبذ نبذ وإقصاء الغير، والتي تُفرّق بين الناس، يمكنها أن تُثير العواطف القوية المرتبطة بالتدييدات الصادرة من قوى خارج الجماعة (الخوف، الغضب، الاشمئزاز... إلخ). وكذلك العواطف المجزية من داخل الجماعة (مثل الحب، الكيرياء، الفخر، والسعادة... إلخ)، وهم بإمكانهم أيضاً أن يوجهوا المشاعر القوية إلى الأفعال المقترحة ممن يحبذون إقصاء الآخر. وتمدهم هذه الأفعال بالحلول للمشكلات التي تنشأ من الجماعات المستهدفة. وهناك مثال اشتهر بسوء السمعة من "رواندا"، إن قائد قبيلة الهوتو ليون موجيسيرا "Leon Mugesera" قال عن قبيلة "التوتسي": "إنهم ينتمون إلى إثيوبيا وسوف نجد لهم طريقاً مختصراً إلى هناك إذ سنلقى بهم في نهر نيارونجو "Nyabarongo" الذي يذهب إليها. وأنا مُصرّ على ذلك. علينا أن ننجز. امحوهم جميعاً من الوجود"<sup>(٢٨)</sup>. وفي أثناء هذه الإبادة الجماعية أقيمت آلاف الجثث بأنهار رواندا إلى بحيرة فيكتوريا.

ويمكن كبت المشاركة الوجدانية بإثارة العواطف غير المتناغمة، أو بطرح معتقدات تتحدى الربط بين التعاطف والضحية. وهذه المعتقدات مثل: الرحمة نوع من الضعف، يجب أن تكون قلوبنا قوية، وهذا قد يخالف المفهوم السائد الذي يُمدد السلوك الرحيم. وقد يركز معتقد آخر على الطبيعة السيئة للضحية وشروره السابقة (سواء كانت حقيقية أم مخترعة وملفقة)، ما يجعل أى شاهد أو دليل حزن على الضحية يُفسر على أنه شيء زائف وخداع؛ فالضحية تستحق ذلك- أو كلا المعتقدين. إن الربط بين الضحايا والعواطف السلبية (خاصة إنهم مقرزون) وبين السمات والأعمال المحقّرة في ثقافة المجرم تجعل الضحايا يبدون مختلفين وأقل تشابهاً مع مرتكب الجرم، مما يقلل من المشاركة الوجدانية. وتجاهل أو إغفال محاولات الضحية للتواصل مع مرتكب الجرم (بالطرد اجتماعياً مثلاً ومعاقبة أفراد الجماعة المتواضعين) يقلل إقصاء الآخر من حالة الفلق الزائد إلى علامات من المعاناة الإنسانية، وهذا أيضاً يجعل الضحايا يبدون أقل تشابهاً مع المجرم. ولو جعلنا الضحايا متشابهين، ومن ثم قادرين على الفعل المترابط. فإن ذلك يسضعف من قوتهم الظاهرة ويُضيف إلى طلباتهم التي تجعل الناس يخشونهم.

إن الأيديولوجيات والقواعد الأخلاقية قد تجعل القسوة شيئاً معتاداً وشائعاً في المجتمع حتى تصير سلوكاً مقبولاً. ولو أن القادة قننوا مشروعية الاضطهاد بإعطاء القدوة بما يسمى "سجايًا المقاتل وفضائله" مثل عدم الرحمة والوحشية (وهي صفات لا يجد كثير من المحاربين أنها منطوق إجاب خاص)، بينما يُنزلون العقاب بمن يُعبر عن التعاطف والرحمة، فإنهم سوف يشكلون مجتمعاً يُقر "الشرف" باعتباره نوعاً نوعاً من العضلات الفائقة التي تجعل قواعد السلوك تُفرض بالقوة والصرامة. ومثل هذه المجتمعات ربما تشعر بتهديد نمطي من قوى خارجية يلاحظ أنها تسعى إلى الآتى: أن تنكر حقوقهم عليهم (وهي حالة من التهديد تُثير الغضب

فى المقام الأول) أو إلى أن تغير ثوابتهم الأخلاقية، (ويعتبر هذا تهديداً للهوية بثير القرف والتفزز) أو إلى أن تدمرهم تماماً (وهذا تهديد للوجود، يثير الخوف) وكى تدافع تلك المجتمعات عن نفسها ضد هذه التهديدات الثلاثة لا بد أن تكون الأسبقية لديها للوحدة، ومن ثم العقاب الصارم والشديد لمن ينحرف عن وحدة الجماعة.

وكجزء من عملية الإبعاد والإقصاء، هو أن تقلل الجماعة من قيمة المعتقدات التى تتشارك فيها مع الأعداء. وقد تؤكد أيضا الادعاءات التى تتناقض الأفكار والمثل العليا الأساسية لمن يعارضونهم. والقول هنا هو إن هذه الأفكار لم تكن مهمة بالنسبة إلى منظومة معتقدات الجماعة فيما سبق، لكنها قد تحاط بسياج من القداسة لو قررت الجماعة أن تتبنى القول بأن التحديات الموجهة إليها ليست خطأ فقط بل إنها غير مقبولة أخلاقياً<sup>(٣٩)</sup>. وعلامة هذه الفترات الانتقالية، من بداية تغيير المعتقدات إلى أن تصبح مبادئ لا تشكك فيها، هو البحث عن كلمات لقادة الجماعة فى الماضى والحاضر واتخاذها دليلاً يدعم هذه التفسيرات الجديدة. ومما يُعلى من إقصاء الآخر المتبادل إضفاء القداسة على المعتقدات المتنبأة، وإقناع أفراد الجماعة أن "الآخر" هو بالفعل من "الغرباء" عنهم والمغاير لهم. والأمثلة على هذا "التأسيس للاختلاف" المتعمد تشمل الإرساء الحديث لـ "الإسلامية" التى تتخذ التفسيرات الانتقائية المتشددة للنصوص الدينية الإسلامية وتسلط هاجس وفكرة الشذوذ على عقائد المسيحيين من الإنجلييين أو البروتستانت<sup>(٤٠)</sup>، وهؤلاء لا يؤكدون. بنوع من تسلط الهاجس أو الفكرة، على الأدوار التقليدية للعائلة أو النوع (رجال أو نساء)، لأن "العهد الجديد" (الإنجيل) ملئ بالتحذير الشديد من الطلاق والشذوذ الجنى ومن توظيف المرأة وخروجها للعمل، وهذا غير صحيح ولم يذكر بالإنجيل. ويبدو أن المسيحية توجه اهتمامها الأكبر الآن إلى قسوة الإنسان، ومؤسس المسيحية هو الرجل "الذى طلب من أتباعه أن يحب كل منهم الآخر وأن

يعتوا بالمنبوذين فى المجتمع ويعاملوا الناس بما يحبون أن يعاملوا به. وأينما يكون رأيك عن المسيحية، فهذه تعاليم رائعة أخلاقيا، ولا تزال مُعْتَنَقَةً كمثل عليا فى الغرب العلمانى".

والنقطة الأساسية هنا: إن هذه الأقوال المأثورة لا تواجه التحديات التى تجانبها المعتقدات الإنجيلية والبروتستانتية الأقل ذيو عا (عن شرور الطلاق، واللواط، والنساء من ذوى المراكز الكبيرة)، وهذا فى عالم به بعض المطلقات والمثليين والنساء اللاتى يطالبن بحقين فى الحياة التى يختارونها، بينما يُطلقون (جميعا) على أنفسهم صفة "مسيحيين". وكلمة "حق" هى المفتاح هنا. فالنشطاء من المثليين الذين يطالبون بالمساواة بين النساء والرجال والذين يرفضون المذهب "الأبوى" التقليدى لا يعتبرون اختياراتهم خطأ أخلاقيا.. إنهم يقولون: "إن قناعتى واعتقادى جزء من هويتى وكيونتى، إنك لا تستطيع أن تغيرها دون أن تُبدلى، فلا أكون أنا ما أنا عليه". وبذلك فإنهم يجعلون مبادئهم شيئا شخصيا، لقد جعلوا الأسماء والوجود فى مواجهة تهديد رمزى يتجاوز هذه المعتقدات إلى ما هو أعلى فى مواجهة الخطر. فما النتيجة؟ فالراصدون يرون الإنجلييين والبروتستانت أمام عدسات وسائل الإعلام غير المتعاطفة معهم كمن يعتقدون أفكارا عفا عليها الزمن تأمر بإقصاء الآخر بدلا من إشاعة وإعلاء مبادئ عقيدتهم الأكثر قبولا أخلاقيا.

## ما الدوافع التى تجعل الناس قساة؟

يتمثل ينبوع السلوك الإنسانى فى الفجوة أو المساحة بين حالة العالم، وما يجب أن يكون عليه هذا العالم. ويتضمن "تشكيل العالم" المحاولات المتعمدة للإقلال من هذا الفارق أو الائتلاف، وذلك بتمويل ان العالم الواقعى إلى العالم المثالى

الأقرب، وقد تكون النتيجة رائعة أو مفرعة: "كاندراثية" أو "إبادة جماعية"؛ لكن "تشكيل العالم" الناجح يتضمن دائما علاقة أو ارتباطا بقوة ما؛ فبدلا من أن تتغير أنماط النشاط العصبى كى تُوطن مظهرها من الواقع الحقيقى الذى أثار هذه الأنماط، تصبح الحقيقة نفسها أقل قيمة وتابعة وتسعى كى تُعدّل نفسها حتى تتماشى مع أنماط النشاط العصبى.

إن ممارسة السلطة تعود دائما بالفائدة، فبى ترضى الحاجة إلى التحكم والحفاظ على الكينونة- إنها تمثل أسباب "النشوء والارتقاء" لأى فعل إنسانى. وتفسير هذا الاحتياج الشديد على المستوى النفسى سوف يعتمد على معتقدات الشخص وظروفه، فالخوف عند فرد ما قد يكون بهجة وسرورا عند شخص آخر<sup>(٤١)</sup>. إن الفرد عندما يشعر بالتهديد ويضرب ويندفع بجنون قد ينشغل كثيرا بالدفاع عن نفسه، لدرجة أنه لن يجد الوقت لإيضاح عواطفه المصاحبة. وإذا لزم التفسير فيما بعد، فإنه قد يستعيد ذكرياته ويسمى أو يصف ما شعر به نوعا من الخوف أو الغضب أو الذعر أو غيرها. ويعتمد الوصف الذى اختاره على السمات النفسية لهذه التجربة - أى إذا ما كان يشعر بالإعياء، أو برعشة فى يديه، أو ازدياد فى ضربات القلب، لكن اختياره يعتمد أيضا على الظروف والأسباب التى دعت للإيضاح والوصف، إنه يعرف من تجربته وخبرته أن الخوف تبرير مقبول فى بعض المواقف، والغضب فى بعض آخر، وهو بالفعل قد يصف عاطفة ما "رعبا" أو "اهتياجا" مراعيًا فى ذلك من يستمعون إليه.

إن احترامنا لذواتنا كرجال يتميزون  
بالجسارة والحزم يلزمنا بأن نقمع ونبيد، بأسرع  
ما يكون وبالمنطق أو بالقوة. هذه الزمرة من  
المتوحشين الذين يدمرون ثرواتنا ويمنعوننا  
نهائياً من أن نملك الأرض بالقانون وأن نتقدم  
ونحقق أمننا، إنها أكثر الأراضي ثراء وخصوبة  
في الجمهورية.

(من كلمة لوزير الحرب الأرجنتيني "جوليو روكا" Julio Roca (١٨٤٣-١٩١٤)، في  
إشارة إلى الهنود من السكان الأصليين للأرجنتين)

وقد اقترح دانييل شيرو "Daniel Chirot" وكلاارك ماكولى  
"Clark McCauley" في كتاب صدر حديثاً عن "سيكولوجية القتل الجماعي" أن  
مرتكبي الجرائم الفظيعة على نطاق واسع لديهم أربعة دوافع: الفائدة، الثأر،  
الخوف، وخشية التلوث، وقد توجد كلها بدرجات متفاوتة في أى جريمة<sup>(٤٢)</sup>.  
وتشمل الفائدة الحسابات النفعية للقسوة الصادرة من قساوة القلب التي تُقدّر المكسب  
والخسارة من الفعل على الفاعل. أما الأثر على الضحية فإما أن يُغفل وإما يُهون  
من شأنه وإما يُبرر باستخدام حكايات عن فظاعتهم إذا ظهرت معاناة الضحية.  
وتتسم الفائدة بالتركيز على التفاصيل التقنية وحل المشكلات (أى باستخدام المنطق  
النفعي)، وبدعمها الاختيار الانتقائي لتبريرات الأيديولوجية إذا لزم الأمر.

لقد أصبحنا مثل اليتامى على مائدة اللنام

(من كتاب أيمن الظواهرى "قرسان تحت راية الرسول")

إن حساب المكسب والخسارة قد يشمل عوامل عاطفية وأيضاً اعتبارات المجهود والمخاطرة والإثابة.. والسعى وراء الكسب المالى والحاجة إلى المظهر الجيد أمام النظراء، أو الرغبة فى إيجاد نهاية للموقف، كلها تعتمد على قرار الفعل. وقد يُستغنى أحياناً عن عوامل أخرى بسبب قوة العواطف المصاحبة، خصوصاً إذا كان الخوف ضمن هذه العواطف فتكون ردود الفعل أساسية وحادة؛ لأن مبعثها الخوف.

وعندما تُصوّر جماعة مستهدفة على أنها شديدة الخطورة، وأنها تهديد حقيقى للحفاظ على الذات، فيمكن للخوف أن يطلق أفعالاً لا يمكن تخيلها<sup>(٤٣)</sup>. وقد امتلك الذعر كثيراً من "التوتسى" و"الهوتو" فى رواندا؛ بسبب تذكر نزاع العشائر الذى نشأ فيما مضى قبل الإبادة الجماعية فى عام ١٩٩٤، عندما عاشت القبائل عقوداً من إراقة الدماء بدافع نزاعات عرقية. وقد يدفع الخوف إلى الدفاع العدوانى عن النفس باعتباره رد فعل على تهديدات بوجود أعداء أو خصوم أقيواء، وفى مثل هذه الظروف القاسية يشعر معظم الناس أن العدوان بالعنف هو دفاع مُبرر أخلاقياً، وليس ضرباً من القسوة. (والخطأ الوحيد فى هذا التبرير فى حالة "رواندا" هو افتراض الهوتو المسلحين أن كل فرد من التوتسى أو الهوتو المعتدلين الذين يُقدرون بثمانئة ألف، والذين قتلوا، كان يمثل تهديداً مهلكاً).

ومع ذلك فقد صوّر الخوف كدفاع قصير الأجل ضد تهديدات واضحة ومباشرة، إنها أمور مرهقة نفسياً وإن استمرت تصبح مضيئة للغاية؛ لأن مستلزماتنا، من الطاقة النشطة والاستعداد للفعل والضغط على القلب والعضلات

كليا تتطلب نشاطا ذهنيا حادا كثيفا ومركزا، ويجب أن تكون التهديدات واقعية وواضحة ومستمرة إذا كان الخوف الذى تثيره سيقى ولا "يشرب". والشعوب التى تعاني من رعب دائم تخاطر بأن تنهار وتصل إلى الهزيمة. أما إقصاء الآخر الذى يستمر لفترات طويلة، وقد ينتهى بالإبادة الجماعية، فإنه يتطلب دوافع أخرى علاوة على تخطيط وتنظيم كبير.

## الغضب:

### "إن الغضب والحقن قسوة"

يعتبر الانتقام، أو ما سماه روميو دالير "Romeo Dallaire"، "الانجذاب المسموم إلى إنزال العقوبة"، نوعا من الاستجابة للغضب<sup>(٤٤)</sup>. ومن وجهة نظر المجرم؛ فإن تبرير ما يعتبره الناس نوعا من القسوة هو السلوك السيئ الذى صدر قبل ذلك من الضحية. وقد استحق العقاب. وعندما يتدخل إقصاء الآخر؛ فإن الضحية يمكن أن تكون أى عضو من جماعة مُستهدفة، سواء كان حيا أو ميتا. إن عبارات مثل "لقد تجسسوا لصالح الأعداء أثناء الحرب؛ يمكن بالفعل أن تأتى فى سياق إقصاء الآخر، وقد تأتى عبارة أخرى مثل: "إننا لن ننسى أبدا جرائمكم أيها الطغاة المستعمرون"، ولن يكون للعبارتين معنى إلا الإقصاء فى هذا السياق.

إن الطغاة والجواسيس المقصودين قد انتهوا من زمن طويل، ومن ولدوا بعد ذلك لا يمكن أن يكونوا مسئولين عن هذه الأمور. غير أن إقصاء الآخر لا يلتفت إلى العامل الفردى ولا يشير إلى الأفراد إلى إنه يضغط أفراد الجماعات من الماضى والحاضر فى كتلة واحدة متجانسة، فهى جموع كثيرة فى كيان واحد تصبح فيه المسئولية مناطة بالجماعة وليس بفرد واحد. وأى مكوّن بشرى يصبح قابلا للتغيير أو للتبادل مع أى فرد آخر فى الجماعة، وبذلك يمكن أن يحمل

مسئولية أى جرائم ارتكبتها أفراد الجماعة كلها، وقد تمتد عضوية الجماعة بأسطورة مناسبة إلى مدى تاريخى لتدعم مفهوما عن تَيديد وخطر قديم، وبذلك تشمل كل الجماعة المستهدفة- وقد يكون هذا الفكر مصدره حديث نسيباً - أو تكتفه أفكار قديمة عن الشر، غالباً ما تكون دينية.<sup>(٤٤)</sup>

وينظر إلى الجماعة المستهدفة باعتبارها قوة شريرة مفردة تُهدد النظام الاجتماعى، ويتحدى سلوكها قوة مرتكبي الجرم لتُحقّر الحاجة إلى التحكم وتثير الغضب والكره والرغبة فى الانتقام. أما رد فعل المجرم فيعتبر مجرد رد فعل تبرره عدوانية الجماعة المستهدفة. وفى مجتمعات "الشمبانزى" عندما يتحدى أحدها الأكبر فيها من الذكور؛ فإنه يُحجم ويرد بضربة أو تكشيرة أو قتال إذا لزم ذلك، حتى يستسلم المعتدى ويقبل بتفوق غريمه.. وبالمثل فإن الجماعات المسيطرة فى السياسة بالمجتمعات البشرية ترى ضرورة إخضاع الجماعات التى تُمثل تهديداً حتى تستسلم. وإن لم تكن إحدى الجماعات خطيرة بالفعل فعندئذ لا بد أن تُكتشف مؤامرة تربطها بعدو خارجى. وقد ادعى الأتراك فى الحرب العالمية الأولى أن الأرمن كانوا يعملون مع الروس ضدهم. وفى الحرب الثانية حلم الألمان بحركة يهودية بلشفية دولية حتى تجسد عدواً لهم. وإن لم يكن هناك تهديد خارجى واضح فهناك "القائد المُبتكر" الذى يستطيع أن "ينبش" عن اتهامات قديمة؛ ويمكن أن يجادل بأنها لم يؤخذ عنها التعويض المناسب فيما مضى أو فى وقتها. ومثال على ذلك ما قام به سلوبودان ميلوسيفتش "slobodan Milosevic"؛ عندما قرع وهجا أتباعه بشدة ودفعهم إلى الجنون (فى خطاب عام ١٩٨٧) بأن تبجج ولامهم بقسوة بخصوص معركة "كوسوفو" فى عام ١٣٨٩.<sup>(٤٥)</sup>

إن سنة الله في هذه الحياة الدنيا أن تسعى  
جماعة من الناس إلى تقويم جماعة أخرى حتى  
تنظهر الأرض من الفساد.

(سيد قطب: في كتاب الجهاد في سبيل الله)

يرى "سيروت" و"ماكولى" أن الدافع الرابع للقتل الجماعى هو الخوف من التلوث. والتهديد هنا ليس تهديداً للوجود والكيان (كما هو فى الخوف) أو تهديداً للسلطة الاجتماعية أو الوضع الاجتماعى أو العرف والتقاليد (كما هو فى الغضب)، أو تهديداً لإمكانية تحقيق الأغراض والأهداف (كما هو فى الفائدة والمنفعة). وتؤثر تهديدات التلوث فى الهوية.. إنها قد تكون مهلكة، لكنها لا تقتل الشخص بل تُغيّره إلى شىء آخر. ويرتبط الخوف والرعب بالتلوث، بالتأكيد، إلا أن العاطفة المتحكمة فى هذه الحالة هى الاشمئزاز والتقرز؛ لأن التهديد هنا بالقرع ومن الصعب ملاحظته مباشرة ولا يُمنع إلا بالاحتياطات السليمة.

وتؤثر الأنواع المتعددة من تهديدات التلوث فى سمات وملامح الهوية. فسلامة البدن مثلاً قد تتأثر بالعدوى وتكون نتائجها مفرعة وتستطيع الغنغرينا أو الجذام أو التهاب الألياف العصبية، أن تحول العضلات الحية إلى حالة مرعبة من الموت الموضعى. أما فيروس "الأبيولا" فيمَزَق الأعضاء الداخلية ويُغْرِق الضحية فى دمانها<sup>(٤٧)</sup>. وحتى الكائنات الأقل شراسة والتي يسميها الأطباء "مجرد فيروس"، يمكننا أن نحولنا إلى أشخاص منبوذين يعانون من رشح بالأنف والعطس والشعور بالحاجة إلى التقوى. إن قذارة المظهر وتغير لون الجلد ولبس الأفتعة والتخفى كلياً

أشياء تُحدث تغييراً في الشخصية والنهوية بتغيير المظهر المادى للفرد، إنها حجب وإخفاء للذات من حالة مادية إلى حالة رمزية.

والخوف من التلوث الذى أشار إليه "شيروت" و"ماكولى" يهتم كثيراً بالتهديدات الرمزية للنهوية: "عندما يأتى التهديد بالتلوث من جماعة معينة لدرجة أن يُشكل وجودها خطراً هداماً، سيكون رد الفعل استجابة ضد هذا التقرز، وهى محاولة لتطهير الذات، إما بأن نتحاشى الجماعة التى تهدد بالتلوث وإما نطردها وإما نقضى على الأفكار الخاصة بهم وعلى عاداتهم أو من تلوث منهم<sup>(٤٨)</sup>. إن تهديدات الخوف والغضب واضحة ومباشرة؛ لكن التهديد بالتقرز مختلف، وهو ما يجعله مرتبطاً بهذه الدراسة، فالقسوة تختص بالأذى الذى لا مبرر له: تدمير الناس، غالباً الأقل منك قوة، والذين لا يستحقون ما تفعله بهم والذين لا يمثلون تهديداً واضحاً لك. ولا تبدو التهديدات الرمزية واضحة للطرف الثالث الذى لا خطورة على هويته من التهديد، ومصادر هذه التهديدات لا تملك أى قوة تُذكر سوى قوة التعبير عن الأفكار.

### لماذا يبدو التقرز من الضحية على مرتكبى الجرم؟

عندما يقصد قائد سياسى أن يثير الكره ضد جماعة من الأقليات، فإن الحالة الاجتماعية المتدنية قد تمثل مشكلة، إذ كيف سيقنع أتباع هذا القائد بأن أقلية ضئيلة، ويبدو أنها غير مؤذية، هى بالفعل تمثل قوة خطيرة مصممة على تدميرهم (خصوصاً إذا كانت هذه الأقلية قد عاشت بينهم مسالمة على مدى سنوات وكانت سمعتها إيجابية بصفة عامة). إن أى طاغية أو زعيم للدهماء "الديماجوجيين"؛ يسعى عمداً إلى شائعة إقصاء الآخر، سواء باعتقاد أصيل أو بدافع من الانتهازية السياسية، إنه سوف يبدأ غالباً باختيار جماعة صورتها العامة رديئة وسلبية، وحتى

إن كان ذلك، فإن من يتولى هذا ويصر على العنف سوف يحققه بعد ذلك؛ لأن العنف فيه مخاطرة، وغير سار، ويتطلب جيذاً وسوف يستعد له.

ولقد كان اليهود من الأقليات التي لا تحظى بالحب في بريطانيا في الثلاثينيات من القرن العشرين، فإن ذلك يُعزى إلى فعل الدعاية المسيحية على مدى قرون، فقد كان اليهود موضوعاً للكرامية في أجهزة الإعلام مثلما كانت الحال في جريدة الديلي ميل التي كانت تُناصر "الفاشية" في هذا الوقت، كما كان اليهود يُواجهون جسمانياً من المشاغبين الذين ذاعت سمعتهم السيئة في لندن (ليس حصرياً، وربما في أماكن أخرى) <sup>(49)</sup>. أما اليوم فإن العداة الصريح للسامية مُهدد بالإدانة السريعة، إلا أن المشاعر المكبوتة المعادية لليهود، مثل عديد من أشكال العنصرية، ما زالت موجودة بين الأكثرية <sup>(50)</sup>، أما الأكثر صحياً الآن في العالم الغربي القلق فهو تيسير ونشر أفكار عزل الآخر وهي التي تُوجه حاليًا للمسلمين ممن يصفونهم بـ "الإسلاميين المتطرفين أو الراديكاليين" الذين يندسون في مدننا دون الاستدال عليهم ويخططون للقتل؛ وهدفهم جعل بريطانيا دولة تحكمها "الشريعة". وبدلاً من إحياء اليهود في العالم (الجيتو) أصبحت لدينا "أمة" استحوذ عليها فكر "الجهاد"، بينما مؤامرة اليهود البلاشفة قد أفسحت الطريق لـ "القاعدة" ومن بساندونها ويؤازرونها في الشرق الأوسط.

والتطابق واضح تماماً هنا، فهم يُصوّرون الإسلاميين المتطرفين كقمة عنيفة لجبل الثلج الضخم الرهيب صاحب المشاعر المعادية للغرب، وانذرى تدفعه الأيديولوجيات البدائية البربرية التي تستغل خلاياها الشباب ليقتلوا أنفسهم والأبرياء من المارة، فيخدعون بذلك البلد الذي يجب الاعتراف بجميله والإدانة له بالعرفان والشكر، وهذه الصورة النمطية للعدو على أنه مستغل وخائن وخبيث وشريد وقوى ومميت ومهلك بشدة تشبه تماماً هذه الصورة التقليدية التي أصفوها دائماً باليهود.

إننى بالطبع لا أقول إن أحداً من اليهود أو المسلمين لم يرتكب أبداً جرماً فظيماً، وأى دولة، أو جنس، أو دين يمكنه أن يدعى ذلك على كل أفرادهِ؛ لقد وُجد مجرمون وخونة وإرهابيون يهود مثلما يوجد، بلا شك، من الناس من هو مستعد لأن يقتل "باسم الإسلام". وتستمد الاستنباطات والأنماط قوتها من ادعائها بأن لها صفةً شاملةً عامةً فهي تمثل الجماعة ككل - وهذه هي المشكلة. إن معظم الشعوب المسلمة، مثل معظم الشعب اليهودي، لا يرتكبون الجرائم، وهم مثل أعضاء الديانات الأخرى الجديرين بالثقة، يفضلون العيش فى نظام اجتماعى راسخ ومسال� متمتع بالسلام الاجتماعى ولا يشكلون أى تهديد.

وإذا تعذر على فرد ما نشر أو هامه عن "عزل الآخر"، فإن عاطفة "الاشمئزاز والتقرز" هي العاطفة المثالية التي يسعى لإثارتها.. لماذا؟ لأن التقرز له سمات أو خصائص ثلاث تجعله ملائماً لعزل الآخرين، إنه تشويه سمعة الآخر وإبعاده عن غيره من الناس، مما ينتزعه من عالمنا الأخلاقى ويجعل الجرائم الفظيعة تبدو ضرورية وقانونية<sup>(٤١)</sup>. أولاً: إن التهديد الذى تعمل على التصدى له بسبب التقرز ليس تهديداً مباشراً، فإنك لن تموت من مشاهدة جثة متحللة، أو حتى من ملامستها لكن لو مضغت قطعة منها فقد تصيبك بمرض خطير؛ لذا فإن غياب التهديد الواضح والمباشر يمثل عائقاً واضحاً وبسيطاً لكل من يرغب فى إثارة التقرز بين أتباعه، بينما إذ عاجهم بمخاطر واهية وفارغة يكشفه ويُعرضه للفضيحة والسخرية وعدم الثقة. وإذا كان شخص ما خائفاً من "الكاثوليك" مثلاً، فإنك تستطيع أن تظمننه بحكايات عن عرفتهم من الكاثوليك الطيبين. أما إذا كان يعتقد أنهم مقززون فإن حكاياتك قد تؤخذ دليلاً على أنك مرتبط بهم ومنتم إليهم، وبذلك تلتصق بنفسك تهمة عدوى التقرز لأنك منهم.

هل شعرت بالاشمئزاز من ذكر إشارات ثلاث لأمثلة عن "الجثة" في الفقرة السابقة؟ إذا كان الأمر كذلك، فإننى أخمن أن الإشارة الثالثة كانت أكثرها إثارة للاشمئزاز. ويمكننا اعتبار التقزز إشارة تحذير مهمتها أن تمنعك من الاقتراب من الشيء الذى يُثير الاشمئزاز.. إن ذلك مثل بوق السيارة الذى يُطلق صفارة عندما تشرع فى الرجوع للخلف وتقترب من حائط ما فيزداد الصفير ارتفاعا كلما اقتربت من الحائط أو الخطر، ومثيرات الاشمئزاز كذلك وسيلة ممتازة لمراعاة "المسافات" - بما فى ذلك المسافة بينك وبين جماعات أخرى من الناس - وهذا هو سبب الإشارة إلى شخص ما على أنه مثل "صرصار" أو "فأر" أو إلى جماعات بوصفهم بأنهم قذرون، أو حتى اعتبارهم من ناقلى العدوى، وكل هذه أساليب مؤثرة لإقضاء الآخر.

ثانياً: والسمة أو الخصيصة الثانية للاشمئزاز التى تجعله مناسباً كسلاح اجتماعى؛ هو أن تهديدات التقزز هى نفسها غير مرئية، ذلك لأن البشر لا يستطيعون تبيين ناقلات الأمراض من الجراثيم، أو الكائنات الدقيقة مثل البكتيريا، بطريقة مباشرة، بل يعتمدون على أمارات مثل وجود قذارة أو تحلل، وهذه هى المحفزات التى تثير فىنا التقزز بسبب ارتباطها السابق بالمرض، لكن الارتباط الآن ليس حتمياً، فهناك أنواع من الفنون الحديثة تستخدم إفرازات بشرية قذرة فى أعمال فنية رمزية<sup>(٥٢)</sup>. واستخدام الاستعارات المقرزة (كالفئران، والسرطان، والطاعون، والحشرات... إلخ) لنصف بها الجماعات المستهدفة يمكن أن يُشكّل صلات رمزية بينما لا توجد هذه الصلة فى الواقع<sup>(٥٣)</sup>. وكما رأينا فى الفصل السادس؛ فإن الاشمئزاز يتناسب بصفة خاصة مع اختيار زميل جديد (فى لجنة مثلاً) اعتماداً على منظومة أفكار، فالأفكار مثل المرض غير ملموسة ولا تُترك، لكنها سريعة الانتشار وأحياناً تكون مهلكة.

ثالثًا: السمّة أو الخصيصة الثالثة للتقزز التي تجعله ملائمًا كسلاح اجتماعي، هي أن تهديدات الإشمزاز لا تعتمد على القوة المادية لمصدر التهديد، وهي في ذلك لا تماثل تهديدات الخوف أو الغضب إذ إن قوتيهما، أي قوة السم أو العدوى، منكنمة وخافية وخبيثة، وقوتيهما المميّنة تأتي بالوقت ولكنها تفقد تأثيرها فيما عندما تُسرّع بالفعل المضاد. وبما أن استخدام الاستعارة المجازية التي تُثير الإشمزاز يقلل من العدوان والإساءة لدى الطرف الثالث، بدلًا من الهجوم الجسماني، فإن هذه الاستعارة بذلك تقم أسلوبًا أدنى في المخاطرة من تصعيد إقصاء الآخر، وفائدتها في استهداف الأقليات واضحة أيضًا. فالتقزز في عبارة أيسر هو: ربما يبدو أنهم لا يضرر منهم أو أنهم موضع ثقة، لكن الشيء نفسه يمكن أن يكون في وجبة طعام بها سم ناجع. وبمعنى آخر، لا توجد دلالة ظاهرة على عدم القدرة على الإيذاء. إن الاستعداد المسبق للفعل شيء ضروري حتى تمنع عدوى قد يثبت عدم القدرة على شفائها.

وبالنسبة إلى الأفراد والأقليات الذين يعيشون بين ناس تعلموا أن يكرهوهم، فإنها مشكلة قاسية وخطيرة؛ ذلك لأن رد الفعل على التقزز النمطي منهم سوف يتضمن الانسحاب ممن يثيرون هذه المشاعر، وهذا يعني ترك الساحة والانسواء بأسرع ما يمكن، وعندما يُطبق هذا التقزز ليخدم فكرة إقصاء الآخر سيكون الاجتناب والانسواء غالبًا نتيجة تكوين "الجيتو" ("الغيت" أو إحياء لانزواء الأقليات)، إذ إن الأفراد المنبوذين يتجمعون معًا فيهم - أو يُرغمون على الاجتماع فيه. ومع التوسع في الصد والإبعاد الاجتماعي لهؤلاء ليشمل التجارة والعمل والرعاية الصحية، فإن سكان "الجيتو" سوف يتعرضون للفقر وسوء الصحة والأمراض المعدية، ما يُحفّز من يظلمونهم على مضاعفة الانتقام بإشعال لغة إقصاء الآخر ضدهم.

وعندما يزيد الإقصاء ويبلغ الذروة، تصبح المشكلة التي بدأت بفكرة التفرز التي خلقها مضطيدوهم أكثر صعوبة ولا يمكن تجاهلها؛ وعندما يكون الإقصاء على نطاق واسع، كأن تبدأ الدولة في الإعداد لإبادة جماعية، تكون وسائل الإعلام هي الوسيلة الممتازة لنشر الغلو والمبالغة اللازمة، وبذلك تجعل الأقلية المستهدفة تبدو خطيرة ومُهلكة ومستعدة للهروب من معزلها لإنزال الأذى - والاجتباب بعد ذلك لن يكون كافياً - وما يتبع هذا هو استراتيجية أقوى للطرد أو الترحيل.

وإذا كنت تسير بالطريق ورأيت عواقب التفرز والاشمئزاز كرد فعل ضد شخص ما بسبب تناول الخمر، فإنك من المحتمل أن تُحوّل نظرك لتُخفى أمارات القرف البادية على أنفك الذي تجعد كرهما ولا إراديا وتُسرع بعيداً عنه. وإذا تقيأ شخص ما في مطبخك، فإن اجتباب المشهد في حد ذاته ليس كافياً. فلا بد أن يقوم شخص ما بالتخلص من هذه "الورطة" وإلقائها في مكان معين (صفحة النفايات مثلاً) مع القيام بالطقوس المناسبة للنظافة - اجتماعياً - (بأن يُرثس المكان بمطهر ما). أما "الترحيل" فهو وضع الشيء المقرز في لفافة أو في "صرة" مغلقة لتكون حاجزاً وصمام أمان قبل التخلص منها؛ وهذا هو ما يمنع الاحتكاك أو اللمس الفعلي. وكل هذه الاحتياطات قد تمنع أو لا تمنع القتل في حالة ناقلات المرض من الجراثيم، لكنها ترمز إلى الحفاظ على المعايير الصحية، وهي معايير ومقاييس موجودة في نظام اجتماعي مقبول متوافق عليه ولا تشمل مطابخ ملوثة ببقايا القيء.

وبمعنى آخر، يمكن القول إن التفرز، علاوة على أنه عامل للحماية ضد العدوى، يدفع إلى فعل يؤدي إلى الحفاظ على النظام الاجتماعي<sup>(٤٤)</sup>. وإذا رُوي أن الأقلية تنتهك هذا النظام أو تُعرضه للخلل، وكان منع ذلك غير فعال أو غير عملي، فإن الخطوة التالية الواضحة هي الطرد أو الترحيل، وتقوم بذلك مجموعة من الموظفين المتخصصين، (مثل الجنود بجانب بعض العسكريين من القوات

المسلحة) ليشكلوا حاجز أمان معادل للمجتمع، وقد كانت خطة النازي لإرسال اليهود إلى الشرق ثم إلى مدغشقر محاولة لاكتشاف واختيار الاستراتيجية الثانية<sup>(55)</sup>. لقد عزلوا اليهود عن شعب بأجمعه، وجعلوهم معزولين في "الجيتو" ثم رخلوا بالقوة حتى يُنفوا من ألمانيا في حراسة جند مدرين.

وبالطبع لو فشل الترحيل فما زالت هناك استراتيجية ثالثة: وهى القضاء النهائى عليهم. وسواء طُبِقَ هذا على الناس أم على الأشياء، فهذه هى المناورة التى تمثل الملجأ الأخير، إنها تستلزم جهداً أكبر وبها مخاطرة باحتكاك أو قتال أطول. إن تدمير الشيء أو الهدف لا يستهلك الطاقة فقط، لكنه قد يؤدي إلى مخاطرة ومجازفة لو تسربت سوانل خطيرة أو غازات مثلاً فى حالة تدمير بناء ما، غير أن الإحراق قد يُحوّل المادة المقززة إلى مواد أقل فى التلويث، مثل الرماد. أما إذا زادت تكلفة الاجتتاب أو الترحيل عن تكلفة الإبادة؛ فإن الحل الأخير هو الذى سوف يستخدم.

ويحدث القتل الجماعى عندما يكون الاجتتاب شيئاً غير واقعى، فلم يكن المجتمع الألمانى، فى العشرينيات والثلاثينيات من القرن الماضى، يستطيع إطلاقاً أن يتحرك بأجمعه من الأراضى الألمانية حتى يتجنب اليهود الموجودين بها. فكانت الاستجابة للتقرز منهم هى البدء بعزلهم عن بقية المجتمع، وبالتطهير العرقى، ثم بالتهجير الجبرى، ثم إعادة التوطين - ثم الإبادة إذا ما فشل الترحيل. وعندما بدأت ضغوط الحرب واشتدت الفاقة والعوز واتضح أن اختيار العزل خارجياً غير محتمل، ولما كان القادة الألمان فى الشرق يشتكون من "رعب" الوضع الاقتصادى "اللوجستى" الناشئ من كثرة عدد اليهود الذين جمعوهم، كان حل الإبادة هو الاختيار الذى رأته القيادة النازية.

وهكذا، فإن الشعور بالتقرز يثير ردود فعل نفعية وعملية تتمثل فى جمود القلب والقسوة، وإن لم يكتب هذا النوع من الاستجابة، فإن الشخص الذى يتعرض لفكر إقصاء الآخر بسبب التقرز من الممكن أن ينظر للأخر على أنه نفاية ملوثة

ومُعَدية، ويلزم إزاحته وتدميرده. وكما تقضى الاستعارات التي تزدرى هذا الملوث وتُحط من قدره والتي تتحكم في الفكر أو الفعل، فقد تطلق أفكارًا واستجابات اعتيادية، مثل: الغسل والتعقيم والحرق، أو الدفن كنفائيات. وفي الحالات المتطرفة لإقصاء الآخر تكون هذه الأفكار قادرة على الانتشار على هيئة أفعال لها نتائج مزعجة ومنفرة. مثل: جثث التوتسى التي أُلقيت بالأنهار في رواندا، وجثث اليهود التي دفنت في "بابي يار"، أو الأموات الذين أحرقوا في "أوزفيتش" (٥٦).

### ملخص وخاتمة:

تختلف غلظة الفؤاد تجاه الآخرين من الناس من شخص إلى آخر. ومن العوامل التي تجسد وجود هذه الاختلافات الفردية: التباين في القدرة على المشاركة الوجدانية إدراكيا وحركيا وعاطفيا، ومستوى التأثر أو التوتر، ومدى تقبل الضغوط من القادة والنظراء، وتوفر الوقت والقدرة على تفتيت أو تشتيت المناقشات والجدال حول إقصاء الغير والبحث عن حلول بديلة للمشكلات، والخبرة الذاتية.. وهذه مجرد جزء قليل من العوامل التي تلتحم وتتوحد كي تجعل بعض الناس معرضين أكثر من غيرهم للتصرف بدافع غلظة الفؤاد، ومهما كانت الأسباب، فالقسوة بدافع من غلظة القلب تبدأ دائما بإقصاء الآخر وبعدها قليل أو كثير من التبريرات الواهية والمهلهلة للتدمير الذي يخطط له أو الذي يُنفذ. وقد يكون وجود الضحايا في بعض الأحيان غير مُدرك بالمرّة، ومثال على هذا مدمن المخدرات الذي يتلمس حاجته للشفاء في التخلص من العوامل الأخرى المعادلة. وتكون المبررات لذلك أحيانا مبتكرة؛ فليست كل الصراعات والضرر منه شخصيا، وليس كل الضحايا أنفسهم أبرياء ومنزهين عن القسوة. وبين التبريرين تتجسد مجموعة من الصور التي لا يمكن أن تُمدح، إنها صور تمثل نماذج من النوع الإنساني والبشرى: المدعور،

الكسول، الغبي، الفاسد، المرتشى، المضلل، الحاقد، التواق للانتقام، أو مجرد من لا يبالي إطلاقاً، وكلهم يبحثون عما يعينهم هم وأتباعهم. أو عن شخص يلومونه. بسبب توقعاتهم التي لم تتحقق، أو أنهم يبحثون عن وسيلة تجعلهم انقياء مرة أخرى وأمنين ومحاطين بقدر مناسب من الاحترام.

ومعظم القسوة لا تقتل - وهذا شيء من العدل باعتبار أننا نستخدمنا ونلجأ إليها كثيراً، وهي شائعة. ولا بد أن هناك شخصاً ما يفعل كل التربص والمضايقات التي نسمع عنها، تعذيب الآلاف من الحيوانات التي تُتخذ سنوياً، الإيذاء والظلم الذي يتعرض له الشركاء والأطفال والأقرباء من المسنين، أو حتى مجرد الصياح في وجه الأطفال الرضع أو السخرية من البدناء، أو عبور الشارع سريعاً لتجنب شخصاً من المشردين أو أحد المتسولين (نحن نسميهم أحياناً "ناس بلا مأوى"، وأيما كنت التسمية فإنهم دوماً يعانون من الاحتقار والإذلال والإيذاء لأنهم منبوذون). وهذه أمور ليست ملزمة ولا ضرورة لأي من هذه السلوكيات القاسية. إلا أن هذا هو الأسلوب السهل الذي يشعر به من يفعلون ذلك بأنهم أفضل من غيرهم، مؤقتاً. ولكن منذ متى كان البشر يملكون الحق الآلي أو الطوعي والذاتي أن يشعروا بأنهم الأفضل؟ إن هذا الحق ليس لنا بالطبع، مهما جاء في نصوص الدستور الأمريكي. لكن بما أننا قد طورنا الوسائل التي تُشعرنا بأننا أفضل، فلا بد أن يلزمنا ذلك بالدوافع والعوامل التي تدفعنا إلى محاولة تحسين الذات.

إن القسوة المتناهية في الأفعال الفظيعة. تعتبر أعمال القسوة البسيطة والأقل أهمية مادة خام وتستعمل إقصاء الآخر كي تضاعفياً لتتخطى الفهم والإدراك. فالشروع الأقل عنفاً، مثل الإيذاء اللفظي، شيء مقصود بمعنى أن هذا السلوك طوعي، مهما كان غريزياً أو غير متدبر بإحكام، في رأى الفاعل. والقسوة الفائقة، مثل تعذيب الأفراد أو المذابح الجماعية، هي أيضاً متعمدة بمعنى أنها كان مخططاً

لها، ربما منذ سنوات في بعض الاحيان. إن هذا يتطلب تنظيمًا كي يُجَبَز الفاعل ويُدرب، وكي يلفق ويخترق ويُضاعف التهديد للهوية والحياة الذي سوف يستخدم لتبرير الفعل القاسى والجريمة الفظيعة وأيضًا كي تُنشر الدعاية التى سوف تحول الضحايا إلى أشرار وأوغاد. ولا بد أن تُجَبَز التبريرات مع الإحساس بالإسراع الواجب، وبإسكات الناقدين. وبطرح رؤية بسيطة وواضحة لجذب الأتباع. أما القادة السياسيون الذين سيقودون هؤلاء الأتباع إلى مسار مزرٍ من إقصاء الآخر فإنهم يحاولون دائما غرس إحساس الخوف المرضى المُحْتَم والرهاب (من الاحتجاز) أو "الفوبيا"، هذا الفعل ضرورى وليس لدينا بديل آخر. ولو كان هذا صحيحا، فذلك لأنهم نجحوا فى إلغاء كل البدائل العملية، وبذلك يزداد الزخم والقوة الدافعة للحركة فلا يمكن منعها أو إيقافها، ولن نستطيع إنقاذ الضحايا إلا إذا تدخل الطرف الثالث.

ولأن "الجماعات" الغربية تشكل تهديداً خطيراً؛ فإنها تصير هدفاً لفكر إقصاء الآخر، ويكون من المفيد جعلها تهديداً بـ "التقويض" احتياطياً، فهى مشكلة قابلة للحل ويمكن أن تحل مكان كل التعقيدات والمشكلات التى لا حل لها والتى لا يستطيع إنسان منفرد التعامل معها. أما إذا كانت جماعات قوية أو كان حلفاؤهم من القوة حيث يمكنهم الاعتداء والهجوم، أو إن كانت القيود الاجتماعية تخلق مناخاً غير ملائم لفكر إقصاء الآخر، فإن العداة قد يُتحكم فيه ويتقلص، مثلما يُحد من العداة لليهود الآن فى بريطانيا. وأحد الأساليب التى تُتبع لذلك هو أن يكون هناك مجتمع غير موحد وبه شقاق وخلاف وتكون فيه القوة موزعة بين جماعات كثيرة متنافسة أو متنازعة، لكن هذا من الممكن أن يكون شيئاً مثيراً للأعصاب ومثبطاً للشجاعة والاستقرار، وقد لا يوافق القائمون بالسلطة على مثل هذه الترتيبات والأحوال، وهذا هو السبب أن الديمقراطية الحديثة، حتى فى الغرب، محدودة جداً.

وعندما يعتقد الأقوياء، لأى سبب من الأسباب، أن الحل الوحيد لمشكلة ما هو إزاحة جماعة معينة من الناس؛ فإن منطق إقصاء الآخر لن يصبح متعذرا وصعبا، وستكون الطريقة الوحيدة لأن تكون واثقا جدا أن تلك الجماعة الغربية لن تبقى كتهديد هي إبادتها. وسوف يساعد الخوف والغضب فى إطلاق عدوان ارتدادى كرد فعل من الجماعة، فإذا كان التهديد معقولا وحقيقيا ويمكن تصديقه (أو لو أمكن جعله يبدو كذلك)، فإن أولى الأمر سيخاطرون بأن يستعطفوا ويسترضوا ضحاياهم إذا ظهرت معاناتهم وأعلن عنها. إن القسوة المستمرة بدافع جمود القلب مطلوبة لكن يجب ألا تكون مطاردة فطرية، ولذلك يلزمنا إيجاد شىء من التقزز؛ وعندئذ فإن القادة سوف يلجأون إلى الاستعارات التى تحدث الاشمئزاز مثل: الصراصير، الطاعون، السرطان، النفاية، القذارة، العنف... إلخ)، وسيكون محتملاً بعد ذلك أن يحدث القتل بأعداد كبيرة.

لقد ركزت فى هذا الفصل على العواطف السلبية التى تصاحب القسوة؛ لكن القسوة تجلب عواطف إيجابية أيضا، ومنها الفائدة المباشرة لجمود القلب عند تجاهل وإغفال مشاعر الآخرين من الناس، فالقسوة تجاه الغرباء من الخارج من الممكن أن تدعم الصلات بين أفراد الجماعات فى الداخل، وقد يجلب هذا أيضا فوائد مهمة وهذا هو السبب فى أن القسوة قد تكون أحيانا مكوّنا مهما من الأخلاقيات الأساسية والمتوارثة للبشر، مع أن القوانين الأخلاقية الوضعية قد تزجر أو تدين ذلك. ولو امتدحنا القسوة كنوع من الشجاعة أو التضحية بالذات، فإنها من الممكن أيضا أن تكون مصدرا لمكافأة اجتماعية قوية: شعور بالاندماج فى كيان ما، أو بالانتماء، والذى يصبح فى أقوى حالاته نوعا من المشاعر الغامرة للحب. إن الحب، مثله فى ذلك مثل الكره، قوة قاهرة دافعة للشر. إن بإمكانها أن تحول الدافع إلى الانتقام إلى هاجس أو فكرة متسلطة، أو أن تحول الخوف على النفس

إلى خوف على الأسرة أو الأصدقاء أو حتى الوطن، وهو أقوى وأقدس، وبذلك تجعل الجماعة أقدر على أن تشدّد حدّ السكين التي تؤدي إلى ردود فعل قوية وقد تؤدي إلى جرائم فظيعة.

وعلاوة على ذلك، فإن الحب ليس هو العاطفة الإيجابية الوحيدة فيما يبدو، فالقسوة قد تمنحنا أحيانا مشاعر ممتعة ليس لها دخل كبير بالثناء والإطراء بسبب حماية أفراد الجماعة التي ننتمى إليها، وربما يكون لها دخل كبير بالمعاناة التي تتلقاها الضحية. إن هذه هي السادية، ومثل جمود الفؤاد فإن ردود فعلنا تجاهها يمكن أن تكون غامضة بشكل مقلق. أما القسوة السادية التي أدبنت ولعنّت على مدى التاريخ، فعلى الرغم من ذلك فقد كانت مادة للتسلية الطفيفة من حين لآخر، وستكون موضوعنا في الفصل التالي.



## الفصل الثامن

### لماذا توجد السادية؟

كلما تزايدت رؤيتنا للناس وهم يموتون، وكلما قل تفكيرنا في حياتهم وقل حديثنا عن موتهم، ازداد تعودنا على ذلك واستمتعنا به.

(“قولجنس يوناني” Fulgence Bunani مجرم شارك

في الإبادة الجماعية في رواندا؟“)

يرتبط معظم جرائم القسوة بغلظة القلب. إنها قد تشمل عدم الإدراك، أو التجاهل، أو التقليل عمداً من شأن الآثار الضارة للسلوك القاسي على الضحايا، وربما تشمل الاعتقاد بأن الضرر الواقع على الضحية له ما يبرره: أي أنه عقاب عادل أكثر من كونه انتقاماً ظالماً. وقد يعترف مرتكبو جرائم القسوة بأن أحد أهدافهم هو إنزال الألم والمعاناة، لكنهم يعتبرون المعاناة ذريعة أو سبباً، فهي وسيلة لغاية أو هدف. ومع ذلك فأحياناً تكون الوسيلة هدفاً في حد ذاتها. ويُصنح عذاب الضحية مجزياً ومرغوباً فيه، ويصير الابتداع والاستطراد في التعذيب هو الهدف الأول لمرتكب هذا الجرم.

ويجب أن أتوه الآن إلى أن السادية - كما ناقشنا هنا- ليست بالضرورة السادية نفسها الخاصة باضطراب الشخصية المرضى، أو السادية المرتبطة بالجنس كما يعرفها علم الطب النفسي<sup>(١)</sup>، فهذه الحالات النادرة هي التي يكثر الحديث عنها والتي يصعب تعريفها ولا يمكن فهمها، وأحد الأسباب لذلك جزئياً هو قلة وندرة الأبحاث فيها<sup>(٢)</sup>. فالدراسات العملية السريرية التي تتابع المريض في حالات السادية الجنسية قليلة، خصوصاً في غياب تخصص التحليل النفسي<sup>(٣)</sup>. وعندما انتبه علماء النفس إلى ظاهرة السادية كانت البحوث معظمها عن الجنس أو القتل أو كليهما، بينما السادية - كما عرفناها في هذا الكتاب - لا تشمل أموراً تتعلق بالشهوة أو القتل، ما دام المجرم يقصد إلى الاستمتاع بمعاناة الضحية كهدف في حد ذاته بدلاً من اعتبارها خطوة في سبيل هدف آخر<sup>(٤)</sup>. وعلاوة على ذلك فإنه يبدو أن بعض أنواع السادية (في الحرب مثلاً، أو في معامل علم النفس) يرتكبها أشخاص ليس لهم تاريخ واضح لأمراض نفسية<sup>(٥)</sup>. ولكل هذه الأسباب، سوف يركز هذا الفصل على السادية كسلوك أكثر من كونها اضطراباً نفسياً.

وقد تُتمثل السادية لغزاً محيراً في البحوث الطبية، إلا أنها شيء أساسي في مفهوم القسوة. إن الاستمتاع بالتعذيب والإيذاء هو ما يجعلها قسوة ليست شريرة فقط، لكنها تقدم تعريفاً مجسداً لسمات الشر الانساني. وسوف أنظر في هذا الفصل إلى ذلك الارتباط بين هذه السمات وأطرح تساؤلاً: لماذا تتخلل السادية وسائل التسلية ويكثر ذكرها بوسائل الإعلام الخاصة بالأخبار مع أنها مكروهة ومنفرة؟ فما الظروف التي تنشأ فيها السادية؟ وما دوافعها؟ وما حجم فظائع القسوة التي نشاهدها على الشاشات؟ وهل كل من ساد في الخفاء؟ وسوف نبدأ بما هو مألوف وطبيعي في هذا الموضوع الذي يتناول غير المألوف. فما قدر انتشار القسوة السادية في حياتنا اليومية؟

## السادية أكثر نُدرَة في الحدوث مما يبدو:

إن السادية أكثر ندرَة من قساوة القلب. وقد أشارت تقديرات من الولايات المتحدة وكندا، فيما يتعلّق بالسادية المرتبطة بالجنس، إلى أن جرائم القتل بدافع الجنس نسبتها المثوية ضئيلة، ولا يُعرف شيء محدد عن شيوع السادية كدافع لهذه الجرائم<sup>(٦)</sup>. وبصفة عامة فقد كشفت دراسة استرشادية عن السلوك الجنسي أن ١٢% من النساء، و ٢٢% من الرجال مرّوا بتجربة الإثارة الجنسية على بعض المستويات استجابة لقصص عن استمداد اللذة من إيلاّم الغير أو النفس. ويُلوح هذا وكأنه شيء مثير، لكن هذه الأرقام لا بد أن تُعامل بحذر، إذ إنها تجمع بين السادية ومحبة إيّاق الأكم بالغير بقصد التلذذ الجنسي<sup>(٧)</sup>. وعلاوة على هذا، فبينما تبدو التصرفات التي يُرمز لها بالحروف BDSM (اختصاراً لكلمات: استعباد، سيطرة، الإيلاّم بقصد التلذذ، السادية) كجزء شائع في الأدوار المتكررة لممارسة الجنس لدى البشر، فإن معظمها معتدل ولا يُنزل الأكم إلا في حالات ضئيلة. ويبدو أن الأولويات فيها هي السيطرة والإثارة وعدم التسبب في المعاناة: والتفاعل بين الجادين ممن يمارسون تصرف BDSM (وهم مجتمع صغير جداً) يتم بنظام رفيع وفق إشارات "توقف" متفق عليها من قبل، وبينهم عادة متبعة واتفاق على أي من السلوكيات يكون مقبولاً... وهكذا. وقد يكون هذا شكلاً من "القسوة بالنيابة" أو "بدائل القسوة" (ومنها كثير فيما سيأتي): أعمال العنف والقهر التي تُسمح للشريك المسيطر بأن يتخيّل أنه/ أو أنها قاس. كما أن التعامل مع ضحية قابلة للعلاقة يُقلل من المخاطرة والضرر للطرفين. وبذلك لا يكون أسلوب BDSM قسوة حقيقية - إلا إذا كان المشارك المسيطر يُعاني من إثارة شديدة، بالطبع.

ولا تتطلب القسوة طقوس BDSM . وقد لا تشمل الإيذاء الجسدى إطلاقاً. إن الإيذاء الجسمانى والنفسى قد يَتمز الضحايا دون اللجوء إلى التطرف الدامى للتعذيب أو القتل فى أماكن العمل أو المدارس أو دور الرعاية أو العائلة بصفة خاصة. وإذا ما كان كل هذا الشر فى الأصل "سادية" هو أمراً مشكوكاً فيه. وكما هو الحال فى القسوة البالغة، فإن الحالات الأقل ذبوعاً قد يكون دافعها الكسب المالى، أو الثأر أو الخوف. وقد يتدخل "تشكيل الواقع" هنا أيضاً فى الحالات التى لا تتصرف فيها عناصر مثل الأطفال، صغار الموظفين، الزبائن، أو أفراد الأسرة. كما يتوقع مرتكب الجريمة. وكما فى حالة الضابط الألمانى والطفل، التى وصفناها فى الفصل السادس، فقد كان التهديد ورد الفعل مرتبطين بشدة. إن من يرمى مريضاً "بالزهايمر" ويظن أنه مثير للاشمئزاز قد يؤذيه بأن يتركه بلا تنظيف، ومن يظنه عدوانياً قد يُعذبه أو يؤذيه جسمانياً. وكل هذه الأفعال قسوة بلا شك، لكن إن لم يكن الهدف الأول منها هو التلذذ والابتهاج بإحداث الألم فىى ليست سادية.

إلا أن الخيال البشرى منغمس فى السادية. وما يوجد بكثرة فى عموميات الأدب القصصى هو العدوان المرعب والجرائم الكريهة والمنفرة - سواء كانت هذه القصص فى أحد الكتب على رف مكتبك أو تنساب من أقرب شاشة إليك. ويوزع التعذيب الوحشى على كل الأشرار والأبطال، وتغتصب النساء وتقتل، ويُقطع الغرباء المدينون إرباً، ويبدأ بعض الجيوش وتُذك المدن كما لو كانت تُمحي من على الأرض . ويوجد الأسوأ من هذا فى شبكة المعلومات الدولية حيث يمكنك، إن أردت، أن تُحمل أفلام "فينيو" عن أبرياء يُضربون أو يُقذفون بالقنابل، وأطفال يُعذبون ورهائن تُضرب بوحشية وتقتل<sup>(٨)</sup>.

من المولم أن ترى شخصا ما يعانى، ويمكن أن تكون رؤية شخص ما يبكى أو ينزف مثيرة للقرف أو الاشمزاز، ورؤية شخص يموت شيئا مرعبا. وكما رأينا فى الفصل الثانى، فإن التوتر الشديد التى أسسه "فيليب زيمباردو" Philip Zimbardo فى الدور الذى لعبه فى السجن، إضافة إلى الأوضاع الجبرية فى الحرب كلها قد تسمى مشاعر القسوة - لكنها لا تبلغ أبدا ما يثيره خيال البشر عن القسوة- وهل هذا هو ما يجعلنا نؤكد السادية؟

## السادية والشر:

إننا بالفعل نتوق كثيرا للكلام المنمق عن الشر- ويلي هذا تأكيد واثق مُجهز وكامل الإعداد بأن ما تعنيه كلمة مثل "الشر" شىء غير إنسانى تماما، وخارج على حُرمة السلوك المفهوم، وتفوق طبيعته أى فظاعة فردية.

(ديفيد فرانكفورتر "David Frankfurter من كتابه Evil Incarnate)

إن تسمية شخص ما "سادا" ليست حكما محايدا حسب الاصطلاح اللغوى العام. إنها كلمة تدل على إدانة سلوك الفرد، وتضعنا فى سياق القانون الأخلاقى المقبول، فيما يفترض، من كل من السامع والمتكلم. وكما ذكرنا فى الفصل الأول؛ فإن "النشوء والارتقاء" قد زودنا بقيم أخلاقية جماعية وأساسية وبالقدرة على بناء نظم أخلاقية أكثر تعقيدا. وقد تتداخل بقدر كبير القوانين الأخلاقية الوضعية فى المجتمعات التى نشأت فيها وتحكمت نظم عقائدية عسيرة وظروف صعبة (مثل القتل من أجل البقاء). بينما تستطيع المجتمعات التى لم تتبل كثيرا بالحروب

والصراع من أجل الموارد أن تتوع في قوانينها الأخلاقية بما يتجاوز المصادر الأساسية لها. وأحد الأمثلة على القوانين الأخلاقية الوضعية الموجودة في المجتمعات الغربية اليوم هو الرأي الطبي عن السادية الذي ينظر إليها على أنها حالة مرضية، أو علة واضطراب في العقل. فالساديون مرضى يحتاجون العلاج وليس العقاب.

أما القوانين الأخلاقية الأساسية، على خلاف الوضعية، فهي واضحة وتنص على الإدانة: "السادية هي أسوأ جرم وأكثر الآثام شناعة". إنها تنير التقرز والغضب وتدعو للعقاب، وهي كالتهديد التقليدي بالاشمزاز وردود الفعل تجاهها هي: الاجتناب، الطرد، أو تدمير المذنب. ويوصف الساديون مراراً، مثل كل من يقترفون أسوأ الفظائع بسبب غلظة القلب، بأنهم "أشرار". وكما رأينا في مقدمة الكتاب، فإن ذلك يفسح الطريق لفعل جماعي عنيف ضد أي شخص يُتهم بالقسوة السادية.

وجمود الفؤاد، أي اللجوء إلى القسوة لأسباب أخرى، يمكن أن يكون دلالة على القوة عندما يوجه ضد الغرباء، ففيه فائدة للوطن. وبالمعايير "العمياء" للاصطفاء الطبيعي تكون قيمة السلوك عظيمة إذا كان يساعد على دعم بقاء "السلالة" (الجينات)، بصرف النظر عن سلامة القيم الأخلاقية. وتبارك القوانين الأخلاقية الأساسية أن يكون الرجال، وهم المدافعون الأوائل عنا في نظر أسلافنا، فخورين بجمود الفؤاد ومتنافسين في أن يتفوق كل منهم على الآخر في السلوك الحربي والقتالي، وهم بذلك يُظهرون اهتماماً شديداً بالعنف منذ حداثة سنهم، ما دام هذا العدوان محكوم اجتماعياً وموجهاً ضد أفراد خارج الجماعة فقط. والانحراف عن "ميثاق الشرف" هذا يستوجب العقوبة. وإظهار الجبن أو الضعف أو لين الجانب تجاه العدو عندما يلجأ للقسوة يمكن أن يكون سبباً في جزاء اجتماعي

صارم، ويتعلم الشاب الصغير فوراً أن العنف غير المبرر ضد الأنثى والأطفال أو كبار السن غير مقبول كذلك (مع أن ما تعتبره ثقافة معينة "مُبرراً" يختلف بصورة كبيرة عن غيرها).

وتختلف الحالة الاجتماعية لـ "ميثاق المحارب" الناشئ في المجتمعات المختلفة (وما زال أقوى في الولايات الجنوبية بالولايات المتحدة أكثر منه في الولايات الشمالية، مثلاً)<sup>(١٠)</sup>. ويبقى كذلك كمنظومة أخلاقية فاعلة ومؤثرة حتى إن تمت معارضته رسمياً، فهو إطار قياسي للأفلام السينمائية والكتب والجراند التي تُظهرنا (نحن الناس) كما نريد أن نكون. فإذا ظهر البطل بمظهر "غير رجولي" ووزع العدالة على أعدائه "بندالة" وجبن فلن تكون هناك صناعة سينما تستحق الذكر والثناء ويرضى عنها عامة الناس. وتختلف السادية عن ذلك. فإنها حتى إن وُجّهت ضد الأشرار المحترقين تثير لدينا الغثيان، ليس بالضرورة بسبب ما ارتكب من فعل لكن لأننا اعتدنا على الشعور بالإعياء لو شاهدنا قسوة سافرة وبلا مبرر على هذا النحو (حتى إن كانت السادية لا تريق الدماء أو تُظهر الأحشاء أو تُحدث ضرراً جسمانياً). لماذا؟ ولأننا "داروينيون" جيدون، يجب علينا افتراض أن رد الفعل منحنا إثابة وكسباً "تطورياً". فلو أن القدامى من البشر الذين عاقبوا دلالات السادية في الآخرين من غيرهم كانوا ناجحين في "لعبة الجينات" عن معاصريهم الأكثر ليونة ولطفاً، لكان رد فعلنا الغريزي للسادية والسهولة التي تستولي بها على انتباهنا، قد يكون منشأه هو تأثير "الاصطفاء الطبيعي" فقط.

إننا لن يمكننا العودة إلى سالف الأيام، لذا فإن أي تفكير لا بد أن يظل على هذا النحو: إن الفرد يمكنه أن يرى لماذا قد تُكبج السادية بشدة. حتى إن كان المستهدفون منها أساساً من الغرباء فإن الالتزام بالقسوة من أجل القسوة يمثل تهديداً

لأفراد الجماعة ذاتها. وماذا يحدث إذا لم يكن هناك أعداء؟ وما الذى يمنع السادى من أن يستهدف زوجه، ابنه، أو جاره بدلا من العدو؟ ومن المعتاد أن تكفى الموانع الأخلاقية-وما يدعمها من تهديد من محظورات يُحرّمها المجتمع، ولكن المجتمعات تدرك أن الرغبات الشديدة يمكن أن تسيطر على كل من القواعد الأخلاقية والمنفعة الذاتية المعقولة. وعندما تتحكم الرغبة فى الإيذاء فى الفرد فإن الدوافع الأخرى تُرْخى قبضتها وتضعف. والسادى، شأنه شأن مدمن المخدرات أو المتعصب لن يكون مهتما بأى حال بالمصلحة العامة للجماعة أو بالنيات الطيبة أو بحسن السمعة، أو بصالح المجتمع، أو حتى بدافع أن ينشر صفاته البيولوجية الـ"دى إن إيه" (DNA) الخاصة به. إن "الجوع" أو الشهوة للإيذاء تتطلب الإشباع مهما كانت الكلفة أو النتيجة على الأصدقاء والأقارب الذين سيصيبهم الضرر. وبما أن هؤلاء الساديين لا يمكن الوثوق بهم أو فى أنهم لن يؤذوا حتى المقربين إليهم، إن لم يعثروا على ضحية بديلة، فيجب أن يخضعوا لأقصى عقوبات التحكم المادى (والبدنى)، وفى الحالات المتطرفة لا بد من النبذ أو النفسى أو الطرد خارج الجماعة. ولأن البشر يميلون إلى الاعتقاد أن السلوك السيئ، باعتدال، يؤسس لسلوك أسوأ، فإن الجماعات التى تعاقب علامات السادية مبكرا تكون لديها فرصة أكبر لتمنعها من أن تبلغ درجة أكبر من الخطورة. ويمكننا أن نبدأ فى تحديد كيف ستتطور أحكامنا الأخلاقية حتى تصبح أقوى وحاسمة.

وتشتمل السادية، مثل كل أنواع القسوة، على علاقات قوة غير متكافئة (وهذا بالضرورة، إذ إن المعتدى لا بد أن يكون قادرا على العدوان على الضحية). وستكون الضحية انتى لا حول لها ولا قوة مصدرا مجزيا لمرتكب الفعل.

والجماعات التي ترفض التسامح مع السلوك السادى تحمى بذلك أعضاءها من الضعفاء - بما فى ذلك الأطفال الذين تضمنهم كاستثمار فى المستقبل - وصغار السن الذين يتعرضون للقسوة قد يموتون أو ينشئون غير مؤهلين كوالدين<sup>(١١)</sup>. وعقاب السادية واستكافها ومقتها يمثل حسا تطوريا ممتازا.

## لماذا توجد السادية؟

الإبادة شىء فى حد ذاته، لكن لا داعى

لتعذيب ضحاياكم قبلها

(يوجين هوراك Eugen Horak، مترجم فى "أوشفيتز"، مقتبسة فى

كتاب "ريتشارد أوفرى Interrogations Richard Overy)

وما لم تفصح عنه "حكاية داروين أو تفسره هو كيف نشأت السادية واستمرت فى مثل هذا الجو العدائى بين البشر. وهناك بالفعل سؤال أبعد من ذلك: هل تستطيع فكرة "النشوء والارتقاء" أن تمدنا بإجابة عن لغز السادية<sup>(١٢)</sup>؟ وقساوة القلب، مثلها مثل الحكم الأخلاقى الذى يعاقب القسوة السادية، هى نتيجة طبيعية لمنحة التطور: وهذا هو القانون الأخلاقى الأساسى. غير أن فرض المعاناة على إنسان من أجل المعاناة بينو كما لو كان حالة من السلوك الذى يخالف أو يوقف التطور أو يشبهه، مثلا، أدوية "موانع الحمل". إن قتل أحد الغرباء كى تمنع "جينته" من أن تنافسنا شىء عملى، لكن ما الغرض، حسب شروط "داروين"، من تعذيبه قبل قتله، لماذا لا يُنثَم رأسه ببساطة وينتهى الأمر؟

## تكلفة التسوة:

بالنسبة للبشر الذين اعتادوا على أن يدفعوا مقابل الموارد كي يديروها قد يبدو "الاصطفاء الطبيعي" غير فعال. إن هذه هي المنظومة التي حافظت على طائر مثل "الدودو" الذي أوشك على الانقراض. إنها منظومة متهاونة لا ترتب الأمور بعد تجاربها وتترك نفاقاً وأجزاء هزيلة ومبعثرة لا فائدة منها وقد تكون خطيرة في بعض الأحيان (كما يعرف كل من عانى من التهاب الزائدة الدودية). إن هذا يخلق مخلوقات عجيبة وشاذة بلا حصر وقد تتوقف فوراً عن الوجود والحياة عند أول منحنى (أو تتعلق بخطاف مجازي بفضل مجهود عوامل الحفاظ على الحياة أو فكرة الطاقة التي لا تفتنى). إنها تبعث بالآلاف البليونات من "التقاوى" والحيوانات المنوية والأطفال الصغار إلى عالم لن يستطيع أن يُنفذ فيه إلا القليل.. لماذا؟ لأن هذه كانت في الماضي استراتيجيات نجحت واستمرت بفاعلية.

وعلى المستوى الفردي فإن التكلفة والإسراف الشديد في الاصطفاء الطبيعي اعتبر أولوياته بالنسبة إلى أي كائن حتى بقاء الطاقة والحفاظ عليها بذاتها دون فناء. وغالبا ما تكون الموارد نادرة وشحيحة وطالبوها "الجياح" كثيرين. وفي الأوقات العصيبة لن تحل المعجزات هذه المعضلة، بل الحل هو في الاقتصاد وقبض اليد. إن التلطف الزائد مع ذئب مفترس أو سمكة تقفز أو صقر مُحلق كلها يبدو طاقة صغيرة، لكنه يعكس شيئا من التفاؤل، إذ إن أسلافنا المهرة تركوا خلفاً وسلالة أكثر اقتصاداً من منافسيهم الأوائل، وحتى البشر الذين ينظرون بعين الحسد والأسى على الحيوانات التي تستطيع أن تتواءم مع بيئاتها بسهولة ويسر لا يباري، يرون أنهم بارعون في جعل الحياة أقل مشقة وعسراً بالبحث عن أسلوب أقل مقاومة.

وقد يكون الكسل خطيئة في التراث، لكن الحفاظ على الطاقة جزء دفين في النسيج الإنساني (وإضافة موارد من الناس الآخرين شيء آخر مختلف). أليس هذا هو سبب استخدام البشر موانع الحمل - كي نحصل على متعتنا دون مضايقات أحمال ومسئولية أطفال مكلفة تستهلك كثيرًا من المال وتمثل مضيعة للوقت؟

إن الإنسان السادي شخص انحرف وحاد عن الطريق الذي به مقاومة أقل فأضاع موارده على نشاط لن يجلب له منفعة ظاهرة. والقتلة معتادو القتل، هؤلاء الساديون النمطيون، يستطيعون أن ينفقوا قدرًا مفرطًا من الطاقة والوقت يتجاوز الحدود في التخطيط لجرائمهم، ثم يمسون بالضحية يقيدون بها أو يعتقلونها ويديرونها بعناية ولو فرضنا أن النتيجة - في أعلى درجاتها - مساوية للقتل. فلماذا لا نقتل ببساطة وبسرعة ونوفر الطاقة الزائدة لاستخدامها في مكان آخر؟ إن منطق نظرية النشوء والارتقاء هو "أى نمط مثل هذا من الانفاق البارز والزائد يتطلب محاسبة"<sup>(١٤)</sup>. فالسادية ليست مضيعة فقط إنها يمكن أن تكون خطيرة، تخاطر بالدمار من الضحية وانتقام من حلفائها، أو حتى النبذ والنفى المنقزز للشخص، حتى من أقربائه. نحن غالبًا نعتقد أن الساديين أفراد "مستوحشون" يميلون للانفراد ولا يخاطبون الناس، إنهم مجرمون معتدون يدعمهم التفوق التكنولوجي بسبب براعتهم ومهارتهم في استخدام السلاح أو التصويب عند استهداف ضحية لا حول لها ولا قوة.

ولو كانت السادية قديمة - وفق نظرية التطور - فإنه لا بد أنها كانت تترعرع في عالم مختلف تمامًا عن عالمنا. ومن المعتقد أن أسلافنا قد عاشوا في جماعات صغيرة تربطها قرابات وثيقة وتهددها مخاطر الطبيعة والمعتدون والسموم والأمراض وجماعات أخرى من البشر. ولم يكن هناك احتمال أن يُترك النساء والأطفال بلا حماية وهم يمثلون الثروة الغالية. وفي مثل هذا العالم كان من المخاطرة الكبيرة أن يمشی إنسان وحيدًا فيلقى مصرعه، أما الرجال الذين يبقون

داخل الجماعة فيشاركون في جلب الطعام وواجبات الحراسة أو يطلبون المساعدة والنجدة في مواجهة المعتدين الأقوياء.

ويتضح من ذلك أن حياة الجماعة مفيدة وفاعلة، هذا من منظور "الجينات"، فصارت هذه فكرة مركزية تحكم الوجود الإنساني اليوم وتحقق نجاح البشر في التحكم بأنواع الكائنات الأخرى (ما عدا الحشرات والكائنات الدقيقة). غير أن السادية هي سلوك ضد الجماعة في أعلى درجاته ولا تشبه السلوكيات الأخرى ضد الجماعة، مثل الغش أو الجنوح، في أن عاندها بالنسبة "للتواؤم" وللتناسل والتوالد لا تظهر أو تتضح بسرعة. وبطبيعة الحال فإن تشخيص القسوة يتطلب وجود الدوافع - وهذا صعب وجوده في أي معلومات فيما قبل التاريخ، مع أن هناك دليلاً قوياً على العنف داخل الجماعة - لذا لن يمكننا التأكد من أن أسلافنا قد عانوا من السادية وتعذبوا منها<sup>(٤٦)</sup>. لكننا نعرف أنه في العالم القديم كانت القسوة البالغة سبباً للشكوى، وكانت تثير الفزع والرعب مثل الذي نشعر به هذه الأيام<sup>(٤٧)</sup>. إن السادية ليست، ببساطة، مرضاً جاء في عصر التنوير واختراعه رجل أرسنقراطي فرنسي يمتلك حاسة بارعة بالمخاطرة أو لديه حس فكاهاى. لقد ظلت السادية جزءاً من المخزون البشرى لمدة طويلة تكفى لأن تجعلها معرضة لقوى "التحور والتطور الثقافي"؛ إن لم يكن التطور الجيني أيضاً. إن السادية جزء دفين في أعماق مفهومنا عن الشر - وهو بالكاد موقع هامشى أو ضئيل في الخيال الإنساني - كما أنها تتسيد على اختياراتنا للتسلية والترفيه. ولماذا يجب أن تكون السادية المنخيلة والبديلة (في التسلية) أكثر شهرة وشعبية من السادية الحقيقية؟ فكثير منا لديه، في الواقع، أفكار تميل إلى العنف وحتى إلى قتل البشر، إلا أن قليلاً منا يعملون بها أو ينفذوها<sup>(٤٨)</sup>. وإذا كانت السادية ضارة جداً ومؤلمة، فإن الفرد قد يتوقع أنها كان لا بد أن تمحى من المخزون الثقافى للبشر من زمن طويل.

ولماذا لم يحدث ذلك؟ هل هذا لأن هناك "تذوقاً" للسادية تتشوره وتذيعه وتدعمه قوى ثقافية مسيطرة، مثل الدين؟ هل حقاً أن الأسوياء والعظماء "يطعموننا" القسوة بغرض التحكم الاجتماعي؛ بأن يقدموا للجماهير "منافذ" تستحوذ على انتباههم بدلاً من عواطف قد تشعل ثورة غير مرغوبة؛ وبدلاً عن ذلك هل "السوق" في الأحلام السادية هي نتيجة لتدفق تيار شرير في طبيعة البشر، يكيّته ويكبجه عموماً الجبن لكنه يفصح ويعلن عن نفسه في أوهام وأحياناً في أفعال؛ وإذا كان الأمر كذلك، فهل يؤثر هذا التيار المتدفق فينا جميعاً؛ أم أنه يمكننا في هذا العصر الذي تداوى فيه السمات الشخصية للإنسان بالحبوب والأدوية أن ننظر إلى السادية على أنها مجرد عرض مرضي آخر، ينبئ به قلة فقط من النفوس سيئة الحظ؟

### السادية كحالة مرضية:

هل يمكن أن تكون السادية عرضاً مرضياً، نتيجة شيء من "الخلل الداخلي" مثل: التهاب الزائدة الدودية؟ لقد قدم الباحثون مقترحات متنوعة ومختلفة عن ماهية هذا الخلل تشمل مشكلات في "تركيبية" الفرد، مثل نقص أو خلل في المخ (كأن يُقال: إن القشرة الجذيرية في مخه حجمها صغير، ولهذا، "سيدتي"، فقد شق بطن قطنك وأخرج أحشاءها) والمشكلات في وظائف المخ مثل أي مشكلات في وظائف الجسم، تعطل وسائل التواصل بين أجزائه المختلفة. وهذه المشكلات. وأهمها الإصابة في الفص الجبهي، كان من تأثير نتائجها عدم الارتباط بينها (أجزائه) وضعف القدرة على إقامة علاقات إنسانية اجتماعية<sup>(١٨)</sup>. ويمكن أن ينشأ الخلل في وظائف المخ أيضاً نتيجة لإصابة بناء أو تركيب المخ؛ لأنه تعود على العمل بعيداً عن هذه المناطق المصابة. وقد يعكس الخلل بيئة شاذة غير عادية، لأن نمو المخ يتغير ويتأثر بواقع ضغوط المعاملة السادة في الطفولة، فمن الممكن مثلاً أن يتسبب

الإيذاء الجنسي في الصغر في أن تقرن الضحية بين الألم الجسماني والإثارة الجنسية، وقد يشمل رد فعل الطفل قبول هذا الاقتران، اعتمادا على الطفل وظروف الإيذاء التي صادفها، مما يقوده في الكبر إلى السلوك السادي أو إلى التلذذ بإيذاء الغير، أو قد يرفض ذلك بسبب الشعور بالذنب، فيؤدى ذلك إلى الإنكار والاستهجان ثم الاكتئاب أو/و التوتر الذى يتبع الحادث أو الأذى الذى يلحقه بغيره<sup>(٩)</sup>.

والأفراد، سواء كانوا معتدين أو ضحايا للسادية (وبالفعل كلاهما) لا يتم تقييم حالتهم عادة إلا في عيادة طبية. إننا هكذا سنحصل على معلومات قليلة عن كيف كانت عقولهم تعمل قبل تجربة القسوة، وأيضا ستكون المعرفة ضئيلة عن المسارات الذهنية المسببة لها (والحصول على مثل هذه المعلومات تكتنفه تعقيدات ومشكلات من الناحية الأخلاقية). ومثال على ذلك، نفترض أن ساديين ممن يسينون إلى الأطفال وكانوا أنفسهم ضحايا للإيذاء وهم صغار ظهر أنهم يعانون من خلل في وظائف قشرتى الفصين الجبهي والصدغى بالمخ. وحتى لو كان البحث إحصائيا ونتيجته قوية وجيدة وتكرر إجراؤه؛ فإن ما يفصح عنه قليل جدا فى حد ذاته. إن ما نلاحظه من خلل فى عمل المخ من الممكن أن يكون أساسا ناشئا عن عوامل جينية أو بسبب إصابة حدثت فى وقت سابق فى فترة النمو (أو حتى فى رحم الأم قبل الميلاد)، أو إلى تأثير معين للإيذاء، أو بسبب بعض العوامل الأخرى التى تصادف وجودها قبل أو فى أثناء الاعتداء أو الإيذاء (سوء التغذية مثلا)، وهذه قد يكون أو لا يكون سببها الشخصى هو الذى أحدث الإيذاء فى الأصل<sup>(١٠)</sup>. ولن نتغلب على هذه المشكلات إلا بأن نحصل على المعلومات عن فترة الحياة الأولى للمجرم وعن أعداد كبيرة من الناس. (ولكن كم من الوقت علينا أن ننظر حتى يكون المسح الذرى المنتظم للمخ جزءا من الرعاية الصحية الشاملة

للإنسان مثل قياس ضغط الدم؟) إن ندرة السلوك السادى والصعوبات التى تتضمنها الدراسات عنه سوف تظل تمثل مشكلات هائلة لمن يُجرون أبحاثاً عن نماذج مرضية من السادية<sup>(١١)</sup>.

وترجع بعض حالات من السادية - غالباً - إلى إصابة خطيرة بالمخ أو خلل بوظائفه، إلا أن كثيراً من حالات التعذيب الفظيع يُنفذها بعض الناس، فى مواقف معينة، من الذين لا تبدو عليهم أمارات أو دلالات القسوة فى ظروف مغايرة. إن المخ قد يعمل بصورة شاذة فى هذه المواقف فقط، لكن لو كانت هذه حالة مرضية فإنها تُشكل نقصاً وخطأ يأتى ثم ينتهى استجابة لعامل اجتماعى كأحد العوامل التى قد يتعرض لها حتى الأصحاء من الناس. وهل كل من يرتكب جرماً شديداً القسوة يخضع لحالة غير مألوفة فى المخ وقت ارتكابه؟ إن هذا الشئ ممكن، فنحن لا نعرف. وهل يمكننا أن نصف هذه الحالة بأنها حالة شاذة؟ إن ذلك شئ يتعلق بعلم معانى الكلمات، وهل "الجوع" شئ أو وضع شاذ؟ إن القسوة شئ يفعلُه الناس فى حالة يكون فيها خلل العقول أو لا يكون. والناس الأصحاء عموماً لا بد أن يغمسوا فى مواقف "غير صحية"، مثل الحرب، قبل أن يصعدوا قسوة الحياة اليومية العادية إلى أقصى الصور المختلفة والميلكة من القسوة. أما الناس من ذوى الحالات الصحية الأدنى فقد يُعيرون عن القسوة باستعداد أكبر وفى ظروف الحياة العادية.

إن القدرة على أن نكون قساة جزء منا، فنحن ليس لدينا ما يبرر أن نعزلها ونجنبها باعتبارها نوعاً من المرض، إلا فى حالات معينة ونادرة، ولكن ليس علينا استنتاج أن كل إنسان قاس بالفطرة والسليقة. فبالنسبة إلى معظمنا، وفى معظم الأوقات، تكون السادية شيئاً نادراً والإيثار على النفس بالكاد غير معروف. ونحن لدينا الميل والاستعداد لأن نكون قساة أحياناً، لكن هذا النزوع أو الاستعداد ليس مثل النزوع الغريزى لاستطابة آلام الغير والتلذذ بها. وقليل جداً منا قساة بالحال

نفسه والوضع الذى نشعر فيه بالجوع. إلا أنه مثلما يدفع نقص الطعام الشخص الذى يشرف على الموت إلى أكل لحوم البشر؛ فمن الممكن أن بعض الظروف قد تُشجع القسوة ويمكن أن تُحوّل شخصا طيبا إلى قاتل سادى.

## القسوة والتحكم والضبط الاجتماعى:

ماذا عن الدعاوى التى تقول بأن السادية تروج لها وتحض علينا قوى ثقافية مهيمنة ومسيطرّة. لقد قيل الكثير عن أهمية القيادة السياسية والثقافية وعن تأمر الدولة فى الجرائم والفظائع التى تحدث على نطاق واسع حيث تظهر السادية<sup>(٢٢)</sup>. وشى آخر يُشار إليه عامة على أنه "مذنب ثقافى" وهو الدين. والمثال الواضح هنا هو المسيحية بتأثيرها الذى لا يمكن حصره فى الفكر الغربى، بما يعكسه فعل القسوة المفزع الذى يمثل لب منظومتنا العقائدية- صلب المسيح. وهى ظاهرة توجد فى كثير من الأديان. وحتى بصرف النظر عن صلب المسيح، فهناك سيناريوهات من القسوة المفزعة والموجودة والمتاحة لكل من يستطيع أن يقرأ منذ أن سهّل تطور الطباعة وطُبعت وصدرت النصوص الدينية على نطاق واسع (مثل كتاب "فوكس" J.Foxe سجّل الشهداء)<sup>(٢٣)</sup>. وقبل ذلك فقد جعل الفن الدينى القسوة البالغة المرئية فى الصور مألوفة للناس الذين ربما لم يشاهدوها مباشرة وواقعية على الإطلاق.

ومع ذلك، فالتعليقات التى تصدر من كاتب مثل فريدريك نيتشه "Friedrich Nietzsche" وهذا التأكيد منه على القسوة، لا يمكن أن يؤخذ دليلاً على أن المسيحيين بصفة خاصة يمتلكهم ويستحوذ عليهم وسواس مرضى بالألم والمعاناة<sup>(٢٤)</sup>. والتضحية المقدسة ربما تكون قد طالتها الديمقراطية بفعل الضغوط

الاجتماعية والعلمانية والتي أدت إلى الإقلال من التأمل فى عذابات القديسين وصلب المسيح والتغنى بها، وإلى الإكثار من ذكر معاناة الناس العاديين والأحداث المروعة التى تمسهم. إلا أن هذا يقول الكثير عن تغيير وتبدل أنماط التحكم الاجتماعى أكثر مما يقوله عن القسوة، وافترض انحسار أو انهيار الإيمان لم يوقف الشكوى من شرور وسائل التسلية فى الغرب الحديث، ووسائل الإعلام والثقافة أحياناً. إن قوة الدين قد تعلو وتهبط؛ لكن القسوة ظلت ملمحاً وسمة من تخيلات وأوهام البشرية قبل المسيح وأفلام هوليوود بكثير. إنه من المصادفة أن تكون الحال أن معظم فترات تاريخنا، وكثيراً من المحتوى الرمضى فيه خيالات للإنسان زوده وأمدّه بيا الدين. ولذا فإن القسوة هى بدائل تحدث معظمها نيابة عن مضمون دينى.

ويخاطب الدين حتما الألم والآلام، لأن ذلك يجسد ويمثل أوسع أدوارهِ. وقد أضيف إلى ذلك أن القسوة الحقيقية والمتخيلة توجد بسهولة فى الثقافات التى تنكر الأديان (كمبوديا تحت الخمير الحمر مثلاً حالة قصوى ومتناهية). وتظهر القسوة كذلك فى حالات مختلطة بأوهام الأوروبيين العلمانيين فى هذه الأيام وأبناء عمومتهم الأمريكيين الأشد حماساً منهم. وشيوع العلمانية قد يختلف ويتنوع فى الجماعات تماماً مثلما يختلف من شخص لآخر، لكنه لا يقتصر على دين أو ثقافة سواء فيما يخص عقيدة "إبراهيم" أو فى الثقافات "المستجلبه" والغربية مثل ثقافة "الأزتك" والمغول. وفى أساطير الإغريق القدامى - تلك الثقافة التى تمتدح تقليدياً كأساس للحضارة الغربية والديمقراطية والمنطق - قد تكون هناك أمور قاسية بضاوّة، فكروا معى فى أسطورة "بروميثيوس" الذى عوقب لأنه ساعد البشر بأن قيّد بسلاسل فى صخرة ومزقت كبده طيور جائعة من الجوارح<sup>(٢٥)</sup>. وكما يحدث فى أحكام الإعدام، فيذا فعل قانس وغير مألوف، وغير إنسانى ومعيب، لكن الحكاية

فى هذه العبقرية السادية هى أن "بروميثيوس" لم يُعذب. إنه يُنقذ وتتمو كبده ثانيًا وتعود إليه الطيور الجارحة مرات ومرات.

ويمكن للدين، مثل المنظومات العقائدية الأخرى، أن يتفرع ويتحول ويشجع القسوة الحقيقية والمتخيلة (كما يمدنا بالحافز لنقاوم فى بعض الحالات) وتستطيع ذلك أيضًا النزاعات حول الأراضي حتى تترككم أيها الناس بجهد لا يكفى للعمل. إنه شيء مغرب أن نلوم الدين، ولو محونا العقيدة الدينية، إن استطعنا، فلن يؤثر هذا بقليل أو كثير فى قسوة الإنسان، فهناك أسباب كثيرة جدًا يمكن أن تجعلنا قساة.

وكما فى معظم المناقشات المتكررة، فالحقيقة هى أن كليهما (الدين والثقافة) له تأثيره. إن الثقافة تتوسط المسالك التى يسافر فيه خيالنا. وطبيعة الإنسان "المتطورة" تمدنا بأسباب قوية ومتجذرة وعميقة، لماذا نستمتع بمثل هذه الأساطير والأحلام. والاثنتان معا يعطوننا استجابة ثالثة لمشكلة السادية.. إن الفكر غير المريح والواضح هو أن الناس يكونون قساة عندما يكون للقسوة عائد مجز. وقدرتنا على أن نستمتع ونبتهج بالمسرات مخيفة لدرجة أنها تستطيع أن تهزم حتى الرعب الناشئ عن ارتكاب الأعمال الفظيعة. إن الساديين يظهرون ويوجدون لأن القسوة يمكن أن تكون ممتعة لهم.

### بهجة السادية:

إذا كانت القسوة ممتعة فقد يكون مذاق القسوة "المنصرة" له معنى آخر؛ إنها تمنحنا السرور والبهجة حتى إن كانت النتائج غير سارة ومُستتكرة. وفى العالم الواقعي؛ يكون الضحايا مزعجين وملوثين ولا بد من التخلص منهم، وقد يمثلون خطرا، ويهددون العلاقات الاجتماعية. أما فى الخيال، فإنهم يخففون

أو "يتبخرون" حالما نفقد الاهتمام بهم، لكن لماذا نريد أن نستمتع بأى نوع من أنواع القسوة؟ ولو كانت الرذيلة أو الفساد القبيح والمتخيل مجزية، فما فائدتها ومكافأتها أو إثابتها؟

إن أحد أسباب زهوة السادية له علاقة بالقوة العاطفية للقسوة، فالمثيرات التى تنتج عواطف سلبية قوية؛ تكون عموماً أكثر بروزاً وقوة ولها تأثير أكبر وسترعى الانتباه أكثر من تلك التى تنتج عواطف أقل إيجابية أو أقل فى الشدة. فالقسوة عاطفية بدرجة كبيرة؛ لأن بها مثيرات مزعجة - الدم والصراخ مثلاً - لأننا دائماً نتأثر بإشارات القوة الاجتماعية والمكانة. والناس الذين يحطمون القواعد والقوانين الأخلاقية، فى الواقع - كما فى القصص الخيالية - نطن أنهم أقوياء، خصوصاً إذا كانت لهم "كاريزما" أو محبوبين ويبدو أنهم يستطيعون أن "يفلتوا" بتعدياتهم على القواعد ويتجاوزونها بحزق ومهارة، وهذا هو ما يجعلهم بطبيعتهم مشوقين ومهمين. إننا بالفعل نندمج معهم، وإن كان ذلك جزئياً أو بصفة مؤقتة أو للحظة عابرة، وبذلك نستمتع بإحساس بالقوة نيابة عنهم؛ فيزيد ذلك من إحساسنا بالتحكم دون أن يُحتم أن نواجه الآثار المخيفة للقسوة فى واقع الحياة. وبالمثل تضع التكنولوجيا فى الحروب مسافة بين عمليات الحرب ونتائجها وبذلك تساعد فى أن تجعل الحرب أكثر متعة لمن يمارسونها أو ينغمسون فيها، خصوصاً إذا كان لديهم وازع أخلاقى يخص السبب الذى من أجله يحاربون<sup>(26)</sup>. وليس الأمر مصادفة أن تقلل أفلام العنف من تأثير الفعل فى الضحية وتركز على قوة مرتكب الجرم فتساعد خيالنا فى أن نفعل الشيء نفسه. وأفلام الحركة مثل مسلسل "أنديانا جونز" هى من النوع نفسه الذى تُباد فيه أعداد كبيرة من الأشرار البارزين ومن الممثلين الهامشيين. والرداع الأخلاقى الذى عادة ما يكون نشيطاً وفعالاً هو نفسه الذى

يُكَبَّت، حيث إننا نعلم أن هذا العنف خيالي. إننا نحب المجرم ونعلم أن سلوكه ليس مسؤوليتنا، (بما أن اندماجنا وتوحدنا معه جزئي فقط).

وتُصور الأفلام المجرمين الآخرين في حالة ساديين "كارتونيين" ينالون العقاب الذي يستحقونه؛ ويسمح لنا ذلك بأن نجمع السادية في طراز أخلاقي واضح ومحكوم لا يؤذينا أو يضايقنا (بمعنى أخلاقياتهم وأخلاقياتنا الأساسية، وحقوق الإنسان، وفكرة إدارة الخد الآخر المسيحية السارة والتي لا لزوم لها)، وعندما يبالغون في سوء سلوك الشخص الشرير، غالباً إلى حد يجعله مثل تصوير "الكاريكاتور"، فإن الرواية الخيالية تؤكد للجمهور أن الأشرار أشخاص من السهل التعرف عليهم وتحديدهم، وهم مختلفون تماماً عنا وسوف يصير بهم الحال، بلا مهرب، إلى عقوبة يستحقونها.

أما في أفلام "جيمس بوند" على سبيل المثال، يبرز الشرير نمطياً كشخص سادى سبب منذ البداية، وذلك بالاستغناء عن أى شخص طيب بطريقة لا مبرر لها، إنه يُلقى بضحيته من طائرة أو في "مفرمة" عملاقة أو ما شابه. إن هذه الميته المثيرة والمفرعة "يبتلعها" جمهور المشاهدين، مع احترامى، إلا أن نظريات أهمية أو حتمية التقليد في ثقافة البشر: تجعل المشاهد يميل إلى أن يترك الفيلم مصراً على أن يدفع بمن يضيق بهم في حياته إلى آلة تُقطع وتطحن، ومن يفعل ذلك من الناس، كما يقول لجم الفيلم، سوف يفعل بيم الشيء نفسه. إن أشرار "بوند" يلقون نهايتهم السيئة أو أكثر ممن "دلوهم" أو ارتبطوا بهم، وهي نهاية مناسبة جداً. إن من يُلقى بالناس من طائرة سيسقط ليلقى حتفه، ومن استخدم "المفرمة" سيلقى المصير نفسه.

وهناك سمة أخرى من سمات القسوة في القصص الخيالية تستحق الذكر، وهي أن تصوير القسوة الفانقة يمكن أحياناً أن يشمل إقصاء الآخر، لأن الشخص

القاسى أقل من أن يكون إنساناً بأى شكل من أشكال تجسيد الشر الذى لا يمكن تفسيره. فهو قوى ومرعب كقوة من قوى الطبيعة. إن شخصية هانيبال لكتير "Hannibal Lecter"، المريض نفسياً (إنه ميل لتذوق لحم البشر) والذى قدمه لنا توماس هاريس "Thomas Harris" وهوليوود هى مثال على ذلك<sup>(١٤)</sup>. وفى مثل هذه الحالة المفزعة يتشجع المشاهد على ألا يتوحد مع الشرير. إن هذا يتحقق جزئياً بأن نجعل أفلام "هاريس" مُعتمة وشخصيته غير محددة، ولا تصور سلوكه المتجاوز للغاية. وقد يتصور كثير منا أن هناك من يمكنه أن يحفر فى مخ إنسان بملقعة كما يفعل "ليكتور"، لكن الصدمة من هذا التصور تشبه زلزالاً يضرب ضربات عشوائية، ويبدو أنه وحش من شأنه أن يُنزل الدمار بالبشر فى سادية بشعة، إنه قوة مدمرة مثل بعض قوى الطبيعة.

لكن هناك شخصاً واحداً لا يهاجمه هذا الوحش، إنها البطلة المتعاطفة التى يتوحد معها المشاهد. ومعظم الرواية تدور حول محاولاتها لتحديد دوافع الشرير بالفعل؛ حتى تطرح نمطاً، أو بمعنى آخر، لتنظم هذه الفوضى وتجعله أكثر ألفة ومفهوماً فيما نتنبأ به عن أفعاله. ويتضح أنه يهتم بها وأنها شىء خاص بالنسبة إليه. ويموت أشخاص آخرون. ثائرون نوعاً ما، على يد "لكتر" ما عدا البطلة. كلاريس ستارلنج "Clarice Starling" فى فيلم هانيبال "Hannibal"، حتى إنه يذهب إلى حد أنه هو الذى يُنقذ حياتها. إن الرسالة هنا، والتى نحب جميعنا أن نجدها فى القصص الخيالية، هى بالتحديد هذا الشعور بأننا متميزون؛ فقد تكون القسوة سائدة فى كل مكان حولنا، ولها صوت وهمس، لكنك أنت "مهم". إنك تعنى الكثير لنا- حتى بالنسبة إلى الأشرار وللطبيعة العاصفة أو بالنسبة إلى قوى الشر الخارقة ذاتها. إن الآخرين قد يموتون لكنك سوف تتجو .

ويطرح كثير من القصص الخيالية التي تُشكّل أفكارنا عن القسوة السادية أهمية البطل المقاوم كأمر مسلم به. إنه هو/ هي فقط الذى يستطيع أن يُحبط الخطط الشريرة للمجرم. إن هذا الشرير قد يبدو محكوماً بوسواس ضرورة قتل البطل. وقد يُعبر تلقائياً عن السخرية منه والاستهزاء به فقط كي نعرف الخطأ فى أسلوبه. وفى كلتا الحالتين تنتهى الخطة الشريرة حتماً بالفشل. وإذا كان لا بد لنا أن نعانى: فإن هذا هو كيف نريد لمعاناتنا أن تكون. إننا نريدها محتملة ومختصرة، ويجب أن تكون أيضاً جزءاً من "الحكاية" التى نتنصر فيها فى النهاية لأنها صارت ذات مغزى لعدونا، وإن كنا سنتعذب، فعلى الأقل فليكن من يعذبنا مهتماً بنا<sup>(٢٨)</sup>. ومعظم الروايات الشهيرة تؤكد لنا، مثلما تفعل الأدبان تماماً، هذه الادعاءات الثلاثة: إن لنا معنى وأهمية خاصة مثل الآخرين (حتى إن كانوا يكرهوننا) وإن القسوة ستلقى العقاب (ربما ما عدا فى حالة أن نكون نحن المجرمين) وأن الأشرار غرباء عنا (وأيضاً غرباء عن أى قوة تضمن وتؤكد أن العدالة سوف تتحقق، وبالضرورة، فى نهاية الأمر).

وسوف يُرضى كثيراً منا أن نواجه القسوة السادية عن قرب فى الخيال فقط. إلا أن بعض الناس، مثل المجرمين معتادى الإجرام بدوافع جنسية، يختارون أن يُنفذوا خيالاتهم المتوحشة، وقد تكون السادية أكثر ندرة من غلظة القلب، لكنها على الرغم من ذلك موجودة. والأسوأ من هذا أن بعض المواقف يبدو أنه يشجع القسوة السادية ويدعو لها. لقد رأينا أن القسوة البديلة (بالنيابة) يمكن أن تكون ممتعة، فهى تقوى غرائزنا الأخلاقية الأساسية وتؤكد لنا أننا متميزون. وهل هناك أسباب أخرى تترر لماذا نحبها- ولماذا يتخيل بعض الناس وجودها حقيقةً وفى الحياة الواقعية؟ وكى نجيب عن هذه التساؤلات؛ فإننا نحتاج أن نمر بالنقلة والتحول نفسياً، وأن ننحى جانباً القسوة النظاهرية ونتمسك بالحقيقة، ثم نسأل: كيف يحدث السلوك السادى.

## السادية تنشأ من غلظة القلب:

تختلف السادية عن رد الفعل العدواني، مثلاً، بأنها لا تبدو نوعاً من السلوك الذى يُعبر عنه بنى الإنسان غريزياً بأنه "تجديد" يخالف ما سبق فى عصور أخرى. وبدلاً من ذلك أصبح السلوك السادى يركز على أشكال أخرى من الإيذاء عند البشر، وهو يشمل إقصاء مبالغاً فيه للآخر وعنفًا صادرًا من غلظة القلب. فالحرب والإرهاب وعنف العصابات والقتل المتوالى والعبودية وسوء المعاملة داخل الأسر.. كلها أمثلة تنشأ فيها القسوة السادية من غلظة القلب. ويتمشى ذلك مع نمط ثابت يوجد فى السلوك السادى، وهو "تدرجى" ويكون غالباً تصعيداً متزامناً من أفعال تعذيب أقل عنفاً (مثل: الضرب أو فعل عابر يؤذى الحيوانات) إلى أفعال مرعبة متزايدة للتعذيب والقتل. ومثل الإقصاء لجماعة ما، تكون القسوة السادية لدى الأفراد قابلة للسيطرة فى أكثر حالاتها فاعلية إذا منعت فى مراحلها الأولى.

وتتوافق القسوة "الاستكشافية" فى حالة إيذاء الحيوان عند الأطفال مع هذا النمط، فقد يدفع الفضول السلوك الأولى لدى الطفل، لكن تدخل من يحمونهم من المسيطرين الكبار ذوى النفوذ هو الذى يقرر المنع فى المراحل الأولى. ويدل على ذلك بالقوانين الأخلاقية التى تربط بين الأفعال ونتائجها. وعندما يتألف الطفل مع المجتمع يتقبل هذه القوانين باعتباره جزءاً من الذات؛ ويصبح هذا الشخص مواطناً صالحاً ينصاع للقانون. إن هذه عملية بطيئة وطويلة وليست قائمة على مسار مباشر. ويتكون لدى الطفل الدافع لتقبل قوانين المجتمع تدريجياً، ومن ثم القبول بأن يصير مثل الآخرين وأن يتصارع مع النزوع إلى تحدى القوانين. ومع الرغبة فى أن يصبح أكثرًا اختلافًا واستقلالاً.

وبحكم هذا التعارض الذى نألفه نحن جميعا، حكى طبيب فى كتاب ألفه جون ويندام "John Wyndham" عن أم تطلب من طفلها أن يكون طبيعياً تماماً و"بصفة كاملة"، وفى الوقت نفسه أن يتفوق على كل الأطفال الآخرين<sup>(٢٩)</sup>. وسواء بدأ الصراع بحب الأم أم لم يبدأ، فالحرب دائمة بين الشبه والاختلاف وبين تقبل معتقدات الآخرين وقوانين سلوكهم وتعريفها كأنها هى قوانينك أنت، وهل سوف تستمر بعد عشر سنوات مثلا؟! إن ثقافات المراهقين تؤكد أن هناك تناقضا محيرا هنا، فمن هم خارج الجماعة يرون الاستساخ الذى جاء فجأة قد قصد أن يسحق الغرباء تحت الأقدام، وأن "الموضة" التى جاءت بدعوى الريح، وكل هؤلاء الشباب الغاضب الذين صمموا على أن يكونوا "مختلفين" قد لجأوا إلى طرق متشابهة وصعبة ومرهقة. فالمراهقون يرون أن الصراع "المتوحش" يجب أن يكون من أجل الحرية والهوية والاحترام؛ لكننا جميعنا ربما نتشارك فى هذا العالم الرمزى من المشاعر، وقد مررنا بالتجربة التى تمثل شكلاً من الضغوط الاجتماعية فجعلت وجود المراهقين نوعاً من الجحيم، وكلنا قد أعدنا أقلمة أنفسنا وعدلناها تبعاً لذلك. فقد فحصنا الرموز والافتراضات والأيدولوجيات والتأكدات الجديدة مع تأثيرات أخرى وقبلناها كجزء منا، أو غير ذلك. إننا أيضاً نلجأ إلى "تشكيل العالم" عندما نغير ما هو خارجنا ("هذا" أو "هم")، وذلك أسهل من أن نغير أنفسنا، وذلك ما نفعله. وأحياناً يحدث الضرر مما نفعله.

### السادية يلزمها غلظة القلب حتى تعلن مشروعيتها:

تختلف درجة القسوة وتتنوع حتى فى فرد سادى واحد، فالقاتل الألمانى متعدد الجرائم بيتر كيرتن "Peter Kurten" كان يترك بعض ضحاياه يهربون، إلا أنه كان يذبح الآخرين وكان يفكر كثيراً فى القسوة أكثر مما ينفذ أفكاره هذه.

واستطاع التحكم في نزعاته إذا تطلب الموقف بعض الحكمة<sup>(٣٠)</sup>. وكما يتضح من هذا؛ فإن "الخروج اللطيف" من الخيالات إلى الواقع، كان من طبيعة بيئته في شبابه. وفي الوقت الذي بدأ فيه هجماته كان من المهم الإفصاح والتعبير عن ساديته. وهناك مواقف معينة مثل الحرب والعبودية؛ تنتج عنها فظائع سادية، وغيرها مثل المباريات الرياضية أو المؤتمرات الأكاديمية لا ينتج ذلك عنها عموماً. فماذا عن الحالة الأولى التي تسهم في تطور السادية؟

إن العامل الأوضح فيها هو خلفية القسوة النابعة من غلظة القلب مع عنف متكرر، وهي ثقافة لا تأخذ في الاعتبار الاختيارات المنافية للعنف. والمهم أن هذا المستوى العالي من الإيذاء لا يعتبره من يمارسونه أنه قسوة بالمعنى الذي عرفناه في هذا الكتاب. إنهم يعتبرونه شيئاً له مشروعيته وتوافق عليه نماذج من الأدوار الاجتماعية؛ ولذلك فهي قسوة مقبولة اجتماعياً. وعلى سبيل المثال، كان والد "كيرتن" يسيء معاملته ويعنف شديد؛ كما ادعى أنه تعلم قسوة إضافية من صاحب أول عمل التحق به، وكان سائساً للكلاب ويرى أنه يجب أن يعذب الحيوانات التي يربعها<sup>(٣١)</sup>. ومن المحتمل أن تكون هذه القسوة لها مكافأة أو إثابة نفسية.. إنها بذلك تصير جزءاً باطنياً في ذات المجرم ومن جسارته القتالية أو سلطته الراسخة. إن الساديين قد يكونون جنوداً يرون أنهم يقومون بالعمل "البديء" في مجتمعاتهم، وقد يكونون آباء يظنون أن سلوكهم يفرض النظام داخل بيوتهم. ومهما كانت أدوارهم، فهم يعتبرون قسوتهم عملية وفعيلة، بينما يراها الآخرون شراً لا لزوم له.

### قساوة القلب تصبح إرهاباً عندما تصير المعاناة مجزية:

إنني أكرر القول بأن القسوة الناشئة عن غلظة القلب تتضمن إنزال وإحداث المعاناة ابتغاء أهداف أخرى، وهي تتطلب درجة ما من إقصاء الآخر. أي عدم تقدير تجربة الضحية وقيمتها من الناحية الإنسانية. والانتقال من جمود الفؤاد إلى

القسوة السادية؛ يشمل خطوتين أبعد من هذا. الأولى: هي عندما يكون إنزال المعاناة نتيجة لغرض المجرم من الفعل فقط ويصبح في ذاته وسيلة "مفيدة" لتحقيق أغراضه، وعندما تصبح المعاناة تنفذ آلياً وتلقائياً بهذا الأسلوب يصل المجرمون إلى الأساس المنطقي للإرهاب ومبادئه؛ وهو إنزال المعاناة ببعض الناس كي يُعاقبهم ويهددهم ويردعوا كل الضحايا، والأهم غالباً من يشاهدونهم. إن هذا ليس هو السادية بعد، لكن الهدف من أحداث المعاناة أصبح أكثر أهمية بكثير، وهذا هو ما يجعل ظهور السادية أكثر احتمالاً.

وتمثل قسوة الإرهاب إشارة إلى القوة والقسوة<sup>(٣٢)</sup>، فهي تدل على ثلاث رسائل قد تكون حقيقية أو لا تكون. تقول الرسالة الأولى: "إننا أكثر قوة مما تظنون"، بما أننا توافر لدينا الوقت والطاقة كي نملك هذه الوسيلة الغربية والمشهودة في الضرر والإيذاء، ونقول الثانية: "نحن نشعر بأننا لا نملك البدائل" ولو اخترنا بالمنطق والعقلانية فعل شيء شرير وخسيس كهذا، فلا بد أن تكون هناك أسباب قوية للغاية لفعله، أما الرسالة الثالثة فنقول: "لن نستطيعوا إقناعنا بأن نتغير" لذا فعليكم أن تتغيروا حتى تتوافقوا مع مطالبنا. إن الإرهابيين يعملون وفق الافتراض أنهم هم وأعداؤهم قادرون على السلوك العقلاني. وعموماً، فيم ليسوا مرضى نفسيين على الرغم من أن قليلاً من الساديين قد يكونون مريضى نفسياً. وهم ليسوا أيضاً ممن يعانون خللاً عقلياً- وإن كانوا فيم لا يعانون لفترة طويلة، إذ إن الترتيب والإعداد للجرائم الفظيعة لا يوجد بصورة سلسة مع الضلال و"الهلوسة" وسوء التخيل والوهم.

ويشمل هذا الادعاء بالعقلانية قيماً ونواحي أخلاقية. ويدرك معظم الإرهابيين هذه القواعد الأخلاقية ويعتمدون بالفعل عليها حتى يتواصلوا مع أعدائهم

ويضمنوا الحصول على المساندة والدعم. إن لغة "القاعدة"، كى نضرب مثلاً معاصراً، ليست مثل لغة التقارير العلمية: محايدة القيمة، وبها مصطلحات أخلاقية فى أضيق الحدود. إن فعلاً مهماً منهم قد يقع بشدة فى نطاق الصواب والخطأ، والخير والشّر، والقوة والاستكانة. وقد ينقلب ويعكس المحور الأخلاقى مقارنة بما كان فى إعلان الحرب على الإرهاب التى نادى بها جورج بوش "George W. Bush" وحلفاؤه. ولكن، وكما أشار المعلقون علينا، فالاثان كصورة تعكسها مرأة بما لا نتوقعه لو كان "كلام" القاعدة غير أخلاقى، وقد يبدو للبعض أن معتقدات الإسلاميين "الراديكاليين" - أو المتطرفين - مضللة ولكن أى انتقاد على هذا الأساس لا بد أن يوزع بالعدل والتساوى، ونحن فى الغرب لسنا منزهين عن أو معصومين من اعتناق الأوهام أو العمل وفق ضلالاتها.

ومن المحتمل أن تكون بعض مطالبات الإسلاميين معقولة تماماً (مثل طلبهم "امتنعوا عن إهانة المسلمين والحط من قدرهم")، إذ لم يطالب بها الإسلاميون فقط، فهؤلاء جماعات ومؤسسات تُقر صراحة، (مثلما ينص الكتاب الإرشادى للقاعدة) أن الحلول السلمية والمشاورات التعاونية لن تفيد ضد "النظم المارقة والمرتدة" التى لا تفهم "الحوار إلا بطلقات الرصاص" فقط، وما توصى به من قتل وقصف بالقنابل وتدمير، و"دبلوماسية المدفع والبنديقية"<sup>(٣٤)</sup>، وهذه هى سخريه وقوة إقصاء الآخر، فروية القاعدة للغرب تَمثل تماماً رؤية الغرب للقاعدة. إننا هنا نسلم بصحة أمنية روبرت بيرنز "Robert Burns": "أريد أن أُنح القوة التى تجعلنا نرى أنفسنا كما يرانا الآخرون"<sup>(٣٥)</sup>، ولو أمسكنا فى يدينا بمرأة فسوف نرى أعدائنا.. أى نرى أنفسنا كما لو كنا هم. وسوف تتحطم الصورة فقط عندما يتنازل ويتوقف أحد الجانبين عن إقصاء الآخر ويرفض نمطيات الشر الشيطانى التى تبررها القسوة الفطرية بأننا مختلفون".

## الإرهاب يصبح سادية عندما يسعد المجرم بمعاملة غيره:

إن الخطوة التالية التي تتبع بشكل طبيعي استخدام القسوة كنوع من الإرهاب، هي أن تصبح معاملة الضحية نفسها جائزة ومكافأة تُسعد المجرم وبشكل ما أو لسبب ما يجد المجرم لذة وسرورا في عذابات ضحيته التي كانت قبلاً مجرد فائدة له، والتي تعتبر بالنسبة إلى معظمنا شيئاً مؤلماً ومحزناً للغاية، ويصبح إحداث هذا العذاب والألم من الأولويات بصرف النظر عن أى أهداف أخرى. فإيذاء الضحايا انتقل لدى المجرم من التأثيرات الجانبية إلى كونه سنذاً و"دعامة" مجزية وفي بؤرة اهتمامه.

ويمكن أن يكون الساديون نافعين لمن يفوقهم قوة وللأعلى منهم. إنهم مستعدون لأداء الأعمال التي قد تسبب لأشخاص آخرين توتراً واضطراباً بعد إيقاع الأذى بالغير، مما يزيد من قدرة أى منظمة على إرهاب أعدائها بواسطة عناصر مؤهلة لذلك. وعلى الرغم من هذا فإن تركيز أى منظمة على القسوة يعوق فعاليتها ويضعف من التزامها بأهداف أخرى ويُشعر "زملاءها" بالاستياء؛ ولذا فإن إظهار السادية يُعتبر استراتيجية لها مخاطر كبيرة، وقد يتم استحسانها في ظروف أو وقت ما، أو لو تمت في السر والخصوصية، لكنها تجلب الغضب والسخط العام من الجماهير والإنكار السريع إذا ما تغيرت الظروف.

وتختلف الحاجة إلى السيطرة والتحكم من فرد إلى آخر، ومثلها مثل التعاطف الوجداني الذي يقودها ويضبطها. وهذا الاختلاف شيء طبيعي، فلا المهوسون بالتحكم ولا الناس الذين يقل لديهم التعاطف مقدّر لهم ألياً وتلقائياً أن يمارسوا حياة فييا العنف والجريمة. وحتى يصبحوا مجرمين ساديين فلا بد لهم أولاً: أن يعتادوا على القسوة النابعة من جمود القلب - وليس الاعتقاد فقط، ولكن قبول جمود الفؤاد كسبوتك نه مشروعيته. ثانياً: لا بد أن يبتدئوا لا تقدم لهم ردعا

عمليا نسلوكيم السادى، إما لأن من حولهم يميلون لمثل ذلك وإما لأن البيئة شديدة الفوضى لدرجة أن القوانين الأخلاقية لا تفرض عقوبات ولا تدعمها (أو أنهم أنفسهم يعتبرون أن هناك ضعفاً قابلاً للعقوبة، كما يحدث فى مواقف عديدة تؤدى إلى جرائم الحرب). وأخيراً، فإن البيئة يجب - بصفة خاصة - أن تُقرن الأفعال التى تسبب المعاناة بالجزاء - إما من خلال التجربة المباشرة للفرد وإما من خلال ملاحظة أن الآخرين الذين لا يتصرفون بهذا الأسلوب القاسى يكافنون جيداً.

ومما يبدو أن هؤلاء بالتأكيد يكافنون على ذلك، والساديون، مثلاً، قد يخدعون أنفسهم ويبرزون سلوكهم ولكنهم يفعلون ذلك عن غير إدراك أو معرفة صادقة. والحفاظ على اتباع هذه المعتقدات وإدانتها يكلفهم جهداً كبيراً ومشقة. إنهم يدركون أن الآخرين من الناس لن يشاركوهم أحكامهم الأخلاقية التى "تحتوها" وصنعوها بدقة وعناية ودهاء، وهم قد شكلوا العالم كما نعمل نحن جميعنا، كى يدافعوا عن تبريراتهم الغالية. وهذا الدفاع المتعمد عن القسوة من كثير من المجرمين الساديين، دعنا من المجهود الذى يشملته التخطيط لها، يوحى بأن المكافأة أو الجزاء "المفرح" لا بد أن يكون شديداً.

ومع ذلك يجب علينا الحذر هنا، لأن هناك أنواعاً كثيرة من الثواب والعقاب وما يدعو للشك والريبة أنهما قد تختلفان ويقدمان بطرق مختلفة. والخطوة التالية إذن هى أن نفحص بدقة طبيعة البهجة التى تحفز على القسوة.

## مباهج السادية:

أيها الشر، فلتنك أنت الخير الذى أملكه

("جون ميلتون" John Milton، الفردوس المفقود)

تختلف طبيعة الإثابة فيما تجعلنا نشعر به، إن المتعة قصيرة الأجل التي تأتي من مذاق المشروب الذي تفضله تختلف عن دفعه الكوكابين، أو الإثارة عند "الغطس" في الجو (قبل فتح مظلة النجاة)، أو السرور عند استلام وصول شيك (صك) غير متوقع في البريد، أو الرضا المفرح في أحضان الأم. وبعض المكافآت قد تكون غامرة وقوية ولكنها لا تدوم طويلاً، وهذه هي الأمور التي تؤدي إلى الإدمان. وربما يتباطأ غيرها ويمتد ولكنها ليست فرحة طاغية لهذه الدرجة. وبعض منها باطن (في الأحشاء) والآخر في المخيخ، وما يؤدي إلى الاختلاف الكبير بين البشر فيما يفضّلونه من جزاء ومكافأة هو الاختلافات الجينية وتنوع الخبرات الذاتية والشخصية، فبعض الناس يجد البهجة في قراءة كتاب أو القيام بعمل شيء خلاق، بينما يفضل آخرون أن يكونوا نشطاء، وبعض يقدر الطعام والشراب، ويرى بعض آخر قمة متعته في الصداقة أو الجنس، وبعض قد يستمتع بممارسة القوة والسلطة.

وتختلف الإثابة أيضاً في المدى الزمني، فيكون بعضها عاجلاً وفورياً أو أحياناً لحظياً، وبعض يرى بالقدر الذي تُصوّب إليه، وبعض لا يلاحظ تماماً من الأفراد الذين يؤدون الفعل الذي سيكفون عليه. والنوع الأخير من الفوائد هو الذي يتبع "النشوء والارتقاء" الذي يستحق المكافأة والذي يؤدي بمرور الوقت إلى "الاصطفاء الطبيعي" بسبب هذا الفعل بالذات، ذلك لأن الناس الذين يتصرفون بهذه الطريقة يميلون إلى ترك نسخ أكثر من جيناتهم، أكثر من الناس الذين لا يفعلون ذلك. إن منطق النشوء والارتقاء يفعل ويمارس سواء استطاع من ينشرون جيناتهم أن "يحسبوا" ويتصوروها. في ظروف معينة، أو لم يستطيعوا. وكما رأينا من قبل. فإن "الفجوة المحفزة" (لماذا تفعل شيئاً إذا كان لن يجلب لك سروراً واضحاً) تملؤها جائزة أو مثابة حقيقية مثل الإحساس بالقدرة على التحكم أو الإشارة الجنسية؛

وهذه أحاسيس ممتعة يمكن للبشر الربط بينها وبين أفعال قد يفوتهم تسجيل فائدتها. إن السبب العميق الذي لا يسهُل فيهِه والذي جعلت به الطبيعة الجنس يُؤدِّد أحاسيس جيدة هو أنه يساعد في نشر الجينات، لكن من يمارسونه من الناس يفعلون ذلك بغرض ترويحى ولا يفكرون إلا في أحاسيسهم فقط، وليس في الجينات. ويُقال دائماً إن الجينات لا تبالى بنا ولا تُعبرنا اهتماماً وبإمكاننا نحن أيضاً ألا نغيرها أى اهتمام.

إن هذه الجوائز أو المكافأة الجوهرية هي ملذات "بيولوجية" أو حيوية؛ عملة طبيعية عصبية تُمنح عند الميلاد. ويمكن أن تُفعل وتُنشط مباشرة بالجنس أو المخدرات أو النشاط البدنى والرياضى، ولكن كل المثيرات ليست "طبيعية" ولا يلزم أن تكون، كما يبدو في حالة المخدرات، ومع ذلك فقدره المخ هي أن يُكون ترابطات تُسمح لهذه المكافآت الجوهرية والطبيعية بأن تؤثر في مجالات أبعد من مجالها الأصلي. والمؤثرات أو المنشطات الأخرى - التى قد لا تملك القدرة الذاتية على أن تنتج مكافأة قوية وحقيقية - يمكنها أن ترتبط بهذه الملذات وذلك ببساطة بأن يتزامن حدوثهما معاً.

وعملية "التكيف" هذه أعطى لها هنا مثلاً شهيراً من إيفان بافلوف "Ivan Pavlov" وتجربته على الكلاب والذي عرف منها أن لعاب الكلب يسيل عندما يسمع صوت الجرس، لأن هذا الجرس كان يذق قبل ذلك عندما يكون طعامه متاحاً<sup>(٢٦)</sup>. إن الجرس والضوضاء التى يُحدثها لا يمكن أكلها، لكن الكلاب ربطت بينها وبين "مكافأة" الأكل. وتصرفت في النهاية كما لو كانت المكافأة ستظهر مع الجرس، حتى إن لم يحدث ذلك.. وبالمثل فإن البشر يمكن أن يتعلموا الربط بين الأفكار والأشياء أو حتى بين الرموز غير المجسمة وبين مشاعر قوية إيجابية أو سلبية. وأفكار المؤمن عن دينه، مثلاً، يحتمل أن يكون لها دخل كبير بالمضمون

و الراعى والمربى الذى علمه الإيمان (الأبوان العطوفان عوضاً عن الإله الرحيم)<sup>(٣٧)</sup>. والطفلة الصغيرة، بتكيفها ومواعمتها، خصوصاً إذا حدث هذا فى مستقبل العمر، تضمن أنها عندما تفكر فى الله ستعود لها المشاعر التى تعلمتها ممن ربوها فى الصغر، حتى بعد أن يذهب معلومها بزمان طويل؛ وفى هذه الحالة تكون المكافأة الحقيقية هى الإحساس بالانتماء الأمن، وسوف تصبح الإثابة الحقيقية هى التكيف والتأقلم مع مفهومها عن الله والدين.

وهكذا يكون عندنا ثلاثة أنواع من المثابة والمكافأة التى ترتبط بالسادية، أولها: المكافأة وفقاً للتطور والارتقاء وفائدتها؛ هى الملاءمة والسلامة الجينية (والتي تنطبق على الجينات وقد تؤثر أو لا تؤثر فى الأفراد). أما المكافأة القوية والحقيقية والجوهرية فهى منظومات للذة الذهنية التى يُنشطها المخ مباشرة (مثل لذة الجماع). ثم المكافأة بالنيابة والتوكيل؛ وهى مكافأة حقيقية تتكيف حسب محفز ومثير آخر، مثل الأفكار، السلوكيات (أو مثل ذروة اللذة أثناء القتل كما صرح بعض القتلة متكرري الجرائم) <sup>(٣٨)</sup>. فأى من الثلاثة يمكن أن يُسهم فى القسوة السادية أو يُمثلها؟

## السادية والاصطفاء :

وكما أسلفنا، فالقسوة النابعة من جمود القلب ضد الأفراد من خارج الجماعة قد تجلب بالفعل الفوائد الأنسب للاصطفاء مباشرة.. وهل تصيف السادية قيمة أبعد من هذا؟ إننا إحدى الوسائل التى تُشتق من العمود الإثنى فى "إطار" داروين الهائل؛ عن نظرية الاصطفاء الجيسى. لقد أطلق دانييل دينيت "Daniel Dennett" مثل هذه النظرية أو "التخمين" عن "طيور العريشة"، وهو نوع من الطيور تبنى

ذكورها أعشاشا باذخة وفي إسراف شديد وتملؤها بأشياء عجيبة حتى تجذب الإناث<sup>(٢٩)</sup> لماذا؟ لأنه عندما يستثمر نوع من الكائنات كثيرا في واجباته للأسرة؛ فهذا يعنى للأفراد من هذا النوع أن يختاروا أزواجهم بعناية وأن يستغنوا عن "الخاسرين" منهم. وهذا بدوره يضع ضغطاً على الجنس الآخر كي يُحسن من سماته وسلوكياته التي يراها شركاؤهم المدققون جاذبة.

ومن ثم؛ فإن العروض المبهرة والفاخرة للزواج التي يُقدمها ذكور كثيرون من هذه الطيور ليؤكدوا سلامتهم وصحتهم الجسمانية أو الموارد و"الثروة" التي في حوزتهم؛ تكون غالبا فيها مخاطرة كبيرة على سلامتهم. وأى شخص في رحلة ما لو صادف طائرا ذكرا أسود؛ فعند رؤية هذا المنافس سوف يدرك الخطر والمجازفة أو الهلاك الذي تجلبه بداية موسم التزاوج بين الطيور، إذ يبدو أن الإناث يبحثن عن دليل وبرهان على القوة وسلامة الصحة والتناسق الجسماني الذي يدل على سلامة الجينات، علاوة على علامات "الموارد" الجيدة والسلوكيات المتوقعة من الطائر كآب. ومن يتوافر لديه كل هذه الشروط من الذكور قد لا يلقى أى جائزة أو مكافأة. لقد رأيت منذ فترة وجيزة ذكر حمام يناضل كي يرفع غصن شجرة كبيرا وثقيلاً إلى عش حبيبته ("انظري! أنا صانع عش!"), أما هي فطارت بعيدا وتركته وهو منكسر الخاطر وحزين وتركت غصنه وكل ما عنده (بما أنها كانت تنتظر من لديه عريشة أفضل)؛ لكن الذكور ذوى اللمسات المميزة والمفضلة لا يحتاجون إلا أن يكافئوا بقدر أكبر من منافسيهم حتى يستمر التطور والارتقاء (حسب البقاء للأنسب).

وما القدر الذي ترفع به قسوة السلوك فرص الرجال فى سباق الجنس أو الاقتراع عليه؟ إن "الإصطفاء الجنسي" يعطينا افتراضين، الأول: إن القسوة قد تؤثر فى، أو تبهر، الإناث وتجعلنا نتزوج تقضيليا من ذكر من الواضح أنه

شرير، وهذا يعنى أنه فى حالة السلوك القاسى قد تركبه الأنثى بدافع أنها تستفيد لو فضلت القوى الذى يحميها، "وماذا يعنينا من إرهاب المنافسين" (٤٠).

لكن تعذيب "الخطاب" المحتملين بلا مبرر من المتوقع أن يُخيف الأنثى. وهذا يعتمد أيضا على مشاعرها، وبأخذنا ذلك إلى نقطة ملحة لأن الاختيار البسيط بناء على الجنس لا يفسر من الأنثى بالقسوة الشطة. وقد نتقبل أن الأنثى توافق على مظاهر السادية، لكن لماذا تشارك الإناث فيها؟ فقد وجد فى ثقافات عديدة أن هناك نساء يرتكبن جرائم قتل. فهناك أختان من المكسيك قتلتا ما يزيد على تسعين فردا، وقد شاركت نساء فى تفجيرات انتحارية، وتوجد حارسات ساديات فى السجون، وهناك من يسيئون جنسيا للأطفال. لكن المرأة كانت على مدى التاريخ أقل عددا من الرجال فى أفعال القسوة السادية البدنية (فأكثرهن متخصصات فى الإيذاء باللفظ، اجتماعيا أو عاطفيا). وما لا نستطيع إيضاحه هو: ما نوع وعدد الجرائم التى تُعزى إلى أسباب اجتماعية أو إلى سبب الاختلاف فى النوع (ذكر وأنثى) أو إلى الاختلاف فى الثقافات، إذ إن بعض الثقافات يكره القسوة الجسمانية من النساء ويعاقبن عليها بعقوبات أكبر من عقوبات الرجال (٤١). لكن ما يتضح لنا هو أن النساء من الممكن أن يستمتعن بأعمال القسوة.

والافتراض الثانى: هو أن القسوة من الذكور قد تبهر وتؤثر فى الآخرين بوسائل أخرى غير الميارة فى "إعداد العشاء"، كما هى الحال عند الطيور. إن السادية هنا هى الشىء الذى له وزنه، لأنها أسلوب فى إظهار القوة المتناهية: "إننى لست قادرا فقط على قتل منافسى وعدوى. لكننى قوى وفى مأمن وأستطيع أن أسلخ جلده أو أنتزع أظافره.. "هاجمنى إن كانت لديك الشجاعة وعرض نفسك لذات المصير". إن استعراض القوة السادية يبعث برسالة لمن يتحدى هذا الشخص بأنه لا يعلم مصيره ولا يمكن أن يتنبأ به. وحتى لو كان قويا؛ فإن أى هجوم منه

سيقابله عنف شديد لا يتناسب مع قوته: "إنك ستواجه خطراً داهماً للغاية"، لكن المهاجم لن تردعه موانع أخلاقية قد تضع حداً للأذى أو الموت.

وإذا كان هذا الافتراض صحيحاً، فعلى أن نتوقع رؤية السادية تظهر في حالات معينة، تلك التي تسود وتشيع فيها القوة والتحكم الذكوري، ونتوقع فيها غلظة القلب<sup>(٤٣)</sup>. وهي التي ينشأ عنها القتل المتكرر والمتوالى، والقتل الجماعي، أو القتل في مواقف يحكمها المرح الصاخب، وكلها تتناسب مع هذا النمط من التنافس بين الذكور، وخصوصاً إذا كان الاعتداء يتم بوعي ويهدف إلى التفوق على المنافسين لتحقيق الشهرة<sup>(٤٤)</sup>، أما التصعيد في التفجيرات الانتحارية عندما يتنافس الإرهابيون من أجل السلطة في فلسطين! فهذا مثال آخر<sup>(٤٥)</sup>. وللاصطفاء الجنسى" معنى في هذا المضمون، إنه ليس "اصطفاء" أو اختياراً للسادية بقدر ما هو عرض للقدرة على التقسيم إلى فئات: فئة تعذب بعض الناس فقط لحماية ونفع الآخرين. إنهم الذكور القادرون على رعاية جماعاتهم والإناث الضعاف منها في رقة وحنان بينما يستطيعون تدمير من هم خارج الجماعة بوحشية.

## هل يُحدث الألم شعوراً طيباً؟

وماذا عن الاختيار الثاني: "المكافأة" من داخل الجسم؟ هل ملاحظة أو تجربة الألم من الممكن أن تُنشط أجهزة المخ المعنية بإحداث السرور والبهجة مباشرة؟ من هذا المنطلق يمكن لبعض الأفعال السادية أن يمارسها المجرمون الذين يستعذبون إيلام الآخرين "الماسوشيين". وأنا أظن أن هذا ليست هي الحال عموماً، فالصفة المناقضة للألم عميقة ومن الصعب اكتشاف الآليات التي يُمكننا أن "تقلب"

الألم وتحوّله إلى بهجة وسرور. إن الأكثر احتمالاً أن هناك "مكافأة" من داخل الجسم ترتبط وتتوحد مع إنزال الألم أو تجربته (مثل الإثارة الجنسية أو الانفعال الالتهابى)، لأن الألم والإثارة يحدثان فى الوقت نفسه؛ وهذا هو ما يجعل السادية و"الماسوشية" ممتعة، وليس الألم نفسه<sup>(٤٦)</sup>. إن المجرمين ومن يُعذبون غيرهم قد يستمتعون بالألم ضحاياهم، ولكن لا يوجد دليل على أنهم يستعذبون الألم الخاص الذى يعانونه هم، وما يقرره المجرمون ويُفصحون عنه هو أنهم يميلون إلى أن يكتبوا ويكتبوا ردود فعلهم المتعاطفة مع الضحية بدلاً من أن يزيدها. وقد أثبت البحث العلمى أن كثيراً من المجرمين الذين يتسمون بالعنف تنقصهم المشاركة العاطفية والوجدانية اللازمة للإحساس بحزن ومعاناة الضحية باعتبارها شيئاً مؤلماً، مع أن بعض المرضى النفسيين يُدركون ويستخدمون "نظرية" العقل<sup>(٤٧)</sup>.

## القسوة والتحكم :

إن جوهر السادية، والشانغ فى كل مظاهرها، هو التحكم غير المحدود والتام فى كائن حى..

(من كتاب "إريك فروم" Erich Fromm تركيبة هلاك البشر)

وهنا يأتي الاختيار الثالث: المكافأة بالتوكيل (المعدلة). ربما تكون القسوة الناشئة عن جمود القلب مثل: الرغبة فى تعاطى السكر، إنها استراتيجية ممتازة للنجاة واستمرار الحياة عرفياً أسلافنا، ولكننا أصبحت إشكالية فى العصر الحديث. فإذا كان جمود القلب، مثل أكل الفواكه المسكرة، يمدنا بما يحفظ حياتنا وينجينا

(منافسون أقل وطاقة أكثر على التوالي) لكان البشر قادرين على "تطوير" ما يعادل حبيم للسكر - بأى إحساس يكافئهم على جمود القلب. وما يساوى هذا هو إحساس الإنسان الواضح بالقدرة على التحكم فى بيئته- بما فيها البيئة الاجتماعية. ومثل النزعة للسخرية من الأشياء "الحلوة"، يختلف الاحتياج للتحكم طبقا للشخصية، النوع، السن، الثقافة. ويتخذ ذلك أشكالا عديدة ومختلفة، والعاقد والمكافأة من ورائه يمكن أن تكون حادة، وربما ندعو للإيمان<sup>(٤٨)</sup>.

إن الحاجة للتحكم ليست المكافأة "الداخلية" الوحيدة التى تقترن بمعاناة الضحية. فالإثارة الجنسية قد تتغير وتصبح علامة أو إشارة إلى الأسى والضيق وتربط بين الجنس والعنف الجسمانى. والقسوة التى تشمل المجبود البدنى. مثل ضرب الضحية أو الجرى وراءها، يمكن أن تُحدث المتعة التى تقترن بحركة الجسد والإثارة التى تقترن بالفعل المُجهد<sup>(٤٩)</sup>. ويزيد من الإحساس بالتحكم أيضا الشعور بأن الفعل منسجم مع آخرين ممن لهم العقلية والتفكير نفسيهما. والحركات المناظرة تنشط جهازنا الحركى وتقوى الإحساس بامتلاك قوة الفعل، ويزيد هذا من "التماسك" الجماعى بإعلاء المشاركة الحركية. وهرمون "الأندورفين" والأدرينالين" الذين نرى أنهما مسئولان عن هذه الأحاسيس لا يملكان الحكم الأخلاقى؛ فهما يشعراننا بالرضا منيما كان معنى الأفعال التى نقوم بها. وعلاوة على ذلك؛ فإن حزن ومعاناة الضحية قد يُفسران على أنه استسلام يبعث على السرور خصوصا فى حالة ضعف المشاركة الوجدانية أو غيابها. مما يرضى احتياج المجرم ورغبته فى التحكم، منثما تعطيه معاناة الضحية إحساسا بالتفوق.

وقد يجلب السلوك القاسى مكافأة اجتماعية أيضا، فالرغبة فى إرضاء أعضاء الجماعة، خصوصا من هم أقوى منا، من المفهوم أنها رغبة قوية تسهم بشدة فى شرور البشر أكثر من السادية. والالتزام بما تريده الجماعة قد يتيح

الفرصة لظهور السادية. وعندما تُحرض مجموعة من الأطفال مع بعضهم على تعذيب كلب صغير؛ يكون دافع الجماعة قويا والعقاب مؤلم لمن لا يريد أن يشارك. ومما لا شك فيه أن صياح المواطنين في "كوفنو"، الذين ضحكوا وصفقوا عندما قُتل اليهود أمامهم، قد أعطى النتيجة والتأثير نفسيهما.

والعواطف الإيجابية القوية، خصوصا في المواقف التي تمثل ضغطا نفسيا وتوترا شديدا، يمكن أن تكون مجزية جدا للمجرمين، أما المزاح والفكاهة التي نعدّها من العناصر الإنسانية المميزة جدا؛ فهي أيضا إحدى المكافآت الشائعة للقسوة. فالضحك أحد الروابط الاجتماعية المؤثرة، والذي يوحد المجرمين مع من يضحكون معهم، بينما "يحجز" الضحية التي تعاني بالفعل.. وهو أيضا علامة أخرى على القوة. ففي الأفلام، مثلاً، نحن نُعجب، ويُقصد لنا أن نعجب، بالشرير الذي عنده طلاقة وبراعة على الرغم من معرفتنا بجرائمه وشره.

وما يتبادر إلى ذهننا عندما نفكر في السادية هو الجنس والدوافع، إلا أن الحب والحاجة للانتماء يمكن أيضا أن يوجبا قسوة فظيعة، إما من أفراد قد أودوا وإما عانوا من عدم الحب، وإما من أفراد من الجماعة يريدون الحصول على حب مستمر. ومن حيث المبدأ، فإن أي مكافأة من داخل الفرد قد تصبح سببا في اتخاذ القسوة سبيلاً، حتى درجة الإدمان. وإذا ظلت القسوة غير مألوفة نسبياً، فإن ذلك مرجعه إلى الآليات الشائعة والمتطورة في كل ثقافة كي تحد من الضرر وتنظم الجزاء، ومع ذلك فالقسوة غالباً ما تخرج عن نطاق هذه الحدود؛ مثلما يتغلب قانون الأخلاق الأساسية على الوضعية منها. وفي حالة "المكافأة" التي تصدر من الداخل تكون المخاطرة دائماً بأن المجرم يعتز بها أكثر من اعتزازه بالدوافع التي أوجدت القسوة أصلاً. وفي الواقع العملي تكون الحدود بين القسوة والسادية غير ثابتة أو قاطعة، حسب الدوافع التي يمكن أن تكون "مائعة" وغامضة. ومن يُصبح سادياً

عادة من يكون لديه استعداد مسبق لذلك، مثل خلل مُستدل عليه في المخ، وهذا بالفعل يُعتبر من بدايات أو "اعتاب" احتمال الدخول في السلوك القاسى<sup>(٥٠)</sup>.

والمواقف التى تنشأ عنها السادية، مثل الحرب. تُوجد السادية بسبب الجراء الذى يناله الجندى ولأنها تقلل من العوامل المثبطة والكابحة للسادية. وما يجعل القسوة مسموحا بها هو القدوة، وما يجعلها مشروعة هو إقصاء الآخر، وما يجعلها روتينية هو التكرار. وتوجد العوامل التى تبنيها وتسمح بها فى كل حرب كما توجد فى عنف العصابات، وفى الثورات، وفى "سيناريوهات" أخرى كثيرة. وأحد عواقب ذلك أننا من الممكن أن نتوقع فظائع سادية حتى فى الحروب التى يحارب فيها جنودنا على الرغم من أن هؤلاء الجنود قد تم تدريبهم جيدا على حقوق الإنسان.

وبالطبع؛ فإن الفظائع التى تبدو سادية للغاية قد يدفعها بالفعل دوافع أخرى أيضا، خاصة عندما تشمل ذلك التيديدات الرمزية ويتم "تعديلها"؛ حيث يمكن لـ "الرموز" أن تملك القوة التى تكافى أو تعاقب. إن الصراخ، ونزيف الدم، والسلوك الذى يعكس الخوف، هى مثيرات وبواعث للمعاناة والألم عند الضحية ويمكن أن تصبح مصدرا للاستمتاع إذا اقتترنت بمكافأة من داخل الإنسان، وقد يحدث ذلك من الأشياء أو الصور أو الأفكار أيضا. فالسكين فى المطبخ شىء مفيد عند "تقطيع" البصل إلى شرائح، ولكن لو نظرنا إليها وفسرناها على أنها سلاح فسوف نحملها عبئا عاطفيا أكبر بكثير (من كونها آلة). والآلة نفسها، أو الشىء نفسه، عندما ترفعها اليد نفسها، يمكنها أن تمنحنا مشاعر للتحكم مختلفة تماما.

إن الحاجة إلى السيطرة والتحكم لازمة كأحد الدوافع الشائعة للسلوك القاسى - أى النزعة إلى التجاوز والمخالفة. ويشمل التجاوز انتهاك وكسر القواعد الأخلاقية التى لم تستقر بعد داخليا لدى من يتجاوز ويخالف (وهم غالبا ناضجون،

أو معزولون اجتماعيا، أو كلاهما). إن القوة الرمزية للقوانين، مثلها في ذلك مثل القواعد الميمة أو حتى المقدسة، مُعترف بها ومتركة، لكن القواعد نفسها يُنظر إليها على أنها كان قد وضعها شخص آخر، فهي "مفروضة" وتثير الغيظ والاستياء؛ فهي تقلل من قدرهم وقيمتهم. وكسر القواعد التي وضعها "آخرون" والتي تقلل وتُحط من قوة الفرد؛ تجعل المخالف ينظر إلى نفسه على أنه أكثر قوة، وهو يشعر بذلك فعلا، وذلك ما يعطى المخالف ومن يكسر القواعد نوعا من الإثارة، ويجعل المخالفة مثيرة<sup>(٥١)</sup>.

ولنفكر في الوصف التالي لتأثير القسوة، كانت الضحية رجلاً مسناً لا حول له ولا قوة ضد مجموعة من المهاجمين. إنه شخص مدني، مواطن، أب، ومحترم اجتماعيا وعضو من أقلية مُعرضه للأذى. وربما نعتقد أنه يستحق الاحترام أو التسامح على الأقل. إن هذا تقرير ابنة عما حدث له:

لمحت شيئا معلقا بالباب يشبه حدود  
حصان. مشيت إلى الباب وفتحته فرأيت حدودي  
حصان مثبتتين بمسامير على قدمين مغطاتين  
بالدماء. ثم نظرت إلى ركبتي الشخص وكانتا  
منفصلتين. وعندما نظرت إلى أعضائه التناسلية  
رأيت كتلة من الدماء فوقها تمزقات تصل حتى  
الصدر. وكانت الديدان قد ذفتا بمسامير على لوح  
خشبي فيما يشبه الصليب. أما الكتفان فكانتا  
نظيفتين ولونهما أبيض واضح. وكان على حافة  
الحلق بقايا لحية هي آخر "بوصة" من الجسد.

ولم يكن هناك شيء آخر على الصليب. وقد تركوا الرأس بجوار الدرج المؤدى للمنزل وعلى حافة الطريق. وأدركت أنه أبى.

وبعد ذلك بعقود لم يُستدل فيينا على المجرمين، لم نعرف أبداً ماذا كانت الدوافع وراء هذه الفظاعة والوحشية. إلا أننا ربما نستطيع أن نرى تفسيراً قد يكون ممكناً، إن هذه القسوة على الرغم من أنها شريرة وكريهة؛ فإنها لا تستعصى على الفهم. إن القتل من الأرمن في أحداث عام ١٩١٥، والمجرمين من الأتراك الوضيين الذين رغبوا في تطهير بلادهم من الأقليات؛ ومن ضمنهم الأرمن المسيحيون الذين كانوا "ملحوظين" بصفة خاصة. وكان الضحايا معرضين للإقصاء بشدة ويُشار إليهم في مجالات الدعاية من الشباب بأنهم تهديد تقليدي بالتقزز ويشكلون خطراً على دعائم الأمة وسلامتها. إننا نشهد هنا نمطاً من القسوة، كدليل وشاهد على "تشكيل الواقع"، فُصد به تحويل ضحية متحضرة ومحترمة إلى شيء مثير للاشمئزاز جسمانياً. وقد تحولت ملامحه الواضحة إلى شيء مُحيت هويته.

أما بالنسبة إلى الجانب الرمزي، فقد تعرض هذا الأرمنى الضحية إلى محاكاة تهكمية للصلب. وكانت أعضاؤه التناسلية، مصدر قوته الذكورية والتناسلية، قد تحولت إلى ما لا يمكن تعريف هويته. إن هذا هو التعدي والتجاوز في أقصى درجاته وحشية وفُحشاً<sup>(٤٣)</sup>. وما لا نستطيع معرفته، دون أن نعرف كيف كان يفكر المجرمون في هذه اللحظة، هو هل كانت قسوتهم جموداً في القلب أم سادية.. هل كانت رغبتهم هي "تحويل" ضحية تتحداهم، أو مجرد نشوة وابتهاج بالقوة المفترسة وبالدم والألم؟ ربما كانت قسوتهم مزيجاً من الاثنين. وهل الأمر مهم؟ إن رد فعلنا يختلف حسب تفسيرنا لدوافع المجرمين. لكن هل يلزم معرفة هذا؟ إن غلظة القلب يمكن أن تكون مروعة ومرعبة للضحية.

لقد طور البشر القوانين والقيم الأخلاقية والتحكم في النفس حتى يسيطروا على العدوان المتناهي الذي يؤدي إلى غلظة القلب، ولكن في مواجهة من يعتبرونهم بشراً فقط ومن يشبهونهم ومن ثم يُحتمل أن يكونوا أقرباء. إن جمود القلب الموجه ضد من هم خارج الجماعة (الغرباء) قد يجلب فوائد ممتدة لنجاة الجماعة أو مكافأة مباشرة وسريعة: أرض جديدة، موارد غذائية، أو رفقاء ومعاونون. ولقد دعم ذلك السلوك القاسي وزاد من التمييز والتفرقة بين "نحن" و"هم". مما طور آليات إقصاء الآخر في كل مكان في هذا الزمن. إن القسوة إهدار للطاقة. لكن عندما يكون الخصم المناوئ أقر في القوة من المهاجمين فلن يهجم، لكن تأثير العائق أو المانع من القتال؛ قد يفوق تكلفة القتال نفسه؛ لأن الفريق المعادي سوف يراجع حساباته وآراءه عن قدرة المهاجم الفائقة ويحاول الاعتداء من جانبه.

والجانب السلبي من هذا السلوك مألوف في العالم الحديث. فمن نجوا من القسوة النابعة من جمود القلب غالباً ما يلجأون إلى إجراءات متجاوزة على سبيل الانتقام، أو حماية النفس، أو لأنهم يعتبرون قسوة مهاجمهم دليلاً على وضعهم المتدنى إنسانياً. والدائرة المفرغة الناشئة عن ذلك هي التي يولد الهجوم الوحشي فيها هجوماً من الجانب الآخر، وتثير الجرائم الفظيعة فظائع أخرى، بدلاً من الاستسلام، فيمكن لها أن تخلق بيئة مثالية لازدهار السادية.

إن السادية تتجذر وتستقر عندما تكون الإشارات التي يجب أن تنهى وتمنع العدوان في الأوضاع الطبيعية، مثل: الدموع والخضوع وعلامات الضعف والإذلال، قابلة لأن تتوحد مع شكل من "المكافأة"؛ تحفز الفرد على اتباع سلوكيات

تزيد من آلام الآخرين ومعاناتهم. إن الإحساس بالكسب والمكافأة يمكن أن يكون من القوة حيث يصبح إيماننا. ومثل حالات الإدمان الأخرى تطلق السادية من بيانات معينة. وكما يهجر مدمنو المخدرات الظروف والأماكن التي تُذكرهم بتعاطي المخدر، فالسلوك السادي في الحرب قد لا يحدث خارج هذه المواقف، وقد عاش كثير من المجرمين حياة المواطنين الصالحين بعد الحرب التي ارتكبوا الفظائع فيها.

ويذكرنا هذا التأكيد على تأثير "الموقف" بتجربة عالم النفس فيليب زيمباردو "Philip Zimbardo" في سجن "ستانفورد" التي حولت شباناً من الأصحاء نفسياً إلى حراس ساديين خلال أيام قليلة. وقد فسر "زيمباردو" هذا البحث الشهير بأنه أظهر أن فعل الشر إغراء نتعرض نحن جميعاً له في الظروف المناسبة: "نحن يمكننا أن نتعلم أن نصبح طبيين أو أشراراً بصرف النظر عن ميراثنا من الجينات، أو شخصيتنا أو تراثنا العائلي"<sup>(٤٤)</sup>. وعلى الرغم من ذلك فقد لاحظ الباحث الفروق الفردية في سلوك هؤلاء الحراس، فلم يكونوا جميعهم ساديين؛ فالناس قد يقاومون الإغراء بأن يصيروا قساة. وقليل منهم يظهرون شجاعة فردية مثل ديتريش بونهوفر "Dietrich Bonhoffer" رجل الدين "اللوثري" الذي انتقد عداء النازي للسامية (وشنقه النازي عام ١٩٤٥). كما أن هناك ألماناً حاولوا تجنب التوافق مع النظام، سواء بأن يُجَهِلوا هوية الأطفال اليهود عن عمد، أو بتهريب تقارير عن الجرائم الفظيعة التي ارتكبت، أو بالهجرة أو بعدم المشاركة في اضطهاد اليهود أو التبليغ عنهم.

وقد كانت هناك اختلافات وفروق في رجال الجيش النازي من الصفوة، فمن كانوا يُرسلون إلى الجبهة الشرقية كانوا يواجهون أحياناً بمواقف فيها ضغوط وتوترات شديدة، ودون إنذار (فقد أمروا من رؤسائهم أن يقتلوا اليهود). وكانت لهم

رئود فعل مختلفة. جاء بعضيم ليستمتعوا بالقتل، مع أن أكثرهم رأوها كطقوس  
بشعة وشائنة تحملوها بتعاطى الكحوليات / أو / بسند من الأيديولوجيات. وبعض  
كرهوها وأنكروها لدرجة أنهم رفضوا المشاركة وتم نقلهم لأداء واجبات  
أخرى<sup>(5)</sup>.

ولا يمكن إطلاقاً وصف جريمة فظيعة واحدة وصفاً كاملاً فى شكل علمى  
وبالنظريات المتاحة حالياً. إننا ببساطة لا نملك المعلومات، لكن ذلك لا يعنى أن  
هذه الوحشية كظاهرة تُترس مثل غيرها، فىى لا يمكن الهروب منها أو إغفالها.  
إننا يمكننا التعرف على السمات العامة والآليات القوية، مثل: "تشكيل العالم"، ورد  
الفعل على التيديد بالتقزز والاشمنزاز، وعمليات إقصاء الأخر، وكلها تؤدى إلى  
السلوك القاسى. ونستطيع أيضاً أن نبدأ فى معرفة أن شرور البشر حتى فى أكثر  
مظاهرها بشاعة؛ ليست مستعصية على الفهم، إننا إنذار لأنها تجلب القدرة على  
القسوة إلى ديارنا وحياتنا.

وفهم القسوة هو الوسيلة الوحيدة القابلة للتطبيق على المدى الطويل للتعامل  
مع القسوة، ويكون نقص الفهم غالباً عاملاً مساعداً ومهماً فى إقصاء الأخر، فإنه  
يفرق بين الجماعات ويشعل الدوافع التى تحفز على التصرف بوحشية، ولو تعرفنا  
على هذه الإشارات التحذيرية وعلى أنماط السلوك القاسى، ولو اعترفنا بقابليتنا  
واستعدادنا لارتكابها، فإن ذلك قد يساعدنا فى أن نحدد المعتقدات والدوافع  
الاجتماعية التى يمكن أن تجعل القسوة أقل احتمالاً فى الحدوث. غير أننا لن  
نستطيع أبداً أن نحد منها إلا إذا استطعنا أن نرى القسوة على أنها ليست شراً تم  
إقصاؤه عنا وتجاوزه، لكنها شىء كربه وبغيض أخلاقياً، وقد يكون الأمر أقل  
إيلاماً لو فهمنا أن كوننا قساة هو جزء من كوننا بشراً.

### هل بإمكاننا أن نتوقف عن القسوة؟

إننا لم نصبح مجرمين فقط، بل لقد  
صرنا نوعاً من المخلوقات شديدة الخطورة في  
عالم بربرى. وهذه الحقيقة لا يصدقها من لم  
يعيشها "بعضلاته". لقد كانت حياتنا اليومية  
غير طبيعية ودموية، وهذا ما كان يناسبنا.

(بيو موتونجيرييه Pio.Mutungirehe من مجرمى الإبادة الجماعية فى "رواندا")  
وتم اقتباسها من كتاب "جين هاتزفيلد" Jean Hatzfeld عصر المدينة والمنجل

### علم القسوة:

لقد قلت إن تطبيق اكتشافات الأبحاث والعلوم عن المخ على الدراسات عن  
القسوة شىء مفيد وممكن، ويتيح لنا علم دراسة الجهاز العصبى التفكيرى فى  
"مكونات" وعناصر القسوة، كالمعتقدات والعواطف والأفعال وآلياتها (مثل إقصاء  
الغير والاستجابة للتهديدات ورد الفعل تجاهها). وسوف يفسر ذلك ويحدد أفكارنا  
عن هذه العناصر والآليات فهنا من كندية عمل المخ. إن بإمكاننا أن نربط بين  
السلوك القاسى وبين لادنى النظرية الراسخة والمؤكدة مثل نظرية "النشوء

والارتقاء" والنماذج التي يطرحها علم دراسة الجهاز العصبي عن معرفة تشابكات الأعصاب. كما يمكننا أيضا أن نفرن المعرفة المتاحة بمناهج من مجالات وتخصصات متباينة ومختلفة مثل: تشريح الأعصاب، وعلم النفس التطوري، والمعرفة والإدراك في الجهاز العصبي، وعلم النفس الاجتماعي، وكلها يمكن الجمع بينها في أمثلة حقيقية على المجالات والتخصصات العلمية المتداخلة. وسوف يزيد ذلك من قيمنا لواحدة من أكثر المشكلات الإنسانية صعوبة، إذا ما ساعدنا هذا في تعريف أسباب القسوة.

ولقد كشفنا في الفصول الرابع والخامس والسادس عن رؤية وبحوث عن مهام المخ وعمله، والتي ألفت ضوءا جديدا عن كيفية وصول البشر إلى الفعل القاسي. إن هذه الرؤية ما زالت ترى أن الناس يتصرفون ويقومون بالفعل لأسباب تبدو جيدة من وجهة نظرهم، لكن النظرة التي تشبه "الحاسب الآلي" للعقلانية على أنها شيء منطقي، فافت الحس والعاطفة، وتمتلك معلومات لازمة وواضحة تماما؛ قد حل محلها صورة أخرى مختلفة عن "العقلانية". إنها تتسم بالتحيز والحس البديهي والجهل والعاطفة والتسرع. فاختياراتنا يتدخل فيها ويُحيزها المزاي والمكاسب الوقتية قصيرة المدى والرغبات العاجلة والمباشرة، والضغط الناشئة عن الموقف، والميل إلى نسيان أو تجاهل أن حياة الآخرين وتجاربهم قد تكون في ثراء تجاربنا وحياتنا نفسها، وكذلك قدرتنا المحدودة على تدبر نتائج وعواقب أفعالنا.

وليس معنى ذلك أن التفكير المنطقي يدل حتما على أو يقتضى حالة من القواعد الأخلاقية الرفيعة. فالأمر مخالف لذلك تماما، إن من يتخذون القرار، الأمنين المرفهين والمنعمين بسعة من الوقت في مكاتبهم، والذين تؤدي اختياراتهم إلى قسوة الآخرين، قد يستطيعون التعامل المنطقي مع مشكلاتهم، لكن الاتصاف بالمنطقية تجاه الآخرين من البشر ينسجم ويتسق تماما مع القسوة وجمود القلب

تجاه أناس معينين غيرهم، خصوصاً الجموع الكبيرة من الناس. وإذا كان تاريخ القرن العشرين قد علمنا شيئاً، فهو أن العقلانية والرحمة لا يرتبطان دائماً. مع أننا قد نرغب كثيراً في أن يرتبطا. إن الخطأ والخلل غير المنطقي في مخ المجرم هو الذي يسمح له بأن يتوقف فجأة عن الفعل القاسي بسبب المشاركة الوجدانية أو "التعاطف" المفاجئ.

إلا أن الخطأ أو الخلل نفسه يتركنا جميعاً عرضة لأن نكون قساة في بعض الأحيان، كما أن الأسلوب الذي تعمل به عقولنا يعنى أن العامل المؤثر - حتى التأثير الفظيع لمعاناة البشر - يمكن أن يكون له تأثير متدنٍ علينا فقط؛ لأنه يحدث تكراراً مرة بعد مرة.

وبالمثل، فالأفعال المتكررة خصوصاً تلك التي تهدف إلى التخفيف من العواطف السلبية الشديدة؛ تصبح أسهل في الفعل وأصعب في عدم الفعل. أما ردود الفعل العنيفة فيمكن أن تصبح متأصلة و"مغروسة" في النفس؛ ذلك لأن مجرد تخيل فعل أو سلوك قاسٍ ينشط الأنماط العصبية التي تشمل الفعل القاسي، ومجرد التفكير في / أو الحديث عن القسوة يمكن أن يجعلها محتملة الحدوث، لو كانت مجزية. أما إذا عوقبت فبالطبع لن تكون محتملة الحدوث، ولكن لو وافقت البيئة (المادية أو الاجتماعية) على فعل إقصاء الآخر؛ فإن التعرض المتكرر لحوافز الإقصاء - حتى إن لم يؤد إلى سلوك قاسٍ في حينه - قد يدعم ويقوى الأنماط المرتبطة بها (بالقسوة). وهذا يجعل المؤثر أكثر احتمالاً لأن يُطلق عنفاً مدمراً مستقبلاً كرد فعل على عامل إثارة قد يبدو تافهاً وغير مؤثر.

وقد عرفنا أيضاً في الفصل السادس أن دور المعتقدات القوية بالنسبة إلى القسوة له دخل كبير بـ "تركيبية" وبنية العقول، فإن الأنماط الذهنية التي تسبب

وتكون بعض المعتقدات يمكن أن تصبح قوية بدرجة تجعلها ثقلت وتهرب من تأثير وسيطرة الواقع غير الملائم لها؛ عندما تدعمها وتساندها صلة أو ارتباط بأنماط عصبية أخرى و/ أو بمدخلات أخرى (حسية) من الجسم. فيبدو أى دليل وأى برهان أو حجة عقلانية لا لزوم لها وتكون هذه العقائد ذاتها مؤكدة بشدة ويكون ما يدعم وجودها من أشياء أكثر صدقاً وواقعية من الواقع نفسه. ولو تم نبذ أو رفض مثل هذه المعتقدات على أنها مُضَلَّلَةٌ أو زائفة، فإن التحدى المباشر لها، أو تزكية معتقدات أخرى مخالفة لها ومتصارعة معها قد يكون مُرضياً لمن يتحداها، لكنه ربما يقوى المعتقدات ذاتها بدلاً من أن يُنهىها، خصوصاً إذا كان من يتحداها ممن يعتبرهم صاحب المعتقدات عدواً بالفعل؛ ولذلك فإن انتقاد المعتقدات القوية قد يُعطي نتائج عكسية إذا تم تحفيزها وإثارتها بالبحث عن تبريرات، أو باللجوء إلى المسار اللولبي الشرير لعزل وإقصاء الآخر.

وكما هي الحال فى أى نمط عصبى آخر، فإن الأنماط التى تؤسس للمعتقدات القوية تقوم دائماً بتعديل وتنظيم تشابكاتها العصبية لتعكس مستويات نشاطها. وتقتضى هذه العملية التوازن بين عاملين: الموقف الراهن والتاريخ المتراكم للنمط العصبى. وكلما كان هذا النمط قوياً كان "وزن" تاريخه كبيراً فى "الميزان". وفى عالم ما قبل الرموز، ربما كان وزن التاريخ يأتى من التكرار الطويل للنمط أو الصدمة المفاجئة من تهديد خطير. وفى كلا الحالتين؛ فإن الوثوق بالتجربة والخبرة السابقة تكون نتيجته البقاء، ومع ذلك فمن الممكن فى هذا العصر أن تتكون وتبقى المعتقدات القوية دون الحاجة إلى خبرة أو تجربة سابقة طويلة أو تهديد حقيقى.. إنها يمكن أن تصبح بالفعل من القوة، حيث تمتص التناقض دون التنازل عن العقيدة أو المبدأ. وعندما يواجه صاحب العقيدة القوية بمدخلات قد تجعل غيره ممن هم أقل التزاماً بعقائدهم "يُغفلون" من أفكارهم أو يتكونها، فإنه يرى من الأسهل أن يترك أو يُغفل العالم الذى أوجد هذه المدخلات المزعجة ونفع

بها إليه. إن "تشكيل" العالم الواقعي وفق ما نرى ونرغب قد يؤدي إلى قسوة  
بغیضة یحمی بها المجرمون أنفسهم وتكون غیر مفهومة أو واضحة لمن لا  
یشاركونهم وجهة نظرهم أو یفیمونها.

والقسوة، مثل أى سلوك إنسانی، یتدخل فیها العقل وتحدث بواسطته، إلا أن  
الدراسات والبحوث عن المخ لا تكفی لفهم ذلك فیما كاملاً. فالقسوة مفهوم أخلاقی  
أیضا یعتمد على أفكار وتبریرات وضرورات، وتمثل معاناة غیر مستحقة للغير،  
وهی فعل طوعی مقصود ومتعمد. كما أن قرار تسمية شخص ما بأنه قاس، مثل  
قرارات أخرى، قد یتلون ویتغیر بأی محاباة أو انحيازات نفسية أو اجتماعية، ولذلك  
تختلف الأحكام باختلاف من یصدرها، فیکون هذا النوع من العدالة بعيدا كل البعد  
عن "العدالة العمياء" التي لا تحابي؛ ومن ثم فإن القسوة يجب أن توضع فی مضمون  
رمزی بمساعدة المؤرخین والمتخصصین فی علم الإنسان (الأنثروبولوجيا أو أصل  
الجنس البشري) والفلاسفة، وعلماء الاجتماع، والمنظرین للثقافات. إن علم دراسة  
الجهاز العصبی وعلم النفس، على الرغم من أهميتهما، فقد لا یمثلان إلا جزءا  
مشاركاً فقط فی مشروع أضخم هدفه لیس الشرح أو التفسیر البسيط للسلوك القاسی؛  
ولكن المعرفة الكافية لهذا السلوك حتى نقلل من ضرره وأذاه.

ويمكن اعتبار القسوة ذات أبعاد تتراوح بین قساوة القلب والسادية الصرفة.  
حسب ما تتضمنه من ذوافع. فالمجرم قاسی القلب لا یأبه بمعاناة ضحیته لأنه  
یعتبرها نوعا من العقاب أو هی "رسالة" تفصح عن قوته وقدرته على التصمیم  
والتحكم، وتركيزها فقط على إحداث المعاناة، وهذا مجال القسوة والإرهاب. أما  
البعد الآخر النادر والمتطور فهو السادية التي یصبح فیها الألم المبرح للضحیة هو  
سبب ودافع العدوان علیها؛ وهو المكافأة التي یسعى لها المجرم، وبذلك یصبح  
الهدف الأوحد للاعتداء أو الفعل هو المكافأة النفسية للمجرم.

وهذه المكافأة متنوعة. لأن نفسية الإنسان تحوى عديداً من النظم التي تعطيه الإحساس الدفين بالفوز والعائد المجزى. والجزاء قد يكون الغذاء أو التحرر الجنسي، أو الكسب المادى، أو القوة أو حتى الحب. لكن ليست كل مباحج أو "جوائز" القسوة صالحة أو مبررة أخلاقياً. والمجرم قد يشعر بالانتماء للجماعة رغم ذلك. وقد يتأكد لديه الشعور باستعادة النظام الاجتماعى وبالراحة لانخفاض الصراع الذهنى. أو قد تنهكه طقوس ما يقوم به من الأفعال العدوانية، أو ربما لا يشعر بشيء على الإطلاق.

### المعاني المتضمنة :

لقد كانت هناك نتائج للدراسة العلمية للقسوة: أتاحت فهم الأفعال المؤذية والضارة التي يمارسها البشر فى الحياة اليومية. إننا لو فهمنا لماذا يرتكب الناس هذه الفضائع فقد نستطيع منعها- وهذا ما نأمله. وكى نفهم ذلك علينا التفكير فى بعض المعاني المتضمنة فى التناول العلمى للقسوة، باعتبارها وسيلة لفهم الموضوع.

### القسوة تنشأ عن فشل الإنسان:

إننا نفكر فى القسوة على أنها تتمركز على الحقد والكرهية، لكنها أدعى لأن ترتبط بالفشل. ويتضح ذلك بصفة خاصة عندما ننظر إلى القسوة المنظمة والتي تتم على نطاق واسع ويشعر فيها المجرمون بكره ضئيل لأعدائهم. إن الفشل يحوم حول هذه الجرائم.. إن القادة السياسيين يفشلون فى تحدى المعتقدات الزائفة التى تنبذ أعداءهم وتقضيهم، وهم يفشلون فى منع الاضطهاد غير القانونى للجماعات المستهدفة، وقد يفشلون أيضاً فى إيضاح نواياهم ورغباتهم خوفاً من أن تؤخذ

كدوافع لأفعالهم، والقادة غالباً لا يعطون أوامر واضحة لاتباعهم بخصوص رغباتهم. كما أن المجرمين يفضلون أيضاً.. إنهم يطلبون الاستحسان من أعدائهم وليس ممن يحبونهم ويتقون بهم، ويخضعون للتهديدات بالعقاب دون الاستفسار عن مدى شدة ونوع هذا العقاب. أما الفشل الأخير فهو فشل المشاهدين (الطرف الثالث)، إنهم لا يعلمون أبناءهم كيف يكتبون الاتجاه للقسوة قبل التعبير عنها وفعلها، وهم الذين يحبذون إقصاء الغير لديهم ولدى غيرهم، إما بسبب عدم الارتياح اجتماعياً وإما لأن ذلك مزحة وفكاهة.. فما الضرر منها؟ وعندما يتصاعد إقصاء الآخر إلى عنف فلا يتدخلون وأحياناً حتى لا يُعلقوا؛ لأن الجريمة تكون قد ذُبرت بالفعل<sup>(١)</sup>.

إن الناس غالباً ما يكونون قساة؛ لأن القسوة تبدو أسهل الطرق للتصرف في ظروفهم الخاصة. وقد تكون هناك أسباب قوية لعدم القسوة؛ لكن الأمر الذي يتطلب مجبوراً أقل هو تجاهل هذه الأسباب بدلاً من مقاومة الضغوط من الآخرين، أما اللامبالاة والكسل والجيل عن عمد والخوف من النتائج المجهولة فقد يزيد من المناورة والتلاعب المتعمد لاختيار القسوة.. والمثال على ذلك ترك القادة محتوى ونتائج أحاديثهم مُبهمة وغير واضحة. والمجرمون الذين لا يرضيهم دورهم قد يفضلون الصمت بدلاً من المجازفة بإغضاب الجماعة، لكن الصمت ذاته قد يُستخَم من ملاحظة أخطائهم. ولا يختلف الأمر في حالة الأفراد الذين يملكون السلطة فيما يختارونه من قيم، ولأن سلطتهم تعتمد على اختيار مجتمعهم لهم كقادة؛ لذا فإنهم يخشون أن يخسروا دعم جماعتهم لهم لو تكلموا. وعندما تشعر الجماعات بأنها واقعة تحت تهديد ما، فإنهم يؤكدون القيم التي تدعم إحساسهم بالتحكم والسيطرة، مثل: الوحدة والولاء والتضحية. بدلاً من القيم المضادة التي تقلل من قوة الجماعة.

وإذا كان من الواجب علينا أن نحد من شيوخ السلوك القاسي، سواء على النطاق الواسع أو المحدود، فإننا سنحتاج إلى تغيير ما يُحقر على القسوة، حيث ينتج عن ما سميناه بـ "الفشل" عواقب ونتائج سلبية أكثر من غيرها الإيجابية. إن ذلك سهل في القول لكنه صعب في التنفيذ<sup>(2)</sup>.. إلا أنه ليس مستحيلًا. لقد سبق أن أدانت المنظومة القانونية الإنجليزية الإعدام العلني للناس بسبب سرقة الطعام، وفي القرن العشرين رفضت الثقافة البريطانية مشهد الإعدام علناً حتى لو كانت بسبب تهم أكبر وأساء. وهناك الكثير في بريطانيا ممن يرغبون في إعادة العقوبة على مخالفات ضرائب رأس المال أو الدخل، لكن قليلاً جداً، كما أتصور، يحبذون العقوبة على السرقات الصغيرة. وهذا ما صارت الحال إليه.

وعلى الرغم من ذلك، فإن كلاً من الإعلام الواقعي والخيالي (في الأدب والأفلام)، ما زال يُقدم القسوة باستمرار ممزوجة ومقترنة بالإثارة و"الأبهة" أكثر من أن يُظهِر تأثيراتها ونتائجها المهلكة في الضحايا. كما أن التكنولوجيا المتاحة بسهولة جعلت القسوة الخطيرة أسهل.. وعلاوة على هذا؛ فإن ضعف القدرة الاجتماعية التنفيذية، سواء من الوالدين، أو المنظومة القانونية، أو الجيران، أو من يشكلون الرأي العام، قد قلل من قيمة "قديمة"؛ هي الربط بين الإيذاء والعقوبة المستحقة بإيذاء مقابل. ونحن الآن نخشى كثيراً تطبيق العقوبة، تحديداً لأننا نعلم أنها من الممكن أن تُصعد فتصبح قسوة، ولذا فإننا نقلص العقاب إلى حدود الغرامة أو "الضرر" المالي، أو خدمة المجتمع، أو تقييد الحرية. وفيما يتعلق بتقوية كبح النشاط النفسي في داخل المخ؛ فإن هذه الاختيارات تمثل مشكلة على نحو ما، فقد يتوقف النشاط عن نقل "الوزن العاطفي" المطلوب خصوصاً عند من لديهم تجربة سابقة في الجريمة، وربما يكون الربط بين الجريمة والعقاب لدينا قد أصبح ضعيفاً

(فيما يخص الجهاز العصبي) بسبب طول الفاصل الزمني بين ارتكاب الجريمة وتلقى العقاب، هذا إذا عثر على المجرم أساساً وتم إلقاء القبض عليه<sup>(3)</sup>.

ومهما كافأنا "الناس الطيبين" على حسن سلوكهم؛ فلن يمنع ذلك بالضرورة ارتكاب الآثام واقتراف السلوك السيئ. ولكي يتحقق ذلك فالمطلوب هو "الإدراك الكابح" من الفاعل أن السلوك السيئ يُعرض الفرد للعقاب. وحتى تكون العقوبة مؤثرة وفعالة لا بد أن تردع و"تؤذي"، ولا يلزم أن يكون هذا أذى جسمانياً، ذلك لأنه دون الردع تكون العقوبة نوعاً من الرضا والسرور لمن يُنزل العقوبة فقط. ومعنى ذلك أن الاندماج الاجتماعي للمخطئ في حادثة السن يُفضل كوسيلة للإقلال من الجريمة بدلاً من العقاب في الكبر (فيما بعد)، إذ إن الأطفال يتأثرون بإظهار النفور منهم، مثل رفض الوالدين لسلوكهم، وهو ما لا يتأثر به الكبار. وتطبيق العقوبات مفيد وناجح حتى إن كان بمجرد الاعتراض والرفض. وفي حالة إظهار النبذ والإقصاء تكون فرصته في النجاح أكبر مما لو انتظرنا حتى يحدث العنف ثم نبدأ رد فعلنا عليه. وينطبق ذلك سواء على طفل في المدرسة يشتم ويسيء معاملة زملائه أو ديكتاتور يُوجه لغة مقرزة وجارحة لأعدائه.. وهناك كثير نستطيع فعله كي نمنع أو نكبح القسوة إذا تصرفنا فوراً وبحزم.

**القسوة شيء طبيعي ولكنها ليست ثابتة أو غير قابلة للتغيير:**

تنشأ قسوة البشر من الأسلوب الذي طورَ الناس به أنفسهم للبقاء كحيوانات اجتماعية، إنها نتاج القدرات أو الطاقات والدوافع نفسها التي تمنحنا السيطرة على والتحكم في بيئتنا، والتي تتيح لبعضنا على الأقل عمراً أطول، وتقلل من المعاناة التي يسببها المرض وسوء التغذية. وتطرد التهديدات التي شكلت القلق "والكوابيس"

لأسلافنا، فالقسوة لذلك شيء طبيعي مثل: الكسل أو التنافس، إنها تحمى الذات والنفس "الثمينة"، جسمانيا ورمزيا، بأن نؤذى من لا نهتم بهم. إن القوانين الأخلاقية الأساسية، على خلاف القوانين الوضعية لـ "حقوق الإنسان، لا توافق على أن كل البشر متساوون.

إن بعض درجات من القسوة حتمية للوجود الإنساني، وكل ما نستطيع فعله تجاهها هو "مكافحة النيران". لكن، كما أسلفت، فنحن يمكننا أن نفعل أكثر بكثير مما نفعله الآن لنخفض المعاناة التي نسيبها لبعضنا بعض إلى الحد الأدنى. وهناك أفراد تعساء وحظيم السيئ قد يدفعهم إلى المرض أو الضرر أو تجربة فظيعة أو إلى أن يقترفوا جرما ساديا مثيرا وغير مألوف، لكن الغالبية العظمى من المجرمين ليسوا مرغمين أو مجبرين كهؤلاء. إن هذا مجرد سلوك - شيء يفعله الناس وليس جزءا لا يتجزأ من ذواتهم - ومن ثم فالسلوك يتأثر بالحافز والدافع والثواب والعقاب الذي تطرحه مواقف معينة أو تفرضه الجماعات على أفراد في الجماعة. والقسوة، مثلاً، لو كانت رد فعل أو استجابة لهجوم على سمة عزيزة من الهوية؛ فإنها تنخفض لو كانت الذات المهددة تدعمها وسائل أخرى مثل التفوق والامتياز في مجال آخر<sup>(٢)</sup>. كما أن المعالجة السليمة للمواقف لو توافرت الإرادة السياسية من الممكن أن تخفف كثيرا من معاناة الضحايا.

وما هو ضروري ولازم هو القدر الذي تُرحل به القسوة إلى خبراء معينين - من يوفرون غذائنا ويحاربون حروبنا مثلاً - أو من تحويهم أماكن منعزلة تقاينا (جيتو) أو إلى مناطق نزاعات مثل: إسرائيل وفلسطين والصومال، أو جيران يثيرون المشكلات في أي مكان. وما يقوله إقصاء الآخر هو "القسوة تحدث منهم هناك، لكن ليس هنا. إن من يفعلها الآخرون وليس نحن". وما يسمح به هذا ليس فقط التخلي عن المسؤولية لكن التظاهر أن القسوة غير موجودة إلا في المناسبات النادرة

إذا هربت من حدود الآخر وعرفت طريقها لنا. ويمكننا أن نضيف إلى ذلك الأرباح الضخمة والثابتة كحق والتي تُستثمر من قسوة البشر، في أمور مثل صناعة السلاح والصناعات التي تتولى إزالة آثار الدمار بعد الحروب والصراعات، وتسامحنا واحتمالنا لهذه الفظائع والشُرور يتضح ويصبح معقولاً بعد ذلك.

## قد يكون إقصاء الآخر مفيداً:

لقد تطور هذا الإقصاء لأنه كان مفيداً، فقد أتاح للجماعات أن تكسب المنافسات مع موارد ضئيلة بدعم وحدتها وقوتها والتغلب على ما يكبها نفسياً ويمنعها من التنافس. إن إقصاء الآخر ما زال شائعاً كأسلوب لحل الصراعات، والرجال الذين ماتوا جراء ذلك لن يمكنهم الجدل أو الانتقام، إلا أن إيماننا لاستخدام الرموز أفتح المجال للإقصاء وجعلنا عرضة لأن نُستغل بواسطة التهديدات المدمرة التي قد لا يكون لها وجود حقيقي. وما زعمه النازيون عن مؤامرة يهودية بلشفية ادعاء زائف، لكنه كان ذا تأثير كبير. لقد أوجد هدفاً للغضب والقلق الذي أثارته عوامل خارجية عن نطاق التحكم الفردي قدمت تفسيرات أيقظت تحيزات واضطهادات قديمة، ولهذا صدقها الناس بسهولة، لقد استدعى ذلك أفعالاً جماعية حتى يشعر الأفراد بأنهم أكثر قوة كجماعة، وقد زاد ذلك من إحساسهم بالتحكم والسيطرة بصورة أكبر بسبب البلاغة اللفظية والاستحواذ على الممتلكات. ولا عجب من أن أدولف هتلر "Adolf Hitler" كان يُقابل بالهتاف والتهاويل في الشوارع، على الأقل في السنوات الأولى من حكمه.

ولو تم التكيف مع احتياجات المجتمع والمشاركة المجتمعية الكافية منذ الطفولة، لكان هذا يعلمنا الدرس المؤلم: إن القسوة تؤذي الشخص القاسي نفسه.

ويضيف التعليم إلى ذلك طبقة من مبادئ الأخلاق، إلا أن المعرفة الأخلاقية بأن القسوة فعل خطأ هي بالنسبة إلى معظمنا عازل من الجلد الرقيق يفصل بين الفكر والفعل، ومهما اختلفنا في هذه الرؤية ولو رضينا بما يمليه ضعفنا الأخلاقي وسهولة انقيادنا للإثم واعترفنا بأن إقصاء الآخر شيء مفيد، فسوف نخطو الخطوة الأولى في سبيل الدفاع عن أنفسنا ضد الإغراء بأن نمارس الإقصاء ونستخدم هذا الفكر، وهذا الدفاع شخصي واجتماعي أيضا. إن تخيل القسوة، سواء من الفرد أو في مناظرة جماعية، قد يجعلها مؤهلة للحدوث لو تخيلنا أنها مجزية ومفيدة. وإن لم تكن كذلك فالتفكير في الاحتمالات قد يجعلنا ندرك أن هناك بدائل أخرى للفعل والسلوك. وقد يمنحنا التخيل أيضا فرصة ومجالاً لإدانة أي قسوة قبل أن تحدث، أو يعطى الناس سبيلاً للتدخل من جانبهم كي يمنعوا حدوثها. ويفضل التدخل الفوري والمبكر؛ فهو سيتطلب مجهوداً أقل.

### انحياز البشر يزيد من غلظة القلب:

لقد نشأ الجنس البشري على معاملة العالم دون مساواة في اعتبارات عديدة. فنحن بطبعنا وما جُبلنا عليه؛ نهتم بأقاربنا (أو الأقارب الرمزيين)، وبمن نرى أنهم أعضاء أقوىاء في جماعتنا، وبالمعتقدات التي تتفق مع ما نعتقد ونراه. إننا بالطبيعة نولى اهتماماً أقل بالغرباء وللناس الأقل في المكانة الاجتماعية أو للأفكار التي تتناقض مع معتقداتنا. ونحن محدودو القدرة على تنظيم المعلومات، ونجهل كثيراً مما "تخبرنا" به حواسنا؛ لأنها لا تتناسب مع ما نريد أن نعتقد وما يرضينا. كما أننا ننحرف ونميل عن الموضوعية في رؤيتنا للحياة بمرور الوقت، ونعتبر النتائج المستقبلية والعواقب البعيدة شيئاً أقل في الأهمية عن الأحداث المعاصرة أو القريبة (وهي ظاهرة يطلق عليها علماء النفس إسقاط الزمن من الاعتبار)<sup>(٤)</sup>.

ولذلك عندما نختر أن نكون قساء، فغالبًا ما نختر على أساس مدخلات منحازة ونفشل في أخذ نتائج الضرر الذي نُحْدِثُه في الاعتبار. ومكافآت القسوة لا تدوم طويلًا؛ فالغنيمة تُختطف، والتهديد من الضحية يزول، وموافقة الجماعة واضحة. أما عقوبات القسوة فعادة ما تستغرق وقتًا أطول كثيرًا - إذا وقعت بالفعل.

والابتلاء بالتحيز والميل لا يعنى طبيعة كارثية مدمرة وثابتة، ويختلف التحيز والانحراف من شخص لآخر، ويعنى ذلك أننا يمكن أن نعرف كيف نغيره إلى حد ما. والمعرفة قوة، فعلينا أن ندرك أن الانحيازات توجد قبل أن نبدأ فى محاربتها، وعقولنا ليست قطعة من الصخر، فهى تحس وتستجيب للخبرات وتجارب الحياة. وعند لقائنا بمن نحتقرهم علينا أن نعطى دليلًا جديدًا ونقدم الذهن المفتوح بدلًا من أن نسخر منهم ونهزأ من "الهراء" الذى يقال. إننا، مرة أخرى، لدينا الكثير الذى نعمله بالفعل والأكثر الذى نستطيع فعله كى نتغلب على غرائزنا الأخلاقية الكامنة التى تميل بنا للتحيز.

### اعتبار القسوة شرًا شىء مضر:

يقودنا إقصاء الآخر بطبيعته إلى التفكير فى الشر وهذا هو الذى تقود نهايته إلى السادية كجوهر وليس باعتبارها سلوكًا. نحن نرى الشر فى الآخرين باعتبارها صفة فى شخصيتهم أو طبيعة راسخة لا تتغير، أما فى أنفسنا ومن نهتم بهم فنحن نتسامح مع الشر على أنه ليس متأصلًا فيهم وقد نغفله أو ننكره أو نعتبره "توبة" من انفعال سيئ أو يرجع إلى ضرورة "سيئة". ولو كنا نحن قساء فهذا ما دفعنا إليه الظروف. إن هذا تبرير خطير لقسوتنا على الآخرين الذين نظنهم يستحقون ذلك... فكيف كنا نتخلص من تهديدهم؟ وبشجعنا هذا أن ننظر إلى قسوتنا على أنها نوع من الاختيار، فهى شىء غريب فرض علينا ومبدئيًا يمكن محوه وإزالته لنعود أنقياء.

ولو كان النازي قد أباد كل اليهود في أوروبا؛ فهل كانت ستتنتهي مشكلات هتلر فوراً؟ ولو أن كل من له عقيدة دينية قتل من صباً فهل كان ذلك سيحل كل المشكلات التي ابتلى بها العالم وما زالت توجع عالماً إلى اليوم؟ بالطبع لا. فسوف تبقى المشكلات وسوف يستمر البحث عن "كبش فداء" جديد؛ لقد كان إقصاء الآخر دائماً يجلب الفشل لأصحابه في نهاية الأمر وكان نجاحه ذاته برهاناً على زيفه. وفي المجتمعات الحديثة نرى أن المستويات الفائقة من التعاون والتفاوض وتسوية النزاع وفق حل وسط؛ كلها تثبت أن احتمالات القوة والتحرر توجد عندما نأخذ من النبذ والإقصاء.

ومع ذلك، فإن الأنانية والجهل والفكر المتبذل والحاجة المتقدمة إلى السيطرة والتحكم؛ يمكن أن تقود الناس إلى استخدام الإقصاء حتى تغفل العيون عن فشلهم الكامن والمعتاد، كما أن هذا يعطيهم الرضا الآن وليس النجاح الذي قد يأتي في المستقبل البعيد. والظهور بالقوة مع إظهار القسوة أيضاً شيء مثير للغاية لمن يشاهدونهم، وبذلك تكون القسوة "أبهة" حقيقية وليست أسطورية، بدلاً من أن تبدو كقوة شريرة وظالمة تأتي نتيجة للبطء في اتخاذ القرار والقدرة الإنسانية المحدودة. وعلى النقيض مما نتوقعه، فهذا الأداء يمنعنا من التفكير في القسوة بطريقة جادة. إننا قد نرى القسوة شراً وننسبها لـ "الآخر" فنحترق أنفسنا من المسؤولية التي تقضى بأن نغير سلوكنا، أو قد نضحك على الأفكار البدائية التي يطرحها "الرفاق" وننكر الإطار الأخلاقي للخير والشر الذي يُدين القسوة. فنصبح بذلك، متقنين متكلفين من أتباع المذهب النسبي الذين ينسبون شرور البشر وأذاهم إلى عدم المساواة في المجتمع، وسوء الآباء والوالدين، أو أي شيء آخر ما عدا الأشرار من الناس الذين يقصدون الإيذاء بالفعل.

وهنا نقول، مرة أخرى، إن التعليم يمكن أن يقلل من سيطرة المعتقدات الزائفة، فالمعرفة بالحقائق ومعرفة كيف تفكر سوف تساعدنا في "كشف" ملايين الأشكال من "الهراء" الذي يقدمه من يستفيدون كثيراً من إقصاء الآخر. وسيمكننا بعد ذلك التدقيق في البحث عن أى دليل على ما يشاع من افتراء أو قذف ضد الأعداء أو الأقليات، وسوف نستطيع أن نميز إذا ما كان أى ادعاء يستند إلى "نظرية الماهية والجوهر" تجاه الآخر - أى أن الآخرين جوهرهم فاسد - فترفضهم، وبذلك سوف نتحدى "التميطات". ويمكننا أيضاً أن نعلم أطفالنا التاريخ الصحيح والأفضل. وليس معنى ذلك أن نعيد سرد الأخطاء القيمة أو "تجلد" من ارتكبوها سواء كانت بريطانيا أو الولايات المتحدة، أو ألمانيا، أو اليابان أو غيرها، فمن المحتمل أن كل بلد ارتكب الفظائع وعانى منها. وتعلم التاريخ يمكن، بدلاً من ذلك، أن يضع هذه الجرائم في مضامينها ويظهر أن هناك أسباباً لحدوثها وي طرح الأمل في أن يتم تحاشيها فيما بعد.

### المعتقدات هي "مركز" القسوة:

كيف نعرف ما نقدره ونقيمه ونرغب فيه؟ إن بعض احتياجاتنا أساسية مثل الحاجة إلى الطعام والبحث عن الأمان، لكن الكثير منها نكتسبه مما نعرفه عما يعتز به الناس الآخرون خصوصاً الناس الذين نحبهم ونحترمهم. وعندما نرتكب أعمال القسوة كي نحقق رغبات أو ندافع عن معتقدات، فإن هذه الرغبات والمعتقدات تخضع لتفسير أناس غيرنا، فهم يفرضون تفسيرهم على الأنماط العصبية الأولية التي كانت قد بدأت في ذهننا نحن، وبينما نتعلم ما نحدد ونصنف به أفكارنا وعواطفنا، نكون قد غيرنا أنماطها.. هذا ما تمثله بالمشكلة القياس حسب نظرية "ميكانيكا الكم"، والتي بمقتضاها تُغيّر طبيعة الملاحظة من الشيء

الذى نلاحظه). ويساعدنا التعلم من المجتمع، أو التبرير الذى يأتى فيما بعد، فى أن نرى أنفسنا كما يرانا الآخرون. وهذا أيضا "شكّلنا" فى صورة تتماثل - بشكل أفضل - مع مدركات الناس عنا و"ما يرونه" فينا، ويصل ذلك بنا إلى أن نتبنى توقعات الآخرين عنا كما لو كانت توقعاتنا نحن، فيصبح ما يتوقعونه لنا هو ما نصير إليه. إننا بذلك نشاركهم معتقداتهم ونرغب فيما علمونا أن نرغب فيه.

إن طواعية "التشكل" وسهولة الانقياد؛ عنصران حيويان ومهمان فى أسلوب الحياة الحديث؛ إن هذا يبقينا متوائمين اجتماعيا . وليست كل احتياجاتنا حتمية كما تعلمنا أن نعتقد. لكن لسوء الحظ؛ فإن المعتقدات التى تخلق التحدى والصراعات من الغير يمكن أن تصبح قيمتها كبيرة نتيجة لذلك، وقد تصعد أحيانا إلى مرتبة المبادئ المقدسة، كما أن بعض المعتقدات يودى إلى الصراع، مثل فكرة أننا جميعا لنا الحق فى أن نحترم معتقداتنا القوية مهما كان محتواها. وهناك جماعة من الناس تشجع إضفاء القداسة؛ على مبادئنا ومعتقداتنا؛ لأنهم هم الذين يستفيدون من ذلك، ويساؤون بين نقد هذه المعتقدات وبين عدم الاحترام ويلتمحون بأن الثروة والجمال المادى علامة الفضيلة والقوة الاجتماعية، ويفترضون أن النمو الاقتصادى واستهلاك السلع التجارية هما معيارا الجودة فى ذاته. والدعاية الماهرة تجعل ذلك فلسفة متماسكة قوية ولا يوجد من الأسباب ما يجعلنا نصدق ذلك.

## هل الثراء يجعلنا أسعد أو فى حالة أفضل؟

وهل التحدى لعقيدتك أو مبادئك المفضلة يقصد به دائما هجوم شخصى عليك؟ وهل حقوقنا تُهمنا أكثر من مسؤولياتنا؟ إن هذه معتقدات قابلة للنقاش والجدال وليست حقائق ثابتة. وكى نناقشها علينا أولاً أن نترك أهميتها ولزوميتها

للسلوك القاسى والأنانى. ويلزمنا أيضا الاستعداد الذهنى القادر على الحكم على قيمة المناقشة مع الإرادة الكافية لتحدى الأفكار المزعجة والقلق الناشئ عن الصراع، معرفيا واجتماعيا.. وإذا توافر كل هذا سيكون بإمكاننا إضعاف كثير من العقائد السائدة بأن نتحداها كما فعل أسلافنا عندما عارضوا العبودية، وناقشوا حقوق المرأة، وسخروا من العقائد الغبية التى تدفع إلى العنصرية. وكما رأينا، فلن تتبدد أو تنتشيت كل المعتقدات بمجرد التحديات، ففى عديد من الحالات تكون القوة الظاهرية لعقيدة ما قوة وهمية عظمت و"تضخمت" فقط؛ لأننا لم نشكك فيها. ولو طُرحت مناقشات ومناظرات جيدة حولها فسوف تتعمق ثقافات ترسخ المعتقدات الصالحة بسرعة فائقة. والمعتقدات التى تُشجع على القسوة لا تُبدى جميعها تعصبا شديدا يمكن أن يتحكم فى العقول.. إنها غالبا مجرد افتراضات قابلة للسقوط بالنقد إذا كانت هناك أصوات معارضة قادرة على أن تجعل نفسها "مسموعة".

### القسوة والمبادئ الأخلاقية تعززهما العواطف:

تستطيع المشاعر القوية، سواء كانت شعورا بالرعب أو الغضب أو الطمع أو التقرز أو الإثارة والاهتياج، أن تُشعل فكرة إقصاء الآخر إلى أبعد حد، فتحول العقوبة إلى انتقام ثأرى، وتحول القانون إلى حكم الغوغاء والدفاع عن النفس إلى قسوة متوحشة. ويقضى السلوك المثالى بأن يمتنع الإنسان عن هذا العنف قبل أن يحدث، لكن العواطف القوية من الصعب منع تأججها أو إيقافها. ولو كان المحرك والحافز شديدا (مثل التهديد بالموت)؛ فإن معظم الناس يمكنهم التحكم فى أنفسهم وتعلم كيف "ينظمون" ويحكمون عواطفهم لو توافر لهم الوقت والمصادر والميل والرغبة فى التعلم. أما إذا تصاعدت فكرة إقصاء الآخر لتصل إلى القسوة، فإن ذلك يخلق ضغوطا تؤدي إلى فعل أسرع وأسرع، مما يدمر أى فرصة للتوقف

والتفكير. ويجعل ذلك - أيضا - المشاركين يشعرون بأنهم أكثر قوة، ومن ثم أقل خوفا من قوة الآخرين.

وأحد الاختيارات البديلة هو أن يُعادل الإنسان فكرة الإقصاء بما يكبحها، أى بعواطف أخرى أقوى. وبلغة علم الجهاز العصبى، يعنى ذلك تقوية الأنماط المثبتة التى يمنع تنشيطها السلوك القاسى - وتلك هى الأنماط التى نربط بينها وبين المعتقدات والتعاليم الأخلاقية والإدراك التعاطفى بأن الضحية إنسان ينتمى إلى الجنس البشرى، ولا يكفى هنا أن نؤكد مبدأ أخلاقيا مجردا: إن قوة العواطف والتعاطف لا بد أن تسود، لكن هناك طريقة تدعم ذلك وهى أن نربط بين المعتقدات الأخلاقية لدى الفرد وبين إحساسه ووعيه بهويته. إن من الناس من يقاوم ضغوط ارتكاب القسوة، وهم غالبا من يأخذون فى اعتبارهم وفى عقيدتهم أن القسوة خطأ ويُرسخون هذا الاعتقاد باعتباره جزءا من كينونتهم، فتكون الحاجة والرغبة فى القسوة بالنسبة إليهم تهديدا لذواتهم برمتها. أما من يعتقد أنه جزء أو فرد من جماعة لها عقائد أخلاقية معينة؛ فسوف يتخلى عن تلك الاعتبارات دون أى أضرار نفسية، لأن ذاته وكينونته تتبع الجماعة - إنها فى مكان آخر.

وإذا كانت المعتقدات الأخلاقية بالغة القوة؛ فسوف تنشط عندما يواجه الإنسان بمفهوم القسوة، أما إذا ظلت الأخلاقيات عند مستوى المبادئ أو الأفكار المجردة فقد لا تنشط على الإطلاق، أو قد تنشط فى وقت متأخر جدا، أو ربما تنشط فى الوقت المناسب ولكن ليس بالقوة الكافية لمنع السلوك القاسى من الانطلاق. إن هذه الأمور ينشأ عنها مجرمون يشعرون بالندم، وقد يساعد ذلك أو لا يساعد فى تحسن أخلاقياتهم، إلا أن ذلك لن يصلح من الضرر الواقع فى ضحاياهم. لكنه قد يحول دون ارتكابهم أعمال القسوة فى المستقبل.

## القسوة قد تتأثر بالتكنولوجيا أو تخضع لها:

لقد طرحنا معلومات عن كيفية عمل المخ؛ كى نفكر فى نيج أو طريقة قد نقلل من السلوك القاسى. وقد قدم التناول العلمى للقسوة فى علم دراسة الأعصاب إمكانية أخرى؛ إنه فى المستقبل - غير البعيد - ربما يمكننا تعديل أو تغيير ما يجرى فى المخ مباشرة. إن تعديل وتغيير الذاكرة باستخدام الكيماويات والأدوية قد تم بالفعل فى تجارب علمية على الحيوان<sup>(٢)</sup>. ولا يوجد هناك سبب يمنع إزالة أو نزع المعتقدات القوية والخطيرة من عقول البشر بقياسات علمية دقيقة من أن تكون معالجة حقيقية وواقعية. تخيل فقط أنك تستطيع أن تشفى المتعصبين فى إسرائيل وفلسطين، أو تهدي من انفعال المتأسلمين والعنصريين؛ كل هذا بقرص دواء أو برداك من رشاش أو أى علاج سريع آخر بدلاً من الكفاح المصنى لتغيير المعتقدات وإعادة ترتيب وتنظيم الدوافع. وتخيّل فقط موقفك من آداب المهنة عندما تحاول تجربة هذه المعالجات قبل اعتمادها، وتخيّل بهجة وسرور حكومتك التى ستمول هذه الأبحاث.. وإضافة إلى ذلك، تخيل السرعة التى سوف تستعمل بها المؤسسة العسكرية هذه المعالجات والسرعة التى سوف يُطلق وينتشر التعريف بأنها "خطيرة". وقليل من الحكومات تستطيع أن تقاوم الإغراء بأن تعتبر المعتقدات التى تتعارض معها "مشكلة"، أما فى حالة الدولة التى سوف تستطيع أن تُشكّل" أو تُعدل المعتقدات، فكم من الوقت ستبقى فيها المثل العليا دون أن تُمس أو تتبدل؟

إن القدرة على التحكم فى القسوة بالتدخل المباشر فى عمل المخ؛ سلاح ذو حدين، وهذا أقل ما يُقال. فالتدخل سيكون ناجحاً فى مجال الحقائق الموضوعية، مثل: أورام المخ أو التهاب السحايا، لكن القسوة والتعصب الأعمى لا يمكن تتبعهما

بسبب الأبعاد الأخلاقية المرتبطة بهما، والشخص الذى يجهل عمق المسائل الأخلاقية يفترض - بسذاجة - أن أحكامه الأخلاقية عن الخير والشر هي أفضل المتاح. وسواء كان هذا الشخص عالما أو سياسيا أو معلقا إعلاميا؛ فإن افتراضه يُحتمل أن يكون خطأ؛ وأعضاء هذه المهنة لا يُعرف عنهم التمييز والسمو الأخلاقي.. إننا، على الأقل، نحتاج إلى مناقشة عامة عاجلة - أكبر مما هي موجودة الآن - عن أخلاقيات التقدم التكنولوجي الذى يهدد هويتنا وكياننا.

### القسوة، والعلم، والمبادئ الأخلاقية:

إن المناقشة الأساسية في هذا الكتاب فحواها، أن فهم القسوة يستلزم الإشارة إلى المبادئ الأخلاقية. ودراسة القسوة كعلم مستقل بذاته غير كافية؛ إذ يجب أيضا النظر بعين الاعتبار إلى النواحي الاجتماعية والأخلاقية فيما يتعلق بالحقاق الأذى والضرر بالبشر، لكن هل هذه هي القضية؟ ولو وضعنا كل فعل إنساني في منظومة من الأسباب، فهل سيكون أى ادعاء أخلاقي واضحا ومفهوما؟ ربما تكون المبادئ الأخلاقية؛ وهي واضحة في إطار من المنطق والعقلانية - عرضة لأن تضعف وتذوى، مثل غيرها من المبادئ والعقائد، بفعل التحور والتطور. وقد سمعنا حتى فيما قبل القرن العشرين عن "التتوير" الذى عبر عنه بعض ممن رحبنا بهم "كأفضل من اتسموا بروح التحرر"، إذن كيف هاجم "الماركيز دى ساد" المبادئ الأخلاقية؟ فلنتدبر هذا التحدى كما ورد في كلمات "دى ساد" نفسه. إن تجاوزاته في مذهب "العدمية" الرافض لمبادئ الأخلاق؛ كما ظهرت في روايته جوستين "Justine"، تطرح تحديا لمجتمعنا ومجتمعنا. ونعرضها هنا بما تحويه من سخريه وتهكم شديد:

إن الرجل الذى تتأبه رغبة غير عادية  
(تجاد القسوة) شخص مريض، كامرأة تتأبها  
الهستيريا. هل تعاقب مثل هذا الشخص؟ فلنكن  
عادلين عندما نتعامل مع من يزعجنا على هذا  
النحو. إنه يستحق العطف بدلاً من اللوم، وهذا  
اعتذار أو دفاع عنه ودون شك سيكون هناك  
تفسير جسمانى سهل لحالته. وعندما يصل  
علم التشريح إلى الكمال فسوف نستطيع دون  
مشقة أن نشرح العلاقة بين "تكوين" الإنسان  
وما يتأثر به من رغبات وميول. آه! ماذا  
ستفعلون أيها المعلمون المتحذلقون  
والسجانون ومشروع القوانين والغوغائيون  
عندما نفعل ذلك؟ وماذا يكون حال قوانينكم  
وأخلاقياتكم ودينكم ومشانفكم عندما يثبت أن  
هذه السوائل والأنسجة المختلفة ودرجة  
الملوحة أو الحموضة فى الدم تكفى كى تجعل  
الإنسان هدفاً لأحكامكم؟<sup>(٨)</sup>.

ماذا ستكون الحال فعلاً لو أن أسباباً جسمانية تحرك كل معتقداتنا ورغباتنا،  
إننا سنكون مجرد دمي تلعب بنا الطبيعة؛ فهى التى تجعلنا منعزلين أو انطوائيين،  
حاقدين أو قساة ومستبدين نرغب فى أخذ كل شىء ولا نعطي شيئاً. وإن كان الأمر  
كذلك فستكون الأنانية، حتى إن أوصلتنا للجريمة، شيئاً طبيعياً بالتأكيد. وسيكون  
عدم وجود ضحايا لا قيمة له إذا لم يُقدم العزاء والمواساة العقلانية بين ما يؤثر فينا

أو في غيرنا، فالأول تأثير جسدى والثانى أخلاقى، والمشاعر الأخلاقية يقال إنها خادعة، فالحقيقة فى أحاسيس الجسد فقط.. إنها الطبيعة ولو كنا جزءاً حقيقياً من الطبيعة فلا بد ألا يبالي أحدنا بالآخر:

فمن وجهة نظر الطبيعة لا شىء يخرج  
من الوعاء الضخم الذى تُصهر فيه كل  
الاختلافات، ومهما تدخلنا فى هذه العملية فلن  
يغضبها أحد. إن يأسنا يزيدنا قوة وطاقة. إنها  
تشكلنا وتعيد تشكيلنا، وهل يجروء أحد على  
الاعتراض أو أن يطالب باهتمام أكبر لواحد  
من المخلوقات عن غيرد؟ ولو كانت درجة  
الارتباط بها أو عدم اهتمامها بنا واحدة، ماذا  
سيغنيها الأمر لو هاجم أحد الآخر أو أذاه؟<sup>(١٠)</sup>

إن الاعتقاد فى الحب الأخوى بين البشر، كما يقول "دى ساد"، هو وهم طالبتنا به المسيحية، وهى حالة تدعونا فيها إلى التسامح والتراحم، ونقول إنه لا اختيار لنا إلا أن نتمسك بهذه العلاقة الخيالية بين شخص وآخر. لقد أعلن "دى ساد" أنه يكره المسيحية وسماها "هذه الطائفة الدينية المرعبة والمروعة"، ووصفها بالغموض وعدم المعقولية.

إنك الآن ربما تفكر أن رأيه هذا؛ يذكرنا بالملحدين فى العصر الحديث، وأن الوقت حان لبعث وتجسيد جديد ضد هذا الفكر. قاوم هذا الإغراء، فإن من "يقودون" هذا الفكر من أتباع "دى ساد" يقولون إنهم عمليون ولهم آراء إيجابية جداً عن الطبيعة. إنهم يرون أن فى الإيمان بالعلم والعقلانية مبرراً كافياً لمبادئ

الأخلاق المتحضرة، وهم يتجهون إلى علم النفس التطوري ليثبتوا أن الإنسان منحه الطبيعة خصيصة الحرص على التزام قواعد السلوك الشريف، أو على الأقل منحتنا القدرة على نرجة محدودة من هذا الالتزام<sup>(١١)</sup>.

إن "دى ساد" يلتزم بروية "سوداء"، فهو يرى العالم الطبيعي ينبض بالقسوة، ففيه تقتل الحيوانات والبشر بعضها بعضاً دون أى ندم، وغالباً ما تُنزل الأكم المبرح والممتد أثناء ذلك. إنه يتحدى أى شخص يحاول تبرير السلوك الأخلاقي قائلاً: "لماذا يتحتم علينا أن نهتم بالمبادئ والمشاعر الأخلاقية إطلاقاً؟". ولماذا نقلق أنفسنا ونزعجها بهذا الإطار الأخلاقي، وموانعه ومحاذيره المقيدة والباعثة على الضيق، والتي تُشعرنا بالذنب والحصر النفسي؟ لماذا لا نعتد، ببساطة، على التفكير فى المصلحة الشخصية التى لا تراعى مصالح الآخرين ونحسب المكسب والخسارة ونتصرف تبعاً لذلك؟ وحتى لو كان "دى ساد" قد أخطأ بخصوص صحة هذا الرأى، وحتى إذا كان ما يقوله علماء النفس "التطوريون" عن المشاعر الإنسانية الطيبة كجزء من طبيعة الإنسان قولاً صحيحاً، فإن هذا لا يعنى أننا يجب أن نسترشد بهذه الآراء فى سلوكنا. إن السلوك الشرير غير الأخلاقي يبدو أنه "نشوى" وقد يتطور. وعلاوة على ذلك، فإن جزءاً من طبيعة الإنسان تكون له ملاحق و "ذبول"، لكننا نتصدى لها ونبتورها بمجرد أن تبدأ فى تهديدنا وإنزال الضرر بنا. ربما علينا أن نعمل الشئ نفسه مع المبادئ والمشاعر الأخلاقية ونعتمد على المصلحة الشخصية، فى اللطف أو البذاءة، وإن قالت المصلحة: "جرب القسوة". فليكن الأمر كذلك.

ويشمل هذا التحدى من "دى ساد" اتجاهين مهمين. الأول، والذى لا يتجاوز اللغز الفلسفى القديم، هو مشكلة حرية الإرادة، فلو أن كل ما تفكر فيه ونشعر به ونفعله مقدّر علينا، كجزء من سلسلة سببية، فكيف يمكن أن نكون عوامل فاعلة كما تتطلب

مبادئ الأخلاق؟ أما الاتجاه الثاني: ففيه تساؤل عن لماذا نضابق ونرهب أنفسنا بالالتزام بقواعد الأخلاق. إن الذين هو ينبوع السلطة الأخلاقية، ولكن بما أن هذا "الوهم المروع" قد نبذه "دى ساد"، فلماذا يكون هناك أى سلطة لقواعد الأخلاق بالمرّة؟

## مشكلة الإرادة الحرة :

لقد قال الفلاسفة والعلماء وآخرون الكثير عن الإرادة الحرة والقدرية، مما لا يمكننى من عرضه هنا. ويكفى القول بأن بعض المفكرين يقولون إن الإرادة الحرة غير مطلوبة كي يتمكن الفرد من فعل ما تمليه القواعد الأخلاقية<sup>(١٢)</sup>. وإن كانت الحال كذلك: فإن موقفنا من الإرادة الحرة لن يؤثر فى مفهومنا عن القسوة.

ومع ذلك ... فنحن نتأمل عجائب العلم الحديث عن دراسة المخ - والتي تتوق تصريحاته؛ لأن تعلن أنه بمزيد من التمويل سوف يستطيع العلماء أن يكتشفوا ويفهموا سر هذه "الكرة الرخوة" ويُعدّلوها للأفضل - ونحن نراهم يتصيدون سُروحا "ميكانيكية" لسر وراء سر فى "سَباك" أبحاثهم. ويبدو أننا فى النهاية نستطيع أن نتابع السلسلة السببية للقدرية فى مخ الإنسان، فإذا كان ما جرى فى مخ الإنسان فيما بين الملاحظة والسلوك هو مجرد علاقات اقتران وتزامن سببى مُطرد ومتواصل كما قال "دافيد هيوم" David Hume، أو علاقة إحصائية متبادلة - وهو البديل الحديث لنظرية "هيوم" الثورية - إلا تكون النفوس إذن مجرد مكان تطلق الأسباب فيه النتائج، أكثر من كونها عوامل فاعلة نشعر بوجودها<sup>(١٣)</sup>؛ وإذا لم يكن هناك ما هو موثوق به ومؤكّد بعلم الوجود فى زعوسنا، فمن المؤكّد أن مبادئ الأخلاق أيضا هى إحدى الرفاهيات التي يجب أن نتخلص منها. وإذا كانت "النفوس" غير حقيقية، وهم وزيف، فما الذى يقتل الضحايا الذين لا يملكون الدفاع

عن أنفسهم؟ وإذا كانت المُدخلات تُطلق المخرجات، فيل يُعتبر المجرمون مسئولين عن الفظائع التي يرتكبونها؟

وفي البداية، علينا أن ندحض فكرة أن القدرية تلغى "المعنى" في الذهن؛ لو اعتبرنا أن الأفكار والرغبات ما هي إلا إشارات تقذف بها الخلايا العصبية فى المخ. ولنفكر فى ذلك بالقياس على اللغة<sup>(١٤)</sup>. هل الكلمات حقيقية؟ إننى عندما أكتب كلمة "قطة"، فإنك لديك فكرة جيدة عما أعنيه، لأنك التقيت قططاً حقيقية وتعلمت التكلم عنهم. وعندما قال "توني بليير" Tony Blair، فى أثناء رئاسته للوزارة البريطانية، عن الإسلاميين: "إن ما نواجهه هنا هو مذهب فكرى شرير (أيدولوجية) فقد فهم مستمعوه المعنى الوارد فى هذه العبارة، ولم يكن فهمها ممكناً إطلاقاً لو حدثهم بلغة غير الإنجليزية<sup>(١٥)</sup>. إن بليير بذلك كان يشير إلى معتقدات ليس مشاركاً فيها ولا يحبها. إننى أعرف هذا كما أعرف عن القطط، لأن كلمة "معتقدات" تشير إلى أشياء حقيقية كالقطط؛ إنها أنماط من نشاط عصبى بالذهن تصل بين مؤثرات خارجية واستجابات ليا. وربما لم يكن ميسراً لنا ملاحظة هذه "الكيانات" موضوعياً دون التكنولوجيا المتقدمة. والحال كذلك فى أشياء مجردة (مثل سرطان المعدة أو فيروس الأنفلونزا)، إلا أن كل هذه الظواهر حقيقية.

وهل الكلمات مجرد أنماط من موجات صوتية، أو أشكال مكتوبة، أم هى بنى وأنماط عصبية بالذهن أو غير ذلك؟ بالطبع لا. إن هذه الصيغ ضرورية بالنسبة إلينا لنستطيع الاستحواذ على الكلمات ونستخدمها، لكن مسألة العلاقات والارتباطات هى أن هناك أموراً متعلقة بها: أشياء مُتركة بالحواس، أحداثاً، سلوكاً من البشر، أو أى شىء آخر يخطر ببالك. وكى نفهم ما تعنيه أى كلمة فمعناه أن نفهم كيف يستخدم الناس هذه الكلمة، وكى نفهم ما العلاقة المتبادلة التى يرتبط بها نمط عصبى مع غيره؛ فمعناه أن نفهم كيف يعمل هذا النمط، ودون الإشارة إلى

هذه العلاقات والارتباطات السببية، فربما يصبح نشاط الخلايا العصبية مجرد 'ضجة عشوائية بلا هدف'، ولكن هذا النشاط حقيقي (بفضل أدوات العلم الحديث لدراسة الجهاز العصبي) مثله في ذلك مثل الكلمة المدونة على الصفحة. وكلاهما بلا معنى إلا إذا فهمنا كيف يُستخدمان، وما مظاهر الوجود التي يرتبطان بها. وإذا وضعناهما في مضامين أخرى ثابتة لها صلة بالسلوك العصبي مع مؤثرات واستجابات- معتقدات ورغبات وأفكار وأهداف.... إلخ، فسيكون كل منهما حقيقياً وله مغزى.

### مشكلة المبادئ الأخلاقية:

وماذا يفعل علم دراسة الجهاز العصبي بالنسبة إلى فكرة أن القرية تقال من شأن وقيمة المبادئ الأخلاقية؟ إن مصطلح "السلسلة السببية" في حد ذاته يوحي بالقهر.. أليس كذلك؟

إن الحافز أو المؤثر الخارجي يسير خلال الأعصاب وأطرافها مثل جيش ديكتاتور والهزيمة، شيء حتمي في خضم التسابكات العصبية. وأنت تتفعل أو تنتفض استجابة لذلك. دعنا ننحى جانباً حقيقة أن هذا تبسيط شديد ومضحك لما يحدث (كصورة لما يفعله المخ)، حتى إن كان ينطبق على ردود فعلك السريعة جداً، تلك التي لا تصل أبداً إلى أبعد من مركز الجهاز العصبي في الحبل الشوكي. وفكر في بديل لذلك: أنت الشخص الحقيقي تسير في رضا تام في الشارع، وفجأة تتحرك ذراعك دون أي سبب.. هل هذا يجعلك فعلاً إنساناً حراً أو شخصاً مشوشاً أو مخبولاً يتخيل أنه يُدري القمح؟ إن الحرية بالتأكيد تتضمن القدرة على الفعل بالاختيار. أو بمعنى آخر، إننا نريد أن نفعل أي شيء لأسباب محددة، وليس لأي

خلل في منظومة البدن أو الطاقة أو لتعطل مفاجئ في قوانين "الفيزياء"؛ لأنها تقي إجازة"<sup>(٦)</sup>.

والأسباب، بالطبع، أشياء يملكها ويُسيّرُها الناس وليس المخ. إنها، أيضاً، مبررات ودواعٍ وليست "مخلفات" لحياتنا الذهنية؛ فهي تؤثر فينا وتدفعنا للفعل بأساليب معينة. انظر إلى اللغة مرة أخرى وتأمل العبارات: ذهب "راف" إلى المتاجر ليشتري خبزاً، و"كريس" يغاز من "سام" لأنه صديق "سوزي"، و"اليس" ارتعدت عندما رأت خيطاً على السجادة لأنها ظنت أنه عنكبوت. وبمعنى آخر لا بد أن تكون هناك علاقة سببية بين المبرر والفعل الذي يُحدثه (وهل لو كان عندك سبب للفعل ولم يؤثر في سلوكك فهل ستكون حراً؟ لا ... إنك ستكون "نمية" لا تملك إرادة الحركة. والعقول هي التي تزودنا بـ "المادة" التي تُبنى منها هذه العلاقة السببية. تماماً مثل الموجات الصوتية التي تمدنا بالمادة اللازمة للكلام والأفعال.

وأحد أسباب عدم السعادة التي يشعر بها الناس عندما نناقش هذه الأمور؛ هو الاستعارة الجبرية في عبارة "السلسلة السببية". فإذا كانت كل خطوة من المدخل إلى المخرج تُحدد بالخطوة التي تسبقها؛ فأين الإرادة الحرة؟ وهل هذه الصورة - البشر مثل الدمى التي تتحكم فيها خيوط الخلايا العصبية - خادعة ومضللة؟ ولأحد الأسباب، إننا لا نستطيع أن نسميها "خيوطاً"، لأنه حتى في أبسط حالات رد الفعل الانعكاسي فيذه الخيوط تتلقى تغذية مرتجعة من ذاتها وتُجمَع نفسها في "عقد" وتتشابك بروابط لا تعد ولا تحصى. و"خيوط" الخلايا العصبية هي الأخرى ليست مثل الخلايا العادية بالمرّة. وبدلاً من خيط واحد متصل تكون لدينا شرائح - خلايا عصبية - متصلة بوسائل متداخلة أو خط من نسيج (تشابكات النهايات العصبية)، مثل طريق طويل عليه عديد من "الكباري"، كل منها قد يغيب أو يُفقد ويضيع أو لا يضيع في أي لحظة حسب تاريخه وحسب مستويات المرور الحاضرة أو السائدة

على هذا "الطريق" أو على كل الطرق التي يتصل بها. غير أنه . مرة أخرى. لا يوجد لدينا أى تأكيدات هنا. وفي الختام يبقى كل "خيظ" كما هو بسببك، أى ما فعلته وتدخلت فيه: جيناتك، غناؤك، نزعاتك وميولك، ومعتقداتك، ومن قابليتهم من الناس فى طريقك فى هذه الفترة الزمنية المتصلة، وخبراتك وتجاربك فى الطفولة وهكذا ... بلا نهاية. إن "النفس" متعددة، والمخ سوق من الخلايا العصبية صانعة ومنتجة للوضاء المزعجة، لكن الأفكار المتصارعة، والنوازع التى تشدك وتسحبك إلى اتجاهات معاكسة هى منك وملكك.

إنك متفرد وأنت المسئول<sup>(١٧)</sup>. ومعظم ما تفعله لا تدركه بذاتك الواعية، لكنك أكبر بكثير من مجرد الذات الواعية. فى جسدك، مثلاً، إنك تقوم بالأفعال لأسباب تبدو لك جيدة، وبإمكانك التفكير فى سلوكك، وأن تقرر فيما يتعلق بفعلك وتقرر أن تتصرف بصورة مختلفة فى المرة المقبلة، وتنبأ بما سيأتى وسيحدث، وأن تغير رأيك، وتختار أن تجرب طعاماً آخر.. ماذا تريد أكثر من ذلك؟ هل تشعر بالفعل بأنك أقل حرية لأن مخك "يسبب" بعض سلوكياتك دون أن "تلحظه" أو تدرك ذلك؟ نعم؛ لأن مخك يُسير حركة انبنكرياس. وهل ستشعر بأنك أقل حرية لأن مخك يُسير أحشاءك الداخلية طوال الوقت؟ ومرض السكر الذى يطلب من المريض أن يديره جزئياً ويملك مظهرًا ضئيلاً من التعامل معه ولا يعرف ما الباقى! وهل ستشعر بالحرية أكثر لو حدثت بعض أفعالك بدون تدخل هذه الخلايا العصبية المزعجة؟ لا ... إنها مجرد وسيلة تستطيع بها أنت أن تجعل أفعالك تحدث. ودونها لن تكون أفعالك حرة؛ لأنك لن تكون أنت سبب حدوثها، إنك ستكون مثل مريض "الشيزوفرنيا" أو انشطار وانفصام الشخصية الذى يعتقد أنه لا يتحكم فى حركاته؛ إلا إذا كان اعتقاده هذا صحيحاً. إن هذا يعد حياً للتملك أو الفوضى وغياب "حكومة"، وليس حرية.

ولو قلنا إن الناس تتأثر بكثير من العوامل والمواقف (ضغوط الجماعة، أفكار المسيطرين، أو حتى الألوان والأصوات بالبيئة، والروائح). فهذا ليس مثل قولنا إن هذه المتغيرات البيئية تسبب بالقدر الكافي سلوكا متعمدا مثل القسوة. لكن هناك بالطبع ردود أفعال ناشئة من شخصية الفرد: معتقداته التي يعتقها، خلفيته الجينية، أو حالته الجسدية، وخبرته السابقة... إلخ وكلها تسهم في النتائج. إن باقى الناس تشعر بأنها مختلفة عنك جدا، والشعور الواعى ليس إلا غشاء ورغوة سابحة على سطح محيط كبير، إلا أنها جزء منك. ابتعد اصطناعيا بفعل اللغة التي نستخدمها كي نصفها، وهذا الزيد والغناء الذى يخصك لديه القوة على الغوص فى المحيط وفهم تياراته، ويمكنه أحيانا حتى أن يغير قوته واتجاهه. إنه أيضا جزء من المحيط وأنت المحيط كله، وماذا ينتج عن ذلك إن لم تكن نحن عوامل فاعلة تسبب التغييرات فى العالم - جزئيا وفى حدود- إننا عملاء منحازون، لكننا نحن عوامل فاعلة رغما عن ذلك<sup>(١٨)</sup>.

## المبادئ الأخلاقية.. تخفيض، تكرار، أم تدوير؟

تقول نظريات "داروين" لقد طورنا المبادئ الأخلاقية؛ لأنها كانت مفيدة. وكان علينا التانى قبل التخلص منها، لأن الشيء الذى جرب واختبر على مدى مئات من الأجيال لن يكون من السهل أن يُستبدل بشيء آخر يحل محله. ولن نستطيع القواعد القانونية أو الأعراف الاجتماعية تغطية كل الاحتمالات والحالات، كما أن العالم الحديث قد أضعف كثيرا من سلطتيهما. وحتى المجرمين الذين يرتكبون أفظع جرائم العنف مثل الاغتصاب والقتل؛ أصبح من المحتمل ألا يلقوا أى عقوبة قانونية، إنهم ربما يُنبذون من مجتمعاتهم، ولكن فى عالم اليوم المتسبب

والمانع لم يعد هذا جزءاً رادعاً كما كان، بما أن التنقل بين الجماعات والتحايل على محو السمعة السيئة أصبح أسهل كثيراً.

إننا نحتاج قوانين وعقوبات رادعة، لأننا كحيوانات اجتماعية نواجه مشكلتين لا فكاك منهما. الأولى: هي أننا لا بد أن نتفاعل مع بشر آخرين، وإن سببنا لهم ضرراً؛ فربما يضربونا إن استطاعوا - وإن لم يستطيعوا فأصداقواهم أو أقاربهم، أو من لا يتوافقون معنا، قد يعاقبونا نيابة عنهم. والمشكلة الثانية: هي أننا نقضى جزءاً كبيراً من حياتنا معتمدين على النوايا الحسنة من الآخرين. فنحن في الطفولة ضعفاء نحتاج الرعاية، وفي الكبر يُفقدنا السن والمرض كثيراً من دفاعاتنا. والقوة التي يمكننا أن نجبر بها الناس على تحقيق النفع والخير لنا لا يمكن أن تدوم، ولا بد أن نجعلهم هم الذين يريدون أن يساعدوننا. وقواعد ومبادئ الأخلاق على الرغم من أنها تبدو محددة للسلوك؛ لكنها لازمة عند من يتهج نهجاً أخلاقياً مستقلاً؛ فعمل هذا فقط، راعى بناء الثقة، الاحترام المتبادل، المشاركة التي تجعل الفائدة والخير لمن نحبهم شيء يهكم. ولو كنت عضواً ذا قيمة في جماعة - ويُعنتى بك - فهذا يمدك بشكل من أشكال الضمان والأمان الاجتماعي الذي يمكن أن تكون له فائدة عظيمة في أوقات الضعف. وكما أظهرت الدراسات مكرراً، فإن الشبكات الاجتماعية غير الفاعلة تمثل عامل مخاطرة لمن يعانون قصوراً في الصحة البدنية أو العقلية، فهي تقلل من الشعور بالرضا وربما تسبب الوفاة المبكرة<sup>(14)</sup>.

وكما يقول بعض الملحدين: "دون الدين لماذا نكون ملتزمين أخلاقياً؟"؛ ويبدو هنا الخط الثاني من التحديات التي طرحها "دي ساد" مغرباً، لكنه يغفل خطأ جسيماً في افتراضاته. فإذا كانت القوة فوق الآخرين يمكن أن تكون مطلقة ودائمة، فلن يكون هناك مبرر للأقوياء بأن يهتموا بالضعفاء. وفي الواقع العملي القوة دائماً غير مضمونة، فالناس تكبر في السن وتشيخ، والتحالفات تتغير، والأنظمة تسقط، وتبقى

إمكانية التعذيب، مهما فعلنا لنحد منبأ، إلا أنه فى يوم ما قد يجد الإنسان القوى السادى نفسه مضطرا إلى الاعتماد على الناس الذين اعتاد تعذيبهم.

إن مبادئ الأخلاق تحول دون نماذج كثيرة من القسوة. إلا أن المبادئ الأساسية للأخلاق، كما رأينا، مشروطة ولا يرحب كل الناس بمآثرها وخيرها. كما أن المشاركة الوجدانية أو التعاطف يمكن أن تُكتم، أما إقصاء الآخر فيمكن أن يصعد، حتى تصبح القسوة شيئا عقلانيا ومنطقيا تماما، والمجرمون لا يفقدون السيطرة على شروهم كلية، وقد يتغلبون عليها مؤقتا، وعندما أقتع ستانلى ميلجرام "Stanley Milgram" المتطوعين لإعطاء الصدمات الكهربائية لشخص برىء لم يأخذوا الأمر بلا مبالاة ولكنهم احتجوا وتصيب منهم العرق وعانوا وتألّموا. والضباط الألمان الذين قتلوا الأطفال اليهود ربما تحجرت قلوبهم لدرجة اللا مبالاة أو السادية بمرور الوقت، لكن كتاباتهم المعاصرة مليئة بالشكوى مما طُلب منيم فعله. وفى واحد من التقارير التى كتبها عضو فى إحدى فرق الجيش الألمانى قال: "إن بعض زملائه لم يستطيعوا أن يتواءموا مع الأوامر التى أعطيت لهم"، واستطرد قائلا فى تقريره:

استسلم كثير منا لشرب الخمر، وعانى كثير من الانهيار العصبى والأمراض النفسية. وعلى سبيل المثال انتحر بعض، وفى حالات أخرى انهيار الرجال وأطلقوا أسلحتهم بوحشية حول المكان حين فقدوا السيطرة على أنفسهم تماما. ولما حدث ذلك أصدر هملىر "Himmler" أمرا بأن على كل من لا يمكنه تحمل الضغوط

العصبية أن يبلغ رئيسه من الضباط. وكان هؤلاء الرجال "يسرحون" ويعفون من واجباتهم العسكرية ويقومون بأعمال أخرى في الوطن. وعلى ما أتذكر، فإن "هملر" أقام مقراً للنقاهاة والاستشفاء قريبا من برلين "Berlin" لمثل هذه الحالات. لقد صدر هذا الأمر كتابة، لقد قرأته وحفظته في "الملف" بنفسى<sup>(٢٠)</sup>.

ويصف الكاتب هذا الأمر الصادر من "هملر": بأنه حيلة شريرة وماكرة: "ومن من الضباط كان سيفضح نفسه بهذا الأسلوب؟ وعلى الرغم من ذلك فقد اختار بعض الأفراد أن يعالجوا في دار النقاهاة، وحصلوا فعلاً على العلاج. وقد اعتنى أيضاً بالجنود المرضى والمصابين. إن النازي لم يتخل عن المبادئ الأخلاقية لكنه، ببساطة، ضيق من نطاقها".

ويستطيع البشر الحقيقيون والعاديون، بعكس من نبالغ في أن ننسب لهم صفات سواء سلباً أو إيجاباً، أن يكونوا رحماء وقساء أيضاً؛ فإذا اعتبرنا القسوة كصفة شخصية لإنسان ما، فإن أى شاهد أو دليل على تراحمه أو طبيته حتماً سيخفف من حكمنا الأخلاقي على قسوته، لكن إذا تقبلنا القسوة على أنها سلوك وليس صفة أخلاقية - فسيكون الإنسان مسئولاً عن سلوكه القاسى مثلما هي الحال في سلوكه الطيب. وكثير من القوانين الأخلاقية الوضعية، مثل مبادئ الديانة المسيحية، تصر على هذا التمييز، فهي تفصل بين الفضائل الاجتماعية وبين الخطايا ضد المجتمع. وبين الناس وما يرتكبونه من خطيئة (وهذا عملياً معناه، أكره الخطيئة لكن أحب المخطئ، وهي واحدة من الوصايا التي نالت أكبر قدر من السخرية في التاريخ)، ومثل هذه المبادئ الأخلاقية أيضاً تعادل ما تحرص عليه

الجماعات من مبادئ الأخلاق الأساسية بأن تمتدح السلوك الجيد والسوى من الغرباء وليس من الأعضاء من داخل الجماعة.

وحتى المرضى النفسيين الذين لا يدركون القواعد الأخلاقية؛ يرون أن هذه القواعد وجدت من أجل الآخرين، وأن هناك سلوكيات معينة تعتبر خطأ وتعرض الإنسان للعقوبة، ولا تتوارى هذه المعرفة في المواقف التي تؤدي إلى العنف. إنها قد تغفل عن عمد أو تزاح على غير الرغبة، لكن الأنماط العصبية التي أسستها لم تتوقف عن الوجود لمجرد أن رغبات أخرى غمرتها. إن المبادئ الأخلاقية غير كاملة بلا شك، ولكن بالنسبة إلى الكائنات المتطورة يكون نقصان الكمال دائماً هو الموقع الذي نبدأ منه المحاولة المتصلة لتغيير أنفسنا؛ إذ إن فهم الأساس الإنساني للأحكام الأخلاقية هو الذي يتيح لنا أن نبدأ مخاطبة مشكلاتها الشاملة، إن هذا هو الهدف الواقعي للبحث العلمي وليس إبطال أثر المبادئ الأخلاقية.

إنني باعتباري غربية علمانية عصرية تدرت في معامل العلم، فإنني قد افترضت في هذا الكتاب أن الفهم العلمي يستحق التحري والأخذ به وأنه من الممكن أن يطبق في أي مجال بحثي. حتى في دراسة القسوة، وميمتى الأخيرة هي التفكير في مواجهة هذا الافتراض، وهذا التحدي أو المواجهة ليست علمية أو فلسفية، إنها أيضاً أخلاقية. إن القول هنا هو إننا لا يمكننا، ويجب علينا، ألا نحاول شرح وتفسير شرور الإنسان في سياق علمي أو بلغة علمية فقط.

هنا لا يوجد تبرير، أو "لماذا":

ما أفضع المعاناة التي قد تحملها من  
تعرض للتعذيب مراراً. لقد قُطعت أوصاله  
وظهرت به السجحات وبدا عليه الإنهاك، فلم

يستطع أن يرفع يده إلى فمه لعدة أسابيع  
وتورم جسده من الالتهاب. وبعد إخلاء سبيله  
شعر بتأثير هذه القسوة طوال الفترة الباقية  
من حياته. فكانت تنتابه رعشات موجعة بصفة  
متكررة والتي لم يصادفها أبداً قبل مأساة  
وقوعه تحت يد السادة الدمويين القساة الذين  
استجوبوه في التحقيق.

(جون فوكس "John foxe ، كتاب الشهداء)

هناك ادعاء بسيط: حتى نفهم القسوة فإننا نلغى مبادئ الأخلاق ونغفر للفظائع  
والأعمال الوحشية بأن نحاول أن نشرحها ونفسرها. ولو جعلنا المجرمين يبدون أقل  
شرا؛ فإننا نقلل من شأن معاناة ضحاياهم.. وهذا، أخلاقياً، نوع من عدم الحياد مهما  
حاولنا إظهاره بمظهر العلم المحايد. وكما جاء في العبارة الشيبيرة التي قالها كلود  
لانزمان "Claude Lanzmann" في فيلم "Shoah"<sup>(٢٠)</sup>، "هنا لا يوجد تبرير". وأساء  
الأعمال الوحشية تتحدى فهمنا وتستهصي عليه، فهي لها قداسة خاصة ويجب أن  
تبقى بعيداً عن يد العلم الضعيفة؛ لأنها لا يمكن فهمها بسبب الرهبة والأسرار  
المروعة التي تُحذرننا من الاقتراب من هذه الشرور. ومرتكبو الجرائم قد عبروا إلى  
حدود الشر، والكلام في ذلك فيه انتهاك لحرمة ذكرى من ماتوا.

ويأخذنا هذا مرة أخرى إلى جوهر الشر، بأن نرى قسوة البشر سادية مقبولة  
(وهي الابتهاج بتعذيب وتدمير الضحية) أكثر من أن نعتبرها فرضاً للقوة بدافع من  
جمود القواد (أسباب قد تبدو منطقية). وكما رأينا، فإن هذا المنهج يثير المشكلات،  
لكن علينا أن نفهم لماذا يُرضى هذا النهج الذين يؤيدونه. إن أحد الأسباب بالتأكيد

يتعلق بمعاناتهم الشخصية. وسواء كانوا هم الضحية أو فقدوا من يحبونهم أو رأوا رموزهم ومثلهم الغالية والمقدسة تُهاجم وهوياتهم المادية والمعنوية تنتهك؛ فهذا يجسد ألما شديداً. ومصدر هذا الألم يطرح معنى كبيراً، ونكران هذا المعنى نكران لمعاناتهم. ولن يكون للغة العلم الباردة وغير الأخلاقية مكان هنا، أى للمعاني المجردة.

وهناك فائدة أخرى من إضفاء جو من القداسة على القسوة التى تتعرض أنت لها، وليس ما يتعرض له الآخرون، فهذا يُسهل من وقع المسؤولية. فمعرفة كثير من الفظائع يُرسخ الشعور بالذنب، حتى إن كنت لا تستطيع منعها، فمن الأفضل أن تركز على الألم الذى تعرفه أنت وجماعتك. ومعاملة معاناتك كشيء خاص - أى معاملة خاصة - من الممكن أن يعميك عن سلوكك الذى يفتقد الرحمة تجاه الآخرين. وضحايا العنف يمكن أحياناً أن يتصرفوا كما لو كان عذابهم يتيح لهم ممارسة القسوة مستقبلاً، حتى ضد أهداف لا علاقة لها بالمجرمين الذين اعتدوا عليهم، وهذا قد يبرر لهم أيضاً أى إجراء حتى إن كان قتلاً للأبرياء (ومنطقهم: لا تعاقبنى فإن معاناتى هى التى جعلتني أفعل ذلك)، فهل هناك منطق فى أن يتحول من أودوا إلى قوم قساة!

وما نؤكدُه الآن أن معظم قسوة البشر ناشئة عن الطيش واللامبالاة أو جمود وغلظة القلب، وليست سادية شيطانية، ولو نحينا جانباً المشكلة التى لا حل لها بخصوص تحديد نوايا وأعراض المجرم، فإن الهالة التى نحيط بها أفعال العنف تجعل الضحايا مُحاصرين بمفهوم "الماهية والجوهر" - فطرة الصالح والطالح من الناس - ويلاحظ هذا بصفة خاصة فى حالات الإبادة الجماعية، وإذا ارتبط معها اتهام بالسادية فسوف يجبر هذا الاتهام حادث الإبادة مثيراً للجدال أكثر من أن يُقال إنها مجرد "مذابح"، بما أن الإبادة الجماعية، مثل السادية، تلقى باللوم

على فطرة وطبيعة من يرتكبها<sup>(٢٢)</sup>. إن الرغبة في المحق والإبادة، والرغبة فى إحداث المعاناة يمكن أن تُبذَر - بإقصاء الآخر - على أنها شر خالص، وقد يعفينا ذلك من مسئولية اعتبار القسوة، بشيء من الجدية، سلوكا متغيرا لا شرا متأصلا.

أما لو كان مفهومنا الأخلاقى يستدعى التركيز على الضحية من منطلق معاملة الضحية ديمقراطيا كأنسان له حياة وكرامة ومحبون قد فقدهم، فسوف لا نهذر الوقت فى الاهتمام بدوافع المجرم وسنحاول إصلاح ومنع الضرر. ومن حُرِّموا وعانوا ليس عليهم المكافحة، ربما لسنوات. ليعترف الناس بما عانوه. إننا نرى القتل فى أى صورة كانت شيئا بغيضا جدا، سواء كان فى إبادة أو مشاجرة أو مع سبق الإصرار. ونحن نحكم على القسوة بالنظر إلى الحالة النفسية لمن يتصرفون بقسوة، لكننا نقرن ذلك بمعاناة الضحية. غير أن اهتمامنا بالطرفين ليس متساويا أو بالقدر نفسه، فالضحايا ليسوا على غرار واحد وإقصاء الغير قد يطال الضحية كما يمس المجرم. وإضافة لذلك، فاهتمامنا لن يكون بما حدث للناس فقط، ولكن بما قد يحدث لنا أيضا. إن ذلك، مع دهشتنا من الشر، قد يجعل التفكير فى الحالة الذهنية للقاتل تسيطر على فكرنا، ومهما كان شعورنا تجاه ضحايا القسوة فلن يجعلنا ذلك نتفق معهم على أن مصيبتهم لا مثيل لها. ولن يكون لدينا مبرر قاطع بأن نصنفها كإبادة، أو مذبحه، أو قتل فى محيط صاخب أو حالة سكر، أو أن نقيمها أخلاقيا وفق تدرج، كالأسوأ والأفضل. إلا أننا نفعل ذلك.

وعلى مر التاريخ لم يكن "الهولوكوست" هو أول إبادة جماعية، غير أن هذا المصطلح تمت صياغته استجابة لهذه الواقعة<sup>(٢٣)</sup>. لقد محا "يوليوس قيصر" قبائله بأكملها، قتل الكثير وباع من بقى كعبيد، ولم يكن "الهولوكوست" أول إبادة جماعية يرتكبها الألمان فى العصر الحديث؛ فقد افتتح الاستعمار الألمانى القرن العشرين بالنهب والتخريب - ولا أستطيع القول بأنهم أبادوا "عشرا". بل أقول ثمانية أعشار

من قبائل الهيرارى فى الدولة التى تسمى الآن "ناميبيا"<sup>(٢٤)</sup>، ولم تكن ألمانيا "المجرم"  
الأوروبى الوحيد، فقد أنزلت بلجيكا الخراب والدمار بجميع سكان الكونغو<sup>(٢٥)</sup>.

وكما يقول بعض الناس، فىذا مثل ما حدث فى الهولوكوست، هل هو شر  
محض؟ حقاً؟ وهل نحن نريد بأمانة أن نقلل من شأن ما حدث فى رواندا وكمبوديا  
والمستعمرات فى إفريقيا، وفى الأمريكتين؟ وهل نريد حتى التفرقة بين الإبادة  
الجماعية والعمليات التى يتسبب فيها الإنسان فى القتل الجماعى، وبذلك نخفض  
درجة القسوة فيما حدث بالصين فى أثناء الحرب العالمية الثانية والمجازر فى  
أوكرانيا، والمجاعة فى أيرلندا وأندونيسيا فى الستينيات وغيرها كثير<sup>(٢٦)</sup>. إن  
هؤلاء الضحايا، الذين نسيناهم فى الغالب، مثلهم مثل يهود أوروبا الذين عانوا ولم  
ينعاهم ويحزن عليهم سوى من حرّموا منهم - من أهاليهم. وقد نشر المغامر  
الأمريكى والتر هاردنبرج "Walter Hardenburg" تفاصيل ما رأى فى منطقة  
نهر "بوتوماى"<sup>(\*)</sup> (من الأمازون) فى السنوات الأولى من القرن العشرين. عندما  
كانت مؤسسة عمال فى "بيرو" يدعمها مستثمرون بريطانيون تستخدم الأهالى  
(معظمهم من قبائل الهيتوتو)، من الهنود باعتبارهم عمالة جبرية بالسخرة  
لاستخراج المطاط.

لقد كتب "هاردنبرج" يقول:

كان الهنود المسالمون يرغمون على  
جمع المطاط دون أجر أو طعام، وهم عراة.  
وكانت نساؤهم تسرق وتغتصب ثم يقتلن.

---

(\*) نهر فى أمريكا الجنوبية ينطلق بين كولومبيا وبيرو عبر البرازيل ليتصل بنهر الأمازون - واسمه  
"برازيلى" وطوله ٩٧٥ ميلاً.

وكان الهنود يجلدون بالسياط حتى تظهر  
عظامهم إذا لم يطرحوا كمية كافية من  
المطاط، أو حاولوا الهرب. وكانوا يتركون  
حتى يموتوا بالجراح التي تتفحح وترعى فيها  
الديدان، وتؤخذ جثثهم كطعام للكلاب. وكان  
جلد الرجال والنساء والأطفال بالسياط هو أقل  
أنواع التعذيب التي استخدموها، فكان الهنود  
يقيدون في آلة التعذيب وتقطع أوصالهم  
بالمنجل ثم يصلبون ورءوسهم إلى أسفل  
وأرجلهم قد تبتز أو تستعمل كأهداف للتدريب  
على التصويب وإطلاق النار. كما كانوا  
يُغمرون بالبترول ويتم حرقهم وهم أحياء، كل  
من الرجال والنساء.

هل في هذا مبالغة من شخص انشق على جماعته واتخذ مسلماً محايداً  
ومستقلاً؟ ليست هذه هي المرة الوحيدة، فعندما أرسلت الحكومة البريطانية التي  
تساهم في هذه المؤسسة المسؤولة عن جمع المطاط، مبعوثها روجر كيسمنت  
"Roger Casement" - (وهو الذي كتب تقريراً عن الجرائم الفظيعة في الكونغو  
أيضاً - كي يتحرى الادعاءات عما حدث في منطقة "بوتاماي"، كتب تقريراً سبب  
احتجاجات عنيفة عندما نشرته الحكومة البريطانية عام ١٩١٣. فقد قدر التقرير أنه  
في اثني عشر عاماً من اضطهاد البيض للأهالي انخفض عدد السكان نحو ثلاثين  
ألفاً<sup>(٢٩)</sup>. ومن الآن يتذكر من أهل "بوتاماي"؛ ولم يُعتبر القتل إبادة جماعية، إنه فقط  
مجرد مثال وشاهد على ظلم واضطهاد المستعمرين، فيذو المؤسسة، فيما يبدو، كانت

تظن أن هذه السخرة في العمل ستكون بلا نهاية؛ لأن حياة هؤلاء الأفراد رخيصة جدا لا ثمن لها. ومن هذه القسوة البالغة الناشئة من جمود الفؤاد نشأت السادية التي صدمت من كتبوا عنها، "هاردنبرج"، "وكيسمنت"، ومن قرعوا كتاباتهم.

إن من أسوأ الأمور أن تقتل شخصا؛ لأنه يرمز لنوع من البشر قررت أنت أن وجودهم غير محتمل ولا تسامح معهم؛ لأنهم يحاولون بينك وبين الكسب السريع، أو لأنهم يستنزفون مواردك أو لأن منهم الكثيرين. إن الإبادة الجماعية، في بادئ الأمر، هي فكر متسلط على ذهن المجرم، وبالنسبة إليه يُعتبر "الآخر" مجرد مصدر إزعاج. ومثل كل الأفعال الشريرة؛ فإنها تبحث عن "مغزى" حتى تجعل الناس تتواعم مع أسوأ ما يقدمه البشر للعالم.

## هنا لا بد أن نسال: لماذا؟

كيف يكون رد فعل الباحثين الذين يحاولون فهم فظاعة الأفعال الشريرة مع ما يعترضهم من انفعال عاطفي وآسى؟ يقول بعض: إن الألم جزء من معاناة الفرد الذاتية في عالم الأخلاق الوهمي، بينما يتعامل العلم مع الحقيقة الموضوعية ولا بد أن يكون محايدا كي يحقق النجاح. ويستدعي هذا الرأي الخطأ الطبيعي في الفكر بأن رد الفعل الدفاعي المعروف هو أن نميز بين ما هو موجود كواقع (الحقائق) وما يجب أن يكون (القيم)، وأن نصر على التفريق بينهما. فالتفسيرات العلمية ليست تبريرات أخلاقية، ولذا فالنظريات العلمية عن القسوة لا لزوم لها ولا تلامس ردود الفعل الأخلاقية.

فهل هذا صحيح؟ إن التناول العلمي يمكن أن يقدم الكثير لتوضيح وتفسير أنماط السلوك القاسي، لكن القسوة بها جوانب أخلاقية أيضا تشمل الفاعل

والمسئولية. وتتأثر هذه النواحي بمفهومنا عن العوامل المسيبة للقسوة بجانب العوامل الأخلاقية. فالقاتل الذى لديه إصابة فى قشرة الفص الجبى ينال "تخفيفاً" أخلاقياً مقارنة بغيره السليم جسدياً. والحدود بين العلم والأخلاق ليست مغلقة غلقاً محكماً، أو بمعنى آخر، المعلومات العلمية يمكن أن تُغيّر الأحكام الأخلاقية. والمبادئ الأخلاقية، سواء الأساسية أو الوضعية، ليست هى رد الفعل البدائى غير القابل للاختراق أو التأثر الذى أوجدته ووضعته فى اعتقادنا الأصول القديمة. فقد أضافت الطبقات المتركمة من الحكم والتحكم مرونة وفروقاً باطراد. فالتفسيرات للأعمال الشريرة والوحشية قد لا تكون فى حد ذاتها تبريرات أخلاقية، لكنها من الممكن أن تؤثر فى هذه التبريرات. وتتغير الأحكام الأخلاقية كلما تغيرت المعلومات والمعارف، ولذلك فإن النظريات العلمية عن القسوة قد تكون لنا نتائج وعواقب أخلاقية خطيرة، مع أن كثيراً من الباحثين يتمنون ألا يحدث هذا.

وهناك ما يقابل هذا الاعتراض. وأحدها يشير إلى أن التعاطف الوجدانى له حدود لا مفر منها. فأننا لا يمكن أبداً أن أشعر بألمك بدرجة الشدة نفسياً التى تعانيها أنت، ولذا فإنه لن يهمنى أنا، أو أى شخص آخر، ما تعانيه إطلاقاً بالقدر نفسه الذى تهتم به أنت. وهذا هو ما جبل البشر عليه واعتادوه. وما أستطيع فعله هو أن أفهم أنك تعانى وتتألم وأن معاناتك حقيقية ولها مغزى.. أى إننى أستطيع أن أحترمها وأرى أن لها قيمة ووزناً أخلاقياً.

وهناك رد فعل آخر، وهو أن ذلك لا يعنى أننى لا أشعر بألم المرة أو أننى لا أهتم إطلاقاً لمجرد أنك تشعر بالمعاناة أكثر منى. وقد تكون هناك دوافع كثيرة لمن يبحثون فى قسوة البشر، بما فى ذلك المشاركة الوجدانية والتعاطف تجاه الضحايا، فبعض فقد الأصدقاء وأفراد من الأسرة وأقارب فى هذه الجرائم المفجعة؛ إلا أن الاعتقاد بأن فهم قسوة البشر سوف يساعدنا فى التقليل منها لن نجد كثيراً من يدافعون عنه. إن ضحايا جرائم القسوة وأصدقاءهم وأقاربهم لهم صوت

ومصادقية لا يضاهاها اى علم، لكن البحث العلمى ليس هدفه التعبير عن الألم،  
والعواطف ذاتها لن تساعدنا فى فهم أسباب حدوث الجرائم الفظيعة.

إن صرخة الألم يمكن أن تلقى الضوء على فعل شريـر وتفسره وهذه ميمـة  
ضرورية فى عالمنا المستغرق فى مشكلاته وهمومه. وإنه لمن السهل أن نحول  
اهتمامنا وننسى، وعلينا أن نتذكر الإبادة الجماعية فى "رواندا" بمعدل القتل المفزع  
الذى تعدى متوسطه فى كل يوم أكثر من ثلاثة أضعاف من قتلوا فى حادث الحادى  
عشر من سبتمبر - يومياً ولمدة ما يزيد على ثلاثة أشهر<sup>(٢٠)</sup>، غير أننى من فترة  
جيزة شاهدت اثنين من العلماء المتميزين من ذوى التعليم الرفيع والعقول  
المتحررة لم يستطيعوا أن يتذكروا حتى مجرد أسماء النزاع والمتحاربين فى هذه  
الواقعة المفزعة، فقد قال أحدهم: "هل كان اسمهم "التوتوس"؟" أيا ما كان الاسم!،  
وأسرع فى سيره قدماً. إن مثل هذا الجهل، وهو شائع وليس محنوذاً. يؤكد  
ضرورة حاجتنا المستمرة لصرخة ألم تذكر الناس.

وما لا تستطيع فعله الأحزان والتذكر والصرخات والقسم "بأن هذا لن يحدث  
مرة أخرى"؛ هو أن تترجم هذه الدوافع الطيبة إلى منع فاعل وأكد لقسوة البشر.  
إن أحد الدروس المأساوية من التاريخ هو أن البواعث الأخلاقية التى طبعت  
وغرست بعناية فى ثقافة بعد أخرى يبدو أنه لا تأثير لها عندما ترتكب الجرائم  
الفظيعة. فالمسيحية تعلمنا أن نحب الآخرين، والإسلام يدعو إلى التسامح والسلام،  
والشيوعية تنادى بالمساواة والعدالة الاجتماعية، والديمقراطية والحرية شعار الثقافة  
الغربية الحديثة.. وكل هذه المنظومات العقائدية، مثل عقائد أخرى لم أذكرها،  
يرتكب أتباعها أفزع جرائم القتل وأعمال الإرهاب باسم المثل العليا، فإنه من  
الواضح أن القوانين الأخلاقية لا تمنع القسوة؛ كما أن محاولة فهم بواعث القسوة  
وأسباب حدوثها لن تمنعها أيضاً، لكنها ربما تكون أكثر الطرق والوسائل للإقلال  
من السلوك القاسى.

## ملخص وخاتمة:

لقد تطورت قواعد الأخلاق التي نتبينها وتعاقبنا حتى تساعدنا في التصرف بطرق تجلب لنا الفائدة على مدى طويل وتمنعنا من أن التصرف بطريقة تؤذينا على المدى الطويل أيضا. وقد فعلت ذلك بأن أرسيت استنباطات وأنماطا عصبية تؤدي إلى كبت ومنع القسوة ودعم وتعزيز العطف والشفقة ورقة الفؤاد- أحيانا. ولذا بدأنا الآن أخيرا نفهم الأسباب الدفينة التي تجعل أحكامنا الأخلاقية محددة وجبرية؛ وقد أعطانا هذا الإدراك القوة والقدرة على أن نغيرها. وعلى سبيل المثال فنحن يمكننا الاستعانة بفكرة التساهل والتسامح الأخلاقي في اعتبار المسؤولية ليست جامعة مانعة بل إن فيها تحيزا وميلاً وتدبراً. وقد نقضى بأن بعض العوامل، مثل حالات معينة من الأذى أو الإصابة بالمخ، تمنح المتهم معاذير وتخفيفاً في الحكم، بينما بعض آخر مثل: الإذعان للسلطة أو لنفوذ ما لا تمنحه ذلك. ويمكننا أن نمتد بتلك الأحكام لتشمل أنواعاً أخرى تماثلنا من المخلوقات. كما يمكننا أن نحرر معتقداتنا الأخلاقية من العوامل التي تُضفي عليها سمات القداسة والحمية فيما يخص الخير والشر، حيث ننظر إلى القسوة غالباً على أنها مسألة ضعف إنساني. ولو فعلنا ذلك فسوف نستطيع أن نتقبل ونسلم بالعيوب والنقائص التي تقودنا إلى الإخفاق وإلى النقائص الأخلاقية.

وما لا نستطيع أن نفعله هو هجر الأخلاق والتخلي عنها كلية، أكثر من أن نقرر ألا نكون هذا النوع من المخلوقات الذي يأكل ويتففس ويحزن ويرغب في القوة وينزع إلى العاطفة. والعدمية السادية التي تتكر مبادئ الأخلاق ليست هي الاختيار العملي الشديد ما دمنا معرضون للثواب والعقاب وغير محصنين ضد قوة

وقهر الآخرين، أما عن ادعاء المذهب النسبي في الأخلاق، بأنه لن يمكن لأي قانون أخلاقي أن طرح نفسه كأفضل القوانين وأنه أرفع مقاماً من أي قانون آخر، فذلك أمر مشكوك فيه. إن بعض القوانين الأخلاقية تتاسبنا أكثر من غيرها، ومذهب المنفعة الذي يرى الأعمال صالحة إذا كانت نافعة، والأنانية الكاملة، والأثرة التامة، مثلاً، يبدو أنها جميعاً لا تتاسبنا بصفة خاصة. إن أخلاقنا حزمة مختلطة، نكيفها ونوائمها حتى تلائم الظروف والمناسبات؛ فعندما نشعر بالخطر نلجأ إلى جمود الفؤاد وإقصاء الآخر، ونرى الرحمة والمودة عندما ندرك أن علينا الاهتمام والاعتناء بالآخر.

إن باستطاعتنا محاولة الحد من النزوع إلى القسوة بأن نستفهم عن، ونشك في، من يحذروننا ضد التهديدات الرمزية وأن نتحدى نظرياتهم الفكرية و"أيديولوجياتهم" المريبة. وما يمنحنا الأمل للتطور والتحسين هو التعليم وإعادة توزيع السلطة السياسية. إننا نستطيع أن نرفع من عقاب الحرب التي تتعش وتزدهر فيها القسوة، على من يبدؤها ويشنها. لكن الآلية الكامنة وراءها باقية، فهي جزء من موروثنا الذهني والعصبي. والقسوة دائماً هي الاختيار السهل ومن يقسو قد يشعر بالانتعاش والبهجة. وما علينا إلا أن نتقبل ذلك ونتعلم كيف نتعايش معه- إن استطعنا.

أما الإخفاق في التعاطف مع الآخرين والتجاهل الأناني لهم مع عدم الاكتراث بهم والكراهية للغير والقسوة الشنيعة كلها أمور يختص بها البشر مثل اللغة والحب والتضحية البطولية بالذات، والتي قد تجعلنا قساة أيضاً. والذين لم يصبوا منا ضحايا للعنف أو مجرمين ممارسين له؛ عليهم شكر الحظ المهم الذي عافاهم، ولا نقول سريرتهم الرائعة، فاللطف والتهدب لا يقدمان إلا حماية هشة للفرد. وفي الوقت نفسه فإن الحاجة إلى السيطرة والتحكم خلقت أسلحة غامضة من

الممكن أن تحوّل قسوة الجماعة تجاه الفرد إلى كارثة كونية. إن القسوة من الممكن أن "تبتلعنا" وتهلكنا قبل تمكننا من السيطرة علينا.

كم من الوقت بقي لنا؟ وهل سيتطور الإنسان هذا الكائن الاستثنائي (بوصفه نوعاً بيولوجياً) حتى يحيا بقدر أقل من الإيذاء والمفاسد والتعذيب، أم أن حكوماتنا سوف تستغل المعرفة العلمية عن القسوة لتجعل محاربيها وقادتها أشد قسوة وجموداً في الفؤاد، وتجعل مواطنيها أكثر فتوراً ولا مبالاة؟ وهل سيستمر المجرمون في المقامرة أو الرهان على غفلة ولا مبالاة المتفرجين ويكسبوا من ذلك، أم أن الملاحظين سوف يدعمون ويقوون احتجاجاتهم السياسية. ولو ناقشنا القسوة على أنها مفهوم أخلاقي؛ فإن ذلك لا يعني أن نغفلها ولا نأخذها مأخذ الجد. إننا مخلوقات "أخلاقية" ويمكننا الاهتمام بذلك أكثر مما هو واقع بالفعل، وألا نعامل السلوك القاسى باعتباره شراً مستطيماً يفوق قدراتنا على ضبطه. لكن على أنه شيء يمكننا أن نتعامل معه، حتى إن كان ذلك فقط بالاحتجاج والاعتراض والشكوى للأصدقاء أو فى وسائل الإعلام، أو لدى الحكومات من أمثلة وأنواع كثيرة من القسوة. إننا نميل إلى استخدام الرموز، ونستطيع أن نغير سلوكنا وسلوك الناس الآخرين إذا ما فهمنا ذلك واستخدمنا أدوات العلم والسياسة.

ومع ذلك لن نستطيع إزالة أو محو قسوة البشر تماماً. إنها قد تكون مفيدة ومغرية أحياناً. لكننا، لو اخترنا، فبإمكاننا أن نقلل منيا بإحداث تغييرات ثقافية تجعل غلظة القلب وجمود الفؤاد أموراً لا يتقبلها المجتمع. لكن ذلك سوف يتطلب مجهوداً كبيراً، وحتى الآن فإن هذا الجهد لم يبدأ، وبدلاً من ذلك فإن القادة السياسيين قد تبنوا القسوة واستخدموها لصالحهم بترتيبات ونظم و"تكتيك" وموافقة واضحة وصريحة من مؤيديهم. وبما أن العلم الآن قد منحنا الفرصة لأن نفهم حدود القسوة، فإن المخاطرة هي أن مثل تلك المعرفة سوف يُساء استخدامها حيث

تجعل بعضنا- الجنود مثلاً- أكثر قسوة. إلا أن البشرية لا يزال لديها متسع من الوقت؛ لأن تكون لها اختيارات مختلفة؛ إننا نستطيع جعله الناس أقل قسوة، لو توافر لنا الاهتمام الكافي بأن نفعل ذلك.

فهل سوف نفعل؟ إن وجهة نظري هي أن أي تغييرات يمكننا تحقيقها ستكون ضئيلة، وبطيئة وغير كافية تماماً لهذه المهمة. فالقسوة شيء فظيع، لكنها لمعظمنا ليست مفزعة الآن بالقدر الكافي.. إن من لديهم القوة ليحققوا اختلافاً كبيراً قد يكونوا لأنفسهم دفاعات مهولة ضد أي هجوم من الآخرين. والقسوة لن تؤثر فيهم مباشرة ولذلك فهي ليست شيئاً حقيقياً بالنسبة إليهم كما هي بالنسبة إلى من يعانون بالفعل منها. إن الأقوياء قد فعلوا ما يكفي كي يجعلوا الأشرار متحجرين في أماكن العزل (الجيتو)، لذا فهم لا يشعرون بأى ضغوط تدفعهم لأن يفعلوا شيئاً. وحتى لو فقدوا السلطة السياسية، فإنهم لن يتخيلوا العيش كما يعيش الضحايا. والرئيس ريتشارد نيكسون "Richard Nixon" لم يكن أبداً ليذهب إلى غابات فيتنام حيث تلقى قواته القنابل بأمر منه. أو ليذهب حتى إلى أحد الأحياء المنفلتة أمنياً والتي بلا قانون في واشنطن العاصمة. وبما أنه مُحصن ومعزول تماماً عن نتائج وأثار القسوة، فهل من المحتمل أنه (أو أننا) سوف نهتم بالموضوع؟ إلا أن أى قوة أو سلطة سياسية لن تستمر أو تدوم إلى الأبد، ففي يوم من الأيام ربما سنضطر إلى أن نهتم.

إن الناس ليسوا أنانيين تماماً. فالحس الأخلاقي قد يرشدنا إلى التغيير الاجتماعي. ولا اعتبارات عديدة فإن عالمنا اليوم أقل قسوة بكثير مما سبق. وعلى الرغم من ذلك، فإن أصحاب التعليم العالي والمترفين و"الشبعانيين" و"المحميين" من البشر مستمرّون في إظهار القسوة اللفظية أحياناً. وفهم أسباب قسوة البشر يتطلب الذكاء. وهو متوافر بكثرة لدى بنى الإنسان.. إنها مهمة شاقّة، لكنها ليست

مستحيلة. وإذا كان الذكاء والمعرفة هما كل ما هو مطلوب فسوف نضمن أن تكون القسوة أقل غدا. غير أن المعرفة ليست كافية، وأي قدر من التفكير البارِع والماهر من الخبراء المنتدبين والمفوضين لن يُمكننا من إحداث التغييرات اللازمة، ولهذا فنحن نحتاج الحكمة والشجاعة والإرادة وأن نبذل مجهودا جبارا دون أن نطلب أو ننتظر الجزاء الملموس والواضح. وهذه الخواص والسجايا من الصعب أن توجد في الجنس البشرى؛ وبما أنها تنقصنا، فسوف نبقى قيد الخطر والمخاطرة: بأن نعانى من القسوة وأن نكون قساة.

الهوامش



## مقدمة: عن سياقات القسوة ومضامينها

- ١- انظر مقال Boklage (1990). وفي دراسة على نطاق واسع من المراكز الأمريكية للتحكم في المرض؛ أفادت تقاريرها في عام ١٩٩٦ بأنه من بين ٦٢٤٠٠٠٠ حالة حمل كانت هناك حالات ولادة سليمة وإجهاض متعمد وفقد للجنين: كان في ٩٨٠٠٠ حالة فقد الجنين في ١٦% منها، ونجا وولد ٦٢% وتم الإجهاض في ٢٢% (ventura et al. 1999).
- ٢- انظر (Nuland 1994) عن آليات الأنواع الشائعة من الموت. ويراعى الحذر في التعامل مع الإحصاءات الخاصة بحالات الموت نتيجة العنف. والمصدر الأساسي لها هو "R.J.Rummel : Death by Government". والأرقام الواردة به تزودنا بالمعرفة عن حجم الدمار الناجم عنها.
- ٣- في عمر الإنسان. يختلف تقدير احتمالات تعرضه للقتل باختلاف الثقافات: من ١ في ٢٠٠٠ (بريطانيا)، من ١ في ٢٠٠ (الولايات المتحدة)، من ١ في ٢٠ (كولومبيا وجنوب إفريقيا) وقد تزيد النسبة في ثقافات القبائل مثل قبائل (yanomama Duntley 2005).
- ٤- جاء في إحصاءات وزارة العدل الأمريكية (عام ٢٠٠٧) عن جرائم القتل؛ أنه في عام ٢٠٠٥ كان القتلة من الرجال عشرة أضعاف الإناث، والرجال يحتمل أن يكون القتلى منهم أربعة أضعاف من قتلوا من النساء وأيضاً أربعة أضعاف من ماتوا في حوادث أو بالانتحار (Day 1984).
- ٥- (Fisk 2006).

- ٦- الكتاب الذي صور هذا الجرم الفظيع هو "Hannibal" والمؤلف (Harris 1999). وعرض الفيلم عام ٢٠٠١ وأخرجه "ريدلي سكوت" Ridley Scott.
- ٧- يرى بعض المفكرين أن الفظائع التي حدثت في القرن العشرين في "أوشفيتز" و"هيروشيما" تتطلب تأملاً وفكراً في الدين المسيحي.. انظر Fasching 1992 وأيضاً Shklar 1984.
- ٨- كتاب Sade (ترجم عام ١٩٩١) ص ٦٩٨ .
- ٩- مناقشة صغيرة عن الشر والقسوة في كتاب (Bakowitz 1999).
- ١٠- تقرير لجنة جواتيمالا لإيضاح التاريخ عام ٢٠٠٧:  
. Guatemala: Memory of Silence
- ١١- مثل Peter Kurten مرتكب عديد من جرائم السادية الجنسية في العصر الحديث (Berg وترجم عام ١٩٣٨)، وقد حوكم وأعدم بألمانيا عام ١٩٣١، ولم يعرف عدد ضحاياه. وقد قتل "إيان برادلي" خمسة أطفال في شمال إنجلترا بمساعدة صديقه "مايرا هندلي" - في منتصف الستينيات (William 1967).
- ١٢- Rees 2005, P.8 .
- ١٣- سوف أركز في هذا الكتاب على القسوة "النشطة"، مع أن القسوة الناشئة عن الإهمال وعدم مراعاة المسؤولية يمكن أن تعتبر في هذا الإطار أيضاً.
- ١٤- انظر (Beck 1999)، (Staub 2003)، (Waller 2002) وأيضاً (Gregory stanton 1998). وعن الأفكار المرتبطة بالقبائل (Glover 2001) . وانظر أيضاً الفصل الثاني، ملاحظة رقم ٢٣.

- ١٥- ويبدو أن فكرة الإقصاء ظهرت مبكراً في حياة البشر  
(Kinzler et al., 2007).
- ١٦- الأفعال والعواطف ليست نتاج المخ فقط أو العقول التي من  
مهامها التفكير، والعكس هو الأرجح، فالفكر نتاج ثانى لهذا النظام أكثر  
من كونه السبب الأساسى لوجوده . انظر  
(Maxwell and Davidson, 2007) .
- ١٧- Mackay (ed. 1973)، ص ١٠
- ١٨- انظر (Sharot et al., (2007)، Taylor and Gollwitzer (1995)،  
وأيضاً (Malle (2006).
- ١٩- Valdesolo and DeSteno (2007).
- ٢٠- فى علم النفس هناك المعارضة المألوفة بين الحتمية والظروف. والرأى  
القائل إن كل إنسان له جوهره الخاص الذى يحدد ماهيته وشخصيته  
عارضه علماء ودراسات علم النفس الاجتماعى الذين يرون أن كثيراً  
من سلوكنا يتأثر بما يحدث حولنا (وقد لا نلاحظ معظمه). وفى الواقع  
يتخذ كثير من الباحثين موقفاً وسطاً بين الرأيين؛ يكون فيه الأفراد  
(أو الجماعات) لديهم استعداد مسبق لأن يتصرفوا بأسلوب معين، مثلاً  
بسبب اختلاف الجينات أو القيم الأخلاقية، دون أن يكونا ثابتين ولا  
يقبلان التغيير.
- ٢١- البعدان الزمنى والجغرافى يمكن أن يجعلا الناس عرضة للوقوع فى  
فخ الجوهر (انظر Nussbaum et al., 2003، وأيضاً Bandura 2002).
- ٢٢- Browning (1991).
- ٢٣- هناك عدة كتب عن المذابح الجماعية فى رواندا وقد أشرت إلى  
(Gourevitch (2000)، Dallaire (2004)، Hatzfeld (trans. 2005) .  
وكان مصدرى الأساسى للمعلومات عن الفوضى بعد انفصال

يوغوسلافيا هو (1998 ، 1996) Noel Malcolm . انظر أيضا الفصل التاسع عن "سريبرينكا".

٢٤- Euripides (trans. 1963) ، Aeschylus (trans. 1999)

٢٥- Klee et al. (1991) ، 42

٢٦- Keleman (2003)

٢٧- بعض هذه الحكايات حقيقي، مثل الشائعات التي انطلقت من

المعسكرات النازية لقتل الأطفال بعد انتزاعهم من الأميات، وسرقة

الأسنان الذهبية من الجثث واستخدام أجسادهم في صناعة الصابون،

ولم يصدق أحد هذه الشائعات على نطاق واسع وما زال بعض الناس

لا يصدقونها إلى اليوم. وقد تخدم هذه الحكايات أغراضا أخرى كما

أنها تنقل معلومات (Mertus 1999) .

٢٨- Frankfurter (2006) ، ص ٦-١٢.

٢٩- المرجع نفسه ص ١١.

٣٠- Fein (1990)

٣١- Semelin (tc. 2007)

٣٢- "علم متداخل" (مع غيره) هذا أحد الاصطلاحات الشائعة عند

الأكاديميين، ولا يلزم القول "غير مميز". فهذا الكتاب مثلاً يستثنى عددا

من التخصصات وقد يذكرها فقط: من التحليل النفسي إلى نظرية الفكر

وإلى النقد الأدبي، والتي ربما تلزم لموضوع الكتاب. وكمثال للبحث

في عدة علوم متداخلة خصوصا عن فظائع الحرب، انظر Kassimeris .

٣٣- التصوير الوظيفي بالرنين المغنطيسي (fMRI) يقيس التغييرات في انسياب الدم بالمخ؛ بينما الشخص يقوم بعمل أو مهمة ما، أو حتى في أثناء الراحة؛ والتغييرات ضئيلة جدا (نسبة مئوية قليلة) وعملية التحليل الإحصائي اللازمة لهذه المعلومات عملية صعبة وواسعة .

٣٤- إذا تحيرت من عدم الثقة في ذلك؛ فربما يخدعك كثرة المعلقين الذين يتحدثون عن العلم كما لو كان كتلة من المعضلات والبراعة الفائقة، أو فلنقل "ميكانيكا الكم". هذا ليس صحيحا. فعلم دراسة الجهاز العصبي أعقد من علم "الفيزياء" الحديث لسببين، أولاً: إن الموضوعات التي يدرسها معقدة كثيراً عن "الفيزياء" في تعقيداتها الرياضية ونظرياتها، وثانياً: إن علماء الفيزياء لم يتقدموا لزم من طويل وربما يمتد بحثهم للإغريق القدامى، (عندما ظن بعضهم أن المخ عضو مشع للإغريق القدامى، (Aristotle, trans, 1937, Parts of Animals II. VII), لكن علم الجهاز العصبي بدأ فعلاً في التطور كعلم بعد الملاحظات عن المخ بكثير (بفترة طويلة)، وما زال يبحث في نواح كثيرة وغزيرة ولم يستقر بعد.

٣٥- Tilly (2003) .

٣٦- البحث العلمي المنبثق من علم دراسة الأعصاب عن العاطفة والسلوكيات والبحوث التطبيقية (السريرية)؛ قاربت على حزمة بعض من الاستنتاجات عن "أساس السلوك العدوانى أو العنيف الذى قد تعضده البيئة النفسية" (Bufkin and Luttrell, 2005, 187) .

٣٧- أعراض المرض النفسى وصفت في Hare (1999) .

٣٨- البحوث العلمية عن العدوان والاضطرابات السلوكية والأمراض النفسية كثيرة، وهذه إشارة إلى بعضها: Anderson et al. (1997), Dadds et al.

(2006), Frick and Dickens (2006), Kramer et al, (2007), Krueger et al., (2007), Lindsay and Anderson (2000)

٣٩- طورت دراسات العدوان ما جاء عن "نموذج العدوان العاطفي العام"، (Anderson et al 1995) والذي دعمه (Kramer et al. 2007). ولن أناقش هذا النموذج بالتفصيل؛ لأن هذا الكتاب عن القسوة وليس العدوان. وسوف أركز بدلاً عن ذلك على ما كتب عن السلوك العدواني والتقرز (انظر الفصل الخامس)؛ ومع ذلك فشبكة المخ المختصة بردود الفعل الفكرية والتأملية تجاه التقرز تتداخل كثيراً مع ردود الفعل العدوانية، وكثيراً مما قلته عن التقرز ينطبق على ما يحدث في ردود الفعل تجاه تهديدات الغضب في الفصل الثالث.

## الفصل الأول ما القسوة؟

- ١- Klee et al., (1991) . 31-32
- ٢- بالمقارنة يقدم قاموس أكسفورد للإنجليزية تتبعاً لمعنى كلمتى "عدوان" و"هجوم" حتى القرن السابع عشر، وكلمة "بربرى" حتى القرن السادس عشر، وكلمة "عنف" حتى القرن الثالث عشر. وكانت المرة الأولى تُسجل فيها كلمة "السادية" فى عام ١٨١٨، أى قبل أبحاث علاج الانحرافات الجنسية فى عيادات خاصة بواسطة "Richardron krafft-Ebing" بنحو ٦٨ عاماً، وقد نُشرت هذه الأبحاث فى جريدته "Psychopathia Sexuatis" عام ١٨٨٦، أى بعد وفاة "دى ساد" بأربعة أعوام فقط . (Krafft-Ebing trans. 1905)
- ٣- Champlin (2003)، DeBoer and Maddow (2002) . ويناقش "ساملبين" وصف "تاكيتس" Tacitus عن استخدام المسيحيين كشعلة للإضاءة بعد إشعال النار بهم (pp. 121-2) .
- ٤- الإلياذة (II 63-70) ترجمة Robert Fagles - انظر Bernard Knox "المقدمة" ص: ٥ لمزيد من المعلومات.
- ٥- المقارنة المفيدة فى تحليل "Claudia Card" عن مفهوم الشر، وأنا أدين لهذا المصدر بالكثير (Card 2002).
- ٦- هناك دليل على أنه خلال الحرب شجع الألمان بعد مشاهد العداء للسامية. (انظر الفصل الثانى - ملاحظة رقم ٣٥)، وكان التأثير كله

موجهيا ضد اليهود، وبأن الجماهير المحلية قد اتخذت خطوات من نفسها كرد فعل ضد عقود من الاضطهاد لليهود والرعب الذي مارسه الشيوعيون. (Klee et al., 1991, 24). وجُند لذلك بعض الليتوانيين بحافز أن تعاونهم قد يُكسبهم مراكز في الحكومة بالمستقبل. ولا حاجة للقول بأن تقديم الحوافز مقابل سلوك معين يختلف عن الإكراه بالقوة على هذا السلوك.

٧- يمكن متابعة فكرة "القسوة كعقوبة بالغة" إلى الكاتب الروماني "سينيكا" في مقاله "De Clementia" والذي يناقش فيه "الرحمة لدى أصحاب السلطة - وجودها وغيابها" (Seneca - trans. 2007). (Barrozo, 2008).

٨- "قوانين الحرب" والذي يرجع إلى التقاليد المسيحية "للحرب العادلة" التي نصت عليها معاهدات "هيج" (Hague Treaties, (1899 and 1907) وفي مؤتمرات جنيف عام ١٨٦٤، ١٩٢٩. انظر (Sorabji and Rodin لمعرفة هذه المناقشة لأخلاقيات الحروب وانظر (2006). (Haward et al., (1994) لمعرفة التناول التاريخي لها.

٩- لاحظ أن مسألة التبرير واستحقاق المثوبة ليسا الشيء نفسه. فالنتبرير يخص المجرم والمثوبة تخص الضحية. فمن يرتكب اللواط، مثلا، في بلد يعاقب هذا الفعل بالموت، لن يكون القتل في هذه الحالة فورا. فلا بد أن يُحاكم (وقد يكون شهود العيان كذابين). ولك أن تتخيل "سيناريوهات" أخرى "عويصة" ومبيمة. فقد يتهم المجرم ضحيته زورا ليبرر فعلته ومعاناة الضحية. دون أن يعلم أنه بالفعل ارتكب جريمة أخرى يستحق العقاب عليها بالعقوبة نفسها، وفي هذه الحالة لن يستطيع

المجرم الادعاء بأن فعله له ما يبرره، لكن الضحية، رغم ذلك، قد تستحق المعاناة التي وقعت لها.

١٠- انظر أيضا مناقشة تعريف "القسوة" في قاموس أكسفورد للإنجليزية في كتاب Kekes (1996)، فهذا المصدر يصحح التعريف بأن يؤكد أن الضرر "يجب أن يقع بطريقة تُعرض للخطر قدرة الضحية على الفعل كإنسان ناضج (ص ٨٣٧)، لكنه لا يوضح كيف نقيم ذلك ولماذا يفضل هذا المعيار في التعريف. ولرأيه عدة مشكلات، إذ كيف ينطبق ذلك على القسوة تجاه الأطفال أو المعاقين ذهنياً وهما ليسا في حكم "الإنسان الناضج"؟ إنني أعتمد فكرة القسوة باعتبارها شيئاً يحدث كل يوم في الحياة الواقعية وليس اعتماداً على مفاهيم فلسفية، وفي لغة الحياة اليومية نطلق كلمة قسوة على أنواع ثانوية وغير خطيرة من القسوة. وبما أن فكرة "تعريض القدرة على الفعل للخطر" قد تختلف في الأطراف الثلاثة (المجرم، الضحية والفريق الثالث - أي المشاهد أو من يحكم)، فإنني سوف أترك مسألة تعريف القسوة الخطيرة جانباً، لأنها تثير إشكاليات أكثر من الحلول التي يمكن أن تقدمها.

١١- للمناقشة وكمثال على الأداء العصبى بخصوص الفرق بين "الألم" و"المعاناة"، انظر Damasio (1996), 262-6 .

١٢- هناك نوع معين من الجينات يحدث تحوله الوراثى غطلاً في ملاحظة الألم وقد تم التعرف عليه (Cox et al., 2006, Goldberg et al., 2007)، ويبدو أن هؤلاء الأفراد يستطيعون التعاطف والمشاركة الوجدانية إلى حد ما (Danziger et al., 2006).

١٣- انظر Alicke (2000) . Borg et al., (2006) .

١٤- أجرى Marianne Simmel, 1944 Fritz Heider تجربة على ما يدركه من عناصر فعل القسوة. وقد استخدموا فيديو بثلاثة أشكال هندسية متحركة (دائرة ومثلثان)، ووجدوا أن المشاركين فسروا الحركة على أنها أفعال مقصودة. ولكي ترى نسخة أحدث من التجربة (البحث) انظر Heberlein and Adolphs (2004). وانظر أيضا Gergely et al., (1995), Gauthier et al., (2000), Dennett (1989), Ulloa and Pineda (2007) وأيضاً Epley et al., (2007).

١٥- (2007) Krumhuber et al., (2008) Simion et al., والشعور بالأداة والفاعل يمكن أن يؤثر في حواسنا حتى إن كان الإدراك الواعي (الوعى) غير موجود. (Maruya et al., 2007). وقد وجدت بحوث فيما بعد أن انحياز الإنسان عند الاستدلال على الأشياء ليس بباعث من الخبرة، وقد يكون بفعل التطور الطبيعي وليس التعلم (New et al., 2007).

١٦- لمعرفة المزيد عن التفكير السببي (للبحث عن العلة والسبب) فى أنواع أخرى من الكائنات انظر Hauser (2006), Dennett (1989).

١٧- كمثال على عدم قدرة المجرم على تفسير سلوكه ما جاء فى اعتراف طبيب بيطرى يابانى فى الحرب قال إنه قتل أكثر من مئتى شخص. وقال: "لا توجد كلمات تفسر ما فعلته، لقد كنت شيطاناً بالفعل" (Chang 1998, 59). وهذا قليل مما حدث فى حروب اليابان فى آسيا والصين، انظر (McArthur 2006). وربما كانت أكبر الفظائع ما ارتكب فى "Nanking" (الآن تعرف فى الغرب باسم Nanjing) والتي قتل فيها أكثر من ٣٥٠ ألف إنسان فى سبعة أسابيع مروعة. والأرقام مصدرها سلطات التحقيق فى جرائم الحرب: " المحكمة العسكرية الدولية للشرق الأقصى".

١٨ - Nell (2006) التمييز بين الدوافع والأسباب التي تُحدث الفعل وعدم التطابق بين العوامل التي تؤثر فينا وبين إدراكنا لها يُسهّم في تعقيدات الأحكام الأخلاقية.

١٩ - المنهج الفلسفي في تعريف المصطلحات مفيد جداً؛ لأنه يوضح المفاهيم الباطنة، لكنه قد يُظهر اتجاهين يثيران المشكلات، الأول: يفضل التعريف الفني على المفهوم اليومي ويقول للناس العاديين إن مفهومهم استولى عليه المتخصصون، والثاني: يقدم التعريف كما لو كانت له حدود أنيقة يمكن اكتشافها لأنها واضحة ومطلقة (أو ليست لها علاقة بمن يوضحها). ويبدو أن الاتجاهين يتبعان رؤية راسية للغة ووظيفة المخ. وفي الواقع فإن معظم التعريفات غامضة ومضللة، وكذا فهنا لعبارة "علم دراسة الجهاز العصبي" باعتبار ما تؤكد أنه قابل للاحتمالات. وفيما يخص القسوة فنحن نسعى لفهم كيف نفكر عموماً في هذا المصطلح - والذي قد لا تستقيم معانيه فلسفياً - بدلاً من أن نحاول "فك" أي عقد منطقية لنعطي تعريفاً محدداً لهذا المصطلح .

٢٠ - 47 .Hinton (2004)

٢١ - Majdandzic et al., (2007)

٢٢ - 109 Merz- Perez and Heide (2003)

٢٣ - انظر Darby and Jeffers (1988), Devine et al., (2001), Dumas and Teste (2006), Mckelvie and Coley (1993)

٢٤ - Greene et al., (2004). إن التقسيم العلمي لمنظومتى الأخلاق يذكر بالتصنيف الذي وضعه عديد من الفلاسفة. انظر مثلاً مناقشة توماس ناغال - (Thomas Nagel) عن مذهب الاستبداد والحكم المطلق والمذهب النفعي للتحديات الأخلاقية في أثناء الحرب (Nagel 1972).

- ٢٥- Bentham (ed. 2007).
- ٢٦- Thagard et al., (2006).
- ٢٧- Greene et al., (2004).
- ٢٨- Galliot et al. (2007).
- ٢٩- Thagard et al., (2006).
- ٣٠- Vaish et al., (2008).
- ٣١- "دى ساد" و" نيتشه" مثلا شجبا القوانين الأخلاقية السائدة فى عصرهما. وكما قال "نيتشه": "إنها نوع من الطغيان" ( Nietzsche, Trans. 1937, ) P.92 كما يعتبر هذا الطغيان كما يرى "أن كل ما يعلو بقدر الإنسان فوق القطيع هو شر" ( P. 105 ).
- ٣٢- Hauser (2006).
- ٣٣- Hauser (2006), de Waal (1996 a,b).
- ٣٤- "تشومسكى" (1975) Chomsky, (2006) Hauser، وانظر
- ٣٥- Dupoux and Jacob (2007).
- ٣٥- وليس غير معروف للناس أن "غيرة الذكور شىء طبيعى (ولها أصول تطورية)، بينما الشعور بالخزى "تقافى" (ليس له أساس ثابت فى علم الأحياء)؛ ولذا فإن الغيرة عاطفة أصيلة ولها مصداقية وشرعية أكثر من الخزى. فهذا منطق ضعيف وخطير أيضا إذا ما استخدم للدلالة على السلوك المهلك، غالبا، لغيرة الذكور والذي يبررونه أخلاقيا.
- ٣٦- العطف ورقة الفؤاد وحسن الضيافة للغرباء من النوع الذى عززته تقاليد بلاد الإغريق قديما (عند هومر على سبيل المثال) لا يتعارض مع الحذر والاحتراس، والمبدأ هو "هذه بتلك". والعطف على الغريب الذى يمثل

تهديدا قد يفتح فرصا للتفاعل المفيد والمتبادل بين الجماعات، مثل التجارة، وما دام لا يمثل الغريب عداء ما فالتلطف معه استراتيجية فاعلة. وإذا كان رد فعله العداوة؛ فيعتبر هذا خداعا وخيانة اجتماعية لا بد أن تعاقب بشدة. وبالمثل كان قتل الغريب الذي يقبل الضيافة يُعتبر جريمة فظيعة في التقاليد الإغريقية (Frankfurter 2006, 77).

٣٧- أوضح الفيلسوف "بيتر سنجر" Peter Singer، مثلاً، أن الناس قد يتفقون على أن بعض المشكلات الأخلاقية، مثل: وجود الفقر المدقع جنباً إلى جنب مع الغنى الفاحش، يجب أن تعالج كنوع من الالتزام الأخلاقي. ويرفض نفس الناس التنازل عن أي شيء مما يزيد من ثرواتهم للتخفيف من الفقر بمجتمعهم (Singer 1971).

٣٨- Keeley (1996).

٣٩- Coates (1997)، وفيه يناقش نظرية الحرب العادلة مع معيار النسبية.

٤٠- للاطلاع على مناقشة حديثة للديمقراطية في "أثينا"، انظر Raaflaub et al., (2007) خصوصاً، ص: ١١-١٢.

٤١- انتقد كثير من المعلقين اليساريين المحنكين، من أمثال "ناعوم تشومسكي" Noam Chomsky، المرتبطين بمؤسسات عالمية مثل "Amnesty"، سياسة الحكومة الأمريكية في التعامل مع المسجونين الذين ألقى القبض عليهم كجزء من "الحرب على الإرهاب" خصوصاً نزلاء سجن أبو غريب بالعراق وسجن خليج جوانتانامو في كوبا.

## الفصل الثانى

### من الذى يقرر؟

- ١- انظر (Sampson 1993) .
- ٢- تجربة سجن "ستانفورد" كما ذكرها "Philip Zimbardo" فى كتابه عن هذه التجربة (Zimbardo 2007, 235) كانت تجربة مهمة فى تغيير الجو الأخلاقى للبحث فى مجال علم النفس. وقد صرح "زيمباردو" بأن التجارب فى علم الأخلاق تم تقييمها من قبل "الاتحاد الأمريكى لعلم النفس" فى عام ١٩٧٣. ومنذ ذلك الحين تغير الكثير، ولا يتم قبول مثل هذه التجربة الآن.
- ٣- (Baumeister 2001) . هذا مثال محدد عن تأثير "راشومون" حسب اسم فيلم Akira Kurosawa الذى يحكى القصة نفسها من وجهة نظر أكثر من مشارك. والفيلم عن قصة قصيرة عنوانها "فى بستان الخيزران" كتبها Ryunosuke Akutagawa – (Akutagawa trans. 2007).
- ٤- انظر (Cocioppo and Hawkley, Boden – Albara et al., 2005) (2003)
- ٥- الكتابات المعاصرة عن موضوع "لماذا جعلتنا الرأسمالية الاستهلاكية أثرياء ولم تجعلنا سعداء" منها (de Graaf et al., 2001) ، (James 2007) ، (Offer 2006).
- ٦- جاء فى كتاب Louis P. Lochner ماذا عن ألمانيا (١٩٤٣) نص لحدث هتلر فى أغسطس ١٩٣٩ للجمهور، بما فيه السؤال الشهير أن اعتبار

القتل الجماعي للأرمن في عام ١٩١٥ حرب إبادة مسألة جدلية ومثيرة للجدال والخلاف بشدة، خصوصا في تركيا. وربما كان الأتراك مثل هتلر قد اقتنوا بجنكيز خان (Dadrian 1995، ص: ٣-٤-٩). وكلمة "تغيير" في حديث هتلر تحمل معنى التحويل إلى "لا وجود" أى الإقناء. وقد استخدم النازي هذه الكلمة لوصف الهولوكوست. وقد استخدم الألمان المصطلح نفسه في مذابحهم لقبائل "الهرارى" فى إفريقيا والتي خفضت عددهم من ٨٠٠٠٠ إلى ٢٠٠٠٠ (Bridgman and Worley 2004). وهل هذا المصطلح يطابق كلمة "إبادة جماعية"، إنه من الصعب إثبات ذلك فى المحكمة. لأن المجرمين يحرصون غالبا على تحاشي إصدار أوامر مكتوبة (محررة) قد تستخدم ضدهم. وحتى فى وقائع مثل ما حدث فى رواندا والهولوكوست لم يقدم للعدالة سوى قليل جدا (وبعض القادة الأتراك حوكموا وأعدموا بعد الحرب العالمية الأولى).

٧- فى الأبحاث العلمية التى استخدم فيها التوأم كان للإحساس بالعدل مؤثرات جينية بدرجة كبيرة، وأخرى بينية بدرجة ضئيلة (Wallace et al., 2007).

٨- Nagel (1972).

٩- انظر (Browning (1991)، (Milgram (1997)، (Newman and Erber (2002)

١٠- Goldhagen (1997).

١١- هناك عبارات ليس لها معنى مثل: "فظائع شائعة بالقطيع" أو "ضوء الشمس المظلم" وكلها لا تفيد بأى معلومة عن قدرة الإنسان على التحرر من الالتزام الأخلاقى .

١٢- Baumeister (2001).

- ١٣- جاء في هذا الدفاع أن المعلقين ظنوا أن محامي المتهم ادعى (وهو ما لم يحدث بالفعل) أن استهلاك المدعى للغذاء الرديء أثر في عقله ولذا قلل من مسؤوليته عن سلوكه. والادعاء الحقيقي هو أن المتهم كان يعاني من الاكتئاب الذي قلل من مسؤوليته، وهذا الغذاء السيئ كان دليلاً على مرضه بالاكتئاب (وكان غذاؤه قبل ذلك سليماً) انظر Mikkelson and Mikkelsm (2007).
- ١٤- Shakespeare (ed. 1997).
- ١٥- Melson (1992).
- ١٦- يوجد الكثير عن هذا الموضوع في كتاب Jacques Semelin ، Purify and Destroy (Semelin, trans. 2007).
- ١٧- Rees (2005) P. 139.
- ١٨- الاقتباس التركي من كتاب Morgenthau (ed. 2000) . وهو "هنري مورجنثو" سفير أمريكا في تركيا عام ١٩١٥. وهو الذي أثار الانتباه إلى مذابح الأرمن عندما بدأت، والذي مات فيها أكثر من مليون (Dadrian 1995) وقد رفض الأتراك كتاب "مورجنثو" مثل كثير من الكتابات عن هذا الموضوع باعتباره دعاية. والاقتباس الثاني من كتاب Danner (2005), 75 ويشير إلى المذابح في قرية "موزوت" في السلفادور، وقد قيل إنها جاءت رداً على حرب العصابات، ولذا تم تدمير القرى التي تدعمها. وقد قتل الفلاحون، بصرف النظر عن الجنس والسن والحالة الصحية، بمعرفة جيش السلفادور بقيادة Domingo Monterrosa. وتم التعرف على ٥٠٠ من القتلى، ولم يُتَعرف على الكثير.

- ١٩- .Abelson et al., (1998)
- ٢٠- في نظام الخمير الحمر كان أشهر سجن هو "تول سلنج" Tuol Sleng وقتل فيه نحو مليوني من الكمبوديين (وعددهم نحو ٧ ملايين) خلال السبعينيات ولمعلومات أكبر انظر Hinton (2004)، وأيضاً .Rummel (1994) table 1.2.
- ٢١- تشمل الأمثلة تحيز البشر والنظرة المشوشة للأسباب (White 2006) وتقييم الأدلة مقابل المعتقدات المسبقة (Birch and Bloom, 2007)، (Woodward et al., 2007)، (Bernstein et al., 2007) والتحيز بسبب التعرف على أعضاء من نفس العشيرة أو الأعراق يبدو أنه يتطور في العام الأول من حياة الإنسان (D.J.Kelly et al., 2007) .
- ٢٢- . Conoroy (2001)
- ٢٣- فكرة النظر إلى بعض على أنهم دون مستوى البشر (Castano and Giner- Sorolla 2006) ، (Cortes et al., 2005)، وهي في هذين البحثين تذكر أن الناس تميل إلى أن ترى من هم خارج العشيرة (الزمرة أو الجماعة) دون مستوى البشر عنهم داخل الجماعة. وهم يُكونون عواطف مثل الإعجاب بأنفسهم وبأعضاء عشيرتهم أكثر من الأعضاء من خارجها. وهناك بحث آخر يقترح أن تقسيم الناس على هذا النحو (طبقتين من البشر) قد ينعكس على مستوى وظائف المخ . انظر (Harris and Eiske (2006)
- ٢٤- قد تتأثر الرؤية الأخلاقية بنيل على الإيذاء البدني . (Hecker et al., 2005)
- ٢٥- . Sade (trans. 1991), 603

٢٦- المرجع نفسه.

٢٧- Frith and Frith (2006), Frith (2007) .

٢٨- كل هذه الاقتباسات من نص غير منشور من تسجيلات Himmler

للحديث (الخطاب) (Himmler 2007) فى موقع

<http://www.holocaust.history.org/himmler-poznan/speech-text.shtml> .

٢٩- Klee et al., (1991) 163-71 .

٣٠- الاقتباس من المرجع السابق نفسه 205، 174-5، 4-5، pp.xix.

٣١- Lochner (1943), 11-12 .

٣٢- الاقتباس من Klee et al., (1991), 163,43 . والجدال حول أخلاقية

الأيدولوجيات النازية، وأنها كانت ليا اعتبارات أخلاقية معينة، لا يعنى إذا ما كان سلوكهم غير أخلاقى بمعاييرنا أو معاييرهم.

٣٣- للمزيد عن دور التنزز فى علم نفس الأخلاق انظر (Haidt (2007)،

Haidt et al., (1997) أو Miller (1997).

٣٤- انظر (Gu and Han (2007).

٣٥- هذه الفرقة من الجيش الألمانى نخبة مختارة مرجع اتصالها مع هتلر

(عن طريق "هملر" Himmler ونائبه "رينهارد هايدرخ" Reinhard

Haydrich) بدلاً من الخضوع للقانون. وبعد دخول الجيش الألمانى

أوروبا الشرقية كانت مهمتها تحويل الأراضى المهزومة وتجهيزها

لحكم الإدارة الألمانية. وحتى يتحقق ذلك كانت هذه الفرقة تصادر

الأسلحة وتجمع الوثائق التى تدينها. وكانت تتعقب وتعتقل من تعتبرهم

ممن لا يعتم عليهم- وتقتل بصورة منظمة السياسيين والقيادات الدينية

والتعليمية والثقافية (Rhodes 2003, 4). ولا يلزم القول إنهم استهدفوا

اليهود أيضاً.

## الفصل الثالث

### لماذا توجد القسوة؟

١- انظر (Hobbes (ed. 1996)، Rousseau (trans. 1973). وأنكر Hobbes هذه الوحشية لأنها غير عادلة ولأنه لا يرى أن البشر ليسوا أشراراً بالفطرة. وهو يرى أننا نريد السلام مادام لا يتعارض مع مصالحنا، لكن لو نشأت صراعات تهدد كياننا فيجب حلها بالقوة والعنف. والتفريق هنا بين الرغبة في الإيذاء والتي هي غريزية مثل الرغبة في الأكل (وهذا ما يراه "دى ساد") والإيذاء كإستراتيجية في مواقف معينة. والجدال حول ما إذا كان السلوك الشرير "اجتماعياً" أو "غريزياً" سيظل قائماً، وربما تعتبر اختيارات هذه الأراء جزءاً من شخصيتهم، أو على الأقل توقعاتهم الخطأ بخصوص "طبيعة" الآخرين - أى أن المتقائلين هم من كانوا من أتباع رأى "روسو" والمتشائمون هم من كان رأيهم مثل "هوبز".

٢- Attenborough et al., (2001)

٣- science.net/exclusives/050209wafrm.htm. eg.http://www.world-

٤- De waal (1996 a.b)

٥- Elliott (1996) يناقش أهمية تقييم المسؤولية الأخلاقية حالة بحالة مع إشارة خاصة إلى حالة الاضطراب العقلى.

٦- دراسة وتجربة قام بها "Milgram" عام ١٩٦٣. وقد أمر المشاركين بأن يعطوا ما اعتقد أنه صدمة كهربية خطيرة ومميتة للناس، ولدهشتهم فإن نحو ثلثين من المتطوعين للتجربة أطاعوا ولو بشيء من التردد. وقد تنبأ

الخبراء الذين استشارهم قبل التجارب باستجابة في حدود ٤% (Milgram 1997). وقد تكررت التجربة.

٧- انظر الفصل الثانی وأیضا (2007) Zimbardo .

٨- Pineus (2001).

٩- انظر (1989) Dennett . والمصطلح الخاص بعلم النفس "نظرية الفكر"

يشير إلى القدرة الفائقة للإنسان على أن يخلق شروحا وتفسيرات لسلوكنا ولكل سلوك إنساني، وللإطار الفكري للمعتقدات والرغبات والنوايا... إلخ التي تستخدم لتفسير النشاط الإنساني. ويستخدم هذا المصطلح على نطاق واسع في علم دراسة الجهاز العصبي ونظرية المعرفة، خصوصا من العلماء الذين يبحثون في هذا التخصص. وهناك مصطلح بديل هو "علم النفس الشعبي" وهو يدل على أن عامة الناس غير قادرين على التفكير السليم، ولذا يلزم أن يتغلب على ذلك الصفوة من الأكاديميين ويعلموهم كيف يفكرون بطريقة أفضل، وبالوقت سوف تنتهي الحاجة إلى "علم النفس الشعبي" (Churchland 1989).

١٠- في الواقع هذه التقسيمات ليست فاصلة. والخلفيات قوية لدرجة أن الاستغناء عن اللغة غير العلمية في التفسير ممكن، بصرف النظر عن محاولات تنظيم السلوك البشري وهي صعبة أو غير ممكنة. وتهاجم خلايا "I" البروتين وتبحث الذرات عن حالة مستقرة كهربيا. وحتى الوصف للانتخاب الطبيعي وفق نظرية داروين وصف نمطي لعملية لا هدف أو غرض لها، تضع "تصميماتها" وتختار نتائجها المختلفة. وليس الغرض هو "شخصنة" وتجسيد التطور، لكن وصفه يمثل تحديا كبيرا ويبرهن على إصرارنا على تحديد "الفاعل".

- ١١ - Foster and Young (2001) ، D.J.Kelly et al., (2007) .
- ١٢ - Waller (2002) .
- ١٣ - Nell ، Luo et al., (2007) ، Le dous (1998) ، Butler et al., (2007) .  
(2006) .
- ١٤ - لا نناقش الدهشة هنا أو المفاجأة بسبب ضيق المساحة. ويمكن القول إنها "آلية تحذير". ورد فعل غريزي يساعد الكائنات في التعرف على التهديدات بسرعة، وأى رد فعل واستجابة للتهديد لا بد أن يتراوح بين المهارة والسرعة (Ohman et al., 2007) ، (muris et al., 2008) .
- ١٥ - Dickenson and Kemeny (2004) .
- ١٦ - المرجع نفسه.
- ١٧ - Galliot et al., (2007) .
- ١٨ - لدراسة دور الغضب في التحيز ضد من هم خارج الجماعة انظر De Steno et al., (2004) .
- ١٩ - سوف تصمم أجهزة الكمبيوتر يوماً ما على أن ترد على القسم أو الهجاء وعندئذ سنحقق أليات شكسبير في صورة حديثة.
- ٢٠ - انظر (Maner et al., (2005) ، Van Honk and Schutter (2007) .
- ٢١ - Couppis and Kennedy (2008) . وقد يكون مصدر التهديد قويا بدنيا ويمكن التحكم فيه (مثل: منافس بالمجتمع، مثير للغضب) أو قد يكون بلا قوة لكنه لا يمكن التحكم فيه (مثل صرصار سريع الحركة يثير القرف) . انظر (Fischer and Roseman (2007) .
- ٢٢ - Haidt et al., ، Fessler and Haley (2006) ، Curtiss et al., (2004) .  
(1994) ، Miller (2004) . وانظر أيضا (Kolnai (ed. 2004) .

- ٢٣- للمعالجة الكلاسيكية لهذا الموضوع انظر (Douglas 2002) وأيضا  
 . Parker (1983), Miller (1997)
- ٢٤- . Park et al., (2003) , Faulkner et al., (2004)
- ٢٥- . Rozin et al., (1986)
- ٢٦- تقضيل من ينتمون للجماعة والذي يسمى أيضا "التركيز العرقي" هو  
 سمة بشرية تتبع من الحاجة إلى الانتماء الأمن لجماعة محددة  
 13-15 Sumner (1907) وأيضا Brewer (2007) ولا حاجة لأن تُعرف  
 الجماعة تعريفاً إثنياً (عرقياً) (Tajfel et al., 1971).
- ٢٧- Dreber et al., (Hauert et al., (2007) ، Fehr and Gächter (2002)  
 . (1971)
- ٢٨- . Dunbar (1997)
- ٢٩- الأثرية بأنواعها تتحدى أي إطار نظري كنوع من اللامبالاة بشعارات  
 مثل: "البقاء للأصلح" و"الجين الأناني". وقد دافع مفكرون كثيرون في  
 أمريكا وأوروبا عن هذا الرأي في القرن التاسع عشر وأوائل القرن  
 العشرين (Black 2004). وقد أزعجت بعض أفكار الصقوة العامة من  
 الناس في الغرب (مثل: حقوق العمال وحقوق المرأة كمطلب سياسي).  
 وفي البلدان المستعمرة كانت أفكار التفوق العنصري تبرر الإبادة  
 الجماعية، وكما أظهر من مارسوا هذه الفظائع عطفاً على أقربائهم في  
 الوطن، وهذا التناقض في السلوك وهذا العطف شيء غير عقلاني في  
 منطق "داروين" للتطور (Hamilton 1964). وقد ثبتت تنبؤات "هاملتن"  
 فيما يخص الأثرية ورعاية الأقارب، وهي موضوعات جيدة للبحث في

- Fehr and .Dugatkin 2006 ( انظر
- . Rockenbach 2004)
- ٣٠- . Dennett (1995) في اقتباس من P. 67 . Dennett 2006.
- ٣١- انظر (2002) Fehr and Gächter ، (2007) Johnston and Bahary .
- ٣٢- .Gherman et al., (2007) ، Ambrose (1998)
- ٣٣- انظر . Schaltz et al., (1997)
- ٣٤- يقول أعضاء هيئة التدريس "الأكاديميون" الذين يناضلون ليحصلوا على عقود عمل دائمة: إن الحصول عليها أثر في زملائهم الأكبر سناً (كبار السن) يوازى الأثر الذي تتركه الصخرة على سمكة "الأخطبوط". وهذه فكرة جذابة ولكن بلا دليل. انظر Wolfe et al., (1996), Holley (1977) .
- ٣٥- . Wolpert et al., (1998), Holy (2007), Bar (2007)
- ٣٦- والقدرة على التوقع، مثلاً، عن سلوك الآخرين توجد لدى الإنسان منذ الطفولة، حتى قبل القدرة على الكلام (انظر Surian et al., 2007) .
- ٣٧- . Kolnai (ed. 2006) p.61
- ٣٨- لمعرفة المزيد عن الأساس البيولوجي للسيطرة انظر . Linser and Goschke (2007), Declerck at al., (2006)
- ٣٩- . Kverage et al., (2007) ، Deaton (1997)
- ٤٠- إن إشارة الخطأ التي تنشأ عن الصراع بسبب اختلاف التوقعات عن الواقع؛ قد ترتبط بالظاهرة المعروفة في علم النفس باسم "التنافر المعرفي" والتي وصفها "ليون فستنجر" (Cooper Leon Festinger (1957, Festinger 2007) . وإن صح ذلك فستكون الفائدة للبحوث في

إدارة الصراع المعرفى وفى دراسات نظرية المعرفة فى أبحاث علم دراسة الجهاز العصبى. ولمعرفة المزيد عن دور القشرة الحزامية فى إدارة الصراع انظر (Botvinick et al (2004) ، Braver et al., (2001) . May (2007)

٤١- Foti ، Elliott and Devine (1994) ، Croyle and cooper (1983)

(2008) والشىء نفسه قد يكون فى (Egan et al., 2007) .

٤٢- ومثل هذه الحكايات عن الأعضاء داخل الجامعة وأدوارهم المثالية شائعة فى العلوم كما هى فى جماعات أخرى. ويحكى "ريتشارد دكنز" Richard Dawkins فى كتابه هذا (Dawkins 2006) وفى كتابات أخرى طرفة مماثلة .

٤٣- والأفعال التى ترمى إلى إنجاز الحاجة إلى التحكم لا يلزم أن توجه ضد المصدر الذى يهدد الإحساس بهذا التحدى انظر (Stets (1995) .

٤٤- المناطق الثلاث المهددة والعواطف الأولية المرتبطة بالاستجابة للتهديد هى: الوجود (الخوف)، القوة والمكانة (الغضب)، والهوية (الاشمزاز)، وهى تشبه الموضوعات الثلاثة: الهوية، الأمان، الطهارة (النقاء) التى وصفها "جاك سملن" Jacques Semelin (Semelin, trans.2007).

٤٥- هذا الاقتباس من عالم الاجتماع "ويليام جراهام سمنر" (Sumner, 1907,2) ، William Graham Sumner .

## الفصل الرابع

### كيف نصل إلى مرحلة الفعل؟

- ١- لمعرفة الوصف المستفيض لتصرفات الخلايا العصبية انظر  
· Byrne and Roberts (2005)
- ٢- Jones et al., (2007)
- ٣- انظر Taylor (2004) ch.10
- ٤- انظر Sterzer et al., (2002)
- ٥- هي دراسة تقليدية في علم النفس الاجتماعي؛ لإثبات أهمية ضغوط الوقت في جعل الناس أقل أثرة (Darley and Batson (1973)
- ٦- Wu and Huberman (2002)
- ٧- الأفضلية للأفكار التي تتناسب معلومة سابقة في الذهن، وينعكس ذلك في التعزيز السريع لها في الذاكرة (Tsc et al., 2007)
- ٨- من الكتب الحديثة التي تعترف بمحدودية إدراكنا لوظيفة المخ كتاب  
· Fine (2007), Wilson (2002)
- ٩- مقال "كلاسيكي" عن عملية الرؤية في Felleman and Van Essen (1991).
- ١٠- العبارة من إنجيل متى ٢٥ : ٢٩.
- ١١- انظر Brecht and Schmitz (2008) مثلاً.

- ١٢- إننى أؤكد هنا على أعمال ثلاثة من غير علماء دراسة الجهاز العصبى وهم : الفلاسفة Peter ،Daniel Dennett ،Ludwing Wittgenstein ، Hacker .
- ١٣- Dennett (2003) .
- ١٤- فى التقييم المتأنى والمتعمق يكون المضمون أقيم مما هو فى التقييم السريع الآلى (Cunningham and Zelazo 2007). وضغوط الوقت ليست هى سبب التوتر الوحيد. وفى المواقف التى تتطلب المشكلة فيها حلاً سريعاً لن يتغير ذلك فى حالة الغموض وعدم اليقين، والحاجة الملحة إلى إنهاء المشكلة ينشأ عنها نفس الأثر الناشئ عن ضغوط الوقت، مثل: رفض الحل والاختيارات بدون روية وتفكير، والرغبة فى قيادة قوية (Pierro et al., 2002)
- ١٥- Buzsaki et al., (2007) .
- ١٦- هناك درجات من عدم التوافق فى التحكم بالحركة، وعندما تؤمر بأن تحرك رأسك للأمام وللإسار مثلاً، فسوف يسمح لك ذلك بحل أسهل مما لو كنت أمرت بأن تحركها للأمام ثم للخلف فوراً وفى الوقت نفسه.
- ١٧- Stern et al., (2007) .
- ١٨- Lee et al., (1999) .
- ١٩- Edelman (1987) .
- ٢٠- عدم القدرة على اتخاذ القرار تعطلنا، لكن كما فى قصة "الحمار الأسطورى" الذى صورهُ "أرسطو" فى كتاب On the Heavens (Aristotle, trans. 1939) II, 13, P. 237 . وكما فى الطبعة التى

ظهرت في العصور الوسطى عن "حمار الفيلسوف" قيل إنه لا يتحرك إذا وُضع في منتصف المسافة بين الطعام والشراب لأنه كان جائعاً وعطشاً بالقدر نفسه. ونظرياً فإن الحمار في هذه القصة مات لأنه لم يستطع الاختيار (وربما هذا ما جعل الأمريكيين يستعملون مصطلح "حمار غبي" في حالة مشابهة .

-٢١ . Taylor (2001) ، Sparrow and Wegner (2006)

-٢٢ . Tayler (2001) ، Friston (2005)

-٢٣ . Csikszentmihaly (2002) ، Block (1995) انظر

-٢٤ . Egner et al., (2008)

-٢٥ استعارة لفظ "تيار" الماء لتشبيه المدخلات إلى المخ يجعلنا نتخيل إمكان

وجود "مسارات للهروب" إذا زاد عدد تداعيات المعاني في الذهن قبل

حدوث "اعتراض" لها. ويمكننا إذن أن نتنبأ بأن نشاط الخلايا العصبية

يمكن أن ينحاز بصورة أسرع تجاه الأفكار الثرية بدلاً من الأقل قيمة.

وهناك دليل على ذلك (Pexman et al., 2007) .

-٢٦ .Priston (2005)

-٢٧ من أعراض هذا المرض عدم القدرة على التعرف على وجوه المؤلفين

من الناس، وقد يتقبل المريض أن من يقف أمامه يشبه زوجة أو

صديقه، إلا أنه يصر على أن هذا الشخص إنسان آلي وليس إنساناً

حقيقياً. وهذا المرض لا يستطيع فيه المريض التعرف على الوجود

(لكن لا يمكنه تمييز سمات الناس) أما مرضى "الزهايمر" فقد يفشلون

في التعرف على الوجود كجزء من الخلل التام في منظومة عمل

الجهاز العصبي.

-٢٨ . Libet et al., (1999)

- ٢٩- Chen et al., (2008) وأسباب عدم الفعل قد تأتي من داخل الشخص  
أو من مصادر خارجية (Fishbach and Trope 2005) .
- ٣٠- أجريت دراسات كثيرة عن تأثير الانتباه والذاكرة والإدراك الاجتماعي  
. انظر (Desimone (1996)، (Fahy et al., (1993)، K.J. Jones  
(2006)، (Stone and valentine (2005) .
- ٣١- (Fogassi et al., (2005)، (Haslinger et al., (2005)، (Jeaunerad and  
. Frak (1999)
- ٣٢- . Browning (1991)
- ٣٣- . Martens et al., (2007)

## الفصل الخامس

### كيف تتكون لدينا المشاعر والأحاسيس؟

- ١- Miyata (2007)، Hellinbrand and Van Hemmen (2002).
- ٢- انظر Edwards (1988)، Hornby (2001).
- ٣- إن التوتر الناشئ عن أى عمل صعب له تأثير ضار فى المرونة الذهنية. ويعتقد أن "النورأرنيالين" له دخل بهذا الضرر الناشئ (Compbell et al., 2008).
- ٤- "رينيه ديكارت" Rene Descartes وكتابه Discourse on the method (Descartes, trans, 1999), P VIII.
- ٥- الوجه الفكرى للإيجابية المنطقية الذى يحدد إذا ما كانت العبارات صادقة أم زائفة. وأهم الكتابات فى هذا الشأن من Ludwig Wittgenstein فى كتابه الرائع The Tractatus Logica-philasiphicas (Wittgenstein, trans,2001) وفى كتابات "الفريد نورث" Alfred North Whitehead و"برتراند رسل" Bertrand Russell. وهذا المصطلح يعنى تقديس وتبجيل المنطق والرياضيات والعقلانية الإيجابية، ومنها التبرير العلمى للعنصرية ولوحشية المستعمر والحكومات غير الأخلاقية.
- ٦- من كتابات Wittgenstein التى مجدت كتابه الأخير، والذى نُشر بعد مماته "تساؤلات فلسفية" Philosophical Investigations كان له اتجاه فلسفى جعله أحد أشهر المفكرين المؤثرين فى القرن العشرين (trans, 1974).

لمزيد من التفاصيل انظر Ray monk في كتابه عن السيرة الذاتية

الخاصة بالمؤلف "وتجنشتين" Wittgonstein (Monk 1990) .

٧- لمعرفة المزيد عن تنوع / أو وحدة العواطف انظر Adolphs et al

(2003)، (2007) Mesquita et al., Barrett ، Scherer (2006) Peper

and Walbott (1994)

٨- Ekman et al., (1969) ، Darwin (1999)

٩- منظومة القشرة الحسية الجسدية مهمتها تحصيل المعلومات عن الإحساس

باللمس، بنية الجسد، ووضع الجسد، والضغط عليه وما شابه . وهو جهاز

للحس من خارج الجسد. عكس الأحاسيس والمعلومات الصادرة من

الأحشاء الداخلية (وكلاهما مختلف ومميز عن الآخر) والمعلومات من

داخل الجسد، مثلاً، تمر خلال الأعصاب الحسية التي لا يحيط بها غلاف

من السائل النخاعي الذي يجعل الأعصاب تحمل الإشارات بسرعة. ولذلك

فإن المعلومات من داخل الأحشاء تستغرق وقتاً أطول لتصل إلى المخ،

أكبر من المدخلات الواردة من خارج الجسد (Castell et al., 1990).

وانظر أيضا (Aziz et al., 2000) .

١٠- Nordgren et al., (2002)

١١- والدراسات عن تمدد الشرج والمستقيم موضوعات مهمة في علم دراسة

الجهاز العصبي (صدق أو لا تصدق) مثل (Eickhoff et al., 2006).

ويتم فحصها بأجهزة الأشعة المقطعية. (ولعله من دواعي سرور

الباحثين أن لجنة أخلاق المينة وافقت على مشاريعهم).

- ١٢- وهو ما ناقشه (Bechara et al., (2000, 2005) و Damasio et al., (2000) فى ثلاثة كتب عن تكوين العواطف فى المخ
- . Damasio 1999, 2000, 2003
- ١٣- ولا حاجة للقول بأن الربط بين الفكر بـ (علاقات متبادلة)، ليس هو فقط الآلية التى يتعلم الأطفال اللغة من خلالها. ولمعرفة تفاصيل أكثر انظر Barrett, Lindquist et al., (2007) Yu and Smith
- . (2007)
- ١٤- Papafragou et al., (2007)
- ١٥- من الأبحاث ما يكشف أن حساسية الوالدين عن الاشمزاز تؤثر فى فرص الأبناء فى الخوف من بعض الحيوانات (Darcy et al., 1993).
- ١٦- انظر M.D. Liberman et al., (2007)، وأيضاً Schachter and Singer (1962)
- ١٧- Gregory et al. (2003) - والكلمات المكتوبة يتم تذكرها أفضل. ويبدو أن المخ يتعامل معها بطريقة مختلفة حتى فى أولى مراحل تنظيم الفكر (Kissler et al., 2007)
- ١٨- Clore and Huntsinger (2007)
- ١٩- وفروض "داماسيو" Damasio عن إشارات وشواهد الجسد كانت ذات تأثير كبير. واذن هناك نقد حديث لها. انظر Dunn et al., (2006)
- . Schachter and Singer (1962)
- ٢١- Davey (1994) .Davey et al., (1998, 2003)
- ٢٢- Phillips et al., (1998)

- ٢٣- التهديد بالقرف قد يكون له تأثير في توصيل الحس بالجلد وقد يقلل من معدل ضربات القلب وضغط الدم (Rozio and Fallon (1987) ، Stark et al., (2005) وتغيير في معدل التنفس بسبب مقاومة أعلى للجهاز التنفسي (Collet et al., 1997) ، (Ritz et al., (Boiten, 1996) (2005) أو أعراض ألم بالجهاز الهضمي والأمعاء وشعور بالغثيان والقيء (Curtis et al., 2004) . وقد أظهرت الدراسات التي تقيس الموجات الكهربية بالمخ، والتي ترسلها الخلايا العصبية النشطة، أن الشعور بالقرف يثير أنماطاً من النشاط في الطبقة الخارجية بالمخ التي ترتبط بالعواطف الأخرى. وهي موزعة عليها (Aftanas et al., 2006) ، (Sarlo et al., 2005) ، (Esstin et al., 2004).
- ٢٤- Levenson et al., (1990) ، Kuniciecki et al., (2003)
- ٢٥- Hornby (2001) و Saito et al., (2003)
- ٢٦- وقد تنشط أيضاً منطقة المؤخرة بالمخ مباشرة بتدفق تيار الدم.
- ٢٧- اقترح الباحثون نموذجاً للتنشيط المتوالي يكون فيه المستوى المبدئي للمدخلات إلى مراكز التحكم في جذع المخ قادراً على الوصول قبل حدوث القيء (Hornby 2001 ، Edwards 1998) . ولا بد أن تتراكم إشارات المدخلات وترسل أعراضاً مصاحبة، مثل الغثيان، قبل تجمعها الكافي لبدء رد الفعل الكامل الذي يلزمه كثيراً من الطاقة حتى تنتهي الإثارة بالاحتياج الحقيقي للقيء.
- ٢٨- تتصل نواة السبيل المنفرد (NTS) بمنطقة مؤخرة المخ (والعكس بالعكس)، وهي متصلة أيضاً بمناطق عديدة أخرى تشمل نواة ما تحت المهاد (في منتصف المخ)، والمهاد، اللوزة، القشرة الحسية الجسدية

والحركية، القشرة الجزيرية. انظر (2003) Buller و Landis et al. (2006) و (2005) Saha و (2000) Sequeira et al., Swards (2004) .

٢٩- (2000) Broussard and Altschuler، (2001) Hornby .

٣٠- (2003) Travagli et al., (2001) Travagli and Rogers، Cameron (2001) .

٣١- تتعامل القشرة الحسية الجسدية، خصوصا المنطقة الجزيرية، مع المعلومات الخاصة بالتذوق والألم وحالة الأحشاء والأعضاء الداخلية بالجسد. وقد أظهرت الدراسات التي سجلت إشارات كهربية من الخلايا العصبية في المنطقة الجزيرية (في بحوث عن مرضى الصرع) أن هذه الخلايا تنفعل وتتأثر كرد فعل في منظر تعبيرات القرف لدى أشخاص آخرين. (krolak-salmon et al., 2003). وتتلقى المنطقة الجزيرية أيضا إشارات من الأعضاء في دهاليز الأذن الداخلية التي يعتقد أنها تطلق حركة الإعياء. وفي الدراسات التي صورت الخلايا العصبية وكيفية رد فعل المخ تجاه مثيرات الاشمزاز تختلف ردود فعل المنطقة الجزيرية تجاه الصور الثورية، والأفلام السينمائية، والروائح، والمذاق، والنصوص المقروءة، وحتى الأصوات. (Phillips et al., 2004, Wicker et al., 2003). وختامًا، فإن المثيرات للمنطقة الجزيرية عند الإنسان تغير ضغط الدم وعمل القلب، ويمكنها أيضا أن تطلق تعبيرات عن القرف ومشاعر وعلامات غير سارة في الفم، وعلى الوجه وبالأمعاء أو بأجزاء من القناة الهضمية. (krolak- Salmon et al., 2003, Naidich et al., 2004) . والإثارة

الكهربية للمنطقة الحزامية الأمامية تنتج بالمثل تغييرات لا إرادية في معدل ضربات القلب وضغط الدم والتنفس، علاوة على استجابات أخرى بالأعضاء بما في ذلك الشعور بالغثيان والقيء (Benarroch 1997) .

32- (Harris et al., (2008) ،Kermer et al., (2007) ،Sterzer et al., (2007) .

33- ومثال على التفاعل مع العنف في وسائل الاعلام انظر C. Kelly et al., (2007) .

34- يفضل بعض القراء كلمة "قطار" أو "ترام" بدلاً من كلمة "تروللي" ولوصف هذه المشكلة انظر Green et al. (2001) وانظر أيضا Waldman and Dieterich (2007) .

35- الذي عرض هذه المشكلة أصلاً هو الفيلسوف Philippa foot (Foot 1978) في مقال نشر للمرة الأولى عام 1967، وكانت عن ترام على شريط وعليه عمال. بدلاً من أشخاص يتجولون . وهذا لن يؤثر في مناقشة المشكلة .

36- Hassin et al., (2007) .

37- كمثال على تأثيرات تطابق العواطف بما في ذلك الاشمزاز، انظر Davey et al., (2006) وانظر أيضا Forgas (1998) ، E.,Jonas et al., (2006) . وكمثال على استخدام كلمات العواطف في الدعاية انظر Taylor (2004) . P. 151 .

38- Dennett (1989) .

39- هناك دليل على أن الإصرار على القسوة لدى الأطفال له علاقة بالاضطراب في السلوك والمرض النفسي والعنف في الكبر .

انظر (Hensley and tallichet 2005 a,b , 2008)

. ( Merz- perez and , Heide 2003)

٤٠- للمزيد عن العلاقة بين عاطفة الإشمئزاز والأحكام الأخلاقية انظر

Zhong ، Wheatky and Haidt (2005) ، Trafimow et al., (2005)

. Jones (2007) .and Liljenquist (2006)

٤١- كما ذكرنا فيما سبق (انظر الفصل الاول، ملاحظة رقم ٢٣) هناك دليل

على أن هذا التأثير قد يمتد إلى قاعة المحكمة مع هيئة المحلفين التي لا تبدى تعاطفاً مع المجرم غير الجذاب. وظهر من الأبحاث أن الناس يقرنون بين القبح والجرائم شديدة العنف وأيضاً بين المرض العقلي.

انظر (Mckelvie and Coley 1993) . وهذا موضوع مثير للجدال في

البحث العلمي خصوصاً بعد أعمال "Cesare Lombroso" التي تربط

بين القبح الجسماني والإجرام. وسواء وجدت هذه العلاقة وهذا

الارتباط أم لا، فهذه بالطبع مسألة منفصلة عن مدى انتشار هذا الرأي،

وإذا ما كان له تأثير في الأحكام الأخلاقية.

## الفصل السادس

### كيف تترسخ لدينا المعتقدات؟

- ١- Austin et al., (2006) .
- ٢- لقد عرفنا منذ فترة بوجود إرسال للمعلومات بعيدًا عن نقاط الاشتباك بالخلايا العصبية . انظر (Jourdain et al., 2007)، (Vizi and Mike 2006).
- ٣- للمزيد عن التعقيدات المزعجة المحيطة بالتغيير في التشابكات بين الخلايا العصبية، انظر آراء (Lynch et al., 2007)، Massey and Bashir (2007) . أو Raymond (2007) Thiagarajan et al., (2007) .
- ٤- Hinton (2002) .
- ٥- Plaks et al., (2005) .
- ٦- كمقدمة عن المعالجة غير الواعية في علم النفس انظر Wyer (1997).
- ٧- Kveraga et al., (2007) .
- ٨- هناك مرجع قديم عن "ديناميكية الجماعة" أعطانا هذا المصطلح "الفكر الجمعي" وهو (Janis (1982) .
- ٩- إذا شاهدنا التحديات تتراجع، فقد يسبب هذا النجاح زيادة التمسك بالمعتقدات (Tormala and petty 2002).
- ١٠- لمناقشة ونقد السياسات الذاتية انظر Barry (2001) .
- ١١- Barry (2001) .
- ١٢- النظرية المؤثرة عن إدارة الفرع طرحها "جرينبرج" وزملاؤه (Greenberg et al., 1997) وقد ألهمت عديداً من الدراسات عن العلاقة

بين تقبل فكرة الفناء والانتماء الاجتماعي انظر ، (Florian et al., (2002) , (2002) Arndt et al., ولإيجاز ، فإن نظرية إدارة الفرع ترى أن كثيرا من سلوكيات البشر يمكن تفسيرها كردود فعل دفاعية للمعرفة بالموت كإشارة واضحة وبارزة، أو إدراك الفرد بأنه سوف يموت.

١٣- القياس في هذه النظرية جاء من المقارنة التي عقدها "ريتشارد دوكنز" (Richard Dawkins) بين انتقال الثقافة والجينات والذي يفترض فيها أنه مثلما تحمل الجينات المعلومات بين الأجيال؛ فإن الدعاية تحمل المعلومات بين العقول، وقد قارن بينها وبين "الفيروسات" التي تنتقل الأمراض (خاصة المعلومات التي لا يوافق عليها) . انظر (Dawkins (1989) ، Blackmore (2000) .

١٤- هناك بحث مهم يرى أن التطور الثقافي لا يحتاج إلى مؤثرات الدعاية وصاحبه (Henrich and Boyd (2002) . انظر أيضا Roger and Ehrlich (2008) .  
١٥- انظر Laqueur (2004) P. 175 .

١٦- الاقتباسان الأولان من "هتلر" P.54 (Hitler (trans. 1969) ومن خطبة ألقاها 'ماونسي تونج' أمام مؤتمر المجلس الأعلى الشيوعي الصيني في ٢٧ فبراير ١٩٥٧ (ونشر الحديث في ١٩ يونيو من العام نفسه في جريدة Peoples Daily والاقتباس عن "الجدري" من كتاب "دوكنز" Dawkins (1989, 330) . انظر أيضا (Cornwell 2003, 137-45) ، (Dawkins 2006, 186-8) .

١٧- وصف الصينيون الشيوعيون أسلوبهم في جعل أسرى الحرب الأمريكيين في كوريا (١٩٥٠-١٩٥٣) يرفضون حكومتهم ويدينونها بأنه "إعادة تعليم". ورأت الحكومة الأمريكية، لأنها تدرك أهمية الدعاية، أن أسلوب

عدوها هو عملية "غسيل للعقول"، ووصفتهم بأنهم "التهديد الأحمر الأخير"  
 . (Taylor, 2004)

١٨- الكاتدرائيات كمعكسر اعتقال، ربما؟ ولو رأيت أن هذه فكرة مزعجة،  
تذكر أن الكنائس أصبحت قبورا جماعية في عديد من الأعمال الفظيعة.  
(وفي الوقت الذي أسطر فيه هذا الكتاب تأتي الأنبياء بأن مثل هذه  
المجازر ترتكب في كينيا).

١٩- انظر (Bushman et al., (2007) : Loza (2007)

٢٠- (Hodson and Costello (2007) : Taylor (2007)

٢١- يناقش كتاب "تيلور" Taylor (2006) دور وأساليب "غسيل العقول" في  
زمن الحروب وفضائنها.

٢٢- Klee et al., (1991), 259

٢٣- إن التعليق القائل "وهذا ليس كل الحكاية": قد يفيد كشعار لهذا الكتاب  
(وبالفعل لكل المناقشات العلمية) لقد قدمت بالضرورة كتابات وبحوثا  
كثيرة تتراوح بين البحوث عن كيفية إدارة الصراع في المخ (انظر  
Botvinick et al., 2003) : Egner and Hirsch (2005)، وبين الدراسات  
عن الخلايا العصبية وكيف تتغير تشابكات النهايات الطرفية للأعصاب  
(انظر الفصل السادس ملاحظة ٣) لكي تعمل على التزامن بين الخلايا  
العصبية ودور التذبذب والترجيح للأنماط (انظر Buzsaki 2006) وكل  
هذا من المحتمل أن يصعب فيممه وعن كيف تحل وتنتهي الخلايا العصبية  
اختلافاتها) .

٢٤- Case et al., (2006)

٢٥- Langer (1999), 2

٢٦-192-211, Green (2007), 52, Danner (2005). والمذبحة في قرب  
"الموزوت" كانت جزءا من "La Limpieza". (انظر الفصل الثاني،  
ملاحظة ١٨).

٢٧-تقترح البحوث أن هناك ترابطا نفسيا وتداعيات بين النقاء الجسماني  
والأخلاقي، وكان نظافة البدن توحى بنظافة الخلق  
(Zhong and Liljenquist 2006). وكان معتقد النازي على هذا النحو؛  
واحدا من عديد من هذه المعتقدات: إن صحة البدن تؤدي إلى سلامة  
الخلق.

٢٨-396, 226, Hitler, trans. 1969.

٢٩-هذا الاقتباس عن التعليم من (Mcinkampf (ibid. 389). انظر أيضا  
Klee et al., 1991, pxiv, Lifton 2000. (وهذا الخطاب كان في مقر  
القيادة في برلين).

٣٠-Lifton (2000).

٣١-هذا الاقتباس من (Fritz klein (ibid,16).

٣٢-18, Hilberg (1985). انظر أيضا (Lifton (2000).16.

٣٣-Klee et al., (1991), 217.

٣٤-في مضمون "الشعور بأنه لا ضرر". انظر  
Hippocrates "Epidemics, I, xi (Hippocrates, trans. 1923).

## الفصل السابع

### لماذا نحن قساة القلوب؟

١- Card (2002) .

٢- كتاب "ميكافيللي الأمير يقول: "إنه من الأفضل أن يخشاك الناس بدلاً من أن تكون محبوباً، إن لم تستطع أن تجمع بين الاثنين" (Machiavelli, trans. 1961) ولكن يجب استعمال القسوة كعامل مساعد (مع غلظة القلب). والأمير عندما يفقد ويأمر الجيش، مثلاً، يلزمه "سمعة" القسوة، لأنه دونها " لن يستطيع أبداً أن يوحد جيشه وينظمه (ص: ٩٧)، ويقتبس "ميكافيللي" من القائد "هانيبال" قوله: إن قسوته غير الإنسانية وحدثت بين قواته المتباينة والضخمة.

٣- توجد القواعد الحديثة لإدارة المعارك في كتابي قوانين الحروب The ius ad bellum (متى تحدد القتال)، (كيف تختار المعركة) - انظر الفصل الأول ملاحظة (٨) .

٤- النقطة المفيدة للبداية في نظرية الألعاب يمكن أن توجد في كتابات أحد أهم من مارسوها "روبرت اكسلرود" (Axelrod 1984, 2003), Robert Axelrod.

٥- انظر (Burris and rempel (2004). وردت فكرة "محيط الأفكار" في كتاب سالمون رشدي "هارون وبحر الحكايات" (Rushdi 1991) .

٦- انظر (Rejali (2008) عن كيف أن السرية، مع عدم موافقة الجماهير، تؤدي إلى أن الديمقراطيات تتشظى أساليب سرية للتعذيب.

٧- Platek et al., (2008) ،D.Lieberman et al., (2002)

٨- هناك شواهد على أن أولاد الزوج معرضون بشدة للإيذاء المنزلي أو الخطر أكثر من أبناء زوجة الأب (والأبناء البيولوجيين) Daly and Wilson (1998) ويلزم دراسات أكثر في ثقافات مختلفة عن هذا الموضوع، لأن الثقافات تختلف بخصوص أهمية الأبناء من صلب الأبوين (البيولوجيون). انظر أيضا Kurt-Swanger ،Buss (2005) and Petcosky (2003) عن موضوع العنف الأسرى.

٩- انظر Jenkins et al., (2008) . التشابه النفسى بين شخصين قد يؤدي إلى التقدير المتبادل تمامًا، لكن هناك بعض التحذيرات بالطبع. فقد يكون هناك شخصان متشابهان تمامًا، مثلاً، إلا أنهما يكرهان بعضيهما لأنهما يختلفان بخصوص أمر ما أو مسألة تهم كل منهما. وعندما نجرى مقارنة للتشابه، فهناك أيضا موضوع يخص السمات النفسية والذاتية، أهي مثالية أم واقعية، ومن يشارك في سمة غير مرغوب فيها قد ينال قبولاً وتقديراً أقل.

١٠- قد يتصارع كل من جماعات الأقارب ذوى القرابة المادية أو الرمزية، خصوصاً إذا كانت التهديدات الرئيسية التى يواجهونها ليست الهجوم البشرى ولكنها محدودية الموارد. ومعظم القسوة التى تحدث فى هذه الحالة قليلة نسبياً (الإيذاء اللفظى). والإقصاء قد يكون شديداً ويؤدى إلى قسوة متزايدة. إلا أنه بما أن الإقصاء يشمل مشاركين يُفَرِّقون بين أنفسهم وبين منافسيهم عن عمد، فالقرابة الرمزية عن التشابه من المحتمل أن تتضاءل أو تُمَحَى كلما زاد الإقصاء.

- ١١- إن استخدام مصطلح "كثيف" أو "خفيف" في الإشارة إلى الإشارات الثقافية مرتبط بفكر عالم "الإنثربولوجي" كليفورد جيرتزر Clifford Geertz اتخذه من الفيلسوف "جلبيرت رايلى" Gilbert Ryle، وقد استخدم "رايل" هذه المصطلحات ليشير إلى وصف الأفعال؛ فعلى سبيل المثال يمكن وصف "رمشة العين على أنها انقباض "خفيف" للعضلة. أو قد توصف على أنها إشارة "كثيفة" تأمرية بمعنى ما. وقد نسب "جيرتزر" هذا الاستخدام المختلف لاختلاف الثقافات. انظر Geertz (1973)، Ryle (1971 a.b)، أو لتناول حديث في وصف الأفعال انظر Wegner (2002).
- ١٢- كإشارة إلى مصادر ومراجع "هاملتون" Hamilton انظر الفصل الثالث ملحوظة رقم ٢٩.
- ١٣- Hausfater and Hardy (1984)، Buss (2005)، Brogden (2001).
- ١٤- عندما ينشأ صراع بين شخصين متشابهين سيكون الاختلاف بينهما في بعض الأمور بارزاً وواضحاً لتمييزه. كما أن العواطف السلبية المصاحبة سوف تجعل الاختلافات الأخرى الثانوية والأقل درجة أوضح وأكبر إذا ارتبطت هذه الاختلافات بالعواطف السلبية التي سوف تُضخمها (نوقشت في الفصل الخامس).
- ١٥- Stevenson and Repacholi، Navarrete and Fessler (2006) (2005)
- ١٦- نوقش استخدام "Lazarhouse" كنوع من الضبط الاجتماعي في Moore (1987).

١٧- رعاية المسنين من النساء بالتمريض وسيلة فاعلة لزيادة فرص المرضى منهن للنجاة، مع التقليل من مخاطر فشل الجماعة في التكاثر وحماية الأفراد .

١٨- Kruglanski et al., (2002) .

١٩- Shamay-Tsoory and Asharon-Peretz (2007) ، Blair (2005) .

٢٠- Rizzolatti (2005) ، Lesle et al., (2004) ، Gallese et al., (1996) .

٢١- انظر Singer et al., (2004, 2006) ، Vignemont and Singer (2006)

ومن المهم ذكر أن الدراسات أشارت إلى أن اختلاف عمليتين ما (مثل تجربة الألم والتعاطف معه مثلا) تنشط المنطقة نفسها في المخ، ولا يعنى هذا أن مجموعتين متطابقتين من الخلايا العصبية شاركت معا، أو أن مناطق المخ تعمل بالطريقة نفسها. (انظر Morrison and Downing 2007 ) .

٢٢- تقترح البحوث في علم دراسة الجهاز العصبى الاجتماعى أن مرض

"التوحد" يشمل أولا مشكلات فى الشعور والتعاطف الإدراكي والمعرفى، بينما وجد أن الخلل فى المشاركة العاطفية يرجع إلى مرض نفسى. والناس الذين يعانون من التوحد يعانون من عواطف سلبية قوية مثل الخوف. أما المرضى النفسيون فيفهمون أن الخوف يؤثر فى غيرهم من الناس، لكنهم هم يشعرون بالخوف بدرجة أقل (Blair et al., 1997) . والتعاطف مع آلام الغير قد يقل إذا كان الشخص نفسه يعانى من الألم أيضا (Valeriani et al., 2008) .

٢٣- هذا المبدأ هو أساس استعادة العدل. ويهدف إلى أن "يشعر" المتيم،

لا أن يفهم فكريا وذهنيا، الضرر الذى أحدثه. وإحياء العدالة. والذى

أصبح الآن أكثر استخداماً وشيوعاً في بريطانيا، يبدو أن له فاعلية في كثير من القضايا. ولمزيد من المعلومات هناك "اتحاد واستعادة العدالة" (2007) أو في نص حديث (Sherman and Strang 2007) .

٢٤- Klee et al., (1991), 142 .

٢٥- المرجع السابق ص ١٥٤. أدلى "Hafner" بهذه العبارة في عام ١٩٦٥ وفي عام ١٩٧٣ حكم عليه بالسجن لمدة ثمانى سنوات .

٢٦- Arendt (1963) وتم اقتباسها في 23 , Milgram (1997) .

٢٧- هذا الاقتباس من 51-143 , Klee et al., (1991) .

٢٨- المرجع السابق نفسه.

٢٩- فى "بابى يار" بمنطقة الجبال القريبة من "كريف" وبها وادى ضيق منحدر رأى أحد مشاهدى المجزرة أن منطقة الإعدام كان طولها نحو ١٥٠متراً، و ٣٠ متراً فى العرض وعمقها ١٥ متراً" . ولها مدخل وحيد ضيق حتى تُعزل عن ساحة الانتظار والتي كان اليهود يخلعون ملابسهم فيها ويسلمون ممتلكاتهم. وفى ٢٩-٣٠ سبتمبر ١٩٤١، جُمع ٣٣٧٧١ رجلاً وامرأة وطفلاً فى الوادى وأطلقت عليهم النيران (المرجع السابق ٦٤-٦٨)، ثم دفنت الجثث بالوادى نفسه.

٣٠- الاقتباس من المرجع السابق ٩٦-٩٧ والتأكيد كما جاء بالمصدر .

٣١- الاقتباس من المرجع السابق ٨٩، ٩٥.

٣٢- Rees (2005) .

٣٣- للمعلومات عن مذابح "رواندا"؛ انظر المقدمة ملاحظة رقم ٢٣. والقتل الجماعى فى بولندا بقرية "جدوان" Jedwabne عام ١٩٤١ هو حالة صارخة من عدوان الجار على جاره اليهودى، وكتب بالتفصيل فى

Gross (2003) . أما الفظائع التي ارتكبتها القوات الأمريكية ضد الفلاحين في "ماي لاي" (MyLai) عام ١٩٦٨ في أثناء الحرب الفيتنامية فقد أعلن عنها "سيمور هيرش" (Hersh 1972). وعن مأساة هيروشيما ونجازاكي انظر Rhodes (1988) .

٣٤- لقد انتشرت في أوروبا بالعصور الوسطى دعاية "جريمة الدم" كتنهيب باليهود يدعى أنهم يذبحون الأطفال المسيحيين كي يستخدموا دماءهم في طقوس الاحتفال بعيد الفصح (انظر Frankfurter 2006, 149) ، وانتشرت حكايات مماثلة في صحافة الصرب عن كوسوفا في عام ١٩٨٥ . وقد حكاها باختصار "تويل مالكولم" (Malcolm 1998, 338) وغطاها بالتفصيل Julie Mertus (Mertus 1999, ch.2) .

٣٥- Frankfurter (2006) , 12 .

٣٦- Valentino (2004) ، Tilly (2003) .

٣٧- حتى الإحساس المجرد بالأمان له شعور عصبى متلازم ويكون في هذه الحالة في قشرة الفص الجبهي الجانبية (Bender et al., 2007) .

٣٨- Prunier (1995, 171-2) وتم اقتباسه في Hinton (2002) . انظر أيضا . Gourevitch (2000), 96 .

٣٩- Atran et al., (2007) ، Ginges et al., (2007) . وهناك مناقشة مدهشة للموضوع في Girard (trans. 2005) ، Parker (1983) .

٤٠- تتبع مؤرخ الإرهاب "والتر لاكير" (Laqueur 2004) Walter Liqueur جذور فكر "الجهاد" في الإسلام حتى "ابن تيمية" (ولد عام ١٢٦٨) . وقد اعتبرت وجهة نظره وأراؤه غير رسمية ومثيرة للجدال بين معاصريه، وتفسيراتها من الإسلاميين الراديكاليين في العصر الحديث من سيد أبو الأعلى المودودي، وسيد قطب، وأسامة بن لانن. وأيمن

الظواهرى وآخرين تحداها أيضا مسلمون آخرون. وهى ليست العودة  
الأصيلة للمبادئ المؤسسة التى تُستشف من مصطلح "الأصولية". انظر  
أيضا (Burke (2004)، Ruthren (2004) .

٤١ - Schachter and Singer (1962) .

٤٢ - Chirot and Mc Cauley (2006) .

٤٣ - للتيقن من دور "جنون العظمة" فى السياسة انظر

. Robins and Post (1997)

٤٤ - Dallaire (2004), 255 .

٤٥ - Frankfurter (2006) .

٤٦ - كتبت معركة "كوسوفو" فى القرن الرابع عشر هى التى أثارت "صربيا"

ضد الإمبراطورية العثمانية، وما زالت جزءا بارزا من أسطورة

التاريخ الوطنى فى صربيا (Malcolm 1996, 1998 and Mertus

. Weitz (2003) 1999) وانظر المزيد

٤٧ - Preston (1994) .

٤٨ - Chirot and McCauley (2006), 36 .

٤٩ - لم تكن جريدة الذيلى ميل وحدها هى التى جعلت المناخ - فى هذا

الوقت - معاديا لليهود. فقد دعا رئيس تحرير جريدة التايمز مثلاً لطرده

جميع اليهود من الوظائف العامة (Pugh 2006, 215)، وكما قال "مارتن

بو" Martin Pugh: فإن الجريدتين كانتا تمثلان وتعكسان شعور معاداة

السامية المنتشر والشائع فى هذا الوقت .

٥٠ - لم يصل عديد من التعبيرات العنصرية إلى منظومة العدل. ومن فعلوا

ذلك هم (U K Home Office Figures for 2005/7) .

http://www.homeoffice.gov.uk/rds/crimeew0607.html) وقد اقترح أن الجرائم بسبب العنصرية أو الدين تمثل ٢% من الاعتداء دون إصابات، ١١% تهم مهاجمة (Nicholas et al., 2007) .

٥١- Fein (1990) .

٥٢- مثل العمل الفني الخاص بالفنان "مارسيل دوشامب" Marcel Duchamp وكما أعلم، فهناك عمل آخر للفنان "بيرو مانزوني" Piero manzoni، وكان في عام ١٩٦١ .

٥٣-- انظر مثلاً مناقشاتي لهذه النقطة في Taylor (2004) وكانت دعاية النازي مزعجة عندما شبهت اليهود بالفنران وبالسرطان... الخ. وقد استعملت هذه التشبيهات من بعض الضباط في "السلفادور" عندما وصفوا الشيوعية بأنها سرطان (Danner 2005, 49). والمجرمون في مذبحه رواندا شبهوا ضحاياهم بفيروسات المرض والصراصير (Dallaire 2004, 142). أما الجنود اليابانيون فقد أجبروا النساء على البغاء في ثقافة تُقدر بشدة طهارة المرأة، في أثناء الحرب العالمية الثانية، وكانوا يطلقون عليهم اسم "المراحيض العامة" (Chang 1998,53) .

٥٤- Parker (1983) .

٥٥- هذه خطة النازي لجزيرة "مدغشقر" والتي أُدينَت بعد ذلك بأنها غير قابلة للتطبيق ومتعدرة التنفيذ (Rees 2005) .

٥٦- يوجد مزيد من المعلومات عن "بابي يار" في الفصل السابع، ملاحظة رقم ٢٩. وكتب "هينتون" كثيرًا عن طريقة تفكير الثقافة المحلية عن القتل الجماعي عنى طريقة "الخمير الحمر" (Hinton 2002) . والفصل الذي كتبه "تيلور" Christopher Taylor يعرض ما يراه علم الأجناس (الأنثروبولوجي) عن الإبادة الجماعية في "روندا".

## الفصل الثامن

### لماذا توجد السادية؟

١- الآراء الغربية عن السادية أو التحليل النفسي لها لن يُذكر هنا بسبب ضيق المجال، والذي لن يعطى هذا الموضوع حقه. ومناقشة السادية كشكل من أشكال القسوة يستتقى أيضا المشاركة الطوعية كجزء من الممارسة الجنسية، لأن الألم الذي توافق عليه الضحية ليس معاناة بالمعنى الذي يُصوره هذا الكتاب.

٢- لمعرفة التعقيدات المتضمنة فيها انظر (Gary et al., 2003) . ومصطلح "اضطرابات الشخصية" يمثل إشكالية "فخ الأصل والجوهر". والصعوبات التي يثيرها الوصف بأنها حالة مرضية وليست فكراً وشعوراً (كما هي الحال في الاكتئاب مثلاً) أو حتى حالة سلوكية (مثل داء السرقة). تعنى أنه شيء يخص الشخصية بأسرها.

٣- إن بذرة الأبحاث عن السادية ليست بسبب طبيعة موضوعاتها. وهناك اهتمام علمي شديد بهذه الموضوعات المرضية (Porter et al., 2005) . وقد تكون لذلك علاقة بطغيان التحليل النفسي في هذه الدراسات عن السادية حتى الآن، أو بسبب "الهالة" والجو الخاص الذي يحيط بها. وتعتبر الأمراض النفسية موضوعات علمية أكثر توفيراً واحتراماً.

٤- انظر مثلاً وصف السادية الجنسية واضطرابات الشخصية السادية في كتب علم النفس. والجمع بين الشهوة والقسوة يدين لدراسات "كرافت إبننج" (Krafft - Ebing). انظر أيضا الفصل الأول، ملاحظة (٢) .

٥- Browning (1991) و (Zimbardo 2007) .

٦- لمناقشة تقديرات السادية وصعوبة الحصول عليها في

(Porter et al., 2003) .

٧- Kinsey et al., (1953) . ولمنظور نفسي تحليلي ونقدي نظري عن

العلاقة بين السادية والماسوشية انظر (Deleuze (trans. 1971).

٨- في تسجيلات الفيديو عن التفجيرات الانتحارية يظهر المنتحر كبطل

رجولى شجاع. وهذا ببساطة زيف. وإذا كانوا يعتقدون. كما يقال، أنهم

سوف يتأبون بعد الموت، فإن ما جرى بعد إطلاق الحزام الناسف لن

يزيد عن كونه مخرجا سهلا لإنسان جبان. وليست كل حوادث الانتحار

هذه بدافع ديني، وهذه الطريقة في قتل النفس ما زالت مؤكدة (مضمونة

النتيجة) وأقل بغضا وسوءا من طرق أخرى. فالمرأة المسنة التي تموت

من السرطان تحتاج شجاعة أكثر من أى منتحر بالتفجير. وهذا الانتحاري

قد يكون مثاليا، أو يائسا أو غاضبا وثائرا أو لديه تصميم "بارد" بلا

مشاعر. وقد يرغب في مساعدة الآخرين ممن يلاحظ معاناتهم. وقد

يكونون أذكيا و متعلمين تعليما جيدا (Gambetta 2005)، وقد يكون من

يمارسون التعذيب بهذه الصفات نفسها، لكننا نرى هذا "التكتيك" نوعا من

الغباء. لكن كل من الإرهابيين والمعتبين يتظاهرون بأن سلوكهم مجرد

فرع من حرب نبيلة، يلجأون فيها إلى من يجدونهم بأنهم "شجعان" كي

يؤدوا الأفعال الخسيسة، ولهم مصالحهم الشخصية.

٩- علينا جميعا قبل أن نحتفى بأننا اجتزنا العصر البدائي البربري إلى نور

الحدائثة العلمية المدنية أن نتذكر تحذيرين؛ أولاً: العلماء والأطباء ليسوا

دائما محصنين ضد الحاجة للتحكم والسيطرة ولا يتمكنون دائما بالقيم

المظنية. والأطباء النازي واليابانيون ارتكبوا الفظائع أثناء الحرب العالمية الثانية وبعدها. ومن تجارب وكالة المخابرات المركزية الأمريكية "CIA" الفظيعة تجربة مرض الزهري في مدينة Tuskegee (بولاية آلاباما) وما قام به العلماء من تصميم أسلحة التعذيب والتدمير (انظر: Rejali 2008). وثانياً: إن من يُطلق عليه اسم "سادي" في الطب الغربي يُعتبر فوراً شخصاً خطراً، وإذا لم يُشف هذا الشخص فإنه سوف يرحل من المجتمع ويحرم من حماية المجتمع له. وقد يشمل هذا السجن لفترات طويلة أو الإعدام، أو الطرد لينتمى إلى جماعات بدائية لها تقاليد خاصة.

١٠- Nisbett and Cohen (1996) .

١١- إنني أقول "من المحتمل" لأنني لا أعرف بالتأكيد التأثير السببي لعلاج السادية في الطفولة على الشخص عندما يصبح أباً فيما بعد. هناك أبحاث كثيرة عن تأثير تجارب العنف في الطفولة. انظر: Arseneault et al., (2006), Ballif – Spanvill et al., (2003), Dougllass (2006), Kocnan et al., (2003), Ng-Mak et al., (2004) و Gershoff (2002)

١٢- الجدل حول فكرة التطور يأتي من أنها لا يمكن اختيارها بطريقة مباشرة بسبب عدم قدرة الأطباء على إعطائنا "حالة" مرئية لمسيرة الزمن، وبالفعل فإنه يقال إن "النشوء والتطور" يمكن أن يفسر ويشرح أي شيء وبذلك لا يشرح شيئاً على الإطلاق. والجدل الذي يثار حول القسوة يعتمد على افتراضات معينة يمكن أن نتحداها عملياً وتجريبياً. فتصوير البشر في أزمان سابقة (بدائية) على أنهم يعيشون في جماعات صغيرة تتنافس على الموارد قد يثبت عدم صحته بذليل من الحفريات أو علم دراسة الأجناس. والمقارنة مع أنواع من الكائنات مثل

الشمبانزى تعتمد على آثار جماعات صغيرة تعيش على موارد محدودة، وبعد اختبار التنبؤات عنها وافترض أن القسوة تنشأ عن جمود القلب عندما يقترن بالإثابة من الداخل (باطن الفاعل) لا بد أن يُختبر، وقد لا يثبت صحة هذا الافتراض، وقد يكون من الصعب إجراء هذه البحوث لدواعي اعتراضات أخلاقية، وصلاحيّة البيئّة لإجراء هذه البحوث أمر آخر. وأجهزة الرنين المغناطيسي حساسة بدرجة كبيرة لأي حركة ولا يمكن حملها والتقل بها. ومع ذلك فهناك بحوث يستعد لها عن حروب بأسلوب "المحاكاة" (انظر: Salminen and Ravaja (2005) .

١٣- منطق الفاعلية مستقل الآلية، وينطبق على التطور الثقافي علاوة على انتقال الجينات.

١٤- . Dennett (2006), 57

١٥- Jones and Fabian (2006), Keeley (1996), Mc Call and Shields (2008) .

١٦- من أمثلة القسوة المزعجة والصادمة ما نجده، مثلاً، في مسرحية "يوريبديدس" Euripides (The Bacchae) والتي تُقطع فيها مجموعة من النساء أوصل الملك "بنثيوس" Pentheus، وفي أسطورة "Tereus" الذي اغتصب وسجن وعذب أخت زوجته. وعندما علمت بذلك زوجته انتقمت بأن قتلت ابنيهما وقدمته كطعام لـأب (Euripides, trans, 1973)، (Hughes 1997, 229-45) .

١٧- أظهر البحث في "تخيل قتل نشر" أن ٩١% من الرجال و ٨٤% من النساء كانت لديهم - على الأقل - تخيلات واضحة عن قتل شخص ما (Buss 2005, 8).

- ١٨- هناك علاقة ثابتة بين إصابة المخ والسلوك المضاد للمجتمع على الأقل عندما اخترق سيخ حديدي رأس "جيج" Phinas Gage وأحدث به ثقباً كبيراً (وشبيراً) دمر قشرة الفص الجبهي. وفي هذا الوضع تحول "جيج" من مواطن محترم إلى شخص معتوه أخلاقياً. وتناقش هذه الحالة في كثير من كتب علم دراسة الجهاز العصبي (مثل Damasia 1996).
- ١٩- وتعليقاتي على التأثير التحولي للسادية مجرد تأملات؛ لأن تأثير الإيذاء الجسدي والجنسي واللفظي في الطفولة (وليس كله سادياً بالطبع) على الفرد عند البلوغ لم يفهم تماماً. وليس كل فرد يُظهر انحرافاً، ومعظمهم لا يتحولون إلى معتدين انظر (Browne and Finkelhore (1986)، Finkelhore ،Ertem et al., (2000)، Dilillo and Damashek (2003) (1990).
- ٢٠- يعتقد أن النقص في الغذاء يسهم في السلوك العدوانى (Gesch et al., 2002).
- ٢١- انظر (Kirsch and Becker (2007)، Marshall and Kennedy (2003).
- ٢٢- (Semelin (trans., 2007)، Valentino (2004).
- ٢٣- Foxe (ed.c, 1910).
- ٢٤- لقد هاجم "نيتشه"، مثل "دى ساد" المسيحية، وبينما أكد "دى ساد" على محاولتها الحد من قسوة البشر والعدوان، اتهمها "نيتشه" باستعراض الدافع للتحكم والسيطرة قائلاً: "إن فيها حساً معيناً بالقسوة تجاه الذات والآخرين، والكراهية لمن لا يفكر تفكيراً مختلفاً، والرغبة والإرادة فى الاضطهاد" (Nietzsche, trans. 1968, 131). ويتفق الكاتبان على أن المسيحية تحد من وتقوض فعالية حرية الإنسان وقوته قائلاً: "إنها

تكرس كرد العقل، والكبرياء، والشجاعة، والحرية، وفجور وفسق العقل في المسيحية، وكره الحواس وكره النشوة من الأحاسيس والفرح عموماً، من المسيحية " (المرجع السابق نفسه) انظر أيضاً (Miller 1990) .

٢٥- قصة "بروميثيوس" موجودة في (Aeschylus (trans. 1922) .

٢٦- للمزيد عن تفاصيل "تاريخ مباحج الحروب" انظر (Bourke (2000) .

٢٧- كما صور "هانيبال" في الكتب والأفلام. مثل H. Iecter Hannibal, and, The Silence of the Lambs

، ولم أشاهد الفصل الأخير في هذه الملحمة "Hannibal Rising" والذي فيه محاولة لتفسير شخصية البطل. وفي مثل هذه الحالة وهذا البطل تكون كثرة الحديث بالتفصيل الشديد عن شخصيته مدعاة للمجازفة "بتدمير" الإعجاب بهذه الشخصية.

٢٨- كما سنرى في الفصل التاسع، فإنه حتى إن لم ينج الضحايا؛ فإن هناك

معنى للموت الواقع بفعل السادية ورغبة شريرة من الفاعل (انظر: Dutton, 2007, 123-9) . والموت، خصوصاً الموت المفاجئ، يؤثر بشدة في نفس من حرموا من المتوفى ويسبب لهم صدمة، مثلما يحدث في إصابات الجسد. وأحياناً يلام فاعل ما لتخفيف الآلام. وينطبق المنطق نفسه إذا كان الفاعل يُعتبر طيباً وليس شريراً، وإذا اعتبرت المعاناة نوعاً من "الدرس" - عندئذ سيكون الموضوع "أن الله يريد أن يُعلمنا".

٢٩- Wyndham (1960), 98 .

٣٠- Berg (trans, 1938) .

٣١- لمزيد من التفاصيل عن طفولة Kurten انظر Barg (trans. 1938) ch.3 .

- ٣٢- للمزيد عن النواحي السياسية والتواصلية للإرهاب، وبالتحديد عن الانتحاريين، انظر (Bloom 2005) .
- ٣٣- انظر Adam curtis في فيلمه التسجيلي The power of Nightmares (Curtis 2004).
- ٣٤- Laqueur (2004), 403 .
- ٣٥- Burns (ed.1993) والكلمات المؤكدة كما جاءت في النص الأصلي .
- ٣٦- Pavlov (trans. 1941) .
- ٣٧- Hertel and Donahue (1995) ،De Roos et al., (2004)
- ٣٨- Peter kurten (Berg trans. 1938, III)
- ٣٩- Firth et al., (2004) وفيه كل شيء يريد انقارئ المهتم أن يعرفه عن "طيور التعريشة" . (bowerbirds) .
- ٤٠- من الممكن أن يكون اختيار الإناث لمن يحتمل التهديد بالاشمئزاز، إذ إن النساء والأطفال مُعرضون للعدوى بالأمراض أثناء الحمل والفترة الأولى بعد الولادة، وعندئذ يكون من لديه استعداد من الذكور لأن يتعامل مع الأشياء المقززة شخص مفيد. (Fessler 2002. Fessler et al., 2005) وهذه إشارة على صلاحية هذا الفرد وقد يكون هذا أحد أسباب "التطورية" التي تجعل المجرم يحول ضحيته إلى شيء يثير الاشمئزاز، ويتصرف وكأن تحمله لهذا المشهد المقزز نوع من البطولة، كأن يتصور مع جثة، كما فعل جنود أمريكا في سجن "أبو غريب" بالعراق بعد غزوها في عام ٢٠٠٣.

- ٤١- أخرجت قصة *Las poquianchis* كفيلم سينمائي (أخرجها "فيليب كازال" Felipe Cazals) . ثم كتبها كرواية "جورج إيرجينجوتيا" (Ibarguengoitia, trans. 1983) Jorge Ibarguengoitia .
- ٤٢- Richardson and Hammock (2007) . ومثال على الاختلاف العرقي في السلوك العام تجاه القتلة نجده في وسائل الإعلام البريطانية وتعاملها مع من قتلوا المغاربة "مازيا هندلي" و"إيان برادي" . ولم يُعامل الاثنان بالإحساس نفسه، فلم يُعامل "برادي" بالكره والاشمئزاز نفسيهما اللذين عوملت بهما صديقتيه.
- ٤٣- القسوة من النساء أيضا لها ما يبررها إذا كانت تُظهر القوة، فهذا دليل على أن ذلك يحدث عندما تكون المرأة في وضع يُعطيها دورا في المجتمع، ومنتظر ويتوقع منها اتخاذ نوع من السلوك "الرجالي"، وأن تتصرف بشيء من القسوة.
- ٤٤- هذا النزوع يسمى مرض "هيروستراتوس" (Herostratos syndrome) على اسم الرجل الذي أحرق معبدا لكي يخلد ذكره (Borowitz 2005) .
- ٤٥- Gambetta (2005) وهو مرجع قوى في البحث عن الانتحار الإرهابي .
- ٤٦- انظر (Leknes and Tracey 2008) . وقد يستخدم الألم أيضا للتخفيف من الاكتئاب النفسي. انظر (Whitlock et al., 2006) .
- ٤٧- Blair (2005) .
- ٤٨- إذا كانت السادية نوعا من الإدمان ستكون الإثابة الداخلية هدفا في حد ذاتها، وفي هذا تشابه بين المدمن والسادى وأنماط أخرى من السلوك "التصاعدي" . وإذا تصادف وجود أنواع متعددة من الإدمان سيكون الميل للإقلاع مبعثه ظروف معينة. وقد نتوقع أيضا أن نرى تغييرات في المخ تشمل تغييرا في مرونة النهايات الطرفية للخلايا العصبية

وبعض المظاهر الشاذة في التمثيل الكيميائي (الأبيض) للدوبامين مع  
تغييرات في مناطق الإثابة بالمخ مثل: منحى النواة وقشرة الفص  
الجبهي. (انظر Hayman et al., 2006، Kauer and malenka 2007)  
لمعرفة المزيد عن البناء العصبى وآليات الإدمان). وذلك على الرغم  
من أن هذه افتراضات تحت الاختبار، حسب علمي، ولم يتم اختبارها  
حتى الآن.

-٤٩ - Nell (2006) .

-٥٠ - Pincus (2001) .

-٥١ - Cross and Matheson (2006) .

-٥٢ - Balakian (1998) وتم اقتباسها في Waller (2002), 52.

-٥٣ - إلصاق حدوة الحصان في قدم الضحية كان دلالة على تعذيب شخص  
ذى حيثة من قائد تركي هو "Djevdet Bey" وقد كان لذلك "شهرة"  
شديدة، كما ذكر "هنري مورجنثو" Henry Morgenthau سفير أمريكا  
لدى تركيا في تقريره عن هذه المأساة (Morgenthau ed.2000, 204-5)  
وسواء كان "جيفديت بيه" Djevdet Bey هو المسئول عن هذا الفعل  
الفظيع بالذات، ولماذا اختار هذه الطريقة في التعذيب، لا أعلم (ووفقا  
للاعتماد التقليدي فإن حدوة الحصان تحمى من السحر و"العين"  
الشريرة) .

-٥٤ - Zimbardo (2007), 7 .

-٥٥ - يقدر "براوننج" نسبة القتلة الذين رفضوا أو تحاشوا الأوامر وواجباتهم  
في القتل بأقل من ٢٠%، علما بأن هذا يشبه نتائج ظهرت في عينة  
أصغر تم بحثها في تجربة سجن "ستانفورد" (Browning 1991,  
Zimbardo 2007).

## الفصل التاسع

### هل بإمكاننا التوقف عن القسوة؟

- ١- للمزيد عن دور المشاهدين في عمليات الإبادة الجماعية انظر Power (2003) .
- ٢- لمناقشة مستفيضة للعوامل التي تُؤثر في العلاقة بين العنف واللاعنف انظر Barak (2003) .
- ٣- في بدائل أخرى مثل العقوبة الجسمانية، يمكن أن تُعطى القوة العاطفية المطلوبة، لكنها لن تحل مشكلات العمليات القانونية الطويلة وغير الفاعلة والتي قد تحيد عن العدل. وقد يمنع ذلك الجماهير من الإرشاد عن الأصدقاء والأقارب والسلوك القاسى الذى ربما يُبَرر قانوناً من بعض الأفراد. وعلاوة على ذلك فإن العنف المصرح به من الدولة قد ينتشر (Rejali 2008) وللإيجاز، هناك أسباب عديدة تؤكد أن العقاب البدنى ليس هو الحل لمشكلة السلوك الإجرامى.
- ٤- Cohen et al., (2007) .
- ٥- للمزيد عن التخفيف فى المدة انظر Ainslie (2001) ، Berns et al., (2007).
- ٦- Shema et al., (2007) .
- ٧- مصدر هذا التملق والادعاء (عن روح الحرية التامة والتتوير) هو الشاعر الفرنسى Guillaume Apollinaire (Apollinaire ed. 1964, 194) .
- ٨- Sade (trans. 1991), 602-3

- ٦- المرجع السابق: ٤٩١، ٤٩٤، ٥١٨-١٩
- ١٠- الإقتباسات من المرجع السابق نفسه: 8-607، 497، 514.
- ١١- انظر مثلاً (Dawkins (2006)، Hauser (2006) .
- ١٢- انظر (Slone (1990) .
- ١٣- Hume (ed.1975), 34 .
- ١٤- يجب هنا أن أعتزف بالجميل إلى " Wittgenstein " وكتابه  
Philosophical Investigations (Wittgenstein, trans. 1974) .
- ١٥- قال "بلير" هذه العبارة في حديث عن الإرهاب بعد انفجار لندن في ٧  
يوليو ٢٠٠٥ (BBC, 2007) .
- ١٦- يوجد مزيد من التفاصيل عن هذا الرأي في الفصل الحادى عشر من  
(Taylor, 2004)، انظر أيضا (Dennett (2003,b) .
- ١٧- تحديداً، إذا كنت مسؤولاً فسوف تدبر الأمر، وسوف يؤثر هذا فى  
سلوكك (Metcalf and Greene 2007) .
- ١٨- Foster and Young (2001) يرون أنه حتى فى حالة الفاعل العاقل  
تماماً، لن يمكن التنبؤ بالسلوك فى بعض الأحوال .
- ١٩- Wilkinson (2005) .
- ٢٠- Klee et al., (1991), 81-2 .
- ٢١- انظر (La Capra (1997 لمزيد من التفاصيل والمناقشة المستفيضة  
للعبارة "هنا لا يوجد لماذا" .
- ٢٢- إذا كان لديك شك، فربما ترغب فى أن تحاول البحث فى الشبكة الدولية  
للمعلومات عن "الإبادة الجماعية فى أرمينيا". وربما باستعمالي هذه  
العبارة أكون قد أعتبرت أن هذا الكتاب نسى تماماً فى تركيا، إلا أن

كثيراً من الأتراك يعترفون بأن هناك مذابح ارتكبت ضد الشعب الأرمني. انظر أيضاً الفصل الثّاني، ملاحظة (٦).

٢٣- صاغ "رافائيل لمكن" Rafael Lemkin مصطلح "إبادة جماعية" من كلمة يونانية معناها "جنس من الناس"، أو "الشعب"، ومن كلمة لاتينية معناها "يقتل". وقد شكّل حملة ناجحة كي تتم الموافقة على المصطلح كحقيقة قانونية في "الأمم المتحدة".

٢٤- . Gewald (1999) ،Bridgman and Worley (2004)

٢٥- . Hochschild (1999)

٢٦- للاطلاع على المناظرة عن استثنائية وتفرد الهولوكوست انظر  
Rosenbaum (2000)

٢٧- إن الأمثلة التي ذُكرت في النص تم اختيارها لإثبات الاشتراك الإنساني في المعاناة والألم على نطاق واسع وصعوبة إثبات المسؤولية السببية والأخلاقية في مثل هذه الحالات. لقد شملت مئات الآلاف من القتلى وتركزت أثراً دائماً في شعوبها. إن فظائع معاملة الجنود الصينيين، والمدنيين (ودولاً أخرى هزمتها اليابان من ١٩٣٧) ما زالت تمثل شيئاً مفرغاً. انظر الفصل الأول، ملاحظة (١٧). وربما لم تستُهر بالقدر نفسه من المعاناة الفظيعة للمدنيين بعد أن تسلّم السلطة الجنرال "سوهارتو" في إندونيسيا (١٩٦٥) وقام بغزو تيمور الشرقية (١٩٧٥)، ويقال إن هذه الأحداث نتج عنها على الأقل ٦٠٠٠٠٠ من القتلى (انظر Rummel 1994 جدول 1.2.1.5). وانظر أيضاً

<http://nsers.erols.com/mwhite28/warstat3.htm#Indonesia>

وفي كلتا الحالتين كانت المسؤولية واضحة؛ إنها القوات الرسمية للإمبراطورية اليابانية وللجنرال "سوهارتو"، على التوالي. ولم تكن

الوسيلة إطلاق النار دائماً لكن الجوع حتى الموت ممكن والذي يمثل معاناة أكبر للضحايا. وفيما بين ١٩٢٠ و ١٩٤٠ عانى الأوكرانيون صعوبات شديدة، وخصوصاً أثناء المجاعة ١٩٣٢-١٩٣٣ (Vallin et al., 2002) وهنا ما يسمى "القتل بالجوع". وقد أثبتت أيرلندا بالمجاعة بعد دمار محصول البطاطس في أواخر الأربعينيات من القرن التاسع عشر (من ١٨٤٠). وفي الحالتين تُدان سلطات ستالين وبريطانيا على التوالي. وقد أثار ذلك جدلاً كبيراً عن دورهما في هذه الكوارث. وكما قلت في هذا الكتاب فإن من الصعب تحديد دوافع الجاني أو المجرم، فالإهمال واللامبالاة أو المحاولة المقصودة لإحداث المجاعة وتعميقها لا يمكن إثباتها أو فك طلاسمها، وقد تفتح هذه المحاولة المجال للتحيز "الأيديولوجي". وبما أنني لست خبيرة في هذا التخصص، فإن انطباعي هو أن الاتهام بالمشاركة في هذه الأحداث شيء لا يمكن تأكيده.

٢٨- . Hardenburg (1912),28-9

٢٩- الوارد بهذه الجريدة عن الزيارة متاح تفصيلاً في المصدر وفي

. Casement (ed. 2003)

٣٠- وواحدة من الفظائع سيئة السمعة في تاريخ الغرب الحديث هي مذبحه

سربرينكا "Srebrenica" والتي حدثت بعد تفكك دولة يوغوسلافيا. ففي عام ١٩٩٥ هجمت قوات الصرب على هذه المدينة، وقد كانت تحت حماية الأمم المتحدة، وقتل فيها أكثر من سبعة آلاف (٧٠٠٠) من رجال وأطفال البوسنة. وقد حكمت محكمة العدل الدولية أن هذه الحادثة تعتبر إبادة جماعية (انظر

<http://www:icj-cij.org/docket/files/91/13685.pdf>

وكما أن هجوم القاعدة على المبنى الأمريكية (esp.paras.278-97) فى الحادى عشر من سبتمبر ٢٠٠١ والذى ضربت فيه طائرات نفاثة مبنى مركز التجارة العالمى والبنتاجون، (طائرة أخرى اصطدمت بمبنى فى "بنسلفانيا") قد نجم عنه قتل ثلاثة آلاف نسمة.



## بیلیو جرافیا

- ABELSON, R. P., DASGUPTA, N., PARK, J., and BANAJI, M. R. (1998), 'Perceptions of the collective other', *Personality and Social Psychology Review*, 2: 243–50.
- ADOLPHS, R., TRANEL, D., and DAMASIO, A. R. (2003), 'Dissociable neural systems for recognizing emotions', *Brain and Cognition*, 52: 61–9.
- AESCHYLUS (trans. 1922), 'Prometheus Bound'. In *Suppliant Maidens; Persians; Prometheus; Seven against Thebes*, trans. H. W. Smyth. Cambridge, Mass.: Harvard University Press, 209–316.
- (trans. 1999), *The Oresteia: A New Version by Ted Hughes*. London: Faber & Faber.
- AFTANAS, L. I., REVA, N. V., SAVOTINA, L. N., and MAKHNEV, V. P. (2006), 'Neurophysiological correlates of induced discrete emotions in humans: an individually oriented analysis', *Neuroscience and Behavioral Physiology*, 36: 319–30.
- AINSLIE, G. (2001), *Breakdown of Will*. New York: Cambridge University Press.
- AKUTAGAWA, R. (trans. 2007), 'Rashomon' and Seventeen Other Stories, trans. J. Rubin. London: Penguin.
- ALICKE, M. D. (2000), 'Culpable control and the psychology of blame', *Psychological Bulletin*, 126: 556–74.
- AMBROSE, S. H. (1998), 'Late Pleistocene human population bottlenecks, volcanic winter, and differentiation of modern humans', *Journal of Human Evolution*, 34: 623–51.
- AMERICAN PSYCHIATRIC ASSOCIATION (2000), *Diagnostic and Statistical Manual of Mental Disorders 4<sup>th</sup> Edition Text Revision: DSM-IV-TR*. Washington, DC: American Psychiatric Association.
- ANDERSON, C. A., DEUSER, W. E., and DENEVER, K. M. (1995), 'Hot temperatures, hostile affect, hostile cognition, and arousal: tests of a general model of affective aggression', *Personality and Social Psychology Bulletin*, 21: 434–8.
- APOLLINAIRE, G. (ed. 1964), 'Le Divin Marquis'. In *Les Diables Amoureux*, ed. M. Décaudin. Paris: Gallimard, 178–232.
- ARENDT, H. (1963), *Eichmann in Jerusalem: A Report on the Banality of Evil*. London: Faber & Faber.

- ARISTOTLE (trans. 1937). 'Parts of Animals'. In *Aristotle: Parts of Animals. Movement of Animals. Progression of Animals*, trans. A. L. Peck and E. S. Forster. Cambridge, Mass.: Harvard University Press, 52-435.
- (trans. 1930). *On the Heavens*, trans. W. K. C. Guthrie. Cambridge, Mass.: Harvard University Press.
- ARNDT, J., GREENBERG, J., SCHMEL, J., PYSZCZYNSKI, T., and SOLOMON, S. (2002). 'To belong or not to belong, that is the question: terror management and identification with gender and ethnicity', *Journal of Personality and Social Psychology*, 83: 26-43.
- ARSENAULT, L., WALSH, E., TRZESNIEWSKI, K., NEWCOMBE, R., CASPI, A., and MOFFITT, T. E. (2006). 'Bullying victimization uniquely contributes to adjustment problems in young children: a nationally representative cohort study', *Pediatrics*, 118: 130-8.
- ATRAM, S., AXELROD, R., and DAVIS, R. (2007). 'Sacred barriers to conflict resolution', *Science*, 317: 1039-40.
- ATTENBOROUGH, D. and FOTHLGILL, A. (dir.). *Consts*. In the series *Blue Planet* (2001), shown on BBC 1. Details located at <http://www.bbc.co.uk/nature/programmes/tv/blueplanet/>.
- AUSTIN, P. C., MAMDANI, M. M., JUURLINK, D. N., and HUX, J. E. (2006). 'Testing multiple statistical hypotheses resulted in spurious associations: a study of astrological signs and health', *Journal of Clinical Epidemiology*, 59: 964-9.
- AXELROD, R. (1984). *Evolution of Cooperation*. New York: Basic Books.
- (2003). 'The evolution of ethnocentric behavior'. Presented at the Midwest Political Science Convention, Chicago, IL. Located at [http://www.personal.unic.edu/~axe/research/AxHamm\\_Ethno.pdf](http://www.personal.unic.edu/~axe/research/AxHamm_Ethno.pdf).
- AZIZ, Q., THOMPSON, D. G., NG, V. W., HAMDY, S., SARKAR, S., BRAMMER, M. J., BULLMORE, E. T., HOBSON, A., TRACEY, I., GREGORY, L., SIMMONS, A., and WILLIAMS, S. C. (2006). 'Cortical processing of human somatic and visceral sensation', *Journal of Neuroscience*, 20: 2657-63.
- BATAKIAN, P. (1998). *Black Dog of Fate: A Memoir*. New York: Broadway.
- BALLIE-SPANVILL, B., CLAYTON, C. J., and HENDRIX, S. B. (2003). 'Gender, types of conflict, and individual differences in the use of violent and peaceful strategies among children who have and have not witnessed interparental violence', *American Journal of Orthopsychiatry*, 73: 41-53.
- BANDURA, A. (2002). 'Selective moral disengagement in the exercise of moral agency', *Journal of Moral Education*, 31: 101-19.
- BAR, M. (2007). 'The proactive brain: using analogies and associations to generate predictions', *Trends in Cognitive Sciences*, 11: 280-9.
- BARAK, G. (2003). *Violence and Nonviolence: Pathways to Understanding*. London: Sage.

- BARRETT, L. F., LINDQUIST, K. A., and GENDRON, M. (2007). 'Language as context for the perception of emotion', *Trends in Cognitive Sciences*, 11: 327–32.
- BARRETT, L. F., MESQUITA, B., OCHSNER, K. N., and GROSS, J. J. (2007). 'The experience of emotion', *Annual Review of Psychology*, 58: 373–403.
- BARROZO, P. (2008). 'Punishing cruelly: punishment, cruelty, and mercy', *Criminal Law and Philosophy*, 2: 67–84.
- BARRY, B. (2001). *Culture and Equality: An Egalitarian Critique of Multiculturalism*. Cambridge: Polity.
- BAUMEISTER, R. F. (2001). *Evil: Inside Human Violence and Cruelty*. New York: Owl Books.
- BECHARA, A., DAMASIO, H., and DAMASIO, A. R. (2000). 'Emotion, decision making and the orbitofrontal cortex', *Cerebral Cortex*, 10: 295–307.
- TRANEL, D., and DAMASIO, A. R. (2005). 'The Iowa Gambling Task and the somatic marker hypothesis: some questions and answers', *Trends in Cognitive Sciences*, 9: 159–62; discussion, pp. 162–4.
- BECK, A. T. (1999). *Prisoners of Hate: The Cognitive Basis of Anger, Hostility, and Violence*. New York: HarperCollins.
- BENARROCH, E. E. (1997). *The Central Autonomic Network: Functional Organization and Clinical Correlations*. Armonk, NY: Futura.
- BENDER, S., HELLWIG, S., RESCH, F., and WEISBRON, M. (2007). 'Am I safe? The ventrolateral prefrontal cortex "detects" when an unpleasant event does not occur', *NeuroImage*, 38: 367–85.
- BENTHAM, J. (ed. 2007). *An Introduction to the Principles of Morals and Legislation*, 1823 edn. Mineola, NY: Dover.
- BERG, K. (trans. 1938). *The Sadist*, trans. O. Illner and G. Godwin. London: Acorn Press.
- BERKOWITZ, L. (1999). 'Evil is more than banal: situationism and the concept of evil', *Personality and Social Psychology Review*, 3: 246–53.
- BURNS, G. S., LAIBSON, D., and LOEWENSTEIN, G. (2007). 'Intertemporal choice—toward an integrative framework', *Trends in Cognitive Sciences*, 11: 482–8.
- BERNSTEIN, M. J., YOUNG, S. G., and HUGENBERG, K. (2007). 'The cross-category effect: mere social categorization is sufficient to elicit an own-group bias in face recognition', *Psychological Science*, 18: 706–12.
- BIRCH, S. A. J. and BLOOM, P. (2007). 'The curse of knowledge in reasoning about false beliefs', *Psychological Science*, 18: 382–6.
- BLACK, E. (2004). *War Against the Weak: Eugenics and America's Campaign to Create a Master Race*. New York: Thunder's Mouth.

- BLACRMORE, S. (2000), *The Meme Machine*. New York: Oxford University Press.
- BLAIR, A.. *Full text: Tony Blair speech on terror*. Located at <http://news.bbc.co.uk/1/hi/uk/4689363.stm>.
- BLAIR, R. J. (2005). 'Responding to the emotions of others: dissociating forms of empathy through the study of typical and psychiatric populations', *Consciousness and Cognition*, 14: 698–718.
- BLAIR, R. J. R., JONES, L., CLARK, F., and SMITH, M. (1997), 'The psychopathic individual: a lack of responsiveness to distress cues?' *Psychophysiology*, 34: 192–8.
- BLOCK, N. (1995), 'On a confusion about a function of consciousness'. *Behavioral and Brain Sciences*, 18: 227–87.
- BLOOM, M. (2005). *Dying to Kill: the Allure of Suicide Terror*. New York: Columbia University Press.
- BODEN-ALBALA, B., LITWAK, E., ELKIND, M. S., RUNDEK, T., and SACCO, R. L. (2005), 'Social isolation and outcomes post stroke', *Neurology*, 64: 1888–92.
- BOITEN, F. (1996). 'Autonomic response patterns during voluntary facial action'. *Psychophysiology*, 33: 123–31.
- BOKLAGE, C. E. (1990). 'Survival probability of human conceptions from fertilization to term'. *International Journal of Fertility (Stockholm)*, 35: 75–94.
- BORG, J. S., HYNES, C., VAN HORN, J., GRAFTON, S., and SINNOTT-ARMSTRONG, W. (2006). 'Consequences, action, and intention as factors in moral judgments: an fMRI investigation', *Journal of Cognitive Neuroscience*, 18: 803–17.
- BOROWITZ, A. (2005). *Terrorism for Self-glorification: The Herstratos Syndrome*. Kent, Ohio: Kent State University Press.
- BOTVINICK, M. M., COHEN, J. D., and CARTER, C. S. (2004). 'Conflict monitoring and anterior cingulate cortex: an update', *Trends in Cognitive Sciences*, 8: 539–46.
- BOURKE, J. (2000), *An Intimate History of Killing: Face-to-face Killing in Twentieth Century Warfare*. London: Granta.
- BRAVER, T. S., BARCH, D. M., GRAY, J. R., MOLFESE, D. L., and SNYDER, A. (2001), 'Anterior cingulate cortex and response conflict: effects of frequency, inhibition and errors', *Cerebral Cortex*, 11: 825–36.
- BRECHT, M. and SCHMITZ, D. (2008). 'Rules of plasticity', *Science*, 319: 39–40.
- BREWER, M. B. (2007), 'The importance of being We: human nature and intragroup relations', *American Psychologist*, 62: 728–38.
- BRIDGMAN, J. and WORLEY, L. J. (2004), 'Genocide of the Hereros'. In S. Totten, W. S. Parsons, and I. W. Chamy (eds.), *Century of Genocide: Critical Essays and Eyewitness Accounts*, 2<sup>nd</sup> edn. New York: Routledge. 15–51.
- BROGDEN, M. (2001), *Geronticide: Killing the Elderly*. London: Jessica Kingsley.

- BROUSSARD, D. L. and ALTSCHULER, S. M. (2000), 'Brainstem viscerotopic organization of afferents and efferents involved in the control of swallowing', *American Journal of Medicine*, 108: S79-86.
- BROWNE, A. and FINKELHOR, D. (1986), 'Impact of child sexual abuse: a review of the research', *Psychological Bulletin*, 99: 66-77.
- BROWNING, C. (1991), *Ordinary Men: Reserve Police Battalion 101 and the Final Solution in Poland*. New York: HarperCollins.
- BUFKIN, J. L. and LUTTRELL, V. R. (2005), 'Neuroimaging studies of aggressive and violent behavior: current findings and implications for criminology and criminal justice', *Trauma, Violence, and Abuse*, 6: 176-91.
- BULLER, K. M. (2003), 'Neuroimmune stress responses: reciprocal connections between the hypothalamus and the brainstem', *Stress*, 6: 11-17.
- BURKE, J. (2004), *Al Qaeda: The True Story of Radical Islam*. London: I. B. Tauris.
- BURNS, R. (ed. 1993), 'To a louse: on seeing one on a lady's bonnet at church'. In *Robert Burns: Selected Poems*, ed. C. McQuirk. London: Penguin, 85-6.
- BURRIS, C. T. and REMPEL, J. K. (2004), "'It's the end of the world as we know it": threat and the spatial-symbolic self', *Journal of Personality and Social Psychology*, 86: 19-42.
- BUSHMAN, B. J., RIDGE, R. D., DAS, E., KEY, C. W., and BUSATH, G. L. (2007), 'When God sanctions killing: effect of scriptural violence on aggression', *Psychological Science*, 18: 204-7.
- BUSS, D. M. (2005), *The Murderer Next Door: Why the Mind Is Designed to Kill*. New York: Penguin.
- and DUNTLEY, J. D. (2005), 'The plausibility of adaptations for homicide'. In P. Carruthers, S. Laurence, and S. Stich (eds.), *The Innate Mind: Structure and Contents*. Oxford: Oxford University Press, 291-304.
- BUHLER, T., PAN, H., TUESCHER, O., ENGELIEN, A., GOLDSTEIN, M., EPSTEIN, J., WEISHOLTZ, D., ROOT, J. C., PROTOPODESCU, X., CUNNINGHAM-BUSSELL, A. C., CHANG, L., XIE, X. H., CHEN, Q., PHELPS, E. A., LEDOUX, J. E., STERN, E., and SILBERSWEIG, D. A. (2007), 'Human fear-related motor neurocircuitry', *Neuroscience*, 150: 1-7.
- BUZSAKI, G. (2006), *Rhythms of the Brain*. New York: Oxford University Press.
- BUZSAKI, G., KAILA, K., and RAICHLE, M. (2007), 'Inhibition and brain work', *Neuron*, 56: 771-83.
- BYRNE, J. H. and ROBERTS, J. L., eds. (2004), *From Molecules to Networks: An Introduction to Cellular and Molecular Neuroscience*. London: Academic Press.
- CACCIOPPO, J. T. and HAWKLEY, I. C. (2003), 'Social isolation and health, with an emphasis on underlying mechanisms', *Perspectives in Biology and Medicine*, 46: S39-52.

- CAMERON, O. G. (2001), 'Interception: the inside story—a model for psychosomatic processes', *Psychosomatic Medicine*, 63: 697–710.
- CAMPBELL, H. L., TIVARIS, M. E., HILLIER, A., and BEVERSDORF, D. Q. (2008), 'Increased task difficulty results in greater impact of noradrenergic modulation of cognitive flexibility', *Pharmacology Biochemistry and Behavior*, 88: 222–9.
- CARD, C. (2002), *The Atrocity Paradigm: A Theory of Evil*. Oxford: Oxford University Press.
- CASE, T. I., REPACCIOLI, B. M., and STEVENSON, R. J. (2006), 'My baby doesn't smell as bad as yours: the plasticity of disgust', *Evolution and Human Behavior*, 27: 357–65.
- CASEMENT, R. (ed. 1997), *The Amazon Journal of Roger Casement*, edited and with an Introduction by Angus Mitchell. London: Anaconda.
- (ed. 2003), *Sir Roger Casement's Heart of Darkness: The 1911 Documents; Introduction, Commentary and Footnotes* by Angus Mitchell. Dublin: Irish Manuscripts Commission.
- CASTANO, E. and GINER-SOROLLA, R. (2006), 'Not quite human: infrahumanization in response to collective responsibility for intergroup killing', *Journal of Personality and Social Psychology*, 90: 804–18.
- CASTELL, D. O., WOOD, J. D., FRIELING, T., WRIGHT, F. S., and VIETH, R. F. (1990), 'Cerebral electrical potentials evoked by balloon distention of the human esophagus', *Gastroenterology*, 98: 662–6.
- CAVAFY, C. P. (trans. 2007), *The Collected Poems*, trans. Evangelos Sachperoglou. Oxford: Oxford University Press.
- CHAMPLIN, E. (2003), *Nero*. Cambridge, Mass.: Belknap.
- CHANG, I. (1998), *The Rape of Nanking: The Forgotten Holocaust of World War II*. London: Penguin.
- CHEN, C. Y., MUGGLETON, N. G., JUAN, C. H., TZENG, O. J. L., and HUNG, D. L. (2008), 'Time pressure leads to inhibitory control deficits in impulsive violent offenders', *Behavioural Brain Research*, 187: 483–8.
- CHIHROT, D. and McCAULEY, C. (2006), *Why Not Kill Them All? The Logic and Prevention of Mass Political Murder*. Princeton: Princeton University Press.
- CHOMSKY, N. (1957), *Syntactic Structures*. The Hague: Mouton.
- CHURCHLAND, P. S. (1989), *Neurophilosophy: Toward a Unified Science of the Mind/Brain*. Cambridge, Mass.: MIT Press.
- CLORE, G. L. and HUNTSINGER, J. R. (2007), 'How emotions inform judgement and regulate thought', *Trends in Cognitive Sciences*, 11: 393–9.
- COATES, A. J. (1997), *The Ethics of War*. Manchester: Manchester University Press.
- COHEN, G. L., SHERMAN, D. K., BASTARDI, A., ISU, I., MCGOBY, M., and ROSS, L. (2007), 'Bridging the partisan divide: self-affirmation reduces ideological closed mindedness

- and inflexibility in negotiation', *Journal of Personality and Social Psychology*, 93: 415-30.
- COLLIT, C., VERNET-MAURY, B., DELHOMME, G., and DITTMAR, A. (1997), 'Autonomic nervous system response patterns specificity to basic emotions', *Journal of the Autonomic Nervous System*, 62: 45-57.
- COMISION PARA EL ESCLARACIMIENTO HISTORICO (last accessed 29 May 2008), *Guatemala: Memoria del Silencio* [Memory of Silence]. Report of the Comision para el Esclarecimiento Historico [CEH: Commission for Historical Clarification]. Located at <http://shr.aaas.org/guatemala/ceh/report/english/toc.html>.
- CONROY, J. (2001), *Unspeakable Acts, Ordinary People: The Dynamics of Torture*. London: Vision.
- COOPER, J. (2007), *Cognitive Dissonance: Fifty Years of a Classic Theory*. London: Sage.
- CORNWELL, J. (2003), *Darwin's Angel: An Angelic Riposte to 'The God Delusion'*. London: Viking.
- CORTES, B. P., DEMOULIN, S., RODRIGUEZ, R. T., RODRIGUEZ, A. P., and LEYENS, J. P. (2005), 'Infrahumanization or familiarity? Attribution of uniquely human emotions to the self, the ingroup, and the outgroup', *Personality and Social Psychology Bulletin*, 31: 243-53.
- COUPPIS, M. H. and KENNEDY, C. H. (2008), 'The rewarding effect of aggression is reduced by nucleus accumbens dopamine receptor antagonism in mice', *Psychopharmacology*, 197: 449-56.
- COX, J. J., REIMANN, F., NICHOLAS, A. K., THORNTON, G., ROBERTS, E., SPRUNGFEL, K., KARBANI, G., JAFRI, H., MANNAN, J., RAASHID, Y., AL-GAZALI, L., HAMAMY, H., VALENTE, E. M., GORMAN, S., WILLIAMS, R., MCHALE, D. P., WOOD, J. N., GRUBBLE, F. M., and WOODS, C. G. (2006), 'An SCN9A channelopathy causes congenital inability to experience pain', *Nature*, 444: 894-8.
- CROSS, P. A. and MATHESON, K. (2006), 'Understanding sadomasochism: an empirical examination of four perspectives', *Journal of Homosexuality*, 50: 133-66.
- CRUYLE, R. T. and COOPER, J. (1983), 'Dissonance arousal: physiological evidence', *Journal of Personality and Social Psychology*, 45: 782-91.
- CSIKSZENTMIHALYI, M. (2002), *Flow: The Classic Work on How to Achieve Happiness*. London: Rider.
- CUNLIFFE, B. (2006), 'The Roots of Warfare', in M. Jones and A. Fabian (eds.), *Conflict*. Cambridge: Cambridge University Press, 63-81.
- CUNNINGHAM, W. A. and ZELAZO, P. D. (2007), 'Attitudes and evaluations: a social cognitive neuroscience perspective', *Trends in Cognitive Sciences*, 11: 97-104.
- CURTIS, A. (dir.), *The Power of Nightmares*. Shown on BBC 2 (2004). Details located at <http://news.bbc.co.uk/1/hi/programmes/4202741.stm>.

- CURTIS, V., AUNGER, R., and RABIE, T. (2002), 'Evidence that disgust evolved to protect from risk of disease', *Philosophical Transactions of the Royal Society Series B: Biological Sciences*, 270: S131-3.
- DADDS, M. R., WILTING, C., and HAWES, D. J. (2006), 'Associations among cruelty to animals, family conflict, and psychopathic traits in childhood', *Journal of Interpersonal Violence*, 21: 411-29.
- DADRIAN, V. N. (1995), *The History of the Armenian Genocide: Ethnic Conflict from the Balkans to Anatolia to the Caucasus*. Oxford: Berghahn.
- DALLAIRE, R. (2004), *Shake Hands with the Devil: The Failure of Humanity in Rwanda*. London: Arrow.
- DAILY, M. and WILSON, M. (1998), *The Truth About Cinderella*. New Haven: Yale University Press.
- DAMASIO, A. (1996), *Descartes' Error: Emotion, Reason and the Human Brain*. London: Papermac.
- (2000), *The Feeling of What Happens: Body, Emotion and the Making of Consciousness*. London: Heinemann.
- (2003), *Looking for Spinoza: Joy, Sorrow and the Feeling Brain*. London: Heinemann.
- DAMASIO, A. R., GRABOWSKI, T. J., BECHARA, A., DAMASIO, H., PONTO, L. L. B., PARVIZI, J., and FICHIBA, R. D. (2006), 'Subcortical and cortical brain activity during the feeling of self-generated emotions', *Nature Neuroscience*, 3: 1049-56.
- DANNER, M. (2005), *The Massacre at El Mozote: A Parable of the Cold War*. London: Granta.
- DANZIGER, N., PREACHIN, K. M., and WILLER, J. C. (2006), 'Is pain the price of empathy? The perception of others' pain in patients with congenital insensitivity to pain', *Brain*, 129: 2494-507.
- DARBY, B. W. and JEFFERS, D. (1988), 'The effects of defendant and juror attractiveness on simulated courtroom trial decisions', *Social Behavior and Personality*, 16: 30-50.
- DARLEY, J. M. and BATSON, C. D. (1973), "'From Jerusalem to Jericho": a study of situational and dispositional variables in helping behaviour', *Journal of Personality and Social Psychology*, 17: 100-8.
- DARWIN, C. ed. (1999), *The Expression of the Emotions in Man and Animals*, ed. P. Ekman. London: HarperCollins.
- DAVEY, G. C. (1997), 'Self-reported fears to common indigenous animals in an adult UK population: the role of disgust sensitivity', *British Journal of Psychology*, 85: 541-54.
- BICKERSTAFFE, S., and MACDONALD, B. A. (2006), 'Experienced disgust causes a negative interpretation bias: a causal role for disgust in anxious psychopathology', *Behaviour Research and Therapy*, 44: 1375-84.

- DAVEY, G. C., CAVANAGH, K., and LAMB, A. (2003). 'Differential aversive outcome expectancies for high- and low-predation fear-relevant animals'. *Journal of Behavior Therapy and Experimental Psychiatry*, 34: 117-28
- FORSTER, L., and MAYHEW, G. (1993). 'Familial resemblances in disgust sensitivity and animal phobias'. *Behaviour Research and Therapy*, 31: 41-50.
- McDONALD, A. S., HIRSAVE, U., PIRAHU, G. G., IWAWAKI, S., JIM, C. I., MERCKELBACH, H., DE JONG, P. J., LEUNG, P. W., and REIMANN, B. C. (1998). 'A cross-cultural study of animal fears'. *Behaviour Research and Therapy*, 36: 735-50.
- DAWKINS, R. (1989). *The Selfish Gene*, new edn. Oxford: Oxford University Press.
- (2006). *The God Delusion*. London: Bantam Press.
- DAY, I. H. (1984). 'Death from non-war violence: an international comparison'. *Social Science and Medicine*, 19: 917-27.
- DEACON, T. W. (1997). *The Symbolic Species: The Co-evolution of Language and the Human Brain*. London: Allen Lane.
- DEBOER, S. L. and MADDOW, C. L. (2002). 'Emergency care of the crucifixion victim'. *Accident and Emergency Nursing*, 10: 235-9.
- DECLERCK, C. H., BOONE, C., and DE BRABANDER, B. (2006). 'On feeling in control: a biological theory for individual differences in control perception'. *Brain and Cognition*, 62: 143-76.
- DELEUZE, G. (trans. 1971). *Sacher-Masoch: An Interpretation*, trans. J. McNeil. London: Faber & Faber.
- DENNETT, D. C. (1989). *The Intentional Stance*, new edn. Cambridge, Mass.: MIT Press.
- (1995). *Darwin's Dangerous Idea*. New York: Simon & Schuster.
- (2003a). *Consciousness Explained*. London: Penguin.
- (2003b). *Freedom Evolves*. London: Allen Lane.
- (2006). *Breaking the Spell: Religion as a Natural Phenomenon*. London: Allen Lane.
- DESCARTES, R. (trans. 1988). *Selected Philosophical Writings*, trans. J. Cottingham, R. Stoothoff, and D. Murdoch. Cambridge: Cambridge University Press.
- DESIMONE, R. (1996). 'Neural mechanisms for visual memory and their role in attention'. *Proceedings of the National Academy of Sciences of the United States of America*, 93: 13494-9.
- DESTENO, D., DASGUPTA, N., BARTLETT, M. Y., and CAJORIC, A. (2004). 'Prejudice from thin air'. *Psychological Science*, 15: 319-24.
- DEVINE, D. J., CLAYTON, L. D., DUNFORD, B. B., SEYING, R., and PRYCE, J. (2001). 'Jury decision making: 45 years of empirical research on deliberating groups'. *Psychology, Public Policy, and Law*, 7: 622-727.

- DICKERSON, S. S. and KLEMENY, M. E. (2004). 'Acute stressors and cortisol responses: a theoretical integration and synthesis of laboratory research', *Psychological Bulletin*, 130: 355–91.
- DILILLO, D. and DAMASHEK, A. (2003). 'Parenting characteristics of women reporting a history of childhood sexual abuse', *Child Maltreatment*, 8: 319–33.
- DOUGLAS, E. M. (2006). 'Familial violence socialization in childhood and later life approval of corporal punishment: a cross-cultural perspective', *American Journal of Orthopsychiatry*, 76: 23–30.
- DOUGLAS, M. (2002). *Purity and Danger*. London: Routledge.
- DREBER, A., RAND, D. G., FUDENBERG, D., and NOWAK, M. A. (2008). 'Winners don't punish', *Nature*, 452: 348–51.
- DUGATKIN, L. A. (2006). *The Altruism Equation: Seven Scientists Search for the Origins of Goodness*. Princeton: Princeton University Press.
- DUMAS, R. and TUSTÉ, B. (2006). 'The influence of criminal facial stereotypes on juridic judgments', *Swiss Journal of Psychology*, 65: 237–44.
- DUNBAR, R. (1997). *Grooming, Gossip and the Evolution of Language*. London: Faber & Faber.
- DUNN, B. D., DALGLISH, T., and LAWRENCE, A. D. (2006). 'The somatic marker hypothesis: a critical evaluation', *Neuroscience and Biobehavioral Reviews*, 30: 239–71.
- DUBOIX, E. and JACOB, P. (2007). 'Universal moral grammar: a critical appraisal', *Trends in Cognitive Sciences*, 11: 373–8.
- DUTTON, D. G. (2007). *The Psychology of Genocide, Massacres, and Extreme Violence*. Westport, Conn.: Praeger Security International.
- EDELMAN, G. M. (1987). *Neural Darwinism: The Theory of Neuronal Group Selection*. New York: Basic Books.
- EDWARDS, C. M. (1988). 'Chemotherapy induced emesis—mechanisms and treatment: a review', *Journal of the Royal Society of Medicine*, 81: 658–62.
- EGAN, L. C., SANTOS, L. R., and BLOOM, P. (2007). 'The origins of cognitive dissonance: evidence from children and monkeys', *Psychological Science*, 18: 978–83.
- EGNER, T. and HIRSCH, J. (2005). 'Cognitive control mechanisms resolve conflict through cortical amplification of task-relevant information', *Nature Neuroscience*, 8: 1784–90.
- , ETKIN, A., GALE, S., and HIRSCH, J. (2008). 'Dissociable neural systems resolve conflict from emotional versus nonemotional distracters', *Cerebral Cortex*, 18: 1475–84.

- EICKHOFF, S. B., LOTZE, M., WITFK, B., AMUNTS, K., ENCK, P., and ZILLES, K. (2006), 'Segregation of visceral and somatosensory afferents: an fMRI and cytoarchitectonic mapping study', *NeuroImage*, 31: 1004-14.
- EKMAN, P., SORENSON, E. R., and FRIESEN, W. V. (1969), 'Pan-cultural elements in facial displays of emotion', *Science*, 164: 86-8.
- ELLIOTT, A. J. and DEVINE, P. G. (1994), 'On the motivational nature of cognitive dissonance: dissonance as psychological discomfort', *Journal of Personality and Social Psychology*, 67: 382-94.
- ELLIOTT, C. (1996). *The Rules of Insanity: Moral Responsibility and the Mentally Ill Offender*. Albany, NY: State University of New York Press
- ENGLISH, R. (2007). *Irish Freedom: The History of Nationalism in Ireland*. London: Pan.
- EPLBY, N., WAYTZ, A., and CACIOPPO, J. T. (2007), 'On seeing human: a three-factor theory of anthropomorphism', *Psychological Review*, 114: 864-86.
- ERTEM, I. O., LEVENTHAL, J. M., and DOBBS, S. (2000), 'Intergenerational continuity of child physical abuse: how good is the evidence?' *Lancet*, 356: 814-19.
- ESSELEN, M., PASCUAL-MARQUI, R. D., HELL, D., KOCHI, K., and LEHMANN, D. (2004), 'Brain areas and time course of emotional processing', *NeuroImage*, 21: 1189-1203.
- EURIPIDES (trans. 1963), 'Medea'. In *Medea and Other Plays*, trans. P. Vellacott. Harmondsworth: Penguin, 17-62.
- (trans. 1973), 'The Bacchae'. In *The Bacchae and Other Plays*, trans. P. Vellacott. Harmondsworth: Penguin, 191-244.
- FAHY, F. L., RICHES, I. P., and BROWN, M. W. (1993), 'Neuronal activity related to visual recognition memory: long-term memory and the encoding of recency and familiarity information in the primate anterior and medial inferior temporal and rhinal cortex', *Experimental Brain Research*, 96: 457-72.
- FASCHING, D. (1992), *Narrative Theology after Auschwitz: From Alienation to Ethics*. Minneapolis: Fortress Press.
- FAULKNER, J., SCHALLER, M., PARK, J. H., and DUNCAN, L. A. (2004), 'Evolved disease-avoidance mechanisms and contemporary xenophobic attitudes', *Group Processes and Intergroup Relations*, 7: 333-53.
- FEHR, E. and CACCIATER, S. (2002), 'Altruistic punishment in humans', *Nature*, 415: 137-40.
- and ROCKENBACH, B. (2004), 'Human altruism: economic, neural, and evolutionary perspectives', *Current Opinion in Neurobiology*, 14: 784-90.
- FEIN, H. (1990), 'Genocide: a sociological perspective', *Current Sociology*, 38: 1 (special issue).

- FELLEMAN, D. J. and VAN ESSEN, D. C. (1991), 'Distributed hierarchical processing in the primate cerebral cortex', *Cerebral Cortex*, 1: 1–47.
- FERGUSON, M. J., BARGH, J. A. and NAYAK, D. A. (2005), 'After-affects: how automatic evaluations influence the interpretation of subsequent, unrelated stimuli', *Journal of Experimental Social Psychology*, 41: 182–91.
- FESSLER, D. M. T. (2002), 'Reproductive immunosuppression and diet: an evolutionary perspective on pregnancy sickness and meat consumption', *Current Anthropology*, 43: 19–39.
- and HALEY, K. J. (2006), 'Guarding the perimeter: the outside–inside dichotomy in disgust and bodily experience', *Cognition and Emotion*, 20: 3–19.
- ENG, S. J., and NAVARRETE, C. D. (2005), 'Elevated disgust sensitivity in the first trimester of pregnancy: evidence supporting the compensatory prophylaxis hypothesis', *Evolution and Human Behavior*, 26: 344–51.
- FESTINGER, L. (1957). *A Theory of Cognitive Dissonance*. New York: Row, Peterson & Co.
- FINE, C. (2007). *A Mind of Its Own: How Your Brain Distorts and Deceives*. Cambridge: Icon.
- FINKELHOR, D. (1990), 'Early and long term effects of child sexual abuse: an update', *Professional Psychology: Research and Practice*, 21: 325–30.
- FISCHER, A. H. and ROSEMAN, I. J. (2007), 'Beat them or ban them: the characteristics and social functions of anger and contempt', *Journal of Personality and Social Psychology*, 93: 103–15.
- FISHBACH, A. and TROPE, Y. (2005), 'The substitutability of external control and self-control', *Journal of Experimental Social Psychology*, 41: 256–70.
- FISK, R. 'What do you say to a man whose family is buried under the rubble?' *The Independent*, 9 Aug. 2006.
- FLOJAN, V., MIKULINCFR, M., and HIRSCHBERGER, G. (2002), 'The anxiety-buffering function of close relationships: evidence that relationship commitment acts as a terror management mechanism', *Journal of Personality and Social Psychology*, 82: 527–42.
- FOGASSI, L., FERRARI, P. F., GESIERICH, B., ROZZI, S., CHERSI, F., and RIZZOLATTI, G. (2005), 'Parietal lobe: from action organization to intention understanding', *Science*, 308: 662–7.
- FOOT, P. (1978). 'The problem of abortion and the doctrine of the double effect'. In *Virtues and Vices and Other Essays in Moral Philosophy*. Oxford: Basil Blackwell, 19–32.
- FORGAS, P. (1998), 'On feeling good and getting your way: mood effects on negotiator cognition and bargaining strategies', *Journal of Personality and Social Psychology*, 74: 565–77.

- FOSTER, D. P. and YOUNG, H. P. (2001), 'On the impossibility of predicting the behavior of rational agents', *Proceedings of the National Academy of Sciences of the United States of America*, 98: 12548-53.
- FOXE, J. (ed. c. 1910), *Book of Martyrs*, ed. C. H. H. Wright; n.d. London: J. A. Kessit.
- FRANKFURTER, D. (2006), *Evil Incarnate: Rumors of Demonic Conspiracy and Satanic Abuse in History*. Princeton: Princeton University Press.
- FRICK, P. J. and DICKENS, C. (2006), 'Current perspectives on conduct disorder', *Current Psychiatry Reports*, 8: 59-72.
- FRISTON, K. (2005), 'A theory of cortical responses', *Philosophical Transactions of the Royal Society Series B: Biological Sciences*, 360: 815-36.
- FRITH, C. B., FRITH, D. W., and BARNES, E. (2004), *The Rowerbirds*. Oxford: Oxford University Press.
- FRITH, C. D. (2007), *Making up the Mind*. Oxford: Blackwell.
- and FRITH, U. (2006), 'The neural basis of mentalizing', *Neuron*, 50: 531-4.
- FROMM, E. (1975), *The Anatomy of Human Destructiveness*. Greenwich, Conn.: Fawcett.
- GAILLIOT, M. T., BAUMEISTER, R. F., DEWALL, C. N., MANER, J. K., PLANT, E. A., TICE, D. M., BREWER, L. E., and SCHMEICHEL, B. J. (2007), 'Self-control relies on glucose as a limited energy source: willpower is more than a metaphor', *Journal of Personality and Social Psychology*, 92: 325-36.
- GALLESE, V., FADIGA, L., FOGASSI, L., and RUZZOLATTI, G. (1996), 'Action recognition in the premotor cortex', *Brain*, 119: 593-609.
- GAMBITTA, D., ed. (2005), *Making Sense of Suicide Missions*. New York: Oxford University Press.
- GAUTHIER, I., SKUDLARSKI, P., GORE, J. C., and ANDERSON, A. W. (2000), 'Expertise for cats and birds recruits brain areas involved in face recognition', *Nature Neuroscience*, 3: 191-7.
- GEERTZ, C. (1973), *The Interpretation of Cultures: Selected Essays*. New York: Basic Books.
- GERGELY, G., NADASDY, Z., CSHORA, G., and BIRO, S. (1995), 'Taking the intentional stance at 12 months of age', *Cognition*, 56: 165-93.
- GERSHOF, E. T. (2002), 'Corporal punishment by parents and associated child behaviors and experiences: a meta-analytic and theoretical review', *Psychological Bulletin*, 128: 539-59.
- GESCH, C. B., HAMMOND, S. M., HAMPSON, S. E., EVES, A., and CROWDER, M. J. (2002), 'Influence of supplementary vitamins, minerals and essential fatty acids on the antisocial behaviour of young adult prisoners. Randomised, placebo-controlled trial', *British Journal of Psychiatry*, 181: 22-8.
- GEWALD, J. B. (1999), *Heroes Heroes: A Socio-political History of the Herero of Namibia, 1892-1923*. Oxford: James Currey.

- GHERMAN, A., CHEN, P. F., TESLOVICH, T. M., STANKIEWICZ, P., WITHERS, M., KASHUK, C. S., CHAKRAVARTI, A., LUPSKI, J. R., CUTLER, D. J., and KATSANIS, N. (2007), 'Population bottlenecks as a potential major shaping force of human genome architecture', *PLoS Genetics*, 3, p. e119. DOI: <http://dx.doi.org/10.1371/journal.pgen.0030119>.
- GINGES, J., ATRAM, S., MEDIN, D., and SHIKAKI, K. (2007), 'Sacred bounds on rational resolution of violent political conflict', *Proceedings of the National Academy of Sciences of the United States of America*, 104: 7357–60.
- GIRARD, R. (trans. 2005). *Violence and the Sacred*, trans. P. Gregory London: Continuum.
- GLOVER, J. (2001), *Humanity: A Moral History of the Twentieth Century*. London: Pimlico.
- GOLDBERG, Y. P., MACFARLANE, J., MACDONALD, M. L., THOMPSON, J., DUBE, M. P., MATTICE, M., FRASER, R., YOUNG, C., HOSSAIN, S., PAPE, T., PAYNE, B., RAJDOMSKI, C., DONALDSON, G., IVES, E., COX, J., YOUNGHUSBAND, H. B., GREEN, R., DUFF, A., BOLTSHAUSER, E., GRUNSPAN, G. A., DIMON, J. H., SIBLEY, B. G., ANDRIA, G., TOSCANO, E., KERDRAON, J., BOWSHER, D., PIMSTONE, S. N., SAMUELS, M. E., SHEFFINGTON, R., and HAYDEN, M. R. (2007), 'Loss-of-function mutations in the NAV1.7 gene underlie congenital indifference to pain in multiple human populations', *Clinical Genetics*, 71: 311–19.
- GOLDHAGEN, D. J. (1997), *Hitler's Willing Executioners: Ordinary Germans and the Holocaust*. London: Abacus.
- GOUREVITCH, P. (2000), *We Wish to Inform You That Tomorrow We Will Be Killed with Our Families*. London: Picador.
- DE GRAAF, J., WANN, D., and NAYLOR, T. H. (2001), *Affluenza: The All-consuming Epidemic*. San Francisco: Berrett-Koehler.
- GRAY, N. S., WATT, A., HASSAN, S., and MACCULLOCH, M. J. (2003), 'Behavioral indicators of sadistic sexual murder predict the presence of sadistic sexual fantasy in a normative sample', *Journal of Interpersonal Violence*, 18: 1018–34.
- GREEN, T. (2007), *Inquisition: The Reign of Fear*. London: Macmillan.
- GREENBERG, J., SOLOMON, S., and PRYSZCZYNSKI, T. (1997), 'Terror management theory of self esteem and cultural worldviews: empirical assessments and conceptual refinements'. In M. P. Zanna (ed.), *Advances in Experimental Social Psychology: Volume 29*. New York: Academic Press, 61–139.
- GREENE, J. D., NYSTROM, L. E., ENGELL, A. D., DARLEY, J. M., and COHEN, J. D. (2004), 'The neural bases of cognitive conflict and control in moral judgment', *Neuron*, 44: 389–400.
- GREENE, J. D., SOMMERVILLE, R.B., NYSTROM, L.E., DARLEY, J.M., and COHEN, J.D. (2001), 'An fMRI investigation of emotional engagement in moral judgment', *Science*, 293: 2105–6.

- GREGORY, L. J., YAGUFZ, L., WILLIAMS, S. C., ALTMANN, C., COEN, S. J., NG, V., BRAMMER, M. J., THOMPSON, D. G., and AZIZ, Q. (2003), 'Cognitive modulation of the cerebral processing of human oesophageal sensation using functional magnetic resonance imaging', *Gut*, 52: 1671-7.
- GROSS, J. T. (2003), *Neighbors: The Destruction of the Jewish Community in Jedwabne, Poland*. Princeton: Princeton University Press.
- GU, X. and HAN, S. (2007), 'Attention and reality constraints on the neural processes of empathy for pain', *NeuroImage*, 36: 256-67.
- HACKER, P. M. S. and BENNETT, M. R. (2003), *Philosophical Foundations of Neuroscience*. Oxford: Blackwell.
- HAIDT, J. (2007), 'The new synthesis in moral psychology', *Science*, 316: 998-1002.
- McCauley, C., and Rozin, P. (1994), 'Individual differences in sensitivity to disgust: a scale sampling seven domains of disgust elicitors', *Personality and Individual Differences*, 16: 701-13.
- Rozin, P., McCauley, C., and Imada, S. (1997), 'Body, psyche and culture: the relationship between disgust and morality', *Psychology and Developing Societies*, 9: 107-31.
- HAJCAK, G. and FOTI, D. (2008), 'Errors are aversive: defensive motivation and the error-related negativity', *Psychological Science*, 19: 103-8.
- HAMILTON, W. D. (1964), 'The genetical evolution of social behavior, I and II', *Theoretical Biology*, 7: 1-52.
- HARDENBURG, W. V. (1912), *The Putumayo: The Devil's Paradise*. London: T. Fisher Unwin.
- HARR, R. D. (1999), *Without Conscience: The Disturbing World of the Psychopaths among Us*. London: Guilford Press.
- HARRIS, L. T. and FISKE, S. T. (2006), 'Dehumanizing the lowest of the low: neuroimaging responses to extreme out-groups', *Psychological Science*, 17: 847-53.
- HARRIS, S., SHETH, S. A., and COHEN, M. S. (2008), 'Functional neuroimaging of belief, disbelief, and uncertainty', *Annals of Neurology*, 63: 141-7.
- HARRIS, T. (1999), *Hannibal*. London: Heinemann.
- HASLINGER, B., ERHARD, P., ALTENMULLER, E., SCHROEDER, U., BOECKER, H., and CEBALLOS-BAUMANN, A. O. (2005), 'Transmodal sensorimotor networks during action observation in professional pianists', *Journal of Cognitive Neuroscience*, 17: 282-93.
- HASSIN, R. R., FERGUSON, M. J., SHEDLOVSKI, D., and GROSS, T. (2007), 'Subliminal exposure to national flags affects political thought and behavior', *Proceedings of the National Academy of Sciences of the United States of America*, 104: 19757-61.

- HAYZELD, J. (trans. 2005). *A Time for Machetes: The Rwandan Genocide. The Killers Speak*, trans. L. Coverdale. London: Serpent's Tail.
- LAUFERT, C., TRAUJSEN, A., BRANDT, H., NOWAK, M. A., and SIGMUND, K. (2007). 'Via freedom to coercion: the emergence of costly punishment', *Science*, 316: 1905-7.
- HAUSER, M. (2006). *Moral Minds: How Nature Designed Our Universal Sense of Right and Wrong*. New York: HarperCollins.
- HAUSEFATHER, G. and HRDY, S. B. (1984). *Infanticide: Comparative and Evolutionary Perspectives*. New York: Aldine.
- HEBRLEIN, A. S. and ADOLPHS, R. (2004). 'Impaired spontaneous anthropomorphizing despite intact perception and social knowledge', *Proceedings of the National Academy of Sciences of the United States of America*, 101: 7487-91.
- HEEKEREN, H. R., WARYENBURGER, I., SCHMIDT, H., PREHN, K., SCHWINTOWSKI, H. P., and VILLKINGER, A. (2005). 'Influence of bodily harm on neural correlates of semantic and moral decision-making', *NeuroImage*, 24: 887-97.
- HEIDER, F. and SIMMEL, M. (1944). 'An experimental study of apparent behavior', *American Journal of Psychology*, 57: 243-59.
- HENNENLOTTER, A. and SCHROEDER, U. (2006). 'Partly dissociable neural substrates for recognizing basic emotions: a critical review', *Progress in Brain Research*, 156: 443-56.
- HENRICH, J. and BOYD, R. (2002). 'On modeling cognition and culture: why cultural evolution does not require replication of representations', *Journal of Cognition and Culture*, 2: 87-112.
- HENSELEY, C. and TALLICHET, S. E. (2005a). 'Animal cruelty motivations: assessing demographic and situational influences', *Journal of Interpersonal Violence*, 20: 1429-43.
- (2005b). 'Learning to be cruel?: exploring the onset and frequency of animal cruelty', *International Journal of Offender Therapy and Comparative Criminology*, 49: 37-47.
- (2008). 'The effect of inmates' self-reported childhood and adolescent animal cruelty: motivations on the number of convictions for adult violent interpersonal crimes', *International Journal of Offender Therapy and Comparative Criminology*, 52: 175-84.
- HERSH, S. M. (1972). *Cover-up: The Army's Secret Investigation of the Massacre at My Lai 4*. New York: Random House.
- HERTEL, B. R. and DONAHUE, M. J. (1995). 'Parental influences on God images among children: testing Durkheim's metaphoric parallelism', *Journal for the Scientific Study of Religion*, 34: 186-99.

- HILBERG, R. (1985). *The Destruction of the European Jews*, student edn. New York: Holmes & Meier.
- HILLENBRAND, U. and VAN HEMMEN, J. I. (2002). 'Adaptation in the corticothalamic loop: computational prospects of tuning the senses', *Philosophical Transactions of the Royal Society Series B: Biological Sciences*, 357: 1859–67.
- HIMMLER, H. (last accessed 29 May 2008). *Poznan speech*. Located at [http://www.holocaust-history.org/himmler-poznan/speech\\_text.shtml](http://www.holocaust-history.org/himmler-poznan/speech_text.shtml).
- HINTON, A. L., ed. (2002). *Annihilating Difference: The Anthropology of Genocide*. Berkeley: University of California Press.
- (2004). *Why Did They Kill? Cambodia in the Shadow of Genocide*. Berkeley: University of California Press.
- Hippocrates (trans. 1923). 'Epidemics I'. In *Hippocrates I*, trans. W. H. S. Jones. Cambridge, Mass.: Harvard University Press, 130–288.
- HITLER, A. (trans. 1969). *Mein Kampf*, trans. R. Manheim. London: Hutchinson.
- HOBBS, T., ed. (1996). *Leviathan*, ed. R. Tuck. Cambridge: Cambridge University Press.
- HOCHSCHILD, A. (1999). *King Leopold's Ghost: A Story of Greed, Terror and Heroism in the Congo*. London: Macmillan.
- HONSON, G. and COSTELLO, K. (2007). 'Interpersonal disgust, ideological orientations, and dehumanization as predictors of intergroup attitudes'. *Psychological Science*, 18: 691–8.
- HOLLEY, J. W. (1977). 'Tenure and research productivity'. *Research in Higher Education*, 6: 181–92.
- HOLY, T. E. (2007). 'A public confession: the retina trumpets its failed predictions'. *Neuron*, 55: 831–2.
- HOMER (trans. 1999). *The Iliad; The Odyssey*, ed. E. Vieu and R. Fagles. London: Penguin.
- VAN HONK, J. and SCHUTTER, D. J. (2007). 'Testosterone reduces conscious detection of signals serving social correction: implications for antisocial behavior'. *Psychological Science*, 18: 663–7.
- HORNBY, P. J. (2001). 'Central neurocircuitry associated with emesis'. *American Journal of Medicine*, 111: S106–12.
- HOWARD, M., ANDREPOULOS, G. J., and SHULMAN, M. R., eds. (1994). *The Laws of War: Constraints on Warfare in the Western World*. New Haven: Yale University Press.
- HUGHES, T. (1997). *Tales from Ovid*. London: Faber & Faber.
- HUME, D. (1975). *Enquiries Concerning Human Understanding and Concerning the Principles of Morals*, ed. L. A. Selby-Bigge and P. H. Niddich. Oxford: Oxford University

Press.

HYMAN, S. E., MALENKA, R. C., and NESTLER, E. J. (2006), 'Neural mechanisms of addiction: the role of reward-related learning and memory', *Annual Review of Neuroscience*, 29: 565–98.

IBARGUENGOITIA, J. (trans. 1983), *The Dead Girls*, trans. A. Zatz. London: Chatto & Windus.

JAMES, O. (2007), *Affluenza: How to be Successful and Stay Sane*. London: Vermillion.

JANIS, I. L. (1982), *Groupthink: Psychological Studies of Policy Decisions and Fiascos*, 2<sup>nd</sup> edn. Boston: Houghton Mifflin.

JEANNEROD, M. and FRAX, V. (1999), 'Mental imaging of motor activity in humans', *Current Opinion in Neurobiology*, 9: 735–9.

JENKINS, A. C., MACRAE, C. N., and MITCHELL, J. P. (2008), 'Repetition suppression of ventromedial prefrontal activity during judgments of self and others', *Proceedings of the National Academy of Sciences of the United States of America*, 105: 4507–12.

JOHNSTONE, R. A. and BSHART, R. (2007), 'Indirect reciprocity in asymmetric interactions: when apparent altruism facilitates profitable exploitation', *Philosophical Transactions of the Royal Society Series B: Biological Sciences*, 274: 3175–81.

JONAS, E., GRAUFMANN, V., and FREY, D. (2006), 'The influence of mood on the search for supporting versus conflicting information: dissonance reduction as a means of mood regulation?' *Personality and Social Psychology Bulletin*, 32: 3–15.

JONAS, K. J. and SASSENBERG, K. (2006), 'Knowing how to react: automatic response priming from social categories', *Journal of Personality and Social Psychology*, 90: 709–21.

JONES, D. (2007), 'Moral psychology: the depths of disgust', *Nature*, 447: 768–71.

JONES, L. M., FONTANINI, A., SADACCA, B. F., MILLER, P., and KATZ, D. B. (2007), 'Natural stimuli evoke dynamic sequences of states in sensory cortical ensembles', *Proceedings of the National Academy of Sciences of the United States of America*, 104: 18772–7.

JONES, M. and FABIAN, A., eds. (2006), *Conflict*. Cambridge: Cambridge University Press.

JOURDAIN, P., BERGERSEN, J. H., BILAUKAURALLY, K., BEZZI, P., SANTELLO, M., DOMERCO, M., MATUTE, C., TUNELLO, P., GUNDERSEN, V., and VOLTERRA, A. (2007), 'Glutamate exocytosis from astrocytes controls synaptic strength', *Nature Neuroscience*, 10: 331–9.

KASSIMERIS, G., ed. (2006), *The Barbarisation of Warfare*. London: Hurst.

KAUER, J. A. and MALENKA, R. C. (2007), 'Synaptic plasticity and addiction', *Nature Reviews Neuroscience*, 8: 844–58.

KERLEY, L. H. (1996), *War Before Civilization*. Oxford: Oxford University Press.

KERES, J. (1996), 'Cruelty and liberalism', *Ethics*, 106: 814–44.

- KELEMEN, D. (2003), 'British and American children's preferences for teleo-functional explanations of the natural world', *Cognition*, 88: 201–21.
- KELLY, C., GRINBAND, J., and HIRSCH, J. (2007), 'Repeated exposure to media violence is associated with diminished response in an inhibitory frontolimbic network', *PLoS ONE*, 2, p. e1268. DOI: <http://dx.doi.org/10.1371/journal.pone.0001268>.
- KELLY, D. J., QUINN, P. C., SLATER, A. M., LEE, K., GE, L., and PASCALIS, O. (2007), 'The other-race effect develops during infancy: evidence of perceptual narrowing', *Psychological Science*, 18: 1084–9.
- KINSEY, A. C., POMEROY, W. B., MARTIN, C. E., and GEBHARD, P. H. (1953), *Sexual Behavior in the Human Female*. Philadelphia: W. B. Saunders.
- KINZLER, K. D., DUPOUX, E., and SPELKE, E. S. (2007), 'The native language of social cognition', *Proceedings of the National Academy of Sciences of the United States of America*, 104: 12577–80.
- KIRSCH, L. G. and BECKER, J. V. (2007), 'Emotional deficits in psychopathy and sexual sadism: implications for violent and sadistic behavior', *Clinical Psychology Review*, 27: 904–22.
- KISSLER, J., HERBERT, C., PEYK, P., and JUNGHOFFER, M. (2007), 'Buzzwords: early cortical responses to emotional words during reading', *Psychological Science*, 18: 475–80.
- KLEE, E., DRESSEN, W., and RIESS, V., eds. (1991), *The Good Old Days: The Holocaust as Seen by its Perpetrators and Bystanders*. New York: Konecky & Konecky.
- KOENEN, K. C., MOFFITT, T. E., CASPI, A., TAYLOR, A., and PURCELL, S. (2003), 'Domestic violence is associated with environmental suppression of IQ in young children', *Development and Psychopathology*, 15: 297–311.
- KOLNAL, A. ed. (2004). *On Disgust*, ed. B. Smith and C. Korsmeyer. Chicago and La Salle: Open Court.
- KRAFFT-LEBING, R. (trans. 1965), *Psychopathia Sexualis*, trans. F. S. Klaf, 12<sup>th</sup> edn. London: Staples Press.
- KRAMER, U. M., JANSMA, H., TEMPELMANN, C., and MUNTE, T. F. (2007), 'Tit-for-tat: the neural basis of reactive aggression', *NeuroImage*, 38: 203–11.
- KROJAK-SALMON, P., HENAFF, M. A., ISNARD, J., TALLON-BAUDRY, C., GUENOT, M., VICHETTO, A., BERTRAND, O., and MAUGUIERE, F. (2003), 'An attention modulated response to disgust in human ventral anterior insula', *Annals of Neurology*, 53: 446–53.
- KRUEGER, R. F., MARRON, K. E., PATRICK, C. J., BENNING, S. D., and KRAMER, M. D. (2007), 'Linking antisocial behavior, substance use, and personality: an integrative quantitative model of the adult externalizing spectrum', *Journal of Abnormal Psychology*, 116: 645–66.
- KRUGLANSKI, A. W., SHAI, J. Y., PIERRO, A., and MANNETTI, L. (2002), 'When similarity breeds content: need for closure and the allure of homogeneous and self-resembling

groups', *Journal of Personality and Social Psychology*, 83: 648–62.

KRUMHUBER, E., MANSTEAD, A. S. R., COSKLER, D., MARSHALL, D., ROSIN, P. L., and KAPPAS, A. (2007), 'Facial dynamics as indicators of trustworthiness and cooperative behavior', *Emotion*, 7: 730–5.

KUNIECKI, M., URBANIK, A., SOBIUCKA, B., KOZUB, J., and BINDER, M. (2003), 'Central control of heart rate changes during visual affective processing as revealed by fMRI', *Acta Neurobiologicae Experimentalis (Warszawa)*, 63: 39–48.

KURSI-SWANGER, K. and PETCOSKY, J. L. (2003), *Violence in the Home: Multidisciplinary Perspectives*. New York: Oxford University Press.

KYRAGA, K., GHUMAN, A. S., and BAR, M. (2007), 'Top-down predictions in the cognitive brain', *Brain and Cognition*, 65: 145–68.

LACAPRA, D. (1997), 'Lanzmann's Shohet: here there is no why', *Critical Inquiry*, 23: 231–69.

LANDIS, B. N., LEUCHTER, I., SAN MILLAN RUIZ, D., LACROIX, J. S., and LANDIS, T. (2006), 'Transient hemiparesis in cerebrovascular lateral pontine lesions', *Journal of Neurology, Neurosurgery and Psychiatry*, 77: 680–3.

LANGER, J. L. (1999), *Preempting the Holocaust*. New Haven: Yale University Press.

LAQUEUR, W. (2004), *Voices of Terror: Manifestos, Writings and Manuals of Al Qaeda, Hamas, and Other Terrorists from Around the World and Throughout the Ages*. New York: Reed Press.

LEDoux, J. (1998), *The Emotional Brain: The Mysterious Underpinnings of Emotional Life*. London: Weidenfeld & Nicolson.

LEE, D. K., ITTI, L., KOCH, C., and BRAUN, J. (1999), 'Attention activates winner-take-all competition among visual filters', *Nature Neuroscience*, 2: 375–81.

LEKNEF, S. and TRACEY, I. (2008), 'A common neurobiology for pain and pleasure', *Nature Reviews Neuroscience*, 9: 314–20.

LESLIE, K. R., JOHNSON-FREY, S. H., and GRAFTON, S. T. (2004), 'Functional imaging of face and hand imitation: towards a motor theory of empathy', *NeuroImage*, 21: 601–7.

LEVENSON, R. W., ERMAN, P., and FRIESEN, W. V. (1990), 'Voluntary facial action generates emotion-specific autonomic nervous system activity', *Psychophysiology*, 27: 363–84.

LIHET, B., FREEMAN, A., and SUTHERLAND, K., eds. (1999), *The Volitional Brain: Towards a Neuroscience of Free Will*. Thorverton: Imprint Academic.

LIEBERMAN, D., TOOBY, J., and COSMIDES, L. (2007), 'The architecture of human kin detection', *Nature*, 445: 727–31.

LIEBERMAN, M. D., EISENBERGER, N. I., CROCKFETT, M. J., TOM, S. M., PELLIER, J. H., and WAY, B. M. (2007), 'Putting feelings into words: affect labeling disrupts amygdala

activity in response to affective stimuli', *Psychological Science*, 18: 421-8.

LIFTON, R. J. (2000), *The Nazi Doctors: Medical Killing and the Psychology of Genocide*. New York: Basic Books.

LINDSAY, J. J. and ANDERSON, C. A. (2000), 'From antecedent conditions to violent actions: a general affective aggression model', *Personality and Social Psychology Bulletin*, 26: 533-47.

LINSER, K. and GOSCHKE, T. (2007), 'Unconscious modulation of the conscious experience of voluntary control', *Cognition*, 104: 459-75.

LOCHNER, L. P. (1943), *What About Germany?* London: Hodder & Stoughton.

LOZA, W. (2007), 'The psychology of extremism and terrorism: a Middle-Eastern perspective', *Aggression and Violent Behavior*, 12: 141-55.

LUO, Q., HOLROYD, T., JONES, M., HENDLER, T., and BLAIR, J. (2007), 'Neural dynamics for facial threat processing as revealed by gamma band synchronization using MEG', *NeuroImage*, 34: 839-47.

LYNCH, G., REX, C. S., and GALL, C. M. (2007), 'LTP consolidation: substrates, explanatory power, and functional significance', *Neuropharmacology*, 52: 12-23.

MCARTHUR, B. (2006), *Surviving the Sword: Prisoners of the Japanese, 1942-45*. London: Abacus.

MCCALL, G. S. and SHIELDS, N. (2008), 'Examining the evidence from small-scale societies and early prehistory and implications for modern theories of aggression and violence', *Aggression and Violent Behavior*, 13: 1-9.

MACHIAVELLI, N. (trans. 1961), *The Prince*, trans. G. Bull. Harmondsworth: Penguin.

MACKAY, C. (ed. 1973), *Selections from 'Extraordinary Popular Delusions and the Madness of Crowds'*. London: Unwin.

McKELVIE, S. J. and COLEY, J. (1993), 'Effects of crime seriousness and offender facial attractiveness on recommended treatment', *Social Behavior and Personality*, 21: 265-77.

MAJDANDZIC, J., GROL, M. J., VAN SCHIE, H. T., VERHAEGEN, L., TONI, I., and BEKKERING, H. (2007), 'The role of immediate and final goals in action planning: an fMRI study', *NeuroImage*, 37: 589-98.

MALCOLM, N. (1996), *Bosnia: A Short History*. London: Papermac.

— (1998), *Kosovo: A Short History*. London: Macmillan.

MALLE, B. F. (2006), 'The actor-observer asymmetry in attribution: a (surprising) meta-analysis', *Psychological Bulletin*, 132: 895-919.

MANER, J. K., KENRICK, D. T., BECKER, D. V., ROBERTSON, T. E., HOFFER, B., NEUBERG, S. L., DELTON, A. W., BUINER, J., and SCHALLER, M. (2005), 'Functional projection: how fundamental social motives can bias interpersonal perception', *Journal of Personality and Social Psychology*, 88: 63-78.

- MARSHALL, W. L. and KENNEDY, P. (2003). 'Sexual sadism in sexual offenders: an elusive diagnosis', *Aggression and Violent Behavior*, 8: 1-22.
- MARTENS, A., KOSLOFF, S., GREENBERG, J., LANDAU, M. J., and SCHMADEI, T. (2007). 'Killing begets killing: evidence from a bug-killing paradigm that initial killing fuels subsequent killing', *Personality and Social Psychology Bulletin*, 33: 1251-64.
- MARUYA, K., YANG, E., and BLAKE, R. (2007). 'Voluntary action influences visual competition', *Psychological Science*, 18: 1090-8.
- MASSEY, P. V. and BASHIR, Z. I. (2007). 'Long term depression: multiple forms and implications for brain function', *Trends in Neurosciences*, 30: 176-84.
- MAXWELL, J. S. and DAVINSON, R. J. (2007). 'Emotion as motion: asymmetries in approach and avoidant actions', *Psychological Science*, 18: 1113-19.
- MAY, A. (2007). 'Neuroimaging: visualising the brain in pain', *Neurological Sciences*, 28: S101-7.
- MEYERSON, R. (1992), *Revolution and Genocide: On the Origins of the Armenian Genocide and the Holocaust*. Chicago: University of Chicago Press.
- MERTUS, J. A. (1999), *Kosovo: How Myths and Truths Started a War*. Berkeley: University of California Press
- MERZ-PEREZ, L. and HEIDE, K. M. (2003), *Animal Cruelty: Pathway to Violence against People*. Lanham, Md.: Altamura Press.
- METCALFE, J. and GREENE, M. J. (2007). 'Metacognition of agency', *Journal of Experimental Psychology: General*, 136: 184-99.
- MIKHAIL, J. (2007). 'Universal moral grammar: theory, evidence and the future', *Trends in Cognitive Sciences*, 11: 143-52.
- MIKKELSON, B. and MIKKELSON, D. P. (last accessed 29 May 2008), *The Twinkie Defense*. Located at <http://www.snopes.com/legal/twinkie.asp>.
- MILGRAM, S. (1963). 'Behavioral study of obedience', *Journal of Abnormal and Social Psychology*, 67: 371-8.
- (1997). *Obedience to Authority*. London: Pinter & Martin.
- MILLER, J. (1990). 'Carnivals of atrocity: Foucault, Nietzsche, cruelty', *Political Theory*, 18: 470-91.
- MILLER, S. B. (2004), *Disgust: The Gatekeeper Emotion*. Hillsdale, Nj. Analytic Press.
- MILLER, W. I. (1997), *The Anatomy of Disgust*. Cambridge, Mass.: Harvard University Press.
- MIYATA, M. (2007). 'Distinct properties of corticothalamic and primary sensory synapses to thalamic neurons', *Neuroscience Research*, 59: 377-82.
- MONK, R. (1999), *Ludwig Wittgenstein: The Duty of Genius*. London: Cape.

- MOORE, R. J. (1987). *The Formation of a Persecuting Society: Power and Deviance in Western Europe, 950–1250*. Oxford: Blackwell.
- MORCENATHAU, H. (ed. 2000). *Ambassador Mergenthau's Story*. Reading: Taderon Press, by arrangement with the Gomidas Institute.
- MORRISON, I. and DOWNING, P. E. (2007). 'Organization of felt and seen pain responses in anterior cingulate cortex', *NeuroImage*, 37: 642–51.
- MURIS, P., MAYER, B., HUIJING, J., and KONINGS, T. (2008). 'A dirty animal is a scary animal: Effects of disgust-related information on fear beliefs in children', *Behaviour Research and Therapy*, 46: 263–9.
- NAGEL, T. (1972). 'War and massacre', *Philosophy and Public Affairs*, 1: 123–44.
- NAGENGAST, C. (2002). 'Inoculation of evil in the U.S.–Mexican border region: reflections on the genocidal potential of symbolic violence', in A. L. Hinton (ed.), *Annihilating Difference: The Anthropology of Genocide*. Berkeley: University of California Press, 325–47.
- NAIDICH, T. P., KANG, E., FATTERPEKAR, G. M., DILMAN, B. N., GULTEKIN, S. H., WOLFE, D., ORTIZ, O., YOUSRY, I., WEISMANN, M., and YOUSRY, T. A. (2004). 'The insula: anatomic study and MR imaging display at 1.5 T', *American Journal of Neuroradiology*, 25: 222–32.
- NAVARETE, C. D. and FESSLER, D. M. T. (2006). 'Disease avoidance and ethnocentrism: the effects of disease vulnerability and disgust sensitivity on intergroup attitudes', *Evolution and Human Behavior*, 27: 270–82.
- NELL, V. (2006). 'Cruelty's rewards: the gratifications of perpetrators and spectators', *Behavioral and Brain Sciences*, 29: 211–24. discussion, pp. 224–57.
- NEW, J., COSMIDES, L., and TOORJ, J. (2007). 'Category-specific attention for animals reflects ancestral priorities, not expertise', *Proceedings of the National Academy of Sciences of the United States of America*, 104: 16598–603.
- NEWMAN, L. S. and ERBER, R., eds. (2002). *Understanding Genocide: The Social Psychology of the Holocaust*. Oxford: Oxford University Press.
- NG-MAK, D. S., SALZINGER, S., FELDMAN, R. S., and STUEVE, C. A. (2004). 'Pathologic adaptation to community violence among inner-city youth', *American Journal of Orthopsychiatry*, 74: 196–208.
- NICHTOLAS, S., KERSHAW, C., and WALKER, A., eds. (2007). *Crime in England and Wales 2006/07*. London: Research, Development and Statistics Directorate.
- NIETZSCHE, F. W. (trans. 1968). *The Anti-Christ*. In *Twilight of the Idols and The Anti-Christ*, trans. R. J. Hollingdale. Harmondsworth: Penguin.
- (trans. 1973). *Beyond Good and Evil*, trans. R. J. Hollingdale. Harmondsworth: Penguin.

- NISBETT, R. E. and COHEN, D. (1996). *Culture of Honor: The Psychology of Violence in the South*. Boulder, Colo.: Westview.
- NORDGREN, L. F., VAN DER PLIGT, J., and VAN HAAREVELD, F. (2007). 'Evaluating Eve: visceral states influence the evaluation of impulsive behavior'. *Journal of Personality and Social Psychology*, 93: 75-84.
- NULAND, S. B. (1994). *How We Die*. London: Chatto & Windus.
- NUSSBAUM, S., TROPE, Y., and LIBERMAN, N. (2003). 'Creeping dispositionism: the temporal dynamics of behaviour prediction'. *Journal of Personality and Social Psychology*, 84: 485-97.
- OFFER, A. (2006). *The Challenge of Affluence: Self-control and Well-being in the United States and Britain since 1950*. Oxford: Oxford University Press.
- OHMAN, A., CARLSSON, K., LUNDQVIST, D., and INGVAR, M. (2007). 'On the unconscious subcortical origin of human fear'. *Physiology and Behavior*, 92: 180-5.
- OVERY, R. (2001). *Interrogations: The Nazi Elite in Allied Hands, 1945*. London: Allen Lane.
- PAPAPRAGOU, A., CASSIDY, K., and GLEITMAN, L. (2007). 'When we think about thinking: the acquisition of belief verbs'. *Cognition*, 105: 125-65.
- PARK, J. H., FAULKNER, J., and SCHALLER, M. (2003). 'Evolved disease-avoidance processes and contemporary anti-social behavior: prejudicial attitudes and avoidance of people with physical disabilities'. *Journal of Nonverbal Behavior*, 27: 65-87.
- PARKER, R. (1953). *Miasma*. Oxford: Clarendon Press.
- PAVLOV, I. P. (trans. 1941). *Lectures on Conditioned Reflexes*. Volume 2. *Conditioned Reflexes and Psychiatry*, trans. W. H. Gantt. London: Lawrence & Wishart.
- PEPER, M. (2006). 'Imaging emotional brain functions: conceptual and methodological issues'. *Journal of Physiology (Paris)*, 99: 293-307.
- PETMAN, P. M., HARGREAVES, I. S., EDWARDS, J. D., HENRY, L. C., and GOODYEAR, B. G. (2007). 'The neural consequences of semantic richness: when more comes to mind, less activation is observed'. *Psychological Science*, 18: 401-6.
- PEURTSCHELLER, G., NEUPER, C., RAMOSER, H., and MULLER-GERKING, J. (1999). 'Visually guided motor imagery activates sensorimotor areas in humans'. *Neuroscience Letters*, 269: 153-6.
- PHILLIPS, M. L., SENIOR, C., FAHY, T., and DAVID, A. S. (1998). 'Disgust -the forgotten emotion of psychiatry'. *British Journal of Psychiatry*, 172: 373-5.
- PHILLIPS, M. L., WILLIAMS, L. M., HEINING, M., HERBA, C. M., RUSSELL, T., ANDREW, C., BULLMORE, E. T., BRAMMER, M. J., WILLIAMS, S. C., MORGAN, M., YOUNG, A. W., and GRAY, J. A. (2004). 'Differential neural responses to overt and covert presentations of facial expressions of fear and disgust'. *NeuroImage*, 21: 1484-96.

- PIERRO, A., MANNETTI, L., DE GRADA, E., LIVI, S., and KRUGLANSKI, A. W. (2002), 'Autocracy bias in informal groups under need for closure', *Personality and Social Psychology Bulletin*, 29: 405-17.
- PINCUS, J. H. (2001), *Base Instincts: What Makes Killers Kill?* New York: W. W. Norton.
- PLAKS, J. E., GRANT, H., and DWECK, C. S. (2005), 'Violations of implicit theories and the sense of prediction and control: implications for motivated person perception', *Journal of Personality and Social Psychology*, 88: 243-62.
- PLATEK, S. M., KRILL, A. L., and KEMP, S. M. (2008), 'The neural basis of facial resemblance', *Neuroscience Letters*, 437: 76-81.
- PORTER, S., WOODWORTH, M., EARLE, J., DRUGGE, J., and BOER, D. (2003), 'Characteristics of sexual homicides committed by psychopathic and nonpsychopathic offenders', *Law and Human Behavior*, 27: 459-70.
- POWER, S. (2003), *'A Problem from Hell': America and the Age of Genocide*. London: Flamingo.
- PRESTON, R. (1994), *The Hot Zone*. London: Doubleday.
- PRUNIER, G. (1995), *The Rwanda Crisis*. New York: Columbia University Press.
- PUGIL, M. (2006), *'Hunrah for the Blackshirts!': Fascists and Fascism in Britain Between the Wars*. London: Pimlico.
- RAAFLAUB, K. A., OBER, J., and WALLACE, R. W., eds. (2007), *Origins of Democracy in Ancient Greece*. Berkeley: University of California Press.
- RAYMOND, C. R. (2007), 'LTP forms 1, 2 and 3: different mechanisms for the "long" in long-term potentiation', *Trends in Neurosciences*, 30: 167-75.
- REES, I. (2005), *Auschwitz: The Nazis and the Final Solution*. London: BBC Books.
- REJALI, D. (2008), *Torture and Democracy*. Princeton: Princeton University Press.
- RESTORATIVE JUSTICE CONSORTIUM (last accessed 29 May 2008), *Restorative Justice Consortium*. Located at <http://www.restorativejustice.org.uk>.
- RHODES, R. (1988), *The Making of the Atomic Bomb*. Harmondsworth: Penguin.
- (2003), *Masters of Death: The SS-Einsatzgruppen and the Invention of the Holocaust*. New York: Vintage.
- RICHARDSON, D. S. and HAMMOCK, G. S. (2007), 'Social context of human aggression: are we paying too much attention to gender?', *Aggression and Violent Behavior*, 12: 417-26.
- RITZ, T., THONS, M., FAHRBRUNNIG, S., and DAHME, B. (2005), 'Airways, respiration, and respiratory sinus arrhythmia during picture viewing', *Psychophysiology*, 42: 368-78.
- RIZZOLATTI, G. (2005), 'The mirror neuron system and its function in humans', *Anatomy and Embryology (Berlin)*, 210: 419-21.

- ROBINS, R. S. and POST, J. M. (1997), *Political Paranoia: The Psychopolitics of Hatred*. New Haven: Yale University Press.
- ROGERS, D. S. and EHLICH, P. R. (2008), 'Natural selection and cultural rates of change', *Proceedings of the National Academy of Sciences of the United States of America*, 105: 3416–20.
- DE ROOS, S. A., IJEDMA, J., and MILDEMA, S. (2004), 'Influence of maternal denomination, God concepts, and child-rearing practices on young children's God concepts', *Journal for the Scientific Study of Religion*, 43: 519–35.
- ROSENBAUM, A. S., ed. (2000), *Is the Holocaust Unique? Perspectives on Comparative Genocide*, 2<sup>nd</sup> edn. Boulder, Colo.: Westview Press.
- ROUSSEAU, J. J. (trans. 1973), *The Social Contract and Discourses*, trans. G. D. H. Cole. London: Dent.
- ROZIN, P. and FALLON, A. E. (1987), 'A perspective on disgust', *Psychological Review*, 94: 23–41.
- ROZIN, P., MILLMAN, L., and NEMEROFF, C. (1986), 'Operation of the laws of sympathetic magic in disgust and other domains', *Journal of Personality and Social Psychology*, 50: 703–12.
- RUMMEL, R. J. (1994), *Death by Government*. New Brunswick, NJ: Transaction.
- RUSHDIE, S. (1991), *Haroun and the Sea of Stories*. London: Granta.
- RUSSELL, B. and WHITEHEAD, A. N. (1910–13), *Principia Mathematica*. Cambridge: Cambridge University Press.
- RUTHVEN, M. (2004), *Fundamentalism: The Search for Meaning*. Oxford: Oxford University Press.
- RYLE, G. (1971a), 'Thinking and reflecting'. In *Collected Papers*. Volume 2. *Collected Essays 1929–1968*. London: Hutchinson, 465–79.
- (1971b), 'The thinking of thoughts: what is "Le Penseur" doing?' In *Collected Papers*. Volume 2. *Collected Essays 1929–1968*. London: Hutchinson, 480–96.
- SADE, D. A. F., MARQUIS DE (trans. 1989), *120 Days of Sodom*, trans. A. Wainhouse and R. Seaver. London: Arrow.
- (trans. 1991), *Justine, or Good Conduct Well Chastised*. In *Justine, Philosophy in the Bedroom and other Writings*, trans. A. Wainhouse and R. Seaver. London: Arrow, 447–743.
- SAHA, S. (2005), 'Role of the central nucleus of the amygdala in the control of blood pressure: descending pathways to medullary cardiovascular nuclei', *Clinical and Experimental Pharmacology and Physiology (Victoria)*, 32: 450–6.
- SAITO, R., TARANO, Y., and KAMIYA, H. (2003), 'Roles of Substance P and NK1 receptor in the brainstem in the development of emesis', *Journal of Pharmacological Sciences*, 91: 87–94.

- SALMINEN, M. and RAVAJA, N. (2008), 'Increased oscillatory theta activation evoked by violent digital game events', *Neuroscience Letters*, 435: 69–72.
- SAMPSON, A. (1993), *Acts of Abuse: Sex Offenders and the Criminal Justice System*. London: Routledge.
- SARJO, M., BUODO, G., POLI, S., and PALOMBA, D. (2005), 'Changes in EEG alpha power to different disgust elicitors: the specificity of mutilations', *Neuroscience Letters*, 382: 291–6.
- SCHACHER, S. and SINGER, J. E. (1962), 'Cognitive, social, and physiological determinants of emotional state', *Psychological Review*, 69: 379–99.
- SCHERER, K. R. and WALLBOTT, H. G. (1994), 'Evidence for universality and cultural variation of differential emotion response patterning', *Journal of Personality and Social Psychology*, 66: 310–28.
- SCHULTZ, W., DAYAN, P., and MONTAGUE, P. R. (1997), 'A neural substrate of prediction and reward', *Science*, 275: 1593–9.
- SEMELIN, J. (trans. 2007), *Purify and Destroy*, trans. C. Schuch. London: Hurst.
- SENFCA (trans. 2007), 'On Mercy'. In *Dialogues and Essays*, trans. J. Davie. Oxford: Oxford University Press, 188–218.
- SEQUEIRA, H., VILTART, O., BA-M'HAMED, S., AND POULAIN, P. (2000), 'Cortical control of somato-cardiovascular integration: neuroanatomical studies', *Brain Research Bulletin*, 53: 87–93.
- SEWARDS, T.V. (2004), 'Dual separate pathways for sensory and hedonic aspects of taste', *Brain Research Bulletin*, 62: 271–83.
- SILKESPFARE, W. (ed. 1997), *King Lear*, ed. R. A. Foakes. London: Arden Shakespeare.
- SHAMAY-TSOORY, S. G. and AHARON-PERETZ, J. (2007), 'Dissociable prefrontal networks for cognitive and affective theory of mind: a lesion study', *Neuropsychologia*, 45: 3054–67.
- SHAROT, T., RICCARDI, A. M., RAIQ, C. M., and PHELPS, E. A. (2007), 'Neural mechanisms mediating optimism bias', *Nature*, 450: 102–5.
- SHEMA, R., SACKTOR, T. C., and DUDAI, Y. (2007), 'Rapid erasure of long-term memory associations in the cortex by an inhibitor of PKM-zeta', *Science*, 317: 951–3.
- SHERMAN, L. W. and STRANG, H. (last accessed 29 May 2008), *Restorative Justice: The Evidence*. London: Smith Institute. Located at [http://www.esmeefairbairn.org.uk/docs/RJ\\_full\\_report.pdf](http://www.esmeefairbairn.org.uk/docs/RJ_full_report.pdf).
- SHKLER, J. N. (1984), *Ordinary Vices*. Cambridge, Mass.: Belknap.
- SIMION, F., REGOLINI, L., and BULF, H. (2008), 'A predisposition for biological motion in the newborn baby', *Proceedings of the National Academy of Sciences of the United States of America*, 105: 809–13.

- SINGER, P. (1971). 'Famine, affluence, and morality', *Philosophy and Public Affairs*, 1: 229–43.
- SINGER, T., KJEBEL, S. J., WINSTON, J. S., DOLAN, R. J., and FRITH, C. D. (2004). 'Brain responses to the acquired moral status of faces', *Neuron*, 41: 653–62.
- SEYMOUR, B., O'DOHERTY, J. P., STEPHAN, K. E., DOLAN, R. J., AND FRITH, C. D. (2006). 'Empathic neural responses are modulated by the perceived fairness of others', *Nature*, 439: 466–9.
- SLOTE, M. (1996). 'Ethics without free will', *Social Theory and Practice*, 16: 369–83.
- SORABJI, R. and RODIN, D. (2006), *The Ethics of War: Shared Problems in Different Traditions*. Aldershot: Ashgate.
- SPARROW, B. and WEGNER, D. M. (2006). 'Unpriming: the deactivation of thoughts through expression', *Journal of Personality and Social Psychology*, 91: 1009–19.
- STANTON, G. H. (last accessed 29 May 2008), *The 8 stages of genocide*. Washington, DC: Genocide Watch. Located at <http://www.genocidewatch.org/8stages.htm>.
- STARK, R., WALTER, B., SCHEINLE, A., and VAITL, D. (2005). 'Psychophysiological correlates of disgust and disgust sensitivity', *Journal of Psychophysiology*, 19: 50–60.
- STAUB, E. (2003), *The Psychology of Good and Evil: Why Children, Adults, and Groups Help and Harm Others*. New York: Cambridge University Press.
- STERN, E. R., WAGER, T. D., EGNER, T., HIRSCH, J., and MANGELS, J. A. (2007). 'Preparatory neural activity predicts performance on a conflict task', *Brain Research*, 1176: 92–102.
- STERNBERG, R. J., ed. (2005), *The Psychology of Hate*. Washington, DC: American Psychological Association.
- STENZER, P., RUSS, M. O., PREIRISCH, C., and KLEINSCHMIDT, A. (2002). 'Neural correlates of spontaneous direction reversals in ambiguous apparent visual motion', *NeuroImage*, 15: 908–16.
- STADLER, C., POUSTKA, F., and KLEINSCHMIDT, A. (2007). 'A structural neural deficit in adolescents with conduct disorder and its association with lack of empathy', *NeuroImage*, 37: 335–42.
- STETS, J. (1995). 'Job autonomy and control over one's spouse: a compensatory process', *Journal of Health and Social Behavior*, 36: 244–58.
- STEVENSON, R. J. and REPACHOLI, B. M. (2005). 'Does the source of an interpersonal odour affect disgust? A disease risk model and its alternatives', *European Journal of Social Psychology*, 35: 375–401.
- STONE, A. and VALENTINE, T. (2005). 'Orientation of attention to nonconsciously recognised famous faces', *Cognition and Emotion*, 19: 537–58.

- SUMNER, W. G. (1907). *Folkways: A Study of the Sociological Importance of Usages, Manners, Customs, Mores and Merits*. Boston: Ginn.
- SURIAN, L., CALDI, S., and SPERBER, D. (2007). 'Attribution of beliefs by 13-month-old infants', *Psychological Science*, 18: 580–6.
- TAJFEL, H., FLAMENT, C., BILLIG, M. G., and BUNDY, R. P. (1971). 'Social categorization and intergroup behaviour', *European Journal of Social Psychology*, 1: 149–78.
- TAYLOR, K. E. (2001). 'Applying continuous modelling to consciousness', *Journal of Consciousness Studies*, 8: 45–60.
- TAYLOR, K. (2004). *Brainwashing: The Science of Thought Control*. Oxford: Oxford University Press.
- (2006). 'On brainwashing'. In G. Kassimeris (ed.), *The Barbarisation of Warfare*. London: Hurst, 238–53.
- (2007). 'Disgust is a factor in extreme prejudice', *British Journal of Social Psychology*, 43: 597–617.
- TAYLOR, S. E. and GOLLWITZER, P. M. (1995). 'Effects of mindset on positive illusions', *Journal of Personality and Social Psychology*, 69: 213–26.
- THAGARD, P., KROON, F., NERR, J., SAUDRA, B., SHELLEY, C., and WAGAR, B. (2006). *Hot Thought: Mechanisms and Applications of Emotional Cognition*. Cambridge, Mass.: MIT Press.
- THIACARAJAN, T. C., LINDSKOG, M., MALCAROLI, A., and TSIEN, R. W. (2007). 'LTP and adaptation to inactivity: overlapping mechanisms and implications for metaplasticity', *Neuropharmacology*, 52: 156–75.
- TILLY, C. (2003). *The Politics of Collective Violence*. New York: Cambridge University Press.
- TORMALA, Z. L. and PETTY, R. E. (2002). 'What doesn't kill me makes me stronger: the effects of resisting persuasion on attitude certainty', *Journal of Personality and Social Psychology*, 83: 1298–1313.
- TRAFIMOW, D., BROMGARD, I. K., FINLAY, K. A., and KETELAAR, T. (2005). 'The role of affect in determining the attributional weight of immoral behaviors', *Personality and Social Psychology Bulletin*, 31: 935–48.
- TRAVAGLI, R. A. and ROGERS, R. C. (2001). 'Receptors and transmission in the brain-gut axis: potential for novel therapies: V. Fast and slow extrinsic modulation of dorsal vagal complex circuits', *American Journal of Physiology—Gastrointestinal and Liver Physiology*, 281: 595–601.
- , HERMANS, G. E., BROWNING, K. N., and ROGERS, R. C. (2003). 'Musings on the wanderer: what's new in our understanding of vago-vagal reflexes?. III. Activity-dependent plasticity in vago-vagal reflexes controlling the stomach', *American Journal of Physiology—Gastrointestinal and Liver Physiology*, 284: 180–7.

- TSE, D., LANGSTON, R. F., KANEYAMA, M., BETHUS, I., SPOONER, P. A., WOOD, E. R., WITTER, M. P., and MORRIS, R. G. M. (2007). 'Schemas and memory consolidation', *Science*, 316: 76–82.
- ULLOA, E. R. and PINEDA, J. A. (2007). 'Recognition of point-light biological motion: mu rhythms and mirror neuron activity', *Behavioural Brain Research*, 183: 188–94.
- US Department of Justice (last accessed 29 May 2008), *US Bureau of Justice Statistics: Homicide Trends in the U.S. Trends by Gender*. Located at <http://www.ojp.usdoj.gov/bjs/homicide/gender.htm>.
- VAISH, A., GROSSMANN, T., and WOODWARD, A. (2008). 'Not all emotions are created equal: the negativity bias in social-emotional development', *Psychological Bulletin*, 134: 383–403.
- VALDESOLLO, P. and DI STENO, D. (2007). 'Moral hypocrisy: social groups and the flexibility of virtue', *Psychological Science*, 18: 689–90.
- VALENTINO, B. A. (2004), *Final Solutions: Mass Killing and Genocide in the Twentieth Century*. Ithaca, NY: Cornell University Press.
- VALERIANI, M., BETTI, V., LE PERA, D., DE ARMAS, L., MILIUCCI, R., RESTUCCIA, D., AVENANTI, A., and AGLIOTI, S. M. (2008). 'Seeing the pain of others while being in pain: a laser-evoked potentials study', *NeuroImage*, 40: 1419–28.
- VALLIN, J., MESLÉ, F., ADAMETS, S., and PYROZHKOV, S. (2002). 'A new estimate of Ukrainian population losses during the crises of the 1930s and 1940s', *Population Studies*, 56: 249–64.
- VENTURA, S. J., MOSHER, W. D., CURTIN, S. C., ABMA, J. C., and HENSHAW, S. (1999). 'Highlights of trends in pregnancies and pregnancy rates by outcome: estimates for the United States, 1976–96', *National Vital Statistics Reports*, 47: 1–9. Located at [http://www.ncbi.nlm.nih.gov/entrez/query.fcgi?cmd=Retrieve&db=PubMed&dopt=Citation&list\\_uids=10635682](http://www.ncbi.nlm.nih.gov/entrez/query.fcgi?cmd=Retrieve&db=PubMed&dopt=Citation&list_uids=10635682).
- DE VIGNEMONT, F. and SINGER, T. (2006). 'The empathic brain: how, when and why?' *Trends in Cognitive Sciences*, 10: 435–41.
- VIZI, E. S. and MIKE, A. (2006). 'Nonsynaptic receptors for GABA and glutamate', *Current Topics in Medicinal Chemistry*, 6: 941–8.
- DE WAAL, F. B. M. (1996a). *Good Natured: The Origins of Right and Wrong in Humans and Other Animals*. Cambridge, Mass.: Harvard University Press.
- (1996b), *Our Inner Ape: The Best and Worst of Human Nature*. London: Granta.
- WALDMANN, M. R. and DIETTERICH, J. H. (2007). 'Throwing a bomb on a person versus throwing a person on a bomb: intervention myopia in moral intuitions', *Psychological Science*, 18: 247–53.

- WALLACE, B., CESARINI, D., LICHTENSTEIN, P., and JOHANNESSON, M. (2007). 'Heritability of ultimatum game responder behavior', *Proceedings of the National Academy of Sciences of the United States of America*, 104: 15631-4.
- WALLER, J. (2002). *Becoming Evil: How Ordinary People Commit Genocide and Mass Killing*. New York: Oxford University Press.
- WEGNER, D. M. (2002). *The Illusion of Conscious Will*. London: MIT Press.
- WEITZ, E. D. (2003). *A Century of Genocide: Utopias of Race and Nation*. Princeton: Princeton University Press.
- WHITLEY, T. and HAIDT, J. (2005). 'Hypnotic disgust makes moral judgments more severe', *Psychological Science*, 16: 780-4.
- WHITE, P. A. (2006). 'The causal asymmetry', *Psychological Review*, 113: 132-47.
- WHITLOCK, J., ECKENRODE, J., and SILVERMAN, D. (2006). 'Self-injurious behaviors in a college population', *Pediatrics*, 117: 1939-48.
- WICKER, B., KEYSERS, C., PLAILLY, J., ROYET, J.P., GALLESE, V., and RIZZOLATTI, G. (2003). 'Both of us disgusted in my insula: the common neural basis of seeing and feeling disgust', *Neuron*, 40: 655-64.
- WILKINSON, R. (2005). *The Impact of Inequality: How to Make Sick Societies Healthier*. New York: The New Press.
- WILLIAMS, E. (1967). *Beyond Belief: A Chronicle of Murder and Its Detection*. London: Hamish Hamilton.
- WILSON, T. (2002). *Strangers to Ourselves: Discovering the Adaptive Unconscious*. Cambridge, Mass.: Harvard University Press.
- WITTGENSTEIN, L. (trans. 1974). *Philosophical Investigations*, trans. G. E. M. Anscombe, 3<sup>rd</sup> edn. Oxford: Blackwell.
- (trans. 2001). *Tractatus Logico-Philosophicus*; Introduction by Bertrand Russell, trans. D. Pears and B. McGuinness. London: Routledge.
- WOLFF, R. A., BEYER, J. M., BLACKBURN, R. T., GREENHALGH, L., NAYYAR, P. R., and SETHI, A. (1996). 'Rethinking the tenure process: the influences and consequences of power and culture', *Journal of Management Inquiry*, 5: 221-36.
- WOLPERT, D. M., MIALL, R. C., and KAWATO, M. (1998). 'Internal models in the cerebellum', *Trends in Cognitive Sciences*, 2: 338-47.
- WOODWARD, T. S., BUCHY, L., MORITZ, S., and LIOTTI, M. (2007). 'A bias against disconfirmatory evidence is associated with delusion proneness in a nonclinical sample', *Schizophrenia Bulletin*, 33: 1023-8.
- WU, F. and HUBERMAN, B. A. (2007). 'Novelty and collective attention', *Proceedings of the National Academy of Sciences of the United States of America*, 104: 17599-601.

WYER, R. S., ed. (1997). *The Automaticity of Everyday Life. Advances in Social Cognition*. Volume 10. Mahwah, NJ: Lawrence Erlbaum.

WYNDHAM, J. (1960). *The Midwich Cuckoos*. Harmondsworth: Penguin.

YU, C. and SMITH, L. B. (2007). 'Rapid word learning under uncertainty via cross-situational statistics', *Psychological Science*, 18: 414-20.

ZHONG, C. B. and LILJENQUIST, K. (2006). 'Washing away your sins: threatened morality and physical cleansing', *Science* 313: 1451-2.

ZIMBARDO, P. (2007). *The Lucifer Effect: Understanding How Good People Turn Evil*. London: Rider.

د/ كاتلين تايلور Kathleen Taylor

- باحثة وكاتبة في العلوم .
- بريطانية الجنسية وتعيش في مقاطعة "Warwickshire" بإنجلترا.
- عضو هيئة تدريس في قسم الفسيولوجي والتشريح وعلم الوراثة - جامعة "أكسفورد".
- بكالوريوس في العلوم من أكسفورد (ب. ت).
- ماجستير من جامعة Stirling في الأدوية وتأثيرها في الجياز العصبى Neuropharmacology.
- دكتوراه من أكسفورد في "Computation neuroscience"

#### الأعمال المنشورة:

١- كتاب : غسيل الأدمغة (٢٠٠٤) - (ترجم إلى ٨ لغات)-

Brainwashing, Oxford Univ. Press, November, 2004

٢- القسوة (٢٠٠٩) - ترجم في مصر

Cruelty, Oxford Univ. Press, February 2009

٣- كتاب آخر بدأته عام ٢٠١٠ ولم ينته بعد.

\* كاتبة نشطة ولها لقاءات ومحاضرات وأحاديث إعلامية متعددة. ونشرت نحو عشرين بحثًا. تبنى اهتمامًا بدراسة العقل البشرى وكيف تتفاعل الجماعات داخل المجتمع. رؤيتها للحياة متشائمة: لأنها تفكر بطريقة واقعية، ولا تعتقد أن العلم يستطيع أن يجد حلولًا لمشكلات البشر، وهذا هو رأيها الذي ذكرته في موقعها على شبكة المعلومات الدولية

<http://www.Taylorsciencewriter.com>



أ.د./ فردوس عبد الحميد البهنساوى

- ليسانس من قسم اللغة الإنجليزية- كلية الآداب- جامعة القاهرة .
- ماجستير فى الأدب الأمريكى (جامعة أريزونا / وأسويط) .
- دكتوراه فى الأدب الإنجليزي (الأدب المسرحى) .
- شغلت منصب رئيس قسم اللغة الإنجليزية .
- ثم عميدة كلية الآداب بأسويط من ١٩٨٠-١٩٩٩ .
- شهادات أخرى: فى اللغويات (معهد اللغويات التطبيقية بأدنبرة) وفى تعليم الإنجليزية للأغراض الخاصة (بليموث).
- عضو اللجنة القومية المركزية للغة الإنجليزية للأغراض الخاصة ESP.
- عضو مجلس إدارة جمعية لسان العرب لرعاية اللغة العربية.
- عضو مجلس إدارة مركز تطوير تدريس اللغة الإنجليزية CDELT - جامعة عين شمس.
- أسست وأدارت مركز اللغة الإنجليزية ووحدة معامل اللغة ومركز الترجمة والبحوث اللغوية بجامعة أسويط ووضععت لائحتها الإدارية.
- عضو مجلس إدارة مركز دراسات المستقبل جامعة أسويط.
- لها مؤلفات بالإنجليزية والعربية فى الأدب المقارن - أدب المسرح- النقد الأدبى - علم الأسلوبية- علم تحليل الكلام- وأعمال وبحوث فى الترجمة.



التصحيح اللغوى : كريمان البدرى

الإشراف الفنى : محسن مصطفى



يقدم هذا الكتاب مقارنة علمية لظاهرة القسوة باعتبارها واحدة من أكبر المشكلات في المجتمعات الإنسانية. وهو محاولة لاكتشاف آلية اتخاذ القرار في عقول البشر قبل فعل القسوة وارتكاب الجرائم، وبذلك تفترض المؤلفة أننا "لو فهمنا لماذا يرتكب الناس الجرائم الفظيعة، فقد نستطيع منعها".

يطرح الكتاب أفكاراً مهمة عن دوافع أفعال القسوة ومن بينها التهديدات المختلفة، وأهمها التهديد بإنكار الحقوق، أو تغيير الثوابت الأخلاقية، أو التدمير المادي (في الحروب). لكن المؤلفة ترى أن القسوة تنشأ أساساً من فشل الإنسان "فالقسوة ادعى أن ترتبط بالفشل وليس بالحق والكرهية كما نظن"، ويذكر الكتاب شواهد كثيرة على فظائع القسوة في جرائم الاستعمار، وصراع المستعمر من أجل الموارد، وهو بالفعل ما يتعارض مع ادعاء تقدم الغرب في القرن العشرين.